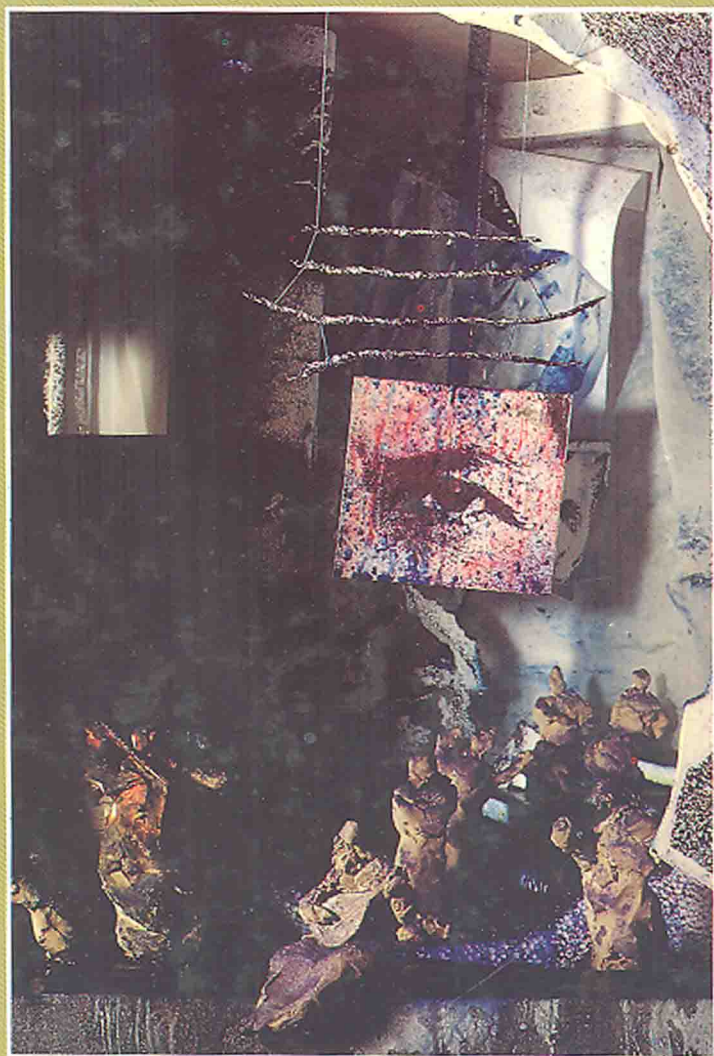


سعد الله ونوس



المجلد الثاني

الأعمال الكاملة





101

101 209



سعد الله ونوس
الأعمال الكاملة

* الأعمال الكاملة (٣ مجلدات)

* سعد الله ونوس

* الطبعة الأولى ١٩٩٦

* جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب: ٩٥٠٣ - هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩

فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ - تليكس: ٤١٢٤١٦

* التوزيع في جميع أنحاء العالم:

* الأهالي للتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب: ٩٢٢٣ - هاتف: ٢٢١٣٩٦٢

فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ - تليكس: ٤١٢٤١٦

* تصميم الغلاف: الفنان أحمد معلا

الأعمال الكاملة / سعد الله ونوس.

دمشق - الأهالي - ١٩٩٦ - مج ٢ : ٢٢٤ سم.

١ - ٨١٢ ون و أ ٢ - ٨١٢ر٠٠٩٥٦١ ون و أ

٣ - العنوان ٤ - ونوس

مكتبة الأسد

سعد الله ونوس

الأعمال الكاملة

المجلد الثاني

الأهالي

رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة

كتابة جديدة لنص بيتر فايس:
(كيف تخلص السيد موكينبوت من آلامه)

(تدلى من سقف المسرح حلقة معدنية واسعة. يمكن أن تتحرك في فضاء المسرح جيئةً وذهاباً، ويتغير توظيفها بين مشهد وآخر. في طرف قصي دكة خشبية يقف حنظلة إلى جوارها متهلّل الهيئة. حرفوش يتأرجح على الحلقة المعدنية مرحاً وعابثاً..)

حرفوش : (كالمعلمين عن ألعاب الحواة، وهو يروح ويجيء داخل الحلقة) بؤس وتعاسة.. انظروا أيها السيدات والسادة. هذا الرجل الضامر سيكون بطل السهرة. لا تشعروا بالخيبة، فقد ولى عهد الأبطال العمالقة. لكل مرحلة شخصيتها، وهذا الرجل الضامر (تزداد لهجته إعلانية) هو شخصية المرحلة.

(يقفز بحركة خفيفة من الحلقة، ويقترّب من حنظلة).

حرفوش	: الاسم.
حنظلة	: حنظلة.
حرفوش	: اسم الأب.
حنظلة	: حامد الحنظلي.
حرفوش	: اسم الأم.
حنظلة	: زنوب الصفراوي.
حرفوش	: مكان وتاريخ الولادة.
حنظلة	: الدرويشية وسنة الميلاد ضائعة.
حرفوش	: الوضع العائلي.
حنظلة	: متزوج بلا ضنى.
حرفوش	: المهنة.
حنظلة	: عدّاد فراطنة في بنك الازدهار والعمارة.
حرفوش	: الزمرة الدموية.
حنظلة	: سالبة.

- حرفوش : المبدأ.
- حنظلة : المبدأ؟
- حرفوش : ماهو مبدؤك في الحياة؟
- حنظلة : امش الحيط الحيط وقل يا ربي السترة.
- حرفوش : (متسارع اللهجة) المبدأ؟
- حنظلة : خبيئ قرشك الأبيض ليومك الأسود.
- حرفوش : المبدأ؟
- حنظلة : بينك وبين الجار سمك الجدار.
- حرفوش : المبدأ؟
- حنظلة : الطاقة التي يأتيك منها الريح سدّها واستريح..
- (أثناء الحوار السابق. يدخل ممثل فيقيد رجل حنظلة بسلسلة مثبتة بالأرض. ثم يدفع أمامه حاجزاً من القضبان هو جدار الزنزانة. مع آخر عبارة في تقديم الشخصية يضطجع حنظلة على الدكة الخشبية، ويتدثر بغطاء ممزق أشبه بالخرق. يخفت عليه الضوء. ويفرق في النوم).
- حرفوش : (وهو يرتد عنه. يقفز بخفة مواجهاً الجمهور.) بؤس وتعاسة.. هذا هو طالع صاحبنا حنظلة. يعيش الآن في محنة. وستشتد عليه المحن، وتزيد.. إنه لايعرف سبب مصائبه، ولايدرك سر محنته. إذن عليه أن يتحمل العذاب فوق العذاب، وأن يمشي طويلاً على درب الآلام. لا أحب الشماتة كما لا أحب الشفقة. أن يكون المرء أعمى هذا شيء. وأن تكون له عينان سليمتان، ولايصير فهذا شيء آخر. لكن لنبدأ القصة من أولها..
- (لهجة إعلانية) أول القصة في السجن.

في السجن

(حنظلة متمدّد على الدكة ونائم. بين حين وآخر يتنفّض زافراً أو متهدّداً. يأتي الشرطي، يفتح باب الزنزانة محدثاً ضجة معدنية صاخبة. يدخل وهو يهز هراوته).

الشرطي

: ماشاء الله.. ماشاء الله.. السيد لا يصحو قبل الضحى.. كان ينبغي أن أحضر معي فرقة الموسيقى. هيا أيتها الفأرة.. اضغط على عجيّزتك وانهض.. (مشيراً إلى قطعة الخبز اليابس وقصعة الحمساء) ألا يعجبك طعامنا! سأرش عليه قليلاً من التوابل كي يصبح أشهى. (يصرق في الصحن، يعلو النفور وجه حنظلة، ويغمض عينيه). لا تقلب سحتتك. كل المساجين يعرفون جودة توابلي. يا الله. انهض قبل أن أسحق رأسك بكعب الجزمة. (يرتعد حنظلة، ينهض مضطرباً. يرتدي سروالاً وسخاً، ضيقاً. وفوقه صديري من الجوخ القديم. في إحدى قدميه جورب، أما الثانية فعارية ومقيدة بالسلسلة المعدنية..).

حنظلة

: بحق الله لا تغضب. لم يغمض لي جفن. أمضيت الليل في عدّ الأيام. تصور.. أنا عدّاد الفراطة الذي لم يخطئ مرة، لم أستطع أن أحسب كم يوماً مرّ عليّ هنا. أقول كان ذلك يوم الجمعة. أوقفوني وقطع السيد الحارس حزامي وهو يجلدني، ثم أنتقل إلى السبت، فيختلط في رأسي أكثر من سبت. أعود إلى البداية، وأقول كان ذلك يوم الجمعة، أوقفوني.

الشرطي

: (مقاطعاً بغضب) أوقف، وإلاّ أوقفتك في دار الأموات. في هذا المكان أنفع لك أن تعد القمل في رأسك، وتترك الأيام تنسأك.

- حنظلة** : أما أن أن تشملني الرحمة. لم أرتكب أي شيء. لا جرماً ولا خطيئة. ومع هذا أوقفوني ذات صباح، ثم قادوني إلى السجن، ورموني في ظلمته.
- الشرطي** : لو لم ترتكب جرماً أو شبهة ما كنا حبسناك. في السجن لا يوجد أبرياء.
- حنظلة** : ومع هذا صدقني أيها السيد أنني بريء. كنت وما أزال رجلاً مستقيماً لا يقرب الحمرة، ويطيع كل ما تأمر به الحكومة.
- الشرطي** : ما نعرفه عنك يكذب ما تدعيه. من يدري أي مخطط كنت تنوي! انسللت عبر الشوارع الخلفية، وحين قبضنا عليك متلبساً، بدأت تنوح متظاهراً بالبراءة.
- حنظلة** : أنا! لا شك أنني ضحية خطأ رهيب. لعلهم يريدون شخصاً آخر. هذا هو الأمر. بالتأكيد كانوا يريدون شخصاً آخر. إنك لا تعرفني أيها السيد. بعد عودتي من العمل لا أغادر أبداً دفء بيتي وزوجتي. من البيت إلى العمل. ومن العمل إلى البيت. هذا هو نظامي أكان الفصل ربيعاً أم خريفاً، صيفاً أم شتاءً.
- الشرطي** : ونظامنا لا يتغير مهما تغيرت الفصول. مادمت في السجن فأنت مذنب. ومادمت مذنباً فإن القانون يقضي أن تكون في السجن. هذا هو نظامنا. شرحته لك مراراً، لكن يبدو أنك لا تفهم إلا شرح السوط.
- حنظلة** : أرجوك أيها السيد أن تساعدني.
- الشرطي** : وكيف تريد أن أساعدك.. هل أضع لك خطة للهرب، أم أتبنى جرائمك المدونة في المحاضر والسجلات؟
- حنظلة** : عندي وفر صغير وضعته في البنك من أجل المرض أو يوم الشدة. لا يعرف المرء ماذا تخشى الأيام.
- الشرطي** : احذر فأنت تضيف إلى سجلك الحافل جريمة جديدة.

- حنظلة : (خائفاً ومربكاً) ماذا فعلت؟
الشرطي : إنك تلوح بالرشوة، وتحاول إفساد موظف حكومي شريف.
حنظلة : ولكن ألم تقل لي؟ (لحظة) نعم.. أنت نفسك قلت لي.. من يفتح كيسه يجد من يعينه!
- الشرطي : أنا قلت ذلك؟
حنظلة : الكلمات مازالت ترن في أذني. منذ سمعتها وأنا أقلبها ظهراً وبطناً. كنت أمل أن تلحظني العدالة، دون التفریط بنقودي. لكن الأيام تمضي، وربما كانت العدالة مشغولة عني. لهذا قررت أن أفتح كيسي.
- الشرطي : وأخيراً جاءتك نصيحتي، لا بأس. إلا أنني أصارحك منذ البداية. إذا لم يكن الكيس ثقيلاً، فإن أحداً لا يستطيع أن يفعل لك شيئاً.
- حنظلة : هو وفر صغير جمعته بالليرة والليرتين. كان اقتطاع لحمي أسهل عليّ من تبديد قرش منه.
- الشرطي : لا أدري كم هو وفرك. لكن في مثل قضيتك ينبغي ألا يكون أقل من عشرة آلاف.
- حنظلة : (مبهوتاً) عشرة آلاف..
الشرطي : أنجد المبلغ كبيراً؟
حنظلة : (مواصلاً بهوته) هل قلت عشرة آلاف؟
الشرطي : لا تحسب أنني سأضعها في جيبي. ما أنا إلا واسطة خير. آخذها منك لأدسها في جيوب الآخرين.
- حنظلة : (ساهماً) قُتِرَ على نفسي طوال سنوات، كي أجمع وُفراً صغيراً. وعليّ الآن تبديده في لحظة. أليس الحق، أن أطلب تعويضاً عما لحق بي دون ذنب، بدلاً من أن أدفع كل ما أملك.
- الشرطي : لن يصغي إليك أحد مهما شكوت أو تذرمت. في حالتك لا

- فائدة من التردد.
- حنظلة : (يحزم) أقصى ما أستطيع أن أدفعه هو ستة آلاف.
- الشرطي : هيا أيها الجربوع.. إنهم ينتظرونك في غرفة التحقيق.
- حنظلة : (مرتاعاً) غرفة التحقيق.. أرجوك.. سأدفع سبعة آلاف.
- الشرطي : لاستنفد صبري.
- حنظلة : ماتطلبه يخرّب البيت. إنك تدمرني أيها السيد.
- الشرطي : خبيء دموعك للتحقيق. هيا.. إن وقت الحكومة ثمين.
- حنظلة : سأدفع ثمانية آلاف.. إنه كل وفري تقريباً.
- الشرطي : ثمانية.. لأدري لماذا يرقّ قلبي لك. طبعاً أنت لا تعرف العملية المعقدة التي يحتاجها الإفراج عنك. عليّ أن أبدل السجلات، وأن أجد مشبوهاً يحل مكانك. ولكي أفعل ذلك ينبغي أن ندس شيئاً في جيوب الجميع.
- (يخرج ورقة من جيبه، ويكتب الصك).
- حنظلة : ألا يمكن الإفراج عن بريء إلا إذا قبضتم على واحد آخر؟
- الشرطي : في أنظمتنا لايجوز أن تكون في السجن أماكن شاغرة. شعارنا اعتقل الشبهة ولا تواجه فتنة. يا الله.. وقّع هنا، وإياك أن تلعب معي لعبة فيها التواء.
- حنظلة : (وهو يوقع) عمري ماعرفت الدروب الملتوية، ولا سرت عليها.
- الشرطي : (وهو يخرج) طيب.. سنرى ماذا يمكن أن نفعل.
- حنظلة : (بعد فترة) لماذا يحدث لي ما يحدث؟ ما الذي يربط هذه الأمور بعضها ببعض؟ الشقاء يهدّني والغموض يتجاوز مداركي. فكيف أجد مخرجاً من هذا الدرب المسدود؟
- (يخلق في الفراغ بيلادة وحين تعلو ضجة المزلاج، يقفز خائفاً.. يدخل الحارس وهو يحمل بقعة مهلهلة).
- الحارس : المدعو حنظلة الحنظلي. هل أنت المتهم المسمى أعلاه، والذي

نودي عليه الآن؟

حنظلة : إنني هو بالذات. وأقسم مجدداً إنني بريء.
الحارس : أنت بريء، ومع هذا تأتي إلى السجن وتقيم فيه دون حياة.
حنظلة : تماماً أيها السيد الحارس. لقد انتزعوني دون حياة من دفء
يتي وزوجتي.

الحارس : وهل تظن أن الدولة تبني السجون كي تقدم المأوى والعلف
للأبرياء؟. بعد أن تبين بالأدلة أنك بريء فإن مدير السجن
يأمر أن تدفع تكاليف إقامتك هنا. (حنظلة يفتح فمه إلى
أقصاه، وتجمد النظرة في عينيه. يحاول الكلام. يتحرك لسانه
دون صوت..) حسناً المبيت على سعر الفنادق المتوسطة. ثم
أضفنا إليه ثمن الوجبات الثلاث. فكان الحساب أربعمائة
وأربعاً وستين ليرة. (يحاول الحارس أن يطبق فمه، ينطبق
الفكان على اللسان، يصرخ حنظلة متوجعاً، وينهار راکعاً على
الأرض، بحركات سريعة وشبه كاريكاتيرية، يفك الحارس
بقعة الأمتعة الشخصية، ويساعد حنظلة على ارتداء ملابسه.
يفرغ ما في محفظة نقوده، ويضعه في جيبه. ثياب حنظلة
مضحكة. البنطلون واسع جداً والحزام مقطّع. أما الحذاء فإنه
ضخم بصورة كاريكاتورية. يخرج الحارس.. يتبعه حنظلة
متأبطاً حذاءه، فيتعثر، ويندفع من الباب).

في الهواء الطلق

(يدو حنظلة ممدداً على الأرض في طرف المسرح، حذائه الغليظ مبعر إلى جواره. يدخل حرفوش بخفة.. يجلس على الحلقة المعدنية متأرجحاً، وكأنه يلهو).

حرفوش : وخرج صاحبا من السجن دجاجة متوتفة. هل نواسيه؟ لا ريب أن شيئاً من العطف والحنان يسعفه قليلاً. لكن ما يسعفه أكثر، هو أن يعرف أكثر. إذن لا تنظنوا بي السوء لو أبدت نحوه بعض الخشونة. أصبح حنظلة خارج السجن والمشهد الآن يدور في الهواء الطلق...

(يتزحلق حرفوش عن الحلقة، يتربع وكأنه جالس على بساط من العشب. يتناول من كيس شطيرة، ويلتهمها ببطء، وتلذذ. في الوقت نفسه ينهض حنظلة متلماً.. يبحث عن فردتي حذائه، يجمعهما ويحملهما تحت إبطه. ينزلق بنظونه، يصاب بالحنج، ويمد يديه بسرعة ليرفعه وهو يتطلع حوله. الحذاء يتبعثر. يجمعه من جديد.. يتأبطه وباليه الأخرى يحاول أن يمسك بنظونه).

حنظلة : آه.. لقد أتلف الحارس حزامي الذي كنت أعتز به.

(بعد بضعة خطوات متأرجحة يلمح حرفوش. يرتبك وهو يرفع بنظونه، فيسقط الحذاء.. يجلس قريباً منه، ويدأ في تأمل حزامه المقطع.. حرفوش لا يعيره أدنى اهتمام).

حنظلة : (وهو ينقل بصره بين حرفوش والحزام..) تصور أيها السيد.. (يستدرك) اسمي حنظلة. هذا الحزام اشتريته يوم زواجي. إنه جلد أصلي. لكن حارس السجن قطعته وهو يسوطني به.

- حرفوش : من لا يملك حزاماً، لا يستطيع أن يستر مؤخرته.
حنظلة : كنت أعتز به. أحس أنه يجمعني، ويحزم لي وسطي.
- حرفوش : والآن إما أن تزحف على مؤخرتك، أو تعرضها للمارة.
حنظلة : آه لو تعلم ماذا جرى لي أيها السيد!
- حرفوش : تعطلت دواليب عقلك، وانحلت براغيه.
حنظلة : لا.. بل كنت أنتزه في الشارع (حرفوش يدير ظهره له باستخفاف) لأحد يريد أن يصفي إليّ. الأفضل أن أسرع إلى بيتي وزوجتي.
- (ينهض، ويحاول أن يلبس حذاءه وهو واقف. ينزلق بنطلونه. يتعثر ويعود فيجلس على الأرض. يحاول أن يلبس الحذاء وهو جالس. يخلط بين الفردة اليسرى واليمنى مرات عديدة. ثم يبدو وكأنه في غمار عملية شاقة، وقد اختلط عليه الأمر. بينما يرمقه حرفوش مخالساً النظر، وهو يهز رأسه باستخفاف يمتزج فيه الاحتقار.)
- حنظلة : (تلتقي عيناه بعيني حرفوش، يرتبك أكثر) أن ألبس حذائي كانت دائماً عملية شاقة. فأنا أتساءل مثلاً لماذا يكون للقدم اليسرى الأولوية، ومن يضمن، أن اليمنى ستبعتها دون اعتراض؟
- حرفوش : وإذا قلبت المسألة، وبدأت باليمنى، فمن يضمن أن اليسرى لن تحزن في اللحظة الأخرى؟
- حنظلة : ومما يزيد الأمر صعوبة أننا بحاجة إلى قدمين اثنتين كي نمشي.
- حرفوش : (متصنعاً جدية بالغة) حقاً، إنها تجربة قاسية ومغامرة جريئة، أن يقرر المرء كيف يمشي.
- حنظلة : (وهو يتابعه مندهشاً، ثم جذلاً) أليس كذلك أيها السيد؟ وأخيراً.. هو ذا رجل يمكن التفاهم معه. إنك تشجعني على

متابعة قصتي. ماجرى لي يستحق أن يُروى. إني ضحية ظلم لا مثيل له..

حرفوش
حنظلة

: لا ضحية بلا جلد، ولا جلد بلا ضحية.
: (يشده بلاهة. ثم يتابع بعد لحظة) كنت أنتزّه مستمتعاً بأشعة الشمس. تركت شارعاً، وانعطفت إلى شارع آخر. فدهمني عدد من رجال الشرطة وهم يصرخون. هو ذا الرجل الذي نبحت عنه. انفضّوا عليّ وأمسكوا بي. تصور أيها السيد حالي.

حرفوش

: الجلاد يعرف دائماً ضحيته، لكن الضحية لا تعرف دائماً الجلاد.

حنظلة

: بعد أن تمالكت نفسي، قلت لهم أيها الموقرون اسمي حنظلة. فأجابوني غاضبين.. يا ابن القحبة سنجعلك تذوق ما هو أمر من الحنظل. ماذا تفعل في هذا الشارع؟ أخبرتهم أنني أمضي إلى الكشك لأشتري مجلة النجوم. فأنا وزوجتي نحب أن نقرأ الأبراج.

حرفوش
حنظلة

: ما هو برجك؟
: أنا.. الثور. وزوجتي العقرب. هذان البرجان أحدهما للآخر كالقدر وغطائه.

حرفوش
حنظلة

: ولم يهلك رجال الشرطة حتى تقرأ ماتخبئه لك الأبراج؟
: قلت لهم تركت امرأتي تعدّ القهوة في البيت، وسأعود حالما أشتري المجلة. فصرخوا بي.. سنعرف كيف نكشف أكاذيبك، وفي السجن يمكنك أن تفكر بفأرتك العاهرة كما يحلو لك. قل لي أيها السيد.. أهى عدالة أن يوقف رجل يستمتع بأشعة الشمس، ويتنزّه في الشارع ببراءة؟

حرفوش

: أية قصة مؤثرة! إلا أنها لم تؤثر فيّ أكثر من مواء قطرة شاردة. العدالة تنفر من الوجوه البالية الذليلة.. (ساخراً) ومن يدري

ربما كانت سحتك مجرد قناع للخداع! أعرف كثيرين يخفون خلف هذه الأقنعة. رغبات ضارية في التشرد والشغب.

حنظلة

: أنا؟ إنك تفرمني أيها السيد، وأمام تفاهمنا القلبي توصل الباب.. لقد وصفت لك حقيقة ما أصابني فهل تتكرم، وتتفهم وضعي؟..

حرفوش

: هـ.. هـ.. أتظنني مريتك.. إفطاري وأنهيته، وطبيخ قصتك نسيته. أعلن نهاية اللقاء، وسأبحث عن كأس ينسيني وجهك المنسول. قد نتلاقى مرة أخرى. اسمي العم حرفوش.. والآن وداعاً.

حنظلة

: وأنا الذي ظننت العثور على صديق، ينفعه أيام الضيق. لا ينبغي أن أثق أبداً بغريب. المكان الوحيد الذي بقي لي هو حضن زوجتي الحبيبة. هناك سأجد العزاء والفرج بعد الشدة. (يخرج حنظلة متعثراً، وقد انتعل حذاءه بالمقلوب. الفردة اليمنى بالقدم اليسرى، والفردة اليسرى بالقدم اليمنى).

في البيت

(يمكن أن يبدأ المشهد بلعبة بين ممثلين يتعاركان. أحدهما يصيح «ابعد عن الشر وغني له» والثاني يرد عليه «اللي من إيده الله يزيد». يمكن أن تكون الخصومة بين أكثر من ممثلين بحيث يتقلب المشهد تجاذباً بين مجموعتين متمايزتين. يبدأ المشهد إيمانياً بهلوانياً، ثم يعلو فيه الصخب. وحين يبلغ ذروته، يتدخل حرفوش ليسرد قصة أمه وأبيه. يتم تركيب ديكور المشهد التالي أثناء ذلك. أو مع رواية حرفوش).

حرفوش : (متأرجحاً) كان أبي وأمي رحمهما الله يحب أحدهما الآخر. لكنهما كانا يحبان المناكفة أكثر. وكان أعرق أسباب الخلاف بين أبي وأمي ما يمكن أن نسميه بلغة زمننا الخطأ العقائدي، أو الموقف الإيديولوجي. فقد كانت عقيدة أبي رحمه الله «ابعد عن الشر وغني له» وكانت أمي تتفاني في الدفاع عن مبدأ «اللي من إيده الله يزيد». طبعاً لم نكن نفهم مايعني هذا المبدأ أو ذاك. في النهار تصرخ أمي كلما تعثر أحدهما أو تأذى «اللي من إيده الله يزيد». وفي الليل يلقتنا أبي «ابعد عن الشر وغني له». ولكن ظهر يوم، وأذكر اليوم كأنه البارحة، عاد أبي مهموماً إلى البيت. كان يعمل عتالاً في المطاحن. يذهب مع الفجر ولا يعود إلا مع غروب الشمس. وفور دخوله البيت بادرت أمي بالسؤال.. لماذا تعود ميكرأ؟.. فأجابها.. لأنه لم يعد لدي عمل. ثم روى لها أن العتالين طالبوا أصحاب المطاحن بزيادة الأجور. ومع الأخذ والرد احتد الكلام. وتحول الأمر إلى فتنة، أما أبي فقد فضل أن يتبعد عن الشر ويغني له. لكن

عندما هدأت الخواطر وحصل اتفاق هاج عليه العتالون، ومنعوه من العمل معهم. أما أصحاب المطاحن، فلم يهتموا به أو يحموه. ما إن روى أبي ما جرى حتى احتقن وجه أمي، وصاحت بصوت مقهور.. «اللي من إيده الله يزيده..» انفجر الأب بدوره. كلمة من هنا، وكلمة من هناك، ثم تشابكت الأيدي وبدأ الرفس والشم والتكسير.. يومها بدأت أتيين على نحو غامض الفرق بين «ابعد عن الشر وغني له» و«اللي من إيده الله يزيده». ونعود إلى صاحبنا حنظلة. لاشك أنه وصل إلى بيته. وفي البيت يتوقع أن يجد امرأة تحضنه، وكلمة حنان تغسل آلامه. (لهجة إعلانية) نحن الآن في بيت حنظلة.

(سرير. خزانة يمكن الاستعاضة عنها بالحلقة المدلاة. مكينة. تجلس الزوجة على السرير. يسترها اللحاف حتى بطنها. تبرز أسفل السرير من تحت اللحاف قدمان كبيرتان، وبعيدتان عن المرأة. من الواضح أنهما قدما رجل مندرس في الفراش. حنظلة يدخل متلهفاً، ومتعثر المشية. الزوجة تسحب اللحاف لكنها لا تبدي ارتباكاً ملحوظاً).

حنظلة

: (لهجة أسيانة وحنانها صادق) أكاد لا أصدق أننا نلتقي ثانية. لم تبرحي خاطري لحظة واحدة. كنت أفكر فيك الليل والنهار. أتخيل شعرك، وجهك، نعومة ساقيك. وكان ذلك عزائي الوحيد في المحنة التي ألمت في.

الزوجة

: تجعلني أذوب! وتخلت شعري!

حنظلة

: (فرحاً يجلس على طرف السرير، فتشيع عنه الزوجة بامتعاض) نعم.. هذا الشعر الذي تمشطينه الآن.. أتخيل نعومته، وأدسّ يدي في خصلاته.. (يحاول أن يلامس شعرها، فتختي يده بفضاظة).

الزوجة : أبعد يدك النجسة.. لا أريد أن تلمسني. أنت تقلت على مزاجك، وأنا مصلوبة هنا أنتظر وحيدة وأشقى. هــ.. وفوق هذا يأتي ليسكب في أذني هذه الأغاني المائعة. وقاحة مابعدا وقاحة.

(القدمان الباديتان تحت اللحاف تتفارقان بحركة خشنة).

حنظلة : لو تعرفين أين كنت طوال هذه المدة!
الزوجة : لم أدخل مرة إلى ماحور أو حانة، ولكن أعرف ماذا يدور في المواخير والحانات.

حنظلة : (مرتباكاً وكسيراً) أتحسين أنني كنت.. سامحك الله.. بعد كل هذه العشرة تتحدثين وكأنك لاتعرفينني. (ينبعث من تحت اللحاف عطس مخنوق ترافقه اهتزازة. تعطس الزوجة بدورها لتصرف انتباه حنظلة، ثم تمسّد على اللحاف. يخرج حنظلة منديلاً من جيبه ويمسح أنف زوجته بحنان.. لحظة) ما جرى لي يا زوجتي الغالية، أخطر من أن يوصف. آه لو تعلمين ما جرعوني من العذاب، تصوري.. رموني في زنازة أسوأ من جحر الفأر. وساطوني بحزامي الجلدي حتى تقطع، ثم انتزعوا مني كل ما ادخرناه. ولو سألت عن السبب، لما عرفت بماذا أجيب. كل ما أعرفه هو أن حزامي تقطع، وجلدي تهرأ، ولم يبق معنا فلس واحد.

الزوجة : (تدفعه بغضب. يياغت حنظلة ويسقط عن حافة السرير) ما كان ينقصني إلا هذه البشرية. تغيب عن البيت كالزعر.. تبعر أموالني ثم تعود لتبيعني الأغاني والتباريح. هذا المسلك الشائن قد تطرب له أمك، أما أنا فلن أمضي أبعد من ذلك. هذه الحياة يجب أن تتبدل وفي الحال. (ينبعث من تحت الغطاء تجشؤ قوي. تضرب الزوجة على اللحاف وتتجشأ هي الأخر).

حنظلة

: (مايزال يحاول النهوض والتماسك) أنت رفيقة عمري.
وتعرفين حياتي أكثر من أي شخص آخر. لم أتأخر يوماً عن
وظيفتي، ولم أقصّر أبداً في أداء واجبي. لا أطمع في تسلق
المراتب، ولا يوغر صدري أن يكسب الآخرون أكثر مني.
أدفع كل ما يترتب عليّ دون أية ملاحظة. هذه حياتي
مستقيمة كشارع الجلاء. ومع ذلك ها أنا أجد نفسي غارقاً
في المصائب ولا أعرف لماذا؟

الزوجة

: هذا الخطاب يمكنك أن تبعثه إلى أيك في الجحيم. لن
تنطلي عليّ ألعيبك بعد اليوم (ينفجر من تحت الغطاء سعال.
تكحّ الزوجة وتظاهر بالسعال. ثم تنسل من الفراش، قميص
نومها طويل. أذباله تمس أرض الغرفة..) أي قدر مشؤوم
ربطني بك!

(حنظلة يفرغ فاهه شاردأ، وهو يتفحص القدمين البارزتين من
تحت اللحاف).

حنظلة

: (بعد لحظة، ينقل بصره بسرعة إلى قدمي زوجته الواقفة أمامه،
لا يرى شيئاً لأن النائمة تمس الأرض.. لحظة انشداه) هل
فقدت قدميك؟..

الزوجة

: (تكتشف القدمين البارزتين.. تجلس بسرعة على طرف السرير
وهي تشد منامتها إلى الأرض! بصوت بين النائح والغاضب)
وهذه أيضاً! من شدة القهر كدت أنساها. كيف تريد ألا
أفقد قدمي! (تنهض وتتجه بخطى عرجاء نحو المكينة..)
تجمدنا من البرد وانكسرتا فوق السرير مثل قطع الجليد (في
طريقها تسحب اللحاف، فتغطي القدمين يبرز وجه الرجل من
الطرف الآخر.. يرمقه حنظلة بطرفة عين، ثم يشيح بوجهه
ويدير ظهره..) طبعاً في غمرة المجنون والعريضة، لم تحس
موجة البرد التي مرت. (يخفي الرجل وجهه تحت الغطاء.

فيلتفت حنظلة نحو السرير) هربت وتركتني بلا مال. ليس في البيت وقود. وثيابي الشتوية ممزقة، (تهدهده بالمكنسة) ومع هذا تسأل متصنعاً براءة يوسف (تقلده) هل فقدت قدميك؟ لا.. أقولها لك بالصريح والفصيح، لا أعرفك ولا تعرفني، والأستر أن تنقلع فوراً من يتي.

(يرز الرجل رأسه من تحت الفطاء، فيخالسه حنظلة النظر، ثم يحول عينيه بحركة سريعة وخائفة).

حنظلة : أريد أن أعيش حيث تعيشين. تلك هي القاعدة بين المتزوجين.

الزوجة : (تدفع نحوه بالمكنسة مهددة) نعم.. نعم.. هل يمكن الحديث عن الزواج والعش الزوجي، حين يهجر الرجل زوجته، ويبيت في مواخير الدعارة والمجون؟

(خلال كلام الزوجة، ينسل الرجل من الفراش. إنه يرتدي كلسوناً، وقميصاً قصيراً مفكوك الأزرار. يسير على رؤوس أصابعه شاداً قميصه إلى الأسفل وملفتاً بوجهه نحو حنظلة الذي يقف الآن بشكل موارب. يصل الرجل إلى الخزانة، وحين يختفي وراءها، يلتفت حنظلة إليه).

حنظلة : غريب ما تسمعه أذناي.. وأغرب منه ماتراه عيناى. لا تبدو الأشياء في مكانها. وهذه الغرفة التي كانت ملجأى لم تعد كما ألفتها. ما الذي تغير؟..

(أثناء الكلام، يتجه بخطواته المتعثرة نحو الخزانة. تقفز الزوجة بعصبية، وتكنس حوله جاهدة في صرف انتباهه، ومنعه من الاقتراب من الخزانة. لكن حنظلة يتابع متسللاً خلف الخزانة. فيظهر الرجل أمامها. تجري هنا لعبة الدوران حول الخزانة في مطاردة هزلية، يتوضح خلالها أن حنظلة إما أعمى، أو لا يريد أن يرى عشيق زوجته. بعد فترة يأس

فيها حنظلة من الدوران بلا طائل، يتجه نحو السرير، فتقفز إليه الزوجة، وتمد قدميها من تحت اللحاف. ينحني حنظلة، ويحاول أن يرفع الغطاء).

الزوجة

: أعرف ما تبحث عنه. لن ترقد تحت الحافي، ولن أدفئ عظامك الرخوة بعد اليوم. قلتها لك صريحة وفصيحة. ما بيننا انتهى.

(يزمجر الرجل، وينبح خلف الخزانة. يتغض حنظلة. ويسقط على الأرض هلعاً).

حنظلة

: لا.. لم تعد الغرفة هي الغرفة. الخزانة تهتز واللحاف ينهض.. كأن الغرفة تسكنها العفاريت. بحق الله.. قولي لي.. ألم تكن هنا دائماً ومنذ سنوات؟

(تبدي الزوجة حركات هستيرية، تقلب ملامح وجهها. وتهوم يديها بينما يزمجر الرجل خلف الخزانة).

الزوجة

: اسمعها، وافهمها. العصمة يدي، والبيت باسمي، مسحتك من حياتي، وسحتك الشبيهة بالفضلات لا تذكرني إلا بالفضلات. في خزانتي كلب غضوب وأنيابه كالمفاصل. إذا لم تنقلع في الحال، سأجعله يطردك بعد أن يمزق إلبتيك (يزمجر الرجل).

حنظلة

: (يقفز مذعوراً) سأرحل فوراً.. آه.. كأن بي دواراً. الاضطراب يشوش رأسي، والفرع يخض معدتي. بالتأكيد لن أستطيع الاحتمال طويلاً. (يجر جر نفسه، مغادراً الغرفة) لا تريد أن تغفر لي، وترفض أن تعيش معاً كما في الماضي. يقيناً أنه سريري. وتلك مخدتي، لكنها تطردني. ماذا فعلت لها؟ ماذا فعلت لهم لماذا يحدث لي ما يحدث؟ (بصوت واحد ينفجر العشيق والزوجة، بققهة صاخبة.. يظهر حرفوش..).

حرفوش : تعاسة التعاسة.. الزوجة لم تفتح حضنها. والبيت طرده،
وأغلق بابه. لكن حنظلة ماتزال لديه وظيفة. والأحزان لا
تنسيه واجبه. اتجه متعثراً إلى عمله. سيعتذر عن الغياب،
ويستعيد وراء مكتبه مايفتقد من الأمان..
(لهجة إعلانية) المشهد الآن في بنك الازدهار والعمارة..

مكتبة سحر الألفية
www.books4all.net

عند المدير

(طاولة يجلس وراءها مدير الدائرة. يبدو منهمكاً بعمله. مراجعة أوراق وتوقيع معاملات. يدخل حنظلة مرتبكاً. يخرج من جيبه ساعة عتيقة ذات سلسال، ينفجر رنين منه. يضطرب ويسرع بإعادة الساعة إلى جيبه. يتقدم نحو المدير، ويحييه باحترام متضع. المدير لا يعيره أي اهتمام).

حنظلة

: أسعد الله أوقات سيدي المدير. ها أنذا أعود، وأرجو من صميم فؤادي ألا يكون غيابي قد سبب ارتباكاً في العمل. لو تعلم يا سيدي المدير ماجرى لي. رموني في السجن دون سبب. لقد أعلنت لهم أنني موظف، وأعمل في مؤسسة محترمة هي بنك الازدهار والعمارة. لكنهم انهالوا علي بالضرب والرفس، فلم أجرؤ على قول شيء.

المدير

: عمّ تتحدث أيها السيد؟ لا أذكر أنني رأيتك من قبل. ومغامراتك البوليسية لاتعنيني. أما إذا جئت تطلب صدقة، فقد أخطأت العنوان. هنا بنك وليس داراً للإحسان.

حنظلة

: (يفتش في جيوبه محرجاً.. ثم يخرج بطاقة الاستخدام) يا سيدي المدير.. هذه البطاقة تثبت أنني موظف في هذه المؤسسة. الاسم مدوّن فيها، وكذلك نوع العمل. منذ سنوات طويلة وأنا أعمل في هذا البنك عدّاد فراطة. أدخل هذا الباب في تمام الثامنة، ولا أخرج منه إلّا بعد الثانية.

المدير

: ذاك تاريخ قديم لا يمكن إثباته أو تذكره. عندما يترك المستخدم عمله دون إجازة، أو عذر مقبول يسرح من العمل، ويحل واحد آخر محله. هذا كل شيء، ولن ينفعك توسل أو احتجاج. (ينصرف المدير عنه ويفرق في عمله).

- حنظلة** : يا سيدي المدير.. عمري ما قصرت في عملي. وأرجو أن تذكر أنك امتدحتني. أي نعم.. أنت نفسك امتدحتني ثلاث مرات. وتأكد أنني أتذكر هذه المرات كما أتذكر الأعياد والمناسبات الكبيرة. عمري ما ارتكبت خطأ في عملي، ولا تسربت هفوة إلى جداولي.
- المدير** : إنك تضيع وقتي. وقتي الآن ملك البنك. ووقت البنك ملك الدولة. ووقت الدولة.. أف بدأت أنرفز.
- حنظلة** : أرجوك يا سيدي المدير أن تقدر وضعي. ماذنبي إذا كانوا قد اعتقلوني دون ذنب! صحيح كان ينبغي أن أخبر عن غيابي الاضطراري، لكن أحداً لم يبال بالإصغاء إلي.
- المدير** : وهل تريد أن أضيع الدوام بالإصغاء إليك؟ لا.. إنك تتجاوز كل الحدود.
- حنظلة** : أعدك أن أضعاف همتي، وأؤدي عمل موظفين معاً.
- المدير** : الفراطنة لا تحتاج إلا إلى موظف واحد، وأمثالك لا عمل لهم في هذه المؤسسة، فانقلع من أمامي.
- حنظلة** : أتسلمني عملي، وترميني إلى الشارع؟
- المدير** : لم يبق إلا أن تحرض الموظفين. وتبث دعاوى الشغب والتمرد.
- حنظلة** : لا أطلب إلا حقي..
- المدير** : حقك الوحيد هو أن تنقلع من هنا بالحسنى. لكن أمثالك لا ينفع معهم اللين (يون جرس المكتب) إلي بالحارس. (يدخل الحارس) أمسك هذا الرجل من ياقته، وارمه مع القمامة في الشارع.
- حنظلة** : (مضطرباً وخائفاً) لا تغضب يا سيدي المدير.. لا تغضب.. سأخرج في الحال. أهذه مكافأة الأمانة إذن؟ أهذا هو تعويض الإخلاص في أداء الواجب؟..

في الهواء الطلق

حرفوش

: (يحمل بيده مجلة النجوم).

كل الأبواب أغلقت في وجه حنظلة. حقاً تحمّل ما يكفي من الآلام، فهل نواسيه؟ قد يفيد المسكن قليلاً، لكن تشخيص الداء يفيد أكثر. نحن الآن في الحديقة.

(أثناء التقديم الماضي يوضع مقعد في حديقة.. ويتقدم حنظلة في حالة انهيار.. يصل إلى المقعد ويرتمي عليه. يلاعبه حرفوش ويسحب المقعد من تحته، فيقع على الأرض..).

حرفوش

: (وهو يتقدم منه لا مبالياً وساخراً) أخطر ما يصيب السلحفاة هو أن تنقلب على ظهرها.

حنظلة

: هذا ما يحدث. أهّم بالجلوس على مقعد، فينسحب من تحتي وأسقط. ما أفدح مصائبي!

حرفوش

: أهى قاسية؟

حنظلة

: تنهال على رأسي كضرب العصي.

حرفوش

: اللي من إيده الله يزيده.

حنظلة

: (باكياً بطريقة مضحكة) أردت أن أبوس قدمه، لكنه لم يصنع إليّ.. لم أتأخر يوماً ولو دقيقة. لم تبقع سجلي عقوبة أو ملاحظة. بعد عشر سنوات من العمل المتفاني، رموني كالذبابة إلى الشارع، وعيّنوا آخر غير مدرّب مكاني.

حرفوش

: قد يلائمك أن تنباهي. ماهي هذه الوظيفة التي تحتاج إلى المران والخبرة الطويلة؟

حنظلة

: (مجروحاً) هل تستهين أيها السيد بوظيفة عداد الفراطة. إنها وظيفة حساسة وكلها مزالق. تأتي الأكياس الثقيلة المعبأة بمختلف القطع النقدية. فتتكس على المكتب. أفتحها

واحداً بعد الآخر وأنضد كل فئة على حدة. الأرباع، الأنصاف، الليرات، ثم أجمعها، وأسجلها في الدفاتر المنظمة. لا ينبغي أن تضيع قطعة، أو تتسرب من فئة إلى فئة. عمل شغفت به، وأصبح نصف حياتي. ولكن ماهي النتيجة؟..

حرفوش : لم تكن إلا برغياً في الآلة. والبرغي يمكن أن يبدل ببرغي. عملك يؤديه الآن رجل آخر. وهذا يعني أن من الممكن الاستغناء عنك واستبدالك.

حنظلة : عداد الفراطة برغي؟
حرفوش : أي نعم. ماهو إلا برغي، وبرغي صغير جداً.
حنظلة : أنت تذبحني. ما أفدح مصائبي! ألا يمكن أن أجد شخصاً يتلطف معي قليلاً؟

حرفوش : ألم يكن حضن امرأتك لطيفاً ودافئاً؟
حنظلة : آه.. تلك هي أفدح المصائب.. كنت آمل أن أجد لديها الطمأنينة والراحة، لكنها استقبلتني بضربات الكنسة. طردتني من البيت، وفضلت أن تبقى تحت اللحاف الدافئ وحدها.

حرفوش : أمتأكد أنها بقيت وحدها؟
حنظلة : متأكد ومتيقن أنها كانت وحيدة في السرير، لانصحبها إلا قدماها اللتان تجمدا من البرد، وسقطتا على الفراش. لم يكن في البيت نار، فنفذ البرد إلى عظامها.

حرفوش : العقرب يلدغ، والثور يطول قرناه.
حنظلة : ماذا تعني؟ صحيح.. امرأتي من برج العقرب، وأنا من برج الثور، وهما برجان أحدهما للآخر كالقدر وغطائه.

حرفوش : أما لاحظت أن القدمين لهما شاربان، وأنهما ترتديان قميصاً وكلسوناً، وفوق هذا تلعبان الاستغماية. طبعاً لم تشأ أن

- تري، فأنت لا تدس أنفك فيما لايعينك.
- حنظلة : (يتفرض مهاناً) ماهذا القول؟ امرأتى عمرها ما كذبت عليّ، ولا فكرت بخيانتى.
- حرفوش : اللي من إيده الله يزيده..
- حنظلة : هل تريد أن أكذب عيني، وأتخيل أنه كان في البيت رجل.
- حرفوش : (فجأة يمسك رأسه بيديه ويطرق باكياً).
- حنظلة : اللي من إيده الله يزيده..
- حرفوش : ماكان أحلى تلك الأوقات التي نقضيها معاً.. أعود بعد إرهاق العمل إلى عشنا الناعم. ألبس بيجامتي، وأسترخي على الكرسي الهزاز. هي تقلم أظافرها، أو تنتف الزغب عن ساقها الملساوين، وأنا أقرأ لها مجلة النجوم وماتقوله الأبراج، ثم زادت لدينا المتع والمسرات بعد أن اشترينا المذياع.
- حرفوش : الآخر لا يحتاج إلى بيجاما، لكنه يجلس على كرسيك. ويريح رأسه على مخدتك. في البنك يمكن استبدال عداد الفراطة.. وفي البيت يمكن استبدال الزوج.
- حنظلة : (كالطفل يكي. ويفرك الأرض بقدميه) آه.. لماذا يحدث لي ما يحدث؟ ماذا فعلت لهم؟ ألا يمكن أن أجد أي عون؟
- حرفوش : لماذا لاتستشير النجوم؟ هل أقرأ لك مايقوله برج الثور؟
- حنظلة : (يفرح حقيقي) نعم.. نعم.. لابد أن ذلك سينير لي بعض هذا الغموض الذي يلفني.
- حرفوش : (وهو يقلب في المجلة) الثور.. الثور.. الحمل. الثور.. ها هو. هل تصغي؟
- حنظلة : نعم..
- حرفوش : (يقرأ) الثور.. وجع رأس أو أسنان سببه حائلتك العصبية. عالج الأمر دون تأخير. يعرض عليك عمل إضافي فيه ربح

وفير. من الجائز أن تندم على القبول به لشعورك بالإرهاق المفاجئ. لا تحمّل نفسك أكثر من طاقتها. حيوية ونشاط كبيران في الحب. حافظ عليهما قدر محافظتك على الحبيب. استمع لصوت قلبك واعط من مالك بعض الشيء. نصيحتنا: اتبع حدسك فهو مرشدك ودليلك. يوم السعد الأحد رقم الحظ ١٠.

حنظلة : (مبهوتاً) عمل إضافي.. حيوية.. و..
حرفوش : نشاط كبيران في الحب. حافظ عليهما قدر محافظتك على الحبيب.

حنظلة : وأعط من مالك..
حرفوش : بعض الشيء.

حنظلة : (باكية) لأملك أي مال.. أما أني مريض، فهذا صحيح. لم يعد بوسعي أن أفعل أي شيء. أنا مريض، ولا أستطيع أن أحمّل الأوجاع أكثر.

حرفوش : إذا كنت مريضاً بالفعل، فسأقودك إلى الطبيب مباشرة.
حنظلة : ليس لدي ما أدفعه للطبيب.

حرفوش : أعرف طبيباً مولعاً بالحالات المرضية النادرة وتشريح الجثث. ستمدّد على سرير العمليات. يفتح رأسك، ويفحص بمشارطه وأصابعه الماهرة، حتى يصل إلى التجاويف المظلمة حيث يكمن الداء.

(ينكمش حنظلة مرتعباً. يتكوّم متشبّثاً بالأرض، بينما يحاول حرفوش أن يحمله على النهوض. في النهاية يرفعه، ويجبره على السير).

حرفوش : لاتخف. عندما تخرج يده الماهرة من تلافيف دماغك، ستحس فوراً أن حالتك صارت أفضل. إنه اختصاصي بارع واختصاصه هو الطب البسيكو - إعلامي.

حنظلة	: الييكو..
حرفوش	: البسيكو..
حنظلة	: البسيكو..
حرفوش	: البسيكو - إعلامي.
حنظلة	: (راضخا) اللهم اجعله خيراً.

في عيادة الطبيب

- (تزداد الحركة سرعة. والإيقاع له طابع أفلام الكرتون)
- حرفوش : (معلنًا) والآن نحن في عيادة الدكتور الاختصاصي في الطب البسيكو - إعلامي (تدخل ممرضة بسرعة، وهي تدفع أمامها منصة العمليات الجراحية. حرفوش يضع حنظلة على المنصة. ثم يتناول مريلة بيضاء معلقة على الحائط ويرتديها. يدخل الطبيب بمهابة. يضع نظارات طبية. ويرتدي ثياب جراح يتأهب لإجراء عملية. الكمامة المعقمة محلولة. وتبدلي أسفل ذقنه. الممرضة تمدد حنظلة على المنصة. وتسوي وضعه. الطبيب يدور حوله وهو يمين في التأمل. حرفوش يحذو حذوه، فيدور باتجاه معاكس. يمكن أن تحدث بعض المفارقات الحركية بين الطبيب وحرفوش والممرضة).
- حرفوش : هذا الزبون حالة مثيرة. معانيته قد تقود إلى كشف علمي جديد، وشفائه سيضيف إلى مآثرك واحدة أخرى.
- الطبيب : (وهو يتأمل حنظلة بإمعان أكثر) الأعراض بادية. لا أشك أن الحالة مستعصية. لكن كلما استعصت الحالة، اتسعت آفاق البحث، واغتنت إمكانيات اختصاصنا الطبي. بفضل تنوع الحالات، ودأب فريق من الأخصائيين مثلي، أحرز الطب البسيكو - إعلامي تقدماً خارقاً. بعض الأمراض التي كانت تعتبر وبائية وميؤوساً منها، أصبح علاجها أسهل من الزكام. (يتخذ الأداء طابع الإعلانات التلفزيونية والمظاهرات الإعلامية).
- الممرضة : الاكتاب الزمن.
- الطبيب : والإحباط الجنسي.

- حرفوش : والشبق السياسي.
- المرضة : والانقسامات الطبقية.
- حرفوش : وحالات القلق الوطنية.
- الطبيب : (وهو يياعد بين حرفوش والمرضة اللذين يهتمان بالعناق. حنظلة يضع وجهه بين يديه راکعاً فوق النصّة. يصغي إلى الحوار ذاهلاً) تلك مجرد عينة من الأمراض التي أصبح علاجها ميسوراً في عيادتنا. إن التقدم الذي أحرزه الطب البسيكو - إعلامي جعله واحداً من أهم أسس الاستقرار في المجتمعات المعاصرة.
- حرفوش : وتدعيم الأنظمة القائمة.
- (الحوار يتخذ طابع المظاهرة أو العراضة الشعبية... حرفوش يتأوش مع الممرضة، والطبيب يياعد بينهما).
- الطبيب : من يساعد الفرد على التكيف مع واقعه؟
- المرضة : إنه الطب البسيكو - إعلامي.
- حرفوش : من يحوّل المواطن وديعاً كالحمل صبوراً كالجمل؟
- المرضة : إنه الطب البسيكو إعلامي.
- حرفوش : من يجعل المواطن يتحمل القمع والفقر والفساد؟
- المرضة : إنه الطب البسيكو إعلامي.
- حرفوش : (تسارع اللهجة) أزمات السكن والنقل والتموين.
- المرضة : الطب البسيكو - إعلامي.
- حرفوش : احتلال الطنب الكبرى والطنب الصغرى، وضياع فلسطين.
- المرضة : الطب.
- حرفوش : التجزئة.
- المرضة : البسيكو..
- حرفوش : الهزائم والمذابح.
- المرضة : الطب البسيكو - إعلامي.
- الطبيب : اختصاصنا، ولا أحب المباهاة، هو معجزة العصر.

- المرضة : تقول آخر الإحصائيات الدولية.. إن هناك انخفاضاً ملحوظاً في نسبة الاضطرابات الاجتماعية، والانتفاضات الشعبية.
- حرفوش : وارتفاعاً ملحوظاً في عدد حالات الجنون الفردية.
- حنظلة : (وهو يرتعد) إني خائف.
- الطبيب : الحديث عن منجزاتنا يطول. (ينزل حنظلة عن المنصة. إلى الممرضة) مَدِّدِيه على المنصة، وساعديه على الاسترخاء.
- (يخف حرفوش والمرضة، ويمسكان بحنظلة).
- حرفوش : أين تذهب؟..
- حنظلة : لا أريد.. إني خائف.. دعوني أخرج.
- (أثناء تمديده تحدث بعض المفاركات الحركية).
- الطبيب : (يقرب من حنظلة متخذاً هيئة خطيرة ومتأملة.. بعد لحظات يعطي إشارة للممرضة) جو رقم ٣ ٠٠ معانية. (تهرع الممرضة إلى لوحة أزرار. تضغط على زر. تتغير الإضاءة.. تضغط على زر آخر فتبعث موسيقا. فترة. يحاول حرفوش خلالها أن يراقص الممرضة، أو يعاكسها).
- الطبيب : (إشارة إلى الممرضة) تسجيل الأعراض الظاهرية. (تهرع الممرضة وتتاول سجلاً ضخماً، أو دفترًا صغيراً جداً في جيبيها وتتهيا للتسجيل) لون الجلد طيني، العينان دمعيتان، الأجفان اهتزازية، ملامح الوجه إثنائية. (يقرب من وجهه ويشمه) الرائحة عطن بولي. (إشارة من إصبعيه للممرضة.. فتسرع وتناول مطرقة كبيرة. يصوبها الطبيب فوق الرأس.. تصطك أسنان حنظلة، وتتحفظ عيناه من الرعب، يلتفت الطبيب نحو الممرضة) نوبات اصطكاك أسنان. وجحوظ عينين. (ينقل المطرقة ببطء فوق حنظلة حتى تصبح فوق ركبته، يهوي على ركبته. فتدفع ساقه في الهواء وتصيب قدمه الطبيب الذي يتكئ على الممرضة، يحضنها ويسقط وياها على الأرض. يساعدهما حرفوش على النهوض.

الطبيب (بهذوء) كبت مزمن والاستجابة العصبية متوترة.
(يدور الطبيب عدة مرات حول المنصة، تتسارع الموسيقى
بشكل واضح. فجأة يهجم على حنظلة، وبحركات متعاقبة
وسريعة جداً، يمسك يده في حركة قياس النبض. يضع
السماعة بحركات مضحكة على كل بقعة في جسمه.
إشاره للممرضة. تقلب حنظلة على ظهره. يتابع الفحص
بالسماعة..)

- حرفوش : هل بدأت تنجلي حالة صاحبي يادكتور؟
الطبيب : هناك كتلة عصبانية في مكان ما.
حرفوش : أهي خطيرة؟
الطبيب : قد نجد الجراحة ضرورية.
حنظلة : (مرتعداً، يحاول النهوض. فتجلس الممرضة على رجليه)
الطبيب : أرجوك أيها السيد الطبيب. كلمة الجراحة ترعبني. لا أريد
أن تقطع شيئاً من جسمي المسكين.
الطبيب : افتح فمك.. ساعداني.
حرفوش : (يمسك حرفوش والممرضة جذع حنظلة ورأسه، ويجبرانه على
فتح فمه. يتاول الطبيب مصباحاً يوجهه إلى داخل الفم.
حرفوش : أيّ منظر.. أيّ منظر!
الطبيب : (ينظر إليه بجذية) ماذا رأيت؟
حرفوش : قناة تبدأ مستقيمة، ثم تلتف وتلتف.. وفي نهايتها ثقب قدر.
أهو الثقب الشرجي يا دكتور؟ (بحركة غريزية يحاول حنظلة
أن يغطي مؤخرته بيديه).
الطبيب : الاحتمال وارد... (إلى حنظلة) قل آ..
حنظلة : أو..
الطبيب : آ..
حنظلة : أوو..
الطبيب : حقاً إنها حالة مستعصية (يعطي إشارة للممرضة) جو رقم ٥،

معاينة الاستجابات الذهنية.

(تضغط الممرضة على أزرار جديدة. تتغير الموسيقى، وترقّ..
كذلك تبدل الإضاءة، تصبح خافتة جداً، باستثناء البقعة التي
يوجد فيها حنظلة.. الممرضة وحرفوش يساعدانه على الجلوس
ويستدانه. صوت الطبيب في المشهد التالي، متكلف الرقة
وأثري).

الطبيب : قل لنا ماذا يمثل كل رسم نعرضه عليك الآن... (يعطي
إشارة البدء للممرضة فترفع اللوحة الأولى).

حنظلة : قمر.

الطبيب : دائرة.

(ترفع الممرضة اللوحة الثانية).

حنظلة : نونية.

الطبيب : تاج.

حنظلة : (اللوحة الثالثة) سجن.

الطبيب : سور حديقة.

حنظلة : (اللوحة الرابعة) تنورة.

الطبيب : أباجورة.

حنظلة : (اللوحة الخامسة) سوط.

الطبيب : حزام جلدي.

حنظلة : (اللوحة السادسة) حمالة نهدين.

الطبيب : نظارتان.

حنظلة : (اللوحة السابعة) ثقب مفتاح.

الطبيب : شجرة.

حنظلة : (اللوحة الثامنة) دودة.

الطبيب : عصا.

(تعود الممرضة فتعرض اللوحة الأولى).

حنظلة : (مبدئياً شطارة) دائرة.

الطبيب : قمر. (بلهجة ظفر) العلة واضحة. تشوش في الاستجابة
الذهنية مع اختلاطات هذيانية.

حنظلة : (محتقاً) بالفعل تبدو لي الأشياء مقلوبة أو مشوهة. رأسي
طنجرة مليئة بالمصارين والنخالة. كيف أستطيع أن أفهم أو
أرى بوضوح؟

الطبيب : من أعراض العلة أيضاً الشعور بالاضطهاد، والميل إلى
التذمر والاكتئاب. أعتقد أن الجراحة ضرورية، وسننزع
جذور العلة من هذا الوعاء الثمين (إشارة للمرضة) جو
رقم تسعة.. جراحة دماغية. (تبدل الممرضة الموسيقى
والإضاءة. الطبيب يتهاى ويمد يده. تناوله مفتاحاً ضخماً.
يدير المفتاح في رأس حنظلة محدثاً صريراً حاداً. يرفع غطاء
الرأس. تسرع الممرضة وحرفوش للنظر إلى الدماغ المفتوح،
يصطدم رأساها).

المرضة : آه الدماغ! أية معجزة!
حرفوش : مفتوح أمامنا كصندوق تتكسد فيه الأسرار والغرائب.
الطبيب : في هذا الصندوق، تتكسد أيضاً أتربة وعاديات مهترئة.
الغسيل ضروري وإعادة ترتيب التلايف سيمنع تراكم الغبار،
وتقرحات الحزن. (إشارة إلى الممرضة. تناوله ملقطاً كبيراً،
فيبدأ الطبيب في تحريكه داخل الرأس. يضحك حنظلة وكأنه
يدغدغ بعنف. ويرفس بقدميه. يتعاون حرفوش والممرضة على
تثبيتته. سنجري عدداً من التنقلات بين المراكز العصبية
القيادية.

(يستمر في تحريك الملقط، بينما تتسارع الموسيقى، إشارة
للممرضة. تتاول الملقط من يده، ثم تعطيه سكرية. يرش منها
قليلاً فوق الدماغ. يعيدها للممرضة فتناوله زجاجة فيها زيت.
يصب قليلاً من الزيت داخل الرأس، بعدها يرش بعض المواد

الأخرى).

- الطبيب : (بعد أن ينتهي يفرك راحتي يديه. بلهجة ظفر) بديعة هذه المهنة، والأبدع أن تمارسها يد مجرّبة. الدماغ بعد أن غسل وشُحِم يعمل بدقة محرك جديد.
- حرفوش : شيء سار أن يرى المرء كيف تتجدّد الأعضاء المعطوبة، وتدبّ فيها حياة ثانية (يفلق الطبيب رأس حنظلة الذي تملكه نوبة من الضحك العصبي أو الهستيري).
- الطبيب : مهمتنا انتهت، وهذا الفرع الضاحك يثبت أنها نجحت.
- حرفوش : كل الأعضاء المعطوبة جُددت. وصديقنا حنظلة، سيجد السبيل إلى الهناء، كأنه سمكة أعيدت إلى الماء. (إظلام).

في الهواء الطلاق

(بعد قليل يظهر حرفوش متقدماً من الجمهور.. لم يظهر
حنظلة بعد)

حرفوش : هل يستمر في غفلة طويلة، أم أنه يهتدي إلى الفهم قريباً؟!
(يدخل حنظلة. هيته غريبة. تأخذه نوبات من الضحك،
وأحياناً يطوح بيديه وساقيه في الهواء).

حنظلة : أين أنت يا صديقي؟ أشعر أن حالي غريب. يبدو أن مرضي
تفاقم (يطوح بساقيه، ويديه. نوبة ضحك عصبي).

حرفوش : لا.. إنك تبالغ. لم تمض سوى دقائق على خروجنا من عيادة
الطبيب الماهر. ألم تسمعه يقول بعد المعاينة الدقيقة، والجراحة
الناجحة، إنك الآن معافى الجسم والعقل!

حنظلة : أيليق هذا الضحك بعد كل ما جرى لي! أولاً اعتقلوني في
رابعة النهار، وثانياً سرقوا مالي دون تعويض، وثالثاً طردني
المدير من عملي، ورابعاً بالت عليّ زوجتي.. وبدلاً من أن
أبكي.. انظر.. إني لا أستطيع أن أتوقف عن الضحك. هذا
لامعنى له، إني أضحك على نفسي. (يفرق في نوبة جديدة
من الضحك).

حرفوش : (مصفقاً يديه) بدأ يفكر.. بدأ يفكر..

حنظلة : (يتوقف فجأة عن الضحك. تتدلى شفته السفلى ببلاهة)
أفكر.. أنا أفكر..

حرفوش : العلاج يعطي مفعوله. دع عقلك الذي خرج لتوه من
التنظيف، يحلق ويكشف ما خفي عليك.

حنظلة : (يتحسس رأسه، بالبلاهة نفسها) عقلي.. إنك تتلاعب بي.

كلّ ماحولي معتم. ويصعب عليّ تمييز الحيط الأبيض من الأسود.

حرفوش

: ألا تشعر بأي تحسن؟

: بل ازداد حالتي سوءاً. أحس أن أطرافي تنفك عن جسدي. (تباغته نوبة الضحك) وهذا الضحك أيضاً!

حنظلة

: إنك تضحك على الأقل.

حرفوش

: (بين الضحك والبكاء) مصيبة أخرى فوق مصائبي.. ألا يوجد واحد عنده حل لي؟

حنظلة

: اسمع.. لدي فكرة.

حرفوش

: نعم..

حنظلة

: هناك درويش عرفت عنه كرامات كثيرة. يقال إن فراسته لا تخطئ. ومن أمارات الرجل يستطيع أن يميز طباعه، وينفذ إلى العلل التي تنخر الروح والبدن. درويش شديد الورع والتقوى. نافذ النظرة. تقام في زاويته الأذكار. ولا يضئ بالمعرفة على القصاد. أعتقد أن زيارته ستفعلك. وقد تجد لديه الحل الذي تبحث عنه.

حرفوش

: (بحبور وجذل. تتطوح أطرافه) ليتنا نذهب إليه على الفور. درويش ورع وله كرامات، سيعرف حتماً كيف يدلني على الصواب.

حنظلة

: إذن، سأصحبك إليه.

حرفوش

: (تكسو البلاهة وجهه) اللهم انفعنا بيركته.

حنظلة

: (بصوت إعلاني، وهو يمسك حنظلة من يديه ويجره) عند الدرويش صاحب الكرامات.

حرفوش

عند الدرويش

(ظلام.. تنفجر أغاني المولوية.. بعد فترة تكفي لوضع قطع الإكسسوار وتجهيز زاوية الدرويش.. تبدأ حزمة من الضوء تتأثر على الدرويش، الذي يجلس على ما يشبه المصطبة. حوله جو ديني يعبق بالبخور.. يده مسبحة ضخمة جداً تتدحرج حباتها على الأرض. طاسة ماء. دواة وريشة لكتابة الرقي والتعاويذ. لوحات شعبية عن الخرافات الدينية. يقف حنظلة أمامه منحنيًا بخشوع. بينما يقف حروفش على مبعدة منه، يقوم بين حين وآخر بحركات ساخرة).

حنظلة : يا سيدي الدرويش اسمي حنظلة.

الدرويش : الاسم في السيماء، وسبحان من يمتحن عباده بالحن، ويلوهم بالبلاء.

حنظلة : ما أنا إلا عبد مؤمن. وفي حياتي لم أسلك إلا طريق الاستقامة.

الدرويش : لاتباه يا عبد الله، فإنه لا يحب الذين يتباهون.

حنظلة : اغفر لي يا سيدي الدرويش.

الدرويش : هو وحده غفار الذنوب. اللهم اغفر لنا ماتقدم، وما تأخر من ذنوبنا.

حنظلة : (بدأ يتلعثم) لم أقصد التباهي. لكن.. كيف أقول لك

يا سيدي. إن أموري في هذه الدنيا، وأمور هذه الدنيا تحيرني. ما أذيت في حياتي إنساناً. لم أطمع أبداً في مركز من هو أعلى مني، ولا حسدت من هو أغنى مني. كل ما أسعى إليه هو أن أقضي حياتي مستوراً وآمناً. ومع هذا فإن كل الأمور تجري معكوسة.. إذا مشيت تعثرت، وإذا جلست انزاح

الكرسي وتشقّلت. لماذا يحدث لي ما يحدث؟ لا بد أن هناك سبباً مستوراً. وأنتك تستطيع بعلمك الواسع، أن تساعدني على اكتشافه ومعرفته.

الدرويش : لا تلحف في السؤال. لأن السؤال يقود إلى الضلال. ولا تفقد الرضى لأن الرضى أثمن نعم المولى.

حرفوش : يا سيدي الدرويش، أرجو ألا تسوءك حشريتي. أترضى إذا طردوك من عملك، وسدّوا باب الرزق في وجهك؟

حنظلة : (فرحاً) فعلاً، هذا ما ينبغي أن أسأله.

الدرويش : وأحمد الله أني المطرود لا الطارد.

حنظلة : (ببلاهة، ثم تصيه نوبة الضحك) أحمد الله أني مطرود.

حرفوش : وإذا اعتقلوك دون جرم؟

الدرويش : أحمد الله أني المظلوم لا الظالم.

حرفوش : وإذا جردوك من كل ماتملك؟

الدرويش : (بدأ الحق يظهر عليه) أحمد الله أني المسروق لا السارق.

حرفوش : وإذا طردتك امرأتك، لأن هناك رجلاً يتدفأ تحت لحافك.

الدرويش : أفرمها (يتوقف، يسمح بكفه على وجهه، يستعيد رواء قسماته ويتصنع الابتسام) أحمد الله أني الحافظ فرجه لا المفرط به.

حرفوش : (ساخراً) ما أبهى نفساً يتلأأ فيها هذا الرضى! أما صاحبي فإنه يتوجع وينوح بدلاً من أن يتلأأ.

حنظلة : (ببلاهة. وهو يتغرس في الدرويش وكأنه أعجوبة) يا سيدي الدرويش.. أيصيبك هذا كله، ولاتسأل لماذا يحدث لك ما يحدث؟

الدرويش : السؤال يقود إلى الشك، والشك إلى الضلال. أما الرضى فيقود إلى الحمد، والحمد إلى الإيمان.

حنظلة : من قبل لم يراودني أي سؤال، وكان الرضى يغمرني في

النوم واليقظة. لكن أشعر أنني أصحو بعد رقاد طويل في قفر، وكل ماحولي مرعب وغريب. لا.. إني مريض يا سيدي. لأستطيع أن أتحمل أكثر. أتوسل إليك أن تجد لي حلاً.

الدرويش : لا حلّ إلا أن تطهر نفسك من الشك والوسواس. داؤك في نفسك لا في بدنك.

حرفوش : (يقفز، يحمل المبخرة ويدور بها حول حنظلة الذي يدو في غاية الاضطراب) تطهّر يا عبد الله تطهّر.

الدرويش : دع الأسئلة، فهي منفذ الشيطان إلى القلب. وفتش عن الرضى.

حرفوش : تطهّر يا عبد الله.. تطهّر..

حنظلة : لاقدرة لي. منذ أن أوقفت بلا ذنب تهاجمني الأسئلة كالحكة.

الدرويش : تلك هي حكمة الشيطان.

حرفوش : تطهّر يا عبد الله تطهّر..

حنظلة : (يرتعد) حكمة الشيطان! (يرتعد ويقفز كأن الشيطان مته) خلصني يا سيدي خلصني.

حرفوش : تطهّر يا عبد الله تطهّر.

الدرويش : سنكتب لك حرزاً يلجم الشيطان، لكن نفعه مع الذكر أوفى.

حرفوش : الجأ يا عبد الله إلى الذكر، واطرد شيطانك.

الدرويش : الجأ يا عبد الله إلى الذكر، واطرد شيطانك.

(يتأهى غناء الذكر، يبدأ حنظلة بالتمايل مع الغناء، بينما يبدأ الدرويش في كتابة الحرز).

حرفوش : (غامزاً) الحرز أصلي يا سيدي الدرويش؟

الدرويش : (بامتعاض) لم يعرف عنا الغش أو التقليد. بسم الله الرحمن

الرحيم.. (يعلو الغناء، وينغمر حنظلة في الذكر.. يستمر
المشهد حتى ينتهي الدرويش من كتابة الحرز. يتاوله حروفوش
الذي يصيح بين حين وآخر «الله حي». تتلاشى الإضاءة
تدرجياً، ويظهر تداعي حنظلة الجسدي).

مكتبة سيد الأركية
www.books4all.net

في الهواء الطلق

(بعد أن يصمت الغناء نهائياً. تغمر المسرح إضاءة عادية.
حنظلة متمددة على الأرض يثن، وحرفوش يركب الأرجوحة
مرحاً، يفتح الحرز.)

حرفوش : (ضاحكاً) لم يعرف عنا الغش أو التقليد.. هذا الحرز ينفع إن شاء الله للمحبة ووسوسة الشيطان، والعين والنظرة والشقيقة والصداع والضارب والسرطان والرمد والرعاف وحل المربوط وخلاص المسجون وبكاء الأطفال والفرع والبيع والشراء وسفر البر والبحر والمرأة المتعسرة الولادة والبت البائر المعتوقة قاف.. هاء.. قاف.. هاء.. كل شيء كل شيء احجبوا عن حامل كتابي شر كل شيء يؤذيه بحق هذه الأسماء وبحق هذا الخاتم (يتجه نحو حنظلة) انهض يا صاحبي واستبشر، بفضل هذا الحرز وكرامة الدرويش لن ينالك الأذى بعد اليوم. (يختلج جسد حنظلة، وكأنه مايزال تحت تأثير الغناء ثم يهمد) آه ما أعذب أن يغفو المرء بعد أن تشمله الطمأنينة.

حنظلة : (توجع وأنين) لا أقوى على النهوض. رأسي تعج بالذباب (يحاول أن يللمم جسده ويجلس) جسدي كله دمايل ورضوض. ضرب الحزام لم يكن أوجع (فجأة يتأرجح رأسه ذات اليمين وذات الشمال في حركة آلية ولا إرادة كأنه يسمع إيقاع الزار. يحاول أن يوقف رأسه بيديه. لا يفلح. صارخاً بحلق ورعب) أوقف لي رأسي. (يقبض حرفوش على رأس حنظلة. ويثبته بعد جهد. يتجمد الرأس وترتخي القسمات في تعبير ذاهل كأنها قناع. ثم تأتي نوبة الضحك.

يطبق حرفوش يده على فمه، إلى أن يهدأ.. يضرب كفاً بكف) والله كئملت معي. فوق كل الأوجاع هذا الضحك، ودوار في رأسي. آخ إني دائخ. كل مافي ذهني تشوش أكثر من قبل. ماعاد هناك أمل في أن أفهم أي شيء.

حرفوش : كم تحب التأفف! من الطبيعي أن ينالك بعض التعب والاضطراب. خروج الشيطان من البدن المسكون، يسبب دائماً صدمة عنيفة، وقد يؤدي إلى الجنون أحياناً.

حنظلة : خروج الشيطان!

حرفوش : نعم.. أما سمعت سيدنا الدرويش! كان الشيطان يغويك. بالذكر فرع الشيطان وفرّ، وهذا الحرز الذي كتبه لك سيرد غوايته عنك. (يدس له الحرز في صدره) الآن تطهّرت، وبعد قليل ينجلي ذهنك، ويغمرك الرضى كال موجة الدافئة.

حنظلة : (بغف وهو يدق الأرض بقدمه) ومن أين يأتي الرضى بعد كل ما حدث؟

حرفوش : أعود إلى الأسئلة وغوايتها؟ لاتلحف في السؤال، فإن السؤال يقود إلى الضلال. هذا ما قاله سيدنا الدرويش.

حنظلة : وأنا أقول هذه معاجزة. أفقد كل شيء، وتريدني ألا أسأل من أين يأتي الرضى! منذ أن اعتدوا عليّ، لا أستطيع أن أرد الأسئلة. إنها تحفر رأسي كالمغازر (يضع يده على رأسه) آخ.. دوار وألم. أراك تدور.. الهواء يدور. (مشيراً إلى المتفرجين) هؤلاء الغرباء يدورون.. كله يدور.

حرفوش : ما أسرع ما تيّأس! انتظر حتى تشطف الطهارة قلبك. وتستقر فيه بركة الحرز.

حنظلة : (بغضب، يتنزع الحرز من صدره ويلقيه على الأرض) الحرز.. الحرز..

حرفوش : أيها التعيس!

حنظلة

: (يتبلد وجهه فجأة.. يركع بحركة تتم عن الخوف والندم، يريد أن يتناول الحرز، لكنه يتوقف، وتعاوده نوبة الغضب) إنك تلهو بي كما يلهو الولد الشقي بعصفور مريض.

حرفوش

: (متصنعاً الغضب) وأنا الذي تحملت هذه المشاق من أجلك! إذا لم تشكرني ليس ضرورياً أن تشتمني. (يدير له ظهره ويتعد متخلياً عنه) سأتركك تتمرغ في الزبل وحيداً.

حنظلة

: لا.. بحق الله لا تتركني. (يجري وراءه ويمسكه من كفه) لم يبق لي أحد، ولا أعرف ماذا أفعل! من المؤكد أنني لا أميز التعبير المناسب، لكن أرجو أن تصغي إليّ.. (يتوقف، يلاقي غناء في البحث عن الكلام) كيف أصف لك! فجأة رأيت كما يرى النائم. (يتوقف) لست نائماً، وما يحدث لي ليس بالحللم. الأصح أن أقول، فجأة صحت من نوم عميق.

حرفوش

حنظلة

: (يقفز مصفقاً) بدأ يفهم.. بدأ يفهم.
: أفهم.. أنا أفهم؟.. بل هذه هي المشكلة. لم تدعني أكمل. صحت فوجدت كل ماحولي فوضى مفزعة. الأشياء مقلوبة عليها سافلها، والناس ينكرونني، ويتفقون على إهانتني. كل هذا حدث فجأة. فكيف يمكن ألا أستغرب وأسأل؟ مامعنى أن يحقنوني بالضحك بعد كل بلائي؟ ومم يجب أن أظهر؟ أليس الأوجب أن يتطهر الذين أهانوني، وعذبوني؟

فوش

سمة

: إنه يجده.. إنه يجده..

: ماهو؟..

: الطريق إلى المعرفة.

حرفوش

حنظلة

: المعرفة؟ ولكن لا أعرف لماذا يحدث لي ما يحدث؟

حرفوش

: تابع السؤال وفكر. (يبدل حنظلة جهداً بالغاً في محاولة التفكير) فكر فأنت تقرب من الجواب.

- حنظلة** : (يضاعف جهوده العضلية في محاولة التفكير. بعد لحظات ينفجر يائساً) لا أدري.. إني أفكر.. أحاول أن أفكر. إلا أن هناك جداراً من الظلام يوقفني. ربما.. لاشك أن الفهم يحتاج إلى قوة خارقة أو تدريب طويل..
- حرفوش** : (يستعيد حيوية اللاعب ويتجه إلى الجمهور) حقاً إن الفهم يحتاج إلى تدريب طويل. وصاحبنا بدأ التدريبات الأولى. إنه يخطو على الطريق، لكن مازالت أمامه مسافات. ومشيت معه. ليس المهم أن نجد لسؤاله جواباً جاهزاً، بل أن نعلمه كيف يجد الجواب بنفسه.. (الآن يصبح الإيقاع سريعاً، وينسلخ المثلان عن دوريهما.. إنهما يؤديان مايرويه حرفوش، وكأنهما يحكيان قصة قديمة..) ومشيت معه.
- حنظلة** : طرقتنا أبواباً كثيرة.
- حرفوش** : كلها تقدم خدمات وأجوبة.
- حنظلة** : بعد إلحاح وانتظار طويل.
- حرفوش** : استقبلنا المثقف الحكيم.
- حنظلة** : رجل عظيم، يشعر المرء أمامه بالضآلة والرهبة.
- حرفوش** : إنه يعيش في بيت من الكتب.
- حنظلة** : آه الكتب.. مشهد يبلبل الفكر، ويزوغ فيه النظر.
- حرفوش** : الجدران كتب، والأثاث كله مصنوع من الكتب. السرير والمقاعد والمنضدة، وحتى أكواب الماء، ومنافض السجائر. استقبلنا الحكيم بوقار، وحنظلة يضطرب، ويتعثر.. (يحاول حنظلة أن يجلس، يخاف فينهض بسرعة.. يكاد مراراً أن يقع.. يبدو وكأنه دخل إلى متاهة).
- حنظلة** : (مدارياً اضطرابه، يرفع صوته ليسيطر على نفسه) ياسيدي الحكيم أنا إنسان بريء.
- حرفوش** : (يتخذ وضعية الحكيم. يبدأ الكلام هادئاً، ثم يعلو تدريجياً. في

النهاية تختلط الكلمات والحروف في تدفق صوتي مخيف).
 مامن إنسان بريء. البراءة هي العدم، الإنسان يأتي من
 العدم، وإلى عدم يصير. إذن البراءة قبل وبعد. ومن المستحيل
 أن تتزامن مع الوجود. الحماسة وحدها تتزامن مع الوجود. بين
 براءتين توجد الأفعال والكلمات، ولهذا فإن كل الأفعال
 والكلمات حماقة وعبث. ما بين براءتين كل الأفعال
 والكلمات. لهذا فكل الأفعال والكلمات باطل الأبطال.
 الكل باطل، والكل قبض الريح. دور يمضي ودور يجيء.
 الشمس تشرق ثم تغيب. كل الأنهار تجري إلى البحر،
 والبحر ليس بملآن. ما كان فهو ما يكون، والذي صُنع فهو
 الذي يصنع..

(يمكن أن يستمر هذا المقطع إيمائياً. حروفش يومي متحدثاً..
 وحظلة يضع إصبعه في أذنيه وهو يعوي متوجعاً.. في نهاية
 المشهد ينطرح على الأرض أو يجري خائفاً وكأن الكلام
 كلاب تطارده.. يهدأ عندما يعلن حروفش الانتقال إلى مكان
 آخر).

حروفش : بعد المثقف الحكيم، طرقتنا باب جمعية التأخي الاجتماعي.
 حظلة : استقبلتنا سيدة موقرة.

حروفش : كان وقتها ضيقاً لايسمح لها أن تصني إلى القصة كلها.
 قاطعت حظلة، وألقت محاضرة مسهبة عن ضرورة التسامح
 الاجتماعي.

حظلة : وفي النهاية حملتني رزمة ثقيلة من النشرات والمطبوعات..
 (يدو حظلة، وكأنه يجد صعوبة في حمل كل المطبوعات.
 يسقط بعضها، يحاول أن يجمعها فتسقط مطبوعات أخرى..
 في النهاية يرميها كلها ويدأ يدوس عليها غاضباً).

حروفش : ثم واتتني فكرة لماعة. لماذا لانذهب إلى قسم «الرقابة الشعبية»

في جريدة «الوطن». وهي جريدة ذات نفوذ قوي، وواسعة الانتشار.

حنظلة : دخلنا مكتب سيد محترم، استقبلنا دون فظاظلة.
حرفوش : أوصى إلى القصة ولم يتأفف. دون بعض الملاحظات، واستفسر عن شؤون الحياة الزوجية.

حنظلة : في ختام الحديث كان بشوشاً. وعدني بحرارة أن يجد لي حلاً، ويساعدني على فهم ماجرى.

حرفوش : قال له وهو يودعنا، اعتمد علي واشتر غداً جريدة «الوطن». (بعد هذا الفاصل، يعودان إلى مايشبه الوضعية السابقة. حنظلة مهذود، تتابه الضحكة، ولحظات الانشده.. بينما يمارس حرفوش لهوه، وحركاته البهلوانية).

صوت من الكواليس: الوطن.. الوطن.. الوطن.. اشتر الوطن.. اشتر الوطن.

حرفوش : (يقفز في الهواء) إنها الجريدة.

حنظلة : (يتنفض ببلاهة) الجريدة!

حرفوش : جاء الفرج يا حنظلة. سأخطف عدداً على الفور. (يتناول عدداً من الكواليس).

حنظلة : (وهو ينهض بأمل) أكون هذا السيد قد تذكرني؟

حرفوش : (وهو يحمل الجريدة) الآن ستفهم سبب كل المصائب. (وهو

يقلب الصفحات) الرقابة الشعبية.. الرقابة الشعبية.. ها هي الصفحة. (يصفر) ماهذا؟.. وحق الله إن قصتك تحتل رأس الزاوية.

حنظلة : (فرحاً كالطفل) أرني.. أرني..

حرفوش : انظر.. انظر.. مواطن اسمه حنظلة ثلاث نقاط يشكو امرأته للرقابة الشعبية.

حنظلة : يشكو امرأته!

حرفوش : دعنا نقرأ الموضوع أولاً.

حنظلة
حرفوش

: طيب.

: حدثت هذه القصة في مكتبي. دخل إليّ مواطن اسمه حنظلة ثلاث نقاط لابتدو عليه البلاهة.. وإن كانت عباراته تعاني بعض التفكك. روى لي حكاية مسهبة عن مشكلته العائلية. وهي تقريباً الحكاية التقليدية. غاب الرجل عن البيت فترة، وحين عاد فارت الزوجة في وجهه، وأوصدت الباب دونه. وهو لا يعرف لماذا.. ويبدو أن الحادثة سببت له صدمة عنيفة فأصبح يختلق أحداثاً غريبة، ويتصور أنه موضوع كوارث متلاحقة. طبعاً القصة كلها عادية، لكن ماهو طريف ومثير هو أن يلجأ هذا المواطن إلى زاوية الرقابة الشعبية كي تجد له حلاً. إلى أي وزارة يمكن أن نحيل هذه الشكوى؟.. أم نقترح على الحكومة إنشاء مديرية مختصة بالشؤون العاطفية! على أي حال، نرجو أن تقرأ زوجة المواطن حنظلة.. ثلاث نقاط، شكواه وأن تختار عمران عشها الزوجي لا خرابه بعد هذه الحكاية المسلية تنتقل إلى مشاكل المواطنين الجادة. ده.. ده.. وهذا كل شيء.

حنظلة
حرفوش
حنظلة
حرفوش
حنظلة

: وتوقيفي؟!

: هذا كل شيء.

: وسرقة أموال! وطردي من العمل!

: هذا كل شيء.

: (يغضب بعنف) لا.. إنهم يضحكون على ذقني. يجعلونني مسخرة. كذب واحتيال. أهكذا تعامل مشاكل المواطنين ومصائبهم؟. مسخرة المساخرا! أصبحت مسخرة.. الكل يسخر مني، ويضحك على ذقني. واحد يدغدغني، والثاني يروعني بالمعاصي، والثالث يدوخني بالأحاجي والرابع ينصحني بالتسامح الاجتماعي، والخامس يحوّل كل مصائبي

إلى قصة هزلية سخيفة. (يتوقف فجأة، تبرق عيناه) على الأقل، بدأت أفهم شيئاً مؤكداً.

حرفوش

: (ملهوفاً) ماهو؟.. ماهو؟..

: كل هؤلاء يسخرون مني، ولا يريدون أن أفهم لماذا يحدث لي ما يحدث.

حرفوش

: النور يضيء عقله. خطوة قصيرة، ونصل.

حنظلة

: نعم.. متفقون كأفراد العصابة الواحدة. هذا غش فاضح.. هذا احتيال في وضوح النهار. ألا توجد قوانين؟ ألا توجد حكومة؟

حرفوش

: وجدتها يا حنظلة.. وجدتها. تلك فكرة باهرة.

حنظلة

: ماهي؟..

حرفوش

: أن نقابل رجال الحكومة.

حنظلة

: (تعود البلاهة المضطربة فتكسو وجهه) نقابل الحكومة؟

حرفوش

: المبني قريب.. ولاشك أنهم يعرفون، وهم رعاة الرعية سبب مايلم بالمواطنين من مصائب. على كل، تلك هي مسؤوليتهم.

حنظلة

: (متردداً وقلقاً) أظن أن مشاغل هؤلاء الموقرين تسمح باستقبالنا؟

حرفوش

: واجب الحكومة هو السهر على راحة المواطنين، وتحقيق آمالهم. لا.. لم يبق أماناً إلا رجال الحكومة. في البداية لم أقدر صعوبة المشكلة. وإلا كان ينبغي أن نتوجه إليهم فوراً. هيا بنا.. هي خطوة ثم تفهم كل شيء. (يجره وراءه.. بلهجة إعلانية) عند الحكومة (يتم تغيير الديكور والسير على إيقاع مارش عسكري).

عند الحكومة

(تتصب طاولة عالية. يجلس وراءها أشخاص الحكومة الأربعة. وهم: الأول: الشرطي في بزة عسكرية، الثاني: الطبيب بنظارتين ضخمتين، الثالث: الدرويش، الرابع: رب العمل. ومعهم سكرتيرة هي الزوجة. سنشير للأشخاص بالأرقام لكن ينبغي أن تكون هوية كل شخص واضحة، وأن يتذكره المخرج. الفرق يكمن في تضخيم الملامح والمبالغة في أمارتها المميزة. السكرتيرة لعوب، يتصف تعاملها مع رجال الحكومة بالمجون. يدخل حنظلة بخطوات مترددة، محني الهامة بكثير من الاحترام والوقار. أما حرفوش فيدخل بصورة ساخرة.. جذعه إلى الوراء، ركبته مشيتان قليلاً، ويداه على فخذه. يتوقفان. حرفوش يلكز حنظلة لكي يبدأ الكلام.. فيرتبك وتأخذه رعدة.. يداري وضعه بمزيد من الانحناء والاتضاع. ينحيه حرفوش قليلاً، ويتقدم بطريقته الساخرة).

: أيها السادة الموقرون. هذا صديقي حنظلة. حلت به مصائب أثقل من قامته الضئيلة. وهو لا يعرف سبباً لها أو تعليلاً. فجاء إليكم آملاً أن يجد ما يحتاج من الإيضاحات الحكيمة. والحلول الفعالة.

حرفوش

(يتبادل رجال الحكومة السجائر في حركات توقير شديد المبالغة: وتشابك أيديهم بعلب السجائر، ويستحسن أن تكون ذات حجوم كبيرة. بعد السجائر تعود الأيدي فتشابك بالولاعات من كل الأصناف، سحابة من الدخان ترتفع فوق رؤوسهم التي تتقارب، وكأنها في غمار مشاورة. الحوار هامس).

الشخص ٢ : سدّوا أذانكم، فأماننا زبون نواح.

- الشخص ٣ : الحزم.. الحزم فهو أوضح الإيضاحات.
(تباعد الرؤوس. يتحطم الشخص الأول، ثم يوجه كلامه إلى حنظلة بلهجة خطائية).
- الشخص ١ : نحن هنا.. في الليل والنهار، في الطقس البارد وفي الطقس الحار، كي نرعى المواطنين رعاية الأم للطفل الرضيع.
حنظلة : (يتشجع حنظلة ويوجه الكلام إلى الشخص الأول) رعاكم الله وحماكم. هذا قول يطمئن ويبشر بالفرج. حقاً كان الأولى أن أجيء إليكم على الفور. سأروي قصتي من أولها.
- الشخص ٤ : أوجز أيها المواطن فوقت الحكومة ثمين.
حنظلة : حاضر.. حاضر.. (يبدو أنه يبحث عن أسلوب مختلف في الكلام. فجأة) إلا أن البداية هي أساس كل المصائب، وهي أول ما أتمنى أيها السادة الموقرون أن توضحوه لي. أنا رجل مستقيم.
- الشخص ٣ : لا تباها أيها المواطن.. فالحكومة لاتبأ الذين يتباهون.
(حرفوش يضحك ضحكاً مكتوماً، حنظلة ينظر إلى الشخص الثالث ببلادة، ثم يغمض عينيه كأنه يفر من ذكرى).
حنظلة : (بعد تردد) والله لا أقول إلا الصدق.
- حرفوش : (يلكزه) إلى الوقائع يا صديقي.. إلى الوقائع.
حنظلة : (مرتبكاً) الوقائع.. نعم.. أيها السادة الموقرون.. كنت أسير في الشارع بكل أدب واحترام. وعند منعطف صغير هاجمني رجال الشرطة ثم رموني في الحبس. إنني أسألكم أيها الموقرون، وفي يديكم السلطة والقانون، أهذه هي العدالة؟ وهل يجوز أن تقبض الشرطة على الناس دون ذنب؟ (تتقارب رؤوس رجال الحكومة للتشاور. الحديث هامس).
- الشخص ٤ : قاعدتنا الأولية.. الوقاية خير من العلاج.
- الشخص ٢ : وفي حالات الاستعصاء الدماغية عصا الشرطي هي المجدية.

الشخص ٣ : كنت أقول دائماً، يستحق رجال الشرطة أكثر مما يأخذون.
(تباعد الرؤوس. يتحطم الشخص الأول، ثم يوجه كلامه
إلى حنظلة بلهجة خطابية).

الشخص ١ : عندما ينعس المواطن ينام ملء جفنيه. ولماذا ينام المواطن ملء
جفنيه؟ لأن الحكومة ساهرة كالأم الحنون. عليها أن تحفظ
الشوارع هادئة، والبيوت آمنة، ورقدة المواطن هائثة. ولهذا
يتحتم علينا، أن نعتقل الشبهة وشبهة الشبهة. وأن نسحق
الشغب، وهو ما يزال في الخواطر والنوايا. ماسمعناه منك
أسعدنا، وأثلج صدورنا، لأنه البرهان على أن رجالنا الأشداء
يؤدون واجبهم على أحسن وجه.

الشخص ٤ : أكدنا مراراً ونعود فنؤكد، حبس احترازي خير من مواجهة
فتنة.

الشخص ٣ : والقضاء على نوايا الشغب يمنع ظهور الشغب.

الشخص ٢ : وإنها الحكمة من رجال الشرطة ألا ينسوا أبداً هذه القاعدة.

الشخص : أظن أن هذه النقطة صارت واضحة. فهل هناك نقطة أخرى؟

حرفوش : (يضرب حنظلة على ظهره) هيا إلى النقطة الثانية.

حنظلة : النقطة الثانية.. ولكن.

حرفوش : الأولى أشبعت وضوحاً. فإلى الثانية، ولاتنس أن وقت

الحكومة ثمين. (حنظلة يتطلع مرتبكاً إلى رجال الحكومة.

نظراته هي بين الضراعة والخوف. إنه يبدأ بالتعرف عليهم
تدرجياً..).

حنظلة : (بعد تردد) طيب.. وهذه محتتي الثانية. زوجتي التي

قاسمتها السرير نصف عمري. طردتني، وأغلقت الباب في

وجهي. إني أسألكم أيها السادة الموقرون، ماذا أفعل؟.. أليس

هناك إجراء فعال ضد هذا الجحود؟

(يتبادل الأشخاص السجائر بالطريقة الآتفة الذكر).

- الشخص ٣ : (بعد فترة فيما يحملق حنظلة فيه، وكأنه يتعرفه) هن لبوس لكم وأنتم لبوس لهن. الأسرة هي الخلية الأساسية في جسد المجتمع إذا أينعت أينع المجتمع. لن تدخل الحكومة تحت اللحاف لتكشف ماينك وبين زوجك. لكن يسرنا أن تقف الزوجات الفاضلات معنا، وأن تعامل المرأة بالحزم زوجاً يفضل التسكع المشبوه على البقاء في كنف أسرته.
- الشخص ٤ : المرأة التي تغلق الباب في وجه زوج متسكع تسهم في البناء الاقتصادي.
- الشخص ٢ : تشجع التناسل، وتجدد شباب المجتمع.
- الشخص ٣ : تقوي أواصر الأسرة، وتحفظها نقية طاهرة.
- الشخص ٢ : وإنها لحكمة من الزوجة المواطنة ألا تنسى أبداً هذا القاعدة.
- الشخص ٤ : فهل هناك إيضاح أوضح من هذا الإيضاح؟..
- حنظلة : وضوح إيضاح الإيضاحات.
- حرفوش : والثانية قتلت وضوحاً، فإلى الثالثة إن كانت هناك ثالثة.
- حنظلة : (بدأ يتعرف عليهم. لهجته تشوبها منذ الآن رنة الاستخفاف وهدوء من يكشف الحقيقة) الثالثة أدام الله فضلكم. لماذا تُسرق أموالى وفوق السرقة أسرح من عملي؟
- (تقارب رؤوس رجال الحكومة، الحديث هامس).
- الشخص ٣ : إذا تراخوا، أو تدمروا، فاستنفر الهمم إلى الاستشهاد.
- الشخص ٤ : أنت تعرف أيها المواطن أن قوة أي بلد لا تقاس بشروته فقط. وإنما بقدرة أبنائه على التضحية. إذا أنت لم تضحّ وهو لم يضحّ، فكيف نعلم هذه البلاد وبنيتها.
- الشخص ٢ : إذا أنت لم تحترق، وهو لم يحترق، فمن أين تأتي النار؟
- حنظلة : (بغضب) لماذا أنا؟ أنا دائماً من يضحي! أنا دائماً من يخونه الحظ! لماذا تتوافق كل الأشياء ضدي. كل الأشياء على الإطلاق؟ العمل، والحياة الزوجية، والمال والصحة، والحذاء.

وفوق هذا ما معنى هذه الآلة المعقدة من الكلمات الكبيرة
والشعارات.. من الواجبات والتضحيات.. يجب.. يجب..
يجب ثم ماذا.. ثم ماذا.. ثم ماذا..

الشخص ٣ : ولاتفقد الرضى، فإننا لا نحب إلا الراضين.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ٤ : من يفقد الرضى، يضيعنا.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ٢ : ومن يضيعنا تجده الشرطة.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ٣ : ومن تجده الشرطة تنطبق عليه الزنزانة.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ١ : أعلننا ونعلن.. في هذه المرحلة المثقلة بالمسؤوليات والأخطار،

يجب أن نكون كالبنيان المرصوص، تشدنا وأواصر القيم
والمبادئ الثابتة. لن نسمح لمشاغب أو موتور، أن يمس وحدة
المجتمع ومؤسساته. إن المسيرة المقدسة، مسيرة الشعب تحت
الحكومة، والحكومة فوق الشعب ستمضي حاشدة مدوية،
حتى تتحقق كل الأمانى العظيمة.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ٣ : انتهت الجلسة.

(يخرج الأشخاص).

: فوقت الحكومة ثمين..

(حنظلة يحملق فيهم، ويتابعهم، وهم يخرجون واحداً إثر
الآخر..).

: هل فهمت الآن؟

: (لهجة واثقة) حقاً فهمت. ظمآن وريقي ناشف. وإذن هم

أنفسهم. أنا أدور حول نفسي.. وهم أنفسهم.. متفقون

كأفراد العصابة الواحدة يسخرون من المساكين أمثالي،
ويعملون كي نبقى في الجهل والظلام.

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : أين كنت طوال هذه الفترة؟

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : وكيف كنت أحيًا؟

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : كانوا يسخرون مني دائماً وأنا غافل.

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : يضطهدونني، يسرقونني، يستغلونني وأنا غافل.

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : كانت حياتي السابقة كلها خدعة، وينبغي أن تتوقف هذه
الخدعة.

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : أستحق ما جرى لي..

حرفوش : (بلهجة إعلانية إلى الجمهور) وهكذا استفاق حنظلة.. كانت
الرحلة شاقة، لكنها تستحق العناء. فهم أخيراً أن سبب آلام
حنظلة هو حنظلة، وأن حياة حنظلة لا يغير مجراها إلا حنظلة.

حنظلة : كانت الرحلة شاقة، لكنها تستحق العناء.

حرفوش : (بقفزة بهلوانية) الاسم.

حنظلة : حنظلة بن حامد الحنظلي. مواليد الدرويشية.

حرفوش : المبدأ؟

حنظلة : كل ماحولي يعني، لأن فيه مصيري.

حرفوش : المبدأ؟

حنظلة : قولة امش الحيط الحيط وقل يا رب السترة لاتنقود إلى السترة.

حرفوش : هذا ختام الرحلة.

(تعود فترتفع من الكواليس أصوات رجال الحكومة بشكل
صاخب ومهدد).

أصوات رجال الحكومة : أعلننا ونعلن.. في هذه المرحلة المثقلة بالمسؤوليات، يجب أن
نكون كالبنيان المرصوص، تشدنا أواصر القيم والمبادئ
الثابتة. لن نسمح لمشاغب أو موتور، أن يمس وحدة المجتمع
ومؤسساته. إن المسيرة المقدسة مسيرة الشعب تحت الحكومة،
والحكومة فوق الشعب ستمضي حاشدة مدوية، حتى تتحقق
كل الأمناني العظيمة.

حرفوش : (متحدياً) وبدء الرحلة.

حنظلة : وبدء الرحلة.

(يكردان العبارة مراراً).

(ستار).

١٩٧٨

الاغتصاب

الى ناجي العلي،
ومهدي عامل،
وفواز الساجر.
الذين اغتالهم الظلام والزمن الصعب.

ملاحظات

* في بناء الحكاية، استغدت من عمل الكاتب الإسباني أنطونيو بويموبايخو «القصة المزدوجة للدكتور بالمي» وفي البداية كان مشروعني هو أن أعد نصّ بايخو ذاته للعرض المسرحي، ولكن سرعان ما عدلت عن الفكرة مؤثراً كتابة نصّ جديد حول قضيتنا المحورية، قضية الصراع العربي الإسرائيلي.

* ولعل من المناسب أن نذكر هنا، أن إلهام المسرح الحقيقي لم يكن في يوم من الأيام الحكاية بحدّ ذاتها، وإنما المعالجة الجديدة التي تتيح للمشترج تأمل شرطه التاريخي والوجودي. وحين كان الأثينيون القدماء يتوافدون منذ الفجر، حاملين سلال طعامهم وشرايهم إلى المدرجات الحجرية حيث تقام المسابقات المسرحية، لم يكونوا يأتون ليسمعوا حكايات جديدة، بل ليتأملوا شرطهم الحياتي والاجتماعي في ضوء المعالجات التي يقدمها المسرحيون العظام للحكايات المعروفة. كان الأثينيون القدماء يعلمون أن أغائمنون ستقتله زوجته وعشيقتها وأن أورشست سيقتل أمه، وما كانت سيرورة الأحداث هي التي تثير فضولهم وانتباههم، وإنما المعالجة التي يقدمها إيسخيلوس أو يوريبيدوس لهذه الأحداث، والرؤية الفكرية التي تطفو من عمل كلّ منهما. وبذلك كان المسرح يتحوّل إلى مكان للحوار والتأمل، إلى مكان للحرية وازدهار الحياة المدنية. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن كل التجارب المسرحية العظيمة. هل كان الجمهور الأليزايي يتدافع إلى المسرح الشكسيري لكي يعرف ما هي نهاية ماكبث أو ريتشارد الثالث أو أنطونيو؟.. بالتأكيد لا.. فقصص هذه الوجوه التراجيدية كانت معروفة ومتوفرة في الكتب التاريخية المتداولة في ذلك

العصر. لكنهم كانوا يتدافعون ليصفوا إلى الشعر، وليتأملوا واقعهم كما تشي به رؤى الكاتب وأفكاره.

لقد تعمّدت إيراد هذه الملاحظة لأن عدداً من نقادنا لم يفهموا جوهر المسرح. وهم يعتقدون خطأ أن العنصر الأساسي في النص، وفي العمل المسرحي كله هو الحكاية. ولذا فإنهم يمسخون المسرح وإلهامه الأصلي إلى تلخيصات سقيمة للحكايات، ويمسخون عملهم إلى مطاردة عقيمة لتقصّي أصل الحكاية.

لا.. ليس المسرح مكاناً للتشويق البوليسي. وهو لم يصبح كذلك إلا في فترة انحطاطه، مع ظهور الميلودراما والفودفيل وبقية ملاهي البورجوازية المنتصرة في أوائل القرن التاسع عشر. حين فقد المسرح إلهامه الحقيقي، وحين لم يعد مكاناً لتأمل الشرط الإنساني وممارسة الحوار، اتجه إلى قصّ الحكايات السليّة، وعكف على تأليف الحكايات البارعة والخواوية معاً.

• في هذه المسرحية راويان وحكايتان. راوٍ إسرائيلي وراويّة فلسطينية. حكاية إسرائيلية وحكاية فلسطينية. والحكايتان تتداخلان، وتتبادلان النمو. وإني أحلم بأدائين متميّزين. أداء يميّز الحكاية الإسرائيلية، وآخر يميّز الحكاية الفلسطينية. وكلا الأدائين ينبغي أن يكون جاذباً ورصيناً. وإني أحذر هنا من أي ميل لتقديم الشخصيات الإسرائيلية بصورة مضحكة أو فحّة، كما أحذر من المغالاة، أو من عجز الممثل عن ضبط عدائيته للدور الذي يؤديه. إني أريد أداء واعياً ورصيناً. أما كيف يمكن تمييز الأداء في هذا المستوى، فإني أعتمد في ذلك على بحث المخرج والفرقة التي تقدّم العمل. ربما أسعفت تراثيل المزامير، أو أسفار الملوك، أو حتى إيقاعية اللغة العبرية في استلهام أسلوبية متميّزة في الأداء. لا أدري كيف يمكن أن يتدبّر المخرج هذا الأمر، ولكي أجده ضرورياً.

أما المستوى الفلسطيني فإني أتصوّر الأداء فيه مبنياً على البساطة، ونوع من الغنائية المضمرّة. وهنا أرجو ألا يحدث أي خلط بين الغنائية والخطابية. لا مجال في هذه المسرحية للخطابة. بل إن أي اقتراب من الأداء الخطابي يخرب العمل، ويسطّخه.

* لاشك أن اخرج مع مثليه، والفنيين العاملين معه، هو مبدع له رؤيته، وله هواجسه الخاصة التشكيلية والبصرية. وأنا لأأمل أبداً إلى الحد من حرية اخرج. فهي ضمانه جوهرية لاكمال النص المشروع في عرض مسرحي مبتكر، وقادر على إثارة الحوار. ولكني أتمنى أن يفرد اخرج في رؤيته الخاصة حيزاً جوهرياً للأفكار. أن يجتهد كي يكون النص واضحاً، وكي يجرّ المتفرج إلى الإصغاء الهادئ. أنا أعرف أن المتفرج لدينا نافذ الصبر، هش الانتباه، وأنه بحاجة إلى محرضات قوية، وأحياناً مفتعلة، كي يتابع عرضاً مسرحياً. وهو لا يلام في ذلك. لأن هناك أجهزة ومؤسسات ضخمة تشكل استجابته وذائقته على هذا النحو. ومع هذا ربما حان الوقت كي نجد أساليب وإيقاعات في الأداء تساعد المتفرج على التركيز، وعلى الاهتمام بالحوار الذي يتابع، وصولاً للمتعة بالإصغاء إلى الأفكار التي تُطرح.

* هذه المسرحية نصّ مفتوح. أي أنه قابل للزيادات والتعديلات التي تخليها التطوّرات التاريخية. إن الرواية الفلسطينية لا تختم قولها بل تتركه مُشروعاً على أفق مفتوح. ولهذا فإن الإضافات والتغييرات التي تحقق راهنية العرض ممكنة. ومن نافل القول أن مثل هذه الإضافات والتغييرات ينبغي أن تعمق الرؤية العامة للمسرحية، لا أن تهدمها أو تجعلها ملتبسة، وحتى الرواية الإسرائيلية - وإن كان بدرجة أقل - هي نصّ غير مكتمل، والنقاش فيها يحتمل المزيد من الحاجة والتوتر. باختصار.. إنني أنظر إلى هذا العمل كمقطع مجتزأ من تاريخ عنيف، مقل بالاحتمالات والتحوّلات. وإن كل عرض لهذه المسرحية يجب أن يركز على وعي بالتاريخ وما يحمل من تغيّرات، بحيث يستفيد من البنية المفتوحة للنصّ كي يطرح القضية في سياق تحولاتها الراهنة. وهذا يرتب على اخرج بحثاً إبداعياً، لا في التكوين الفني للعرض فحسب، وإنما في التاريخ وسيرورته أيضاً. إن الوعي التاريخي هنا يضاهي الإبداع الفني أو هو شرط جوهرى له.

* تهيمن على فضاء المسرح - وهذا تصوّر شخصي غير إلزامي - كتلة ثقيلة من السلالم المعدنية الصدئة، والتي تفضي إلى مكتب مائير. غرفة واسعة، عُلقَت على جدرانها صور هرتزل وبن غوريون وبيغن، وخريطة لإسرائيل

التوراتية. المكتب يوحى بالفخامة والحدائق. له أبواب عديدة، وكلها تحدث صريخاً غريباً حين تفتح وتغلق. باب يفضي إلى غرفة داخلية حيث تتم الحفلات.. وباب يفضي إلى غرفة انتظار. هذه الكتلة التي تؤلفها السلالم والمكتب تبدو وكأنها تدهم فضاء المسرح، وتسيطر عليه.

ماعدا ذلك، فإني أقترح تحديدات رمزية للأماكن التي تتعاقب فيها الأحداث. يمكن أن تتم هذه التحديدات بتعدد المستويات وقطع أثاث قليلة لها طابع الاستعارة، أو بلوحات متحركة على هيئة سواتر يرمز كل منها لمكان، أو حتى للافتات مكتوبة. المهم أنه لا اداعي على الإطلاق لخلق الفضاء بركام من الأمكنة الواقعية المتخمة بالأثاث. والحضور الرمزي للمكان يساعد على مرونة الحركة من جهة، كما يبرز فضاظة الكتلة الواقعية المؤلفة من متاهة السلالم والمكتب من جهة أخرى.

الإضاءة تلعب دوراً هاماً في تتابع الأحداث، وتغير مواقعها.

سفر الأحزان اليومية / بداية...

(طابون في ركن من الدار. الفارعة ترقّ أقراص العجين، وتخبزها. قربها وعلى حشية بالية، مددت طفلاً ملفوفاً بالأقمطة).

الفارعة

: (تخرج رغيفاً ساخناً، وتشمه) هل تشم هذه الرائحة يا وعد! تلك هي رائحة الخبز الطازج. استنشقتها بعمق، وخزّنها في ذاكرتك. لاشيء يضاهي رائحة الخبز، إلا رائحة الأرض المروّية. هاتان الرائحتان هما أطف وأنبل روائح الكون. إنهما النعمة التي تغذي الشوق إلى البيت والحب والعمل. (يهمهم الصغير لاهياً) لا.. لا تقل إن عمّتك مخزّفة، وإن الوقت مبكر على الدروس. من يولد كالبضاعة المهرّبة لا يستطيع أن يتبع قوانين النمو الطبيعية! قل لي.. أليس القانون الطبيعي أن ترضع حليب أمك سنة على الأقل! ولكن كم يوماً وضعت من ثديي أمك؟ عشرين يوماً لا أكثر، ثم قطمت عنها. وبدأت طورك الثاني، أترى.. أنت محكوم بالنمو وفق قانون لا يخص أحداً سوانا! عليك أن تنمو كما ينمو الأطفال في الخرافات. ومبكراً يجب أن تفهم الشوق، وأن تتعلم الكلمات التي تناسب قصتك. حكى الولد وعد، وعمره بالشهور لا بالسنوات.. حكى قال: أنا

وعد بن محمد الصفدي، عرفت قبل الولادة قصتي.. حين كنت في بطن أمي، طردت مرتين من بلدي. ولما حانت ساعة ميلادي، عزَّ علي أن أرى النور في أرض غربة. فتمسكت بجدار الرحم، وعاندت حتى استطاعت أمي، أن تأتي، وتلدني في أرضي.. أنا وعد بن محمد الصفدي كافأت أمي بولادة سهلة. ويوم ولدت نسف الاحتلال خمسة بيوت في الحارة المجاورة، فأطلقت صرختي الأولى. وقبل أن أتمَّ أول شهوري، انتزعوا أمي مني، ورموها خلف الجسر.. ظلت تولول وتعصر صدرها، حتى تدفق خلفها نهر من الدموع والحليب. حليبي الذي خزنته مؤونة لي. لم أخاطر بالرحيل مع أمي خشية ألا يسمحوا لي بالعودة إلى وطني. بقيت في حضن عمتي.. وعمتي تريد أن أتمو كما ينمو الأطفال في الخرافات. أن أتعلَّم الشوق والكلمات وعمري بالشهور لا بالسنوات.. هكذا ستحكي يا وعد.. وستضيف، حين كان عمري سبعة شهور سجنوا عمي إسماعيل.. وعمتي تمنى أن أكون حين أكبر مثل عمي إسماعيل، ومثل جدي حسين الصفدي. أما أبي.. ولكن.. لا.. لندع أباك في همّه. (ترتب الأرغفة، وهي تتلذذ برائحتها) هذه هي رائحة البركة.. فهل نقشتها في ذاكرتك! يا الله.. هل نذهب إلى الخالة دلال؟

(تتلاشى الإضاءة).

ترتيبة الافتتاح

(في إضاءة خافتة، يتقدّم الدكتور أبراهام منوحين على الخشبة).

الدكتور : هذه مملكة العصاب والجنون. الرأس كلّ مريض، والقلب بجملته سقيم. من أخصّص القدم إلى الرأس لا صحّة فيه. بل كلومّ وخبّط وجراح طريّة لم تعصب، ولم تُلَيّن بدهن. (ينسحب الدكتور منوحين. بروق ودويّ انفجارات متتابعة. قوة إسرائيلية تنسف عدداً من البيوت العربية. مع الانفجار الأول تظهر الأم سارة بنحاس مفعمة الحماسة والهاياج. يتبعها ويتحلق حولها مائير وإسحق وجدعون وموشي ودافيد.. الانفجارات متواصلة).

الأم : كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البريّة ولبنان، من النهر، نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم.

مائير : وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً، فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرّمها تحريمًا.

جدعون : أبسلهم إبسالًا.

موشي : اذبهم ذبحاً.

الأم : ولا تعف عنهم. بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقرًا وغنماً، جملاً وحماراً.

ماتير : عليكم ألاّ ترحموا حتى تدمروا نهائياً مايسمى بالثقافة العربية، التي سوف نبني حضارتنا على أنقاضها.
(برق ودوي انفجار أخير ومديد.. تنسحب المجموعة).

محتوى سيرة الأديبة
www.books4all.net

سفر الأحزان اليومية / المقطع الأول..

(تدخل الفارعة حاملة الطفل على صدرها. وفي يدها الأخرى كيس فيه أرغفة طازجة وحاجات الطفل. تبدو دلال كتيبة ونافذة الصبر.. تتاول منها الطفل).

دلال

: اسم النبي حارسك.

الفارعة

: مدديه على السرير. ملّ من دروسي فنام.

دلال

: كم تأخرت!

الفارعة

: حملت لك خبزاً طرياً.

دلال

: ومن يجد شهية للطعام!

الفارعة

: ستجدين الشهية، وستأكلين. (تبدأ في وضع الطبق، وفرش

أرغفة الخبز عليه) انظري كيف غارت الحمرة في خديك. إذا

لم تجدي شهيتك، فإن أخي لن يجد ما يحضنه حين يخرج.

دلال

: هل عرفت شيئاً عنه؟

الفارعة

: ككل يوم، ذهبت واستفسرت. مازالوا في فرع التحقيق. لو

نقلوهم إلى السجن لعرفنا فوراً. (تضع على الطبق زيتاً وزعتر)

هذا هو الزعتر، وهذا هو الزيت. (وكأنها تهتف في مظاهرة)

زيت زعتر، زعتر زيت يلعن أبو الشين بيت. يا الله.. انضمي

إليّ ولنبدأ مظاهرة منزلية. (ترفع قبضتها وكأنها تسير في

مظاهرة) زيت زعتر، زعتر زيت يلعن أبو الشين بيت.

دلال

: وما هذا الشين بيت؟

- الفارعة : ألم تسمعي بالشين بيت من قبل!
دلال : لا أظن..
- الفارعة : إنه الجهاز المسؤول عن الأمن في الأرض المحتلة. الجهاز الذي يسجن، ويعذب، ويعد، ويحصي أنفاسنا.
دلال : أعوذ بالله..
- الفارعة : رددتي معي إذن.. زيت زعتر، زعتر زيت يلعن أبو الشين بيت.
- دلال : على صدري حجر ثقيل. يحدثني قلبي أن إسماعيل ليس بخير..
- الفارعة : (وهي مازالت تروح وتجيء لإعداد العشاء) دعك من الوسواس. أعرف إسماعيل كما أعرف نفسي. إنه صخرة، والإسرائيليون لن يغنموا شيئاً من مناطق الصخر.
- دلال : وهذا مايزيد خوفاً. لن يحتملوا كبرياءه وعناده.
- الفارعة : هل كنت تفضليته خرعاً يبول في سرواله.
- دلال : لا أدري ماذا أفضل! كل ما أريده هو أن يعود. لو تعرفين كم أشعر بالوحشة والخوف في غيابه! لم يمض على زواجنا إلا ثلاثة أشهر. وحين ضمتنا هذه الغرفة في ليلتنا الأولى، أحسست أنني أضعف من أن أتحمل سعادتي. لم تهمني معارضة أبي، ولا لفظ الناس حولي. كنت مأخوذة بالأيام البهية التي سنحيها معاً. أنا وهو وهذا العش. لكنه أخفى عليّ سرّه، ولم يخبرني شيئاً عن حياته الأخرى.
- الفارعة : أراد ألا يفزعك، أو ينقص فرحتك. لقد تردد طويلاً قبل أن يعزم على الزواج.
- دلال : نعم.. تردد طويلاً، وكدت أياأس. أحياناً كنت أشك في حبه، فتسوّد الدنيا في عيني، وأشعر أنني ضائعة.
- الفارعة : وكان يتنهد وهو يتحدث عن حبه. يحكي لي عن دفقة

الحياة والبراءة.. عن طالبة اسمها دلال، وأبوها تاجر كبير، يرفض مصاهرة معلم متواضع الأصل والمال. وفي حديثه، كان يخلطها بالأرض والمطر والزيتون. ثم يغغم.. إنها أغلى من أن أورطها بيؤسي ومخاطري.

دلال

: قال لي أبي، إذا واصلت عنادك فانسي أن لك أبا أو بيتاً. أجبته إذا كان هذا هو الثمن فإني أقبله راضية. كانت عيناه ناراً وبغضاً. لولا أُمِّي وخوفه من الفضيحة، لذبحني على عتبة الدار. لكنه بصق ودمدم، اغربي عن وجهي. بالنسبة لي أنت ميتة. خسرت أهلي وبيتي وما أسفت. وحين ضمنا هذا العش طويت الماضي، وتطلعت إلى المستقبل. كل صباح كنت أحس أنني متخمرة وناضجة. وقبل أن يعتقلوه بيومين تحدثنا عن طفلنا الأول. سميت «زاهر» وسماه «جهاد». كنت متيقنة أن في بطني بذرة تتكون. ولكن لم يكن هناك إلا الفراق.

الفارعة

: (تضع إبريق الشاي، وتجلس على الأرض.) لاتحدثني عن الفراق. سيعود وستعبين من الإنجاب. ولكن الخلفة تحتاج إلى بنية متينة.. يا الله يا دلال.. مدي يدك.

دلال

: لا أجد أي قابلية. : مفتاح اللسان كلمة، ومفتاح البطن لقمة. يا الله.. لاتجعليني أزعل.

الفارعة

(تحاول دلال أن تأكل.. عيناها غائبتان).

دلال

: أتعرفين! لقد فكرت طويلاً خلال هذه الأيام. لم نكن متعادلين. استغرق الحب كل وجودي. أما هو فلم يستغرق حبه إلا هامشاً من حياته.

الفارعة

: لا تظلميه يا دلال. كادت عزيمته أن تضعف من شدة الحرص عليك. كنتِ الضوء في حياته، وكان صوته يرتعش

- كلما أوصاني بك.
- دلال : لماذا لم تكفِ سعادتنا إذن!
- الفارعة : ومن يستطيع أن ينجو بسعادته في هذه الظروف!
- دلال : ألم تكوني شاهدة! كنا سعداء حقاً. الليالي أعراس والصباحات أحلام ولهو. لقد خاطر بالسعادة الملموسة من أجل أحلام غامضة كالضباب.
- الفارعة : وفي ليالي العناق.. ألم تلاحظي أن وجه إسماعيل كان يشحب أحياناً، وأحياناً كان يرق قلبه بعنف. وربما فُكَّ عناقه، وهمس.. سأرتاح قليلاً.
- دلال : هل كان يروي لك هذه التفاصيل!
- الفارعة : لا.. كان أعف من الخوض في هذه التفاصيل. ولكني أعرف إسماعيل وأعرف أن الواقع كان يصحبه إلى الفراش. يشحب وجهه حين يرى المداهمات، ويدق قلبه حين يتناهي وقع أقدام الدورية، ويشعر بالتعب حين يسمع الغارات تدك القواعد والمدن. كان يرى ما لا ترين، وكان يعلم أن عناقكما محاصر.
- دلال : أكان هذا الشقاء كله يشاظرنا الفراش!
- الفارعة : تلك هي الحقيقة يا دلال.
- دلال : ولكن لو رضي بالفرح المتاح لنا، وانزوى عن المشاكل. حولنا آلاف يواصلون الحياة، ويعيشون بأمان.
- الفارعة : إنه أمان كاذب. لم تغتصب إسرائيل بلادنا كي توفر لنا الأمان. انظري حولك جيداً. إن واقعنا مرعب. موت واعتقالات.. بيوت منسوفة وأطفال بلا أمهات. أتريدين أن يولد ابنك بلا هوية وبلا أمل! هذا الطفل النائم! لغموا حياته قبل أن يولد. إنه ينام الآن فوق لغمه. هو ونحن.. إننا جميعاً نعيش وسط الرعب. فكيف نشعر بالأمان؟ لا.. ماكان

إسماعيل يستطيع أن يقبع في هذه الغرفة، وينزوي عن المشاكل. في حالتنا، الانزواء عن المشاكل يعني الفناء البطيء.. ونحن لا نريد أن نفنى.

: لا أجهل المأساة التي نعيشها، رغم كرهى للسياسة وابتعادي عن أخبارها. ولكن.. كيف أعبر لك.. يجب أن تحبى كى تفهمى مشاعرى.

دلال

: ومن قال لك إنى لا أحب!

الفارعة

: هل تحبين حقاً؟

دلال

: نعم أحب.. بل أستطيع أن أقول إنى متزوجة.

الفارعة

: أهى إحدى دعاياتك! ما هذه القصة؟ ومتزوجة أيضاً!

دلال

: معك حق أن تستغرى.. هذا سر لا يعرفه إلا إسماعيل..

الفارعة

وماكنت لأقوله لولا معزتي لك، وحرصى على أن تشدى عودك.

دلال

: ولم السرية! هل هناك مايجب إخفاؤه؟

الفارعة

: لم يمهلنا الوقت كى نوثق العهد الذى تعاهدناه.

دلال

: ماذا حدث؟

الفارعة

: إنه فى السجن.

دلال

: منذ وقت طويل؟

الفارعة

: منذ ثماني سنوات وأربعة أشهر وتسعة أيام.. وإذا شئت

أستطيع أن أضيف الساعات والدقائق أيضاً.

دلال

: يا رب السماوات.. كل هذه المدة! وكم حكمه؟

الفارعة

: مؤبد..

دلال

: مؤبد! أى مدى الحياة!

الفارعة

: نعم مدى الحياة.. ومع هذا ها أنا أعيش وأعمل وأنتظر..

دلال

: وماذا تنتظرين؟

الفارعة

: أن يخرج..

- دلال** : كيف؟.. أنتوقعين معجزة؟
- الفارعة** : ولم لا!.. نحن شعب محكوم بالعيش وفق منطق مبتكر لا يخص سوانا. علينا أن نتوقع المعجزات كما نتوقع الأحداث اليومية المألوفة.
- دلال** : ألا تخدعين نفسك؟
- الفارعة** : حتماً لا.. إذا تسربت إلينا فكرة المستحيل ضعننا. لانستطيع أن نمضي من يوم إلى يوم، إلا إذا أيقنّا أن كل أحلامنا ممكنة، وأن المعجزات تجلس منتظرة مجيئنا غداً أو بعد غد.
- دلال** : يا الله ما أقواك، وما أشد إيمانك! ولماذا حكموا عليه بالمؤبد؟
- الفارعة** : لأنه اشتبك مع دورية إسرائيلية. كانوا أربعة.. قتل واحد وجرح آخر، وقبضوا على عمر ورفيقه مروان. وكلاهما حكم عليه بالمؤبد. في البداية كانوا في سجن الفارعة، ثم نقل عمر إلى سجن الرملة.
- دلال** : الفارعة!
- الفارعة** : نعم.. ولكثرة ما ترددت على سجن الفارعة، وغنيت ساهية عالفارعة عالفارعة، سماني إسماعيل الفارعة.. وتبعه الناس ظانين أن اللقب يعني الحاسرة والقوية أخت الرجال.
- دلال** : لم يخطئوا فأنت حقاً أخت الرجال.
- الفارعة** : آه لو تعلمين، ما هذه إلا قشرة برّانية تميّتها بالعزيمة والصبر. لقد دُفعت إلى بحر الأحزان قبل أن أتعلم السباحة. كان عمري ستة عشر عاماً حين فقدت أبي وفارسي الأول.. ألم يحدثك إسماعيل عن أبيه؟
- دلال** : مرة أو مرتين.. أعلم أن إسماعيل كان في العاشرة من عمره، حين فقد أباه.
- الفارعة** : نعم.. استشهد في أيلول السبعين، وهو يقاتل في مخيم الوحدات. كان رجلاً مجروحاً، انضم إلى العمل الفدائي

بعد هزيمة حزيران. حدثنا عن عمليات كثيرة شارك فيها، لكنه استشهد في عمان. كان محمد في الثالثة عشرة، وإسماعيل في العاشرة.. ولم تتحمل أمي المرض والفاجعة فتبعته بعد أشهر. وجدت نفسي فجأة كبيرة العائلة. كان ينبغي أن أرعى محمد وإسماعيل، وأن أتيح لهما متابعة الدراسة. اكتفيت بالشهادة المتوسطة، وبدأت أعمل كل شيء، كي أعوض الولدين عن أيهما.. نجحت مع إسماعيل وكان دائم التفوق.. ولكنني لم أنجح مع محمد.

: والشاب الذي ارتبطت به!

دلال

: كان عمر رفيق أبي في مجموعته الفدائية.. جاء به إلى البيت مرة، وحدثنا عنه كثيراً. كان شاباً أنهى دراسته الجامعية، لكنه ترك كل شيء وانضم إلى المقاومة. بعد رحيل والدي قدم لي مساعدة كبيرة.. ووسط الفاجعة كان ينمو بيننا شعور جميل وأخضر. أول مرة أمسك يدي، وغمر وجهي بنظراته الدافئة والعميقة، انحلت قواي، وذاب قلبي.. كان يغيب ثم يعود فجأة، فتورق روحي. كان يحب أخوي حبه لأخوته، وفي آخر مرة التقينا فيها نذرت نفسي له، وتعاهدنا على الوفاء مهما حدث.. ومازلت وفية..

الفارعة

: لم أكن أعلم أنك تتحملين كل هذه الآلام.

دلال

: هذه هي حياتنا يا دلال.. رويت لك كل هذا، كي تعرفي أنك لست الوحيدة التي تحب، والتي سجن حبها.. حولنا الآلاف من النساء المنتظرات. ولكننا نتعلم كيف نصبر، وكيف نتهياً للحظات الفرح القادمة. أحياناً أحس أنك حولت حبك إلى قفص ذهبي تقيمين في داخله، يجب أن يقوي الحب أجنتنا لا أن يضعفها. لقد حان الوقت كي

الفارعة

- نخرج من القفص، وتلمس الواقع. لن يخفف شقائك إلا
الكفاح ضد شقائنا جميعاً.
- دلال : ماذا يمكن أن أفعل؟
- الفارعة : هناك عمل كثير لمن يحزم أمره.
- دلال : أتعين المقاومة؟
- الفارعة : نعم.. المقاومة.. وكم ستكون فرحة إسماعيل كبيرة! ليس
هناك مخرج آخر يا دلال.
- دلال : لا أظن أن لدي قوتك أو إيمانك. تصورت حياتي على نحو
آخر.
- الفارعة : لا ينقصك الإيمان ولا القوة.. لكنك تسجنين نفسك في
قفص (وأواة الطفل) استيقظ الأمير.. (تثب دلال وتحمله)
لاعبه ريشما أحضر له الحليب.
- دلال : إي تعال.. لا.. لا.. جائع! الأزعر جائع.. حالاً.. حالاً
سيأتيك الحليب.. أنت وعد أم وغد..
- الفارعة : لن تسمح له عمته أبداً أن يكون وغداً.
- دلال : أسمع.. لايمكنك أن تحوص.. العمة وراعيك.
(يطرق الباب بعنف)
- دلال : لا أدري من يدق الباب.
- (تهرع الفارعة إلى الباب، ومعها أنبوب حليب ورصاعة)
- من؟ : الفارعة
- جدعون : (من الخارج) افتحوا.. أؤمن إسرائيلي.
- دلال : ماذا نفعل يا عمة؟
- الفارعة : تماسكي ولا تقولي شيئاً.
- جدعون : (من الخارج) افتحوا وإلا حططنا الباب.
- (تفتح الفارعة الباب بهدوء. يقتحم جدعون وموشي ودافيد
الغرفة، وهم يشهرون أسلحتهم).

- الفارعة : على مهلكم.. أفزعتم الطفل.
جدعون : أهذا بيت إسماعيل الصفدي؟
الفارعة : نعم.. وإسماعيل الصفدي معتقل لديكم.
جدعون : (نحو دلال) هل أنت زوجته؟
الفارعة : (تتاول منها الطفل وتحميها بظهرها) ماذا تريد منها؟
جدعون : هل أنت زوجة إسماعيل الصفدي؟
دلال : نعم..
جدعون : (إلى موشي) خذها.
الفارعة : إلى أين؟
جدعون : ليس شغلك.
الفارعة : خذوني بدلاً منها.
موشي : (يزيح الفارعة بعنف فتكاد تسقط، ويمسك بدلال) ابتعدي...
نريد زوجته.
الفارعة : كسر الله يدك. كدث أرتمي فوق الطفل.
جدعون : اخبرسي.. من أنت؟
الفارعة : ابنة عمها.
جدعون : وهذا الطفل؟
الفارعة : أتريدون اعتقاله؟
جدعون : تأديني وأجيبي.. أهو ابنها؟
الفارعة : لا.. إنه ابني.. هل تريد اعتقاله؟
مدعون : سيأتي وقته.. يا الله..
(موشي ودافيد يجران دلال، ويتجهان نحو الباب).
دلال : إني خائفة.
الفارعة : لا تخافي يا دلال. إنك أقوى منهم.. ارفعي رأسك
وتماسكي. إني أنتظرك هنا. (يخفي الجميع) كلنا ننتظرك
هنا. كم خاف عليها، وكم حاذر أن يوقظها! ولكن اليقظة

الآن ستكون خشنة ومرعبة. وأنت يا صغيري! هذا أيضاً
يجب أن تنقشه في ذاكرتك.. لا.. لا لم أنس أنك جائع.
من أجل عينيك نقاسي ما نقاسيه. يا الله.. ها هو الحليب..
ماذا حكى وعد وعمره بالشهور لا بالسنوات.. حكى قال:
الدجاجة لها بيت.. بيت الدجاجة اسمه القن.. العصفور له
بيت. بيت العصفور اسمه العش.. الأرنب له بيت. بيت
الأرنب اسمه الجحر.. أما أنا الفلسطيني فلا بيت لي.. لأن
بيت الفلسطيني يحيا فيه الآن عدو الفلسطيني.. ومن هو
عدو الفلسطيني..
(تتلاشى الإضاءة تدريجياً).

سفر النبوءات / المقطع الأول

(ضوء على الدكتور أبراهام منوحين. إنه في مكان يشبه الحديقة).

الدكتور : من يفرّج عني وجعي، فإن قلبي فيّ كتيب. آه يا مملكة العصاب والجنون. أبناؤك يتزفون وليس من يسعفهم، لأن الطبيب نفسه سقيم ويحتاج من يداويه.

(تدخل راحيل بنحاس زوجة إسحق بنحاس، حاملة زهوراً وكيس تسوّق. إنها شابة جميلة).

الدكتور : ينبغي أن أذيع مالدّي، لا لأضيف جديداً إلى علم الأمراض النفسية، ولكن لأن السكوت قد يعني التواطؤ. إني طبيب عجز عن إسعاف مريضه، لأنه لم يستطيع أن يتغلب على نفوره وإعيائه الداخلي. في حياتي المهنية كطبيب للأمراض النفسية، مرّت عليّ حالات كثيرة أشعرتني بالأسى أو الامتناع. لكن تلك أول مرة أشعر بهذا النفور الذي يصاحبه إعياء كتيب. أيمكن أن نسّمّي ذلك خيانة مهنية؟ ربما.. ومن موقعهم هو بالتأكيد خيانة. ولكن في هذا التاريخ المثقل بالأكاذيب، أليس للخيانة وكلّ النعوت الأخرى معنى مزدوج.. ألم يقولوا لإرميا لا تتنبأ لكي لا تموت بأيدينا.. ولكن من الإنسان الحكيم فيفهم هذا! إن مريضني رجل

- عاديّ يسكن على مقربة من عيادتي. أعرف زوجته جيداً.
 راحيل : (وقد أصبحت إلى جوار الدكتور) منذ سنتين عالجني من أزمة عصبية حادة.
- الدكتور : كانت تصيبها نوبات من الاندفاع يعقبها همود كئيب.
 فقدت خطيبها في إحدى نزهاتنا الحريّة، فانكفأت على حزنها والعناية بوالدها المريض.
- راحيل : وحين مات والدي وجدت نفسي أغرق في الكآبة والمرض.
 الدكتور : بعد عدد قليل من الجلسات تحسّنت وتعلّقت به.
 الدكتور : هذا يحدث أحياناً.
- راحيل : صدّني بيرود وصرامة.
 الدكتور : كان ذلك ضرورياً.
- راحيل : ذات يوم كنت أجلس في هذه الحديقة. لاحظت إسحق أنني أبكي، فاقترب مني. كان رجلاً مجرباً يوحى بالأمن والثقة.
 قال لي سأشفيك يا مريضتي الصغيرة، وبعد أيام تزوجنا.
- الدكتور : انقطعت عن العيادة، وبدا لي أنها شفيت تماماً.
 راحيل : صرت أتخاشى الدكتور، وأرتبك حين ألتقي به.
- الدكتور : ذلك اليوم، كانت عائدة من السوق. حيّني وقالت..
 راحيل : أحياناً أحنّ إلى هدوء العيادة، ومقعدها المريح.
- الدكتور : أتحبّين إلى المرض؟
 راحيل : بل إلى التعاطف وال.. ألا تريد واحدة من زهوري؟
- الدكتور : إنها أبهى وهي في يدك. أهنك متاعب عائليّة؟
 راحيل : لا.. إن زوجي رائع.. وقد عشنا أوقاتاً حلوة.
- الدكتور : والآن؟
 راحيل : لدينا طفلٌ رائع أتمنّى أن تراه.
- الدكتور : لو تشرفت بمعرفة زوجك لزرتكم.
 راحيل : سأعرفك به. إنه دائماً مشغول.

- الدكتور : مع وجود الصغير لا أخشى عليك من الوحدة.
راحيل : ولكن حماتي.. لن أصدع رأسك بالسخافات. هل أستطيع أن أدعوك للعشاء ذات يوم؟
- الدكتور : هذا لطف بالغ.
راحيل : سأتلفن لك قريباً.
الدكتور : اتفقنا.
راحيل : إلى اللقاء إذن.
الدكتور : إلى اللقاء.
- (تمضي راحيل، ويبقى الدكتور منوحين).
الدكتور : بدت قلقة، وكأنها تريد أن تفضي بشيء ما. خشيت أن تعاودها نوبات الاندفاع التي يعقبها همود كتيب. كان لديها طفل عمره أشهر قليلة. وكانت حماتها امرأة مليحة ومتكبرة. القلب أخذ ع كل شيء وأخبثه، فمن يعرفه؟! (ينسحب الدكتور منوحين).

سفر النبوءات / المقطع الثاني

(غرفة الجلوس في بيت إسحق بنحاس، تظهر الأم وهي تهدد طفلاً في المهد).

الأم : شطّفتنا الحبوب وحَقَضناه. صرت تعرف جدّتك.. آ.. ماذا تريد؟ أبوك أيضاً كان يضحك حين يريد شيئاً من أمّه. أغنية أم حكاية! هل نكمل حكاية داود الجميل؟ أنت تفهم ما أحكيه لك. أعرف.. أعرف أنك تفهم.. ونظر جوليات داود، فاستخفّ به لأنه كان غلاماً أشقر جميل المنظر. وقال جوليات لداود.. هلمّ فأجعل لحملك لطير السماء ووحش القفر. وكان لما نهض جوليات، وازدلف لملاقاة داود، أن داود مدّ يده إلى الكتف وأخذ منه حجراً، وقذف بالمقلاع، فأصاب جوليات، وانغرز الحجر في جبهته فسقط على وجهه. ولم يكن في يد داود سيف. فركض داود ووقف على الفلسطيني. (تدخل راحيل) وأخذ سيفه، وقطع به رأسه. راحيل : ترقّمي بالطفل يا أمّاه. أذناه الغصّتان لا تتحمّلان هذه العبارات.

الأم : إنها قصّة سمّيّه داود.

راحيل : سيسمعها كثيراً حين يكبر.

الأم : يجب أن يحفظها قبل أن يعيها. لقد أحسنت تربية ابني،

- وسأحسن تربية حفيدي.
- راحيل : طيب.. طيب، حملت لك بطاريات للراديو.
- الأم : شكراً.
- راحيل : (تنحني على المهد) وبنتوتي الحلوة كيف مزاجها. فرحانة لأن
ماما عادت!
- الأم : (بجفاف) لأحب أن تؤنّيه.
- راحيل : أترى كيف تحرص الجدة على ذكورتك؟ أرني أشياءك
الصغيرة إذن. لاشكّ أنّها مبلّلة.
- الأم : غيّرت له منذ قليل.
- راحيل : لا تترك لنا الجدة ما نفعله. هل تلفن إسحق؟
- الأم : لا.. لم يتلفن. ولكن جاءتك رسالة.
- راحيلة : رسالة!
- الأم : إنها على الطاولة.
- راحيل : (تتاوّل الرسالة) غريب.. إنها من عمتي التي تعيش في
أمريكا. منذ وفاة أبي لم تكتب لي.
- الأم : خير لها أن تأتي وتعيش في وطنها بدلاً من الثروة عبر
الرسائل. كم أزدري هؤلاء الذين يعتقدون أن الوطن يكفيه
لغو الرسائل وبعض المال.. (وأواة الطفل) أعرف.. أعرف أن
وقت الحليب حان.
- راحيل : سأذهب لإعداده.
- الأم : اقرأ لي رسالتك بهدوء (تهمّ بالذهاب، ثم تتوقف فجأة) متى
تنتهي إجازتك؟
- راحيل : تعرفين أن إجازتي مفتوحة.
- الأم : ألا تفكرين في العودة إلى المدرسة؟
- راحيل : هل تريدن التخلّص مني؟
- الأم : أشعر أن العودة للعمل ستفيدك. إنك تقريباً لا تخرجين.

- راحيل : إني مبسوطة في البيت.
 الأم : وإسحق؟ هل هو مبسوط؟
 راحيل : ولماذا تسألين؟
 الأم : أراه معظم الوقت متجهّماً.
 راحيل : لاشيء. إنه متعب قليلاً. يبدو أن العمل كثير هذه الأيام.
 الأم : هل يتذمّر من العمل؟
 راحيل : لا.. إنه متعب فقط.
 الأم : عليه ألا يتذمّر من عمله. وعليك أن تزيلي تعبهِ.
 راحيل : إنه لا يتحدث أبداً عن عمله. لا تقلقي.. إنه بخير.
 الأم : سأذهب لتحضير الحليب.
 (تنصرف راحيل إلى قراءة الرسالة. يدخل إسحق. تخفي الرسالة، وتخفّ للملاقاته).
 إسحق : مرحباً يا عصفورتي.
 (تحتضنه راحيل بعنف. يمسح على ظهرها بضيق وخرج).
 راحيل : إني سعيدة لأنك جئت.
 إسحق : مابك؟
 راحيل : لاشيء. مشتاقة لك. هل تبقى الليلة معنا؟
 إسحق : إلا إذا استدعوني.
 راحيل : عظيم. سأحضر لك الحلوى التي تحبّها.
 إسحق : والحبوب كيف حاله؟
 راحيل : رائع جداً. انظر كيف يتسم.
 إسحق : هل تبسم لبابا.. تريد أن ألعبك.. تعال..
 راحيل : حين دخلت كانت ماما تسألني عنك. لا يفوتها شيء.
 إسحق : تعرفين تعلّقها بي (تدخل الأم ومعها الرضاعة) أهلاً ماما.
 الأم : أهلاً يا بني.
 راحيل : أماه.. سيتعشى إسحق معنا.
 الأم : فعلاً!

- إسحق : إني اليوم محظوظ. العشاء تطهوه أمي. والخلوى تعدّها زوجتي. من مثلي! وفي الانتظار سأعزف على الكمان مسرّتي.
- الأم : (بامتعاض) هذا الكمان!. (تتردّد لحظات، ثم تخرج).
- إسحق : منذ زمن طويل لم أعزف عليه. نفسي مترعة بالبهجة، وأريد أن أحتفل.
- راحيل : أتريد حقاً أن تحتفل؟
- إسحق : ولم لا.. انظري.. إن دافيد يهزّ يديه وكأنه يرقص. أحتفل أنت أيضاً؟
- راحيل : هل تشعر بالبهجة فعلاً؟
- إسحق : لا أدري.
- راحيل : ألم تقل ذلك؟
- إسحق : أحاول أن أبدّد شكوكها. ولعلي أقنع نفسي. (تدخل الأم حاملة خفّاً منزلياً. تضعه أمام إسحق).
- الأم : اخلع حذاءك مادمت ستبقى.
- (يطيع إسحق أمه مثل طفل. يخرج مسدساً يتمنطق به، ويضعه على الطاولة، ثم ينحني ويخلع حذاءه. الأم تحدّق فيه).
- الأم : وجهك شاحب. هل تشعر بالإرهاق؟
- (الطفل يصرخ).
- إسحق : أبداً.. إن حالتي ممتازة.
- الأم : (تهدهد الطفل) لاتغضب يا ملكي.. شغلني أبوك قليلاً..
- تعال نشرّب حليينا بهدوء. (تدفع المهد، وتخرج به، وهي ترتّل) تقلّد سيفك على فخذك. وبجلالك اقتحم. شعوب تحتك يسقطون. اسمعي يا بنت وانظري. انسي شعبك وبيت أيك. الملك يشتهي حسنك، فاسجدي له.
- إسحق : ماذا تنشّد؟

- راحيل : مزاميرها المعتادة. ما أفسى حبها! تودّ لو تستأثر بكما دوني.
 إسحق : أرجو أن تتحملها.
 راحيل : لا.. لا تظن أنني أشكو، إننا نتفاهم ونمرح معاً.
 إسحق : ماذا كنت تقرأين حين دخلت؟
 راحيل : إنها رسالة من عمّتي. كتبت ترجوني زيارتها. يبدو أنها
 تعاني من الوحشة والخوف.
 (تتمسّح به راحيل، وتداعبه. يبدو إسحق محرجاً).
 إسحق : وما رأيك؟ أيمكن أن تلبي الدعوة؟
 راحيل : وأتركك أنت ودافيد! طبعاً لا. إنني لأأكاد أعرفها. ومنذ وفاة
 أبي لم تكتب لي. ألا تقبلني؟
 (يضمّها إسحق، ويقبل عنقها بارتباك).
 راحيل : آه.. كم اشتقت إليك!
 إسحق : أشعر بالخجل.
 راحيل : لا تقل ذلك. ضمني واسكت.
 (يحاول التملّص من عناقها).
 إسحق : هذا يحرّجني، انظري.. بدأت أتعرق.
 راحيل : أفسدك الدلال.
 إسحق : بحقّ الرب لانسخري مني.
 راحيل : (بحنان) إنك تهوّل الأمر. لماذا لاتقاسمني متاعبك. إنك
 لاتحدّثني أبداً عن عملك.
 إسحق : ليست لدي متاعب. وعملي هو عملي. لم يتغيّر شيء.
 راحيل : ولكننا لانكاد نراك.
 إسحق : هذه الفترة لدينا عمل كثير.
 راحيل : أترى! إنه إرهاق العمل إذن.
 إسحق : مرت أوقات كنت فيها أكثر إرهاقاً، ومع هذا لم يحدث أنني
 عجزت. هذا غير مفهوم.

- راحيل : (وهي تعانقه) اتفقنا ألا نزرع، وألا نستسلم.
 (يتملص إسحق من عناقها، فبتعد عنه متجهمة وكسيرة).
 إسحق : أرجو أن تفهمي ضيقي.
 راحيل : كنت أحاول التعبير عن حناني.
 إسحق : راحيل.. تعرفين أنني أحبك. بل إنني الآن.. أشعر أنني متعلق بك أكثر من أي وقت مضى.. ولكن.. كيف أقول ذلك..
 الإلحاح يزيد إحساسي بالحرَج.
 راحيل : لاتخطئي فهمي.. إنني لا أطلب شيئاً. والمسألة كلها عابرة.
 إسحق : وإذا لم تكن عابرة؟ لن تتحملني ذلك.
 راحيل : (تعانقه) أنا.. زوجتك.
 إسحق : (يتملص منها) لا أطيق هذا العذاب.
 راحيل : مارأيك باستشارة الدكتور منوحين؟
 إسحق : لا ينقصني إلا ذلك. سأغدو أضحوكة المكتب إذا علموا.
 راحيل : إنه طيب.
 إسحق : ولكنك تعرفين ماذا يعني طبيب الأمراض النفسية! وماذا يفعل هؤلاء الأطباء؟ إنهم يزدون الناس ارتباكاً.
 راحيل : أخبرتك أنه أفادني كثيراً.
 إسحق : ما أفادك هو الزواج لا الطبيب.
 راحيل : اليوم التقيت به، وتمتني أن يتعرف عليك. تأكد أن بوسعنا الاعتماد عليه. يمكن أن نذهب معاً إذا شئت.
 حق : سيكون ذلك مخجلاً.. لا.. لا أستطيع.
 راحيل : (يائسة) كما تشاء..
 (تأتي الأم وهي تحمل كوباً فيه دواء فوار).
 الأم : اشرب.
 إسحق : ما هذا؟
 الم : دواء للبرد.

- إسحق : قلت لك..
- الأم : اشرب فوجهك شاحب. (يذعن إسحق مثل طفل، ويشرب الدواء) لن يأكل الحلوى إذا لم تهزّي خصرك.
- راحيل : إني ذاهبة.
- إسحق : (تخرج المرأتان. يبقى إسحق وحده. يبدو عليه الإنهاك والقلق. يقترب من التليفون متردداً. يبحث في الدليل بعصبية. يرفع سماعة الهاتف، وهو يتلفت حوله حذراً. يركب الرقم).
- إسحق : آلو.. عيادة الدكتور منحين.. أريد موعداً.. اسمعي يا آنسة إني مشغول جداً ولا أستطيع المجيء إلا اليوم.. اعتبريها حالة عاجلة.. لا.. لايزعجني الانتظار في العيادة.. الساعة الخامسة.. اتفقنا.. بنحاس.. الاسم بنحاس.. شكراً... إلى اللقاء.
- راحيل : (يضع السماعة وعلى وجهه ارتياح. يغادر الصالون إلى غرفة أخرى. بعد قليل يتأهى عزف جميل على الكمان. يستمر ذلك فترة. أثناءها يعلو الضوء في المكتب. يظهر جدعون وهو يتلفن. يرن الهاتف في غرفة الجلوس. تأتي راحيل مسرعة من المطبخ وترفع السماعة.. عزف الكمان مستمر..).
- راحيل : آلو..
- جدعون : السيدة بنحاس..
- راحيل : نعم.. من يتكلم؟
- جدعون : إنه جدعون الذي يتموّج ويرتعش كلما سمع صوتك.
- راحيل : قلت لك.. لا أحب هذا المزاح.
- جدعون : مزاح! ومن يمزح! إذا كان الوجد والشوق والرغبة مزاحاً فلا شيء جادّ في الدنيا.
- راحيل : إنك تتجاوز الحدود.
- جدعون : وهل يعرف المسلوب تمييز الحدود!
- راحيل : سأغضب إن واصلت.

- جدعون : جميلة وأنت غاضبة. جميلة وأنت هادئة. جميلة في كل حالاتك.
- راحيل : هناك اعتبارات يا سيد جدعون.
- جدعون : منذ رأيتك أول مرة عرفت أنني عاجز عن مراعاة أي اعتبار. فيك شيء لا يقاوم. شيء تفتقده كل النساء الأخريات.
- راحيل : أرجوك لا تسخر مني.
- جدعون : أتمنّى الهيام سخرية؟
- راحيل : لديّ متاعب كثيرة فلا تزدها.
- جدعون : ألا يمكن أن أكون نافعا.. جرّبي الاعتماد علي.
- راحيل : مع هذه التصريحات، كيف يمكن أن أثق بك!
- جدعون : ما الذي لا أفعله كي أكسب ثقتك؟
- راحيل : إنني بحاجة إلى الصداقة. إلى العون والنصيحة لا أكثر.
- جدعون : أهذا ماتحتاجينه فعلاً؟ إن حياتنا قاحلة يا راحيل.. وهي لا توجد..
- راحيل : إنني متعبة. ولن أصغي إليك.
- جدعون : لك ماتريدين، سأذبح قلبي، وأقدّم لك هذا الصديق.
- راحيل : أتفعل؟
- جدعون : تعرفين أنني أسيرك. وأنت قادرة على صياغتي كما تشائين.
- راحيل : ما أبرع لسانك!
- جدعون : لو عرفت مشاعري لوجدت أن لساني مترجم ركيك.. لا.. لا.. اعذرني لن أتحدّث عن مشاعري بعد الآن. هل أستطيع أن أكلم إسحق؟
- راحيل : لحظة.. سأناديه لك.
- (تضع السماعة جانباً. يطفئو على ملامحها تعبير غريب.. تطرق الباب بهدوء ثم بعنف. يتوقف عزف الكمان، ويأتي إسحق..)
- إسحق : ماذا هناك؟

- راحيل : مخابرة لك.
 إسحق : (يتاول السماعه) آلو.. أهلاً جدعون.. ما الأمر؟
 جدعون : بابا ماثير يريدك في المكتب.
 إسحق : متى؟..
 جدعون : هذا المساء.
 إسحق : ولكن بابا تركني حراً هذا المساء.
 جدعون : طرأت أعمال جديدة. عاد الشحرور من المستشفى.
 إسحق : ألا يمكن أن تنوب عني؟
 جدعون : عندي مهمّة خارج القسم.
 إسحق : ابعث موشي أو دافيد.
 جدعون : بابا يصرّ على مجيئك شخصياً.
 إسحق : لديّ موعد مع الطبيب.
 جدعون : دعك من الدلال. ليس لديك ما تشكوه.
 إسحق : أؤكد لك أن مواعدي في الخامسة.
 جدعون : يمكنك أن تتأخّر بعض الوقت. أم أقول له إن العمل يثقل عليك؟
 إسحق : لا تكن أحمق.
 جدعون : إذن.. عانت زوجتك الفاتنة وتهيتاً. لديك اليوم حفلة دسمة.
 إسحق : طيب.. طيب.. (يضع السماعه بغضب) رجل فاجر..
 راحيل : أنتوي زيارة الطبيب حقاً؟
 إسحق : كانت مجرد ذريعة. أحضري لي الحذاء. أنا آسف. غداً سنتغذى معاً.
 راحيل : لا تنس سلاحك.
 إسحق : آ.. نعم.
 (يرشق قبلة على شفثيها.. وتلاشى الإضاءة).

سفر الأحزان اليومية / المقطع الثاني

(غرفة فقيرة ومرتبة.. تجلس الفارعة على حصير، وفي حضنها
الطفل وعد. تهدده وهي تغني بصوت خافت وشجي).

الفارعة

: باب الجفن مفتوح

إن طال هجرك عليا

لكسروا واعملوا لوح

وأعلم الحمام والعصافير وأقلها تنوح

مع السلامة إحنا رايعين نروح

وإن طال هجرك عليا

لكتبو على اللوح

وإن غلق باب المحبة

باب الجفا مفتوح

وأعلم الحمام ييكي والعصافير تنوح

(يدخل محمد متجهماً. يحمل كيساً صغيراً. يسلم ويجلس

على كرسي واطئ من القش).

: وما هو أبوك. أعرف ألعيبك. لاتتظاهر بالنوم. قم وسلم
عليه.

الفارعة

: دعيه إذا كان نائماً.

محمد

: يبدو أنه نام بالفعل.. سأضعه في فراشه. (تنهض وهي

الفارعة

تبسمل) عوذتك من الشيطان. اسم الله عليك وحولك.

(تضعه في السرير وتغطيه) تصور يا محمد. زرت اليوم السيد بشير البوسي والد دلال. قلت لعلها تكون مناسبة للصفاء، والدم لا يصير ماء. حين أخبرته عن ابنته غسلنا بالشتائم.. هي وأنا معها. خافت أن تسبب له متاعب مع السلطات، فسمانا قحاً وأومخرين.. إي والله سمانا مخربين، وأقسم أن يتبرأ منها أمام الحاكم العام والملا أجمعين..

محمد : هذا هو الفالح.. إنه يتر العضو الذي يؤلمه.
(ينفض بحركة عصبية. يأتي بكأس ماء.. يخرج من الكيس زجاجة عرق).

الفارعة : قطع الله الفالحين أمثاله. إنها ابنته.

محمد : الله زين الدنيا بالمال قبل البنين.

الفارعة : هذا مال تفوح منه رائحة الخيانة والعار.

محمد : (وهو يصب كأس العرق) المال لا رائحة له.. هؤلاء يا أخت

هم الفالحون. إنهم يلهفونها أيام الاحتلال، ويتصدرون المجلس إن زال الاحتلال. وأخوك محمد يقول.. في حياتنا الفانية لن نرى زوال الاحتلال.

الفارعة : فأل الله ولا فألك. كيف يزول الاحتلال إذا كان البعض

ينسى ولده وبلده من أجل المال، والبعض الآخر يفرق نفسه بالكحول. ألم تعد سهام بالإقلاع عن الشرب!

محمد : اغفني من المواعظ.

الفارعة : هذه المرة لن أعفيك من المواعظ.. ولن أتركك تدمر نفسك

أكثر مما فعلت.

محمد : أختاه.. إن كيلى طافح.

الفارعة : وأختك أيضاً كيلىها طافح.

محمد : هل تعبت من الصغير؟

الفارعة : الصغير حبة عيني. لكنني تعبت من الكبير.

- محمد : أتريدن أن أترك البيت؟
 الفارعة : هذا بيت أليك فلماذا تتركه؟.. افهمني يا محمد. كل ما أريده هو ألا تدمر نفسك.
- محمد : لن يزيد العرق دماري.
 الفارعة : لماذا تحب دائماً أن ترثي لحالك؟
 محمد : لأن هناك ما يستحق الرثاء. رفضوا طلبي الثاني لجمع الشمل. ولن يكون بوسعي أن أعيش مع امرأتي وولدي كما يعيش كل الناس. سستظل في إربد. وأنا هنا. وفي اللقاءات المسروقة يتوالد أطفالنا كاللقطاء.
- الفارعة : هذا هو الاحتلال.. ومن ير مصيبة غيره تهن عليه مصيبته.
 محمد : لو توفرين عليّ هذه الأمثال! شقيت كثيراً في حياتي. لو بدأت أحكي لك ما لاقيت لما فرغت حتى الصباح. وكانت الحلاوة الوحيدة التي ذقتها هي سهام. إذا فقدتها سأضيع، ولن يبقى في حياتي إلا الشقاء.
- الفارعة : ولكن ماذا نستطيع! إنهم كفار ولا يعرفون الرحمة. انظر ماذا حلّ بأخيك وامراته.
 محمد : لاشأن لي بأخي وامراته.
- الفارعة : لماذا تبدو كالملدوغ كلما ذكر أخوك؟
 محمد : لا شأن لي بأخي.. له طريقه ولي طريقي.
- الفارعة : محنتنا واحدة يا محمد، فكيف يمكن أن يكون لكل منا طريق!
 محمد : دعيني بعيداً عن إسماعيل ومشاكله. هو اختار.. وأنا اخترت.
- الفارعة : وماذا اخترت؟
 محمد : أن أجرب كل الوسائل كي أجمع شمل عائلتي.
- الفارعة : وماذا لديك من الوسائل؟

- محمد : قيل لي.. إن العمل في ورشاتهم يسهل الموافقة على الطلب.
- الفارعة : (يحتد صوتها) تريد أن تعمل في ورشات الإسرائيليين!
- محمد : كله عمل.. هنا أو هناك.. ما الفرق؟
- الفارعة : أتساوي بين المحتل وابن البلد؟
- محمد : ابن البلد! أنت تعرفين القصة وما فيها. يأكلون حقوقنا باسم الوطن والدين. ألم تصل بيني وبين المتعهد «أبو قحطان» للسماء؟ قلنا له الأجرة ناقصة. فبهر في وجهي وصاح لماذا اللف، تريد أن تبيع وطنك ودينك لليهود! اذهب.. لا أحد يمنعك. قلنا له.. الذي يبيع وطنه ودينه، هو الذي يأكل حقوق أهله. وكلمة من هنا.. وكلمة من هناك. لولا أولاد الحلال لقضى واحد منا على الآخر.. هذا هو العمل مع ابن البلد.
- الفارعة : ومع هذا لا أصدق أنك جاد.
- محمد : ولماذا لا أكون جاداً! قد أحصل على الموافقة، والأجور هناك أفضل.
- الفارعة : الأجور أفضل لأنكم مع العمل تعززون الاحتلال.
- محمد : فضّي هذه السيرة يا اختي. الاحتلال معزز سواء عملنا معهم أم لم نعمل. لو سافرت مثلي، ورأيت كيف تجري الأمور في البلاد العربية، لعرفت أن الاحتلال معزز، وأن بوسعهم احتلال المزيد لو شاؤوا.
- الفارعة : أعرف كيف تجري الأمور في البلاد العربية.. ولكنني أعرف أيضاً كيف أميز رنة الاستسلام.
- محمد : إذن سجليها بالأحرف التي تروقك.. أنا مستسلم.
- الفارعة : يا عيب الشوم.. لا ريب أن عظام أبي ترتعش في قبرها. من يصدق أن ابن حسين الصفدي، هو الذي يقول هذا الكلام!
- محمد : لا تحاولي محاصرتي بحسين الصفدي؟

الفارعة

محمد

: هل يلدغك ذكر أيك أيضاً؟
: اسمعي يا أخت. سأخبرك أمراً لا تعرفينه. لاحقني حسين الصفدي سنوات طويلة. كان ظله يتبعني كفرقة السوط. خوف غامض لا يجعلني أستقر أو أثابر على عمل. سافرت من الضفة هارباً، ولكنه لم يتركني أهدأ. تركت عمان، ورحلت إلى دمشق. تركت دمشق ورحلت إلى بيروت. ولم أفلح في شيء. وكان حاضراً على الدوام كي يغضب ويشتت. لم تخف وطأته إلا بعد أن تعرفت على سهام، وأحببت..

الفارعة

محمد

: أكنت تكرهه؟
: لا أدري من كان يكره الآخر! ولكنني أعلم أنه شوّه حياتي فترة كافية.

الفارعة

محمد

: كان يقسو عليك أحياناً، لأنه أراد أن تتعلم.
: كان يقسو علي دائماً، لأنه لم يحبني. وكان يقسو على أمنا لأنه لم يحبها. وكان يرتب الأمور كي يكون إسماعيل ابنه، وحامل رايته. هل تذكرين يوم سألت كلاً منا ماذا يريد أن يكون في المستقبل! وأسرع إسماعيل يصيح.. سأنهي دراستي، وأنضم إلى المقاومة. وبقيت صامتاً. لكن حسين الصفدي التفت نحوي ونخسني.. والكديش ماذا يريد أن يكون؟ فأجبت، وحتى هذه الساعة، لا أدري كيف واتتني الجراءة.. سأكون عتالاً. وضحكتم جميعاً. وقال حسين الصفدي وهو يتف. هذا ما يليق بالكديش. ثم نفس ريشه، وبدأ يقص أخبار بطولاته. يوم معركة الكرامة جعلنا الإسرائيليين يتشهدون.. و.. وإلى آخر تلك الأسطوانة.

الفارعة

محمد

: كان أبونا بطلاً يستحق أن نفخر به.
: تقاسمي بطولته مع إسماعيل وتغذيا بها. أما أنا فتكفيني حياة

- عائلية بعيدة عن البطولات.
- الفارعة : لا ترفع يenna وينك سوراً من المرارة. نحن عائلة واحدة يا محمد. ولدنا من صلب واحد. ورضعنا الحليب ذاته. إنك تؤجج مشاعر الغبن، كي تظل ناشزاً ووحيداً. علام تلومنا! ألم أبذل كل جهدي كي تواصل تعليمك! ألم أتوسل إليك كيلا تسافر! كم رجوتك أن تكون سيد البيت، وأن تساعدني بعد وفاة والدتي!
- محمد : بعد وفاة والدتي، ماكان أحد يحتاجني. المسكينة.. هي الأخرى كان ظله يطاردها، ويجعلها امرأة باثرة. مرة خلع نطاقه وانهاه عليها. مازلت أرى الاحتجاج المذعور في عينيها.. كان الدم..
- الفارعة : توقف. لماذا تمنع في تشويه ماضينا وذكرياتنا؟
- محمد : لأن ماضينا كان مشوهاً. ولأن تلك هي الذكريات الحلوة التي وشم حسين الصفدي ذاكرتي بها.
- الفارعة : لم أكن أعلم أن روحك مدمرة إلى هذا الحد!
- محمد : أترين! وقليل من العرق لن يدمرني أكثر.
- الفارعة : إذن.. أنت مصمم على العمل هناك رغم أن أباك شهيد وأخاك معتقل.
- محمد : إن أباك وابنه ابتلعا كل المآثر، ولم يتركا لي إلا البحث عن حياة عائلية بسيطة. أجل يا أخت إني مصمم، وغداً سأنضم إلى الذين يركبون الباصات.
- الفارعة : أتوسل إليك يا أخي ألا تكون غصة في قلوبنا. إننا نحبك، ولايجوز أن تقطع المرارة أوأصرنا.
- محمد : لا تقلبيها عاطفية. ماحدث حدث. وغداً ينبغي أن أستيقظ باكراً.
- الفارعة : تعرف أن هذه غصة لا أستطيع ابتلاعها.

محمد

: الزمن يلع كل الغصص.

الفارعة

: هذه الغصة ستبقى في حلقي، ولن أستطيع التحدث معك

بعد اليوم.

محمد

: ليس بيننا ما يقال. وإذا ضجرت من الصغير يمكنني أن أتدبر

أمره.

الفارعة

: ما أشد الظلمة في نفسك!

(تتلاشى الإضاءة..).

سفر النبوءات / المقطع الثالث

(عبادة الدكتور أبراهام منحين..)

الدكتور : ويل لي يا أمي لأنك ولدتني إنسان خصام ونزاع للأرض كلها. لم تزرعي في قلوب أبنائك إلا الكبر وكرهية الأغيار. كيف ينسى المرء تلك الرهبة المليئة بالبغضاء التي تغذى بها طفلاً! وحين يكبر كيف ينقذ روحه من الاعتلال، أو يتفادى القسوة والعدوان! دفعت الكثير من الوقت والعناء كي أتخلص من غذاء طفولتي. ولكن هؤلاء الذين يحرسون على غذاء طفولتهم يدفعون ثمناً أغلي.. ذلك اليوم جاء إسحق بنحاس إلى عيادتي، وتدبرت الأمر كيلا ينتظر طويلاً. يدخل إسحق متجهماً ومرتبكاً).

إسحق : مساء الخير يا دكتور.
الدكتور : مساء الخير. سبق لي التعرف على السيدة زوجتك. ويسعدني أن ألتقي بك.

إسحق : شكراً.. أما المريض هذه المرة فهو أنا.
الدكتور : تفضل بالجلوس. (يمد له علبة سجائر) أتريد سيجارة؟
(يضحك إسحق بعصبية وهو يتناول سيجارة.. يشعلها له الدكتور).

إسحق : شكراً. اعذرني إذا ضحكت. بادرني بما أبادر به الآخرين عادة.

- الدكتور : هل تقدم السجائر؟
 إسحق : نعم.. ولكن لندع هذا جانباً.
 الدكتور : تفضل.. ما الأمر؟
 إسحق : ليس الأمر سهلاً.
 الدكتور : إني هنا لمساعدتك. استرخ، وابدأ من أي نقطة تشاء.
 إسحق : لعل من الأفضل.. أن أقول كل ما لديّ دفعة واحدة.. منذ فترة وأنا لا أستطيع القيام بواجباتي الزوجية.
 الدكتور : هل تخيفك الكلمة؟
 إسحق : أي كلمة؟
 الدكتور : العجز. تريد أن تقول إنك تعاني عجزاً جنسياً.
 إسحق : نعم.. وهذا يرعيني كثيراً.
 الدكتور : لنحاول إيضاح المسألة. هل تشرع في الجماع، ولا تستطيع إنجازه أم أنك لاتشعر أساساً بالرغبة؟
 إسحق : أحاول ولا أستطيع. لكن لا أعرف إن كنت حقيقة أشعر بالرغبة. زوجتي تبذل أقصى ما في وسعها لإنعاشي وإثارتني، ولكن لافائدة. أحياناً لا يحدث شيء على الإطلاق، وأحياناً يتم القذف دون توقّع، وقبل أن أستكمل الوضع اللازم.
 الدكتور : حتى الآن لا ينبغي أن تقلق. هذه الأعراض مألوفة، وتحدث أكثر مما يظنّ الناس عادة.
 إسحق : يسرّني أن أسمع ذلك يا دكتور.
 الدكتور : هل مررت بتجربة مماثلة في ظروف أخرى؟
 إسحق : أحياناً لم أكن أشعر بشهوة. لكن هذا عاديّ فيما أعتقد.
 الدكتور : والقذف دون توقّع.. هل عرفته من قبل؟
 إسحق : لم يحدث لي من قبل.
 الدكتور : هل أنت رجل حادّ المزاج يا سيد بنحاس؟
 إسحق : لنقل إني صاحب مزاج خاصّ.

- الدكتور : هل تحب زوجتك؟
 إسحق : أكثر من أي امرأة أخرى.
 الدكتور : ألا يمكن أن تشعر ولو لفترة عابرة أنك مُتعب منها؟
 إسحق : لا.. يا دكتور.. في البداية خطرت لي هذه الفكرة، وقلت
 لنفسي يستحسن التنويع. بعد الزواج لم أعاشر إلا زوجتي،
 وقدرت أن أجرب امرأة أخرى. من أجلها.. من أجل أن أعود
 إليها.. وذهبت بثقة بالغة إلى امرأة كنت أحبها كثيراً من
 قبل.. كانت تجربة مذلّة ومهينة. وبعدها استبدّ بي الخوف.
 الدكتور : كم ساعة تعمل في اليوم؟
 إسحق : أعمل كثيراً، لكنني أتمتع بصحة جيدة. لا.. لست مرهقاً
 ولا مستمأً. لا أشرب ولا أدخن إلا نادراً. وأكثر من ذلك..
 في الأيام الأخيرة أخذت حقن هرمونات. طلبتها من طبيب
 الإدارة متذرعاً بأنني أمرّ بمغامرة خاصّة، ولا أريد أن أهمل
 زوجتي أثناءها. وكل هذا بلا جدوى.
 الدكتور : يبدو أنك معافى من حيث القوة الجنسية.. والآن أجبني
 بصراحة. أرجوك فهذا هو الأفضل.
 إسحق : عن أيّ شيء؟
 الدكتور : هل شعرت وأنت كبير بميل جنسي، مهما كان ضئيلاً، نحو
 الذكور؟
 إسحق : إطلاقاً.
 الدكتور : وأنت صغير؟
 إسحق : على ما أذكر.. أبداً.
 الدكتور : ألدّيك مع النساء ميول أخرى غير ممارسة الحب؟
 إسحق : ما الذي تعنيه بالميل الأخرى؟
 الدكتور : الاكتفاء بالمداعبة. القسوة. الامتناع إرادياً عن إتمام العملية.
 إسحق : إنني أتمّ العملية دائماً. والخشونة تثير نفوري سواء بدرت منها

- أو مني.
- الدكتور : إذن فأنت طبيعي أكثر من المعتاد يا سيد بنحاس. اطمئن، سنجد العلة. ماهو عملك؟
- إسحق : أنا؟ موظف حكومي.
- الدكتور : وما وظيفتك؟
- إسحق : لسنا معتادين على الصراحة في هذا الموضوع. ثم إنني لا أفهم العلاقة بين عملي وما أشكوه.
- الدكتور : هل تنتمي إلى أحد فروع الأمن؟
- إسحق : ليكن.. لا ضرر إن عرفت.. أنتمي إلى الفرع الداخلي في الأمن القومي.
- الدكتور : الفرع الذي يهتم بالسكان المحليين؟
- إسحق : نعم.. وأرجو أن تكون ممن يقدرُون أهميَّة عملنا.
- الدكتور : كيف بدأت العمل في الأمن؟
- إسحق : وماذا يفيدنا الخوض في هذا الحديث؟
- الدكتور : ربما كان مفيداً.
- إسحق : أعمل في الفرع الداخلي وهو مانسَميهِ القسم السياسي منذ ثلاثة أعوام. أما جهاز الأمن فقد التحقت به بعد فترة تدريبي العسكري.. أي منذ عشرة أعوام تقريباً. مات والدي وأنا صغير.
- الدكتور : كم كان عمرك؟
- إسحق : ست سنوات وبضعة أشهر.
- الدكتور : وماذا كان يعمل أبوك؟
- إسحق : كان يعطي دروساً في الموسيقى. وعلى كل، لا أكاد أذكّره.
- الدكتور : ألا تعتقد أنه ترك فيك أي أثر؟
- إسحق : ربما.. حبّ الموسيقى. إنّي أحبّ العزف على الكمان. بعد موته ربّنتي أمي، وتعهّدت حياتي حتى الآن. لم تكن تحب

أن أعزف على الكمان، أو أن أتابع دراستي الجامعية. اقترح رئيسي، وهو صديق للعائلة أن يعدني للالتحاق بالأمن.. وهكذا بدأت الخدمة. وحين رأى أنني نضجت سياسياً نقلني إلى القسم الذي يرأسه.

الدكتور : هل أفهم أنك أجبرت على هذا العمل؟
إسحق : طبعاً لا.. حين كنت صغيراً لم أكن أقدر مصلحتي جيداً. أما الآن فأنا أحب عملي، وأشعر بالاعتزاز لأنني أخدم وطني.
الدكتور : عظيم.. في رأيك ماهي الأسباب الممكنة لهذا الاضطراب الذي تعانيه؟ أسألك.. لأن المريض أحياناً يشكّ بشيء ما.. وشكّه يضيء لنا الطريق.

إسحق : أنا.. لا أعرف.
الدكتور : فكّر معي.. ألم يعرض لك في الفترة الأخيرة أمرٌ له علاقة بالجنس؟ حلم. قصة.. تجربة رأيتها أو سمعت عنها.

إسحق : لا..
الدكتور : لماذا لا تنتظر إلي؟
إسحق : قلت لك لا.
الدكتور : لماذا طرفت عيناك حين طرحت السؤال؟
إسحق : مجرد صدفة.

الدكتور : لا.. ليست صدفة. أنت رجل أمن، وتعرف مغزى هذه الاستجابات العفوية.

إسحق : هذا لا علاقة له.
الدكتور : وما أدراك! احك.. حتى ولو بدا لك الأمر بلا أهمية.
إسحق : ولكنه أمر لا علاقة له بما نحن فيه. إضافة إلى أنه شيء من أسرار المهنة.

الدكتور : وأساس مهنتي هو حفظ الأسرار يا سيّد بنحاس. هنا يأتي الناس ليقصّوا عليّ أسرارهم.

- إسحق : مهما كان.. لا يجوز أن أبوح به.
الدكتور : كما تشاء. ولكن في هذه الحالة لا أستطيع مساعدتك.
إسحق : طيب.. سأحكي مادمت مصمماً. إلا أنني لا أرى العلاقة بين هذا و..
الدكتور : تكلم يا سيد بنحاس.
إسحق : إنها أمور قد يساء تقديرها، لكنها ضرورية.
الدكتور : أنا هنا لأعالج لا لأحكم.
(ينمو الضوء تدريجياً في مكتب ماثير، وتظهر كتلة السلام الخفيفة).
إسحق : هناك.. نحن نتعامل مع حثالات.. قروء تسير على قائمتين، ولا تحسن إلا الشرّ والكذب.
الدكتور : من تعني؟
إسحق : العرب طبعاً.
الدكتور : طيب.. أرجوك تابع.
إسحق : منذ ثلاثة أسابيع تقريباً، كان علينا أن نعامل بصلاية واحداً من تلك الحثالات. وقد أرادني بابا إلى جانبه.
الدكتور : بابا؟
إسحق : هكذا نسَمِّي رئيسنا ماثير، وهو رجل عظيم.
الدكتور : أنت من سمّاه كذلك؟
إسحق : لا أذكر. كلنا نناديه بابا.
الدكتور : هل هو صديق العائلة القديم؟
إسحق : هو نفسه.
الدكتور : استمر من فضلك.
(ينهض إسحق، ويتجه نحو السلام، ثم يبدأ بالصعود إلى المكتب).
إسحق : في الفترة الأخيرة كثرت عمليات التخريب. وتعرف

حساسيتنا تجاه كل ما يمس الأمن. إن العرب الذين سحقناهم في الحروب، تحولوا كأبي جبان إلى أعمال الإرهاب والتخريب. وقد علمنا تاريخنا أن خير وسيلة لمواجهة الشر! هي استئصاله قبل أن يستفحل. إن مهمتنا شاقة. ولولا يقظتنا لتهدد أمن الدولة اليهودية. هل نعاملهم بقسوة؟ ولكن هذا ضروري. إن اللغة الوحيدة التي يفهمها هؤلاء الهمج هي الشدة.

(يدخل إسحق إلى المكتب، ويتقدم من مائير. يؤدي له التحية).

إسحق : سيدي.. ها هو اعتراف المتهم الذي كلفني به.
مائير : هذه سرعة قياسية.
إسحق : إنه خرقة براز. لم يتحمل إلا قليلاً من الضغط.
مائير : هل باض نيراً أم مطبوخاً؟
إسحق : لا أعتقد أنه طريدة حقيقية.
مائير : وما الفرق! عملنا أن نحقق الإرهابيين، وأن نروّع الآخرين.
إسحق : لكن إسماعيل طريدة حقيقية.
مائير : سيأتون به الآن. وسنحمله على الاعتراف مهما كلف الأمر.
إسحق : ما الذي لم نجربه معه؟
مائير : لدي دائماً مليّنات احتياطية. أريدك إلى جانبي وأنا أدير هذه الحفلة.

(يقرع جرس المكتب.. يرن الهاتف، فيرفع السماعه)
مائير : آلو.. نعم.. تقارير صحفية عن حالة المعتقلين. لن أوسخ مؤخرتي بها.. هذا شأنكم.. لأبالي بالمحامين الدوليين. خذوهم لزيارة حائط المبكى أو القدس القديمة.. نعم هناك حملات اعتقال واسعة. لم نحرّر يهوداً والسامرة، كي يعيش فيها الإرهاب.. أرجوكم.. نحن نعمل عملنا، وعلى

السياسيين صياغة التصريحات المنمقة.. أنا مشغول الآن..
إلى اللقاء (يضع السماعة بحق) هؤلاء المدينون المختنون
يثيرون أعصابي.

(يدخل دافيد وهو يقود إسماعيل المكبل بالأغلال).

مائير : فك قيوده يا دافيد (يفك دافيد قيوده. يتحسّس إسماعيل

معصمه. يقترب منه مائير) هل كانت القيود ضيقة؟

دافيد : ليست ضيقة. ولكن أي احتكاك يؤلمه بسبب الحروق.

مائير : آ.. الحروق. ماهذه إلا لسعات بسيطة. آثار شرارات تطايرت

من المعدن. كم مرة وضعناه تحت التيار يادافيد؟

دافيد : لاشيء يا سيدي.. ست مرات فقط.

مائير : أرني أظفارك (يمسك يده اليسرى) نحن لانحبّ الضيوف

العنيدين. لماذا لاتتعلمون؟ (يضغط على أطراف أصابع اليد.

يكمّ إسماعيل تأوهاتة) ألم تدفعوا ثمن العناد غالباً.. أربع

حروب وأربع هزائم. الأبله وحده هو الذي لا يستوعب

الدرس بعد أربع هزائم. (يشدد ألم إسماعيل) لا تتباك..

فنحن لم نَمَسَّ بعد يدك اليمنى. إننا نحفظ بها سليمة

للتوقيع.

(يدخل موشي حاملاً ورقة وعلى وجهه أمارات الظفر).

موشي : سيدي.. أخيراً باضت فرختي أسماء وأمكنة اتصال

ولقاءات.

مائير : (يتاول الورقة، ويفحصها) ماذا تأمل بعد ذلك؟ كلهم تخلّوا

عن البطل. اعترفوا ووقعوا. اقترب.. أيهمك أن ترى

اعترافاتهم؟ انظر إذن..

(يتطلع إسماعيل بفضول واهتمام إلى الورقة، ثم ينفجر

بالضحك).

موشي : (يهجم عليه) أتضحك يا ابن الزانية؟

- ماتير : دعه يا موشي. علام تضحك؟
 إسماعيل : هل اعترفوا بالعبرية؟
 ماتير : أتريد أن نستخدم العربية في محاضرتنا؟
 إسماعيل : علام وقّعوا إذن؟
 ماتير : على اعترافاتهم.
 إسماعيل : اعترافاتهم المكتوبة بلغة لا يفهمونها.
 موشي : اسمعوا ابن الشرموطة. وفوق هذا يماحك.
 ماتير : هل تظن أننا زوّرنا الاعترافات؟
 إسماعيل : لا أدري.. هذا شأنكم.
 ماتير : دعك من المكابرة. كلهم خانوك، وتساقطوا كالبراز. أعطه
 سيجارة يا إسحق.
 (يتاول إسحق علبة سجائر عن الطاولة، ويمدها لإسماعيل
 الذي يتجاهلها).
 : خذ..
 ماتير : أتخشى على طهارتك! ليكن.. دعه على راحته يا إسحق.
 قرّرنا اليوم أن نكون ودودين معك. ولكن لا تخدع نفسك.
 صارت لدينا لوحة شبه كاملة. لم تبق إلا بضعة تفاصيل
 صغيرة وتنتهي ضيافتنا. في العاشر من الشهر الماضي، التقيت
 زائراً جاء من خارج البلاد، وأعطاك رزمة حملتها إلى مكان
 وشخص نعرفهما. كل ما نريده هو اسم الزائر، وهل أدخل
 الرزمة معه، أم أعدّ محتوياتها هنا؟
 إسماعيل : لم ألق أي زائر، ولم أحمل أي رزمة.
 ماتير : الشخص الذي تسلم الرزمة، وأصيب في العملية، ذكر
 اسمك قبل أن يموت.
 إسماعيل : قلت لكم لا أعرفه.
 ماتير : لدينا اعترافات عديدة تؤكّد صلتك به.

إسماعيل

مائير

موشي

مائير

إسماعيل

مائير

إسماعيل

مائير

جدعون

إسماعيل

دلال

إسماعيل

مائير

إسماعيل

مائير

دلال

: ومع هذا لا أعرفه.

: هذا العناد محزن، إنك لاتساعد نفسك. ألا تحنّ إلى بيتك وزوجتك؟ أعتقد أنك لم تتزوج منذ زمن طويل.

: منذ ثلاثة أشهر فقط.

: مازلت في شهر العسل. لماذا تفرط بسعادتك مجاناً؟ ألا تحب أن تنجب طفلاً؟ ومن يدري لعلها حامل.. بكل أريحية أقترح عليك أن تعترف.

: أخبرتك بما لدي.

: أسمع يا إسحق. لقد أخبرنا بما لديه. نادوا جدعون (يذهب دايفد إلى باب غرفة الانتظار) أمتأكد أنه لم يبق لديك ما تخبرنا به؟

: أخبرتك بما لدي.

: إذن دعونا نتهياً لاحتفال عائلي بسيط.

(من غرفة الانتظار، يأتي جدعون، وهو يدفع دلال المقيّدة بالسلاسل أمامه).

: ها هي العروس يا سيدي.

(يبدو إسماعيل مصعوقاً. أما دلال فعلى وجهها تعبير ذاهل، وفي عينيها بريق غريب).

: عونك يا رب..

: (هامسة) إسماعيل! ها نحن نلتقي.

: اغفري لي يا دلال.

: ألا تعانق عروسك؟ أحبّ مشاهد العشق.

: هي لا شأن لها. عذبوني كما تشاؤون. افعلوا بي ماتريدون. ولكن دعوها بعيدة عن هذا الجحيم.

: أنقذها إن كنت تحبّها إلى هذا الحد.

: قالت لي الفارعة لا تخافي.. أنت أقوى منهم.

- ماتير : هل أخبرتنا بكل ما لديك؟
 دلال : وقالت ارفعي رأسك. وإذا ضايقوك ابصقي في وجوههم.
 إسماعيل : ليس لدي ما أخبركم به.
 ماتير : لنبدأ العرس.
 (دافيد وموشي يجران إسماعيل. وجدعون يمسك عجيزة دلال ويدفعها. الجميع يتجهون إلى الغرفة الداخلية).
 جدعون : تعالي يا وافرة الخيرات (تبصق عليه) آه.. هكذا أريدك. شرسة. أريد عروسي يا رفاق. إني أنتصب كجبل جلعاد.
 إسماعيل : كلاب.. كلاب.
 (تردّد الكلمة بإيقاعات مختلفة، حتى تتحول إلى مايشبه الحشرة. يخفون في الغرفة الداخلية).
 ماتير : سترى كيف تُحلّ عقدة لسانه. لايهزّ المرء إلا مايمسّ رجولته. وهؤلاء البهائم يودعون كل كبرائهم في فروج نسائهم.
 إسحق : وإذا لم يتكلّم؟
 ماتير : لا بدّ أن يتكلّم. هذه الوسيلة أكثر فاعلية من التيار الكهربائي.
 هل تمتشق عصاك، وتبدأ الاحتفال؟
 إسحق : دع جدعون يبدأ.
 ماتير : وودت لو أنك البادئ. لايهمّ.. ستدير الحفلة معي. (يلفه بذراعه، ويمضيان نحو الغرفة) لا أدري إذا كان بوسعك أن تفهم ذلك يا بني. هذه الحفلات تثير فيّ نشوة تكاد تكون دينية. نعم.. دينية.
 (يدخل ماتير إلى الغرفة، فما يعود إسحق إلى العيادة. تبدأ الإضاءة بالانحسار عن المكتب).
 إسحق : وهكذا مضت الحفلة حتى نهايتها.
 (يرين صوت متوقّر. الدكتور مطرق الرأس).
 الدكتور : هل تكلم الرجل؟

- إسحق : أصابته تشنجات قلبية، وانهار قبل أن يتكلم. بعد الحفلة نقلناه وزوجته إلى المستشفى. لكنه سيعود إلى المركز.
- الدكتور : وماذا فعلت في الحفلة؟
- إسحق : وما أهمية هذه التفاصيل؟
- الدكتور : هل شاركت في الاعتصاب؟
- إسحق : لا..
- الدكتور : لماذا؟
- إسحق : تلك العريات! من يضمن.. خفت أن تنقل لي عدوى ما.
- الدكتور : ماذا فعلت إذن؟
- إسحق : (مترددًا) كان يجب أن نكسر خصيتيه تمامًا. وضعت قدمي بين فخذه، ورحت أضغط وفق طريقة تعلمناها من بابا. وكان جدعون شديد الهياج.
- الدكتور : وأنت؟ هل تهيجت؟
- إسحق : في البداية.. حين راقبت جدعون وهو يروضها. ولكنني فترت فجأة.
- الدكتور : واكتفيت بالمراقبة!
- إسحق : ولكن هذا كله بلا معنى.
- الدكتور : أرجوك.. تابع. إننا نقرب ماذا فعلت؟
- إسحق : كانوا يتوالون عليها. وكان ثمة صراخ وشتائم وموسيقى صاخبة. إننا نستخدم الموسيقى في مثل هذه الحالات، وفجأة بدأ يضيق صدري.. لا.. لا أرى فائدة من سرد هذه التفاصيل.
- الدكتور : (بحزم) تابع.
- إسحق : إنها توافه يا دكتور.
- الدكتور : قلت لك تابع..
- إسحق : فجأة بدأ يضيق صدري.. ثم تحوّل الضيق إلى غضب أعمى،

فتناولت شفرة واقتربت منها. أنت تعرف أن العريثات يحلقن شعر العانة. كان فرجها أملس وملطخاً بسوائل الآخرين. وأحسست أنني محموم. انحنيت عليها وبدأت أشقّ أثلاماً صغيرة في لحمها. شطبت عانتها وثديها ثم أوقفني مائبر. كان العرق يتصبّب مني. وكان كلاهما قد فقد وعيه. (يخيّم صمت رصاصي ومديد. إسحق منهك ومتوتر).

الدكتور

: هل أنت نادم على ما فعلت؟

إسحق

: نادم! ولم الندم!. كان ذلك جزءاً من واجبي.

الدكتور

: ولم تتقرّز مما فعله زملاؤك؟

إسحق

: طبعاً لا.. بل كنت ألوم نفسي لأنني لا أملك خشونة وعفوية

جدعون. خفت أن يظنّ بابا أنني أقل صلابة مما يأمل.

الدكتور

: الحالة واضحة يا سيد بنحاس.

إسحق

: واضحة..

الدكتور

: تقول إنك لم تندم، ولم تتقرّز.

إسحق

: ليس هناك ما أندم عليه، أو أتقرّز منه. كانت حادثة عرضية

مما يقع لنا كل يوم في عملنا. هؤلاء المخربون أخطّ أنواع

المجرمين.

الدكتور

: ليتك شعرت بالندم.

إسحق

: لا أفهم.

الدكتور

: لقد اخترت لاشعورياً التعبير عن ندمك بالمرض. إنك تعاقب

نفسك على ما فعلتموه بالمرأة وزوجها، وربما بدأ هذا العقاب

وأنت في الحفلة.

إسحق

: اسمع يا دكتور.. لقد قرأت شيئاً عن هذه الأمور، ويؤسفني

أن أقول لك إنها غير مقنعة.

الدكتور

: ركّز انتباهك يا سيد بنحاس. هناك صوت في أعماقك

الخفية يقول إن ما فعلتموه، ما كان يجوز أن تفعلوه، حتى ولو

أكدت أن العمل أو الواجب يقتضيه، ولكي تشفى.. عليك
إما أن تقرّ بصورة واعية أنك ارتكبت جرمًا رهيباً لا يمكن
تبريره، وإما أن يتوقّر لك الاقتناع المطلق بأن هذه الأعمال
عادلة وجديرة بالاحترام. ولا أظن أن أحداً يمكن أن يقتنع
في أعماقه بشيء كهذا.

إسحق : إنني مقتنع بعدالة عملي. وإذا صحّ تحليلك فهو يعني أن
أعصابي مازالت تخونني، أو أنني لم أصل درجة النضج
الكافية.

الدكتور : نعم يا سيد بنحاس.. في تربيتنا الصهيونية تعلّمونا الكراهية
بصورة دؤوبة، ولكنهم لا يبالون بالحدود التي يمكن أن
تحملها بنيتنا الإنسانية. إن الكراهية المطلقة هي الحدّ الذي
يمكن أن يسوّغ كل شيء، ويمنع الاختلال، ولكن من هو
الإنسان الذي يصير كراهية مطلقة ولا يتداعى؟

إسحق : زملائي في العمل لا يشكون من شيء. وأنا أيضاً سأعرف
كيف أتفوق على ضعفي.

الدكتور : وما أدراك أن زملاءك لا يشكون من شيء؟ ربما ليس لديهم
ضمير يخرّجهم، ولكنهم ليسوا أصحاء أكثر منك.

إسحق : على الأقل.. هناك واحد لا يتطرق إليه الشك.
الدكتور : رئيسك؟

إسحق : نعم..

الدكتور : لعله يعاني من الأرق وأوجاع المعدة.

إسحق : ليست لديه أوجاع. كل هذه التحليلات النفسية لغو أجوف.

الدكتور : لم أجبرك على المجيء..

إسحق : أريد الشفاء.

الدكتور : لا يمكن إصلاح ما حدث. أنت لا تستطيع أن تردّ لتلك المرأة
كرامتها، أو لذلك الرجل المسكين رجولته.. ولهذا فقد

قضيت على رجولتك. إنها مفارقة غريبة، ولكن هي الحقيقة.
شفاؤك يكمن في مرضك. ولعلّه من صالحك.. لكن..

إسحق

: أكمل يا دكتور.

الدكتور

: لاشيء.. لا يمكنني متابعة حالتك. كان يجب أن تدفع ثمناً
غالياً لما فعلت. ولكي تكفّ عن دفع هذا الثمن ينبغي أن
تدفع ثمناً آخر لا يقل عنه جساماً.

إسحق

: وما هو هذا الثمن؟

الدكتور

: لا أدري.. قد تحتاج إلى تحوّل كبير. ربما تضطر إلى هجر
عملك أو البحث عن كفارة صعبة الأداء. ولكنك لم تعد
شاباً صغيراً، ولا أحسب أنك تجرؤ على تحطيم مستقبلك
وجزء هام من شخصيتك.. لا.. لا أستطيع أن أتركك
تزورني مرة بعد الأخرى دون فائدة.

إسحق

: أنت تصرفني لأنني أثّر نفورك. ولكن هلاً تساءلت عن سبب
نفورك؟ هيا اعترف.. اعترف أنك كنت تجادلني وتقبح
عملي، كي تجرّني إلى الموقف المتشكك. موقف هؤلاء
المحتئين الذين لا يكفون عن التذمر. إذا انتصرنا تدمروا، وإذا
حرّنا أراضينا خافوا. وفي النهاية ليس لديهم ما يقدمونه
لدولة إسرائيل إلا الوسوس والشكوك. طبعاً أنت لست
صهيونياً، وأنت تعيش في إسرائيل، ولم تفعل إلا عرقلة
قيامها وازدهارها.

الدكتور

: إسمع يا سيد بنحاس. لا تظن أنني أخاف من إعلان رأيي. إن
ولائي ليس للقانون بل للعدالة. وليس فيما تفعلونه أيّ عدل.
وليس في احتلال الأراضي أيّ عدل. وليس في التزمّت
الصهيوني الذي تأسست عليه دولة إسرائيل أيّ عدل. نعم..
إنني من هؤلاء المحتئين أمثال موشي منوحين وجوليوس كاهن

وإينشتاين ودويتشر. ونحن نفخر بوساوسنا لأنها حمتنا من
البؤس الروحي الذي تغرق فيه دولتنا المعجزة. لا.. لا أقبل ما
تفعلونه مهما كانت ذريعتيه.. والآن يمكنك أن تشي بي، أو
تتخذ ما تراه من الإجراءات.

إسحق : كنت أعلم أن هذا ما تفكر به. كم يجب أن أدفع لهذه
الزيارة؟

الدكتور : لا شيء هذه المرة.. مع السلامة.

الدكتور : (يخرج إسحق. فترة صمت. الدكتور مجهد وحزين).
وقال الرب اكتبوا هذا الإنسان عقيماً رجلاً لا يفلح في أيامه

ولا يفلح من ذريته أحد. جاء يطلب معونتي ولم أستطع أن
أقدم له أي عون. حين روى لي ما فعلوه شعرت بالاعتلال،
وبما يشبه التورط. كان يجزني معه شاهداً على تاريخنا. على
تاريخه وتاريخي. وما كان بوسعي أن أختبئ وراء قناع
مهنتي. مافعله لم يكن جريمة فردية تخصه وتخص علم
الأخلاق، بل كان حدثاً له مغزاه وأثره على تاريخنا جميعاً.
مرضى وأطباء. فحولاً ومختئين. لا.. ما كان بوسعي أن
أختبئ خلف قناع الطبيب البارد والمحايدين.. ولا تدخل بيت
الوليمة لتجلس معهم وتأكل وتشرب.
(يتلاشى الضوء عن العيادة والطبيب).

سفر الأحزان اليومية / المقطع الثالث..

(يدو محمد مذهولاً ومربكاً. في زاوية معتمة ثمة وجه مقنع.. ينبغي أن يتخذ المشهد طابع الحوار الذاتي).

المقنع : هل تحب زوجتك كثيراً؟ محمد

محمد : لم أعرف أن الحياة يمكن أن تكون حلوة إلا بعد أن التقيتها.

المقنع : لاشك أن حضنها شهى.

محمد : كيف أقول! لا.. لست خجولاً. نعم.. إنه شهى.

المقنع : وهو دافئ.

محمد : نعم إنه دافئ.. في حضنها عرفت الدفء الحقيقي

والطمأنينة.

المقنع : كنت شقياً وضائعاً.

محمد : وكانت البلسم السحري. حنانها داوى شقائي، ووضّح لي

دربي.

المقنع : حنان فيه حب وأومة.

محمد : لعلها تشبه أُمي.. لكن الأم نضبت وجفّ حنانها. كان

يدفعها نحو الموت، فتمضي مستسلمة وهشة. كانت غريبة

بينهم.

المقنع : وأنت أيضاً كنت غريباً بينهم!

محمد : نعم... كنت أحس أنني منبوذ أو يتيم. إذا حضر أحسست

أني البغل المذعور، وإذا غاب دفعنتي قوة إبليسية لعصيان

أوامره ومخالفة أمانيه. بالمخالفة والعصيان كنت أضعاف
حالي كمنبوذ، ولكن تلك كانت وسيلتي للتوازن.. وحين
قتل في مخيم الوحدات فوجئت بفراغ رهيب في داخلي.
ظننت أن هذا الفراغ هو الحرية التي كنت أبحث عنها.
ولكن كم كنت واهماً.. لقد باغتني ظله وأنا أروز حالي
الجديدة.. ثم لم يفارقني حتى التقيت امرأتي.

المقنع

: وإذن ماذا تنتظر!

محمد

: أنتظر!

المقنع

: لماذا لا تأتي بها؟

محمد

: لم يوافقوا.

المقنع

: أنت تعرف أن موافقتهم سهلة. إذا كانت سهام هي السعادة
التي تحميك من القلق وتهديد الأشباح، فإن كل ماتبذله من
أجلها رخيص.

محمد

: نصحوني أن أعمل هناك.. وأنا الآن أعمل في ورشة بناء في
تل أبيب. خالصمتني أختي التي تربي طفلي.. ولكني لن
أراجع.

المقنع

: هذه بادرة طيبة يمكن أن تدعهما بخدمة صغيرة، وتحصل
على الموافقة.

محمد

: أهي فعلاً خدمة صغيرة؟

المقنع

: إنك تتردد..

محمد

: لا أدري.. رغم كل شيء.

المقنع

: إنك تتردد. لأصدق أنك تحبها كما وصفت.

محمد

: هذه هي الحقيقة التي لا يمكن الشك بها..

المقنع

: اصغ إلي.. هل تعتقد أن الألعاب الخطيرة التي ينهمك فيها

أخوك ورفاقه يمكن أن تفضي إلى شيء؟

محمد

: أخي! لأعلم.. ربما لا.. لا أقرب هذه الشؤون، ولا

أتعاطاها.	
: ليس عليك أن تقرب هذه الشؤون. راقبهم فقط.	المقنع
: راقبهم..	محمد
: ينبغي ألا ندعهم يهلكون أنفسهم.	المقنع
: راقبهم..	محمد
: هذا هو كل شيء.	المقنع
: راقبهم..	محمد
: إنك ترتعش.	المقنع
: راقبهم..	محمد
: سيدفك حضنها ويداويك.	المقنع
: إني أرتعش.	محمد
: لعلك فوجئت.. ستمر الرعشة، وتحصل على الموافقة.	المقنع
: إن عظامي نفسها ترتعش. أين أنت يا سهام! دفيني. اقتربي.	محمد
لا.. تريتي. إن الثمن فاحش. لا.. لاتناديني.. أقول إنه فاحش.	
: خذ وقتك وفكر..	المقنع
: نعم.. سأفكر. إنها حلاوتي الوحيدة. ولكنه فاحش يا سهام.	محمد
حقاً.. إن الثمن فاحش.	
(تتلاشى الإضاءة..)	

سفر الأحزان اليومية / المقطع الرابع..

- (إضاءة على غرفة دلال. تظهر الفارعة أولاً، ثم نتبين دلال في حالة غياب).
- الفارعة : حين أفرجوا عن دلال أدركت فظاعة ما حل بها. استلّوا شبابها، ورموها في كهولة مبكرة. كانت هادئة وصامتة. كان فيها وقار مرعب يشبه اللغم.
- الفارعة : (تكشف الإضاءة دلال وهي في حالة غياب).
- دلال : دلال.. احكي لي. ماذا فعلوا بك.
- (صمت)
- دلال : أين الطفل؟
- الفارعة : إنه نائم.
- دلال : لو أنه بقي في الرحم، ولم يخرج إلى الظلمة.
- الفارعة : حدثيني.. فضفضي عن نفسك.
- (صمت).
- الفارعة : ماذا أرادوا منك؟ عمّ سألوكم.
- (صمت).
- دلال : هذه الرائحة! هذه الرائحة!
- الفارعة : أية رائحة؟
- دلال : رائحة لا تزيلها عطور مصر والشام، ولا تغسلها مياه الأردن والفرات.

- الفارعة : هل أهيء لك الحمام؟
(صمت)
- الفارعة : يجب أن تخبريني. هل عرفت شيئاً عن إسماعيل؟
دلال : لا يجبر إناء الخزف إذا كسر.
- الفارعة : ماذا تعنين؟ هل حدث له شيء؟
دلال : لا يستطيع المرء أن يخلع بدنه كما يخلع سروالاً وسخاً.
- الفارعة : ولكن ماذا جرى؟
(صمت.. تغيير الإضاءة بخفة ومرونة).
- الفارعة : خفتُ من هدوئها وعباراتها المفككة. ولم ألحظ أنها خلف وقارها الصامت، كانت تستكمل مخاضها.
- دلال : الأرض ضيقة يا ابنة العم.
الفارعة : إنها أرضنا.
- دلال : أرضنا التي لا نملك فيها حتى أجسادنا.
- الفارعة : أعرف أن تجربتك كانت قاسية.
- دلال : الأرض لا تتسع لنا ولهم. إما نحن وإما هم.
- الفارعة : الأرض مباركة. ولولا نزعة العدوان لكانت كريمة ورحبة.
- دلال : الأرض أضيق من القبر، إذا لم يزولوا جميعاً. إما نحن وإما هم.
- الفارعة : لولا الصهيونية لما كانت بيننا وبين اليهود عداوة.
- دلال : وهؤلاء الذين يحاربون، ويعذبون، ويتتهكون كل شيء. من يكونون؟.. هل شققت صدورهم، وعرفت ما تخبئ قلوبهم؟
لا.. إما نحن وإما هم.
- الفارعة : هذه عبارة متهورة قد تتحول ضدنا.
- دلال : لا أحبك حين تتفاصحين.
- الفارعة : نحن مناضلون يا دلال، ولسنا قتلة. قضيتنا عادلة، وهدفنا هو أن ندحر الصهيونية، لا أن نقتل البشر.

دلال

: وهل إسرائيل شيء والصهيونية شيء آخر؟ اسمعي يا ابنة العم.. في بيت أهلي لم أعرف شيئاً عن إسرائيل. كان أبي يعيش في قوقعة من الثراء والتجارة. يخاف من الثورة والرعا، ونادراً ما كان يذكر إسرائيل. حتى حرب الـ ٦٧ لم تهزه، ولم يخفِ شماتته بعبد الناصر وأنصاره. وحين تزوجت أشفق عليّ زوجي، ولم يحدثني الكثير عن إسرائيل. لكنني الآن أعرف إسرائيل كما أعرف جسدي. أتعلمين أن لإسرائيل رائحة؟

الفارعة

دلال

: لم أفكر في هذا..
: رائحة فظيعة، تملأ أنفي وجوفي ومسامي. ختمت إسرائيل هويتها على جسدي، ولن يمحو هذا الختم الرهيب إلا الموت. ما عرفته يا ابنة العم يكفيني. وأنا الآن جاهزة للانضمام إلى المقاومة.

الفارعة

دلال

الفارعة

دلال

الفارعة

دلال

دلال

دلال

الفارعة

دلال

: أألا تتمهلين قليلاً؟
: ولم التهملي؟
: هل فكرت في الأمر وعزمت؟
: كل العزم.
: كم كنت أمل ذلك! ولكن دعينا نبدأ بالمهمات اليسيرة.
: لا.. من صاحب الموت لا تليق به إلا المهمات الكبيرة. وأقول لك منذ الآن.. عليهم أن يقبلوني بحقدي وبأسّي.
: لا أريدك أن تندفعي تحت وطأة اليأس.
: بأسّي هو قوتي. وهذا العدو لن يوجعه إلا حاقد ويائس.
: وإسماعيل؟
: مع تعاقب الفصول.. وإلى آخر الزمن، سيبحث كل منا عن الآخر، ليلملم جسده المبعثر، وينفخ فيه الحياة.. وكلما تناثرت أعضاؤنا بدأنا مع تعاقب الفصول رحلة جديدة..

الفارعة

(تنسحب الإضاءة عن دلال، وتترىث على الفارعة..)
: وانضمت إلينا. حملت يأسها كالحقيرة وانضمت إلينا.
كانت قذيفة تتأهب للانفجار. تروح ونجىء، وحولها ترن
تلك العبارة كأجراس كنيسة القيامة. إما نحن وإما هم.
(تتلاشى الإضاءة).

مكتبة سحر الأريكة
www.books4all.net

سفر النبوءات / المقطع الرابع

- (الدكتور في زاوية نصف مضاعة. ثم يعلو الضوء في مكتب ماثير. نرى ماثير وإسحق).
- الدكتور : جعلوا كرمي خراباً ينتحب إليّ. قد خربت الأرض لأنه لا إنسان يتأمل في قلبه.
- ماثير : (الإضاء كاملة في المكتب. ماثير يتحدث في الهاتف).
- ماثير : هاتوه حالاً. (يضع السماعة) إني متلهّف للقائه. لم أشأ تأجيل ذلك إلى الغد.
- إسحق : وماذا نأمل منه؟
- ماثير : لا مفر أمامه. يجب أن يبرز ما لديه.
- إسحق : لم يبق لديه ما يفيدنا.
- ماثير : بل بقي شيء هام. أظن يا إسحق أن ما يشغلني هو المعلومات؟ إلى الجحيم بالمعلومات. لدينا ما يفرض عن حاجتنا الأمنية. ولكن ماذا عن كبريائه؟ هل نسمح لهؤلاء القتل أن يتدربوا على الكبرياء؟ هذه بيضة الأفعى التي ينبغي أن نحطمها قبل أن تفقس.
- إسحق : لا أظن أنه سيتكلم.
- ماثير : ستجعله يعوي ويبيض. أريدك أن تقود الحفلة.
- إسحق : كنت..
- ماثير : ما أمرك يا إسحق! هل أنت متوَعك؟

- إسحق : لا.. لا شيء على الإطلاق.
- (يرن الهاتف، فيرفع مائير السماعه).
- مائير : آلو.. أهلاً دكتور.. أتخشى على قلبه! هؤلاء الإرهابيون ليست لديهم قلوب.. لا تخف.. هذه مسؤوليتي. (يضع السماعه) كيف حال الوالدة؟
- إسحق : بخير يا سيدي. وهي كالعاده تبعث بأصدق تمنياتها.
- مائير : كم أرجو أن تكون فخورة بنا!
- إسحق : إنها تتمدحك دائماً يا سيدي.
- (يدخل موشي ودافيد وهما يقودان إسماعيل. مشيته أقرب إلى الجرجرة وعلى وجهه تعبير فارغ يكاد يتصف بالعدمية. يتأهب موشي لفك قيوده).
- مائير : (مقرباً) لاتفك قيوده.
- دافيد : (هامساً) مازال ضعيفاً. لن يتحمل التيار والمغطس معاً.
- مائير : لاشك أنهم دّلوك في المستشفى. انظروا، ألا تبدو الصّحة على وجهه؟ أعتقد أنه صار عاقلاً. لم نكن نريد أن نصل إلى هذا الحد. أخبرتك أن العناد حماقة، ولكنك لم تصنع إليّ. على كلّ مافات مات. عرفت بعض فنوننا، ويمكنك أن تجنّب نفسك معرفة الباقي.. هيا.. برهن أنك صرت أعقل (إسماعيل صامت) لا تخدع نفسك.. ولا تضاعف حماقتك. هل ستكلم أم لا؟..
- إسماعيل : أتعرف أيها السيد ما هو الموضوع الذي يكذّ عقول الفلسطينيين؟
- مائير : من هم الفلسطينيون؟ لا يوجد فلسطينيون.
- إسماعيل : ومع هذا فإن بعض الفلسطينيين يشحذون خيالهم، كي يتصوروا دولة كريمة تتسع لي ولك. دولة حقوقنا فيها متساوية. وحرّياتنا مكفولة. إنهم يحلمون بأنك ذات يوم

ستهدم هذا المخفر الحضاري، وستقبل بالحقوق التي توفرها
المواطنة لا القوة. وسنعمل معاً، أنا وأنت، كي تزدهر قابليتنا
الإنسانية فتصور أيها السيد أيّ أوهام نغذي؟
: وما هذا اللغو المسهل؟ من توسل إليكم كي تخططوا لنا
مستقبل وطننا!

مائير

: وطنكم!

إسماعيل

: نعم.. وطننا الذي لم تكتمل حدوده بعد.

مائير

: ووطني.. أين وطني إذن؟

إسماعيل

: وما أدراني! اذهب وفتش عنه عند خصيانك العرب.

مائير

: لا.. أيها السيد. هنا وطني وهذه أرضي. هنا ولدنا. وهنا ولد
آباؤنا وقبلهم أجدادنا. منذ قرون وقرون ونحن نحيك مع
هذه الأرض العلاقات والمواثيق. تبادلنا الترويض والملاينة.
وَشَمَتْنَا ووشمتها. غَدَتْنَا أحياء وتغذت بنا أمواتاً. اصعد
الجليل أو انحدر صوب حيفا، تأمل أسوار عكا أو تفيأ زيتون
الخليل، فستجد أينما توجهت وَشَمًا له سيمائنا، وينبئ
بتاريخنا. خذ أي زيتونة معمرة، واسلخ لحاءها، فسترى
كيف يتدفق في نسغها عصير أجدادي، وعرق آبائي. خلال
قرون وقرون ونحن نعجن الطين والماء والهواء بخمائنا.
خمائر البشر الذين يحزنون ويفرحون ويشمرون.. وبهذا
التخمير البطيء والمديد تتشكل الأوطان. لا.. أيها السيد هنا
وطننا. هنا تاريخي وحبل مشيمتي. وينبغي أن يكون التاريخ
قرصاناً مختلاً، كي يعطي حق الوطن لنزعة إمبريالية تسترها
خرافة، وتحملها دابة.

: هل انتهيت! لماذا لا تصفقون له! أرايتم كيف يفكر
الإرهابيون!

مائير

: سأضع زيتونك وعظام أجدادك في طيزك.

موشي

- ماتير : اهدأ يا موسي! أتسمي ميثاق الرب والوعد الإلهي نزعة إمريالية؟ نحن هنا لأن الرب وعدنا، ولأن الرب أعطانا، ولأن الرب أقسم أن يسقط في أيدينا كل أعدائنا. ولن تسقط كلمة واحدة من جميع ما كلم به الرب بني إسرائيل.
- إسماعيل : لكم هو مخيف هذا الرب الذي تحكي عنه! هذا الرب الذي يصطفي العنصري..وتشفه المضاربة على الشعوب والأراضي.. وتلذه رؤية المجازر. لا.. حاشا الله تعالى أن يريد الظلم. أو أن يكون عوناً للمغتصبين والقتلة!
- موسي : (وهو يصفعه) وماذا تعلم أيها الوثني عن الرب!
- ماتير : لا فائدة.. هاهم الإرهائيون. وها هي فصاحتهم.
- إسماعيل : حقاً لا فائدة. ولكن هل ستكون هناك فرصة كي أخبرهم أننا نطارد السراب. ستكون هناك حروب، تتلوها حروب، وستُسفك دماء كثيرة حتى يحسم الصراع.
- ماتير : أهذا ما تخططون له! لقد حُسم الصراع أيها الأبله.
- إسماعيل : لا.. لم يُحسم بعد أيها السيد..
- ماتير : إذن.. خذوه وبرهنوا له أن الصراع محسوم. هيا يا إسحق. أريدك أن تقود العملية. ولا تخفف ضغطك حتى يعترف.
- (موسي ودافيد يدفعا إسماعيل إلى الغرفة الداخلية. يتبعهم إسحق ومعه ماتير.. المكتب فارغ، وثمة بقعة ضوء تكشف الدكتور منحون).
- الدكتور : يداوون كِشْر بنت شعبي قائلين سلام سلام.. ولا سلام. ويلّ لي على انسحاقني. إن ضربتي لا شفاء منها.. وعلمت أن الصراخ ظل ينبعث من تلك الغرفة حتى انقضى الليل، وانبتق الفجر متعراً خجلان. فجأة ساد الصمت، وانفتح الباب.
- (تتغير الإضاءة في المكتب. من الغرفة الداخلية يأتي ماتير مكفهاً.. يتبعه موسي ودافيد اللذان يجزان إسحق. يرفع

- مائير سماعة الهاتف).
- مائير : رش عليه قليلاً من الماء يا موشي..
- دافيد : إسحق.. إسحق.
- موشي : (وهو يرش الماء) انهض يا دلوعة ماما.
- مائير : لا أريد تعليقات.
- موشي : اصفرّ وانهار مثل الأوانس.
- مائير : قلت لا أريد تعليقات، عندما أضع ثقتي في شخص فأنا أعرف عملي. أنفهم؟
- موشي : حاضر يا سيدي.
- مائير : (في الهاتف) دكتور.. اصعد فوراً. نعم.. نعم. المعتقل.
- توقف نبضه. اصعد ولا تماحكني (يضع السماعة).
- (يستيقظ إسحق، وقد بدا عليه الاصفرار والإرهاق).
- إسحق : ماذا جرى؟
- مائير : (لدافيد وموشي) اذهبا ورتبا الأمر مع الطبيب (يخرجان) وأنت ماذا دهاك؟ لقد أخجلتني.
- إسحق : ولكنه مات فعلاً.
- مائير : نعم.. لقد مات فعلاً. والميت فيهم أفضل من الحي. ماذا جرى لك؟ إنني أكاد أنكرك. أهذا من رييت ودرّبت؟ قائد الحفلة يصفرّ ويغمى عليه كالنساء. شيء مخز.
- إسحق : اعذرني.. إنني متعب. أعتقد أنني مريض.
- مائير : سأعطيك إجازة للراحة. ولكن احذر. عليك أن تكون بكامل لياقتك حين تعود.
- إسحق : حاضر.
- مائير : بلّغ تحياتي للأم.
- (إطفاء تدريجي).

سفر الأحزان اليومية / المقطع الخامس..

(غرفة دلال، الطفل ممدد على أريكة، والفارعة ترفع بلاطات وتهيء حفرة في أرض الغرفة).

: اصغ جيداً يا وعد.. واحتل الصليبيون القدس، وأسّسوا الممالك والقلاع.. وظنوا أن الأمر استقام لهم.. لكن القائد صلاح الدين الأيوبي أعدّ عدة الحرب، وانقضّ عليهم بفرسان مصر والشام. والتقى العسكران في حطين. فدارت الدائرة على الصليبيين، وهزمهم صلاح الدين هزيمة.. منكرة. (تدخل دلال. بطنها متكور وكأنها حامل في الأشهر الأخيرة..)

الفارعة

: هل تأكدت أن أحداً لا يتبعك؟

الفارعة

: نعم.. كانت الطريق خالية.

دلال

: ومحمد! هل رأيك؟

الفارعة

: لا أظن.. لم ألحظه.

دلال

: ذلك أفضل.

الفارعة

: لماذا؟

دلال

: لاشيء.. من الأفضل أن يظل بعيداً عنا. أسرعني وضعي حملك. الخبأ جاهز.

الفارعة

(ترفع دلال أذيال فستانها، فتظهر حزمة مربوطة على بطنها. تساعد الفارعة في فك الحزمة).

- الفارعة : تمنيت أن يكون حبلك الأول أقل خطورة.
 دلال : الشباب يتوقعون المداهمات في أي لحظة.
 الفارعة : ألم تخافي؟
 دلال : انتابتي مشاعر عنيفة ومتنوعة، ولكن الخوف لم يكن بينها.
 حين وضعت الحزم، وثقل بطني، شعرت أن ثمرة تفتح في رحي. ثمرة تشبه الدراق، وتفوقها جمالاً. ثم تكوّر إسماعيل نفسه جنيماً في داخلي. وحين مشيت يبطني الحامل، كانت قدماي صلبتين والأرض مستقرة برحاء. وتخيلت أنني أنفجر، وأن ذلك المكان ينفجر، وأن جسدي يتطهر، ويخفق في الفضاء كفراشة نقية. حين كنت أنفجر ارتعشت، واستحيت من اللذة الخفية التي تدافعت في عروقي.
 (تربان الحزم المستطيلة في الحفرة).
 الفارعة : لاستحي من لذلك. استرخي في مائها وتمتعي.
 دلال : هل عرفت مثلها؟
 الفارعة : في ليالي القلق والوحشة يزورني عمر. عمر الذي يتنفس ويعانق ويعرق. كيف أشرح لك. إن خيالنا هو مملكتنا السحرية. وعلينا أن نشحذه كي يضيفي على الأحلام والصور كثافة الواقع. إن عمر الذي يزورني حقيقي وحي. لذتنا ملموسة، وكذلك تعبنا. وحين نتخيل المستقبل، نلمس تكوّنه كما يلمس المعماري ارتفاع الحائط بين يديه.
 دلال : عنيت لذة أخرى. كانت أصابع الديناميت تضغط على سرتي. وكانت اللذة تنبجس عنيفة حين أتصور أنني أنفجر بها، وأبدد حرائق وخرائب. يتداخل الموت بالشهوة، والنشوة بالطهارة. إن الانفجار هو رعشتي.
 الفارعة : ما يسيطر عليك هو الانتقام، لا النضال من أجل وطن حر

- وجميل.
- دلال : الوطن الحر والجميل هو بالنسبة لي حلم غامض وبعيد. أما الانتقام فبسيط وواضح. لو أن كلاً منا غذى سببه الخاص للانتقام، وصمم حقاً على الانتقام، لما كان وضعنا مزرئاً ومعقداً.
- الفارعة : لا يمكن أن نحول قضية شعب إلى عمليات انتقام فردية.
- دلال : العين بالعين والسن بالسن. تلك هي الشريعة. إذا لم تحرقنا شهوة الانتقام، فإننا سنظل ننزف ونصعد الأثبات.
- الفارعة : أحب تصوراتك العفوية والمستقيمة.
- دلال : إن جسدي هو دليلي..
- الفارعة : ليت هذا الدليل يكفي.
- (تتأهى ضجة خفية قرب الباب. بحركة عفوية تجلس دلال فوق الحفرة، وتخفيها بفستانها. تنهض الفارعة بحذر. تنصت قليلاً ثم تفتح الباب بسرعة. يبدو محمد مرتبكاً)
- الفارعة : (غاضبة) ماذا تفعل هنا؟
- محمد : (متلعثماً) لاشيء.. أريد..
- الفارعة : ماذا تريد؟
- محمد : أن أرى الصغير.. نعم.. أن أرى الصغير.
- الفارعة : دع الأكاذيب.. وقل ماذا تريد؟
- محمد : لا تصرخي في وجهي.
- الفارعة : أترقبنا؟
- محمد : (مصعوقاً) ماذا؟
- الفارعة : قل.. أترقبنا؟
- محمد : أختي..
- الفارعة : وحق الأخوة والأبوة والبنوة لو صح شكّي..
- محمد : أختي.. إني بحاجة إليك.

- الفارعة : علام تلف وتدور؟ أجيني..
 محمد : إني وحيد وخائب.
 الفارعة : هذا أعرفه.. ولكن ماذا تفعل هنا؟
 محمد : أختي.. أرجوك.. لاتزيدي طريقي عسراً. كل شيء يحتاج
 إلى قوة، وأنا خائر القوى. لم أستطع أن أكون شهماً، ولم
 أستطع أن أكون نذلاً. أتعلمين أن النذالة تحتاج إلى قوة
 داخلية رهيبة!
 الفارعة : ما معنى هذا الكلام المضطرب؟
 محمد : إني مضطرب.. وإني بحاجة إليك..
 الفارعة : ولكن ماذا كنت تفعل؟
 محمد : ليكن.. لأريد مساعدتك.. استطعت دائماً أن أستغني
 عنكم.
 الفارعة : انتظر.. أين تمضي؟
 محمد : إلى الجحيم..
 دلال : أتظنين!
 الفارعة : لا أدري.. إنه يائس.. ومرارته تخيفني.. هيا نغير الحبا..
 (تتلاشى الإضاءة..)

سفر النبوءات / المقطع الخامس

- (إضاءة على غرفة بيت جدعون. يظهر جدعون نصف عار، وراحيل تتمرغ على الأرض مشعّنة الهيئة، وممزقة الملابس.. يظهر عري جسدها في أكثر من موضع).
- راحيل : يا إلهي! إلى أيّ حضيض نهوي! كيف أمكن أن تفعل ذلك؟
- جدعون : آسف من أجل الثياب، يمكن أن نرتّب الأمر.
- راحيل : سافل.. أهذا ما تأسف من أجله؟ وماذا عني أنا؟
- جدعون : إذا لم تكتفي يمكن أن نكرّرها.
- راحيل : كيف تستطيع أن تكون منحطاً وحقيراً إلى هذا الحد؟
- جدعون : إذا واصلت شتائمك، فلن أستطيع ضبط نفسي. إنك شهية حين تغضين (يداعبها) وشهية حين تقاومين.
- راحيل : لا تلمسني. يا إلهي.. كيف سوّلت لك نفسك؟
- جدعون : أرجوك لا تلعب معي لعبة البراءة. كنت تعرفين جيداً ما أريده منك.
- راحيل : وهل كنت أعرف أنك ستناله بهذه الطريقة؟
- جدعون : هذه الطريقة أو تلك.. ما الفرق؟ أعترف أنني أفضل الخشونة في الحب.
- راحيل : خشونة! ولكنك اعتديت علي.
- جدعون : لست من هؤلاء الرجال الذين يذوبون كقوالب الزبدة.

- لديك في البيت قلب زبدة، وهذا يكفي.
- راحيل : لا يهمني ما أنت بين الرجال، ولا أدري إن كنت تحسب منهم. لقد هتكتني.
- جدعون : لاتنسي أنك جئت بمحض اختيارك.
- راحيل : جئت لأنك وعدتني بالصداقة، ولأنني بحاجة إلى معونة صديق.
- جدعون : كان ذلك أسلوباً في التودّد إليك.
- راحيل : أو قل أسلوباً لاستدراجي، وخداعي.. يا إلهي.. ومن تستدرج؟ إنني زوجة صديقك.
- جدعون : ومن قال إن زوجك صديقي؟ ليس لدي أصدقاء. القوة هي صديقي الوحيد.. أنا من أجيال الصابرا يا راحيل، من هؤلاء الذين يتعلمون أن الرجل الفعلي لا يحتاج إلى أصدقاء، وأن عليه ألا يثق بأحد.
- راحيل : وأغانيك عن الرشد المسلوب، والمشاعر التي لا ترجمها لسان!
- جدعون : الحب بالنسبة لي هو الرغبة. وكانت رغبتني عارية.
- راحيل : يا إلهي.. كيف ورّطتني الأكاذيب! وإلى أيّ حضيض هويت!
- جدعون : إسمعي يا حُبوبة، لم تتورّطي، ولم تنخدعي.. كنت تعرفين بوضوح إلى أين أنت قادمة. ربما لم يعجبك الأسلوب. ولكن بالنسبة لي هذا هو الحب.. إنه عنف وسيطرة.
- راحيل : لماذا لاتقولها؟ إنه الاغتصاب.
- جدعون : حين كنا صغارا علمونا أن نحذر الشفقة والحنان، وأن نتزع ما نريده انتزاعاً. نعم الاغتصاب. وكلما ازدددت ضراوة، ازداد تقدير بابا لي.
- راحيل : بابا؟

- جدعون : أعني رئيسنا السيد مائير.
- راحيل : وهل تخبر السيد مائير عن غزواتك؟
- جدعون : لا داعي لإخباره، فهو يرى بنفسه. إننا نقضي أوقاتاً ممتعة في المركز.
- راحيل : أتشتركان معاً في هذه الأمور؟
- جدعون : إننا نشترك جميعاً. ألم يحدثك إسحق عن الحفلات التي نقيمها؟
- راحيل : إنه لا يحدثني عن العمل. أشارك هو أيضاً؟
- جدعون : وماذا تظنين؟ لكن ليست له قامتي. فيه خَوَرٌ أثوي. منذ أيام أغمي عليه كالنساء. لا أعتقد أن امرأة مثلك يمكن أن تكون راضية معه.
- راحيل : ومانوع الحفلات التي تقيمونها؟ أهى حفلات اغتصاب؟
- جدعون : اغتصاب وأشياء أخرى..
- راحيل : يا إلهي.. مامعنى هذا!
- جدعون : إنه عملنا. نحن نتعامل مع مخلوقات كان يجب أن تُباد لولا الاعتبار الدولية. إن أمن إسرائيل لايمس، ولهذا فإن علينا أن نكسر عظامهم كي يبيضوا مالديهم من نوايا وشُرور.
- راحيل : وهل هذا مرهق؟
- جدعون : بل إنه ممتع. الرجل الذي تَرَى على الوحدة وصداقة القوة، لايمكن إلا أن يستمتع به.
- راحيل : وإذن.. فإن عملكم الفعلي هو التعذيب..
- جدعون : إنها اللغة الوحيدة التي يفهمها الإرهائيون.
- راحيل : وتستخدمون تلك الوسائل التي نقرأ عنها في الكتب؟
- جدعون : عدتنا أحدث من أيّ كتاب. ولدينا أدوات لم نجربها بعد..
- لكن كما يقول بابا.. ليس هناك ماهو فعال مثل كسر الخصيتين، أو مباعدة فخذي المرأة أمام زوجها.

- راحيل : ويشارك إسحق في هذا كله؟
 جدعون : طبعاً. ولكن فيه رخاوة لا تخطئها العين. منذ فترة أتينا بزوجة
 أحد المعتقلين، وأقمنا حفلة صاخبة. لكن إسحق حاول أن
 يتفوق في القسوة. أمسك شفرة وراح يشطب عانتها
 وثنديها.. ثم قطع حلمة نهدها الأيسر. (يقترّب منها. ومع
 الكلام يتامى هياجه) كرزة حمراء دامية. حملها بين إصبعيه،
 ثم رماها بنفور وهلع. كان وجهه محتقناً، وعيناه تبرقان في
 وميض يائس. الموسيقى صاخبة، والدم يسيل مع انحناءات
 الجسد. وحلمة نهدها كرزة حمراء ملقاة على الأرض.
- راحيل : (برعب) لا تلمسني.
 جدعون : شهّي رعبك. شهّي غضبك.. شهّي شراستك..
 راحيل : لا تلمسني. ابتعد عني، وحوش. إنكم وحوش. يا إلهي إلى
 أيّ حضّض نهوي؟
 (يسيطر عليها، وتبدأ عملية اغتصاب جديدة.
 تتلاشى الإضاءة).

سفر النبوءات / المقطع السادس

(غرفة الجلوس في بيت بنحاس. يجلس إسحق شاردأ. الأم
تقرأ في مجلة. وبحركة آلية تمدّ يدها إلى راديو ترانزستور.
تفتح الراديو. ينطلق صوت المذيع.. تعدّل الصوت).

صوت المذيع : قصفت طائرات الجوّ الإسرائيلي قواعد للمخزيين في جنوبي
لبنان. وقد أفاد الطيارون بأنهم أصابوا الأهداف إصابات
مباشرة. أصدر الحاكم العسكري أمراً بإغلاق جامعة بيرزيت
على خلفية الإضرابات التي شهدتها المناطق..

إسحق : (متأففاً) أرجوك.. أغلقي المذياع.

(الأم تغلق المذياع بانزعاج).

: تأخّرت راحيل:

إسحق

: إنها تحب التسكع في الأسواق.

الأم

: أماء.. حاولي ألا تكوني قاسية عليها.

إسحق

: خير لها أن تعود إلى عملها.

الأم

: لا تستطيع أن تترك الطفل.

إسحق

: الطفل مسؤوليتي. إني أفعل له كل شيء. وأريد أن أزيه كما

الأم

يجب.

: وأتمه! ألا يحق لها أن تشارك في تربيته؟

إسحق

: ليست لديها الخبرة. منذ أيام سمعتها تناغيه بحكايات

الأم

سخيفة.. البرقوق الذي تزوج الحلاوة. والحلاوة التي وضعت

- طفلاً من السكر.. وتفاهات من هذا النوع. أنا على الأقل
ريستك. وحين أراك الآن أشعر بالزهو.
- إسحق
الأم : لست متأكداً أن لديّ ما يبعث على الزهو.
- إسحق
الأم : لا أسمح لك. إياك أن تظنّ أن التواضع فضيلة.
- إسحق
الأم : أماه.. أودّ لو تحدّثيني عن أبي.
- إسحق
الأم : مابك يا بني؟ حالك في الفترة الأخيرة لا يعجبني.
- إسحق
الأم : حدّثيني عن أبي.
- إسحق
الأم : دع الموتى راكدين في قبورهم.
- إسحق
الأم : كنت دائماً تتحاشين الحديث عنه. أحياناً يخيّل إلي أن
جوزيف بنحاس لم يوجد وأنه مجرد انطباع عابر من
انطباعات الطفولة.
- الأم
إسحق : ذلك أفضل، لأنه ما كان يصلح قدوة لابنه.
- إسحق
الأم : هل كان سيئاً إلى هذا الحدّ؟ أذكر رجلاً دافئ النظر يعزف
على الكمان. كان المساء ملوناً، واللحن ينساب بين الألوان
مثل جدول عسلي.
- الأم
إسحق : نعم.. الكمان. هذا ما كان يحسنه، بينما الرجال يتدربون
على السلاح، ويخطّطون لمستقبل الدولة، كان رجلاً خائر
العزيمة، مثقلاً بالمرارة.
- إسحق
الأم : ولم المرارة؟
- إسحق
الأم : وما أدراني!. ربما لأنه وافق على المجيء معي. وربما لأنه لم
يجد له مكاناً في المجتمع الذي يتأسس.
- إسحق
الأم : ألم يكن راغباً في العودة إلى أرض إسرائيل!
- إسحق
الأم : كان موسوساً. لم يشاطرني حماستي للصهيونية، ولكنه لم
ينقدها كما كان يفعل بعض المتحدلقين والشيوعيين. ظننت
أن دفعة صغيرة تكفي كي أتغلّب على موقفه المتردّد. وحين
فاتحني بالزواج، اقترحت عليه أن نهجر بعد الزواج، وأن

- بنني حياتنا هنا، فاستخفته الفكرة ووافق.
- إسحق : هل كنت تحبني؟
- الأم : وأنت.. هل تمارس دور المحقق مع أمك!
- إسحق : تكلمي يا أماه.. أريد أن أعرف.
- الأم : ربما أحببته في البداية، أو بالأحرى خُدعت به. جذبني استقلاله ومزاجه الفني. كان يبدو واعداً. ولكن بعد مجيئنا تبيّنت أن ذلك كله قشرة يخفي بها عدميته.
- إسحق : أذكر رجلاً يجلس على الأرض، وحوله أوراق وقصاصات ملونة. كان يصنع طائرة ورقية لها ذنب مدهش.
- الأم : نعم.. كان يفتنه اللهو، وكل ماهو عقيم.
- إسحق : أذكر الطائرة وفرحتي بها.
- الأم : لو تركتك له لأفسدك. آه.. كم كنت خائفة عليك!
- إسحق : كيف هاجرتما؟ وكيف عشتما هنا؟
- الأم : لم نحمل معنا إلا الكمان وصندوق كتب وملابس. حين وصلنا أرض إسرائيل كنت كالمحمومة أتقد حماسة، وانفعالاً. أما هو فكان فاتراً لا يكف عن التذمر. استقرّ بنا المقام في أحد الكيبوتزات. تلك الأيام.. بدت لي الحياة إمكانية مذهلة، فانغمست فيها بفرح وشجاعة. لكن أباك ظل متباعدًا، وعجز عن إتقان أي عمل. ثم بدأ تذمره يتزايد حتى تحوّل إلى نوع من العداء المرير. كانت الهوة تتسع بيننا كل يوم. وكان يعرف أنه يخسرني إلى الأبد.. وربما كان هذا أيضاً من أسباب مرارته.
- إسحق : وعلام كان ينصب عداؤه؟
- الأم : على كل ماثؤمن به، الحركة الصهيونية، والهجرة، والوطن القومي.
- إسحق : هل كان يُسرُّ لك بأفكاره؟

- الأم : بل كان يعلنها بوقاحة صاخبة. في فترة من الفترات أصابه
ولع الدفاع عن العرب. كان يريد مناكدتنا. صار يجمع
أقوال اليهود الموسوسين من أمثاله ويتشدق بها أمامنا. قال
فلان وقال علان. وكنت أحمرّ خجلاً، وأتميز غيظاً. وذات
يوم سقمنا وكالة للرأسمالية اليهودية والعالمية، فأمسكه مائير
من ياقته، وقال له بصوت باتر.. ابلعه. فبلع لسانه وسكت.
كان جباناً رغم ضوضائه.
- إسحق : ألم يكن السيد مائير صديقه؟
الأم : مائير صديقه! كان يحتقره، ويعتبره خطراً على قضيتنا. من
أجلي لم يتخذ ضده أي إجراء.
- إسحق : وهل مات فعلاً بالتليف الكبدي؟
الأم : هذا ما قاله الطبيب.. كانت به علل كثيرة، لكن المرارة هي
التي قتلتها.
- إسحق : هل مرض فترة طويلة؟
الأم : لا.. لم يطل مرضه. لازم الفراش نهاراً، وفارق في الليل.
كان موته مريحاً ومناسباً.
- إسحق : لمن؟.. لك وللسيد مائير!
الأم : للجميع. وأولهم أنت.
- إسحق : أنا؟
الأم : طبعاً. كان يهين لك تربية عدمية. عارض إرسالك إلى
حضانة الكيبوتز، وحاول أن يحبسك في البيت، كي ينقل
إليك تأثيراته الضارة. كم عانيت كي أبعدك عنه! وكم
خفت حين بدأت تتعلم العزف على الكمان! لولا مائير ما
كنت أعرف كيف أتحمل محنتي معه.
- إسحق : أحياناً يخطر لي أن السيد مائير هو أبي الفعلي.
الأم : إسمع يا إسحق. لا تحسب أنني سأنتصع الحياء أمامك. أنت

من صلب جوزيف بنحاس، ولكن كنت أودّ بكل جوارحي
لو أنك من صلب مائير. وعلى كل إذا كان الأب هو الذي
يرتبي، ويساعد الابن على بناء شخصيته، ومستقبله، فإن
مائير هو أبوك الفعلي. لقد قاسمني مسؤوليتك، وعلمني
كيف أصوغ حياتك ومستقبلك.

إسحق
الأم
إسحق
الأم

: لماذا لم تنزّوجا بعد موت أبي؟
: لأن ما بيننا يسمو على أي عقد أو زواج.
: هل فضلتما العلاقة الحرة؟
: ربما صار من حقلك أن تعرف. لا يوجد ما يشبه علاقتنا يا
إسحق. بعد فترة من إقامتنا في الكيبوتز التقيت به. كنا
نحضر اجتماعاً للحركة. ونهض أماننا شاب ملكي في
وقفته وقامته. كانت لحظة خارقة. رأيت سليل داود يهب
من بين الأموات متلفعاً بالسحر والجمال. كان مهاجراً
جديداً. وحين قُدمت إليه، تملكنتي رعشة، وقلت في نفسي
هذا بوصلتي إلى وطني ومجدي.. وسرنا معاً.

إسحق
الأم

: إذن كانت النزاهة تقتضي، ألا تبقي مع أبي؟
: تلك كانت رغبتني، ولكن مائير كانت لديه فكرته الخاصة
عن النقاء.

إسحق
الأم
إسحق
الأم

: وما هذه الفكرة؟
: آه.. كيف أشرح لك. الأفضل لو تركنا هذه الذكريات.
: لا.. لا نستطيع أن نتركها قبل أن أعرف.
: إنك تقلقني هذه الأيام.
: وضّحي لي يا أماه.. أي نوع من العلاقة كانت تربطك
بمائير؟

إسحق

: أحبّتي كما أحب الربّ إسرائيل. وأحبّته كما يحب
اليهوديّ المسيح. كان حبّاً صيماً ومكابدة.

الأم

إسحق
الأم

: لم أفهم شيئاً.
: كان مائير يفكر أن حلمنا لا يحققه إلا جيل مفعم بالوجد
والطهارة. كان يقول ينبغي أن نكون روحاً شفافاً كالفجر،
صلبة كالنصل كي تكتمل المعجزة.

إسحق
الأم

: أية معجزة؟
: إسرائيل ومجدها. نحن جيل تعهد أن يصتح تاريخاً طويلاً
من الخطأ والآلام. وعلينا أن نكتشف في أعماقنا ينايع قوة
بكر. لأن المعجزة لا تبنيها إلا قوة بلا خطيئة. هكذا كان
يتكلم.. وكنت أحس أنني كائن أثري يطفو فوق حلم.

إسحق
الأم

: هل كان يؤمن بذلك فعلاً؟
: كما يؤمن بقضيته.

إسحق
الأم

: وأنت؟
: حين كنت أصغي إليه، كنت أحس أنني في حضرة نبي. نفذ
إيمانه إلى أعماق روحي، فبدأت أروض جسدي، وأتعلّم لذة
المكابدة والتسامي.

إسحق
الأم

: وأني؟
: هجرت فراشه إلى الأبد.

إسحق
الأم

: وحافظت مع مائير على طهارة العلاقة؟
: مرة.. ولكن مالنا وهذا الحديث!

إسحق
الأم

: مرة..
: مرة كدنا نضعف. أو للحق، أنا التي ضعفت. ويدو أننا

تورطنا بصورة مزرية. حين انتبه، هبّ واقفاً وقال بيرو
غاضب.. أخطأت أورشليم خطأً فلحقها الطمث.
ومكرومها ازدروها لأنهم رأوا سواتها. آه.. تمنيت لو
تنشق الأرض وتخفيني عن عينيه. لقد انكسر جمالي،
وفقدت حظوتي في قلبه. قال مازالت فينا أرجاس. وبعدها

- لم يخلُ بي أبداً.
 : ولهذا انقطعت زيارته؟ إسحق
 : ولكن حبنا ظل حياً. الأم
 : حب عصامي وعافر. إسحق
 : إنه الحب الذي بنى المعجزة. الأم
 : معجزة لا تفرح ولا تنجب. إسحق
 : إياك أن تقول ذلك. تطهرنا، وكابدنا لكي تفرحوا أنتم الأم
 وتنجبوا.
 : ألا يمكن أن يكون مائير؟ إسحق
 : أن يكون ماذا؟ الأم
 : لاشيء. إسحق
 : إسمع يا بني. إن مائير رجل كامل، وبأمثاله تحققت معجزة الأم
 إسرائيل. عاش كالراهب الذي نذر نفسه لقضيته. وبطولته
 في الأرغون مأثورة. أنتم جيل مدلل، لأنكم حظيتم بآباء مثل
 مائير. لو تعلم بأي دأب وحتو كان يخطط لمستقبلك. وها
 أنت الآن تعيش ذلك المستقبل. عمل خطير، ورئيس
 كالأب. لقد نجح رهاننا، وأرجو أن ترقى السلم الذي رفعه
 لك مائير بما يليق من التفاني.
 : نعم... لقد خطط لكل شيء، ولكن لم يخطر لأبي منكما إسحق
 أن يسألني، إذا كنت أريد هذا العمل..
 : وكيف لا تريده.. إنه واحد من أجل الأعمال في دولتنا. الأم
 إنك العين التي تحمي هذه القلعة التي بنيناها. ولا يتاح
 للكثيرين هذا الشرف، وهذه الرتبة.
 : عملنا شاق يا أمه. إسحق
 : هذه النعمة المذمومة جديدة علي. إن إحساس الأم لا يخطئ. الأم
 هناك شيء ما لايسير. قل لي مابك!

- إسحق : إني متعب.
 الأم : سأحضر لك قرصاً فوّاراً.
 إسحق : لا.. لا.. التعب هنا.. في أعماقي. لم أعد متأكداً أن ما نقوم به جليل.
 الأم : من المؤكد أنه جليل.. إن الإيمان أقوى من الحقيقة يا إسحق.
 ولايجوز أن يتزعزع إيمانك لئلا تضع. أخشى أن يكون ذلك من تأثير زوجتك. هل تحدّثها عن عملك؟
 إسحق : لا.. إنها لاتعرف شيئاً.
 الأم : هذا أفضل، فهي كائن هش! (صراخ طفل) آه.. استيقظ حببي. إني قادمة يا داوودي.. إني قادمة يا ملكي.
 (تهرع الأم خارجة)
 إسحق : متعب ومشوّش. أذكر رجلاً عذب الوجه، بارع اليدين، يتناول المعجونة ويصنع مها أرنباً، وشجرة، وكماناً.
 (تعود الأم حاملة الطفل).
 الأم : ملكي غاضب.. عفوك.. عفوك.. تقلّد سيفك على فخذك، وبجلالة اقتحم.. نعم.. نعم.. هذا بابا (تعطي الطفل لإسحق) لابعه قليلاً ريثما أحضر الماء والحليب.
 (تخرج الأم). إسحق يناغي الطفل. تدخل راحيل مشعّنة الهيئة وملتقة بمعطفها).
 إسحق : أين كنت؟ كدت أقلق عليك.
 (تنزع الطفل منه، وتزوي في ركن قصي. تدخل الأم).
 الام : (مقتربة من راحيل بخطوات حاسمة) يجب أن أغيّر له، وأرضعه (تحاول راحيل التشبّث بالولد. الأم تحاول انتزاعه من بين يديها) إنه مبلّل وجائع. تعال يا ملكي تعال (فجأة تتخلّى راحيل عن الطفل بحركة يائسة.. تحمله الأم، وتمضي به) شعوب تحتك يسقطون. اسمعي يا بنت وانظري. انسي

- شعبك وبيت أهلك.
- إسحق : (يقترّب من راحيل) لماذا تأخّرت؟
- راحيل : يا إلهي.. إلى أيّ حضيض نهوي!
- إسحق : (يلمسها) ماذا حدث؟
- راحيل : (مرتاعة) لا.. لا تلمسني.
- إسحق : ماذا هناك؟ ولم هذا الهلع كلّهُ؟
- راحيل : لا تلمسني.
- إسحق : هل تتقرّزين مني؟ كنت أعلم أنك لن تتحملي الأمر. لا أملك. شاة بمثل حرارتك لا يمكن أن يرضيها زوج كالأخ.
- راحيل : يا إلهي.. إلى أيّ حضيض نهوي!
- إسحق : أعرف أنك تقاسين. وأن حياتنا تتدهور. ولكن.. كنت أمل ألا تتخلّي عني. لو تعلمين كم أنا بحاجة إليك! لا.. لا أحاول أن أستدرّ شفقتك، فالشفقة تزيد وضعنا زيفاً. إني وحيد.. وكم هو فظيع أن يكون الرجل وحيداً مع عجزه.. ألا تقولين شيئاً؟
- راحيل : يا إلهي، إلى أيّ حضيض نهوي!
- إسحق : إذا كان هناك رجل آخر، فإني أستطيع فهم ذلك. هناك ثمن يجب أن يُدفع. (مستدرّكاً يحاور نفسه) ولكن ما مبرّر أن يكون هناك ثمن! ما الخطأ! إننا نقوم بواجبنا. ألم يعلموني أن أكون حاداً كالמוש؟ وحيداً وقاسياً كالخوف؟ ألا نعرف أن كل شيء سيتقوّض إذا تركنا العطف يتسرّب إلى قلوبنا.. إذن لماذا الثمن؟ من أجل بعض المخربين العرب! أليس العربي الطيّب هو العربيّ الميّت! فعلام الندم إذن!
- راحيل : يا إلهي.. إلى أيّ حضيض نهوي!
- إسحق : حقاً.. لقد هويتنا. كم كنا سعداء قبل ذلك! أتذكرين أوقاتنا الجميلة.. ذلك المساء حين اشتعلت الرغبة في جسدنا ونحن

في الحديقة. وما فعلناه في السينما. و.. كنا سعداء فعلاً. والآن.. أيّ خراب! كان ماثير يريد أُمي بلا طمّث. أتصوّرين! تحابّا سنوات ولم يحدث بينهما شيء. هي قالت لي. والجميع ينظرون إليه كما ينظرون إلى الرجل الإله. أستم رائحة كذب وعقم وخواء. أعرف أنني أفقد تقديري لي، ولكن يجب أن أبوح بما يجيش في داخلي. إني في نفق لا يبدو له مخرج. عملنا كرية يا راحيل. هو ضروري، إلا أنه كرية. تعبت، ولم أعد أحتمل. إني طبيعة هشة. نعم. أقولها لك بصراحة. إني ابن أُمي. منذ لحظات كانت تقول أُمي إن موت أُمي كان مناسباً ومريحاً. هو الآخر كان طبيعة هشة. لايجوز أن نعطف على أعدائنا. هذا أدركه. ومع ذلك فإن تغذية الكراهية تستنفد القوى كتغذية الحب، لا أدري عما أتكلم. إن ذهني مشوّش يا راحيل. ولكن يجب أن أتكلم، حتى ولو ازداد نفورك مني. إنك لا تعرفين الأشياء الفظيعة التي نفعلها كي نحافظ على أسطورتنا. اسعفيني بكلمة.

: أريد أن أتقيأ.. يا إلهي.. إلى أيّ حضيض نهوي!

راحيل

: هل بلغ النفور هذا الحد! ذهبت إلى الدكتور منوحين. لقد شخّص لي مرضي. إنه نوع من عقاب النفس. إنه تعبير جسدي عن ندم خفي؟ طبعاً لا تستطيعين أن تفهمي ذلك. فأنت كالجميع تعتقدين أن كل مايحقق نجاحنا هو نظيف ومشروع. وإذن فعلامّ الندم! كان علينا أن نقوم بعمل رهيب يا راحيل. هناك مخزّب عنيد لا يريد أن يعترف. وطلب ماثير أن نضغط عليه بطريقة مفرّعة. جئنا بزوجته، و.. حطّمنا رجولته. إنه الآن في داخلي يعاقبني ويعوّق رجولتي.. أو هناك إنسان في داخلي يتولى عقابي. إنسان آخر.

إسحق

راحيل : (تصاب بالفواق وكأنها ستقيأ، ثم تهدأ) يا إلهي.. إلى أيّ حضيض نهوي!

إسحق : لم يكن حشرة. ولم يكن قمامة نرميها في المزبلة. كان رجلاً له عيان مروّعتان، ووجه تتكلّم ملامحه وتصرخ. كان إنساناً.. وقبل أيام مات بين يديّ. كابرت أمام الطبيب. ولكن ما الفائدة! لم تقنّني كل التبريرات. ولم تهدّئي دروس الكراهية التي حفظناها. تستطيعين كإسرائيلية أن تحقّرني، ولكن أقول لك دون موارد. إن هذا فظيع، وإنّي أتقرّز من نفسي. لا أحتمل هذا العمل. ولا أريده. ساعديني يا راحيل. أريد أن أخرج من هذا النفق المظلم. ربما لم تفت الفرصة.. آه.. ليتنا نبتعد.. نبتعد ومتاعنا طفل وحب وكرام.

الأم : (داخلة) لماذا تحطم نفسك يا بني؟
إسحق : أمي! نعم.. تعالي أنت أيضاً. هل سمعت اعترافاتي كلّها؟
الأم : سمعت ما سمعت. أسألك.. لماذا تحطم نفسك؟
إسحق : بل أحاول للممة خطامي يا أماه. إننا نتشوّه، ونحن نشوّههم.
الأم : لن نزيدهم تشويهاً. وماتفعلونّه أقلّ مما أوصانا به الربّ.
إسحق : ربما لم يتخيّل الرب أننا سنطوّر فنون التعذيب إلى هذا الحدّ.
الأم : لا تجدّف. أوصانا الرب ألاّ نعفو عنهم، وأن نقتلهم رجلاً وامرأة طفلاً ورضيعاً، بقرّاً وغنماً، جمللاً وحماراً.

إسحق : كان عليه أن يخلقنا على نحو آخر، إذا كانت تلك وصيته.
الأم : العيب فيك وليس في خلقه. ومن الخيّب أن أكتشف أن مابذله خلال هذه السنوات لم يصلح ذلك العيب الوراثي. تلك جرثومة أيبك، ولن نسمح لها بالتكاثر والنموّ. لحظة الضعف هذه يجب أن تمرّ.

إسحق : لن تمرّ! فالشكوك تنخر روحي.
الأم : إلّا ترمي بحقّ الرب؟

- إسحق : لست مقتنعاً أن مانفعله عادل.
- الأم : مادام ضرورياً لمنعة إسرائيل ومجدها فهو عادل.
- راحيل : وهل ضروري لمنعة إسرائيل ومجدها أن أغتصب أنا أيضاً!
- إسحق : ماذا تقولين؟
- الأم : (باحترار) وما هذه القصة أيضاً؟
- راحيل : لقد اغتصبي زميلك الفعّال جدعون.
- إسحق : أعيدي ماقلت.
- راحيل : لقد اغتصبي جدعون.
- إسحق : يا إلهي.. حقاً إلى أي حضيض نهوي!
- الأم : الزنى شيء، والاعتصاب شيء آخر.
- راحيل : اغتصبي كما يغتصبون العربيات أثناء عملهم المجيد. حدّثها عن حفلاتكم يا إسحق. حدّثها عن حلمة النهد المبتورة.
- إسحق : يا إلهي.. إلى أي حضيض نهوي!
- الأم : زانية..
- راحيل : أنت يا امرأة الحليب الفاسد. كنت أحاول مساعدة ابنك، وهذا مانالني. (تفتح معطفها، فتظهر ثيابها الممزقة وخدوش جسدها) انظري جسدي وثيابي يا مرضعة الذئب. ذئاب ضارية في بريّة هجرها الله تقزّزاً.. تقزّزاً.
- إسحق : (تضع يدها على فمها لمنع اندلاق القيء، وتهرع خارجة).
- الأم : يا إلهي إلى أي حضيض نهوي!
- إسحق : كنت أعلم أن هذه المومس ليست منا (تداعب شعره) اصغ إليّ يا بني. لن تركها تهدم كل مابنيناه.. تعال.. تعال إلى حضن أمك (إسحق يقاوم) منذ زمن طويل لم نقرأ سيرة الميлад والبطولة. استرخ يا بني دع أمك تهددك، وتحكي لك ماتحتاج إلى سماعه.
- إسحق : (إظلام تدريجي).

سفر الأحزان اليومية / المقطع السادس..

(إضاءة على مشهد مظاهرة.. صياح وإطلاق رصاص. الفارعة
ترنح.. إنها مصابة. بوق سيارة إسعاف تقترب من بعيد..)

الفارعة

: رصاص.. لاشك أنه رصاص. لماذا لا يركض هذا الولد!
اركض.. اركض. ساقاي رخوتان. كل شيء بدأ من
الجنائز. الله أكبر. عاد إسماعيل في تابوت مستمر. لم
يسمحوا لنا أن نرفع الغطاء، وأن نرى التعبير الأخير على
وجهه. رصاص. لاشك أنه رصاص. جنود مقنعون
ومدججون بالسلاح. وسط الدموع كبرنا وهتفنا. كانت
الجنائز مهيبة. ولم يضطرب الموكب حتى واريناه التراب.
ريقي جاف. أين دلال؟ لم تلبك. ولكنها انفجرت
كالديناميت. اتسعت المظاهرة. وبدأت الصدمات. ساقاي
ألين من القطن. إني عطشانة. الجنود مقنعون ومدججون
بالسلاح. رصاص وغيمة سوداء. عاد أخي وابني الذي لم
ألده في تابوت. وعمر.. (تداعى ببطء) آه يا عمر.. إني
عطشانة. ودلال.. لماذا لا تسمعني؟ رصاص.. يارب.. إنها
دلال.. وقامتها تسمو وتعلو.. هي الفارعة يا إسماعيل.. انظر
إليها.. إنها تتقدم وحولها زوبعة من الرنين.. غيمة ثقيلة..
أريد هواء.. رصاص، وتابوت، وعتم.. أسمع الرنين حول

دلال. كانت محقة. لاتحبي المتفاسحين يا دلال؟. لاتحبي
الموظفين وتجار الكفاح. أريد ماء.. رنين.. رصاص ورنين..
إمّا هم.. إمّا نحن.
(تغيب عن الوعي، ويعلو بوق سيارة الإسعاف بشكل مصم).

سفر النبوءات / المقطع السابع

- (ضوء ينير ركناً يظهر فيه إسحق وراحيل).
- إسحق : هل خسرنا كل شيء؟
- (تهز راحيل كتفيها بحركة عاجزة ومتعبة).
- إسحق : هل خسرنا كل شيء يا راحيل؟
- راحيل : ربما..
- إسحق : هل نستسلم بهذه السهولة؟
- راحيل : لم يبق ما نقاوم من أجله.
- إسحق : إني بحاجة إليك. لو وقفت إلى جانبي فقد نجد مخرجاً من هذا النفق.
- راحيل : لا أستطيع.
- إسحق : لماذا؟ هل انطفأ حبك تماماً؟
- راحيل : إني مكسورة، وأحتاج من يجبر كسوري. لا.. لا أستطيع مساعدتك.
- إسحق : لاتظني أنني سأترك جدعون يفلت بفعلة. لا أريد أن أكون أخرق، ولكني سأصفي المسألة.
- راحيل : لايهمني الأمر. معدتي تجيش. لا أريد أن أسمع شيئاً عن هذا كله.
- إسحق : هل اتخذت قراراً ما؟
- راحيل : ربما..

- إسحق : ماهو؟
 راحيل : قد ألبى دعوة عمتي. كلانا الآن محتاج للآخر.
 إسحق : ونحن.. أنا والصغير محتاجان لك أيضاً.
 راحيل : ليس لديّ ما أقدمه لكما.
 إسحق : أتتخلّين عن الصغير أيضاً؟
 راحيل : ملعونة تلك الساعة التي أنجبته فيها. ألم تنتزعه أملك مني؟
 إسحق : إني أفهم ما تعانين. أعرف أن الأمور تعاقبت بصورة مريعة،
 أمني ومرضي وجدعون.. ولكن أعطينا فرصة. كنا زوجين
 متحابين وأنجبنا ثمرة جميلة. دعينا نعالج أمورنا بترؤ.
 راحيل : سأجنّ لو بقيت هنا. هذا الغثيان.. وهذه الكوايس.. إني
 أتدلّى في فراغ مرعب.
 إسحق : سأترك العمل، وأنتقل إلى وظيفة مدنيّة في الخارج.
 راحيل : هذا شأنك.
 إسحق : يمكن أن نساfer معاً. أن ننقذ أنفسنا ونبتعد.
 راحيل : ستكون أماننا فترة طويلة حتى تلثم الجراح، وقد لا تلثم.
 إسحق : دعينا نجرب.
 راحيل : جرّب إذا شئت ولكني لن أبقى هنا.
 (تنقبض ملامحها. إنها تغالب الغثيان).
 إسحق : هل صممت؟
 راحيل : نعم..
 إسحق : أمهليني قليلاً.
 راحيل : لا أحتمل هذا البيت. لا أحتمل رؤيتك. لا أحتمل أملك، لا
 أحتمل جسدي، وهذا الغثيان.. لا.. ينبغي أن أهرب، وإلا
 نفقت كما تنفق الكلاب.
 (تضع يدها على فمها، وتهرع إلى الداخل).
 إسحق : ماذا ينتظر المسيح حتى يظهر؟ لا فائدة من الماطلة.

(يخرج إسحق.. تبدأ الإضاءة بالخفوت تدريجياً.. تدخل الأم وهي تدفع مهد الطفل أمامها).

: وأقبل جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك في حبرون. فقطع معهم الملك داود عهداً في حبرون أمام الرب، ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل. وأخذ داود حصن صهيون وأقام في الحصن، وسمّاه مدينة داود. وكان داود لا يزال يتعاضم والربّ إله الجنود معه.

الأم

مكتبة سيد الألفية
www.books4all.net

سفر الأحزان اليومية / المقطع السابع..

- (الفارعة مضمدة وممددة على سرير مستشفى. تجلس دلال على طرف السرير..)
- الفارعة : كنت كمن ينهض من الموت.
- دلال : وكيف وجدت الموت؟
- الفارعة : الموت حق. ولكنه موحش ومخيف. هل طالت غيبوبتي؟
- دلال : قرأنا الفاتحة مرات. وفجأة انتفض بدنك، وقرر أن يحيا.
- الفارعة : يموت الغالي ويحيا الرخيص..
- دلال : أنت أعلى مما تتصورين. لو تعرفين كم شاباً تبرع لك بالدم!
- الفارعة : هل أعطوني من دمهم؟
- دلال : كنت بحاجة إلى دم كثير، فتدافع الشباب للتبرع. الآن.. كل الدم الذي يتدفق في عروقك شاب.
- الفارعة : هم أحوج إلى دمائهم من عجوز مثلي.
- دلال : الدم يعوّض أما الفارعة فلا تعوض.
- ع : حماكم الله.. وأنت يا دلال.. هل تجاوزت المحنة؟
- دلال : لا أريد أن أتجاوزها.. إنها تزيد خيارى يقيناً ووضوحاً.
- الفارعة : في غيبوبتي رأيته كالشجرة المباركة، فرعك في السماء، وجذرك في الأرض.. كنت تمشين وخلفك أهازيج وعبارات ورنين. وقلت لإسماعيل.. انظر إليها.. لم تكسرهما اللوعة.
- دلال : ألم تتعلم معاً كيف تغلب على الموت والغياب!

- الفارعة : نعم.. هذا ماتعلمناه.. أن نحضن الموت، ونواصل الحياة. كم عدد الضحايا؟
- دلال : ما حان الوقت كي نحصى ضحايانا.
- الفارعة : ماذا تعنين؟ أخبريني.. ماذا يجري.
- دلال : إنها تشتعل وتمتد..
- الفارعة : هل تمتد فعلاً؟
- دلال : نعم.. من بيرزيت إلى غزة.. ومن الخليل إلى القدس.
- الفارعة : هذا أفضل خبر يسمعه العائد من الموت. وماذا تخبريني عن الطفل ومحمد؟
- دلال : الطفل بخير، وسأحمله لك في الزيارة القادمة. أما محمد فإن حالته تُوجع قلب الكافر. حبس نفسه في الغرفة.. طالحت لحيته وتعفرت هيئته.. لا يأكل، ولا ينام. وعيناه خاويتان. أحياناً ينتفض كالمحموم ويُعول كالمذبوح.. وحين يهدأ، يغطيه العرق وتصلبك أسنانه.
- الفارعة : هل انقطع عن العمل؟
- دلال : أي عمل! لقد أشعل ناراً هائلة.. وبحركة احتفالية ألقى بطاقة العمل.. وراح يتفرج عليها كالممسوس. أردت أن أحمله إلى الطبيب، لكنه رفض.. نظر إلي نظرة غريبة وانخرط في البكاء.
- الفارعة : هذا هو مخاضه، وإذا لم تخذله قواه، فسيولد، ويكون ابن أبيه. أرجوك أن تعطفي عليه.
- دلال : لا تشغلي بالك.. إننا نتدبر أمورنا.. (تُخرج راديو، وتقدمه للفارعة) ولكي تنابعي مايجري، حملت لك هذه الهدية.
- الفارعة : واشتريت لي راديو!
- دلال : إنها هدية متاً جميعاً. ولا تنسي أن الطبيب حذر من الانفعال والجهد.

- الفارعة : لا تخافي علي..
دلال : (هامسة) غداً المظاهرة الكبيرة. يجب أن أمضي الآن.. هل تريدن شيئاً؟
- الفارعة : كم أتمنى لو كنت معكم..
دلال : هي أيام وتكونين معنا.
- (تقبلها وتخرج. الفارعة تفتح الراديو.. ينبعث نشيد وطني من إحدى المحطات العربية..)
الفارعة : لو أنهم يرسلون بدل الأناشيد بعض الدم والطحين. حقاً.. هذا مانحتاجه بعض الدم والطحين.
(تتلاشى الإضاءة..)

سفر النبوءات / المقطع الثامن

(ضوء على الدكور منحين.. وأثناء كلامه يعلو الضوء في المكتب ويظهر إسحق وهو يتسلق السلم، ويدخل إلى المكتب).

الدكور : لقد انكسر قلبي في داخلي. ورجفت كل عظامي، وصرت
كإنسان سكران وكرجل غلبته الخمر لأن الأرض امتلأت
بالفجار، وناحت من أجل اللعن ويست مراتع البرية،
وصارت مساعيهم غير مستقيمة، وجبروتهم شريراً. لم يكن
أمام شخص هذه القصة أي سبيل للتراجع، وكذلك الأمر
بالنسبة لي. عرفت كل شيء، ولا أستطيع أن أخفيه.
(يخرج الدكور.. ويدخل إسحق إلى مكتب مائير).

مائير : أرجو أن تكون قد استعدت لياقتك. على كل جئت في
وقتك. قمنا باعتقالات جديدة، والمركز يغص بالزبائن.
إسحق : سيدي.. لقد اضطربت حياتي فجأة، وإني بحاجة إلى بعض
التفهم والعطف.

مائير : وما هذه القصة الجديدة.. هل الوالدة بخير؟
إسحق : الوالدة بخير، ولكن زوجتي.. وأنا.. لن أصدع رأسك
بالمتابع. جئت ألتمس منك معروفاً.

مائير : ما هو؟
إسحق : لولا اضطراب حياتي ما فكرت في طلب كهذا. هل يمكن

أن تساعدني في الانتقال إلى وظيفة في الخارج؟ لا يهمني البلد. المهم أن أسافر فترة من الزمن، وأن أكون نافعاً.

: هذه نعمة مفاجئة. المكان الوحيد الذي يمكن أن تكون نافعاً فيه هو هنا في إسرائيل. وفي هذا المركز بالذات.

: إن زوجتي تعاني من اضطرابات عصبية حادة.. وربما..

: (يقاطعه) أنت تعرف أننا لا نحب الذين يقصّون حكايات.

لن تخبرني عن بيتك ما لا أعرفه. أتظن أنني لا أفهم ماذا

يجري لك؟ فجأة بدأت ترى هؤلاء العرب بشراً. ولكن

تذكر ماذا يفعلون والخطر الذي يمثلونه. لو تمكنوا منا

لأبادونا. هل تشك في ذلك؟

: طبعاً لا..

: كيف تشفق عليهم إذن!

: أنا أشفق عليهم!

: أعرف كيف أميز جرثومة الإشفاق. الإغماء الذي أصابك،

وهذا الطلب الآن. أقول لك.. احذر يا بني. إن الشفقة في

عملنا خطيرة كالخيانة.

: في لهجتك رنة تهديد يا سيدي.

: تعرف أنني أحيطك برعاية خاصة. إنك ربيبي. ولا أريد أن

أراك تضعف. هنا.. نحن صمام الأمان للدولة اليهودية، ولذا

ينبغي أن نكون مادة فولاذية لا تلين ولا تنكسر. زملاؤك

ليسوا أفضل منك، فلا تترك الجو يخلو لهم. أثبت من أنت.

أتريد أن تخبّ أملك؟. (يرون جرس الهاتف) وتخبّيني معها.

(يرفع السماعة، ويتكلم في الهاتف) آلو.. نعم، تجددت

أعمال الشغب.. قلت لكم لا حلّ إلا بالاستيطان المكثّف

والترويع.. علينا أن نضغط، ونضغط حتى نجبرهم على

الرحيل.. الأمم المتحدة زرية لا تصلح حتى للخبراء.. سستهي

ماتير

إسحق

ماتير

إسحق

ماتير

إسحق

ماتير

إسحق

ماتير

التحقيقات خلال أيام، ونقدّم لكم كل المعلومات .. لا..
اطمئن.. طيّب.. مع السلامة (يضع السماعة) هل سمعت؟
القتلة يواصلون التخريب، وأنت تأتيني بهذه القصص التي
تبعث على النوم. هيا.. خذ هذه الملفات الثلاثة، وابدأ
العمل.

: أحشى أنني لا أستطيع الآن.

إسحق

: هل تعي ما تقول؟ هذا تمرد.. هذا عصيان.

ماتير

: لأنني ربيك أرجوك أن تساعدني. بيتي ينفار. ومن حقّي أن
أحاول إنقاذه. إن السفر خشبة الخلاص لي ولزوجتي.

إسحق

: حتمًا أغفر لهذه الجماعة المتذمرة عليّ؟ طلب غير معقول، ولو
شاع أمره لثار حولك لغط وشكوك.

ماتير

: لا يهتني ما يثور حولي. أريد أن أحمي أسرتي.

إسحق

: أسرتنا الفعلية هي الدولة لا الزوجة. اسمع يا إسحق. أنت تمرّ
في لحظة ضعف لا يبرأ منها إنسان، ولا تحسب أن الدكتور
المعادي هو الذي سيساعدك على عبور اللحظة.

ماتير

: وتعرف هذا أيضًا؟

إسحق

: نعم.. وأعرف أنك تثير ضوضاء كبيرة من أجل عضوك
التناسلي.

ماتير

: إنك تنبش حياتي الخاصة. إنك تراقبني كأني مشبوه.

إسحق

: ليس هناك حياة خاصة لمن يعمل معنا. إننا نراقبك لكي
نحميك من العثرات.

ماتير

: وكرامتي! أي كرامة بقيت لي؟

إسحق

: الكرامة الفعلية هي أن تكون فولاذًا لا تلويه العواطف.

ماتير

: أي أن أعذب وأقتل، كما أنتفّس؟

إسحق

: إنك لا تعذب ولا تقتل، بل تحمي وطنك من القتلة.

ماتير

: ولكننا نقتلهم.

إسحق

- ماتير : قتل القتلة عدالة وليس قتلاً.
- إسحق : ألا نلعب بالتسميات كي تلائمنا؟ نسميهم قتلة لكي نسمي التعذيب والقتل عدالة!
- ماتير : هل وصلت هذا الحد من الانحراف؟
- إسحق : لا أدري أين وصلت. كل ما أعرف هو أننا نفوص في الوحل.
- ماتير : أنت وحدك من يفوص في الوحل. لقد فسد إيمانك تماماً.
- إسحق : ربما.. لا أدري إن كنت تفهم ذلك. اكتشفت ومن خلال جسدي، أن مانفعله ليس مقنعاً، وأن من نسميهم القتلة، لهم عيون ومشاعر، ويحسون بالظلم.
- ماتير : ولم لا تقول إن قضيتهم عادلة؟
- إسحق : لم أعد متأكداً أن الحق كله إلى جانبنا.
- ماتير : لا.. لا يمكن.. هذا تجديف. منذ طفولتي علمني والدي الذي قتله الألمان وهو ينشد الهاتكفا أن اليهود يجب أن يرجعوا إلى أرض إسرائيل، وأن يعيدوا تأسيس مملكتها الكبرى. هذا هو الحق الواضح البسيط الذي يشبه إشراق الشمس ودورة الأيام. وكل من يعترض سبيلنا يجب أن نزيله بلا رحمة.
- إسحق : وهل كان أبي عقبة تجب إزالتها بلا رحمة؟
- ماتير : ماذا تخرف؟ إنك مخيب جداً أيها الشاب. كم تعبنا، أنا والمسكينة أمك كي نصوغ منك رجلاً حقيقياً!
- إسحق : وهل تظن أن علاقة عقيمة غذاؤها الكراهية والقتل يمكن أن تصوغ رجلاً؟
- ماتير : صدق جدعون.. ما أنت إلا عتين يبول على نفسه.
- إسحق : وأنت.. ما أنت؟ أتظن أن القتل يصنع رجلاً؟ قتلت أبي، وتريد أُمي بلا طمث.
- ماتير : توقف.

إسحق : لا.. لن أتوقف. آأنت تتحدث عن العنة؟ أنظن أننا لا نرى عنتك؟ تلك العنة الفخمة.. العنة التاريخية التي تتلأأ خلف أقنعة الترفع والعزلة والقسوة.

مائير : إنك تهلك نفسك.

إسحق : بل أسترد نفسي. أنظر في عيني إن كنت تجرؤ. (يدخل جدعون) أهذا المسلخ المربع هو المكان الذي هيأته لظهور المسيح؟ أهذه هي رسالتنا الروحية؟ (يشير إلى جدعون) أمع هؤلاء السوقين ستبني المملكة المقدسة؟ لاشك أنك تعرف ما فعله هذا الوغد.. وربما هتأته. يا للحضيض! نعم.. هذا هو إنجازك الكبير. لقد أقمت مملكة للحضيض. (يمد كل من مائير وجدعون يده إلى مسدسه) العبا بالطرة والنقش على حيازة هذه المأثرة. كلاكما محترف. ولكن.. لو خيرت، فإنني أفصل أن يقتلني قاتل أبي.

(يرفع مائير مسدسه بيد ثابتة، ويطلق عدة رصاصات، يتكوم إسحق في الأرض).

مائير : شيء محزن.

جدعون : لم يكن إلا ضراطاً.

مائير : دعني وحدي.

جدعون : حاضر.

(يخرج جدعون. يرفع مائير سماعة الهاتف.. يعلو الضوء في غرفة جلوس بيت بنحاس. يركب مائير رقماً. يرَن الهاتف في بيت بنحاس، ترفع الأم السماعة).

مائير : كان ثمرة فاسدة يا حبيتي.

الأم : وقطعت الثمرة؟

مائير : لم يكن هناك مجال.

الأم : أحقاً لم يكن هناك مجال!. أصدَقك.. أصدَقك فأنت أدرى.

- مائير : هل أستطيع أن أقف إلى جانبك؟
الأم : وكيف أفعل إن لم تقف إلى جانبي؟
(في حركتين متوازيتين يضع كل منهما سماعته).
الأم : ولدي.. ولدي.. وغداً يسألني دافيد عن أبيه فماذا أقص له؟
في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة
وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة.
(ينطفئ ضوء المكتب، ثم يتلاشى ضوء البيت ببطء متاه).

سفر النبوءات / المقطع التاسع

(ضوء على العيادة.. يظهر الدكتور.. وراحيل التي تجهز حقيبتها).

الدكتور : وأيد منهم صوت الطرب وصوت الفرح. صوت العروس.

وصوت العروسة صوت الرحي ونور السراج.

راحيل : أذاعوا أنه مات في حادثة عرضية.

الدكتور : كان ينظف مسدسه وانطلقت رسالة استقرت في صدره.

راحيل : ولكننا عرفنا الحقيقة.

الدكتور : عرفنا الحقيقة ودوناتها.

راحيل : كانت الجنازة هزيلة.

الدكتور : نعم.. هزيلة كانت الجنازة. بدت الأم جافة، وليس في عينيها

دموع. وكان مائير منتصب القامة، يطفو على وجهه تعبير

مترفع وبارد. أما راحيل فقد انهارت.. واضطرت إلى

ملازمتها حتى تحسنت حالها، وربت أمور سفرها.

راحيل : هل دونت كل شيء؟

الدكتور : نعم.. وها هي الأوراق.

راحيل : حان الوقت.

الدكتور : هل تشعرين بغصة من أجل الطفل؟

راحيل : وما نفع الغصات! هو لهم.. أخذه، ولن أستطيع استرداده.

الدكتور : يجب ألا تيأسي أبداً من استرداده.

- راحيل : ربما فيما بعد.. حين أجمع حطامي.
الدكتور : لا ينبغي أن نياس. انشري القصة على أوسع نطاق. لن نتواطأ معهم، ولن نسمح لهم بمصادرة المستقبل.
راحيل : أرجو ألا تخذلني قواي..
الدكتور : ستجحين يا راحيل. يجب أن تنجحي.
راحيل : آه.. هل أشكرك؟
الدكتور : لا.. لا داعي للشكر.
راحيل : أخيراً.. ربحت إنساناً وصديقاً.
الدكتور : اعتني بنفسك..
(تعانقه بانفعال وحميمية، ثم تحمل حقيبتها وتمضي..)

سفر الخاتمة

لافتة: حوار فictمبل بين الدكتور أبراهام منوحين وسعد الله ونوس.

(ما زالت العيادة مضاءة، والدكتور فيها. يقف الكاتب في بقعة الفارعة).

الدكتور : أين سعد الله ونوس؟

سعد الله : ها أنذا..

الدكتور : بلغنا الذروة، واكتملت هذه الشخصية التي سميتها أبراهام منوحين، فمن أين استقيت ملامحها؟

سعد الله : في البدء كانت أمنية، ولكن مواقف وشهادات بعض اليهود الشجعان أكدت لي أنها ممكنة.

الدكتور : وإذا نأنت تؤمن بأن وجود أمثالي محتمل..

سعد الله : بل مؤكّد. إذا لم يوجد أمثالك يصبح التاريخ أفقاً مظلماً.

الدكتور : لعلك تفرط في الثقة.

سعد الله : لا تبدو ثقتي مفرطة، إذا مات ذكر المرء قائمة المفكرين اليهود، الذين رفضوا الصهيونية وقاوموها.

الدكتور : ومع هذا.. هل تعتقد أن بوسعي أن أكون نزيهاً إلى هذا الحدّ؟

- سعد الله : من اختار الولاء للعدالة لا للقانون لابد أن يكون نزيهاً.
- الدكتور : ولو أدى ذلك إلى التخلي عن أهلي وشعبي؟
- سعد الله : إنك لا تتخلي عنهم، بل تحاول حمايتهم. إنك تبصر أن الدرب التي يسلكونها خطيرة، وأن الصهيونية التي يستهدون بها ورطة. هل تخلي إرميا عن أهله وشعبه؟ كان لسانه يردد باللعنات، أما قلبه فكان يتفطر حناناً.
- الدكتور : ولكن من أصغى إلى إرميا؟
- سعد الله : سيأتي وقت، وسيصفون. في الفترات الرثة، من المهم أن تظهر شخصيات تنحي الأكاذيب، وتطلّ على أفق تاريخي جديد.
- الدكتور : الشجاعة وحدها لا تكفي. إنك لاتعرف القوة الروحية، التي يحتاجها أمثالي، كي يكونوا يهوداً ومعادين للصهيونية في وقت واحد.
- سعد الله : أستطيع يا سيدي أن أتخيل ما يحتاجه المرء من طاقة كي يتجاوز شرطه. وأنا نفسي شحذت الكثير من طاقتي كي أميّرك، وأقدم صورتك.
- الدكتور : أهو شاقّ أن تقدم شخصية مثلي؟
- سعد الله : كان ينبغي أن أتخطى الكثير من الحواجز. الريبة التاريخية التي تمنع الاعتراف بوجودك. والغوغائية السياسية التي تحول دون تمييزك، وخوف المهزوم من الخديعة، وبرزخ الضحايا والجراح، وفوق هذا مكائد الشرطة وصائدي الجواسيس. نعم.. كان يجب أن أتخطى هذه الحواجز كلها كي أقدم شخصية الدكتور أبراهام منوحين.
- الدكتور : ولكنه شخصية مفعمة بالرفض والاحتجاج..
- سعد الله : ويدرك أن الصهيونية ورطة للعرب واليهود على حدّ سواء.
- الدكتور : إذا شئت.

- سعد الله : ومع هذا كان عليّ أن أشحذ طاقتي كي أتخطّى الحواجز في داخلي وحولي.
- الدكتور : لم أكن أعلم أن تعارفنا محفوف بكل هذه المخاطر. ولكن مادام كل منا يريد أن يتجاوز شرطه، فإنني أسألك.. هل كانت النزاهة متبادلة في هذه القصة؟
- سعد الله : إلّا ثمّ تلمّح؟
- الدكتور : أفرغتني تلك العبارة التي ترنّ في المسرحية: «إمّا نحن وإمّا هم».
- سعد الله : هل تعتقد أن بوسعنا، أنت وأنا، أن نتعايش مع مائير وجدعون وموشي؟
- الدكتور : هؤلاء... لا.. ولكن قد توحى العبارة بمعانٍ متطرفة ومفزعة.
- سعد الله : ليس للعبارة إلا هذا البعد. لا نستطيع أن نخرج من الورطة مادام الفكر الذي يمثله مائير وجدعون، هو الذي يسود على الضفّة الأخرى.
- الدكتور : طيّب.. وماذا عن السجون؟ ركزت على ما يحدث في السجون هنا، وتجاهلت ما يحدث في السجون العربية..
- سعد الله : اسمع.. تردّدت طويلاً قبل أن أكتب هذا العمل، وكان سبب تردّدي هو هذا الشعور المرّ بأن المسرحية قد تبدو ضرباً من المراوغة. نعم يا سيدي.. يجب أن تكون النزاهة متبادلة، ويجب أن أعترف أن السجون على ضفّتنا ليست أكثر رافة، ولا أقلّ وحشية. ولكن هل تظن أن هذه الأنظمة وسجونها تمثّلنا، أو تشغلها قضية صراعنا مع إسرائيل؟ لا.. يا سيدي. إن مشكلتنا مزدوجة. وإن للصهيونية الآن امتدادها العضوي في النظام العربي الراهن. الذين استسلموا لإسرائيل مائير، والذين يتهيأون للاستسلام، الذين يقمعون شعوبهم ويدوسونها. الذين ينهبون ثروات هذه البلاد ويددونها..

هؤلاء جميعاً هم بعض امتدادات الصهيونية في الجسد العربي. إن الورطة على ضفتنا معقدة وإن الخروج منها يقتضي نضالاً مركباً وصعباً. نعم يا سيدي. إن النزاهة يجب أن تكون متبادلة حتى ولو كان ثمنها فادحاً. وهذه الورطة التاريخية لا يمكن تجاوزها إلا بأثمان باهظة.
(يدخل جدعون وموشي ودافيد إلى العيادة..).

الدكتور : والآن كيف تتخيل خاتمتي في هذه المسرحية؟
سعد الله : فأمر الملك صدقياً أن يودع إرميا في دار السجن، وأن يعطى رغيفاً من الخبز كل يوم من سوق الخبازين، إلى أن ينقذ الخبز كله من المدينة. إنهم يأتون بلطف، يتسمون، ويحشرونك في القميص، ثم يمضون بك إلى إحدى المصحات.
(يكونون قد قتلوا الدكتور بقميص المجانين..)

الدكتور : وأنت.. ماذا ينتظرك؟
سعد الله : عداوة الصهاينة الإسرائيليين والصهاينة العرب.
الدكتور : إذن.. دعنا نتبادل الإشفاق.
سعد الله : الإشفاق.. وربما الأمل.
(يخرجون بالدكتور.. يخلو المسرح.. إظلام تدريجي).

(ستار)

«الاغتصاب» / ملحق وثائقي

حين نشرت مسرحية الاغتصاب، في نهاية عام ١٩٨٩، أثارت نقاشات واسعة، وردود فعل تراوحت بين الترحيب والإعجاب، وبين النفور، ومهاجمة العمل، وكأنه فضيحة أو خيانة.

لم يزعجني ذلك النقاش الواسع، بل اعتبرته علامة على الصحة والخصب. كما أنني تقبلت حدة المهاجمين برحابة صدر، ولم تؤذني مواقفهم، إلا في الحدود التي نمت فيها عن قراءة مبتسرة ومفوضة للعمل.

وبما أن النقاش كان مستمراً، ومواكباً للتدريبات المتعثرة التي كان يجريها المخرج جواد الأسدي على النص، فقد اقتنعت بعد ندوة مفتوحة وهامة أقامتها مجلة «الهدف» لمناقشة المسرحية، بضرورة تعديل الخط الفلسطيني في النقاط التالية:

١ - اختزال الميل الشائع إلى تحويل كل كلام حول القضية الفلسطينية إلى خطاب.

٢ - تعميق حبكة الحكاية الفلسطينية.

٣ - إضفاء خصوصيات فردية على الشخصيات، وتعميق بعدها الذاتي والإنساني معاً.

وفي هذا المنظر، كتبت الصياغة الجديدة للحكاية الفلسطينية، كما وردت في النص الذي تضمنه هذه الطبعة. وقد يُعجب القارئ لو أن هذه الصياغة الجديدة قد أنجزت في أوائل صيف ١٩٩٠، وقبل العرض الذي قَدّمه جواد

الأسدي بعدة أشهر. لكن مراوغة الفنان، أو تخاذله أمام ابتزاز النقد، إضافة إلى عنف الهجوم الذي كانت تتعرض له المسرحية. كل هذا أدى إلى تغييب الحكاية الفلسطينية، وتبسيط العمل إلى هجاء سطحي للعدو.

إن الجو الذي أحيطت به هذه المسرحية بعد نشرها، وأثناء التحضير لعرضها، (وهنا لا أعني النقد والحوار، بل المراوغة وسوء الطوية. والقراءة العشوائية) جعلني أهمل الصياغة الجديدة، وأتقاعس عن إرسالها للمترجمين الإيطالية والألمانية، اللتين كانت تعملان على ترجمتها. والآن بعد أن صدرت الترجمتان، ألوم نفسي، وأشعر بالأسف لأن الترجمتين لم تتضمنتا الصياغة الجديدة للحكاية الفلسطينية.

وقد وجدت أن من الضروري، ولو من باب التوثيق، أن أنشر في هذا الملحق الحكاية الفلسطينية كما وردت في الطباعات السابقة.

المؤلف.

سفر الأحزان اليومية / المقطع الأول

(تظهر الفارعة وهي امرأة فلسطينية ذات حضور قوي.. تحمل
لفة طفل رضيع، وكيساً مما توضع فيه حاجيات الأطفال).

: هم يذبحون ونحن نتوالد. هم ينسفون ونحن ننهض من بين
الأنقاض. ما عدنا نولول. وأنا التي كنت نائحة في المآتم
أقلعت عن النواح. هذا العالم الأناني لا يبال بالضحايا،
ولا يميز العدالة إلا إذا كانت مقاتلة جسوراً. لا.. ما عدنا
نولول.. والحق لا يضيع ما دام وراءه مطالب.
(تدلف إلى غرفة دلال، والإضاءة تتبعها. غرفة فقيرة لكنها
نظيفة ودافئة. دلال شابة جميلة.)

الفارعة

دلال

الفارعة

دلال

الفارعة

دلال

الفارعة

: ماذا تحملين؟..
: اصطحبت معي ضيفاً ساحراً. انظري كم هو جميل!
: من هو؟
: طفل يبدأ حياته بلا مأوى.
: وأهله؟
: أدخلوا أمه إلى المستشفى. تداعى قلبها حين رأت منزلها
يتهاوى. وزعنا الذين نسفت بيوتهم على أهل الحي، وأبقيت
هذا الصغيرة كي نعتني به معاً.

دلال

الفارعة

: وأبوه؟
: إنه حيث يجب أن يكون.

- دلال** : وهذا الطفل البريء يدفع الثمن.
- الفارعة** : الثمن مقرر قبل أن يولد. وكما يقولون، من ليس له وطن، ليس له في الأرض مقام.
- دلال** : ضاع الوطن، وأخشى أننا نضيع القليل الذي بقي لنا.
- الفارعة** : إذا ضاع الغالي لا يؤسف على الرخيص يا ابنتي.
- دلال** : كم بيتاً نسفوا؟
- الفارعة** : ستة بيوت.
- دلال** : ومنذ يومين خمسة. هل يأتي دوري؟
- الفارعة** : العراء أفضل من السكن في بيوت الدلّ.
- دلال** : ولكن ما نهاية هذا كله؟
- الفارعة** : أن يكون لهذا الأمير وطن وقليل من العدل.
- دلال** : إنك تحلمين يا خالة.
- الفارعة** : في حالتنا، الاستسلام أو اليأس كلاهما يعني الفناء. ونحن لا نريد أن نفنى.. في عروقنا حياة لن يستطيعوا قهرها.
- دلال** : لو أن لي إيمانك وقوّتك! ماذا نفعل؟ هل نطعمه؟
- الفارعة** : دعي الأمير نائماً. حين يستيقظ سنغيّر له ونطعمه. في الكيس حليب وحفاضات وكلّ ما يحتاجه.
- دلال** : كل صباح كنت أحسّ أنني متخفّرة وناضجة. وقبل أن يعتقلوه بيومين تحدّثنا عن طفلنا الأول. سمّيته زاهر، وسمّاه جهاد. كنت متيقّنة أن في بطني بذرة تتكوّن. ولكن لم يكن هناك إلّا الفراق.
- الفارعة** : لاتحدّثني عن الفراق. سيعود، وستعبين من الإنجاب.
- دلال** : هل سألت اليوم عن أخباره؟
- الفارعة** : وحياتك سألت. ما زالوا في فرع التحقيق. لو نقلوهم إلى السجن لعرفنا وفوراً.
- دلال** : على صدري حجر ثقيل. يحدّثني قلبي أن إسماعيل ليس

- بخير.
- الفارعة : دعيك من الوسوس. أنا أعرف زوجك كما أعرف أولادي.
إنه صخرة، والإسرائيليون لن يَغْنَمُوا شيئاً من مناطق
الصخر.
- دلال : وهذا ما يزيد خوفي. لن يحتملوا كبرياءه وعناده.
- الفارعة : هل كنت تفضّلين زوجاً يتول في سرواله!
- دلال : لا أدري ماذا أفعل. كل ما أريده هو أن يعود. لو تعرفين كم
أشعر بالوحشة والخوف في غيابه... لم يمض على زواجنا إلا
ثلاثة أشهر. وحين ضمتنا هذه الغرفة في ليلتنا الأولى
أحسست أنني أضعف من أن أتحمل سعادتي. لم تهمني
معارضة أهلي، ولا لفظ الناس حولي. كنت أفكر فقط في
الأيام البهية التي سنجياها معاً. هو وأنا وهذا العش. لم
يخبرني شيئاً. ولم أعرف أن له حياة سرّية هي الأعلى، وهي
الأهم.
- الفارعة : أراد ألا يفزعك، أو ينقص فرحتك. لقد تردّد طويلاً قبل أن
يعزم على الزواج.
- دلال : نعم.. تردّد طويلاً، وكدت أياس. كان عليّ أن أواجه أهلي،
ولفظ الناس، وفوق ذلك تردّده. أحياناً كنت أشك في حبه،
فأشعر أن أهلي محقّون وأناي رخيصة.
- الفارعة : وكان يتنهد وهو يتحدث عن حبه. يحكي لي عن فتاة أهلها
من أعيان الضقة، ويرفضون مصاهرة معلم متواضع الأصل
والمال. وفي حديثه كان يخلطها بالأرض والمطر والزيتون، ثم
يغمغم.. إنها أعلى من أن أوّطها بيؤسي ومخاطري.
- دلال : عارضت أهلي، ورضيت خصامهم. وحين ضمتنا هذا العش
حسبت أن المستقبل صار ملكي. بدأت أرسم أياماً ملوّنة،
وسعادة لاتنضب. ولم يقل لي شيئاً.

- الفارعة : ما كان يستطيع أن يقول.
- دلال : أو ما كان ليالي. تصرّف وكأن زواجنا حدث عابر في حياته. كان الجوهري بالنسبة له هو عمله السري الذي واصله بعيداً عني. لم يرع حبنا، ولم يحسب له أيّ حساب.
- الفارعة : لا تظلميه يا ابتي. كادت عزيمته أن تضعف من شدة الحرص عليك. كنت خفقة الضوء في حياته، وكان صوته يرتعش كلما أوصاني بك.
- دلال : ومع هذا لم تكفه سعادتنا.
- الفارعة : لا أحد يستطيع أن ينجو بسعادته في هذه الظروف.
- دلال : كنّا سعداء يا خالة. الليالي أعراس، والصباحات أحلام ولهو. لقد خاطر بالسعادة الملموسة من أجل حلم غامض كالسرّاب.
- الفارعة : ربما حمتك براءتك من رؤية ما حولك. ولكن في ليالي العناق، ألم تلاحظي أن وجه إسماعيل كان يشحب أحياناً؟ وأحياناً كان يثق قلبه بعنف. وربما فكّ عناقه، وهمس سألرتاح قليلاً.
- دلال : هل كان يروي لك هذه التفاصيل؟..
- الفارعة : لا.. كان أعفّ من الخوض في هذه التفاصيل. ولكنني أعرف إسماعيل. وأعرف أن الواقع كان يطارده حتى في الفراش. يشحب وجهه حين يرى المداهمات. ويدقّ قلبه حين يتناهي وقع أقدام الدورية، ويشعر بالتعب حين يسمع الغارات تدكّ القواعد والمدن، كان يرى ما لا ترين وكان يعلم أن عناقكما محاصر.
- دلال : أكان هذا القلق كلّه يشاطرنا الفراش؟
- الفارعة : تلك هي الحقيقة يا دلال.

دلال
الفارعة

: ولكنْ حولنا آلاف يواصلون حياتهم، ويعيشون بأمان.
: إنه أمان كاذب. لم يغتصبوا بلادنا لكي يوفروا لنا الأمان.
إنهم يريدون الأرض وخدماء تخلّوا عن هويّتهم، وقبلوا العمل
بلقمّتهم. لا.. ليس الأمان أن نبقي على قيد الحياة. بل
الأمان هو أن نحيا أحراراً في وطن حرّ. أتعرفين من علّمني
هذا الكلام؟ إنه زوجك ورفاقه. وربما حان الوقت كي
تعلّمي مثلي.

دلال
الفارعة

: لم يطلب منّي شيئاً. ونادراً ما ناقشنا هذه القضية.
: لقد بالغ في الإشفاق عليك. رآك تصنعين من عواطفك
وبراءتك قفصاً تقيمين داخله، فلم يشأ أن يصدمك. ولكن
حان الوقت كي نخرج من القفص ونتعلّم. لن يخفّف
شقاءك إلّا الكفاح ضد شقائنا جميعاً.

دلال
الفارعة

: أتطلبين مني الانضمام إليكم؟
: ليس هناك مخرج آخر.
: لا أظن أن لديّ قوتك أو إيمانك. تصوّرت حياتي على نحو
آخر.

الفارعة

: لا ينقصك الإيمان ولا القوّة. لكن الأوهام التي غزلت
حياتك منها تقيّدك (يبدأ الطفل بالصراخ) وتشوّش أفكارك..
استيقظ الأمير. لنسخّن الماء. ابقِي أنت إلى جواره.
(تأخذ الفارعة الكيس وتخرج إلى مطبخ داخلي. تقترب دلال
من الصغير. تحمله بحذر وتبدأ بمناغاته.)

دلال
الفارعة

: ما اسمه يا خاله؟
: (من الداخل) اسمه وعد.
(تنصرف دلال إلى مناغاة الطفل. فجأة يطرق الباب بعنف.)
: تعالي يا خالة. لا أدري من يدق الباب.

دلال

(تهرع الفارعة إلى الباب، ومعها أنبوب حليب ورضاعة.)

- الفارعة : من؟
 جدعون : (من الخارج) افتحوا.. أمن إسرائيلي.
 دلال : ماذا نفعل يا خالة؟
 الفارعة : تماسكي ولا تقولي شيئاً.
 جدعون : (من الخارج) افتحوا وإلاّ حطّمنا الباب.
 (تفتح الباب بهدوء. يقتحم الغرفة جدعون وموشي ودافيد، هم يشهرون أسلحتهم.)
 الفارعة : على مهلكم... أفرعتم الطفل.
 جدعون : أهذا بيت إسماعيل الصفدي؟..
 الفارعة : نعم.
 جدعون : (نحو دلال) هل أنت زوجته؟
 الفارعة : (تساوّل منها الطفل، وتقف أمامها في وضع حماية) ماذا تريد منها؟
 جدعون : هل أنت زوجة إسماعيل الصفدي؟
 دلال : نعم.
 جدعون : (إلى موشي) خذها.
 الفارعة : إلى أين؟
 جدعون : ليس شغلك.
 الفارعة : خذوني بدلاً منها.
 موشي : (يزيح الفارعة بعنف، ويمسك دلال) ابتعدي.. نريد زوجته.
 الفارعة : لاتدفع.. كسر الله يدك.
 جدعون : اخرسي.. من أنت؟
 الفارعة : أنا فلسطينية. يناديني الناس الفارعة. زوجي الأول مات مسلولاً..
 جدعون : خلاص.. خلاص. عرب نجاسة. من هذا الطفل؟
 الفارعة : أتريد اعتقاله؟
 جدعون : تأذي وأجيبي.. أهو ابنها؟

- الفارعة : لا.. إنه ابني. هل تريدون اعتقاله؟
 جدعون : سيأتي وقته... يا الله..
 (موشي ودافيد يجزان دلال، ويتجهان نحو الباب.)
 دلال : إني خائفة يا خالة.
 الفارعة : لاتخافي يا دلال. إنك أقوى منهم.
 دلال : أخبري أهلي.
 الفارعة : سأخبرهم. ارفعي رأسك، وإذا ضايقوك ابصقي في وجوههم. إني أنتظرك هنا. كلنا نتظرك هنا. كم خاف عليك.. وكم حاذر أن يوقظك. ولكن اليقظة الآن ستكون خشنة ومرعبة. أمذك الله بالقوة والحكمة. وأنت يا أميري. لا.. لم أنسك. من أجل عينيك نقاسي ما نقاسيه.. يا الله.. ها هو الحليب. هل تستطيع أن تعي حكايتك منذ الآن؟ إذن اسمع. هذه هي حكايتك. الدجاجة لها بيت. بيت الدجاجة اسمه القرن. الأرنب له بيت. بيت الأرنب اسمه الحجر. العصفور له بيت. بيت العصفور اسمه العش.
 (تبدأ الإضاءة بالخفوت والصوت بالتلاشي.)
 الفلسطيني لا بيت له. والخيام والبيوت التي يحيا فيها، ليست بيت الفلسطيني. بيت الفلسطيني يحيا فيه عدو الفلسطيني. من هو عدو الفلسطيني؟^(٥)

(٥) من قصة «البيت» لتركيا تامر.

سفر الأحزان اليومية / المقطع الثاني

(ضوء على الفارعة، ثم يظهر ابنها محمد)

الفارعة

: ما أخطأ إسماعيل حين قال إن الطريق طويلة وشاقة. نعم إنها طويلة وشاقة. ذهبت إلى والد دلال. هي أوصتني، وأنا قلت لعلها تكون مناسبة للصفاء، والدم لا يصير ماء. أبوها ماشاء الله عنده وكالات بالجملة، ويلعب بالملايين. حين أخبرته عن ابنته غسّلنا بالشتائم تغسلاً. هي وأنا معها. خاف أن تسبّب له متاعب مع السلطات فسقّنا قحباً ومخزّين.. أي والله سقّنا مخزّين، وأقسم أن يتبرأ منها أمام الحاكم العام والملاّ أجمعين. والاعتقالات لم تهدأ.. وابني محمد زاد على رأسي الهموم. ركب رأسه، وانضم إلى الذين يركوبون الباصات كل صباح، ويذهبون للعمل هناك. قلت له..

الفارعة

: يا ابني لاتكن غصّة في قلبي.

محمد

: ياقمه.. كلّه شغل.

الفارعة

: لا.. الشغل مع ابن البلد شيء.. والشغل مع المحتلّ شيء آخر.

محمد

: مع ابن البلد! أنت تعرفين القصة وما فيها. اشتغلنا مع أولاد البلد وأكلوا حقنا. وصلت بيني وبين أبي قحطان للسماء. قلنا له الأجرة ناقصة، فنبر في وجهي وصاح.. لماذا اللّف.

تريد أن تبيع وطنك ودينك لليهود الله معك. لا أحد يمنعك.
قلنا له.. الذي يبيع وطنه ودينه هو الذي ريش مع الاحتلال،
وصارت عنده وكالات إسرائيلية وتعهّدات. فصرخ
كالمسحور.. وتعيّرني يا ابن الفاعلة.. وكلمة من هنا،
وكلمة من هناك. لولا أولاد الحلال لقضى واحد منا على
الآخر. وفي النهاية ما أخذت من حقّي النصف.

الفارعة

: لم تخبرني أنك تهاوشت مع أبي قحطان.

محمد

: وما الفائدة؟ حاولت ألا أصدّع رأسك بهذه المتاعب.

الفارعة

: ومع هذا لاتخلو البلد من أهل الخير. ابق هنا. ولا تنس أن

العمل عند الإسرائيليين يغذي الاحتلال ويعزّزه.

محمد

: يأمه.. اتركي الخطابات وكلام الإذاعات. الاحتلال معزّز،

ولن نقاومه بالجوع والجيب الفاضي.

الفارعة

: يا ابني أنت تعرف مايقال عن الذين يعملون هناك.

محمد

: إذا كانوا لا يريدوننا أن نعمل هنا فليبنوا لنا معامل أو يقدّموا

لنا معونات تنعش البلد. يبيعوننا خطابات، ويحدّثوننا عن

الصمود ولكن الكلام لا يملأ الجيب الفاضي. أتعرفين كم

ينفق بعض الأمراء والفرسان العرب في ملاهي وكازينوهات

الغرب؟ أتعرفين كيف يعيش زعمائنا في المنفى! دعينا يأمه

ولاتفتقي لنا المواجه.

الفارعة

: إسماعيل نفسه انتقد العمل في مزارعهم وورشاتهم.

محمد

: لو كان إسماعيل بلا شغل لتردّد في الانتقاد. وعلى كلّ أين

إسماعيل الآن؟ الله يهون عليه وعلينا. اتركي يأمه. الحياة

صعبة وأنت تعرفين أن من يأكل العصي لا كمن يعدها.

أوقظيني مع الفجر.

الفارعة

: ألن تراجع نفسك؟

محمد

: اتكلي على الله.

الفارعة : لا إله إلا الله. لم أعرف كيف أقنعه. ولم استطع القسوة عليه. أحسست غصة في قلبي، وأدركت أن اسماعيل ما أخطأ حين قال. إن الطريق طويلة وشاقة.
(تلاشى الإضاءة)...

مكتبة سوره الأريكة
www.books4all.net

سفر الأحزان اليومية / المقطع الثالث.

(إضاءة على غرفة دلال.. تظهر الفارعة أولاً، ثم تتبين دلال.
تجلس في حالة غياب..).

: اتسعت حملة الإعتقالات، وازداد عدد البيوت المنسوفة،
وكنت لا أكاد أستقرّ في مكان حين أفرج عن دلال. منذ
رأيتها أدركت فظاعة ما حلّ بها. خلال أيام استلوا شبابها،
ورموها في كهولة مبكرة. كانت هادئة وصامتة. كان فيها
وقار مرعب يشبه اللغم الموقوت. أنهمر عليها بالأسئلة،
فتحملتني مترفة عن الإجابة.

(إلى دلال) قولي.. ماذا فعلوا بك؟

(صمت)

: أين الطفل؟

: عاد إلى أمه.

: لو أنه بقي في الرحم، ولم يخرج إلى الظلمة.

: حدّثيني يا ابنتي. فضفضي عن نفسك.

(صمت)

: ماذا أرادوا منك؟ عمّ سألوكم؟

(صمت)

: هذه الرائحة.. هذه الرائحة..

: أية رائحة؟

الفارعة

دلال

الفارعة

دلال

الفارعة

الفارعة

دلال

الفارعة

- دلال : رائحة لاتزيلها عطور مصر والشام، ولا تغسلها مياه الأردن والفرات.
- الفارعة : هل أهتئ لك الحمام؟
(صمت)
- الفارعة : تكلمي.. اصرخي.. لاتحصري الرعب في قلبك.
(صمت)
- الفارعة : يجب أن تخبريني. هل عرفت شيئاً عن إسماعيل؟
- دلال : لا يجبر إناء الخزف إذا كسر.
- الفارعة : ماذا تعنين؟ هل حدث له شيء؟
- دلال : لا يستطيع المرء أن يخلع بدنه كما يخلع سروالاً وسخاً.
- الفارعة : ولكن ماذا جرى؟
(صمت)
- الفارعة : خفت من هدوئها وعباراتها المفككة. ولم ألحظ أنها خلف وقارها الصامت، كانت تستكمل مخاضها.
(تغير الإضاءة)
- دلال : الأرض ضيقة يا خالة.
- الفارعة : إنها أرضنا.
- دلال : أرضنا التي لاتملك فيها حتى أجسادنا.
- الفارعة : أعرف أن تجربتك كانت قاسية.
- دلال : الأرض لاتتسع لنا ولهم. إما نحن وإما هم.
- الفارعة : الأرض مباركة. ولولا نزعة العدوان لاتسعت للجميع.
- دلال : الأرض أضيق من القبر إذا لم يزولوا. إما نحن وإما هم.
- الفارعة : يا ابنتي.. لولا الصهيونية لما كانت بيننا وبين اليهود عداوة.
- دلال : وهؤلاء الذين يحاربون، ويعذبون، ويتهكون كل شيء.. من يكونون؟ أليديك ميزان للقلوب.. لا... إما نحن وإما هم.
- الفارعة : هذه عبارات قد تتحول ضدنا.
- دلال : لا أحبك حين تتفصحين يا خالة.

- الفارعة : لا أدري يا ابنتي... هذا ماتعلّمته من الشباب. قالوا لي نحن
مناضلون ولسنا قتلة. قضيتنا عادلة. وهدفنا هو أن ندحر
الصهيونية لا أن نقتل البشر.
- دلال : وهل إسرائيل شيء، والصهيونية شيء آخر؟ اسمعي يا خالة..
في بيت أبي لم أعرف شيئاً عن إسرائيل. كان أهلي يعيشون
في قوقعة من الثراء والتعالي. يخافون من الثورة والرعاع
ونادراً ما كانوا يذكرون إسرائيل. حتى حرب ال ٦٧ لم
تهزّهم. وأبي لم يُخفِ شماته بعد الناصر وأنصاره. وحين
تزوجت أشفق عليّ زوجي، ولم يحدثني الكثير عن إسرائيل.
لكنني الآن أعرف إسرائيل كما أعرف جسدي. أتعلمين أن
لإسرائيل رائحة!
- الفارعة : لم أفكر في هذا.
دلال : رائحة فظيعة تملأ أنفي وجوفي ومسامي. ختمت إسرائيل
هويتها على جسدي، ولن يمحو هذا الختم الرهيب إلا
الموت. ماعرفته يا خالة يكفيني. وأنا الآن جاهزة. خذيني
إليهم.
- الفارعة : ألا تتمهلين قليلاً؟
دلال : ولِمَ التمهّل؟
الفارعة : هل فكرت في الأمر وعزمت؟
دلال : كل العزم.
- الفارعة : كم كنت أمل ذلك.. ولكن دعينا نبدأ بالمهمات اليسيرة.
دلال : لا.. من صاحب الموت لاتليق به إلا المهمات الكبيرة. وأقول
لك منذ الآن.. عليهم أن يقبلوني بحقدي ويأسّي.
- الفارعة : لا أريدك أن تندفعي تحت وطأة اليأس.
دلال : يأسّي هو قوّتي. وهذا العدو لن يوجعه إلا حاقد ويائس.
الفارعة : وإسماعيل؟..

دلال : مع تعاقب الفصول وإلى آخر الزمن سيبحث كل منا عن الآخر، ليلملم جسده المبعثر، وينفخ فيه الحياة. وكلما تناثرت أعضاؤنا بدأنا مع تعاقب الفصول رحلة جديدة.

(تخرج دلال.. وتبقى الفارعة.)

الفارعة : وانضمت إليهم، حملت بأسها كالحقيقية وانضمت إليهم. بقي معي مفتاح وغرفة فيها رائحة منزلية، وعبارة لا ينقطع لها رنين. إما نحن وإما هم.
(يتلاشى الضوء عنها....)

مكتبة سحر الأنيبي
www.books4all.net

سفر الأحزان اليومية / المقطع الرابع

(إضاءة على الفارعة وهي تترنح.. إنها جريحة. صباح وإطلاق رصاص. بوق سيارة إسعاف تقترب من بعيد.)

الفارعة

: رصاص.. لاشك أنه رصاص. لماذا لا يركض هذا الولد؟
اركض. ساقاي رخوتان. كل شيء بدأ من الجنازة. الله أكبر.. عاد إسماعيل في تابوت مسمر. لم يسمحوا لنا أن نرفع الغطاء وأن نرى التعبير الأخير على وجهه. رصاص.. لاشك أنه رصاص. جنود مقتعون ومدججون بالسلاح. وسط الدموع كثيرنا وهتفنا. كانت الجنازة مهيبة. ولم يضطرب الموكب حتى واريناه التراب. ريتي جاف.. إني عطشانة. أرى ماء ولكن كيف أصل إليه؟ عاد إسماعيل في تابوت مسمر، فانفجر الغضب المحتقن في الصدر. اتسعت المظاهرة، وبدأت الصدمات. ساقاي ألين من القطن وأنا عطشانة. في يوم واحد كبر الأطفال سنوات.. حملوا غضبهم ونزلوا إلى الشوارع. الجنود مقتعون ومدججون بالسلاح. رصاص، وغيمة سوداء. عاد ابني الذي لم ألدّه في تابوت. (تداعى ببطء) مات زوجي الأول مسلولاً، وكانت مهنتي النواح في المآتم. ريتي جاف. زوجي الثاني أنساني الأول، ومنعني من النواح. سافر إلى لبنان، وفي المطلة مات.

عاد إسماعيل في تابوت.. رصاص. ثلاثة من أولادي تفرقوا
خارج البلاد والرابع هناك.. دلال سافرت. حملت عيارتها
وسافرت. أريد جرعة ماء. هل تستطيع دلال أن تقاوم
فصاحة الموظفين وتجار الكفاح؟ تجار.. غيمة ثقيلة وخانقة...
رصاص.. وتابوت. عثم.. أريد ماء. رنين.. رصاص ورنين..
إمّا نحن.. وإمّا..

(تغيب عن الوعي، ويعلو بوق سيارة الإسعاف بشكل
مصمّ.)

سفر الأحزان اليومية / المقطع الخامس

(الفارعة مضمّدة على سرير مستشفى. يجلس ابنها محمد على طرف السرير.)

الفارعة

: كنت كمن ينهض من الموت.

محمد

: (مازحاً) وكيف وجدت الموت؟

الفارعة

: الموت حقّ. ولكنه موحش ومخيف. هل طالت غيبوتي؟

محمد

: قرأنا الفاتحة مرات. ولكننا اجتزنا الخطر، وقرّرنا أن نحيا.

الفارعة

: يموت الغالي ويحيا الرخيص.

محمد

: أنتِ أغلى مما تتصوّرين. لو تعرفين كم شاباً تبرع لك بالدم!

الفارعة

: هل أعطوني من دمهم؟

محمد

: كنت بحاجة إلى دم كثير، ولم يقبلوا في المستشفى أن يأخذوا مني المزيد. فتدافع الشباب للتبرّع. الآن.. كلّ الدم الذي يتدفق في عروقك شاب. وعندما تنهضين بالسلامة ستعودين صبيّة.

الفارعة

: أنتم أحوج إلى دمائكم من عجوز مثلي.

محمد

: الدم يعوّض، أما الفارعة فلا تعوّض.

الفارعة

: حماكم الله، ورعى شبابكم. هل كان هناك كثير من الضحايا؟

- محمد : دعيك الآن من هذا. عليك أن تهتمي بنفسك كي تشفي بسرعة.
- الفارعة : إني بخير.. كم كان عدد الضحايا؟
- محمد : ما حان الوقت كي نحصى ضحايانا؟
- الفارعة : ماذا تعني؟... أخبرني.. ماذا يجري؟
- محمد : إنها تشتعل وتمتدّ.
- الفارعة : هل تمتدّ فعلاً؟..
- محمد : نعم.. إنها تمتدّ في الضفّة والقطاع.
- الفارعة : هذا أفضل خبر يسمعه العائد من الموت. وأنت؟
- محمد : ماذا تظنّين.. مهما فعلت فأنا ابن أبي وأمي. رميت البطاقة، وملأت مكانك الشاغر في الصدمات.
- الفارعة : الآن.. اكتملت فرحة أمك.
- محمد : ولكن بعد اليوم، عليك أن تركني في البيت. أصبحت كبيرة على المظاهرات ورمي الحجارة.
- الفارعة : وأنت... ألسنت صغيراً على توجيه التعليمات إلى أمك.. لم تعطوني دمكم كي أركن في البيت. ولكن قصّ عليّ أخباركم. أريد أن أعرف كل شيء.
- محمد : (يخرج راديو ترانزستور من عبّة، ويقدمه لها) حملت لك هذه الهدية كي تعرفي ما يجري.
- الفارعة : واشتريت لي راديو..
- محمد : إنها هدية منا جميعاً. ولكن لاتنسي أن الطبيب حدّر من الانفعال والجهد..
- الفارعة : لاتخف عليّ.
- محمد : يجب أن أمضي.. هل تريدن شيئاً؟
- الفارعة : سلامتك وسلامة رفاقك. قبلهم وبلغهم سلامي.
- (يقبلها ويخرج.. الفارعة تفتح الراديو.. يبعث نشيد وطني)

من إحدى المخططات العربية.)
الفارعة : لو أنهم يرسلون بدل الأناشيد بعض الدم والطحين حقاً..
هذا ما نحتاجه، بعض الدم والطحين.
(تتلاشى الإضاءة).

يومٌ من زماننا

المؤلف

: كان صباحاً غائماً وبارداً. كان صباحاً ككلّ صباحات أوائل الشتاء. وكانت الساعات تدور.. قرعت المدارس أجراس الدّخول، وفتحت الحكومة أبواب وزاراتها، ودوائرها الظّاهرة والخفيّة. وكانت الساعات تدور.. انتشرت في أوصال المدينة صباحات الباعة المتجولين، وضراعات المتسولين. وتلألأت في واجهات المتاجر الأنوار والبضائع. وكانت السيارات تدور.. ترادفت في الشّوارع أرتال السيارات، وتزاحمت على الأرصفة أرتال المشاة.. وكانت الأشجار الهزيلة والمتباعدة تنثر أوراقها الصّفراء تحت الأقدام الشّاردة. كان صباحاً غائماً وبارداً. كان صباحاً ككلّ صباحات أوائل الشتاء. وكانت الساعات تدور..

المشهد الأول

(غرفة الإدارة في مدرسة ثانوية. مدير المدرسة عبد العزيز..
بدين ومتوتر. يقتحم المعلمُ فاروق باب الإدارة كأنه عاصفة.
المعلم فاروق شاب أنيق تدل ملامحه على حدة المزاج. غُلقت
في صدر الغرفة صورة لرئيس الدولة وهو في لباس جنرال
عسكري).

: أمر مَرْوَع يا حضرة المدير. يجب أن تفتح تحقيقاً على الفور.

فاروق

: هل مررت بالمراحيض؟

المدير

: انتقلت المراحيض إلى الصفوف.

فاروق

: أنا مريض ولا أحتمل هذه الخِصَّات. أهنالك كتابات في
الصفوف أيضاً؟

المدير

: بل أقوال صريحة واعترافات مرعبة. يا فاطر السموات
والأرض.. ما سمعته زلزل كياني. أطلُب يا حضرة المدير أن
تبدأ التحقيق على الفور.

فاروق

: مَنْ التي تجرأت واعترفت؟ مَنْ الفاعلة؟

المدير

: اعترافات شائنة تراشقن بها دون حياء ودون وجل. يا فاطر
السموات والأرض.. من يتخيل أن الانحلال وصل إلى هذا
الحد؟

فاروق

: أنا مريض.. عندي سَكْرِي وارتفاع الضغط. ستقتلني هذه
العصبة من بنات إبليس، ولكن من هُنَّ وكيف اعترفن؟

المدير

- فاروق** : أرجو أن تتمالك أعصابك، ما سأقصّه عليك غاية في البذاءة والشناعة.
- المدير** : هاتِ ما لديك.. هذه المدرسة هي مدجنة إبليس، وستقصص عمري قبل أوانه.
- فاروق** : المدجنة في مكان آخر، ولكن البيوض تفقس هنا. يا فاطر السموات والأرض.. ينتفض بدني كلّما تذكرت ما حدث.
- المدير** : كنت أعلم أنّ هناك أصابع خارجيّة.. من هنّ وكيف اعترفن؟
- فاروق** : حين دخلت الصفّ كان ثمة صياح وفوضى. يا فاطر السموات والأرض.. رأيت ميسون القاضي وهيفاء معلاً تتضاربان وسط هرج الفتيات وصراخهنّ العاهر. كان الصفّ مقلوباً عاليه سافله. حسبت أنّي أدخل سوق الدّعارة لا صفّاً في مدرسة. صرختُ فلم تستجب إلّا بضع فتيات جلسن على مقاعدهنّ. واستمرّ العراك والهرج. فرّقْتُ بينهما بصعوبة، لكنّهما واصلتا التدافع والسباب. ولكلّ منهما زمرة تشدّ أزرها. يا فاطر السموات والأرض.. أتعرف ماذا كانت تقول هيفاء؟
- المدير** : أهى التي اعترفت؟
- فاروق** : اعترفت، وكشفت الستّر عن فضيحة مروعة.
- المدير** : أرجوك أوصلني إلى لبّ القضية.
- فاروق** : كانت هيفاء تصيح في وجه ابنة القاضي: يا ميسون يا قوّادة الستّ فدوى.. يا فاطر السموات والأرض.. نعم كانت هيفاء تتهم ميسون بأنّها قوّادة الستّ فدوى. وأنّها أغوت لها عدّة طالبات، كانت حنان الزمر آخرهنّ. وتبيّنت أنّ حنان الوديعة والهادئة تخفي في إهابها نمرّة شرسة. هجمت على هيفاء وأنشبت أظافرها في وجهها. وكانت ميسون تقول

باستهتار صفيق.. لو كان فيك عرق جمال لزرت البيت قبلنا. ولكن ما العمل!.. بيت الست فدوى لا تدخله كرعوبة مثلك. أعترف يا حضرة المدير أن دمي فار، وأن حالة من الهيستيريا تلبّستني. لا أدري ماذا فعلت.. لعلّي لطمت الفتاتين معاً. أو لعلّ صراخي أزعجهنّ. وحين هذا الصف، أردت أن أعرف المزيد، لكنّ ميسون قالت هازئة.. خير لنا جميعاً ألاّ تسرف في الأسئلة يا أستاذ!

المدير : (ضجراً) أرهقتني بالحكايات العرضيّة، ولم تصل بي إلى الجوهريّ.

فاروق : ألاّ تجد ما رويته لك جوهريّاً؟!

المدير : والكتابات. ماذا قلن عن الكتابات؟

فاروق : ماقيمة الكتابات والاعترافات صريحة؟!

المدير : بدأ الألم في مؤخرة رأسي. ولكن من يالي؟ الكتابات هي الفضيحة الحقيقيّة.

فاروق : أيّة كتابات؟ أتريد يا حضرة المدير اعترافات مكتوبة؟

المدير : وإذن فأنت لا تعلم شيئاً!

فاروق : ألاّ يكفي ما علمته؟

المدير : هذا الصباح اكتشفنا كتابات جديدة في المراحيض. أنا رجل

مريض ولن يدعوني أصل إلى تقاعدي بسلام.

فاروق : لدينا الآن ماهو أخطر من الجهالات التي تكتب في المراحيض.

المدير : ما كُتب هو الفضيحة، وهو الخطر الفعلي. لم يقولوا لك

إذن! إنّها كتابات سياسيّة. وفيها شتائم تطال الر... (يتلفّت

حوله خائفاً وحذراً) فعلاً إنّ هلاك الإنسان بين فكيه.. هل

فهمت الآن في أيّ ورطة نحن؟ يريدون أن يوقعوا بي. وأنا

مريض لا أتحمل هذه الهزّات. أنتظر أن تساعدوني جميعاً،

- ينبغي أن نتحرى بهدوء الثغرة التي ينفذ منها الفساد.
- فاروق** : ما يهّب من بيت الست فدوى هو الفساد يا حضرة المدير.
- والثغرة التي ينفذ منها بدأت تنكشف.
- المدير** : أرجوك لا تثقلها على رأسي. يكفيني ما أنا فيه.
- فاروق** : يا فاطر السموات والأرض.. أيمكن أن تشغلك هذه الخبرشات الصبائية عن الوقائع الفاضحة التي ذكرت لك؟
- المدير** : خبرشات صبيانية! أتمسّيحها خبرشات صبيانية؟! قلت لك إنهم يشتمون الـ.. اسمع يا أستاذ فاروق. ربّما كان لك ظهر يحملك، أما أنا فلا ظهر لي إلّا سنوات خدمتي الطويلة.
- فاروق** : لاظهر لي ولا بطن، ولكن في أعناقنا أمانة وواجب.
- المدير** : ماذا تراني أفعل! أكل خراء أم أوّدي الأمانة والواجب. آخ.. رأسي.. أوصاني الطبيب أن أتخاشى التوتر. لو أنّ جنابه مكاني، هل يستطيع أن يتخاشى التوتر؟ يا فاروق أنت أستاذ مشهود له بالكفاءة وأيّ مدرسة تعلّم فيها هي الزابحة. ولكن اسمح لي أن أقول لك، وأنا بمثابة والدك. إنّ خبرتك العملية هزيلة. أتعرف لماذا احتفظت بمنصبي كلّ هذه السّنوات؟ وأؤكد لك أنّ الذين يتربّصون بي كثيرون. الآن.. الآن ونحن نتبادل الحديث، هناك من يدبّج التقارير، ويطيّرها إلى مختلف الجهات. إنّي رجل مريض، وليس حولي من يرحم. لقد احتفظت بمنصبي كلّ هذه السنوات لأنّي أعرف واجبي وأوّديه بأمانة. وواجبي الفعلي هو أن أحمي المدرسة من جرثومة السياسة، وأن أرتي الطلاب على الولاء والطاعة.
- فاروق** : وواجبك كمعلّم ومربّ وقدوة!
- المدير** : قم للمعلّم وفّه التبجيلا كاد المعلّم أن يكون رسولا، وهلمّ جرّاً وهلمّ جرّاً.. أما قلت لك مازلت تعيش في عالم من المثل والأفكار الملوّنة؟ هذا جميل.. ولكن الواقع مختلف.

من يالي اليوم بالمعلم؟ فقد التقدير وصارت مكانته في المجتمع هزلية. حين أمر على البقال، أحس رتة السخرية في صوته وهو يقول أهلاً بالأستاذ. وأنا لا ألومه. كيف ألومه والأستاذ المحترم لم يستطع منذ عام أن يفلق حسابه عند البقال. كل شهر يبقى مبلغ يُدَوَّر إلى الشهر التالي. هذا هو حال المعلم. انحط شأنه، وتدهورت مكانته. إنه يتخبط في القاع كي يظل مستوراً، ونادراً ما يجد التمترة إلا في الموت.. وأنا فوق أمراض تنواتر عليّ المشاكل كي تقصف عمري. يا أستاذ فاروق.. أتعلم لماذا صتفوا مدرستا بين المدارس النموذجية؟ قد تظن أن السبب هو نسبة النجاح التي حققناها في الثانوية العامة. لا.. لا أحد يهتم بنسبة النجاح. باختصار.. إننا مدرسة نموذجية، لأنني أمير في أداء واجبي بين العابر والجوهري.

فاروق : مهما قلت يا حضرة المدير، ومهما ساءت أحوال المعلمين، فإن حماية الأخلاق مسؤوليتنا. يا فاطر السموات والأرض.. أنقف مكتوفي الأيدي، ونحن نرى الانحلال يتفشى بين طلابنا؟

المدير : يا فاطر السموات والأرض.. وهل تراني أقف مكتوف اليدين! هذه المماحكة ستسبب لي الجلطة. مادمت تشدق بالحديث عن الأخلاق والانحلال الخلقي، هل تستطيع أن تخبرني ما هي أم الفضائل في زماننا؟

فاروق : أعرف ما هي الفضائل التي ينبغي أن تتحلّى بها الأجيال، ولا يهمني ترتيبها.

المدير : لا.. إن ترتيبها مهم جداً. وأحمد الله أنني لست من الواشين ولا أضّر زملائي. إن أم الفضائل يا أستاذ فاروق هي محبة

(يشير إلى الصورة) والولاء له. أما مايرتكبه المرء بعد ذلك فلا يُعَدُّ إلا من الهنات الهيئات.

: أعترف يا حضرة المدير أنني لم أهتم يوماً بالسياسة. ولا شك أنك أقدر مني على معرفة سبلها ومقتضياتها. ومادمت تقول إن تلك هي أم الفضائل، فلا ريب أنها كذلك. ولكن يمكنك أن تشنقني قبل أن أوفق على أن الدعارة من الهنات الهيئات. يا فاطر السموات والأرض.. كيف يمكن أن تكون الدعارة مجرد هنة وهينة أيضاً! (يطرق الباب).

: أرجوك، أجل لي هذا الجدل العقيم.. تفضل..

(تدخل ثريا وهي موجهة في المدرسة)

: أخيراً استطعت أن أحصي كل الطالبات اللواتي دخلن المرحاض هذا الصباح. وهذه هي القائمة.

: (يستعرض القائمة) ما هذا! مئة وسبع عشرة طالبة! إنني مريض. وهذه المحنة ستقصر أيامي.

: لا قدر الله. ربما كان العدد أكبر، ولكن لم أسجل إلا من تأكدت أنها دخلت المرحاض.

: ويمكن أن يكون العدد أكبر! هل يجتن للدراسة أم لقضاء

الحاجات؟! إن المرحاض العامة في السوق الرئيسية، لا يدخلها طوال النهار مثل هذا العدد. لاشك أن هناك خطأ، أو تضليلاً مقصوداً. هؤلاء الجنيات يضلن الشيطان نفسه.

: يا حضرة المدير، لست بنت البارحة، ولا أخدع بسهولة. تحوّيت أقصى الدقة قبل أن أسجل الأسماء.

: لا أقصد الإساءة. ولكن ماذا تريد أن أفعل بهذه القائمة؟

كيف أجد الفاعلة بين مائة وسبع عشرة طالبة؟ كمن يبحث عن إبرة في كومة قش. لا.. الإجراء الثاني أكثر نجاعة.

: أن نجمع الدفاتر؟

فاروق

المدير

ثرثيا

المدير

ثرثيا

المدير

ثرثيا

المدير

ثرثيا

- المدير : كلّ الدفاتر.. بلا استثناء. وسأطلب خبير خطوط. هل أقفلت مسرح الجريمة، أعني المرحاض؟
- ثرثيا : الأقفال مخلوعة كما تعرف. لهذا فرزت واحدة لحراسته ومراقبة المكان.
- المدير : أهي موثوقة؟
- ثرثيا : لولا نقتي بها ماكلّفتها.
- المدير : ينبغي إصلاح الأقفال، وتنظيف المراحيض. من يعرف؟ قد يزورنا مسؤولون، ولكن هذا يحتاج إلى همّة، إلى تعبئة عامة. ماذا يفعل المدرّسون؟
- ثرثيا : إنهم يتبادلون الشوشات.
- المدير : هم يتبادلون الشوشات، وأنا أترقص في المقلاة.
- ثرثيا : إذا أردت رأيي يا حضرة المدير.. اللامبالاة في مثل هذا الموقف نوع من التواطؤ.
- المدير : هذه فطنة مدهشة يا آنسة ثرثيا. نعم.. إنّه تواطؤ، وللتواطؤ ثمن.
- ثرثيا : حين كنت أجمع معلوماتي.. تَخَرَّت المدرسة سلوى، ونظرت إليّ نظرة فيها ازدراء وشماتة.
- المدير : تلك المأنوفة! سأشير إلى نظرتها في التقرير (يلتفت إلى فاروق، ثم يستدرك مرتبكاً) أعني في السجل. لاشك أنّ هناك بعضي الشامتين. إنّها مكيدة مدبّرة بليل. وإلا لماذا لم تحدث إلا هذا العام.. ومرتين خلال فصل واحد؟ أريد همتك يا آنسة ثرثيا. اجمعي الدفاتر وتحرّوي كلّ مايمكن أن يرشد إلى المجرم.
- ثرثيا : أنا جاهزة يا حضرة المدير. ولكن ليتك تكلف من يساعدني.
- المدير : ما رأيك يا أستاذ فاروق؟ لن تبخل عليّ وعلى الوطن بهذه الخدمة.

- فاروق : (مرتبكاً) أفضل أن ننهي موضوعنا أولاً.
- المدير : ألم ننهِ الموضوع؟!
- فاروق : لم ننهِ شيئاً بعد.
- المدير : اللهم ألهمني طول البال. طيب.. اذهبي يا آنسة ثرياً،
وسأنضمّ إليك شخصياً. آه.. هذا الألم في قحف
جمجمتي!
- ثرياً : لديّ ملاحظة صغيرة قبل أن أذهب. مانحن فيه يقتضي
أقصى التركيز. ولذا أرجو الأستاذ فاروق أن يغضّ الطرف
عما حدث في صفّه.
- فاروق : أتعرّفين ما حدث في الصفّ؟
- ثرياً : مهمتي أن أعرف كلّ ما يحدث. ورغم انشغالي اليوم،
وجدت الوقت كي أعرف.
- المدير : إنه حظّ كبير أن تعمل معي موجّهةً مثلك.
- فاروق : ومع هذا تطلّبين منّي أن أغضّ الطرف! يا فاطر السموات
والأرض.. إني لا أفهم.
- ثرياً : هنّ فتيات ناضجات. ولاؤهنّ لا تشوبه شائبة. وآباؤهنّ لهم
مراكز ونفوذ.
- فاروق : ماذا تعني المراكز، وماذا يعني الولاء؟! المسألة تتعلّق بالشرف
ومستقبل المدرسة.
- ثرياً : قلت مالدّي.. والسيد المدير يستطيع أن يقدر الأمور أفضل
منّي. سأذهب الآن.
- المدير : نعم.. اذهبي، وسأنضمّ إليك عمّا قليل. إنّه حظّ طيب أن
نعمل معاً يا آنسة ثرياً.
- ثرياً : شكراً يا حضرة المدير.
- (تخرج)
- المدير : رأيبت يا أستاذ فاروق كيف توزن المسائل؟!

- فاروق** : لم أرَ إلَّا إصراراً على لفلفة الموضوع رغم خطورته. ماذا تعني المراكز ونفوذها! أنخون ضمائرنا، لأنَّ أبا هذه الفتاة أو تلك موظف مسؤول؟! أيرضى هؤلاء الآباء أن تكون بناتهم.. وأخجل من لفظ الكلمة!
- المدير** : اللهم ألهمني طول البال.. رأسي! أين وضعت علة الدّواء! هذه ثالث حبة أتناولها اليوم. كنت أعلم أنّك مستقيم، وأنك فلتة في الرياضيات، ولكنّي لم أكن أعرف أنّك عنيد ومماحك إلى هذا الحدّ.
- فاروق** : إنني عنيد لأنني مصعوق يا حضرة المدير. ما تكشف أمامي شنيع، وتجاهله أشنع.
- المدير** : يا أستاذ فاروق لا يخلو الشجار من شتائم وبذاءات.
- فاروق** : يا فاطر السموات والأرض.. يبدو أنّك لم تستوعب يا حضرة المدير مارويته لك!
- المدير** : ولماذا لا تقول إنني غبيّ ودماعني سميك! ما كان ينقصني اليوم إلّا لجأجتك يا أستاذ فاروق!
- فاروق** : معاذ الله.. ولكن لعلك لم تنتبه. تبادلت البنات تهمة الدّعارة، ويبدو أنّ بعضهم يتردّد على بيت الست فدوى.
- المدير** : لايعنيني، ولا يدخل في نطاق عملي ما يحدث خارج المدرسة. ألا ترى أنّ لدينا في المدرسة مشاكل كافية ووافية؟
- فاروق** : يا فاطر السموات والأرض.. ألا تعنيك حماية الطالبات من الانزلاق إلى الدّعارة! إنّ بيت الست فدوى يمدّ أروقه داخل المدرسة. إنّه يقتحمنا، ويهدمنا من الداخل.
- المدير** : يخيّل إليّ أنّ لديك لوثة اسمها الست فدوى.
- فاروق** : ألا ينبغي أن تكون لدينا جميعاً هذه اللّوثة؟ من يجهل ما يحدث في بيتها! إنّ حياتي الاجتماعيّة ضيقة.. من البيت إلى المدرسة، ومع هذا لا أجهل ما يجري لديها.. بيتها

لا يخفي أسراراً. ونحن نصطدم بزبائننا وسياراتهم الفخمة في الليل وفي النهار. وهنا.. هنا في المدرسة، كم تحدث المدرسون عن البيت وخطره على الحي. حتى أنت، إذا لم تخفي الذاكرة سمعتك تستنكر ممارسة الرذيلة بهذه العلانية. : لا أذكر أنني تناولت الست فدوى بسوء.. لاسيما بعد أن تعرّفت عليها. أعوذ بالله.. ها نحن نثرثر كالعجائز، وكأنه ليس لدي ما أفعله.

المدير

: يا فاطر السموات والأرض.. هل قلت يا حضرة المدير إنك تعرّفت عليها؟

فاروق

: نعم.. تعرّفت عليها. وهي امرأة كريمة وخدمة.

المدير

: هل تدافع عنها أيضاً؟

فاروق

: لا أدري عما أَدافع؟ ألا تفهم؟ لدي الآن ما هو أخطر وأهم.

المدير

: أي أنك لن تتخذ أي إجراء؟..

فاروق

: (متأففاً) طيّب.. أعطني أسماء الطالبات، وسأوجه إليهن توبيخاً خطياً.

المدير

: أهذا كلّ شيء؟

فاروق

: ماذا تريد إذن؟!

المدير

: أن تباشر تحقيقاً فورياً لمعرفة أبعاد المسألة.

فاروق

: قلت لك ألف مرّة إنني أحقق فيما هو أهم.. آخ رأسي..

المدير

اسمع يا أستاذ فاروق.. لقد أدت واجبك وأخبرتني بما

حدث في الصفّ، والآن دع الأمر لي وعد إلى دروسك.

: لا أستطيع أن أدع هذا الأمر، إذا لم أتأكد أن تحقيقاً

فاروق

سيجري.

: اسمع يا بنيّ نصيحتي. انس الأمر وعد إلى دروسك.

المدير

: لن أسمع نصيحتك، ولن أنسى الأمر. يا فاطر السموات

فاروق

والأرض.. طالبات يمارسن الدّعارة، وتقول لي انس الأمر!

- المدير : إننا نحقق في قضية أخطر. واللامبالاة هي نوع من التواطؤ.
- فاروق : هل تهددني؟
- المدير : بل أبتّهِك إلى المزالق التي يدفعك إليها العناد.
- فاروق : إنني مصرّ على متابعة هذا الموضوع.
- المدير : تابعه إذن خارج المدرسة.
- فاروق : ليكن، لابدّ أن يكون في هذا الحيّ من ثور حميته، ويقف في وجه هذا الانحلال المرعب.
- المدير : من سلطك عليّ.. واليوم بالذات؟! اذهب وقشّ عن رجل الحميّة، اذهب إلى الشيخ متولّي إذا شئت. ولكن أقول لك بأبوة.. لاثّر ضوضاء لا تعرف عمّا تسفر، ولا توغل كثيراً في تقصّي هذا الأمر.
- فاروق : ماذا تعني؟
- المدير : لا أعني شيئاً. رغم عنادك، أنا أحاول أن أجتنبك الأذى.
- فاروق : تجنّبني الأذى، أم تحاول التستّر على السّتّ فدوى؟! اخرج.. ضيّعت وقتي، وعرقلت التحقيق في قضية مصيرية وتاريخيّة. اخرج وتخبّط في هذا الدّرب الوعر كما يحلو لك.
- (نقر على الباب).
- المدير : تفضّل.. أمّا أنت يا أستاذ فاروق فلا داعي لبقائك.
- فاروق : سأمضي، وسأتابع هذا الأمر وحدي.
- (تندفع إلى غرفة المدير الآنسة ثريّا، ومعها الطالبة منى زيدان).
- ثريّا : وجدت لك شيئاً مثيراً يا حضرة المدير.
- المدير : هل عرفت الفاعلة؟
- ثريّا : بدأنا نمسك الخيط. انظر ماذا تقرأ الآنسة منى.
- المدير : ما هذا؟

- ثريًا : كتاب طبائع الاستبداد.
- المدير : طبائع الاستبداد! ماذا يفعل هذا الكتاب في مدرستي؟ منذ سنوات منعنا تداوله، وأتلفنا كلّ النسخ الموجودة في مكتبة المدرسة.
- ثريًا : تقول الآنسة منى، إنها جاءت به من مكتبة أبيها.
- المدير : ولماذا تأتي به إلى المدرسة! من أين تطلع علينا هذه العفاريث؟! ومن أين تأتينا هذه الفضائح؟! اعتقد أنّ الفضيحة واحدة، لكنّها أكثر تشعباً ممّا قدّرنا.
- ثريًا : أيتها الفتاة.. أتعرفين ماذا تقرئين؟
- المدير منى : إنّي أقرأ كتاباً لواحد من أعلام النهضة العربية، اسمه عبد الرحمن الكواكبي.
- المدير : هكذا.. وتجروئن على قول ذلك بالفم المألّف؟ ماذا يجري في هذه المدرسة؟! ألا تعلمين أنّ العهود البائدة هي التي سمّته علماً من أعلام النهضة! أمّا في هذا العهد المبارك فقد انكشف المستور، وعرفنا من هو عبد الرحمن الكواكبي. رجل مشبوه في صلاته، وكتابات، احترف التحريض وزعزعة الاستقرار. وهذا الكتاب الموتور يحفل بالنمائم والتوريات الحاقدة.
- ثريًا : وانظر يا حضرة المدير الفقرات التي وضعت الآنسة منى تحتها خطوطاً حمراء.
- المدير : (يقبّل الكتاب ويقرأ) الحاكم المطلق مستبدّ.. ويعلم من نفسه أنّه الغاصب المعتدي، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدّها عن النطق بالحقّ، والتداعي لمطالبته. المستبدّ عدوّ الحقّ، عدوّ الحرّيّة وقاتلها. المستبدّ يودّ أن تكون رعيّته كالغنم ذرّاً وطاعة، وكالكلاب تذلّلاً وتملّقاً. أعوذ بالله.. آه.. رأسي.. هذه أقوال فظيعة. كلّها تحريض وفتنة.

(يرمي الكتاب على الطاولة وكأنَّ لسعة أصابت يده) أعوذ بالله.. إذن هذه هي العبارات الملقومة التي استهوتك يا فتاة! افتحي التحقيق يا آنسة ثريًا.. لا.. لن تتحوّل مدرستي إلى وكر للمعارضين والخونة. وسترون شدّتي في هذه المسائل.. ولكن ما أبقاك يا سيّد فاروق! لماذا تلكأت في الانصراف؟ : (كمن يستيقظ) آه.. حقًا.. يا فاطر السموات والأرض.. إنّي منصرف. (يخرج).

فاروق

: يافاطر السموات والأرض.. سأذكر في التقرير لا مبالاة. : تعمدت الإشارة أمامه إلى العلاقة بين اللامبالاة والتواطؤ. : كانت ملاحظة ثابتة يا آنسة ثريًا.. والآن ابدأي في تسجيل المحضر. : يتخذ المشهد هيئة محكمة تحقيق، فيما تتلاشى الإضاءة).

المدير

ثريًا

المدير

المؤلف

: وكانت الساعات تدور...

خرج فاروق من المدرسة، وكأنه يفرّ من بناء يتصدّع. كان مشوّش الذهن، ولكنّه كان مصمّماً على متابعة هذه القضية. ناضجات وولاؤهنّ مؤكّد. المستبدّ عدوّ الحق. عبد الرحمن الكواكبي. ألم يكن يدّرس على أيّامهم؟! لو لم يكن ممنوعاً لأعاد قراءته.. في الشارع انتبه إلى انحلال ربطة عنقه، وتجمّد قميصه. توقّف لحظة. سوّى ربطة العنق، ومسّد القميص، وغمرته عذوبة دافئة.. هذا الصباح قالت له: اشترت لك هديّة، ثم أخرجت من علبة كرتونية أنيقة قميصاً وربطة عنق غالية. احتجّ، ولامها على الإسراف، إلّا أنّ موجة من الحبّ والزهو كانت تغمره. ساعدته في ارتدائهما. مسّدت طيات القميص، وسوّت الربطة، ثم أبعده بطرف يدها، وتأملته بفرح. يا الله.. ما أجمل فرحها! وودّ أن يعود إلى البيت. انعطف إلى الشارع الرئيسي، وتناهدت إلى أذنيه تلاوة من القرآن الكريم، أخذت تملو تدريجياً. توقّف المازة على رصيفي الشارع. كانت عربة دفن الموتى تتقدّم ببطء وخلفها رتل من السيارات والولولات. سمع المازة يترنّمون على الميت. ومن ترتيل المقرئ الذي تضخّمه المكبرات النقط نفثاً من الآيات.. ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فاضت نفسه بالرهبة، وودّ لو يعود إلى البيت. ولكن عناداً غريباً كان يسوق خطواته، ويتّجه به إلى الجامع.

المشهد الثاني

(الشيخ متولي يتصدّر أحد أروقة الجامع، وإلى جواره مذيّع يستجّل له برنامجهِ اليومي. أثناء التسجيل يدخل فاروق حاملاً حذاءه بيده، ويجلس قريباً منهما..)

المذيع

: وجاءت رسالة من الأخ ابراهيم العجّان يقول فيها إنّه أعسر. وهو يسأل عن آداب الاستنجاء والدّخول إلى الخلاء، وعمّا إذا كانت هذه الآداب تتغيّر إذا كان الرّجل أعسر..

الشيخ متولي :

بسم الله الرّحمن الرّحيم. الاستنجاء هو إزالة النّجاسة، أو تخفيفها عن مخرج البول أو الغائط. وحكمه الوجوب، وهو يجوز أن يتمّ بالماء، كما يجوز بكلّ جامد خشن يمكن أن يزيل النّجاسة كالحجر ونحو ذلك. والأفضل أن يستنجي المرء أولاً بالحجر ونحوه، ثمّ يستعمل الماء. لأنّ الحجر يزيل عين النّجاسة، والماء بعده يزيل أثرها دون أن يخالطها. وإن اقتصر على أحدهما فالماء أفضل، لأنّه يزيل العين والأثر بخلاف غيره. وإن اقتصر على الحجر ونحوه، فيشترط أن يكون المستعمل جافاً، وأن يُستعمل قبل أن يجفّ الخارج من القُبُل أو الدُّبر، وألاًّ يجاوز الخارج صفحة الإلية أو حشفة الذّكر، وما يقابلها من مخرج البول عند الأنثى. كما يشترط أن لا تقلّ المسحات عن ثلاثة أحجار أو ما ينوب مَناتها. فإن لم ينظّف المحلّ زيد عليها، ويُسنّ أن يجعلها وترّاً، أي منفردة

كخمسة أو سبعة ونحوها. روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أتى النبي ﷺ الغائط فأمرني أن آتيه بثلاثة أحجار». أما الآداب المتعلقة بالدخول إلى قضاء الحاجة والخروج منها، فيستحب لقاضي الحاجة أن يقدم رجله اليسرى عند الدخول ويمناه عند الخروج، لأنه الأليق بأماكن القذر والنجاسة. ولا يجمل ذكر الله تعالى، ومثله كل اسم معظم. كما يستحب أن يقول الأذكار والأدعية التي ثبتت عن رسول الله قبل دخول الخلاء، وبعد الخروج منه. فيقول قبل الدخول (بسم الله، اللهم إني أعوذ بك من الخُبث والخبائث) والخُبث جمع خبيث، والخبائث جمع خبيثة، والمراد ذكور الشياطين وإناتهم. وبعد الخروج يقول: (غفرانك، الحمد لله الذي أذهب عني الأذى، وعافاني، الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، ودفع عني أذاه). وهناك آداب تتعلق بالجهة، إذ يحرم على قاضي الحاجة أن يستقبل القبلة أو يستديرها إن كان في الفضاء، أو في بناء غير معدّ لقضاء الحاجة. فإن كان البناء معداً لقضاء الحاجة جاز الاستقبال والاستدبار. وهناك آداب تتعلق بحال قاضي الحاجة، فعليه أن يعتمد على يساره، وينصب يمناه، ولا ينظر إلى السماء ولا إلى فرجه، ولا إلى ما يخرج منه، لأنه لا يليق بحاله. وعلى قاضي الحاجة أن يستعمل شماله لتنظيف المحلّ بالماء أو بالحجر ونحوه، لأنه الأليق بذلك. ويكره أن يستعمل يده اليمنى لهذا، كما يكره له أن يمس ذكره. وإن احتاج أن يمسك الذكر لينظفه بالحجر ونحوه من الجامدات، أمسك الجامد بيده اليمنى دون أن يحركها، وأمسك الذكر باليسرى، وحركها لينظف المحل. روى البخاري ومسلم عن

أبي قتادة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إذا بَالَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَأْخُذَنَّ ذِكْرُهُ يَمِينِهِ وَلَا يَسْتَنْجِ يَمِينِهِ). وهذه الآداب لا تتغير إن كان الرجل أعسر، وحكمه هو حكم الآخرين على السواء. والله أعلم.

المذيع : جزاك الله خيراً، وبهذه الإجابة نختم بحمد الله حلقة اليوم من برنامج «أسئلة وفتاوى»، وكان معنا كالعادة فضيلة الشيخ محمد حسين متولي. جزاه الله خيراً، ونفعنا بعلمه وتقواه. اللهم سدّد خطانا واهدنا إلى صراطك المستقيم، ولا تجعلنا من الضالّين. آمين.

(يغلق المذيع آلة التسجيل، ويلف الأشرطة، ثم يرتبها في حقية الكتف التي يحملها).

المذيع : شكراً يا شبيخي. لقد أفضت وتألّقت. كانت حلقة اليوم رائعة.

الشيخ متولي : تتملّني بالكلام لكي تصرفني عن الموضوع الجوهرى.

المذيع : أه.. يا شيخ.. ماذا أقول! لعن الله البيروقراطية.

الشيخ متولي : تجاوزنا العشرين حلقة، ولم نقبض شيئاً.

المذيع : حقّك يا شيخ. ولكنّ المحاسبة مشغولة هذه الأيام بالجرد. إنّ

القوائم جاهزة.. وعلينا أن ننتظر حتى يفرغوا من أعمالهم.

الشيخ متولي : تحدّث إلى المدير. لا يجوز أن يماطلوا معي.

المذيع : أعدك أن أفعل.

(يتهض المذيع. يحيى الشيخ ويخرج. يزحف فاروق حتى

يصير إلى جوار الشيخ).

فاروق : السلام عليكم يا شيخ.

الشيخ متولي : وعليكم السلام.

فاروق : أريد أن أسألك يا شيخ.. هل يجوز أن يسكت المرء على

المنكر؟!!

الشيخ متولي : معاذ الله.. كيف يجوز السكوت، والرسول ﷺ قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» اللهم قوّنا وقدرنا على محاربة المنكر باليد واللّسان والقلب جميعاً.

فاروق : إذن هذا هو وقتك يا شيخ. إني أستنجد بمرءتك ودينك.
الشيخ متولي : اللهم اجعلنا من أهل المروءات، وانصرنا على جاهليّة هذه الأيام. ولكن ماذا هناك.

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. إنّ الحيّ يفرق في الرذيلة، والموبقات وصلت إلى المدرسة.

الشيخ متولي : تخبرني أنّ الموبقات وصلت إلى المدرسة. ولكن هذه المدارس التي سمّيموها مدنيّة هي الموبقات بعينها.

فاروق : أتعني أنّ المدارس بذاتها!

الشيخ متولي : نعم.. إنّ المدارس بذاتها هي الموبقات..
فاروق : ربّما طرأ عليها بعض الفساد. وهذا ما جئت من أجله.. ولكن

المدارس هي التي تربي الأجيال، وتزوّدهم بالمعارف والعلوم.
الشيخ متولي : وماهي هذه المعارف والعلوم؟! أهي المعارف والعلوم النافعة،

أم تلك التي يوسوس بها الشيطان؟ إنّ العلم النافع هو ما يزيد في خوف المرء من الله تعالى، ويزيد في بصيرته بعيوب نفسه، ويزيد في معرفته بعبادة ربّه، ويقلل من رغبته في الدّنيا، ويزيد في رغبته بالآخرة، ويفتح بصيرته بأفات أعماله، حتّى يحترز منها، ويطلعه على مكاييد الشّيطان وغروره حتّى يجتنبها. هذا هو العلم النافع الذي حصّنا الله ورسوله على طلبه وابتغائه. وكلّ علم لا يدعونا من الدّنيا إلى الآخرة، فالجهل أعود علينا منه. وإني أستعيد بالله من علم لا ينفع. قال ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَعَمَلٍ لَا يَرْفَعُ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ» فهل نجد هذه

العلوم في مدارسكم المدنية؟! لا.. تصفحت علومكم، فلم أجد إلا فضولاً زينه كفار الغرب وسقوه علماء. وما تلك الفلسفة والاجتماعيات والطبيعات والفلك والرياضيات إلا وسوسات شيطانية، وضعها الكفار، كي تُضل المرء، وترزع في قلبه الشك، وترمي به إلى هاوية الاستكبار والإلحاد.

فاروق : لا أدري يا شيخ. لم يخطر لي أن يكون هذا هو رأيك بالمدارس!

الشيخ متولي : وهل خطر لك من قبل، أن تعرف رأيي بالمدارس؟! كم مرة جئت إلى الجامع؟

فاروق : (مرتبكاً) أعترف أنني مقصر.

الشيخ متولي : من السهل أن تقول الآن، ودون رهبة، أنني مقصر. ولكن حين تقف صغيراً وعارياً في حضرة الخالق جلّت قدرته، ستودّ لو يبقأون عينيك، أو يجزؤون لسانك، ولا تضطرّ لقول هذه العبارة.

فاروق : (مضطرباً وحانقاً) إنك تربكني يا شيخ. حين جئت، لم أتوقع أننا سنخوض هذا النقاش. ولذا أرجو أن تعذرني إذا بدت مرتبكاً أو حائراً. أنني مؤمن والحمد لله. وقد ربّاني أبي، وكان شديد الورع والتقوى، على حب العلم، والاستزادة منه، وحين توفي، وكنت صغيراً، قال لي، وهو على فراش الموت.. ما تزال كلماته محفورة في ذاكرتي كأنني الآن أسمعها.. «تعلّم وادخل الجامعة». ورغم الفقر، وضيق الحال نفّذت وصيته، ونلت إجازة في الرياضيات. ولم أشعر في أيّ يوم أن دراستي مسّت إيماني في شيء. ولكن.. واجهني اليوم حادث خطير، وظننت أنك الوحيد الذي يمكن أن يساعدنا في علاجه.

الشيخ متولي : قبل أن تقصّر عليّ حادثك الخطير، أريد أن تعدني بالتردد على الجامع، وحضور دروسي. ولعلنا نواصل الحديث عن المدارس، ويهديك الله إلى الحق.

فاروق : أعدك أن أفعل..

الشيخ متولي : ماهي حكايتك؟

فاروق : هذا الصّباح.. اكتشفت أنّ بعض الطالبات يتردّدن على بيت الستّ فدوى. ولا ريب أنّك تعرف يا شيخ، ماذا يعني التردد على بيت الستّ فدوى!

الشيخ متولي : وماذا يعني التردد على بيت الستّ فدوى يا أستاذ؟!
فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. ألا نعلم جميعاً ما يحدث في بيتها؟

الشيخ متولي : إذا كنت تعرف.. أفصح وقل لي ماذا يحدث؟
فاروق : منذ سنتين، حين اكتمل البيت، وبدا واضحاً ما يدور فيه، ثار في الحيّ لغط كثير. وقيل لي إنّك استكرت مع المستكرين، وأنك أشرت إلى البيت في خطبة الجمعة، واعتبرته علامة على التفسّخ والانحطاط.

الشيخ متولي : قيل لك، ولم تسمع بأذنك!
فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. كان الجميع يتحدّثون عن ذلك. في المدرسة، وخارج المدرسة. وسرت شائعات أنّ أكابر الحيّ يفكرون في هدم البيت وإزالته. جرت، ومازالت تجري أحاديث كثيرة عن الفجور الذي يحدث فيه.

الشيخ متولي : هل تعلم يا أستاذ أنّك تخوض في أعراض النّاس بلا احتشام؟ وهل تعلم أنّ الغيبة أشدّ من ثلاثين زنية في الإسلام؟ ومعنى الغيبة أن تذكر إنساناً بما يكرهه لو سمعه. فأنت مغتاب، ظالم، وإن كنت صادقاً، وكيفيك زاجراً عن الغيبة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ

لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴿١٠٠﴾ لقد شبه الله سبحانه وتعالى المغتاب بأكل لحم الميتة، فما أجدرك أن تحترز منها! وهناك أمر لو تفكرت فيه لمنعك من غيبة المسلمين. وهو أن تنظر في نفسك هل فيك عيب ظاهر أو باطن، وهل أنت مقارف معصية سرّاً أو جهراً؟ وإن نظرت إلى ظاهرك وباطنك، فلم تطلع فيهما على عيب ونقص في دين أو دنيا، فاعلم أنّ جهلك بعيوب نفسك أقبح أنواع الحماقة، ولا عيب أعظم من الحق. ولو أراد الله بك خيراً لبصرك بعيوب نفسك. فرويتك نفسك بعين الرضا غاية في الجهل والغباوة. ثم إن كنت صادقاً في ظنك، فاشكر الله تعالى عليه، ولا تفسده بثلب الناس، والتمضمض في أعراضهم، فإنّ ذلك من أعظم العيوب. وإنّ الله سبحانه وتعالى رأف بنا فأمرنا أن ندرأ الحدود بالشبهات. وسيدنا عمر رضي الله عنه طَبَّقَ حَدَّ القذف على ثلاثة من الرجال الأربعة الذين اتهموا المغيرة بن شعبة بالزنى، لأنّ رابعهم لم يستطع أن يجزم أنّه رأى الميل في المكحلة. فانظر إلى تحوُّط عمر، وخوفه من إقامة الحدّ مع وجود الشبهة، ولو كانت ضئيلة. منذ قليل تباهيت بإيمانك وعلمك والآن تأتي وتحدّث بطيش وخفّة عن بيت فجور وزنى. فهل يتفق هذا مع خلق المؤمن أو العالم؟!!

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. لست بمن يخوضون في أعراض الناس، ولم أكن يوماً نماماً أو مغتاباً. ولكّني أعلم أنّ الناس يتحدّثون عن ذلك وكأنّه بداهة. ولي زملاء يتعوذون ويحوقلون حين يذكر البيت أمامهم، أو حين يمزون قربه.

الشيخ متولّي : لولا الطّئنة لدخل الإنسان الجنة. قل لي يا أستاذ.. هل تعرف من يعمر مساجد الله؟ ﴿إِنَّمَا يُعَمِّرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

واليوم الآخر وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ
صدقَ الله العظيم. فهل يجوز أن نصف هذا المؤمن الَّذي
يعتمر المساجد بالفاجر الزنيم، أو بقرين الشيطان الرجيم. ما
دفعته الست فدوى لرفع مآذن هذا الجامع، وتزين قبابه يربو
عَمَّا دفعه أي محسن في هذا الحي. وهي تغدق في الهبات
والصدقات، ولديها الكثير من المشاريع التي سيعمُّ خيرُها
الحيَّ كلَّه. ومع هذا تأتي لترميها بالتّمائم والشُّبهات.

فاروق

: شيء لا يصدّق!. يا فاطر السموات والأرض.. قلبت رأسي.
لا أعرف ماذا أقول!. إن أفكارني تتشابك وتختلط. تدافع
عنها بحميّة وحماسة! هذا شيء لا يصدّق! شيء غريب
وغامض!

الشيخ متولي : أتمنى فعلاً أن أقلب أفكارك، وأن أجعلك ترى أن الفساد هو
في المدرسة التي تعمل فيها، وهو في العلم الَّذي تعلّمه،
وبدلاً من تصيّد الشُّبهات، والخوض في أعراض الناس، لينك
تواجه الفساد الَّذي نجيا فيه (يرتفع صوت المؤذن داعياً للصلاة
الظهر. يمسح الشيخ متولي وجهه) الله أكبر. قم إلى الصلاة،
وطهّر قلبك بالتّقوى. إذا غسلت باطنك بالتّقوى، ترتفع
الحجب بينك وبين ربّك، وتكشف لك أنوار المعارف،
ويتيسر لك من العلوم ما تستحق به هذه العلوم المحدثّة، الّتي
لم يكن لها ذكر في زمن الصّحابة والتّابعين. وإن كنت
تطلب العلم من القليل والقال والمرء والجدال فما أعظم
مصيبتك، وما أكبر خسرانك! (ينهض) هيا.. ألن تنضمّ إلى
الصلاة؟

فاروق

: إني.. إني..

الشيخ متولي : لعلك جنب..

فاروق : نعم.. نعم.. لم أغتسل من الجنابة.
الشيخ متولي : أنصحك أن تستدرك أمرك، وتصلح حالك قبل أن يفوت الأوان. ولا تنس وعدك بالتردد على الجامع. يجب أن تسمع دروسي حول الجاهلية التي يفرق في كفرها مجتمع هذا الزمان.

(يمضي الشيخ. يبقى فاروق جالساً وذاهلاً لفترة).

فاروق : (مغمغماً) سأفعل..
(تتلاشى الإضاءة).

المؤلف

: وكانت الساعات تدور..

اجتاز فاروق صحن الجامع مترنحاً، وحاملاً حذاءه. فاضت معدته. ودهمه غثيان حاد ومؤلم. خرج مسرعاً، واتكأ على حائط الجامع محاولاً أن يتقيأ. جاشت معدته، وارتفعت في تشنجات متلاحقة، ولكنه لم يخرج شيئاً. كانت تنبعث من فم الشيخ متولي رائحة كريهة. رائحة بخر يتصاعد من طعام متعفن، ومن غائط. ارتدى حذاءه، ومسح العرق الذي غطى وجهه رغم برودة الجو. خف الغثيان، واشتد الطنين في رأسه. اللا مبالة تواطؤ. المدارس هي الموبقات. وجه ثرياً واللؤم المتيسر عليه. المدير. الست فدوى ترفع مآذن الجامع، وترنن قبابه. أصلح حالك. قم إلى الصلاة. أين يعيش؟ ماذا حدث بالضبط؟ أهو يوم ككل الأيام! يوم حقيقي أم أنه حلم وهلوسة! ود أن يعود إلى بيته. حقاً.. لماذا لا يعود إلى بيته؟! استوقفه رجل رث الهيئة، مشروم الشفتين، وقال له بلهجة هي أقرب إلى الأمر منها إلى السؤال: أعطني سيجارة. فأجابه مرتبكاً: آسف.. إنني لا أدخن. عقّب الرجل ساخراً: ولماذا لا تدخن؟.. واربتك فاروق: لا أدري.. هكذا.. إنني لا أدخن. أمسك الرجل كفه، وتفرس في وجهه. يا الله ما أبشع وجهه! ثم قال مهدداً: المرة القادمة أنصحك أن تدخن. ثم تركه ومشى. أهذه هي المدينة التي يحيا فيها أم أنها مدينة أخرى! ماذا يحدث؟ وما قاله الشيخ متولي لا يمكن أن يكون حقيقياً. هو يذكر جيداً غليان الناس وهياجهم، حين تلاًأ البيت، وانكشف مايجري فيه. ويذكر

أيضاً أنّ اسم السّت فدوى كانت تلوكه الألسنة كوصمة أو شتيمة. كان ذلك منذ ستين تقريباً. وتوقّف برهة. الآن يلاحظ أنّ هياج الناس لم يستمرّ طويلاً، وأنّه منذ سنة أو أكثر، لم يعد يسمع أحداً يذكرها بسوء. وهذا فعلاً محيرٌ وغامض. كان يتجه نحو السّراي. وهو الاسم الذي يطلق على المبنى القديم الذي يوجد فيه مدير منطقة المزرعة. وميسون القاضي هي ابنته. لم يكن يستطيع التراجع. لقد دخل نفقاً وحيد الاتجاه، وكان مصمّماً على المضّي إلى نهايته. كان يحثّه شعور بالمسؤوليّة. وفضول غامض وجامح لا يعرف سببه.

المشهد الثالث

(مكتب مدير المنطقة عدنان القاضي. مكتب واسع تزين جدرانه صور مبتذلة لبعض المناطق الأثرية، وفتيات بالأزياء الشعبية. على الحائط خلف المكتب صورة كبيرة لرئيس الدولة بالثياب المدنية. تكتظ الغرفة الواسعة بأثاث متافر، بعضه شرقي، وبعضه الآخر عصري جداً. السيد عدنان القاضي ومدير مكتبه أحمد الدبغي).

أحمد : سيدي.. حالة جلال الساطي مقلقة.

مدير المنطقة : ماذا.. هل عاوده الجنون؟

أحمد : وأي جنون! نوبة اليوم تجاوزت كل الحدود.

مدير المنطقة : ماذا فعل؟

أحمد : في الصباح كان هادئاً وطبيعياً.. وفجأة رفس كرسيه، واعتلى

مكتبه، وراح يصيح «أيها الخصيان.. الموت ولا التعريض مع دولة هذه الأيام». نهض رئيس الديوان وسائر الموظفين، وحاولوا تهدئته، فأخرج عضوه، وبال عليهم، ثم قفز خارجاً إلى بهو السراي، وراح يصرخ وسط دهشة الناس.. «الموت ولا التعريض مع دولة هذه الأيام».

مدير المنطقة : أعوذ بالله.. هذه فضيحة مجلجلة. وأين هو الآن؟

أحمد : بصعوبة، تمكّن ثلاثة من رجال الشرطة أن يحمله،

ويحجزوه في غرفة المصلّى. وهم الآن ينتظرون أوامرك.

مدير المنطقة : لا.. هذه المرة ينبغي أن نهذه قبل أن نسلمه إلى مستشفى المجانين. قل لهم أن يحجزوه في الانفرادية، وأن يرتبوه على ذوقهم. لقد تحمّلت على مسؤوليتي مرتين وهذا يكفي.

أحمد : لا ريب أنّه مجنون، أفرعني منظره يا سيدي. كان متغيّر السحنة كأنّ مسّاً أصابه. عيناه جاحظتان والزبد يتطاير من فمه. أف. منظر فظيع.. كان ينبغي أن نعرف منذ التوبة الأولى.. (متردداً) لماذا لا نحوله إلى الأمن، ونخلص من هذه القصة!

مدير المنطقة : (ينظر إليه غاضباً) لا.. دع الأمن جانباً. أحياناً تنقصك يا أحمد لمعة الذكاء. لكي نخلص منه يجب أن يبقى تحت سيطرتنا، فهو موظف قديم، ويعرف الكثير من أسرار المديرية. أحمد : نعم.. هذا هو الرأي السديد، آه يا سيدي كم ينبغي أن أعلم منك!

مدير المنطقة : طيب.. طيب.. ماذا هناك أيضاً؟

أحمد : الأستاذ فاروق ينتظر في مكنتي.

مدير المنطقة : أدخله..

أحمد : حاضر.

(يخرج أحمد، وبعد قليل يدخل فاروق مرتبكاً ومكفهر الوجه، ينهض المدير من وراء مكتبه، ويستقبل فاروق ببشاشة كبيرة، ويقوده إلى كبة قرب المكتب، ويدعوه للجلوس).

مدير المنطقة : أهلاً.. أهلاً... كنت أتمنى هذه الزيارة منذ زمن بعيد.

فاروق : (مازال مرتبكاً) شكراً على ترحيبك. لم يخطر لي أنّك تعرفني، وأخشى أنّي أتطفل على وقتك الثمين.

مدير المنطقة : كيف لا أعرفك، ومدير المدرسة لا يملّ من الحديث عن أستاذ الرياضيات، الذي لا يُشقّ له غبار! وعليك أن تضيف مدائح ابنتي وزميلات ابنتي. لا.. إنّني أعرفك جيّداً يا أستاذ

فاروق. واليوم بالذات كنت أتوقع زيارتك، وما كنت لأجعلك تنتظر لولا هذا الحادث المؤسف، هل رأيته حين دخلت إلى السراي؟

فاروق : من؟

مدير المنطقة : موظف، اختلّ عقله، وداهمته نوبة جنون مفاجئة، فراح يصرخ في الناس، ويخرف في الكلام.

فاروق : نعم رأيت رجلاً غريب الأطوار وسط حشد من الناس، ثم جرّه رجال الشرطة وأخذوه بعيداً.

مدير المنطقة : هذا هو، إنه جمال الشاطي. شيء مؤسف، حقاً إنه شيء مؤسف، هل تصدّق؟ كان هذا الرجل، وطوال عشرين سنة، موظفاً مثاليّاً. كان هادئاً، مجداً مخلصاً، لم تبق سجّله الوظيفي ملاحظة، أو هفوة. وذات يوم منذ بضعة أشهر بدأ يظهر عليه الاختلال. هكذا.. فجأة، رمى المعاملات التي كانت بين يديه، واقترب من رئيسه بهدوء ودسّ يده بين فخذيه وصاح «رئيسنا ليس له خصيتان»، وكان ذلك غريباً. وأصيب الجميع بالذهول. أمّا هو فقد راح يدور على زملائه، ويكرّر معهم الحركة ذاتها، ثم يصرخ «وهذا أيضاً ليس له خصيتان». وكانت حركته سريعة، ولم يستطع أحد أن يمسك به. دار على الغرف وتسلّق السلالم، وهو لا يفتأ يكرّر حركته ويصرخ «وهذا أيضاً». كان الوضع مؤسباً ومضحكاً معاً. والطريف أنّ الوحيد الذي وجد لديه خصيتين هو عامل البوفيه الذي يقدّم الشاي والقهوة. كانت حالة هysterية واضحة. ولم أشأ أن أتخذ أي إجراء قانوني يضرب به. كلّ ما فعلته هو أنّي أرسلته إلى طبيب نفسي. وبالفعل بدأ علاجه، وفي غضون فترة قصيرة تحسّنت أحواله، وعاد ذلك الرجل

الهادئ، الصموت، المجدّد. وبعد شهرين أصابته نكسة جديدة، وعالجناه مرة أخرى، ولكن يبدو أنّ الحالة صارت مستعصية إلى حدّ ما. يعتقد الطبيب أن ليس لديه مشاكل جنسية، أمّا أنا فأظنّ أنّ مشكلته الأساسيّة ومشكلة كثيرين أمثاله هي، باختصار، الجمود والعجز عن التكيف. نعم.. / هذه هي المشكلة الجوهرية التي تواجه مجتمعنا اليوم.

(يدخل عامل البوفيه حاملاً صينية عليها فنجانا قهوة، يضع فنجاناً أمام فاروق والآخر أمام المدير، المدير يغمز فاروق، ويشير نحو العامل، يخرج العامل).

مدير المنطقة : هذا هو الرجل الذي باركه الأخ جلال ووهبه خصيتين. تفضّل يا أستاذ (يتناول علبة سجائر ويقدم سيجارة لفاروق).

فاروق : (وهو يمدّ يداً ترتعش لتناول سيجارة) أنا لا أدخن، أقلت عن التدخين منذ سنة، لكنّي اليوم أحتاج إلى سيجارة.

مدير المنطقة : دخن يا أستاذ (يشعل له سيجارة بولاعة من ذهب) ومهما كان التدخين مضرّاً فإنّ الضغوط العصبيّة والقلق أشدّ ضرراً وفتكاً بالإنسان. كنّا نتحدّث عن هذا المختلّ. نعم إنّي أعتقد أنّ مشكلته الجوهرية هي التزمّت وعدم التكيف. نحن نعيش وسط التغيّر. إنّه تغيّر هائل يطول كلّ شيء. إنّ كلّ ما تعلّمناه من آباءنا وأجدادنا، وما حسبناه صلباً وثابتاً ها هو يضمحلّ، ويتحوّل إلى دخان. المبادئ والتصورات، القيم والأخلاق. كلّ شيء.. كلّ شيء يتغيّر ويتحلّل إلى غبار. / وأنا لا أبالغ إذا قلت إنّنا نعيش تحوّلاً ثورياً عميقاً. نعم يا أستاذ أسميه ثورياً، لأنّ الثورة الحقيقية ليست طنين الشعارات وترتيل العقائد والمحفوظات، بل هي الانفتاح على العصر ومنجزاته، وعلى العالم وأسواقه. هذه هي الثورة

الحقيقية. إنّ الذين حاولوا أن يسوّروا البلاد، وأن يحجزوا العصر على الحدود، انهزموا، ولم تبق منهم إلّا بعض الذكريات المريّة. وهذا الرّجل العظيم (مشيراً إلى الصورة) هو الذي أدرك أنّ البلاد لا تسوّر، وأنّ العصر لا يحتجز على الحدود كأنه مسافر مشبوه، وأنّ الانفتاح على العالم وأسواقه هو الثورة الفعلية، وهو الازدهار الحقيقي. لاحظ، خلال عقدين من الزمن تبدّل وجه البلد. ورشات بناء وأموال ومشاريع. أخيراً إنّنا ندخل العصر. ودخول العصر لا يمكن أن يتم دون هزّات وتوتّرات. هذه المرحلة لا يمكن أن تتعاش مع التزمّت والأفكار الجامدة والأخلاقيات البالية. هذه المرحلة تحتاج إلى روح مرنة وانسيائية. ومن لا يستطيع أن ينمّي في داخله مثل هذه الرّوح، فسيضيع أو يُرمى في مصخّ عقلي. إذا كانت أمراض القلب والسكر والأورام والحالات العصائية في ازدياد، فلاّنّ الناس في بلادنا لم يستطيعوا أن ينسلخوا عن قديمهم وجمود قيمهم، ويدخلوا إلى مغامرة العصر. ولكن هل نتوقّف من أجل بعض المرضى والبائسين؟ طبعاً لا.. فالتوقّف يعني الانتحار. لأنّ العصر كالتيار الجارف إذا ضيّعنا إيقاعه ضيعنا، ولا يبقى لنا مكان في التاريخ. سمعت كثيرين يتذمّرون من تدقّ المصطافين العرب على البلد، ويروون لك قصصاً وسوالف عن انحلال الأخلاق وهدر الكرامة. ولكن هل يعلم هؤلاء أن السياحة هي صناعة وتنمية؟ ليس لدينا بترول، ولكننا نملك طبيعة جميلة ومناخاً لطيفاً وشعباً خدوماً. وهذه كلّها في مفاهيم العصر رساميل تُثَمّر وتنتج ازدهاراً وبجوحة. يريدون أن يستمتعوا! ليكن.. ولماذا لا يستمتعون! إنهم لا يأخذون أيّ شيء بالجدّ. وإذا لم

أوفرّ لهم المتعة التي يريدون شراءها، فإنّهم سيجدونها موفورة حتّى في أشدّ البلاد ازدهاراً وتقدّماً. رأيت الأوروبيّين بكلّ مدنيّتهم وتعاليمهم يغرفون المصطفّين العرب كما تُعرف الكنوز. ولم أسمع أحداً في بريطانيا أو فرنسا يتحسّر على الكرامة أو الأخلاق. لقد دخلنا العصر، ولكن مازالت عقليّة الكثرين تراوح في زمن البداوة، أو المفاهيم القروية الضيّقة. وهذه الازدواجيّة خطيرة إذا استمرّت، لأنّها في الواقع ستكبّل خطانا، وستمنع بلادنا من التفتح العصري الكامل، ومن مجاراة الأمم في موكبها المتدافع إلى التقدّم والرّفاه. إنّ الكلمات والتّعوت هي الأخرى يمكن ان تتحوّل إلى قيود تشلّ الحركة. خذ مثلاً هذه الألفاظ: «الرشوة»، «النهب»، «الفساد»، «الإثراء»، «التّصب»، «الاحتيال». كلّ هذه الألفاظ الخارجة من قاموس بائد، هي قيود يستخدمها المترمّتون كي يعرقلوا عمليّة الانفتاح، وكي يمنعوا تحديث البلاد. إنّ العالم العصري ألقي هذه الألفاظ والقاموس الذي يحتويها في مكبّ التّفايات. إنّّه يستخدم كلمات «المنفعة» و«العمولة» و«الزّبح» و«اقتناص الفرص» و«العصاميّة» و«المرونة» و«العلاقات العامّة». وفي الواقع لا يمكن أن نكون في العصر، وأن نستخدم في الوقت ذاته لغة عصر تجاوزه الزّمن واضمحلّ. نعم كلّ شيء يتغيّر، ويقتضي أن نتغيّر. لاشكّ أنّي أثقلت عليك، وما قلت إلّا ما تعرفه أفضل منّي. إنّ أستاذاً لامعاً في الرياضيات الحديثة يعرف عن روح العصر، أكثر ممّا يعرفه رجل تخبط في كليّة الاقتصاد سنوات عديدة، ولم يحصل على شهادته إلّا بشقّ النفس. هل أطلب فتجاناً آخر من القهوة؟ (يرنّ الجرس قبل أن يجيب فاروق)

نعم إنَّ فنجان قهوة ضروري الآن، كي تنفض من رأسك
ثرثرتي. جرفتنني الحماسة لأنني لا ألتقي كلَّ يوم عصرياً
أستطيع أن أبوح له بما يدور في ذهني دون تحفظ أو مراوغة.
(يدخل الآذن) هات لنا قهوة مضبوطة وماء بارداً (يلتفت إلى
الأستاذ) أم لعلك تريد شيئاً آخر!

فاروق

: (محفظاً) لا.. لا شيء (يتردد) أريد سيجارة.

مدير المنطقة

: طبعاً.. طبعاً (ويقدم له سيجارة، ثم يشعلها بالولاعة الثمينة)
أترى هذه الولاعة! إنها غالية جداً بالنسبة لي، لا لأنها من
ذهب، وثمانها غالٍ، بل لأنها هدية من ابنتي ميسون.. آه
هذه البنت! إنها تدهشني. ربما لم يتح لك وسط ازدحام
الصفِّ وانشغالك بالدروس، أن تتعرّف عليها جيداً، ولكنها
حقيقة مذهشة، لا أقول هذا لأنها ابنتي، بل لأنها كذلك
فعلاً. أحياناً أفكر أنَّ العصر هو الذي أنجبها، وغدّي
أنسجتها. إنَّ قابلياتها، وإيقاعها، والآلية التي يعمل بها
عقلها، كلها تدهشني، وتعطيها منزلة خاصة في قلبي. إنها
مختلفة عن إخوتها. ولا أخجل إذا قلت لك إنني أحياناً أتعلّم
منها، وأحياناً هناك مشاكل لا أستطيع حلّها، إذا لم تمدّني
برأيها.

فاروق

: يا فاطر السموات والأرض.. ولكّتي جئت كي أحمّد معك
عن ميسون.

مدير المنطقة

: أحقاً! ماذا تنتظر إذن! حدّثني.. أهو أمر يتعلّق بالدراسة!
لا.. لا ليست الدراسة، بل هو أمر أخطر.. كيف أقول لك!

فاروق

: يا فاطر السموات والأرض.. هل تعرف يا سيادة المدير أنّها..
أرجوك لا تؤاخذني.. ولكّتي سمعت ذلك بأذني. إحدى
زميلاتنا قالتها، وهي لم تكذبها.. هل تعلم أنّها تتردّد على
بيت الست فدوى!

مدير المنطقة : نعم.. وهي تحب زوجتك كثيراً.

فاروق : زوجتي؟!

مدير المنطقة : إنهما تلتقيان عند الست فدى. وهي تقول لي إن زوجتك

هي الوحيدة التي استحققت صداقتها.

فاروق : ماذا تقول! يا فاطر السموات والأرض.. زوجتي عند الست

فدى؟

مدير المنطقة : والست فدى هي الأخرى تحب زوجتك كثيراً وتدللك.

إنك محظوظ يا أستاذ. لديك زوجة متميزة تثير الإعجاب

وتميل نحوها القلوب. إن ابنتي لا تصادق بسهولة، والست

فدى صعبة المراس ولا تدلل أياً كان. لاشك أن زوجتك

متميزة كي تكسب صداقة ابنتي ودلال الست فدى.

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. إني لا أصدق. (ينهض) لا..

هذا مستحيل.. لا يمكن أن أصدق.. يا فاطر السموات

والأرض.

(يندفع خارجاً وهو يردد كالمسوس يا فاطر السموات

والأرض).

مدير المنطقة : ألن تشرب القهوة يا أستاذ!

(يتسم ابتسامة ملفزة.. يضع سيجارة في فمه، يشعل الولاعة

عدة مرّات، وبينما يشعل سيجارته يتلاشى المشهد).

المؤلف

: وكانت الساعات تدور..

لم يكن يسير، بل كان يهوي في جروف عميقة، يغطي قيعانها ضباب صدئ اللون، وتتراحم فيها شتى أنواع الزواحف والأفاعي. كل شيء صلب يتفتت، ويتحول إلى غبار. القيم والمفاهيم والأخلاق. وميسون تحب زوجته، والغيبة أشد من ثلاثين زنية في الإسلام. ورائحة الشيخ.. رائحة الشيخ التي تثير الغثيان. والولاعة الذهبية. أين هو؟! وماذا يجري! تعلق بأذيال سترته عنقود من المتسولين الصغار قذرين، دبقين، مفزعين. كان فظاً وقاسياً، أوقع فتاة، وركل صبيّاً، وحين أفلح في التخلص من إلحاحهم، لاحقه سيل من الدعوات والشتائم البذيئة. هذه مدينة لا يعرفها، ولم يسر في شوارعها! أيمن أن تتغير المدن في يوم واحد؟! وأسرع الخطى. كان الجحيم يناديه، وكان محكوماً بالذهاب إليه. ولطمه شاب كثر الشارين يرتدي ثياباً خضراء مرقطة، وصاح فيه: «انظر أمامك يا حمار». ولكنه تظاهر أنه لم يسمع، وتابع طريقه. لا.. لم تعد المدينة هي المدينة.

المشهد الرابع

(غرفة الست فدوى.. غرفة باذخة ومكسوة بحميمية خاصة. تتوزّع على جدرانها مرايا كبيرة مختلفة الحجم ومرتبّة بصورة تبرز المرء من كل جهاته وبكل أوضاعه. الإضاءة موزّعة توزيعاً أنيقاً. في تجويف في الحائط يتخفى سرير عريض يستر ترفه بغشاء شفاف من الحياء والدّوق. وفوق السرير غُلّقت لوحة لإمرأة عارية تدير ظهرها للناظر بينما يلتفت رأسها بحركة خفية ونظرة غامضة. إنّ الانطباع الذي تخلّفه اللوحة هو الحياء وليس الإثارة. ولكن كلا من السرير واللوحه معا يطفحان، ورتباً بسبب الحياء بالذات، بالقواية.. ترتدي فدوى ثوباً منزلياً سابغاً، ووجهها خال من المساحيق. تمشي في الغرفة بخفّة الظلال. تدخل نرجس، فتاة صغيرة تبدو كالدمية بسبب مكياجها الفاقع وملابسها الصّارخة. حين تتكلّم أو تتحرّك يتعزّز الإحساس بأنّها دمية، كما أنّ التناقض الصّارخ بينها وبين فدوى في اللباس والمكياج، يضيف على الأولى مزيداً من الوقار واللطافة الإنسانية).

- فدوى : هل وصل الأستاذ؟
 نرجس : (هامسة بصوت مستعار) نعم.. لقد وصل الأستاذ. إنّهُ مخيف يا معلّمتي. أخشى أن يؤذيك.
 فدوى : أدخليه وابلعي لسانك. لا أريد أيّ ثرثرة.

- نرجس : حاضر.. ولكن..
- فدوى : (تقاطعها بحسم) قلت لك أدخليه، واحملي لنا عصيراً طازجاً.
- (تخرج نرجس.. تجلس فدوى بحركة أنيقة على إحدى الكنبات. خلال لحظات يدخل فاروق مشعث الهيئة زائغ العينين).
- فاروق : (كالمذهول) وإذن.. هذه أنت!
- فدوى : أي نعم.. هذه أنا.
- فاروق : لدي سؤال واحد، وأريد الإجابة عليه.
- فدوى : تمنيّت هذا اللقاء، فلا تفسد عليّ متعته. تفضّل واجلس.
- فاروق : لا... لأريد أن أجلس. هو سؤال وجواب ولا شيء آخر.
- فدوى : (تنهض وتجرّه برفق إلى الكنبه) أرجوك أن تجلس. أعرف ما تعانیه، وأعرف أنّك متعب. دعنا نهدأ قليلاً. دعنا نستريح قليلاً. سنتحدّث كثيراً، ولكن ارحّ واسترخ أولاً.
- (يجلس فاروق كالمثوم، يختلس المكان بنظرات خاطفة ومبهورة. تفاجئته صورته وهي تتكرّر في المرايا إلى ما لا نهاية. يبدو وكأنّ خدراً يسري في أوصاله).
- فاروق : (يردّد مسحوراً) يا فاطر السموات والأرض.. (يهبّ بغتة وكأنّه يقاوم) لا.. لا أريد أن أجلس. لن تأكلي عقلي بهذه الأجواء الشيطانية. هو سؤال واحد وأريد جوابه.
- فدوى : ليتنا نستطيع أن نبذّ غموض الحياة بسؤال وجواب (تقترب منه وتزداد رقّة) اجلس يا فاروق. حذفت كلمة الأستاذ، لأنّها كالْحِجَاب تفصل بيننا، وتمنع تلامسنا.. وأنا أريد أن نتلامس. (يصبح مطواعاً) تعال واجلس. (يجلسان معاً على كنبه واحدة) هل تعرف أنّ الحياة والواقع وهذا العالم أعقد من سؤال وجواب؟

- فاروق** : ماذا تحاولين؟! لن تخذعني الألاعيب. لديّ سؤال واضح، وأريد أن أسمع منك جواباً واضحاً.
- فدوى** : (تمسح على شعره فيتنفض مبتعداً عنها) ليكن.. ليكن.. ستحصل على جوابك الواضح ولكن أنا.. أنا التي تلاحقها يا فاروق منذ الصباح، وتثير ضدها المدرسة والجامع والسلطة، ألا يحقّ لي أن أطرح سؤالاً، أو أوضح نفسي قليلاً. تمتيت أن ألقاك لأنني خمنت أنك الرجل الذي أستطيع أن أتحدث إليه. أن أشرح له نفسي. ما أنا بالنسبة لك؟
- فاروق** : إلى أين تستدرجينني؟
- فدوى** : إني لا أستدرجك يا فاروق. منذ الصباح وأنت تلوك سيرتي، فلماذا لاتقول لي، وفي وجهي ما أنا بالنسبة لك؟
- فاروق** : يا فاطر السموات والأرض.. هل تظنين أنني سأراجع، أو أخاف. إنك.. إنك..
- فدوى** : (بعذوبة) قل يا فاروق.. إني..
- فاروق** : الست فدوى.
- فدوى** : لا.. لاتراوغ يا فاروق.
- فاروق** : إني لا أراوغ.. الست فدوى.. العاهرة.
- فدوى** : (تخلل شعره بأصابعها) والقوادة.
- فاروق** : إنك تخربين البيوت، وتفرقين الجميع في وحل الفساد والزذيلة.
- فدوى** : ربّما كنتُ شيئاً من هذا كلّه. أعلم؟! لم تخينني.. كنت أنتظر رجلاً يقول لي ذلك في وجهي.. كنت أنتظر رجلاً لا يأتي إليّ متهاقاً. لأنّه سيكون الرجل الوحيد الذي يغريني بأن أشرح نفسي قليلاً. هل تصدّق؟ رغم كلّ شيء، إني أشعر بالوحدة مثلك. في أيّ عام تخرّجت؟ (تدخل نرجس حاملة صينية عليها كوبان من عصير البرتقال، تقدّم له العصير

- لكنه يرفض).
- فدوى : ضعيها على الطريزة، لاشك أنك جائع، أحضري بعض الشطائر. (بعد تردد قصير تخرج نرجس).
- فدوى : (تتاول كوب العصير وتقدمه له.. برقة شديدة) أعرف أنك ظمآن وجائع، اشربه.
- فاروق : (يتفرض غاضباً وينهض) يا فاطر السموات والأرض.. ما معنى هذا؟ ما جئت لأشرب أو لأكل. أريد أن أعرف.
- فدوى : لاتتعجل.. حتى الآن عرفت أشياء كثيرة. (تتاول علبة سجائر) هل تريد سيجارة؟
- فاروق : نعم إنني أريد سيجارة.
- فدوى : إذن، اجلس وتناول شيئاً من العصير. لن أدعك تدخن على معدة فارغة.
- فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. إنك تنسجين حولي شبكة من خيوط حريرية. إنك تصض.. تصطط.. يا فاطر السموات والأرض.. إنك تستادينني.
- فدوى : طيب.. طيب اجلس وتناول شيئاً من العصير. (يطاوعها) أؤكد لك أنني لا أحاول اصطليادك. أريد أن نتلامس، أن يعرف كل منا شيئاً عن الآخر. ويبدو أن هذه هي المعرفة الوحيدة الممكنة. هل جرّبت أن تعرف نفسك؟ أمّا أنا فقد ضيّعت الكثير من الوقت والجهد، لكي أكتشف أن الإنسان يولد ويموت، ولا يعرف نفسه. (تقدم سيجارة وتشعلها) هل رأيت مرةً ظهرك أو قفاك؟ انظر. لقد ركّبت هذه المرايا لكي أرى جسدي من كلّ جهاته. ولكن هل رأيت جسدي دفعة واحدة ومن كلّ جهاته. كنت أريد رؤية كالإشراق المفاجئ، وما رأيته هو أعضاء وتكوينات تتكرّر، وتتعاكس في تعقيد لانهائي. وفي النهاية هذه هي الحياة. سألتك في أيّ عام

تخرّجت، لأنني أعتقد أننا كنا في الجامعة في فترة واحدة تقريباً. كنت في السنة الرابعة أدب فرنسي حين تزوّجت. كان زواجاً عائلياً ومرتباً أرادوا أن يشفوني به من قصّة حبّ كئيبه.

(تدخل نرجس حاملة صينية فضية عليها صحن تكومت فيه شطائر متنوعة. تضع الصحن وتهتم بالخروج).

فدوى : ابقني قليلاً. كانت ليلة صيفية جميلة، وكنت قد أرضيت نفسي، وتركت الأمور تمضي في مجراها (إلى نرجس) اذهبي إلى السرير.

نرجس : (بفرح طفولي) أتريد أن نلعب اللعبة!
فدوى : (وهي تنهض) نعم.. وانتبهي جيداً فالיום لدينا متفرّج، حاول أن تكوني معتدلة ومقنعة.

نرجس : ألا أحضر الشوارب؟
فدوى : ليس ضرورياً. المهم أن تذكّري العبارات جيداً.
نرجس : إنني أتذكرها ويمكنني أن أزيد عليها.
فدوى : لا.. لأريد أيّ زيادات، اجلسي هنا على طرف السرير وضعي رجلاً فوق رجل.

نرجس : والشطائر؟! ألا نلعبها عادة، وهو يأكل بشرائه، ويتساقط مع الكلام قتات من الطعام؟!
فدوى :

طيب.. تناولتي شطيرة بسرعة. (بينما تحضّر نرجس الشطيرة تندسّ فدوى في الفراش) كنت متكوّرة في فراشي. كانت العملية مقرّفة وسريعة. كان قد نهض كالفاخ. تناول طبقاً وضع فيه أفخاذ دجاج وفطائر وأشياء أخرى. جلس على حافة السرير عارياً. وضع رجلاً على رجل وملأ فمه ببطيرة. (تجلس نرجس على حافة السرير تضع رجلاً على رجل، وتملأ فمها بلقمة كبيرة من الشطيرة).

- الزَّوج : (وهو يمضغ) هذا هو الأمر إذن! لم تخبروني أَنَّ البضاعة مغشوشة.
- فدوى : أرجوك لا تكن مبتذلاً.
- الزَّوج : أنا المبتذل! وماذا تستمين ما اكتشفناه منذ لحظة، أهو وقار؟! (يتساقط فئات على وجهها فتمسح وجهها وتكشر باشمتران) قولي.. أهو وقار أن تكون القناة سائبة بلا باب أو مغلاق؟! أهو وقار، أن أشتري بضاعة مختومة فأجدها مستعملة وبلا ختم؟!!
- فدوى : وددت لو أموت. كنت أغوص في الفراش تقزّزاً. قلت.. أرجوك لا تسمّيني بضاعة. اسمع، سأشرح لك. يمكننا أن نتفاهم.
- الزَّوج : لا.. لا.. لا تحدثيني عن التفاهم. إنّي مخدوع.. إنّي مطعون.. إنّي أنزف، ولن يتوقّف التّزيف إلّا إذا غسلت جرحي وعاري.
- فدوى : ماذا تنتظر؟ تناول سكّيناً واذبحني.
- الزَّوج : أذبحك!.
- فدوى : أقسم إنّي لن أقاومك، وأعدك ألاّ أصرخ.
- الزَّوج : إم.. ولم أورّط نفسي؟! أنت تستحقين الذّبح، ولكن البازار لم يكن معك. كان مع أيلك، ومعه وحده يجب أن تُعالج هذه القصة.
- فدوى : (صائحة) لا.. دع أبي جانباً.
- الزَّوج : كيف أدعه! هو الذي باع، وهو الذي غشّ.
- فدوى : (تهض وتجتو عند قدميه) أتوسّل إليك.. إنّ أبي رجل ضعيف. جنبه هذه المهانة، وافعل بي ما تشاء.
- الزَّوج : (ينهض ويتمشّى كالمباهي) ولماذا لم تجنّبه أنت هذه المهانة؟ لماذا أفسدتِ البضاعة، وهي في بيته وتحت رقابته!

فدوى : لست بضاعة، ولا يليق هذا الكلام برجل مثقف.. أرجوك،
إننا ناضجان ويمكننا أن نواجه هذه المشكلة بهدوء. فقط
دعني أشرح لك. لم تجمعنا قصة حب، ولكني وطدت العزم
على أن نبني يوماً بعد يوم عشاً يزهر فيه التفاهم والحب.
قبلت الزواج وأنا مصممة على نجاح هذا الزواج، فلا ترك
ردّة فعل غاضبة تفسد مشروعا.

الزوج : يا غشائي الضائع، وبكارتني المهتوكة. المشروع الذي يُبنى
على غش لا مستقبل له. إني مطعون.. إني أنزف. وشأني
مع أبيك لا معك.

فدوى : وتوسلت وبكيت، وتمنيت لو تكون لديه الجرأة، ويفرز سكيناً
في عنقي.

نرجس : والزّوج لا يشبع. (تتناول شطيرة أخرى) ويتناول صحناً آخر.
فدوى : ولو كان محزوناً لوأسيته، ولو كان مجروحاً فعلاً لتحوّلت
ضماذة له. كان شيئاً مفرّزاً في ابتداله وتفاهته. وبعد أن أنهى
صحنه الثاني حاول أن يضاجعني ثانية، وهو يدمدم مازلت
امرأتي، وشأني مع أبيك لا معك. تلك الليلة ماتت فدوى
التي كانت طفلة محبوبة، وتلميذة لامعة، وصبيّة تضجّ
بالأماني والأشواق.

نرجس : وفي اليوم التالي ذهبت، أنا الزّوج المطعون طعنة يتدفّق منها
دمي وكبريائي إلى الأب، لكي أعرض عليه جراحي وأطلب
تعويضي.

(تتخذ نرجس وفدوى وضعية الزّوج والأب).

: جزاك الله خيراً يا عم. زوجتي بضاعة مغشوشة.

: ماذا تقول يا ابني؟

: العذراء لم تكن عذراء، ومكان العقّة لم يكن مختوماً.

: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله

- الزوج الأب العظيم. هل أخبرت أحداً سواي؟
: أستغفر الله يا عم.. هذا سرّ لم يتعدّنا، ولن يتعدّنا.
: بارك الله فيك يا ابني. حقاً إنهن صويحبات إبليس. هذا العار لم نعرفه في عائلتنا. ولك عليّ رغم شيخوختي أن أذبحها بيدي.
- الزوج لا يا عم، استهّد بالرحمن. ماجئت لكي أحرضك على ذبحها. وعلى كلّ ليست لنا مصلحة في الفضيحة، وإثارة زوبعة من القيل والقال، لا يعلم إلا الله متى تهدأ أو تتوقّف. قد نموت وذكرنا ما يزال على السنة التّاس.
- الزوج الأب (وهو يكي) هذا العار لا يمكن أن أقبله، أو أداريه.
: اهدأ يا عم.. اهدأ. كلّ المشاكل يمكن أن تحلّ إذا توقّرت النّية الطّيبة.
- الأب وأنا الذي لم أكن أطلب من الدّنيا إلاّ السّتره في الآخرة. ملعونة أنت. ملعون ذلك البطن الذي حملك. اسمع يا ابني. أنت صاحب الحقّ وكما تفصّل ألبس.
- الزوج أعتقد أنّ السّتره مصلحة الجميع. لو فاحت رائحة، أو ثارت فضيحة، لصار مقامك في هذا الحيّ مستحيلاً ولبارت تجارتك. هذه التجارة التي أنفقت عمرك، وأنت تبنيها وتتمّها لبنة لبنة.
- الأب هذا صحيح.. ولكن ما ذنبك كي تحمل هذه الغصّة طوال حياتك؟ يشهد الله أنّي أحبّتك كابن لي، وأنّي سأوافق على أيّ حلّ يناسبك. وكما قلت لك أنت صاحب الحقّ ففصّل وأنا ألبس.
- الزوج يمكنك أن تتصور أنني لم أتمّ الليل، وأنّي قلبت الأمر ظهراً وبطناً. سأسامح وسأكون سترّاً لك ولعائلتك. ولكن أعتقد أنّك لن تبخل عليّ بإكراميّة أو تعويض.

- الأب** : اطلب وإن شاء الله ستجد يدي مفتوحة.
- الزّوج** : أرجو يا عم ألا تنسب طلبي إلى الطمع. ولكنّا عائلة واحدة، وأعتقد أن السرّ الذي بيننا زاد قرابتنا عمقاً ولحمة، ولو أعطيتني جزءاً من تجارتك فكأنّك تعطي من يدك اليمنى إلى يدك الشمال.
- الأب** : هل تطلب جزءاً من تجارتي؟
- الزّوج** : التّصف أو حتّى الثّلث. إنّي أترك تقدير الأمور لك. وكما قلت نحن في النهاية عائلة واحدة، يجب أن نلتزم على بعضنا، وألاً يظهر منا إلّا الحبّ وطيب الرائحة.
- فدوى** : وطأطأ أيّ رأسه، وضرب أخماسه بأسداسه. كانت تلك التجارة هي شقاء عمره، وهي حياته. وفكر يوماً وليلة، ثمّ رضخ ودفع لزوجي تعويضاً يوزاي نصف عمر من التدبير والتوفير. وجاءني زوجي ضاحكاً.
- الزّوج** : رأيت؟ لقد تفاهمنا مع الرّجل المستقيم. كلّ شيء يمكن إصلاحه. أستطيع الآن أن أصبح ومن فوق المئذنة.. كانت عذراء.. تلك الفتاة الجميلة الكريمة الحسب والتّسب.. كانت عذراء. وفي ليلة عرسنا تدفّق دمها قبل الشّرف والفراس.
- فدوى** : وعرفت ما حدث.. وتقيأت. خلال ثلاث أيام، وأنا أتقيأ. ولكن وسط القيء، وفي المرحاض كانت فدوى تولد.. فدوى أخرى، لا يكاد يربطها بتلك التي ماتت إلّا ملامح الوجه والجسد. وحتّى هذه صارت أحلى، وصارت أكثر فتنة وإغراءً ومعرفة. (تومئ إلى نرجس كي تنصرف، تقترب بحركة لدنة، وتجلس قرب فاروق) وفدوى التي ولدت في المرحاض وسط القيء، استردّت تجارة أبيها، وحوّلت زوجها مستخدماً في متجر صغير لها، وهي الآن تبني مملكة من

الثروة والمشاريع والطموحات.

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. ما هذه الدنيا التي أتعرف عليها؟

فدوى : إنها الدنيا الحقيقية يا فاروق. الدنيا المبنية من الطين والدم والشهوات والشراهة. الدنيا الملموسة والعنيفة والقاسية. باختصار.. الدنيا الفعلية التي نحيا بها. أما تلك التي كنت تظن أنها الدنيا، فليست إلا أوهاماً ونفاقاً وتزويق كاذبة. أصغ إلي يا فاروق.. كنت فعلاً أنتظر هذا اللقاء. في فترات قصيرة قد تكون الأوهام جميلة، وأحياناً ضرورية. لكن المرء لا يستطيع أن يتغذى بالأوهام طويلاً، ولا يستطيع أن يني على الوهم إلا الحية والمرارة. لا أدري.. أعتقد أنه وضع شاذ، أن يضيق رياضي متألق مثلك حياته في مدرسة لا تقيم له وزناً. أريد أن تكون إلى جوارى. إني أحتاج إلى شخص مثلك، ويغريني كثيراً أن أثبت قدميك في دنيا حقيقية لا وهمية. ومهما بدت الدنيا الحقيقية قاسية وعنيفة، فإن لها أيضاً سحرها الخاص. إنه سحر أسود مسكر، لا تقاس به مذاقات الأوهام الفقيرة والمغثية. ولكنك لم تنه كأس العصور، ولم تأكل شيئاً.

فاروق : (يتغض ويشب واقفاً) يا فاطر السموات والأرض.. هل تريدني شرأي! إنك تجعليني أضحكة.. إنك جنية رهيبة تنصبين الشباك وتلاعبن بالعقول. لدي سؤال واحد فقط.. سؤال يتوقف عليه مصيري، وأريد جوابه حالاً.

فدوى : ليتك تسلس قيادك لي. الطفل أو الأحمق هو الذي يعلق مصيره على جواب واحد.

فاروق : قولني ماتشائين، ولكنني أريد جواباً واضحاً. هل تأتي زوجتي

إلى هذا البيت؟

(تسود فترة صمت ثم بحركة هادئة وطقوسية تتناول فدوى علبة السجائر، وتقدّم له سيجارة. يتردّد، يتناول سيجارة، والزّجفة واضحة في يده. تشعلها له ثم تعود وتسترخي على الكنبه).

فدوى : أتعلم! إنّ لديك جوهرة نادرة، وأخشى أنّك لا تستحقّها. أشعر بالحزن حين أرى رجلاً ذكياً ولا معاً يحيا ويسلك مسلك الحمقى. فتحت لك قلبي وأبواب مملكتي، وهذا لا أفعله لأيّ كان، لكن ها أنت تتصرّف كالحمقى. تنسحب إلى محاربتك اللّعينة، كي تسبح في مخاطك وأوهامك عاجزاً عن الحياة وعن المبادرة.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. علام هذا اللّف والدوران؟ سألتك هل تأتي إلى هذا البيت فأجيبني.

فدوى : (بهدوء شديد) نعم.. إنّها تأتي.. وإنّها أحبّ بناتي إلى قلبي.

فاروق : (يزداد امتقاعاً وارتعاشاً) يا فاطر السّموات والأرض.

فدوى : وهل تعلم أنّها الرّجل التّابه لماذا تأتي زوجتك إلى هذا البيت! المسكينة.. إنّها تأتي لأنّها متّبعة بحبك. إنّها تأتي، لأنّها على صغر سنّها تريد أن تكون أمّك وحبّيتك وزوجتك. إنّها تأتي لأنّها تعرف أنّ زوجها لا يعيش في زمانه. إنّها تأتي لأنّها تعتبر زوجها آنية خرفيّة ثمينة، ستحتطّم إذا خرجت إلى الدّنيا الحقيقيّة. إنّها تأتي يا أستاذ فاروق لكي تواصل الاستمتاع بالسباحة في موادك المخاطيّة، وأوهامك اللزّجة!

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض!

(يبدو وكأنه ينقصف في وسطه، يتهاك على الكنبه، ويخفي وجهه بين يديه).

فدوى : إنك مخيب يا أستاذ فاروق. وعلى كل أردت الجواب
وحصلت عليه، فامضغه على الضرس الذي يريحك.
(تخرج وتتركه وحيداً في الغرفة، بعد قليل يرفع يديه عن
وجهه. يتطلع حوله، تباغته صورته المتكررة والمتعكسة إلى ما
لأنهاية. يحملق بذهول فترة من الزمن، ثم ينهض بإعياء،
ويجر قدميه خارجاً فيما تتلاشى الإضاءة).

المشهد الخامس

(في المطبخ. فاروق يجلس وحيداً على كرسي خشبي، ويمسك يده سكين مطبخ. عيناه زائفتان ووجهه شديد الشحوب).

: وكانت الساعات تدور..

المؤلف

هبط الليل، وبدأ يمتص المدينة. وفي صدره كان يتدافع ليل أشدّ ظلمة من ليلة المدينة. حين دخل البيت أدرك أنها تعلم، فانزوى في المطبخ. احتسى زجاجة من الماء، وظلّ فمه جافاً. نزع ربطة العنق والقميص، وبدأ يمزقهما. وحين تعب يده، تناول السكين وقطع البقايا حتى صارت نسالة، غطت أرض المطبخ، ثم أشعل سيجارة، وجلس. كان متعباً وخاوياً، وكان يفتش عن الغضب فلا يجد إلا مواء خائراً وشاحباً، والآن ماذا يفعل؟ جرّ إبهام يده على التصل العريض، وتحسّس الحدّ المرفف حذراً. في ذلك اليوم حين حمل السكين إلى البيت، تأملت لها ضاحكة وقالت: «هل اشتريتها من القصاب؟» فأجاب «نعم من القصاب اشتريتها. ولا تقولي بعد اليوم، اشتريت لي سكيناً لا تقشّر خيارة». وكان يحلو له أن يجلس في المطبخ ويراقبها، وهي تفرم وتقشّر وتقطع. أصابعها الناعمة تلتفّ على المقبض الخشبي. كان يحسّ هذا الالتفاف لدناً ومثيراً. لا..

دع الصور. دع الذكريات. وتأمل عارك بعينين مفتوحتين. الليل يتقدم، واللحظات تتوتر، ثم تمضي مثقلة بالخجل. فعلام تماطل أو تتمهل؟ هذا الجرح لا يشفيه إلا الدم. دم. دم.. وجاشت معدته. حين كان طفلاً رأى دماً يسيل على فخذ أمه، فلجمه الرعب، ودخل في اللغز. فيما بعد فهم وتعلم، ولكنه لم يبرأ من الرعب. ولم يخرج أبداً من قلق اللغز. مازال الدم يروّعه، ومازال هذا اللغز يحيره. والألغاز تتكاثر. في الجامع ألغاز. وفي المدرسة ألغاز. وفي المديرية ألغاز. وفي المدينة ألغاز. وهناك. هناك في ذلك البيت تلتقي الألغاز والغوايات معاً. تلك المرايا، تلك الفتنة التي تسيل من الصوت والحركة، من الجسد والأثاث. هي الفوضى تكتسح الدنيا. فوضى مرعبة، تغرقه وتبلعه في دوامتها المظلمة. والآن.. ماذا يفعل؟ إنه وحيد وضائع. لم يعد له زمان، ولم يعد له مكان. وقواه خائرة. ليته يغفو قليلاً، أو ليته ينكب على مسألة رياضيات. حين تستغرقه مسألة رياضيات ينسى العالم ونفسه، ويشعر أنه يسبح في فضاء بلوري نقي. ولكن الرياضيات بعض وساوس الشيطان، وأخوه كان يسخر منه دائماً أو يقول: «إن الرياضيات كالشعر، لا تعلمك شيئاً عن الحياة» حقاً. ماذا يعرف هو عن الحياة؟ ماذا يعرف عن العالم الذي يديره الشيخ متولي، والسّت فدوى وعدنان القاضي، وثرثرا، ومدير المدرسة، وذلك الشاب المشروب والمبرقع، وامرأته؟ وامرأته! كن رجلاً.

: لا.. لا المكان مكاني ولا الزمان زماني. رأسي عجيب رخو من الصور والبداءات والكلمات. لو أغيب. لو أغيب.

فاروق

- (يدار مقبض الباب بارتباك، وتدخل نجاة).
- نجاة : (بصوت متعثر) دعني أفعل لك شيئاً. دعني أساعدك.
- (فاروق يعرض عنها ولا يجيب).
- نجاة : أعرف أنني لوئت كرامتك. أعرف أنني جرحتك جرحاً عميقاً، وما تفكر به عادل وسليم. (تقترب بحياء، وتقف إلى جواره. تمتد أصابعها إلى السكين) نعم.. هذا هو الحل. إنك تحمل همّاً تنوء تحته الجبال. تخلص مني ومن هذا الهم. إن حياتي الوضيعة لا تساوي شيئاً أمام هذا العذاب الذي تعانيه. ارفع هذه السكين. ارفعها يا حبيبي. استجمع قواك، واغرسها هنا في نحري. حرّمني من دمي الملوّث. حرّمني من قذاراتي. ادفن شقائك في لحمي. ابصقه هنا في قلبي. ارفع يدك يا حبيبي. (تمسك يده، وتحاول أن ترفعها) ارفعها يا حبيبي.
- فاروق : (ينتر يده منها) دعيني وحدي.
- نجاة : لا أستطيع أن أدعك تتحمل كلّ هذا الشقاء.
- فاروق : قلت لك دعيني الآن. لا أريد أن أراك. لا أريد أن أسمع صوتك. لا أريد أن أشم رائحتك. دعيني وحدي.
- نجاة : (بذل وخضوع) حاضر يا حبيبي.
- (تزحف على الأرض وتنزوي في ركن قصي).
- المؤلف : هي ابنة خالته. وأحبّها كما لم يحبّ أحداً في الدنيا. وكانت تقول إنها تحبّه كما لم تحبّ أحداً في الدنيا. ولم يكن أبوها راضياً عن هذا الحب. لكنّ إصرارها وضغط العائلة أجبراه على القبول. ويوم زفافهما، انتحى به الأب وقال له.. «إنني أسلمك جوهرة، فاعرف كيف تحافظ عليها».. كانت حقاً جوهرة حتّى تقوّض العالم، وانهار في غرابة هذا النهار. لو أنّ رأسه يصفو. لو أنّه يستطيع أن يمدّ

يده داخل جمجمته، وينظفها من الطنين والأقدار والكلمات الرديئة. ماذا يفعل؟! أيذهب إلى أخيه السّاحر؟! سيصفق ويقهقه، ويقول.. «هذه هي الدنيا الحقيقية يا ابن أبي البكر». سيقول.. «حاولت أن أعلمك السّباحة في بحر الحياة، ولكنك رفضت وتعاليت». هل يذهب إلى أمّه كما اعتاد أن يفعل منذ مات أبوه؟.. كان في العاشرة حين مات أبوه، كان مسجّجاً على السرير، شمعيّ اللون وضامراً، وكان يلهث وهو يتكلم. قال له: (تعلّم، وادخل الجامعة). وقال له: (عليك أن تصير رجلاً قبل أوانك). ولكن أمّه أعفته من هذه المهمة، ولم يصبح رجلاً قبل الأوان. بعد الدفن أمسكت البيت بحزم، وأدارت كل شيء. كانت قويّة ومدبّرة، وعرفت كيف ترتي ولديها، وتصل بهما إلى الشهادة والوظيفة. وهي التي اختارت ابنة خالتها قبل أن يلحظها، وقبل أن يحبّها. ووّد الآن لو يندسّ في حضنها. لو تفلّي رأسه من الصبيان والهموم، وتهدهده بتمتمات شجيّة لا يذكر منها كلمة. تلك أيام لن تعود، والأم ترقد مطمئنة في قبرها. إنّي وحيد مع هذا الهول، وعليك أن تواجهه وحيداً، ولكنك متعب ولا تستطيع التركيز. النوم أمنية مستحيلة. وأن تنسى أمنية مستحيلة. وأن تدير ظهرك أمنية مستحيلة. لم يعد لك مكان، ولم يعد لك زمان، وليس أمامك إلاّ هذا الفراغ المظلم. لو تستطيع أن أسفك الدّم. دمها.. دمك... كل الدماء.

(تنهض نجاة، وتأتي إليه وهي تشهق بالبكاء).

: لا.. لا أتحمّل ما تفعله بنفسك. لماذا تتردّد! ساعدني قليلاً،

نجاة

وأنا سأنقذ الحكم بنفسِي (تخطف السكين من يده. بلهجة انتصار) ها هي السكين التي اشتريتها من عند اللحام. ويدي هذه سأغرسها في قلبي الذي تلوث دمه.

(ينهض فاروق ليمسك بها، فتفلت إلى زاوية المطبخ، وهي ترفع السكين بيدها).

: هاتي السكين..

فاروق

نجاة

: لن تأخذها إلا بعد أن أصبغها بدمي. أليس هذا ما تريده؟. وما تريده عادل. أنا أقول لك إنه عادل. لقد أفسدت كل شيء. أفسدت كل ما هو جميل في حياتنا. وكانت حياتنا جميلة. ألم تكن جميلة يا فاروق؟! ولكني غبية.. ولكني حمقاء. تركتها تغويني، وتركت البريق الكاذب يخدعني، وظننت أن شيئاً من الترف يزيد بيتنا دفئاً، ويزيد سعادتنا تنوعاً وعمقاً. قبل أن نفترق.. أريدك أن تعرف يا فاروق أنني أحبك، وأن الحب هو الذي دعاني إلى التهور، والبحث عما يريحك. بدأ الأمر كما تعرفه تماماً. علمت أنها تريد مطرّزات، وأنها تدفع أسعاراً مجزية. كنت أراك مرهقاً في ترتيب معاشك كي نمضي الشهر دون عوز وديون. كنت أريد أن أساعدك، ووجدت التطريز فرصة سانحة، فانهمكت في العمل. أحياناً كنت أنهض في الليل، وأنت لا تدري، كي أتم قطعة ينبغي أن أسلمها في الصباح. لماذا أقول لك هذا كله!. في البداية كانت تريد مطرّزات، ولكن لم يمر وقت طويل حتى اكتشفت أن المطرّزات ستار. وأن.. قاومت يا فاروق أكثر مما تظن!.. وكنت أشعر دائماً أنني أنوس بين الثلج والتار. الحياة تزداد عسراً، وسعادتنا العائلية لا يمكن أن تصمد، إذا ضغط عليها

الفقر والحرمان. وكان يغتمني أن تستهلك نفسك في الدروس الخصوصية، وأن تنفق وقتك وأعصابك مع أولاد مدللين لا يستحقون تعبك. لا.. لا.. إني لا أبرر نفسي.. أردتك أن تعرف فقط أنني أحبك، وأردت أن تغفر لي إن استطعت.

(تحاول إغماد السكين في صدرها. يندفع فاروق هلعاً، ويمسكها من يديها).

: يا خبيتي! إنها لم تمس ثوبي. إني أكره نفسي. إني جبانة. أرجوك غالب نفورك من الدّم، وساعدني. أمسك يدي.. أمسك يدي وحركها. أغمدها في صدري. (توجه قبضتها التي يمسكها فاروق نحو صدرها، لكن فاروق يضغط على يدها بشدة، ويوقفها).

: اتركي السكين..

: أرجوك ساعدني (وهي تشهق بالبكاء) لا أريد أن أحياء.. لا أريد أن أحياء.

: (ينزع السكين من يدها. محتداً) هذا لعب. إنك تعرفين أنني لا أستطيع. وأنا لا أفهم لماذا تطلعين الموت.. أنت تسبحين في مائك. تكيفت مع التيار، وتعلمت كيف تزدهرين فيه. المدينة مدينتك. والبيت المتلائي بالغواية والمرايا بيتك، إن الوقت وقتك يا نجاة، ولا يلائمك أن تطلبي الموت. هناك واحد آخر.. واحد لم يعد له وقت، ولم يعد له مكان، هو الذي يجب أن يغيب.

: أنا تكيفت! لو تعرف يا فاروق كم كابدت، وكم عانيت! لو تعرف كم مرّة هجرت، وكم مرّة خاصمت! ولكن من يتورط لا يبقى له قرار. لا.. ما تكيفت. وكيف يمكن أن يتكيف المرء مع حياة ممزقة ومشروخة! إن غربتني أعظم مما

نجاة

فاروق

نجاة

فاروق

نجاة

تظنّ. واليوم حين أخبروني صعقت، وتثلّجت أطرافني. ولكن بعد قليل هدأت أنفاسي، وشعرت بالارتياح. نعم.. ارتحت، لأنني اليوم سأنتهي من تمرّقي، وعذاباتي الطويلة. سأودّع القلب، ولسعات التّدم، وأستريح. أنا التي أخطأت، وتورّطت، وأنا التي ينبغي أن تموت.

فاروق : (يمسك كفيها، وينظر في عينيها بتركيز) أحقاً تريدان أن تموتي؟

نجاة : نعم.. وفي هذه اللحظة بالذات.

فاروق : ألا تتظاهرين!

نجاة : وهل بقي مجال للتظاهر يا فاروق!

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. أين كان يختبئ هذا الشّقاء كلّهُ؟ لم يبق شيء. خراب.. خراب شامل لا يترك لنا خياراً إلا الرّحيل.. منذ عدت، وأنا أنبش غرائب هذا اليوم، وأشحد عزيمتي على الرّحيل.

نجاة : لا.. ولماذا ترحل! لا.. ليس أنت.. اقتلني كالكلبة، وتابع حياتك. والحياة أمامك فسيحة.

فاروق : لم يعد لي زمان، ولم يعد لي مكان. ما اكتشفته في المدرسة والجامع والشارع والمديرية وبيت الستّ فدوى، لم يترك لي في هذا العالم جحراً صغيراً أتطوى فيه. إنّي وحيد وضائع.

نجاة : لا.. لست وحيداً. سأكون ظلك في كلّ ما تريد.

فاروق : سقط الثّقاب عن وجه العالم، فبدا دميماً، مشروم الشفتين، يا الله ما أبشع وجهه!. غريب.. كلّ شيء غريب، ولم يبق لي إلا الرّحيل.

نجاة : أهذا قرارك يا فاروق؟

فاروق : وهل هناك خيار!

نجاة
فاروق

: إذن سنرحل معاً.
: يا فاطر السموات والأرض.. أينبغي أن تكوني معي في رحلتي الأخيرة؟

نجاة

: نعم.. سنكون معاً. وسيكون رحيلنا كالزفاف. هل تذكر تلك الليلة؟ كان كلانا عديم الخبرة، وشهق كل منا، واعتقدنا أننا نموت. نعم.. كذلك الليلة سنشهق معاً، ونموت معاً.

فاروق

: ونمضي في البياض. في فضاء من البياض. بعيداً عن رائحة الشيخ متولي، ومرونة السيد المدير، وهذه المسوخ التي تتسافد في الوحل والقمامة. بعيداً.. بعيداً. ولكنك ملوثة، وستبقى البياض. يا فاطر السموات والأرض.. كيف كنت تفعلين! نتعانق ونتمدد في السرير، وأنت تعلمين أن جسدك ملطخ بأنفاسهم، وبصاقهم، وشهواتهم.. قولي.. أكنت تستمتعين؟

نجاة
فاروق

: أرجوك لا تفسد الحلم. أستمتع! سامحك الله.
: لم تكوني حجراً.

نجاة

: بل كنت حجراً. تريد أن تعرف كيف كنت أنغلّب على القرف والاشمئزاز؟ كنت أبخلق في الشقف، وأفكر.. سأشتري لفاروق كذا وكذا، وسأشتري للبيت كذا وكذا. لا.. لقد لوّثت جسدي، ولكن عواطفِي وروحي ظلت نقيّة. وأقسم لك أنّ هذا الجسد لم يختلج مع إنسان سواك. وفي الليل حين تضمّني، كنت أشعر أن قدارتي تتبدّد، وأن خلاياي تتجدّد، وأنّني نجاة التي هي لك، ولك وحدك. سيظلّ البياض ناصعاً، فدعنا نخص.

فاروق
نجاة

: أحقاً تريدان الرحيل معي!
: نعم.. ولن أفارقك أبداً.

- فاروق : أتحبيني إلى هذا الحد!
- نجاة : وربما أكثر..
- فاروق : ما أشد وحشة هذا العالم!
- نجاة : ضمني.. ولنرحل عن وحشة هذا العالم.
- (بحركات هادئة يغلق فاروق النافذة جيداً، ويقفل باب المطبخ، ثم يقطع الأنبوب الذي يصل جرة الغاز بالبوتوغاز، ثم يمضي إلى الجرة الاحتياطية، ويفتحها هي الأخرى).
- نجاة : والآن.. تعال يا حبيبي. هذه ليلة زفافنا الثانية.
- فاروق : (وهو يتمدد إلى جوارها على أرضية المطبخ) نعم.. إنها ليلة زفافنا الثانية.
- (تتأثر العبارات، وهما يخلعان ثيابهما، ويتطارحان الحب).
- نجاة : هل رفعت الشراع؟
- فاروق : نعم.. والريح تدفعه بقوة.
- نجاة : والمجذاف.. ألن نحتاج إلى مجذاف؟!
- فاروق : والمجذاف جاهز.
- نجاة : إني أحبك.
- فاروق : كنت أخاف أن أرحل وحدي.
- نجاة : وكيف ترحل وحدك!
- فاروق : إننا نبتعد عن الخراب والوحشة والفوضى.
- نجاة : نعم.. إننا نبتعد، ندخل في البياض.
- فاروق : رأيت اليوم رجلاً كان يغطي الزبد فمه. كان يريد أن يبحر، وكان يصرخ.. أتعلمين ماذا كان يقول..؟
- نجاة : ماذا كان يقول يا حبيبي؟
- فاروق : كان يقول: الموت ولا التعريض مع دولة هذه الأيام.
- نجاة : نعم.. الموت ولا التعريض مع دولة هذه الأيام.
- فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. ما أشد وحشة هذا العالم!
- نجاة : حقاً.. ما أشد وحشة هذا العالم!

(تلاشى الإضاءة ببطء شديد).
المؤلف : كان يوماً غائماً وبارداً. كان يوماً ككّل أيام أوائل الشتاء.
وكانت الساعات تدور..

ستار.

١٩٩٣

أحلام شقيّة

✓

المكان: بيت عربي صغير يتألف من غرفتين متقابلتين تقريباً، بينهما فسحة سماوية ضيقة تتوسطها فسقية صغيرة جافة. وفي زاوية من الفسحة أقيم مطبخ طولاني ضيق، وإلى جواره حمام ومرحاض. وهناك درج يفضي إلى غرفة علوية، أمامها سطح صغير على شكل شرفة.

طبعاً يمكن الاستعاضة عن كل ذلك بمستويات، أو بأية صيغة مكانية يتخيلها المخرج ومصمم الديكور. ولكن مهما كان الحل الذي يلجأ إليه العرض، فإن من المهم الحفاظ على انطباعين يوحى بهما البيت، وهما: الانغلاق والضيق.

من المفترض أنَّ أحداث هذه المسرحية تدور في خريف عام ١٩٦٣. وهذا التحديد لا يخلو من قيمة أو مغزى.

المشهد الأول

(غرفة ماري صاحبة البيت، وزوجها فارس. وهي أعلى من أرض الدار بثلاث درجات. الغرفة واسعة، ومزدحمة بالأثاث والأشياء. في صدر الغرفة سرير له قوائم نحاسية عالية يلتف عليها دابر من قماش أبيض، ويُزاح الطرفان في المقدمة للوصول إلى السرير. في الغرفة ديوانة تستخدم هي الأخرى كسرير. وهناك خزانة وصندوق قديم وأمتعة كثيرة على ظهر الخزانة وفوق الصندوق. وفي الوسط ماكينة خياطة حولها أقمشة وقصاصات قماش.)

ماري نائمة في السرير، ولا نراها. وعلى الديوانة ينام فارس متقوقعاً على نفسه.

ليلة خريفية باردة. والنواصة الصفراء تلقي في الغرفة ضوءاً واهناً وبارداً.)

فارس

: ماري.. ماري.. إني بردان. (يرفع رأسه المغطى بقبعة صوفية، ويلتفت نحو السرير) ماري.. ردي علي. لن تخذعيني. أعرف أنك لم تنامي بعد.. بكر البرد هذا العام. إني أرتعش. لا أستطيع النوم إذا لم تدفأ عظامي. هذه الليلة باردة جداً. (يزيح الغطاء، وينهض من الفراش. يصلك أسنانه بعضها ببعض) هل تسمعين.. سينكسر فكي. ماري.. لماذا لاتردّين؟ لعلي مريض. هذه رعدة مرض. (يقترّب من سريرها).

- ماري : عد إلى فراشك.
- فارس : سأفطس من البرد. انظري.. إني أرتعش.
- ماري : عد إلى فراشك.
- فارس : لا أريد شيئاً.. سأندفأ قليلاً ثم أعود إلى فراشي.
- ماري : أف.. إنك تمنعني من النوم.. أنزل بطانية أخرى عن ظهر الخزانة.
- فارس : البرد في عظامي يا ماري. والأغطية تثقل عليّ دون فائدة.
- ماري : لن تدخل سريري. عد إلى فراشك، ودعني أتم.
- فارس : ماما الحلوة.. أنا بلدان.. حطّيني بحضنك.. ماما لذي عليّ (يقلّد صوت طفل يبكي) أنا بلدان.. أنا بلدان.
- ماري : عد إلى فراشك.
- فارس : (مواصلًا لعبته) ماما زلعانة متي! ليش زعانة.. ماما أنا خايف.. فيه عفريت. ماما خبّيني بحضنك.
- ماري : يا الله ما أثقل دمك! عد إلى فراشك.
- فارس : هل صار دمي ثقیلاً؟ كنت تضحكين حين الألعابك، وأقلّد لك الأطفال الصغار.
- ماري : (بعنف) كنت أضحك من القهر، ومن الشفقة أيضاً.
- فارس : ما الذي يضايقك!. إنك تزدادين قسوة يا ماري. ونحن واحدنا للآخر. ليس لي أحد سواك، وليس لك أحد سواي.
- ماري : (تنهض من فراشها منتفضة) ومن قال.. ليس لي أحد سواك!
- فارس : (يحاول أن يجلس على طرف السرير) ماري.. وسّعي لي قليلاً.
- ماري : (صائحة) انهض.. كم مرّة قلت لك. لا أريد أن تلمس فراشي.
- فارس : (ينهض خائفاً) لا يحقّ لك أن تعامليني بهذه القسوة. من لك سواي؟

- ماري : ألا تعلم من لي سواك؟ لي ابن.
- فارس : أتجعليني أجنّ.. من أين تخترعين لنا أبناء؟
- ماري : هس.. إنه في الغرفة العلوية. ألا تسمع وقع خطواته؟. عد إلى فراشك، وإلا ناديته وقلت له.. إنه يعذب أمك يا بشير.
- فارس : لاشك أن هذا الداهية خطف عقلك. أعرف.. منذ سكن هذا الغريب الذي لانعرف من أين أتى، ولا ماذا يعمل، تغيرت أحوالك، وقويت عينك علي.. ومن هو حتى تعامله معاملة الابن؟
- ماري : إنه ابني الذي عاد إلى أمه بعد سنين طويلة من الغياب.
- فارس : أهذا كلام! أتصدّقين نفسك حقاً؟ هذا وهم يتلاعب بك.
- ماري : إياك أن تسمي ابني وهماً. أعرف لماذا تتحامل عليه.. ألم يكشف فساد روحك؟ ألم يقل لك.. لاتعذب أمتي؟
- فارس : ماري.. هذا جنون. نحن في عمر نحتاج فيه إلى التعاطف.
- ماري : (مهتاجة) وهل تعرف التعاطف أنت؟ متى كنت متعاطفاً؟
- كان عمره ستة أشهر حين ولدته.. وماذا فعلت آنذاك؟ أتذكر؟ جمعت لعابك الثّن في فمك، ثم بصقت على الأرض وكأنك تهيل عليه التراب. لم تنظر إليه، ولم تبالي بالأمر. كأنك رأيت جيفة في الطريق، وكأنه لم ينزل من صلبك الهالك.
- فارس : لايحق لك أن تفتحي هذه السيرة الآن.
- ماري : نعم.. ينبغي أن نفتح هذه السيرة. دائماً تريد أن تطوي كل شيء، لكي لاتكدر عيشك. ثلاثون سنة من النسيان. أنت تطوي وتلهو، وأنا أتقرم في الشقاء، وفي ترتيب الحياة حولك كي تلهو بلا منغصات.
- فارس : هذه قسوة فظيعة. كيف يخطر لك أن تفتحي دفاتر العمر في هذه الليلة الباردة؟ ما الذي غيرك يا ماري؟ كنت دائماً

ودبعة كاليمامة راضية كالمغموسة بالنعمة. لم تكوني
تتذمرين، أو تناكدين. لا أعرف ماذا فعل بك هذا الداهية!
منذ استأجر هذه الغرفة، وأنت تتحولين.

ماري : طبعاً لا يعجبك أن يظهر ابني بعد هذا الغياب الطويل. وأن
يقف إلى جانبي في الشقاء الذي سببته لأُمه. في البداية..
حين لم تكن تعرف إلى جانب مَنْ سيقف، كنت تحبه،
وكنت لا تمل من التغني بمزاياه. في البداية.. حين كان
يزودك كل صباح ببعض السجائر، ويلاعبك بالزهر مسيراً
قلّة همتك وكسلك. ألم تكن تحبه؟ قل.. ألم تكن تمدحه
على الطالعة والنازلة؟

فارس : (مرتبكاً) أعترف أنني أحببته في البداية.

ماري : وما الذي بدّل المحبة نفوراً؟!

فارس : انظري.. لقد قلب حياتنا. ألم يقلب حياتنا يا ماري؟ إنه
يخيّم علينا، ويذر النكد بيننا. لم أعد أشعر بالارتياح في هذا
البيت، ولا حتى في القهوة. أحسّه كالظّل ورائي كيفما
تحوّكت. وهو لا يتعب من لومي. دائماً يلومني. وفي النهاية..
من هو.. إنه غريب يستأجر لدينا غرفة.

ماري : لا تقل إنه غريب. ولو كان غريباً، لما باليت إن لامك.
طبعاً.. أنت تكرهه، وتخاف منه، لأنه جاء كي يرتّب ما
تبقي من حياة أُمه، ويخفّف قليلاً من الشقاء الذي قاست
منه. الشقاء الذي تجرّعته ثلاثين سنة وهي صامته وراضية.
أعرف ماذا قال لي اليوم؟ قال لي.. حين تصعدين إلى
السّماء يا أُمّي، ستجدين الملائكة حائرة، تتساءل كيف
نعوض هذه المرأة عن الشقاء الذي تكبّده. وأيّ فرح يمكن
أن يغسل روحها من العذابات التي تحمّلتها؟ أه يا أُمّي..

سترف الملائكة حولك كطيور من نور ولطف، وستغني بأعذب الأصوات كي تواسيك، وتملأ قلبك بالفرح. وأنا الآن.. أعيش في كنف ابني الذي عاد، منتظرة تلك الرحلة المهففة بالطهارة. كل ليلة أتطهر، وأطهر فراشي، وأنتظر. وماذا تعرف أنت عن الفرحة الذي أنتظره؟! ستكون شهقة لطيفة، ثم أسمع رنين أجراس فضية يموج حولي كالأنسام اللدنية، ثم أرحل عنك وعن هذه الدنيا المتعقنة.

: لن تفعلني.. لا يمكن أن ترحلي، وتركيني وحيداً. أنا بردان، وليس لي أحد سواك.

فارس

: وهل فعلت شيئاً حتى يكون لك أحد؟ حتى الولد رفضته، وكففته بالبصاق.

ماري

: ألا تعبين من لومي؟! أنا أيضاً كان لي نصيبي من هذا الشقاء.

فارس

: أأنت تتحدث عن الشقاء! تذكر كيف مضت حياتنا. بحق الله.. دعي الماضي يا ماري. إني بردان.. ولعلي لن أبقى حياً حتى الصباح.

ماري

فارس

: أعرف هذه النعمة. كلما أردت شيئاً، تلوح لي بالموت الوشيك.

ماري

: لا أريد إلا أن تدعي الماضي، وتوفي لي حقي. لي عليك الطاعة يا ماري.

فارس

: أنفقت حياتي في طاعتك، وماذا جنيت؟! العقم، وتبديد العمر. هل تذكر ماذا أهديتني في عرسي؟ كانت ماري عمياء لا تعرف شيئاً عن الرجال، وأهداها عريسها في ليلة زفافها داءً لوث طهرها، وهدم صحتها. هل تذكر دفعات التار في جوفي.. وكنت ترد عليّ بمجون ساخر.. إن لذة الرجال موجهة يا ماري. كنت أتعفن، ولا أفهم لماذا!

ماري

وكانت أوجاعي تزداد، ولا أجرؤ على الاستفسار أو الشكوى. كنت دائماً مطيعة، ولم أجن من الطاعة إلا العقم والتشم والبلوى.

: لا يا ماري.. ما حدثتني مرّة بهذه القسوة. أنا أيضاً كنت جاهلاً، ولم أكن أعرف الكثير عن النساء.

فارس

: تلك الأيام.. كم تباهيت، وعاندت!

ماري

: كل الرجال يحبون التباهي قليلاً. كنت مسكيناً ووحيداً

فارس

مثلك يا ماري. ولم أعاند إلا لأخفي هذه الحقيقة. يا الله..

ماذا دهاك؟ مرّت سنوات لم تفتحي فيها هذه السيرة.

والليلة فجأة يخطر لك أن تنبشي كل الأمانا.. هل حرّضك

هذا الغريب عليّ؟ قولي يا ماري.. هل كشفت أسرارنا،

وتفاصيلنا أمام هذا الغريب؟

: من حقّ ابني أن يعرف ما قاسته أمّه.

ماري

: (يخفي وجهه بكفّه، ويتراجع لينهار على الديوانة) لا.. لا..

فارس

يا عيب الشوم. هذه كبيرة يا ماري. فضحتني أمام غريب.

أين أختي وجهي؟! (يبدأ بالانتحاب) إنك تكرهيني يا

ماري. ليتني متّ قبل أن أرى ماري اللطيفة والرحيمة تتحوّل

إلى مخلوق غاضب وأناثي. يا ربّ.. أبتهل إليك أن تخلص

روحي الليلة. أنا مقطوع من شجرة، والمرأة التي هي سندي

فضحتني، وتنكرت لي. إني وحيد وبردان. عظامي تتفكك،

وأحشائي ترتجف. وأنا وحيد لا يحنو عليّ أحد. يا ربّ.. لم

أكن أطلب إلا سترّة الآخرة فأني عقاب تنزله بي؟!!

: (خائفة) بحق الله اسكت.. إنك تجعلني أبكي. (تنهض من

ماري

فراشها، وتقرب من الديوانة، تجبر فارس على التمدّد، وتدثّره

بالأغطية) لا أعرف صدقك من هزلك.. ولكن لا أحتمل أن

تبكي.

- فارس : نعم.. هذه هي ماري التي أعرفها. هاتي يدك كي أقبّلها. أنا أعلم أنّ قلبك ناصع كالثلج، لكن هذا الغريب دخل بيتنا كالجنيّ..
- ماري : اهدأ، ونم. هل تريد أن أضع لك بطانية أخرى؟
- فارس : أترين.. ما أصفانا حين نكون وحدنا! ماكان يجوز أن تنشري سرّنا أمام غريب.
- ماري : (بغف) قلت لك هذا الغريب ابني. منذ سنوات طويلة. وأنا أترقب عودته.
- فارس : باسم الصليب.. هل أنت ممسوسة يا ماري؟! لاشكّ أنّه سحرّك، أو عمل لك عملاً.. لا.. لن أسمع لغريب أن يخرب حياتنا، ويهتك آخرتنا. غداً سأطلب منه أن يحزم حقيته، ويرحل.
- ماري : وبأيّ حقّ تطلب منه أن يرحل؟ هو في بيته.. هو في بيتي.. ألم يكن أبي هو الذي اشترى لي هذا البيت؟! ألم يكن هو الذي اشترى لي ماكينة الخياطة التي تأكل منها؟! ألم أشر بتبعي وكذّي كلّ ما لدينا! وأنت! ماذا كنت تفعل؟ كنت تلهو بين البيت والمقهى.
- فارس : قولي إنّي رمة. قولي إنّي علقه.
- ماري : لا أريد أن أقول شيئاً. نم، ودعني أسترخ.
- فارس : ألا تلاحظين.. ماكنت امرأةً تمثّن.. هذا الشاب سمّم روحك يا ماري. لا.. لن أتركه يسمّم روحك النقيّة. ينبغي أن يرحل. ولا تنسي أنّ في البيت عائلة أخرى، وهناك أمور تحدث.
- ماري : اسكت ولا تزد كلمة.
- فارس : أتريدين أن يغدو بيتنا وكرّاً للمشاكل؟ أنتحمّل في عمرنا هذا سوء السّمتة والفضيحة؟ وليتنا نعلم من هو.. افتحي عينيك

جيداً يا ماري. ماذا نعرف عنه؟. يقول إنه طالب. هل رأيت طالباً لا يغادر غرفته إلا في الليل! لماذا لا يحمل كتاباً، ويذهب إلى الجامعة كالطلاب الذين عرفناهم من قبل؟ افرضي أنه متورط في السياسة.

ماري : اسكت.. اسكت.. أمنعك أن تثير الشكوك والأقاويل حول ابني.

فارس : لا تجعليني أجنّ. من أيّ أب أنجبت هذا.. الابن؟

ماري : من أب يعيش في صلبه المرض، وتأكل الغيرة قلبه. حين وُلد لم تبالي به، وحين كبر ونضج أصبحت تغار منه، وتخافه.

فارس : استيقظي يا امرأة.. إمّا أن يرحل، وإمّا أن نجنّ جميعاً.

ماري : اسمع يا رجل.. إذا لم تعجبك عودة ابني، فارحل.

فارس : ماري.. أطلبين منّي الرّحيل.. أتخلّين عنيّ من أجل صعلوك لا نعرف أصله أو فصله.

ماري : ما قلته واضح. ولا أريد أن أسمع كلمة أخرى. هذا بيتي،

وابني عاد لي، وأنا أريد الآن أن أصفو وأستريح.

فارس : أنت لاتعرفين زوجك إذن. إذا صمّم فارس..

(تطفئ ماري النّواسة، وتندسّ في فراشها).

فارس : ماذا فعلت؟ إني أكره الظلام. إني بردان، وأكره الظلام. هذه

الليلة رهيبة يا ماري. أقسم لك أنّها رهيبة.

ماري : (بصوت خافت وخاشع) أبانا الذي في السموات.. ليتقدّس

اسمك... ليأت ملكوتك.. لتكون مشيئتك كما في السّماء،

كذلك على الأرض..

(تلاشي الإضاءة).

المشهد الثاني

(غرفة في بيت ماري يسكنها مساعد في الجيش اسمه كاظم وزوجته غادة، وابنهما ذو السنوات الثلاث أو الأربع واسمه ثائر. كاظم يرتدي بيجامته، ويجلس على بساط مفروش على الأرض، وأمامه طبق من القش عليه صحن مازة وفروج مشوي وكأس عرق. غادة تجلس في زاوية وفي حضنها دفتر رسائل تكتب فيه.. الولد نائم.)

: أين البصل؟ الا يمكن أن تضعي المازة إلا ناقصة! يوماً لا أجد الزيتون، ويوماً لا أجد المحلل. إنك تحضرين مازتي، وكأنها عقوبة.

كاظم

: هل نسيت البصل؟

غادة

: إي نعم يا ست.. نسيت البصل.. يا الله.. فزّي، وهاتي بصل.

كاظم

(تضع غادة الدفتر جانباً، وتنهض بهدوء. تخرج من الغرفة لتأتي بالبصل).

: (يرشف من كأسه، ويدندن مع الأغنية) سائليني يا شام.. (ينهض ويتفحص ابنه، فيجده نائماً. يناديه بصوت خافت) ثائر.. ثائر.. إنه يحب الفروج. لو أطعمته قبل أن ينام.. سأحبي له الفخذ. إنه كأبيه يحب الأنخاذ. (تدخل غادة حاملة صحناً فيه شرائح من البصل) ألم تلاحظي أن ثائر

كاظم

كأبيه، يحبّ الأفخاذ.. اقطعي له فخذاً كي يأكله في الصباح.

غادة

: عندما تنتهي.

: لا.. اقطعيه الآن.

كاظم

: طيّب.. طيّب. اتركه في الصحن.

غادة

: حين أطلب شيئاً، نفّذي ولا تعاندي.

كاظم

(تتاول صحناً فارغاً، وتقطع فخذاً من الفروج المكثف، وتضعه في الصحن).

: أنت أيضاً يمكنك أن تأكلي قطعة من الفروج.

كاظم

: شكراً.. تعشّيت مع نائز.

غادة

: اليوم مزاجي رائق يا غادة، ولا أريد أيّ تعكير. (يمدّ لها الكأس) خذي رشفة.

كاظم

: تعرف أنّي لا أحبّ طعمه.

غادة

: خذي رشفة صغيرة.

كاظم

(تتاول الكاس، تضعه على شفتيها، ويبدو النفور على ملامحها).

: اشربي، ولا تخافي. هذا يقوي الدّم، ويجلو الرّوح. (تعود إلى

كاظم

ركنها، وتتاول الدفتر) ألم تنتهي من الكتابة لأخيك؟ اكتبي

له أنّ صهرك يقرئك السلام، ويشرب على البعد كاسك.

ولاتنسي أن تخبريه أنّ الثّورة تقوّي مركزها بعد أن دحرز

الانفصاليين والوحدويين الخونة من جماعة طاووس مصر.

إي.. إي.. قللي له هذه المرة لن تنقش مع عبد التّاصر. هو

يعني أكلك منين يا بطّة، ونحن نجّيه.. «يا كركدن لا

تحسبن تاتقبضن.» نعم اكتبي له هذا كلّه على لساني. وقولي

له لا نحتاج إلى علم الأجنب. وعليه أن يعود لكي يخدم

الثّورة. لماذا لانكتبين؟

- غادة : لن أكتب له ذلك.
- كاظم : هاتِ الدفتر. سأكتب له يدي.
- غادة : إني أحبّ عبد الناصر.
- كاظم : ماذا قلتِ؟ هل جنت؟
- غادة : إني أحبّ عبد الناصر.
- كاظم : ومتى كان هذا الحبّ المفاجئ! هذه أول مرّة أسمع هذه القصة. أتبحثين عن الشر!. قولي.. أتبحثين عن الشر!
- غادة : إني أحبّ عبد الناصر.
- كاظم : قلت لك الليلة مزاجي رائق، فلماذا تريدين استفزازي؟
- غادة : إني أحبّ عبد الناصر.
- كاظم : (وهو يهتّ غاضباً) إي سألن أجدادك على أجداد عبد الناصر. سأكسر رأسك، وأعجنك بدمك. (يمسكها من شعرها) أتتحدين مبادئي؟! أتريدين خراب بيتي! خذي إذن..
- (يشرع في ضربها. تستسلم غادة ولا تحاول المقاومة).
- غادة : اضرب..
- كاظم : لم يعرف عمّي كيف يريتك، أمّا أنا فأعرف.
- غادة : اضرب..
- كاظم : والله سأشفيك من هذا العناد. (يزداد في الضرب والزّكل) يا بنت الصّرماية.. علّام ترفعين أنفك في وجهي.. لأنّ شهادة الكفاءة تعثّرت بك! أم لأنّ أخاك المحروس ملأ رأسك بالتحلّل والفساد! أنت هنا.. أنت مع كاظم الذي لا يحبّ أن يسمع إلّا كلمة حاضر.
- (يستيقظ الولد مفزوعاً، وهو يصرخ باكياً).
- ثائر : ماما.. ماما.
- كاظم : نعم أنت الآن.

- ثائر : اترك ماما.. اترك ماما..
- كاظم : (للطفل) اسكت، ونم. يلعنك، ويلعن أمك معك. العمى..
- ألا تكفي هذه السنوات لترويضك؟ والله سأدفنك حيّة، إن لم تبدّلي هذه الطّباع اللثيمة. لقد زوّجني عمّي آفة لا امرأة. (تذهب عادة، وتأخذ الولد من السرير. تضمّه بحنان، وهي تبكي).
- ثائر : وجّعك.. وجّعك ماما..
- غادة : لا تخف يا حبيبي.. لا تخف..
- كاظم : طار الكأس، وطار الزّواق. العمى.. ما هذه المصيبة؟ (صارخاً) هنا أنا الله. في هذا البيت أنا ربّك الذي تعبدون. ليس لك كلمة، ليس لك قول. ألم تفهمي بعد؟ ما أريد هو الطّاعة.. (يصب كأساً ويكرعه دفعة واحدة).
- ثائر : ماما.. خائف.
- غادة : لا.. لا تخف يا حبيبي.
- ثائر : ماما.. دم.. دم.
- غادة : (تمسح فمها، وتلاحظ الدم على كفّها) لاشيء.. لاشيء..
- الآن أغسل وجهي، ويروح الدم. نعم أنت الآن.
- كاظم : (تضع الطفل في فراشه، تصلح هبتها قليلاً، وتغسل وجهها). أينبغي أن تدفعيني دائماً إلى ضربك؟! كنت الليلة رائقاً. كنت أنوي أن تكون سهرتنا لطيفة. ما الذي يركب رأسك فجأة؟
- غادة : كان خطأً.
- كاظم : أتعرفين أنّك أخطأت..
- غادة : كان كلّ شيء خطأ منذ البداية.
- كاظم : اسمعي يا بنت الحلال.. أعترف أنّ مزاجي فائر، ولكن قلبي أبيض. أما أنّ لك أن تتعلّمي كيف تداريني؟ تأخذين عيوني

- إذا عرفت كيف تدارينني. وفي النهاية أنت ابنة عمي. إنك
من لحمي ودمي، ويعذبني ضميري كلما قسوت عليك.
- غادة : كان كل شيء خطأ منذ البداية يا ابن عمي.
كاظم : لا تحملي علي. ألا تعرفيني؟ إنني سريع الغضب، سريع الرضا
ياغادة. ألم تتعمدي أن تفوّري دمي! مالك وعبد الناصر..
هل صرت تشتغلين بالسياسة؟ تعالي واجلسي قربي.
- غادة : سأنهاي رسالة أخي.
كاظم : طيب سأدعك حتى تروقي.
- (يكرع كاظم كأسه، ويفسخ بيدين نهمتين الفروج، ويبدأ
بالتهامه فيما تحاول غادة أن تتمّ الرسالة).
- كاظم : (يحمل قطعة من الدجاج، ويقرب منها) افتحي فمك.
غادة : لا أريد.
كاظم : افتحي فمك.. هذه لقمة للمصالحة.
غادة : لا أريد.
كاظم : (بغضب) لا تكوني سوداء القلب. خذوها من يدي. (تفتح
غادة فمها باستسلام، فيدسّ لها قطعة اللحم) ولو.. اعتبرها
مخالعة. صحّة.. هل أعتبر أننا تصافينا؟
(تنهض غادة، وتتجّه نحو الباب).
- كاظم : إلى أين؟
غادة : (وفمها محشو بالطعام) إلى بيت الخلاء.
كاظم : طيب.. لاتنسي أن تسلمي على رئيس البرلمان.
(تخرج غادة فيما يقهقه كاظم على طرفته، ويعود إلى التهام
طعامه بشراهة).
- المذيع : (مع خلفية موسيقى ناعمة) الليل والشعر. (يعلو صوت
الموسيقى، تستمر لحظات ثم تخفت تدريجياً)
عيناك غابتا نخيل ساعة السحر..

(يغير كاظم مؤثر المذياع حتّى يستقرّ على أغنية خفيفة. تعود
غادة)

كاظم : بحياة أخيك.. تعالي إلى قربي. أنا مصرّ أن تكون هذه الليلة
رائقة.

غادة : ماذا تريد؟

كاظم : إنّ اللبّية بالإشارة تفهم.

غادة : حاضر.

(وتبدأ بخلع ملابسها)

كاظم : (وهو ينظر إليها بشبق) أترين.. ما أسهل أن تكون حياتنا
كلّها وفاقاً وهناء! يا الله.. سأغسل فمي، وأوافيك (يخرج
من الغرفة).

غادة : كان كل شيء خطأ. (يجفل الولد في نومه، ويشهق، تهرع
غادة) اسم النبي عليك.. حوّطتك بالله.. نم يا حبيبي نم.. نم
يا حبيبي.

كاظم : (وهو يدخل هامساً) هل استيقظ؟

غادة : لا..

كاظم : (وهو يفرك يديه) عظيم.. عظيم.

(يطفىّ النور في الغرفة).

المشهد الثالث

(في غرفة ماري. ماري تجلس وراء ماكينة الخياطة وفارس يترنّع على الديوان ويدثر ساقيه بالأغطية. يتناول من سترته القرية عقب سيكارة طويلاً. يسوّيه بإصبعه ثمّ يشعله).

: ما القصة! رأيته اليوم يخرج مبكراً.

فارس

: مَنْ؟

ماري

: المستأجر.

فارس

(تتوقف ماري عن الخياطة. تلتفت إليه، وترشفه بنظرة مركزة وقاسية).

: فعلاً.. لم أره مرّة يخرج مبكراً.

فارس

: يقبر عظامي.. من أجل راحة أمه، يبدّل عاداته ويكرّر في الخروج.

ماري

: ماري طلع النّهار.

فارس

: نعم.. طلع النّهار. أنا أكسر ظهري أمام هذه الماكينة، وأنت تقضي اليوم في الجلوس والخمخة.

ماري

: أعني أنّ النّهار يبدّد أوهام الليل وخرافاته.

فارس

: (غاضبة) ماذا تقصد بالأوهام والخرافات؟

ماري

: أقصد تلك الحكاية التي نعتصت ليلتنا. ماري.. أفيقي.. ليس لنا ولد.

فارس

: أتريد أن أخاصمك، وألاً أبادلك الكلام حتّى الممات؟ إنّه

ماري

- ابني.. هل تعرف لماذا بكر في الخروج؟
- فارس : يا دين المسيح.. أخبريني لماذا بكر في الخروج؟
- ماري : أضاف الله من عمري على عمره.. خرج ابني مبكراً كي يرتب سفري. بكى حين فاتحته بالأمر، ولكن حين ألححت، وقلت له.. ليس لدي من أعتمد عليه، قَبِلَ وهو يشهق بدموعه. سيختار لي تابوتاً زاهياً، وسيوصي الرِّخَامَ على رخامة تغطّي بجمالها شقاء هذه الدنيا.
- فارس : (يقفز كالملدوغ) ماذا تقولين؟ فضّلت أن تكلفي هذا الغريب بدلاً منّي!
- ماري : اسكت، ولاتدعني أخرج ما في بطني. كم مرّة كذبت، وكم مرّة أنفقت ثمن التابوت!
- فارس : أعترف أنّي أخطأت، ولكن هذه آخرتنا ويجب أن نرتبها معاً. عشنا معاً طوال هذا العمر، ولن نفرق عند حافة القبر.
- ماري : لا يا فارس.. يكفي هذا العمر. سيكون ظلماً لا يرضاه الرب إذا تبعثني إلى الآخرة.
- فارس : (متباكياً) وأنا! هل ترميني كالأيتام؟ ألن يكون لي تابوت؟ ألن تكون لي رخامة؟
- ماري : أنفقت ثمن الرخامة مرتين.
- فارس : لا أفهم.. هل تنتقمين منّي؟!
- ماري : انقضى العمر، وفات الأوان. ذات يوم.. لو ملكت الجرة.
- فارس : لكن لا.. دَع مافي النفس راقداً في التّقس.
- فارس : (مازال يتباكى) أنا يتيم.. حقاً إنّي يتيم.. ستحملين وزري عند الرب. لن أبادلك الكلام بعد اليوم. نعم.. سأحرد، وسنقضي بقيّة العمر كالغرباء.
- ماري : ليكن.. إنّ الله بصير، وهو يعرف من حمل الأوزار فعلاً. (يدخل ثائر).

- ثائر : صباح الخير..
 ماري : صباحك الخير والبركة.. تعال حبيبي.. ماذا تحمل؟
 ثائر : هذا طرزان..
 ماري : أهذا طرزان الشجاع؟
 ثائر : نعم.. بيد واحدة يهدّ البناية.
 ماري : يهدّ البناية كلّها! من اشتراه لك؟
 ثائر : بابا..عندي سر.. (يخفض صوته) أنا لا أحبّ بابا.
 فارس : عيب يا ولد.. يجب أن تحب بابا.
 ثائر : لأحب بابا، ولا أحب عمّو فارس.
 ماري : (ضاحكة) والله ماقصّرت.. ولماذا لا تحب بابا؟
 ثائر : لأنه يضرب ماما. (يمدّ يده إلى ذراع الماكينة) هل أدوّرها؟
 ماري : لا.. لا.. أبعد يدك.. واو...
 فارس : سأخرج. هل تريدن شيئاً من السوق؟
 ثائر : شكولاته..
 فارس : اسكت أنت..
 ماري : لا تصرخ في الصبي. لا أحتاج شيئاً.
 فارس : طيّب.. (يتجه نحو البابا، يتردّد لحظات، يعود متصاغراً)
 ماري : لا أستطيع الخروج وأنت زعلانة.
 ماري : لا تشغل بالك. لست زعلانة.
 فارس : هل أجد معك ليرة؟ لن أصرفها، سأضعها في جيبي للأمان.
 ماري : ألم تحرد! ألم تزعلني!
 فارس : كيف أحرد! ومن لي في الدّنيا سواك! أنت زوجتي، وأمي، وأبي.
 ماري : وابني!
 فارس : ليكن..هو ابنك.. هو ابننا إذا شئت.
 ماري : (تمدّ يدها إلى صدرها، وتخرج قطعة نقود) خذ.. هذه نصف ليرة.

- فارسي : اجعلها ليرة يا ماري.
- ماري : لافرق بين الليرة ونصف الليرة ما دمت لن تصرفها.
- فارسي : (متذلاً) اجعلها ليرة يا ماري.
- ماري : (تمدّ يدها إلى صدرها بغضب، وتخرج قطعة نقدية أخرى) أنا أكسر ظهري وراء هذه الماكينة، وأنت تكشّ الذباب وتقول هاتي. خذ.
- فارسي : كتر خيرك.
- (يتناول القطعة بلهفة، يدهسها في جيئه، وينفتل خارجاً من الباب).
- ثائر : خالة ماري.. يا حرام.. طرزان، بردان. ما عنده ثياب.
- ماري : ماعنده ثياب! فهمت عليك. تريد أن أخيط له لباساً.
- ثائر : أي خالة ماري.. أريد تنورة.
- ماري : تنورة لطرزان! لا.. سأخيط له بذلة عسكرية مثل بابا.
- ثائر : لا.. لا أريده مثل بابا.
- (تدخل غادة).
- غادة : هل جئت تعذب الخالة ماري؟! :
- ماري : هو يعدّبنني؟ إنه يسليني، ويهيج نهاري.
- ثائر : خالة ماري.. خيطني تنورة لطرزان.
- ماري : تكرم عيونك.. سنعمل تنورة لطرزان.
- غادة : ألا يكفي الخالة ماري ما لديها من شغل.. بماذا أساعدك؟
- ماري : هل تفرشين لي هذا الكم، ينبغي أن أنهي فستان نوار اليوم.
- (تخرج المقص، وتناولها لها ثم تناول قصاصات من القماش، وتعطيها لثائر) خذ العب بها الآن.
- غادة : أي حبيبي.. اخرج إلى الدار.. والعب هناك.
- ثائر : والتنورة!
- غادة : سأحملها لك معي.
- (يخرج ثائر).

- غادة : رأيتك تصعدين في الليل إلى غرفته.
- ماري : هل سمعت صراخه؟
- غادة : نهضت من الفراش مذعورة، ووقفت خلف النافذة أنصت.
- ماري : يا حبة عيني. لاشك أنه عانى كثيراً في غرفته. قلت له أن يفتح صدره، ولكنه تهرب، ولم يشأ أن يثقل على أمه.
- غادة : هذه ثاني مرة أسمعه يصرخ في الليل.
- ماري : إنها كوايس عابرة. وعندما يصحو يتسم، ويطيّب خاطري.
- قولي لي.. هل تحبّه؟
- غادة : آه يا خالة.. ماذا أقول! كنت أسأل أخي دائماً.. ما هي علامات الحب؟ وكان يجيني.. تكون الأيام رتيبة والزوج راكدة، فإذا أحب المرء يشعر أن الأيام لا تشابه وأن الدنيا تتجدّد وتزدهر، وأن حواسه تستفيق على مذاقات عجيبة.. كل شيء يغدو بهجة ولهفة. لا أذكر كل ما قاله، ولكن أعرف اليوم أن لكل كلمة قالها معنى حقيقياً، وأن عباراته وحدها هي التي تصف ما أشعر به، وما يجيش في داخلي.
- نعم.. منذ التقينا وأنا أشعر أنني أعيش في دنيا جديدة.
- ماري : لماذا لم تنتظريه إذن؟
- غادة : وهل كنت أعلم!. سامح الله أخي. تخلّى عني، وتركني أواجه هذا كله وحدي. كان أخي صديقي وحببي والنافذة التي أرى منها الضوء. آه يا خاله ماري. كنّا لانتعب من الحديث وكنّا لانتعب من السهر. ورغم أنني أصغر منه، ولا أعرف شيئاً بالقياس إليه، إلا أنه كان يعاملني كرفيقة له يحكي لي عن أحلامه وقراءاته. لم يكن يشبع من القراءة، وأسعد لحظاته تلك التي يحمل فيها كتاباً جديداً، ويغوص في صفحاته. كان يختار لي الكتب. كان يشاركني خبرته في الحياة. وكنّا نحلم أن نتابع الدراسة معاً. حزت الكفاءة،

وحاز البكالوريا في سنة واحدة. وكان متفوقاً كعادته وغاب عني ذلك الصيف في ترتيب منحته وسفره إلى الخارج. قرر الوالد أن أكتفي بالشهادة المتوسطة. ولم يذل أخي مجهوداً فعلياً كي يعود أبي عن قراره. قال لي.. أنت تعرفين أبي وقسوته. لا أريد الآن أن أفسد سفري بالمشاكل. ابق في البيت، حاولي أن تواصلتي الدراسة وسأكتب له من الخارج، وأحاول إقناعه. نعم.. تخلى عني أخي، وسافر. وكان أبي قد أعطى كلمة لأخيه. وكنت أشعر بالموت بعد سفر أخي. لم أعرف كيف أقاوم، ولم تكن المقاومة ممكنة. وتزوجت ابن عمي كاظم، الذي أنفق ثلاث سنوات حتى حاز الابتدائية. كان تقصيره موضع فكاھتنا وسخریتنا، ولكنه بعد الزواج عرف كيف ينتقم من الفكاهة والسخرية. لا أخبر أهلي شيئاً عما أعانيه. كنت أجد عزائي في الرسائل الطويلة التي أرسلها إلي أخي. ولكن أخي سرقة الحياة هناك، وصار يزداد بُعداً يوماً بعد يوم. أه يا خالة ماري.. كم مرة قررت أن أقتل نفسي! ولم يكن يرُدني إلا هذه الزهرة التي أنجبتها. كنت جثة.. كنت أعتقد أن الحياة لن تكون إلا تكراراً سقيماً للبلادة والعذاب وخواء الروح. وفجأة.. تبدل كل شيء. أزهرت الدنيا، وتجددت. توهجت الحواس، ولم تعد الأيام متشابهة.. ولو كنت أعلم، لواجهت العالم كله وانتظرت.. لكن كما ترين.. لم تأت الأشياء في أوانها.

ماري : حقاً.. لا تأتي الأشياء في أوانها. كان ينبغي أن أنتظر ستة وعشرين عاماً. ومع هذا.. ينبغي ألا ندعهم يخطفون هذا الأمل.

غادة : من تقصدين؟

- ماري : فارس.. وزوجك.. وربما آخرون.
- غادة : لا.. لم أعد أستطيع أن أتخيل الحياة بعيداً عنه.
- ماري : أتستطيعين مواجهة زوجك وأهلك والناس؟
- غادة : لأدري.. يجب أن أستطيع.. معاد يهمني الضرب، ولن يكون هناك عذاب أشدّ وطأة من فراقه.
- ماري : آه يا حبيبة.. لو عرفت ماري كيف تواجه، لو قرأت على نفسها شقاء ثلاثين سنة. إيه.. انقضى العمر. ولم ندق منه إلا المزار.
- غادة : هل شقيت كثيراً يا خالة! لماذا لا تفتحين لي قلبك؟
- ماري : طبعاً.. طبعاً.. ذات يوم سأفتح لك قلبي كما فتحت لابي.
- غادة : ولكن مصيرك هو مدار الحديث يا غادة. أنت الآن في أوانك.. عليك أن تكوني قوية، وأن تعزمي على المواجهة.
- غادة : علميني يا خالة.. ماذا ينبغي أن أفعل.. لم أعد أبالي.. ويوماً بعد يوم أشعر أنني أزداد قوة.
- ماري : علينا أن نغسل غربته، وأن نحمله.
- غادة : سأفعل كلّ ما يطلبه مني. ولكنّه لا يطلب شيئاً.
- ماري : نعم.. إنه يفضل أن يعطي. منذ أيامه الأولى شعرت أنّه جاء كي يقاسمني همومي. ناداني أُمّي.. وبلطف حنون استدرجني كي أحكي ما قاسيته من الجور والحرمان.
- غادة : تحدّثت.. وتحدّثت. وكنت أحسّ أنني أتناول روح النعناع.. صدرني يتّسع، ويتفتح.. والهواء ينفذ بارداً ومنعشاً إلى رئتي.
- غادة : نعم.. إنه يحسن الإصغاء، ويغري بالبوح. منذ سافر أخي لم يصغ إليّ أحد. في عينيه لمعة حزن تفتت القلب، وتجعل المرء ينسى نفسه. أحياناً أشعر أنّه لم يسكن هذا البيت إلا لكي يرتب سفره القادم. هل أخبرك مرّة كم ينوي الإقامة؟
- ماري : لا.. لم يخبرني. ولكن قلب الأم دليل يا غادة، وأنا أعرف

أنّه لم يأتٍ لكي يلبي لهفة أمّه فقط، بل جاء بحثاً عنك أيضاً.

غادة : أتظنّين.. لا نكاد نتبادل البوح حتّى ينفتل ويتعد محزوناً. لا أدري ماذا يخفي!

ماري : إنّه يخاف عليك.. وهو يكبس على جرحه كي لا يسبّب لك المتاعب والأذى. تصوّري لو أنّا في هذا البيت نحن الثلاثة فقط.

غادة : والطفل يا خالة؟

ماري : نعم.. والطفل معنا. أتعلمين.. سأرتّب له حياته كما يرتّب لي آخرتي. سأجدّد أثاث غرفته، وأجهّزها للعرس.

غادة : أي عرس؟

ماري : عرسكما يا غادة.

غادة : أتحمّلين يا خالة؟

ماري : يجب أن تحلمي يا غادة. ستختاران ليلة، وسيكون لكما عرس بهي. هل يمكن أن تحدث بيننا مشاحنات الكتّة والحماة.

غادة : أعدك ألا نتشاحن أبداً.

ماري : طبعاً لن نتشاحن. أنت فتاة طيّبة، وحنونة. وأنا لا أريد إلا أن أموت ميتة رضية بين يدي ابني، الذي انتظرته طويلاً.

غادة : لانتقلي الفرحة حزناً.. أطال الله عمرك.

ماري : إن الموت بالنسبة لي هو الفرحة. إنّي أترقبه يا غادة، كما تترقبين ليلة عرسك. هناك.. سأجد المباهج والأفراح التي فاتتني في هذه الدنيا.

(يدخل ثائر حاملاً قبعة أبيه العسكرية).

: ماما.. ماما.. طرزان عملها. بالطّاقية. حسبها نونية.

غادة : (تساوّل الطّاقية المبلّلة) ماذا فعلت بالطّاقية.. هل تريد أن

- يضربك أبوك؟
 : لا أحبّ بابا.. **ثائر**
 : والله ما قصرت.. **ماري**
 : لازم يضرب طرزان لأنّه حسبها نونية. **ثائر**
 : تقبرني.. ما أذكاك! لا يستحقّ إلاّ نونية. **ماري**
 : وفي النهاية.. لن تطلع الدقة إلاّ برأسي. **غادة**
 : علامّ اتفقنا؟ **ماري**
 : نعم يا خالة ماري.. سأواجهه، وسأحلم أيضاً. **غادة**
 : هذا هو الكلام. سنواجهه، وسنحلم أيضاً. هل يتغذى من
 يدك أم من يدي؟
 : سيكون الغداء عليّ. يا الله ياثائر.. **غادة**
 : (وهو يتبع أمه) والتتورة! أريد تتورة لطرزان. **ثائر**
 : تكرم عيونك.. ستكون جاهزة بعد الغداء. **ماري**
 (تتلاشى الإضاءة).

المشهد الرابع

- (كاظم وفارس يجلسان في ركن منزوٍ من مقهى شعبي.
كاظم يرتدي ثيابه العسكرية).
- كاظم : (يصفق يديه، ويتلفت نافذ الصبر) أين هذا البطيخ؟
فارس : (وهو ينهض بتذلل) لعله لم يسمع. سأحضره لك.
كاظم : لا يا زلمة.. عيب.. ابق جالساً. (يعلو صوته) يا أخ.. يا أستاذ..
- النادل : حاضر.. حاضر.. إني آت.
فارس : إيه.. أيام زمان، كان الجرسون أخفّ من الطير. يقف بين يدي الزبون قبل أن يجلس على الكرسي.
- النادل : أهلاً يا أبا الفوارس.. ماذا تأمران؟
فارس : خذ طلب كاظم أفندي..
- كاظم : لا أفندية ولا بكوات. كم مرة قلت لك! هذه ألقاب رجعية، والثورة قضت على الرجعية وألقابها.
- النادل : يا عيني على الكلام الطريف.. لا أفندية ولا بكوات وكلّ الناس قهوتهم سادة. ماذا تأمران؟
- كاظم : لاتطوّل لسانك.
- النادل : معاذ الله.. وهل هناك أحلى من أن يكون الناس كلّهم سادة؟!
كاظم : ماذا تطلب يا عمّ؟

- فارس : لا.. اطلب لك. أنا لا أريد شيئاً.
- كاظم : لايجوز.. ينبغي أن تشرب شيئاً.
- فارس : (بذلة) لا أريد أن أكلفك.
- كاظم : أهذه كلفة؟ اطلب يا رجل.
- النادل : اطلب يا أبا الفوارس، المقهى على حسابك.
- فارس : طيب.. هات لي فنجان قهوة وسط وnergيلة.
- كاظم : وهات لي فنجان قهوة سادة.
- النادل : حاضر.. (وبصوت مرتفع) وعندك واحد وسط، وواحد سادة.
- فارس : توصّ بالnergيلة. أريد التبنك عجمياً.
- النادل : (وهو يتعبد) لاتوصّ حريصاً يا شارب ال عشت.
- فارس : امش، خزاك الله.. أربكتني يا كاظم أفندي.. كيف تريد أن أناديك؟
- كاظم : نادني.. حضرة المساعد أو سيّد كاظم، ولكن دغني من الأفنديّة والبكوات.
- فارس : معك حقّ.. ولكن ماذا أفعل؟! آخذ لساني على كلمة أفندي وكلمة بيل.
- كاظم : والآن.. درّب لسانك على كلمة يا سيّد أو كلمة يا رفيق.
- فارس : حاضر يا كاظم أفندي.. العفو. قصدي يا حضرة المساعد.
- كاظم : طيب.. دعنا ندخل في الموضوع. ما هو الأمر الهامّ الذي تريد أن تحدّثني به؟
- فارس : آه يا سيّد كاظم.. من أين أبداً؟ لا أستطيع أن ألوم أحداً سواي. (يضرب وجهه بمبالغة مكشوفة) نعم.. أنا الملوم، وأستحقّ الضرب على رأسي بالصّرامي.
- كاظم : ماذا هناك؟
- فارس : (يمدّ يداً متردّدة) هل أستطيع أن أستعير سيجارة؟

كاظم

فارس

: خذ سيجارة وخلصني.. ماذا هناك؟

: لن يرتاح ضميري إذا لم أضحك في الصورة.. إنه المستأجر
الذي يسكن الغرفة العلوية. تصوّر.. أنا الذي أجزّته،
وحملت له حقيته.

كاظم

: وما له المستأجر! بخشت أذني، وأنت تمدحه لي. شاب مثالي
ترتي على الأصول والأخلاق الحميدة، وأنه أحيا فيك البهجة
والأمل.

فارس

: أنا الملوم، وأستحقّ الضرب على رأسي. تصوّر.. ضحكك على
ذقني، وأقنعني أنه سيعلمني بعد هذا العمر القراءة والكتابة.
كان يحضّر الشاي، ويدعوني للجلوس. يا الله.. ما أدهاء!
إنه يقتل عقل الإنسان كما يشاء. تصوّر! كدت أعتقد أنّ
لديّ الإمكانات، وأنّ عجوزاً مثلي مازالت أمامه فرص
وآمال.

كاظم

: هذا شيء طيّب.. يعلمك القراءة، وأنت تشرب الشاي،
وتدخن.

فارس

: كان ذلك احتيلاً. إنّه داهية بسبعة وجوه. لو اقتصر الأمر
عليّ، لتحملت ولكنته قتل عقل.. تلك المسكينة ماري. ومن
يدري ماذا يفعل أيضاً!

(يأتي النادل حاملاً القهوة ورجيلة).

النادل

: هنا قهوة سادة.. وهنا قهوة وسط.. وهذه هي الترجيلة يا أبا
الفوارس.

فارس

النادل

: هل توصيت بالتبّاك؟

: توصيت وزيادة.

(يتمدّد النادل، يتناول فارس التريش بحركة نهمة، ويشفط
عدة أنفاس متلاحقة، بينما يرتفع صوت بقبة الماء في
الرجيلة).

- فارس : تصوّر يا حضرة المساعد.. لعب بعقل المسكينة ماري، وأقنعها أنّه ابنها وأنّها أمّه.
- كاظم : حتّى الآن لم أفهم شيئاً. هل تعني أنّه يلاطفها! ويناديها أمي!
- فارس : لا يا حضرة المساعدة.. ليست ملاطفة.. الأمر أخطر.. أقول لك إنّهُ محتال كبير. لو تسمعها كيف تتحدّث عنه! إنّها موقنة أنّه ابنها، وأنّه ذلك الطرح، الذي أسقطته منذ ستّة وعشرين عاماً.
- كاظم : ما هذه القصّة.. أبلغ الوهم هذا الحد!
- فارس : لا أدري إن كان وهماً أو جنوناً.. تقول سَحَرَهَا، وسيطر عليها!.. إنّهُ محتال كبير. تصوّر. منذ أّيّام كُشِّر في وجهي وقال لي.. لا تعذب أمي. وهي كالمسوسة لا تتعب من الحديث عن ابنها الذي عاد من الغربة. وأخشى الآن أن تسلمه الحيلة والفتيلة.
- كاظم : قل لي.. لماذا لم تنجبا أولاداً؟
- فارس : إرادة الله.. منذ ستّة وعشرين عاماً حملت، وأسقطت في الشهر السادس. (هامساً) العيب فيها.. هي تعتقد أنّي السبب. وقلت في نفسي.. يا ابن الحلال لاتصدمها مادام هذا الاعتقاد يريحها.
- كاظم : لم أعرف حتّى الآن أين هي المشكلة.. إذا كنت مقتنعاً أنّه محتال، وأنّه يضمر لك الأذى، فلماذا لا تطرده؟
- فارس : وكيف أطرده؟
- كاظم : قل له.. نريد الغرفة، وافرقتنا بريح طيبة.
- فارس : البيت لماري. وماري تبدّلت، ولم تعد هي ماري التي أعرفها، والتي أمضيت عمري معها. يا الله.. هي الطيّعة الوداعة تنقلب لبوة شرسة، إذا حاولت أن أكذب يقينها وأكشف حقيقته! لا.. لن تسمح ماري بطرده. وإني أعتمد عليك يا

- حاضرة المساعد في هذه المسألة.
- كاظم : تعتمد عليّ؟ وماذا تريد أن أفعل؟
- فارس : (بلهجة مراوغة) أعتقد أنّ من واجبك أن تتدخل.
- كاظم : لماذا.. هل تعتقد أنّه معادٍ.. بالمناسبة لم تقل لي.. ما هي آراؤه؟ وهل لديه ميول سياسيّة؟
- فارس : إنّ أحواله تثير الشكوك. تصوّر.. حتّى الآن لانكاد نعرف عنه شيئاً. يقول إنّّه يدرس الحقوق، ولكنّه يظلّ طوال النهار في البيت، ولا يخرج إلّا في الليل. هذا السلوك وحده يثير الشكوك.
- كاظم : ألا يتحدّث عن الثورة والأوضاع التي تمرّ بها البلاد؟
- فارس : لاشكّ أنّه يخفي شيئاً. ولكنّه أدهى من أن يترك لك مأخذاً. أستطيع أن أجزم أنّ وراءه سرّاً، وأنّه ليس بعيداً عن السياسة. ولكن ما أخشاه هو أمر آخر.. سيعذبني ضميري إن لم أكشف لك عن مخاوفي. نعم.. أنا الملولم. كان ينبغي أن أتصرّ في الأمر منذ البداية. ما كان يجوز أن أقبل عازباً في بيت تسكنه عائلة كريمة ومحترمة.
- كاظم : (متضيقاً) إنّك الآن تغني موالاً غريباً. إلّا مَ تلمّح؟
- فارس : لاشيء.. هذا خطئي من البداية. كان ينبغي أن أقدر أنّه لايجوز وجود شاب عازب، وامرأة تقطر ذوقاً وحلاوة في بيت واحد. ولكن.. هل كنت أعلم أنّه سيلزق في البيت طوال النهار، بينما يشقى الرّجل في عمله وأداء واجبه؟ أقسم لك أنّي فرعت حين أدركت الوضع، وقررت ألا أغادر البيت إلّا لطارئ لا يؤجّل.
- كاظم : عمّ تحكي أيّها الرّجل؟ كفاك لفاً ودوراناً. هل لاحظت مايشين زوجتي؟
- فارس : لم ألاحظ إلاّ أموراً صغيرة، وإبليس كما تعلم يدخل من خرم

الإبرة.. لا.. سامحني يا رب.. لا أضع بدمتي أيّ شيء رديء.

كاظم : وما هي هذه الأشياء الصغيرة؟ تكلم بصراحة، وإلاّ حشوت رأسك برصاصة.

فارس : دخيلك.. ليتني قطعت لساني، ولم أتكلم. لا أريد أن تغضب. أنت تعرف معزتك عندي، ويشهد الله أنّ عرضك هو عرضي. ما قصده هو أنّ الحذر واجب، وأنّ علينا أن نبعد أسباب الفتنة قبل وقوعها.

كاظم : حقاً.. إنّك رجل وضع. أثير الشبهات حول امرأتي كي أخلّصك من مستأجر يضايقك؟

فارس : يا حضرة المساعد يقولون.. لادخان بلا نار. والشبهات لاتولد بلا أسباب. خذي هذا الكتاب.. وهل قرأت هذه الرواية؟ ودعوة على فنجان قهوة..

كاظم : سأقتلك أيّها العجوز.. ما تقوله خطير. احذر.. أريد أن أعرف. هل رأيت شيئاً مؤكداً؟

فارس : لا.. إنّني لا أضع شيئاً في دمتي. هي خواطر وأشياء صغيرة.. وأشعر أنّ ضميري لن يرتاح إذا لم أخبرك بها.

كاظم : اسمع.. أنا الليلة مناوب، وسأجعلك تدفع غالياً ثمن هذه الخواطر والتلميحات الوضيعة.

فارس : حلقتك بالله لاتغضب.. إنّني أقوم بالحراسة.. يا سيدي اعتبرني كلب الحراسة في البيت.. وأنا أعتبر عائلتك مسؤوليتي، ومن مصلحتنا جميعاً أن نتخلّص من هذا المحتال. وكما يقول المثل، لاتنم بين القبور ولا ترّ منامات مفرعة. إذا تخلّصنا منه يهدأ البال، وتنقطع الشبهات.

كاظم : أعرف أنّك لست خالص النية. ولكن معك حقّ. لا أحتمل أن تحوم الشبهات فوق بيتي.

- فارس : يا سيدي.. أنا بين يديك. فعلت ما يفعله الحارس الأمين،
والباقي عليك.
- كاظم : أيها العجوز.. هتئ نفسك عند منتصف الليل. ومادام هناك
قيل وقال، فلن يبيت هذه الليلة في البيت.
- فارس : هكذا يكون الكلام.. حتى الله الرجال.. ستجدني معك،
وإلى جانبك. والمهم أن نتخلص من هذا المحتال.
- كاظم : إذن موعدنا الليلة.
- فارس : ستجدني جاهزاً.
- (ينهض كاظم، ويغادر المقهى، بينما يسترخي فارس متلذذاً
برشف نرجيلته).
- فارس : ومن يحتاج إلى ابن! لا تفرحي يا ماري.. لن أقبل أن يزичني
ابن من حضنك ورعايتك.
- (تستمر قرقرة النرجيلة فترة، ثم تلاشى مع الإضاءة ببطء).

المشهد الخامس

(الغرفة العلوية التي يقطنها المستأجر بشير. المكان مرن ومتغير وكل شيء ينوس بين الحلم والواقع. يبدو بشير مسترخياً، وهو يضع رأسه في حضن ماري، التي تبدو متغيرة الهيئة).

: آه يا بني.. أين سافرت؟ ماري

: ابتعدت عن النهر لأنني أخاف منه. بشير

: الماء يجري، ويجري.. وأنا في مكاني أنتظر.. انتزعه مني، ماري

: ورماء في النهر ثم بصرق. والماء يجري وأنا في مكاني أنتظر.

: غطي لي أغنية. بشير

: نسيت أغاني الأمهات. ماري

: كان يهددني صوتك الشجي، وهو يموج بأغنية أبو بشير

: الزلوف.. ما أبعد أيام الطفولة.. هل عذبك أبي؟

: لا تقل أبي.. آه.. كل يوم حقنة.. حقنة غليظة كالمسلة.. ماري

: انظر.. ازرققت عجيزتي، وامتلات بالدمامل والانتفاخات.

: (ترفع رأسه، وتشمر فستانها فتكشف عن عجيزتها المترهلة)

: انظر كيف صارت عجيزتي!

: (متحاشياً النظر) لا.. لا، غطي فخذيك يا أمي. بشير

: (وهي تضحك ضحكة غريبة) هل تخجل! أنا أمك. انظر ماري

: كيف تشوّهت عجيزتي.

: لا أستطيع أن أنظر. بشير

- (ماري تجذبه من رأسه، وتعيده إلى حضنها).
- بشير : يجب أن أنهض.
- ماري : لاسفر بعد اليوم..
- بشير : لا أريد العيش قرب التهر.
- ماري : الماء يجري ويجري وأنا أنتظر في مكاني.
- (تسقط بقعة ضوء شديدة السطوع على فارس وقد تبدلت هيئته قليلاً، إنه صارم الملامح، ثابت النظرة وله شاربان غليظان، ويعتمر كوفية وعقالاً).
- فارس : تعال يا ولدي..
- بشير : هل تأخرت عن الحصاد يا أبي؟
- فارس : أنت بكري يا بشير، وهذه السنة أمامك حصادان.
- بشير : لا تشغل بالك.. سأنوب عن حصّادين.
- فارس : ماذا تعلمك المدارس؟ هل أضعفت فيك النخوة؟ لنا عادات وتقاليد لا يتخلى عنها المرء مادامت فيه مروءة أو حياة.
- بشير : عرفتك.. عرفتك.. إنك فارس.
- فارس : ماذا تقول يا ولد؟ أنا أبوك.. وقد حان الوقت كي تحمل إرثي، وتظهر سيرتي.
- بشير : أبي.. ماذا تريد مني؟
- فارس : إنني أتكلّم عن أختك.
- بشير : ما لها أختي؟
- فارس : فضحتنا بين الأهل والأعداء، ولن يستحق ابني البكر مكانته في العشيرة، إذا لم يطهرنا من هذه الوصمة.. انظر.. انظر (يشق قميصه فببدو على صدره الأيسر كتلة لحمية زرقاء داكنة تشبه الضرع أو الثدي) ماذا أصاب أباك؟
- بشير : (مجفلاً) ما هذا؟
- فارس : هذا هو العار الأسود. نعم.. صار لأبيك ثدي كالتساء.
- (يمسك بيديه كتلة الثدي) نعم. ثدي وله حلمة. تعال.. المسه.

- بشير : (يتراجع) لا.. لا أريد.
- فارس : وفيه حليب أيضاً.. حليب أسود وسام. انظر كيف يسيل الحليب حين أعصره.
- (يعصر الكتلة فيسيل منها سائل شديد السواد واللزوجة).
- بشير : ما أفضع الرائحة!
- فارس : نعم.. هذه هي الرائحة التي فوّحتني بها أختك.
- بشير : ماذا فعلت؟
- فارس : ألا تشمّ بخرها؟ تفو.. لقد أحبّبت. خبأت لك المهمة.
- ستكون البكر الذي يسند ظهر أبيه، ويحمل ميراثه.
- بشير : أبي..
- فارس : لا أريد اعتراضاً أو فتوراً. خذ.. (يسحب من حزامه خنجراً مرصعاً، ويقدمه لبشير) هذا خنجر أبيك.. طهره واحتفظ به. اصحبها إلى الحقل المجاور للنهر. وحين تنتهي من الحصاد، اغسل يديك بدمها. لا تقتلها قبل أن ينتهي الحصاد. وأقول لك.. لن يهدأ غضبي وتخفتي عاهتي إلا إذا رأيت دمها يقطر من خنجري. (يقرب منه وهو يعصر الكتلة السوداء في صدره. والسائل الأسود يجري بغزارة على كمّه وثيابه) املا خياشيمك بالرائحة. شمّها ...
- (يحاول فارس أن يضع صدره في وجه بشير، الذي يتراجع متقرّزاً وخائفاً).
- بشير : لا أستطيع..
- فارس : شمّها.. املا رثيتك بها.
- (يقهقه قهقهة لها صليل معدني ويختفي. يرفع بشير أصابعه عن أنفه، ويقلب الخنجر بين يديه، يسحبه من غمده ثمّ يعيده بحركة نافرة. تظهر غادة في ثياب فلاحه وهيئة مختلفة).
- غادة : ما هذا؟ هل تحمل خنجراً؟

- بشير : إنه خنجر أبي.
- غادة : (برنة حزينة) حقاً.. إنه خنجر أبي. هل تريد أن تقتلني؟
- بشير : لا أدري..
- غادة : (ضاحكة) أحب الحصاد. سنتسلى كثيراً أنا وأنت.. وحدنا في الحقل. يا الله.. هيات المؤونة والزّودة. احمل عدّة الحصاد واتبعني.
- (تختفي بحركة رشيقة).
- ماري : (دون أن نراها) ابق هنا..
- بشير : يجب أن أمضي.
- ماري : لا تصغ إليه. ما رأيته على صدره قديم جداً. أسألني أنا.
- بشير : ومع هذا.. يجب أن أذهب.
- ماري : إن الدمامل تملأ عجزتي، ولا أستطيع أن أتبعك. ابق هنا.. منذ عرفته وهو ينشر الموت حوله. لا ترحل يا بني.. لا ترحل يا بني..
- (يتغيّر المشهد.. خيمة في العراء، أكوام من حزن السّنابل، ليلة مقمرة، غادة نائمة وقد انحسر فستانها عن فخذه.. يجلس بشير قريباً منها.. يختلس نظرات إلى فخذه، ثمّ يحول وجهه بحياء. بعد قليل يمدّ يده إلى الفخذ المكشوفة ويلمسها برقة. يسحب يده كالملسوع، يتاول الخنجر، يخرج من غمده، ويتلاعب بانعكاسات ضوء القمر على التّصل. فجأة ينكبّ على الفخذ، ويقبلها. تدهمه رعشات متلاحقة فيستعد، ويضغط حضنه بيده).
- بشير : ملعون أنت.. لا.. لا تقذف.. إياك أن تقذف.
- (تنهض غادة بهدوء، وترتّب جالسة).
- غادة : هل لمستني أم كنت أحلم؟
- بشير : (غاضباً) لم ألمسك.. أنت قليلة الحشمة. لماذا لا ترتدين

- سروالك؟
- غادة : غسلته، ولم يجفّ بعد.. لماذا لم تدعني أغسل ثيابك؟
- بشير : انتهى الحصاد.
- غادة : نعم.. لقد انتهى الحصاد. انظر إلى القمر.. كم هو قريب ومضيء!
- بشير : نعم، إنَّ نوره فضّاح.
- غادة : أما حان الوقت؟
- بشير : نعم.. لقد حان الوقت.
- غادة : هل سحبت الخنجر كي تقتلني؟
- بشير : نعم..
- غادة : لو فعلها وأنا نائمة.. لاتؤلني كثيراً.
- بشير : (ينخرط بشير بالبكاء، ويميل برأسه على كفها ويعانقها).
- بشير : (وهو يشرقُ بدموعه) لا أستطيع.. لا أملك الشجاعة.. إنني أحبك.
- غادة : أتبكي؟ لا يا أخي.. أنا لا أساوي دمعة من عينيك.. اهدأ.. اهدأ.. سأجنتك هذا الامتحان. آه.. ما أجمل القمر هذه الليلة! ما هذا الشعر الذي تردده دائماً.. رددته لي مرّة.
- بشير : نسيت الشعر.
- غادة : حين تتذكّر.. رددته، وسأسمعك أينما كنت.
- بشير : (تقبله على جبينه، وتنهض بحركة بطيئة، تتناول السروال المنشور على شمائل القمح، ترتديه وتمضي بخطى هادئة وحالة).
- بشير : أين تذهبين؟
- غادة : إلى النهر.
- بشير : أحقاً تذهبين؟
- غادة : التهر ينادي.. وسأفعل ما ينبغي فعله. اذهب إلى قبر أُمّي،

- وسلم عليها.
- بشير : عيناك غابتا نخيل ساعة السحر/ أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر. يا رب.. إنَّ التهر يهدر.. إنها تغيب.. ما الذي يشل ساقِي؟! لماذا لا أستطيع أن أتحرك؟. أريد أن أنقذها. انزع قدميك من الطين.. وأسرع.
- بشير : (يحاول جاهداً أن يرفع ساقيه ولكنه يعجز. إنهما تغوصان في الأرض. يبدو عليه العناء والفرع).
- بشير : (صارخاً برعب) الطين.. الطين.
- غادة : (فجوة معتمة تستمر فترة. ثم تظهر غادة وهي ترتدي منامة شفافة. المكان غامض يشبه عليّة في بيت ريفي).
- غادة : (وهي تمسح على رأسه) لاتخف.. (تمدّ له قدحاً من الماء) اشرب.. إن ريقك ناشف.
- بشير : لم أستطع قتلها. رمت نفسها في التهر كي توفر عليّ الامتحان. كنت أغوص في الطين والماء يلعها. تخلّيت عنها.
- غادة : هذا منام.. ألا ترى! إني قربك.. ولم تتخلّ عني.
- بشير : جمّدتني الرعب.. ولكن كيف أتيت؟
- غادة : ألا تريدني أن آتي؟
- بشير : لا أريد أن تتهورّي. سامقت نفسي لو تعرّضت للأذى.
- غادة : لا تقلق.. هذا الفرح الذي أحسّه يعوّض أيّ أذى، ويشفيه.
- بشير : أتظنين؟!
- غادة : بل أنا متأكدة. كنت أحتق وأهترئ. زنج وهواء فاسد، وفجأة جئت.. حاملاً الشمس والهواء النقي. آه.. كم انتظرتك!
- بشير : وأنا.. كم بحثت عنك؟ لا أصدّق أن مثلي يمكن أن يحمل الشمس والهواء.

- غادة : ولماذا لا تصدق.. ألا ترى كيف تغيرت حياتي؟
 بشير : أين هو.. هل رأيت أي؟
 غادة : لا.. لم أره. البيت خال، والحلي خال، ولا يوجد إلا أنا وأنت.
 بشير : هذا فخ. ينبغي أن أعيد له الخنجر.
 غادة : لن تجده. ذهب الجميع وراء الجنازة.
 بشير : نعم.. الجنازة. كان يجب أن أدس الخنجر في طيات الكفن.
 غادة : لا.. احتفظ به. لن تستطيع أن تعيش دون خنجر.
 بشير : أعلمين.. قبلت فخذك، وأنت نائمة؟
 غادة : كنت أظاهر بالتّوم.
 بشير : أكنيت دائماً تتظاهرين بالتّوم؟
 غادة : نعم.. وكنت أرتعش رعشات غريبة.
 بشير : هذا مستحيل.. بيننا موت ودم حرام.
 غادة : نعم.. مستحيل. لكن.. ما باليد حيلة.. انظر.. إنا نرتعش..
 هات يدك.. المس صدري. آه.. لمساتك طيبة ولذيذة..
 بشير : إني أتبلل. (برعب) ابتعدي.. ابتعدي.. جاء أبي.
 (تختفي غادة، بينما يتخذ بشير وضعية مخاتلة وبريئة).
 بشير : (بعذوبة) عيناك غابتا نخيل ساعة السحر/ أو شرفتان راح
 ينأى عنهما القمر.
 (فجوة معتمة، بعد قليل يقتحم كاظم وفارس المكان).
 كاظم : هذا هو المشبوه إذن! جبان.. خائن.. تتسلل من وراء ظهور
 الرجال، وتعبث بالأعراض.
 بشير : كنت أقرأ الشعر.
 كاظم : نحن نعرف ماذا يعني شعر المشبوهين والخونة.
 فارس : إنه عدو الثورة.
 بشير : الشعر بريء وجميل.
 (يسحب كاظم مسدسه، ويطلق عليه رصاصة في صدره).
 كاظم : اذهب.. وأقرأ شعرك للأموات.

فارس	: حياك الله. محتال مثله لا يستحق إلا رصاصة.
كاظم	: هيا شمر عن زنديك، وساعدني.
فارس	: ماذا تريد أن أفعل؟
كاظم	: سنحمله، ونرميه في برميل الزباله.
فارس	: نعم.. هذا مايليق به.
بشير	: (وهما يحملانه) لست ميتاً.. لا.. لم أمت. عيناك غابتا نخيل
	ساعة السحر..
	(يختفي المشهد ببطء.. وتلاشى الإضاءة).

المشهد السادس

(غرفة كاظم وغادة. الصغير نائم وغادة تبدو وكأنها استيقظت من حلم فظيع. يدخل كاظم بأش الوجه).

- كاظم : ألم تنامي بعد؟
غادة : الآن صحوت. لماذا عدت مبكراً؟
كاظم : اشتقت لك.
غادة : كأني سمعت ضجة وأصواتاً.
كاظم : لاشيء... دحرجت ذلك الشاب المحتال، ورميته مع حقيبته خارج الدار.
غادة : (منتصبه) ماذا فعلت؟
كاظم : طردته من البيت.
غادة : وبأي حقّ تطرده. أهي دارك؟
كاظم : وفيّ يهتك أمره! إنّه مشبوه، وليحمد الله أنّي رميته في الزقاق لا في السجن.
غادة : ولكنّه مستأجر مثلنا، والبيت له أصحابه. فما علاقتك أنت؟
كاظم : كان صاحب الدار معي. ولكن قول لي.. لماذا يضايقك طرده؟
غادة : إنك تتصرّف وكأنك الحاكم بأمر الله.
كاظم : نعم إنّني الحاكم بأمر الله في هذا البيت. هل تعتقدين أنّي غافل عنك؟ تدور حولك أقاويل يا ابنة العم. ماذا كان بينك

وبينه؟

غادة

: (تواجهه بغضب يائس) أتريد حقاً أن تعرف؟

كاظم

: احذري.. ولا تجعلني براكيني تتفجّر.

غادة

: أتريد أن تعرف أم لا؟

كاظم

: ستجعلين هذه الليلة جحيماً.

غادة

: هي الجحيم في كلّ الأحوال يا ابن عَمِّي. لا تَجْرِ وراء

الأقاويل، واسمعها مِنِّي.. أعتقد أَنِّي أحبه.

كاظم

: (بلاهة) أعيدها.

غادة

: إني أحبه.. إني أحبه.. إني..

كاظم

: (بصوت مرتفع ومتوسّل) لا.. لا.. لا تكررِها. يا رب. هل

أنت يائسة إلى هذا الحد! أتفتشين عن الموت؟

غادة

: لا يهمني الموت.

كاظم

: قصمت ظهري يا ابنة عَمِّي. ربّما قسوت عليك، ولم أعرف

كيف أعاملُك معاملةً طيبة. ولكن ينبغي أن تعلمي أنّ قلبي

لم يتعلّق بامرأة سواك. بيننا طفولة وقراة وحياة. أنا أعرف

كيف ربّاك عَمِّي.. ولا أصدق ما تقولين. سأنسى ما

سمعتُ، وانسي ما قلت. لا تدعي الشرّ يدخل بيننا.

غادة

: (تفجّر بالبكاء) طلقني يا كاظم. يبدو أنّ زواجنا كان خطأ

فادحاً.

كاظم

: لا يا ابنة عَمِّي.. في عائلتنا لا يوجد طلاق. ولا تنسي أنّ أبويننا

ربطاً، ومنذ الطفولة، بين قدرينا، ولن أفكّ رباط الآباء إلاّ

بالموت.

غادة

: إنّ بقاءنا معاً عذاب لا يحتمل.

كاظم

: ألا ترين أَنِّي أألينك، وأحاول أن أمسك شيطان غضبي؟

سمحت لك أن توجّهي لي إهانة لا يتحمّلها إلاّ الديوث من

الرجال، فاستري الطابق، ودعي الليلة تمرّ على خير.

- غادة : طَلَّقني يا كاظم.
- كاظم : اخرسي.. ولا تكرري هذه اللفظة مرّة أخرى.
- غادة : دعنا نتكلّم بهدوء.
- كاظم : انتهى الكلام، واعلمي أنّ مصيرك مقرون بمصيري حتّى الممات. يبدو أنّي أخطأت إذ لايتك، وأخطأت إذ تجاوزت كبريائي، وحدثتك كالمراهقين عن حُبّي.. أنت ملكي وأنا مستعدّ للخوض بالدم من أجل ما أملك. كيف استطعت أن ألجم غضبي؟ أنت تحتي وستظلّين تحتي حتّى يلفك الكفن.
- غادة : طَلَّقني.
- كاظم : لم أكن أريد، حاولت أن ألجم شيطاني، ولكن يبدو أنّك لانتطيعين التّوم دون بهدلة.
- غادة : طَلَّقني.
- كاظم : (ينهال عليها ضرباً ورفساً) أتريدن الطلاق؟ خذي إذن.
- غادة : (كالنومة وهي تتلقّى الضّربات دون أن تحاول تفاديها) طَلَّقني.
- كاظم : (أنفاسه تتلاحق) توقفي.. توقفي..
- غادة : طَلَّقني.
- (تسقط غادة، يستيقظ الصغير وهو يكي ويصرخ).
- ثائر : ماما.. ماما.. لاتضرب ماما.
- كاظم : ابق في فراشك يا بني. خزي الله الشيطان.
- (يحضر ماءً ومنشفة. ينحني على غادة ويمسح وجهها بالماء، ويجفّف الدم ثمّ يحملها بحنان ويضعها في السرير).
- ثائر : ماما.. ماما.. (يترك فراشه ويأتي إلى أمّه) ماما.. رُدّي عليّ.
- كاظم : لاتخف.. ستردّ عليك بعد قليل. اتركها الآن وتعال معي.
- ثائر : لا.. أنا خائف.. ماما.
- غادة : (تتحامل على نفسها وتمدّ يدها لترفعه إلى السرير) يا عيون

ماما.. تعال جنبي.

(ينخرطان معاً في البكاء، بينما يشعل كاظم سيجارة ويدخنها بشراهة).

كاظم

: خزي الله الشيطان.. هذه الليلة بالذات ما كان يحقّ لك.
أفسدت فرحتي. تخلّصت من ذلك المحتال، ونزلت كي
أخبرك. إنّ أمامي مستقبلاً طيباً يا غادة. اليوم أخبروني..
سيوكلون لي وظيفة مرموقة في الأمن. هذا باب واسع يفتح
أمامي. طبعاً.. سيعلو مقامي ودخلي. ستكون أمامنا حياة
رغيدة، وستنسى هذه المناكدات. نعم.. ستغير حياتنا. لا
أطلب منك إلا الطّاعة ومداراة عرق الغضب في صدري. أن
الأوان كي تكون لنا حياة لائقة. ووظيفتي الجديدة تقتضي
أن تكون حياتي العائلية لائقة.. وأن يكون بيتي حصيناً
لا يلطّخ بياضه القيل والقال. نعم.. يجب أن تتغير حياتنا.
(يفرغ من تدخين سيجارته.. ينهض إلى النوم، يطفىّ الصّوء
على شقيقات بكاء مكتوم).

المشهد السابع

(أرض الدار. عادة تقرفص أمام مواعين وسطل ماء، وتنهمك في تنظيف كرش خروف. تنزل ماري على الدّرج الذي يؤدي إلى الغرفة العلوية وهي تحمل صينية عليها ركوة وفجانا قهوة. تجلس قرب غادة).

ماري

: لم يعد لقهوة الصّباح نكهة. كلّ يوم، كنت أصحو ملهوفة ونشيطة. أهتئُ ركوة القهوة، وأصعد إليه. نشرب قهوة الصّباح على مهل. كان مذاق القهوة ودوداً وطيباً. كان يغمرني بالدفء والطمأنينة.. يسألني عن أياامي الفائتة فيطّيب نفسي، ويقسم أن يعوّض لي بعض عذابي.. مازلت أحمل الصّينية، وأطلع إلى الغرفة أفضفض عن صدري بالبكاء، وأحدّثه عن الوحشة التي خلفها غيابه. ظهر، واختفى كأنّه منام.. أما زلتِ تلوميني؟ إنّ وجعي أعظم من وجعلك. لا أدري ماذا حلّ بي تلك الليلة. كان نومي كابوساً ثقيلاً. طوال الليل، وأنا أسمع من يناديني، وأحاول النهوض فلا أستطيع. كنت كالمشلولة، وثقل رهيب يكبس على صدري. لا أستغرب أن يكون قد دسّ لي بنجاً في كأس النعناع، الذي أشربه في المساء. لا أستغرب أن يفعل أيّ شيء. إنّهُ رجل فاسد.. فاسد ومنتن. هل تبكين؟

: لا أدري ماذا أفعل. إنّهما أقوى منا. لم يتحمّلا أن نحلم، أو

غادة

أن تظهر لمعة فرح في حياتنا. والآن.. لم يبق لدينا شيء..
سنعود إلى الانتظار.. انتظار قلق موجه كالبرداء والحمى لا..
لم أعد أحتمل.

ماري : معك حق.. منذ رحيله أشعر أنني كالضائعة.. ضاق المكان،
وصار كالسجن. نعم.. هذا هو حالنا. إننا محصورتان في
حبس.

غادة : وليس أمامنا إلا أن نبلع قهرنا، نتغذى به..
ماري : لو بلعت قهرك، فستتئين عجوزاً بائسة وممرورة مثلي. لا...
هذه المرة يجب ألا نبلع قهرنا.

غادة : ماذا نستطيع أن نفعل؟

ماري : هل تحضرين القشة للغداء؟

غادة : لا.. يشتهي حضرته أن يتناول القشة على العشاء.

واصطحب معه الصغير كيلا يلهيني.

ماري : وفارس يحب القشة أيضاً. ما أؤخم الرجال! إنهم أمعاء تأكل
أمعاء. سأغيب لحظة، وأعود لأساعدك. (وهي تنهض)
انظري ماذا وجدت تحت مئذنته. (تخرج من ثيابه كتاباً،
وتناوله لغادة) لاشك أنه تركه لك.

غادة : (وهي تنظر في الكتاب) نعم.. هذا هو الشعر الذي لم يكن

يمل من قراءته. شعر قرأه لي اثنان.. أخي وهو.. يا الله.. كم
هما متشابهان!

(تخفي ماري في غرفتها، وتقلب غادة في الكتاب تقرأ
بصوت خافت).

غادة : وتغرقان في ضباب من أسى شفيف * كالبحر سرح اليدين

فوقه المساء * دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف * والموت

والميلاد والظلام والضياء * فتستفيق ملء روعي رعدة البكاء

* ونشوة وحشية تعانق السماء..

كان صوته يختلج عذباً وهو يقرأ هذه الآيات. كان حتماً
جميلاً وكنت أنتظره.. يا رب.. لماذا تكون الأحلام الجميلة
سريعة الزوال؟! أكان حقاً هنا.. أم أن امرأتين بائستين كانتا
تحملمان؟

(تخرج ماري من الغرفة، وهي تحمل علبة ملفوفة بأطواق عذّة
من القماش).

: هل حضّرت التبلّة؟

ماري

: نعم.. إنها جاهزة.

غادة

: إذن خذي.. (تناولها العلبة).

ماري

: ما هذا؟

غادة

: إني أحتفظ بها منذ عشرين سنة أو أكثر.. إنّي امرأة خائفة.

ماري

ضيّعت عمري في التردّد والشّفقة. كم مرّة فتحت هذه
العلبة ثمّ أغلقتها! وفي النهاية نفضتُ يدي، واستسلمت.
قلت يا ماري هذا نصيبك.. سأحكّي لك.. نعم حان الوقت
كي أحكي لك.. حين تقدّم فارس للزواج منّي، فرح أهلي
ولم يدقّ أبي في السّؤال عنه. لم أكن جميلة كأختي.
كنت قد بلغت الخامسة والعشرين من عمري دون أن يتقدّم
أحد، ويطلب يدي.. كان أبي وأمي عجوزين كبيرين، وكانا
يخافان أن أظّل وحيدة في هذه الدّنيا بلا زواج أو عائلة،
خاصّة وأنّ أختي هاجرت مع زوجها، ولم يردنا الكثير من
أخبارها.. المهمّ قبل أهلي واشترى أبي لي هذا البيت وماكيّة
خيّاطة كي يجتنبنا الحاجة، وتزوّجت فارس. واكتشفت بعد
الزواج أنّه أعمانا بالأكاذيب.. كان بلا صنعة، ولا يصبر على
عمل، وفوق هذا.. كان مقامرّاً، وكانت يده طويلة، وكان
لا يعاشر إلّا الأوغاد، وكان يدفعني إلى حياة كلّها وحل
وأقذار وأكاذيب..

بعد ليلتنا الأولى بأيّام، بدأت أشعر حرقه في البول، ويلطخ سروالي سائل عفنيّ اللون.. آه يابيتي.. إني أشعر بالحجل، ولكن أريد أن تعرفي كيف عشت. وكيف امتلأت نفسي بالقرف من جسدي ووجودي. لم أكن أجروء على الكلام ولم أعرف ماذا أفعل! في البداية حسبت أن هذا هو الزواج، وأن هذا ما تفرزه العلاقة بالرجال. وكان هو يفعل ذلك الشيء المقرّر ثمّ يدير ظهره، وينام غير عابئ بشيء. وكانت الحرقه تزيد، والسوائل العفنية تتكاثر. وبدأت أشم رائحتي.. وهاتي يا ماري الصابون والماء، وتشطفي كلّ يوم مرّات ومرّات. وماكنت أستفيد شيئاً، فالسوائل لاتقطع، وبدأت الأوجاع تزداد. ملأني شعور بالتجاسة، وبأنّ جسدي حلّت عليه اللعنة. وكانت أمي مريضة، وخجلت أن أسألها عن هذا الطارئ الذي ألّم بي. وعلى كلّ لم يمهلهما المرض طويلاً، ورحلت وهي تظنّ أنّي راضية ومستورة، ولم يعش أبني طويلاً بعدها. كان الحزن يتلو الحزن وأنا أهترئ في وسطي، ويزيد نفوري من نجاستي وبدني. مرّة.. استجمعت شجاعتي، وسألت فارس عن هذه العوارض، فاستخفّ بي، وقال وهو يميح سيجارة.. إنّ وسخ النساء كثير، والمرأة نجاسة مكشوفة.. آه كم خجلت يومها، وكم كرهت نفسي! بعد سنتين من الزواج أو أكثر، بدت عليّ أعراض الحمل. وفي غمرة الفرح نسيت أوجاعي ولم أعد أبالي بالبقع على سروالي. عانيت كثيراً أثناء الحمل، ولكن هذه المعاناة لم تكن تنقص فرحي إلا قليلاً. وفي الشهر السادس.. بعد أن اكتمل في بطني، وتميّزت صورته بدأت أنزف، وأفلت ابني مني..

كان كامل الحلقة حين طرحته.. بصق فارس وهو يلفه بقطعة قماش ثم ذهب ورماء، وحتى اليوم لم أدر هل رماه في الزباله أم في التهر! وقالت لي الداية التي اعتنت بي.. إن ظهرك رخو، فتجرات وأخبرتها عن أوجاعي، والسوائل التي تنزل مني، فأكدت لي أن هذه علامة الرخاوة. وبعد أن فقدت ولدي يا عادة.. زادت آلامي حدة، وصار وضعي لا يطاق. وكنت وحيدة.. لا أعرف ماذا أفعل.. ثم أجرتنا الغربة التي تسكنينها الآن لزوجين شائين. وفي البداية.. لم أطق الصبية. كنت أنفر منها كما ينفر المرء من فضيحة أو من عار. ما أكثر غرائب البشر! تصوّري.. كانت تصدر في الليل أصواتاً تملأ الدار، وتجعلني أنتفض خجلاً في فراشي.

: وما هذه الأصوات؟

غادة

: ماذا أقول لك!.. شهيق ونخر، وصيحات، وكلمات داعرة. أوّل ليلة سمعتها.. لم يغمض لي جفن. بقيت حتى الصّباح أغلب شعوراً بالغثيان. وبعد أيام، كنت أخجل من النظر إليها، وأتقرّز من مبادلتها الكلام. سألتها هل هي مريضة! وما سر تلك الأصوات التي تملأ الدار في الليل؟ فاستغرقت في الضحك حتى كادت أن تنقلب على قفاها، وقالت.. ولو يا جارة.. كيف يخفى عليك هذا الأمر؟ هذه هي.. اللذة التي ما بعدها لذة. قل لي يا عادة.. هل عرفت هذه اللذة؟

غادة

: (خجلة) ما هذا السؤال يا خالة!

: أتخجلين مني؟

: لا أدري.. ربّما عرفتُ بيني وبين نفسي، أو في المنام. وأنت؟

: أتسأليني! لاشيء إلا التقرّز والنفور. ألم يكلم الربّ موسى قائلاً.. كلّ فراش يضطجع عليه الذي له سيل يكون نجساً، وكلّ ما يركب عليه ذو السيل يكون نجساً، وإناء الخرف

ماري

غادة

ماري

الذي يمسّه ذو السّيل يكسر. من يبدأ زواجه بالسّيل، لن
يخبر إلاّ التّجاسة والقرف..

: وماذا كانت علّتك يا خالة؟

غادة

ماري

: عندما ساء حالي، أخبرت تلك الجارة رغم نفوري منها عن
أعراضي. فقالت.. ولكن يا جارة.. هذا مرض، وينبغي أن
تزوري طبيباً. وصرخت.. أعوذ بالله.. وكيف أدع رجلاً
يكشف عورتني؟ فضحكت وقالت.. أنا أذهب معك.
وظلّت تلخّ عليّ، وتخوّفني من العواقب، حتّى وافقتها
وذهبتا إلى الطّبيب. ماذا أقول لك يا غادة! والله تمّيت لو أنّ
أمّي لم تلدني! قال لي الطّبيب، وكان غاضباً.. أما كان
بوسعك أن تبكري قليلاً، إنّك مصابة بسيلان مزمن. وقد
استفحل، وتفاقم بعد الإجهاض. وحين سألته.. ومن أين
جاء هذا المرض! قال لي.. هل عاشرت رجلاً غير زوجك،
فغضبت، وأردت أن أشتمه.. فهذا خاطري وقال لي.. إذن
جاءك من زوجك.

: ومن أين يأتي هذا المرض؟

غادة

ماري

: من البغايا.. لاشكّ أنّه التقطه من إحدى البغايا. والله وحده
يعلم منذ متى.

: أكان مصاباً حين تزوّجك؟

غادة

ماري

: نعم.. ونقله لي في ليلة دخلتي.. تصوّري ماذا كانت هديّة
عرسي!

: وهل عاجلك الطّبيب؟

غادة

ماري

: أصرّ الطّبيب على معاينة زوجي.. وقال لا بدّ من معالجتنا
نحن الاثنين.. عدتّ إلى البيت، وأخبرت فارس، ففار دمه
وغضب، وحلف لو أنّ في ديننا طلاقاً لطلقني فوراً.. قال..
أنا رجل كامل، وليس فيّ أي عيب. حاولت وتوسّلت ولكنّه

ظلّ على عناده، فعدت إلى الطبيب، ورجوته أن يحاول مداواتي دون زوجي.. ووصف لي يا غادة خمسين حقنة، واحدة في الصّباح وواحدة في المساء وتحجّرت عجيزتي وامتلأت بالدمامل، ولم أشف. لأنّ أصل الداء فيه، ولانتقطع العدوى. أف.. تضيق روحي كلّما تذكّرت ما قاسيته تلك الأيام. وليته كان ينفع لشيء. منذ تزوّجته، لم يلزق في مهنة أو عمل أكثر من شهر.. يبدّد وفري ثمّ يعود إلى البيت. يتباكى ساعة من الزمان، ثمّ ينسى كلّ شيء، ويعود للاختيال كأنّه ديك الحارة.. وأنا أشقى وأشقى كي أنفق على البيت وعليه.. وعندما طاوعني، وقبل كارهاً أن يزور الطبيب معي، اكتشفنا أنّ المرض أعقمه تماماً. وصار حظي في الخلفة ضئيلاً. يومها، اشترت هذه العلبة، وكنت مصمّمة على أن أختم هذا الشقاء، وأن أنظف هذا البيت من نجاسته ودنائه وقلة همّته. ولم أستطع.. مرّت أيام، وأنا أحاول.. لم أستطع. كنت أشعر أنّه بائس ووحيد وهزيل الرّوح، فاستسلمت. أبعدت فراشي عن فراشه.. ورحت أنتظر ملهوفة ومحروقة ابناً يأتي، ويقول.. أمي. آه كم شقيّة يا أمي!

: أتلك كانت حياتك يا خالة؟

غادة

: نعم.. تلك كانت حياتي. وحين لاح فرح وتحقّق حلم، فارت فيه الغيرة والنذالة من فرحي وحلمي. وأنت أيضاً.. فقدت الفرح والحلم. تصوّري.. لم يتحمّلا أن نحلم. لم يتحمّلا أن نعيش فرحاً صغيراً. إنّهما يشوّهان كلّ ما هو جميل، ويجعلان الحياة وقتاً لا يطاق. أنا أعرف ما هو خلاصي. جهّزت ثوبي وتابوتي ورخامة قبري. أمّا أنت فهل

ماري

- تريدين أن تنتهي مثلي؟
- غادة : (وهي تبكي) آه يا خالة.. إنك تضاعفين غمي وبأسي.
- ماري : ألا تريدين أن تتخلصي من الغم واليأس؟
- غادة : ليتني أعرف السبيل.
- ماري : ألا تريدين أن تفرحي، وتحلمي، وتجدي ما يصبو إليه قلبك وجسدك؟
- غادة : لا تريدين حسرة على حسرة.
- ماري : دعي التحسر الآن. لن يكون هناك فرح أو حلم، مادامنا يخيمان علينا كظل العفونة. خذي اللعبة وافتحيها..
- غادة : (تتاوّل اللعبة وتفتحها) ما هذا؟
- ماري : ليس ضرورياً أن تعرفي ما هو..
- غادة : (تدور عيناها) أتعنين؟
- ماري : ما لم أستطع أن أفعله في أوانه، يجب أن تستطيعي فعله في أوانه. لا.. ليس وحدك.. سنفعله معاً.. ولكنني أحتاج إلى عزمك وإرادتك.. انظري في داخلك، وتألمي كم أنت مقهورة.. ألسنت مقهورة؟
- غادة : نعم.. إنني مقهورة.. ولكن.
- ماري : ألا تريدين أن تخرجي من هذا السجن إلى فضاء حافل بالوعود؟ ألا يحقّ لنا أن نزيح عن أرواحنا هذا الشقاء! ألا يحقّ لنا أن نحلم؟
- ادة : نعم.. ينبغي أن يحقّ لنا.. قلبي ماذا أفعل؟
- سرس : سنفعل معاً.. هاتي التبلّة..
- (تهبّ غادة، وتذهب إلى المطبخ كي تحضر التبلّة).
- ماري : سل عمري يوماً يوماً، وأنا أتردد. وحين جاءتنني فرحة صغيرة، بدّدها وأطفأها.. اغفر لي يا رب.. اغفري لي أيتها العذراء.. ألم أقض حياتي كلّها، وأنا أدير له الخدّ الأيمن!.

لكن هذه المرة.. أشعر بالغضب والغبن.. حرمني الولد في صباي وفي شيخوختي.. لا.. لا أستطيع أن أدير له الخد الأمين.. إني أشفق على نفسي.. وأشفق على هذه الصبية التي سننطفئ وهي تنتظر.. (تأتي غادة حاملة طبق التبله).

غادة

: ها هي التبله.

: اقسمها نصفين.. هل أنت مترددة؟

ماري

: (وهي تقسم التبله في صحنين) لا.. لست مترددة.

غادة

: نعم.. يجب ألا نتردد.. لم يحتمل أن نحلم، وأن تكون لنا فرحة صغيرة.. أنا ماري التي ربت موتها وكأنها ترتب فرحها، أقول لك.. لن تكون الحياة ممكنة ولن يكون الموت راحة وسلاماً ماداماً معنا..

ماري

(تعجن ماري نصف التبله بالزرنخ)

: أي قطعة من القشة يفضلها زوجك؟

ماري

: (تساوِل قطعة المعدة) هذه هي التي نسميها قبة القاضي.

غادة

: أما فارسي.. فيحبّ السجقات الغليظة..

ماري

(يبدآن في حشو القطع بالتبله).

: ما أؤخّم هذه الأكلة! الآن أتذكر شهيق تلك الجارة.. كانت طيبة وصاحبة لهفة. لكن لم أستطع التغلب على تفزّزي طوال المدة التي سكنت فيها هذه الغرفة.. آه لو سمعت تلك الأصوات!

ماري

: ربّما كانت سعيدة..

غادة

: نعم.. لم تكن تخفي سعادتها، وكانت تقول.. تلك هي اللذة التي ما بعدها لذة..

ماري

: ربّما كان صحيحاً ما تقوله!

غادة

: أتظنّين؟ كيف تولد اللذة مع الدّنس والفجور وأفعال البهائم؟

ماري

: آه يا خالة.. نحن امرأتان شقيتان، لا نعرفان عن السعادة

غادة

واللذة إلا التخمينات والأوهام..
: هذا حق يا غادة.. ما نحن في النهاية إلا امرأتان شقيتان..
(يستمر المشهد فترة وهما تحشوان الأمعاء، ثم تتلاشى
الإضاءة ببطء).

ماري

المشهد الثامن

(في أرض الدّيار. وُضعت طاولة يجلس حولها كاظم وفارس.
على الطاولة مازات وعرق)

: هذه ليلة ملوكيّة بعد موجة البرد، عاد الجوّ خريفيّاً ولطيفاً.
هل أنت بردان؟

كاظم

: وهل يجتمع البرد مع هذه التّار المباركة؟ كاسك!
: أي والله.. كاسك يا أبا الفوارس.. الآن اخلوّ المكان، وصار
المرء يشعر أنّه يسكن في بيت. لا أخفي عليك.. بعد حادثة
هذا المحتال فكّرت بالبحث عن بيت آخر. ولكنّي أشعر اليوم
أنّي أحبّ هذا البيت، وأحبّ هذه الجيرة.

فارس

كاظم

: البيت بيتك يا حضرة المساعد.. وأعدك ألاّ تتكرّر تلك
الغلطة.

فارس

: يا سيدي.. لماذا لا نسدّ باب الغلط من أصله، ونرتاح؟ أفكّر
أن أستأجر الغرفة العلوية.

كاظم

: سيكون ذلك عظيماً. ولاشكّ أنّ ماري سترحبّ بالفكرة.
: كن رجلاً يا فارس.

فارس

كاظم

: لا تجرؤ ماري على كسر كلمتي. والغرفة على حسابك منذ
هذه اللّحظة.

فارس

: أي هذا هو الكلام..

كاظم

(يدخل ثائر حاملاً صحناً فيه بصل مقطّع).

- كاظم : هات يا ناثر.. البصل زينة الطاولة. تعال يا بني.. (يحمل كاظم ابنه، ويضعه في حضنه، يقرب الكأس من فمه) اشرب قرفة..
- ناثر : (مشيحاً بوجهه) لا أحبه..
- كاظم : ألا تريد أن تصبح رجلاً؟ الرجل تقطمه أمه على حليب السّباع.
- ناثر : آخ.. حرقني..
- كاظم : طيّب.. طيّب.. خذ.. ألا تحبّ اللوز والبندق؟
- فارس : ماشاء الله.. إنه أكبر من سنّه وجواباته على رأس لسانه!
- الأمّ : (من المطبخ) ناثر.. تعال يا ناثر..
- كاظم : (ينزل عن حضن أبيه، ويذهب إلى أمّه).
- فارس : قل لأُمك أن تعجّل بالقشّة.. اشرب يا رجل..
- كاظم : سأشرب نخب مقامك الجديد.
- فارس : أتيت بها في وقتها.. نحتاج هتتك يا أبا الفوارس.
- فارس : أنا جاهز.. ولكن بماذا أستطيع أن أخدم؟
- كاظم : أنت هنا ابن الحي، وتعرف جميع أهله.. ويمكن أن تطلع بسهولة على أفكار الناس وأحاديثهم. إنّ الثورة تحتاج إلى حماية يا أبا الفوارس. وفي البلد طابور خامس من الرجعية، وعملاء الناصرية، ومأجوري الشيوعية. وهؤلاء كلّهم جرائم إذا لم نفتك بهم، فتكوا بالثورة. الثورة قويّة، ولكن اليقظة واجبة. والشعب الطيّب هو الذي ينبغي أن يحمي ثورته، ويفضح الذين يعادونها أو يتآمرون عليها. أنا أعرفك مواطناً صالحاً، وأعرف أنّك من مؤيدي الثورة.
- فارس : طبعاً.. أنا أوّيدكم. في حياتي كلّها، لم أعارض الدولة ولم أكن من أهل المشاكل.
- كاظم : طيّب.. في البداية لا أريد إلاّ أن تتسّم أخبار الناس في الحيّ

وتنقل لي أحاديثهم. ينبغي أن تزور الناس في بيوتهم، وأن تفتح معهم أحاديث، وتتعلم كيف تخرجهم إلى الكلام. ولا تنسَ المقهى.. المقهى مكان عليك أن تتردد عليه يوميًا، وأن تصغي إلى مايقال خلصة، ودون أن تثير انتباه أحد.

: آه يا حضرة المساعد.. أنا أخدمك بعيوني، ولكن كما تعرف اليد قصيرة. المقهى يحتاج إلى نفقات.. ومن تزوره في بيته يجب أن تستقبله في بيتك، وتحضر له الضيافة.

: فهمت.. فهمت.. إنني لا أطلب منك خدمة بالمجان. سنصرف لك نفقة. وربما استطعت أن أوفر لك معاشاً شهرياً.

: (مذهولاً) أنا.. يكون لي معاش شهري؟

: ولم لا؟ إن الثورة كريمة مع من يخدمها، ويدافع عنها.
: أتعني أنني سأكون كموظفي الدولة، ولي راتب أقبضه كل شهر؟

: نعم.. إذا أبديت همّة، وقدمت لنا خدمات طيبة.. فإني أعدك أن تغدو موظفاً، وأن تخشخش الفلوس في جيбок آخر كل شهر..

: (مبهوراً) وحياة شواربك.. هذه تحتاج إلى فتلة.. (ينهض عن كرسيه، ويتجهتاً للرقص) أنا الذي أمضيت عمري بطالاً ويستيني الناس رمة لا تصلح لشيء، سأدخل الحكومة وأصير موظفاً! إن عقلي يكاد يطير.. حقاً.. يحتاج الأمر إلى فتلة..

(يصق يديه، ويبدأ بالتمايل راقصاً).

: اتفقنا؟

: بارك الله فيك. طبعاً.. اتفقنا. منذ الآن اعتبرني خاتماً في إصبعك.

فارس

كاظم

فارس

كاظم

فارس

كاظم

فارس

كاظم

فارس

- (يصفق كاظم بحمية وبهجة.. بينما يتفعل فارس حول الطاولة راقصاً. تدخل ماري ووراءها ثائر حاملة صينية، رُصّت فيها قطع القشّة، وتضعها على الطاولة).
- ماري : يا عترتي.. هل سكرت.. أم جنت!
- فارس : عندما أحكي لك يا ماري، ستغيّرين لهجتك، وربما تفكّلتِ معي..
- ماري : لا كان ذلك اليوم.. احترم شيتك، وعد إلى كرسيك.
- ثائر : (وهو يضحك) ماما.. ماما.. تعي تفرّجي.. عمّو فارس سكران..
- ماري : خزيت العين.. فرجة لا تُفوّت.. أي والله سكران. اجلس يا رجل وكفاك بهدلة.
- كاظم : لاتزيدوها يا جارة، نحن أهل، وفارس اليوم فرحان، فدعيه يأخذ راحته.
- فارس : (وهو يجلس) عندما أحكي لك، ستعرفين أنّ الأمر يستحقّ الرقص.
- ماري : طيّب.. طيّب.. اجلس مثل الخلق، ولا تجعل نفسك مسخرة.
- (تركهما ماري وتخرج. يقي الصغير يحاول تقليد فارس، ويضحك).
- كاظم : (بصوت خافت) ما هذا يا فارس! هذا الشغل لا ينفع معه اللسان الفالت..
- فارس : هل أخطأت؟
- كاظم : نعم.. أخطأت.. ما اتفقنا عليه يجب أن يظّل سرّاً، لا يعرفه أحد في العالم.
- فارس : ولا ماري.
- كاظم : ولا أي مخلوق.. إذا انكشفت أو شاع أمرك، فلن تستطيع

أن تفيدنا في شيء. ينبغي أن تظلّ هذا الرجل الدرويش الذي يسمّيه الجميع رمة لا تصلح لشيء. حتّى لا يتحاشوك، أو يحاذروا من الكلام في حضرتك. لم أعرض عليك هذا الشغل إلا بعد تدبّر. فأنت.. لا مؤاخذه لا يعبرك أحد. ولن يخطر ببال إنسان أنّك مخبر.. وأنّ لك صلة بالأمن. ينبغي أن تكون كتوماً، وأن تحافظ على مظهر الفقر والكسل وقلة الهمة. على كلّ سادّربك على العمل شيئاً فشيئاً. ولكن إيتاك أن تفوه بكلمة واحدة عمّا دار بيننا.

: حاضر.. قلت لك.. اعتبرني خاتماً في إصبعك..

: عظيم.. كاسك..

(يرفعان كأسيهما، وبعد الدقّ يرشف كلّ منهما جرعة كبيرة من كأسه).

: أي.. يا أبا الفوارس. ماذا تحبّ في القشة؟

: في الحقيقة.. أنا أحبّ السجقات الغليظة..

: أمّا أنا.. فأحبّ هذه المدوّرة التي نسميها قبة القاضي..

اسمع.. ليس بيننا تكليف.. أنا عادة لا أكل إلا بعد أن أعبئي مخي، كلّ واحد وله مزاجه، فلا تنتظرنني ومدّ يدك. أنت لانتحاج إلى دعوة.

: والله إني مثلك. أفضل الأكل على مخّ عامر. وأنا كما قلت لا أحتاج إلى دعوة (موجّهاً الكلام إلى ثائر) وطرزان الصغير.. ماذا يفضل. قبة القاضي أم السجقات؟

: (مقترباً من الطاولة) أنا أحبّ هذه.. (ويشير إلى السجقات).

: عظيم.. طرزان يحبّ السجقات (يتناول قطعة مصران ويمدّها إلى ثائر) خذ.. كلها بالعافية والهنا.

: لا. منعتني أُمّي أن أكل عندكم..

: ولماذا تمنعك! هذه امرأة خسيّفة العقل، وإذا أطعتها يا ثائر لن

فارس

كاظم

كاظم

فارس

كاظم

فارس

ثائر

فارس

ثائر

كاظم

- تصبح رجلاً.. أنت رجل ويجب أن تأكل مع الرجال..
خذا من يد عمك فارس.
- ثائر : أمي تزعل..
كاظم : دعني من أمك وخذا..
(يأخذها ثائر، ويدأ في التهامها).
- ثائر : ماما.. أنا أكلت مع بابا..
(يتناول كاظم قطعة أخرى، ويمدّها إلى ثائر).
- كاظم : أي كل.. حبيبي.. كل..
ثائر : ماما.. بطني..
(تأتي غادة، راكضة وماري تهول إثرها).
- غادة : ماذا فعلت؟
ثائر : جبرني بابا..
غادة : (بصوت مفجوع) لا.. لا..
كاظم : ماذا دهاك؟
- ثائر : (يصرخ كمن يلهب جوفه) بطني.. بطني.. (يقع على الأرض.. ويدأ في التقيؤ، بينما يتحوّل لونه أزرق مخضراً.. بصوت واهن، ومحشرج).. ماما..
كاظم : ماذا هناك!.. أفهمونا.. ما القصة؟
- غادة : (تلفف غادة الطفل الذي يتمرّغ في قيته، ويختلج اختلاجات مختقة، بينما ترتعش ساقا ماري.. وتسقط على الأرض)..
(مولولة) سمّت ابني.. أنا سمّت ابني.. (تنظر إلى كاظم بحقد) وأنت.. لماذا لم تأكل! كل.. قتلت لي صغيري ولم تأكل.. انظر إلي.. أنا سأكل. وهل بقي لي إلا أن آكل؟
(تمد يدها إلى الصحن، وتحاول أن تغرف ملء يدها، يمسك كاظم معصمها، ويرمي الصحن على الأرض).
- ثائر : (يحشرج متلاشياً) ماما..
غادة : يا عين ماما.. (تشدّ ذراعيها على الولد، وتدور في أرض

الغرفة دورانا هستيرياً) تعالي يا ماري، وانظري. لا مجال للحلم.. لا مجال للتمني.. لاشيء إلا الموت.. لا شيء إلا الظلام والموت.. أين أنت يا أخي! أين الشعر في هذه الدنيا!. أين غابة التخيل والشرفة التي ينأى عنها القمر! لا الحلم ممكن، ولا التمني ممكن. لاشيء إلا الظلام والموت. (يهرع فارس نحو باب الدار. يلاحظه كاظم الذي بدأ يتخلص من ذهوله، ويستعيد تماسكه).

: (بحدّة) أين تذهب؟

كاظم

: سأستدعي طبيباً..

فارس

: لا نريد طبيباً.. (يمسك امرأته ، ويدفعها نحو غرفتهما) وأنت كفى ولولة.. وادخلي إلى الغرفة.

كاظم

: (تتجه نحو الغرفة كالمثومة) وما الفائدة! سيظلّ لهماً لاصقاً في الصدر إلى الممات. لن أفارقه، ولن يفارقني.. سينام معنا. وسيفصل بيننا كجدار من الكراهية والدموع..

غادة

: (وهو يدفعها) قلت.. ادخلي إلى الغرفة..

كاظم

: وما الفائدة! ستحرقني ناره أينما كنت..

غادة

(تخفي في الغرفة).

: والآن.. أصغيا إليّ جيداً. لم يحدث شيء. كان قضاءً وقدرًا. لا أريد لغواً، ولا أريد لنا وعجنًا. ولو فاحت رائحة أو فضيحة، فإنكما ستدفعان الثمن غالياً. هل بلغك كلامي يا فارس؟

كاظم

: نعم يا حضرة المساعد.. وأعدك ألاّ تقلت من فمي كلمة.

فارس

: إذن.. ادخلا غرفتكما. وانسيا ما حدث...

كاظم

(يساعد فارس ماري التي تشهق بالبكاء على النهوض..

ويمضيان بخطوات متعثرة إلى غرفتهما..).

: تذكر.. لا أريد همساً ولا وشوشة..

كاظم

- فارس : مفهوم يا حضرة المساعد.. مفهوم..
(يغيب فارس وماري في غرفتهما.. يظلّ كاظم وحده. يتناول
كأسه المليء ويرشفه دفعة واحدة).
- غادة : (تتأهى ولولتها من الغرفة) يا عين ماما.. سأحفر صدري
وأمدّدك فيه. قتلِك ولم يأكل. لا الحلم ممكن. ولا التمني
ممكن.. لاشيء إلا الظلام والموت..
(يتّجه كاظم نحو الغرفة.. وتتلاشى الإضاءة).

المشهد التاسع

(في غرفة ماري، ماري في فراشها. وفارس تمتد على
الديوانة)

ماري : (بصوت هامس وخاشع) أبانا الذي في السماوات.
فارس : تأخراً في العودة من البلد.
ماري : ليتقدس اسمك.. ليأت ملكوتك.
فارس : ماري.. أحقاً كنت تريد أن أموت!
ماري : كان ينبغي أن نفرق منذ زمن بعيد. أن يموت أحدهنا أو
كلانا.
فارس : يا الله.. كم غيّرَكَ ذلك الولد المحتال!
ماري : لا تذكره على لسانك..

(فترة صمت)

فارس : أيمكن أن تتركيني بلا تابوت؟
مارس : اسكت الآن.. ودعني أكمل صلاتي..
فارس : بعد هذه العشرة، يحقّ لي أن أحصل على تابوت لطيف
كالتابوت الذي أوصيت عليه، ودفعته ثمنه.

(فترة صمت).

فارس : أنا لا أفهم كيف طاولك قلبك على شراء تابوت ورخامة
لك وحدك ماري.. أنا أيضاً أريد أن أرتب موتي..
ماري : اسكت.. ودعني أتم..

- فارس : لا أستطيع أن أنام.. تصوّري أن أموت الليلة، وليس لدي تابوت. من حقّي عليك أن تشتري لي تابوتاً.
- ماري : نعم الآن.. وغداً يفرجها الله..
- فارس : هل وافقت؟
- ماري : (بحقّ مقهور) وماذا أفعل؟ سأحمل عبأك في الموت، كما حملت عبأك في الحياة.
- فارس : هذه هي ماري التي قلبها من ذهب.. ماري العذبة واللطيفة.. نعم هكذا هي ماري التي أعرفها وأريدها.. كدت أعتقد أنّي ضيّعتك، الآن سأنام مرتاحاً. حقاً.. إنّني مرتاح..
- ماري : أبانا الذي في السماوات.. ليتقدّس اسمك..
- فارس : خبأت عنك سرّاً.. أتعلمين!.. كان ممكناً أن أغدو موظفاً في الدولة والمسألة هيّة. لا يطلبون منّي إلاّ مراقبة أهل الحيّ، ومعرفة ماتحت ألسنتهم.
- ماري : هذا هو العمل الذي يليق بك؟ أن تتعيّش من التلصّص، وأذى الناس.. يا الله.. ما أؤخّم روحك يا فارس!
- فارس : مقبولة منك يا ماري. على كلّ، قرّطت قبل أن تبدأ، وبعد وعيدك لم أعد أبالي. لا يهمني أيّ شيء إلاّ رضاك يا ماري.. هل أنت صافية وراضية؟
- ماري : نعم.. ولا تقاطع صلاتي..
- فارس : قولِي.. إنّك راضية عني..
- ماري : (صائحة بغضب ونفاد صبر) إنّني راضية.
- فارس : سأنام مرتاحاً.. حقاً إنّني مرتاح..
- ماري : (تتمّم بنرفزة) أبانا الذي في السماوات.. ليتقدّس.. أبانا الذي في السماوات ليتقدّس اسمك.. ليأت ملكوتك.. لتكون مشيقتك كما في السّماء كذلك على الأرض.. أعطنا يا ربّ

خيزنا الجوهري كفاف يومنا.. ولاتدخلنا في التجارب..
ولاتدخلنا في التجارب..
(يتلاشى الصّوت والضوء ببطء).

ستار

١٩٩٤

مكتبة سحر الأريكة
www.books4all.net

مُنَمَّاتٌ تَارِيخِيَّةٌ

المنمنمة الأولى

الشيخ برهان الدين التاذلي أو القزيمة

مؤرخ قديم ... ثم دخلت سنة ثلاث وثمانمائة والخليفة أمير المؤمنين التوكل على الله والسلطان الناصر فرج بن برقوق. وكان سعر غرارة القمح خمسين درهماً، والشعير والفول بثلاثين فما دونها، والأرز بمائة وخمسين درهماً. وهذا الغلاء في مصر والشام لم يعهد من قبل.

وفي التاسع من المحرم قدم البريد من دمشق بأن تيمور لنك نزل على سيواس.

وفي ثاني عشره يوم الخميس، استقر القاضي نور الدين بن مكّي الدميري قاضي قضاة المالكية عوضاً عن القاضي ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون على مال وعد به.

وفي سلخه انحصر السلطان من قاضي قضاة المالكي ابن مكّي الدميري فعزله وأعاد ابن خلدون المالكي.

وفي صفر، أوّل الثلاثاء، في ثانيه وُجد شاب أمرد قد قتل ورُمي في التربة التي بالحدرة، فأُخذ وغُسل وكُفّن بوزره، ولم يعرف من هو، ولا من قتله، نسأل الله العفو. وفي سابعه وصل إلى دمشق مبعوث السلطان الأمير آسبنغا ومعه رسالة إلى النائب والقضاة بخروج العساكر الشامية إلى حلب، وفيها يحضّ على قتال تيمور، ويقول وإنا واصلون عقب ذلك.

وفي خامس عشره خرج نائب دمشق ومعه العساكر الشامية قاصداً حلب، ونودي في البلد بمنع الناس من كراء الدواب للسفر ومنع الناس من المسافرة، ونودي أيضاً بأمر القضاة بالكفّ عن المنكرات.

وفي ربيع الأول، في ثانيه، عمل السلطان المولد النبوي على العادة.

وفي خامس عشره وصل بريدي إلى دمشق ومعه بطاقة بكسرة العسكر الشامي وسقوط مدينة حلب في يد تيمورلنك. وقد فعلوا فيها من الأفعال الشنيعة ما تشيب له النواصي على ما سنين، نسأل الله النجاة. ونودي على الناس بالتحول إلى البلد، والاستعداد للعدو. فاخبط الحال، وحصل الضجيج والبكاء، وأخذ الناس في التقلّة من حول البلد إلى داخلها.

وفي ثامن عشره وصل الهاربون من حلب وحماة، وأخبروا أن تيمورلنك متوجه بعساكره إلى دمشق. وفي تسع عشره همّ نائب الغيبة في دمشق بالفرار، فوقف له العامة وأهل القبيبات ينتظرونه، فلما خرج، ضربوا بالمقاليع وسلّوا السيوف ونالوا منه، فرجع إلى دار السعادة. وفي نهر بردى يجري الماء في غاية الضحالة وقد كثرت الضفادع فيه كثرة فاحشة.

تفصيل (١)

(ساحة صغيرة وسوق تجارية..)

- النادي : (مع دقات الطبل) يرسم نائب الغيبة ويأمر. يا أهل الشام..
يُمنع إشهارُ السلاح أو الضرب بالمقلع، يا أهل الشام.. يُمنع
التعرض لمن أراد السفر، ونسلم المدينة بالأمان.
(يعترضه شاب يتقلد سيفاً، ويتجمهر الناس، دلالة التاجر
وابنه علاء وآخرون..)
- أحمد : اخرس. قطع الله لسانك.
النادي : إنها أوامر النائب.
أحمد : اذهب، وضع أوامر النائب في دبره.
النادي : ومن تكون أيها الغر؟! اشهدوا يا ناس.. إنه يسبّ النائب.
أحمد : (مجرداً سيفه) امش قبل أن أبلي بك.
النادي : (وهو يخرج فرعاً) انتظر حتى أخبر النائب. أيها الناس
سأطلب شهادتكم.
- أحمد : ومن يخاف هذه الحرمة! امش وإلاّ بعجت بطنك وطبلك.
دلالة : لماذا تحامقت عليه أيها الشاب؟
أحمد : ألم تسمعه! إنه يحضّ الناس على الفرار.
دلالة : هذه شؤون خطيرة، ولا يجوز أن يخوض فيها إلاّ الكبار.
أحمد : بل يجب أن يخوض فيها الجميع.
دلالة : والله ما أفلحنا إذا صار كلّ واحد في هذه المدينة رأساً.

- أحمد : والله ستضيع رؤوسنا، إذا بقي هذا النائب رأساً.
 دلالة : ولكن أخبرنا من أنت؟
 أحمد : أنا ابن الشاغور. قدوتي وشيخي برهان الدين التاذلي، فأخبر بما علمت.
 (يخرج).
 بهاء : ما أعجب جرأته!
 دلالة : تناول ولكاعة.. لا أصدق! الشيخ التاذلي عالم تقّي، وهو يعرف الأصول والمقامات.
 (يدخل رجل غريب رث الهيئة يكاد يتساقط من الإعياء، ومعه غلام يسنده، يلتف حولهما الناس).
 رجل ١ : الرجل قادم من حلب.
 رجل ٢ : أكنت هناك؟
 الحلبي : إي ورّتي الذي نجّاني من الهلاك.
 دلالة : ماذا وراءك؟
 الحلبي : الجوع والفرع.
 دلالة : نسألك عن حلب وتيمور!
 الحلبي : ضاعت حلب، ولم يبق فيها ما هو قائم إلاّ مئذنة من الجماجم.
 رجل ٢ : مئذنة من الجماجم!
 الحلبي : إي ورّتي. بنى من رؤوس القتلى مئذنة لا مثيل لها محيطاً وارتفاعاً.
 رجل ٢ : يا عفو الله!
 رجل ١ : هذه أشراط الساعة.
 دلالة : وعسكرنا؟!
 الحلبي : عسكرنا؟ ماذا أخبركم! لم تبدأ المعركة حتى انهزم الأمراء والفرسان. داسوا المشاة وهم يولّون الأدبار. وسيوف الكفار

وراءهم تنقضّ على الراكب والراجل. جرت مقتلة عظيمة،
ولم يجر قتال. يقولون إن أمير حلب واطأ تيمور، والله أعلم
بحقيقة الحال.

رجل ١

: لا يواطئ هذا الكافر إلا كافر مثله.

رجل ٢

: كم مرّة هزمتنا الخيانة دون قتال!

دلامة

: دعكم من الأقوال والحكايات.. هذا العدو لا يحتاج إلى
مواطأة أمير. إنّه يقتحم الممالك والبلاد كأنّه إعصار.

الحلبي

: إي ورّبي إنّه إعصار من الدمار.

دلامة

: وهل تعرف أين وصل الآن؟

الحلبي

: في الطريق، علمت أنّه وصل حماة.

رجل ١

: إذن هو أقرب ممّا نحسب.

رجل ٢

: لعله الآن في حمص.

رجل ١

: ومع هذا لا شيء ينبئ بأن السلطان قادم.

رجل ٢

: ماذا نفعل؟

الحلبي

: احملوا ما خفّ وغلا، واطلبوا أطراف البلاد.

رجل ١

: أهذا ما تنصح به؟

الحلبي

: لو رأيتم بعض ما ارتكبه في حلب، لقلتم هذه هي
النصيحة.

رجل ٢

: ربّما كان الرحيل هو الحلّ.

(يدوون بالانسحاب)

دلامة

: ما أعلنه النائب هو التدبير السديد. نسلم المدينة بالأمان.

رجل ١

: يا نجّي الألفاف نجنا ممّا نخاف.

الحلبي

: يا أهل الخير.. لاتنسوا حاجتي.

دلامة

: وما حاجتك؟

الحلبي

: لقمة تسدّ الرمق ومكان آوي إليه.

دلامة

: ألا تحمل مالا أو ذهباً؟

- الحلبي : والله يا أخي كان لي أهل وكنت ميسور الحال..
(يغص بالبكاء).
- صوت : (بين الأئين والصياح) يمه.. يمه..
دلامة : جاء شعبان المجذوب.. عمي.. الجامع قريب، وقد تجد فيه
رغيفاً وحصيراً.
(يدخل شعبان - وهو رجل مجذوب - ثيابه أسمال غريبة،
يتعد دلامة).
- شعبان : يمه.. يمه.. هاتي برك يمه. جوعان.. حليب.. حليب.. يمه..
(يحدق في الغلام الذي يندس في خاصرة أبيه. بهدوء
مخيف) هاتي برك يمه..
الحلبي : (متفضأ) هذا غلام. إنه ابني.
شعبان : يمه جوعان.
الحلبي : ونحن أيضاً جائعان. منذ يومين لم نأكل شيئاً. ليتنا متنا مع
أهلنا في حلب.
شعبان : (بعذوبة) جائعان!
- الحلبي : يا ابن الحلال يكفيننا ما نحن فيه.. (يضم الغلام إليه) لماذا
نجنونا.. أما كان الموت أستر؟
(يُخرج شعبان من كيسه رغيفاً وسفرجلة، ويضعهما في
حضن الرجل).
- شعبان : يمه هاتي برك يمه..
(يدخل النادي يحرسه مملوكان يشهران سيفيهما..).
- النادي : يرسم نائب الغيبة ويأمر.. يا أهل الشام.. يُمنع إشهار السلاح
أو الضرب بالمقلع. يا أهل الشام.. يمنع التعرض لمن أراد
السفر. ونسلم المدينة بالأمان.
(تلاشى الإضاءة).

تفصيل (٢)

(ديوان في قلعة دمشق. نائب القلعة الأمير عز الدين آردار، ومعاونه شهاب الدين الزردكاش.. والشيخ برهان الدين التاذلي).

- التاذلي : المدينة تجيش وتضطرب أيها الأمير.
 آردار : ما الأمر؟
 التاذلي : تلبلت الخواطر، والناس تتزاحم على السفر.
 آردار : أيخلون المدينة؟
 التاذلي : رؤعتهم الأنباء، وليس من يقودهم في هذه الشدة.
 آردار : ماذا يفعل نائب الغيبة إذن؟
 التاذلي : حاشا الحاضرين.. إنه يخرأ في سرواله.
 آردار : يا شيخ!!
 التاذلي : تلك هي الحقيقة. ما ظهر من جنبه وحمقه قطع حيل الناس.
 ألا تعلم! لولا رجال القبيبات وفتيانني، لفرّ تاركاً البلد وشأنه.
 وفي هذه الساعة يدور مناديه داعياً إلى تسليم البلد بالأمان.
 آردار : يسلم البلد؟! ومن أجاز له ذلك؟ ما رأي السلطان؟ ما رأي العلماء والأعيان؟
 التاذلي : وهل سأل أحداً رأيه؟
 آردار : لا.. لا نوافق على تسليم البلد. هذا طيش وحمق.
 التاذلي : ولهذا فإن المدينة تستجير بك أيها الأمير.

- آزدار : ماذا يمكن أن أفعل؟ أنا أتصرف في هذه القلعة. وقد حصّنتها
أفضل تحصين، وتهيّأت مع رجالي لكل ما يأتي.
- التاذلي : أعرف أنك حصّنت، وأنتك تهيّأت. مثلك أيّها الأمير لا يقال
له ما ينبغي أن يفعل. لكنّ المدينة وقلعتها جسد واحد.
وتحصين بعض الجسد لا يفيد، إذا كانت بقيته مكشوفة
يتناهبها الرعب والفوضى.
- شهاب الدين : أياذن لي الأمير؟
آزدار : تكلم.
- شهاب الدين : ما يقوله الشيخ صحيح. تحصين القلعة لا يكتمل، إلّا إذا
حصّنت المدينة، وضبط أمرها.
- آزدار : هل أدعي حقاً ليس لي!
التاذلي : في هذا الوقت، المدافع عن الحق له كل الحقوق.
- شهاب الدين : ومن أجدر منك بحماية المدينة حين يتخاذل نائبيها؟
آزدار : أخشى أن يُنسب ذلك إلى الطمع، أو أن يغضب السلطان.
- التاذلي : لايجوز أن تشغل بالك هذه الهواجس. إنّنا لا نبسط لك
نفوذاً، بل نلقي على عاتقك أمانة ثقيلة. فكيف يمكن أن
يُذكر الطمع، أو أن يغضب السلطان!
- شهاب الدين : من المهم أن تظلّ دمشق حصينة، سواء عزم السلطان على
الحرب. أم قدّر علينا أن نواجه العدو وحدنا.
- التاذلي : هل ترضى أيّها الأمير أن تسلم المدينة بلا قتال؟
آزدار : أعوذ بالله.. كيف أرضى؟
- التاذلي : إذن تولّ أمرها، واضبط شؤونها.
- آزدار : ونائب الغيبة! ماذا نفعل به؟
التاذلي : دعه يهرب، أو ارفعه إلى القلعة.
- آزدار : لا أستطيع أن أرفعه إلى القلعة دون أمر سلطاني.
- شهاب الدين : نطلب منه أن يسافر إذا أحبّ، أو يلزم قصره.

التاذلي

: فليسافر، ولنغلق أبواب البلد خلفه.

آزدار

: وهل يشاطرك العلماء، والأعيان رأيك يا شيخ؟

التاذلي

: العلماء والأعيان أهل دين ونخوة. وهم يعرفون أنهم مكلفون

بحفظ البلد وحمائته. اللهم صل على محمد وعلى آله،

وصحبه أجمعين.. كنت أترجّح بين النوم والصحو، حين

واقفاني حبيب الله، النبي المصطفى. اقشعرت الظلمة حوله،

وتهاربت. كان يلقه سربال أخضر، وكان وجهه كالسراج

المثير. اقترب، وفاض حولي خضرة ونوراً. وبصوت عميق

حنون قال لي.. هذه المدينة عزيزة على قلبي، فانهضوا

وحاموا عنها. والذي بعثني رسولاً، وأسكنني جنّته، لن تقوم

لكم قائمة إذا دخلها عدوي تيمور. ولا تخشوا الموت فأنا

جالس على الضفة. ثم انفتل عني وابتعد. فزعت من الفراش

محموماً، فترأت لي نجمة تنأى، وتختفي في العتمة. قل لي

أيها الأمير.. أهنأك تكليف أوضح من هذا التكليف؟

آزدار

: إن شاء الله، لن يدخلها ونحن أحياء.

التاذلي

: إذن فلنبادر إلى تهدئة الخواطر، وتنظيم الدفاع عن الأسوار.

آزدار

: ليحضر المنادي.

شهاب الدين

: سأدعوه حالاً.

آزدار

: وأنت يا شيخ، اجتمع العلماء وادعُ الناس إلى المصابرة

والجهاد.

التاذلي

: اتكل عليّ في هذا الأمر.

(يتلاشى الضوء).

تفصيل (٣)

(بيت في المدينة. خديجة ومروان، زوجان شابان).

- مروان : هل نتكل على الله؟
 خديجة : كما تريد.
 مروان : لا يبدو أنك راغبة.
 خديجة : لا تهتم بي. قلت لك فصل وأنا ألبس.
 مروان : هل تفضلين أن نبقي؟
 خديجة : أفضل ما تختاره.
 مروان : أصدقيني القول.. هل تريدان السفر أم البقاء؟
 خديجة : ألا تزعل؟
 مروان : ولم الزعل؟
 خديجة : أفضل البقاء.
 مروان : هذا رأي أخيك.
 خديجة : لا.. لا علاقة لأخي، هذا ما أشعر به. ينعصر قلبي، كلما
 فكرت في السفر. ومن يدري.. قد نخسر بيتنا، والتؤل الذي
 هو رزقنا.
 مروان : نعم.. التؤل! وهل يكسر رجلي إلا هذا التؤل؟ تعبت كثيراً
 حتى ارتفعت من أجير إلى صاحب نول.
 خديجة : ماذا يحل بنا إذا ضاع؟!
 مروان : ولكن ما نفع التؤل والبيت إذا خسرتك.. لم نكد نبداً

- حياتنا. إني خائف عليك.
- خديجة : فوّض الأمر لله يا ابن عمّي. لن يصيبنا إلّا ما يصيب الجميع.
- وإذا بقي المرء مع أهله وقومه خير من أن يتشرّد في الدروب والفلوات.
- مروان : لو علمت أفعالهم في حلب! فظاعات.. فظاعات تقشعر لها الأبدان! لا.. الأسلم هو أن نسافر حتى تنجلي هذه الغمّة.
- خديجة : الصرّة جاهزة، وفيها كل مايمكن أن نحمله.
- مروان : نعم.. السفر أفضل من البقاء. القادم من حلب قال لنا.. تلك هي النصيحة. نعم.. علينا أن نتوكل على الله ونسافر. ألم تنسي شيئاً؟
- خديجة : كم مرّة تفقّدنا الصرّة!؟
- مروان : كأنك غاضبة.
- خديجة : بل تعبت من التردّد والجدل. منذ الفجر ونحن نعدّب أنفسنا.
- إذا عزمت فلنمش..
- مروان : أتظنّين أنّ القرار سهّل! أن أترك كلّ شيء.. التول، والبيت وعملي.. أنا أيضاً متردّد. ولكن حين أتخيّل أنّهم يفعلون...
- بنا تلك الشناعات، ينطفئ الضوء في عيني.
- خديجة : لا ريب أنّك تقدّر الأمور خيراً منّي.
- مروان : أتقولين ذلك مسaire أم اقتناعاً؟
- خديجة : يا ابن عمّي.. أعيد وأكرّر.. فضّل وأنا ألبس.
- مروان : ما أحلى وجهك هذا الصباح! المال يروح ويجيء.. أما أنت.
- فأين أجد أنت؟ (يضمّها، ويهويان معاً على السرير) كيف يمكن أن أخطر بك؟! هل أخطر بالحرير، وفواكه الجنة؟!
- خديجة : ألن نسافر؟
- مروان : دعيني أنزود من عسلك قبل السفر.
- خديجة : لا.. ليس الآن. مروان..

- (طرق على الباب)
- مروان : (يقفز مبغوتاً، ويسوي ثيابه) من؟.. تواري حتى أفتح الباب.
- أحمد : (يقترّب من الباب) من؟..
- أحمد : (من الخارج) أنا أحمد.
- مروان : (وهو يفتح الباب) إنّه أخوك..
- أحمد : (وهو يدخل) خفت ألا أجدكما..
- مروان : (بعصيّة وحزم) أنا وخديجة، قررنا أن نسافر اليوم.
- أحمد : هل وافقت يا خديجة؟
- خديجة : ربّما كان مصيباً يا أخي.
- مروان : لن نعود إلى مناقشة الموضوع. يكفي نقاش الأمس.
- أحمد : لم يعد هناك ما نناقشه.
- مروان : ماذا تعني؟
- أحمد : لا سفر بعد الآن.
- مروان : هل تفرض علينا البقاء!
- أحمد : فارس القلعة وأميرها هو الذي يفرض على الجميع البقاء.
- أغلق الأبواب ومنع السفر.
- مروان : منع السفر؟!
- أحمد : وقرّر أن يحصّن المدينة، ويسلّح الرجال.
- مروان : لعلّها شائعة. إذا لم تكن متأكداً..
- أحمد : منذ الصباح ومنادي القلعة يعلن الأوامر في المدينة، عمّا قليل سيكون هنا في الحارة.
- مروان : أرايت ما فعله بنا التردّد؟
- خديجة : وماذني؟! هل عوّقتك أو خالفتك؟
- مروان : لم ألمس منك حماسة ولا قبولاً.
- أحمد : خيراً فقلّت.
- مروان : (غاضباً) لماذا؟ ألا تعرف ماذا فعلوا بأهل حلب ونسائها.
- أنتظن أنّي قرّرت السفر خوفاً على نفسي؟ لا والله ما قرّرت

- السفر إلا خوفاً على خديجة.
 أحمد : الفرار لا يحمي خديجة.
 مروان : ماذا يحميها إذن؟
 أحمد : أن نقاتل من أجلها.
 مروان : أقاتل؟! ولكنتي لم أحمل سلاحاً في حياتي.
 أحمد : اليوم، يجب أن يحمل كل رجل سلاحاً.
 مروان : إني صاحب نول. ولا أفهم إلا في الحياكة والحريز.
 أحمد : لايحتاج السلاح إلا إلى العزيمة.
 مروان : ما رأيك يا خديجة؟
 خديجة : هذا أمر يقرره الرجال.
 أحمد : اسمع يا ابن خالي وصهري، باب السفر مسدود. ونحن في هذه المدينة أمام خيارين.. إما أن تستباح الحياة والأعراض، وإما أن نقاتل. فماذا تختار؟
 مروان : هل تعتقد فعلاً أنني أصلح للقتال؟
 أحمد : ماذا ينقصك؟
 مروان : لست مدرباً، وليس لدي سلاح.
 أحمد : سأوفر لك السلاح والتدريب.
 مروان : متى؟
 أحمد : اليوم.. بل الآن.
 مروان : هيتا بنا.
 أحمد : هل عزمتم؟
 مروان : قلت.. هيتا بنا.
 أحمد : أخيراً وجدت مروان الذي أتمنتي.
 خديجة : وأنا سأفك الصرة، وأهين لكما الغداء. (يخرجان) حماكما الله.
 المنادي : (يتأهى صوته من بعيد، ثم يقترب تدريجياً) يا أهل الشام..

يرسم نائب القلعة ويأمر.. من يهرب يُنهب. والمدينة تُحصَّن
وتُحفظ.. ومن أراد سلاحاً أعطاه الأمير سلاحاً. يا أهل
الشَّام.. يرسم نائب القلعة ويأمر.. المدينة تُحصَّن وتُحفظ..
ومن أراد سلاحاً أعطاه الأمير سلاحاً.. يا أهل الشَّام من
يهرب يُنهب.
(تلاشي الإضاءة)

مكتبة سواد الأريكة
www.books4all.net

مؤرخ قديم : وفيه، ربيع الأول جاءت الأخبار بوفاة صاحب اليمن الملك

الأشرف إسماعيل بن عباس، وكان كفواً للملك اليمن.

وفي واحد وعشرينه خرج من مقابر باب الصغير نجم كبير
وجرى جرياً شديداً إلى جهة القبلة، وله هدير كهدير البعير،
فأجمع الناس على السفر، وخرجت النساء حاسرات،
واستغاث الصغار، وكان الوقت عجيباً.

وفيه أمر نائب قلعة دمشق بهدم وإحراق ما حول الخندق من
البناء، فحصلت شدة للناس، وأفحشت النساء في الدعاء
على النائب ورجاله. ثم توقف ذلك حتى يؤمن لهم محلات
للسكن. وقد تحصنت القلعة تحصيناً تاماً، وحمل إليها ما
تحتاجه من تموين، ونُصِبَت المجانيق..

وفيه كثر القادمون من حلب وحماة فعظمت المخاوف،
وانتشرت الأراجيف.

وفي ثامن وعشرينه جاء خبر بوصول السلطان مع عساكره
إلى الريدانية فدقت البشائر، واطمأنت خواطر الناس، ثم تبين
بعد ذلك أنّ العساكر المصرية لم تخرج، وإنما جاء البريد من
مصر.

وفيه حصل برد شديد دون أمطار، ومازال بردى على حاله
من النقص وقلة المياه.

تفصيل (٤)

(ركن في صحن الجامع الأموي، حلقة تضمّ الشيخ التاذلي، ومحيي الدين بن العزّ، وتقيّ الدين بن مفلح، وشمس الدين النابلسي وكلهم قضاة مذاهب وعلماء. بعيداً عنهم، ثمة حلقات أخرى من طوائف القراء والفقراء).

- التاذلي : الأمانة ثقيلة أيّها العلماء.. وفي هذه الشدّة علينا أن ننهض رجلاً واحداً، وكلمة واحدة.
- ابن النابلسي : إذا صفت النوايا اتّحدت القلوب.
- التاذلي : النوايا صافية إن شاء الله.
- ابن النابلسي : قولوا إن شاء الله.
- الجميع : إن شاء الله.
- التاذلي : سيزداد أمر التّاس ببلبة وفساداً إن لم نكن رأياً واحداً.
- ابن النابلسي : إذا صفت النوايا اتّحدت القلوب.
- ابن العزّ : بعد الخمول الذي أبداه نائب الغيبة، لا نمانع أن يتولّى أمير القلعة حفظ المدينة. لكن ينبغي أن يترك لنا تصرّيف الأمور وإدارة شؤون التّاس.
- ابن النابلسي : أو أن يشاورنا في كل ما يقرّر، أو يفعل.
- التاذلي : قلت لكم هو زاهد في السلطة، ولولا إلحاحي ما قبل أن يخرج من قلّعته.
- ابن النابلسي : إذا صفت النوايا اتّحدت القلوب.

- التاذلي : النوايا صافية يا شيخ.
- ابن النابلسي : ألن يمدّ يده إلى الأوقاف؟
- التاذلي : ليس لديه مطمع في الأوقاف أو سواها. ولكن إذا أردنا التحصين، ألا ينبغي أن يعطي القائمون على الأوقاف والمقتدرون بعضاً من مالهم؟
- ابن النابلسي : يعطي كل واحد ما يرغب في عطائه.
- ابن العز : لماذا نختلف في الأمور قبل أوانها؟
- ابن النابلسي : لأنه إذا صفت النوايا اتحدت القلوب.
- التاذلي : النوايا صافية إن شاء الله. ونحن مكلفون أيها العلماء. كما أراكم الآن تراءى لي سيّد المرسلين، وبلغني أمره، قال عليه صلاة الله وسلامه، انهضوا وحاموا عن مدينتكم. فهل نخذل نبيّنا؟
- ابن النابلسي : معاذ الله.
- ابن العز : والله ارتعش بدني حين سمعتك تقصّ رؤياك.
- التاذلي : وأنت يا ابن مفلح. لماذا لاتقول شيئاً؟
- ابن مفلح : هناك بيوت وأملاك خارج الأسوار فماذا نفعل بها؟
- ابن النابلسي : من حقلك أن تطمئن على أرزاقك.
- ابن مفلح : أرزاقني وأرزاق الكثيرين من الناس.
- التاذلي : يجب أن نحّمى شأنها شأن المدينة.
- ابن مفلح : لا يضر لو فاتحنا الأمير، وطلبنا أن يرتّب لها الحماية اللازمة!
- التاذلي : ولم لا؟! سنفتحه حين نلتقيه.
- ابن النابلسي : إذا صفت النوايا اتحدت القلوب.
- التاذلي : هل بقي في الخواطر شيء؟
- ابن النابلسي : بقيت مسألة جمال الدّين بن الشرائجي.
- التاذلي : نعم.. هذا الضالّ! (ينادي) هاتوا ابن الشرائجي.
- ابن النابلسي : يجب أن نجعله عبرة لأهل الضلالات والأهواء.

- التاذلي : لا تسامح مع الذين أزاغ الله قلوبهم.
 (يدفع رجلان معتمنان الشيخ جمال الدين بن الشرائجي إلى حلقة العلماء. وأحد المعتمنين يحمل كيساً من الكتب المخطوطة. يبدأ الناس بالاقتراب محتشدين حول الحلقة).
- التاذلي : أتخلط في الدين يا ابن الشرائجي! أخبرنا يا شمس الدين ما علمت من أمره.
 ابن النابلسي : بقي ابن الشرائجي يواظب على دروسي حيناً من الزمن. وكان مجتهداً ومؤدباً لولا ميل إلى الفضول طالما نهيته عنه. ثم أبدى لي الجفوة والجحود. وانقطعت عني أخباره، حتى علمت أنه انغمس في الضلال انغماساً فاحشاً.
- جمال الدين : جفوت مجلسك يا شيخ حين عرفت أنك رقيق العلم والدين. تنوّه في المسائل، وتستحل الأوقاف. فكيف يجوز لمثلك أن يرمى الناس بالضلال؟
- ابن النابلسي : (يهجم عليه ويصفعه) أتتهمني في ديني وعلمي يا ثعبان الكفر والجحود؟
- ابن العز : (يصفعه بدوره) وفوق الزندقة صفاقة يا ابن الفاعلة.
- جمال الدين : ما أنت يا ابن العز من يحق له التعريض بأثمات الناس.
- التاذلي : (متدخلًا بحدة) أقصّر يا ابن الشرائجي، ولا تزد قضيتك سوءاً.
- جمال الدين : وما قضيتي؟
- ابن النابلسي : الكفر والزندقة. أيها العلماء.. أخبرني شاهد عدل أن هذا الملحد يخوض في القدر، ويتعاطى مقالات الكفار والزنادقة.
- ابن مفلح : القدرية مجوس هذه الأمة.
- التاذلي : أتخوض في القدر يا ابن الشرائجي؟
- جمال الدين : ما وهبنا الله العقل إلا لكي نفكر ونتأمل ونعتبر. قال سبحانه وتعالى ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾.

التاذلي

: ألا تعلم أن الجدل في الدين فتنة؟

جمال الدين

: قال سبحانه وتعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. وأكمل مراتب الإيمان ما تحصل بالحكمة.

ابن العز

: هذه مقالات الكفار من المتكلمين والفلاسفة.

جمال الدين

: وهل يكفر المرء إذا عزز الإيمان بآيات العقل؟

ابن النابلسي : يا ابن الأفعى.. هل تستجرتنا إلى الجدل؟ قل لنا هل تؤمن

بالقدر خيره وشره؟

(يتلأأ جمال الدين).

التاذلي

: أجب.

جمال الدين

: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله. إني مسلم

يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويعرف

أهلي وجيراني أنني منقطع عن الدنيا وزخرفها إلى العبادة

والدراسة.

ابن النابلسي

: والقدر؟

جمال الدين

: لك ما تشاء يا ابن النابلسي، إن الله سبحانه وتعالى عادل،

وإنه لا يأمر بالظلم والفساد.. إذا لم تكن كلفة لم تكن

مثوبة. ولولا أن الإنسان مخير وحرّ لما قال الله في كتابه

العزير ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولما قال ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. فلو كان هو الفاعل لأعمالهم، لما

خاطبهم، ولا تمهم على ما كان منهم من تقصير، ولما مدحهم

على ما كان منهم من جميل وحسن.. إنه سبحانه وتعالى

يخاطبنا نحن الذين نعقل ونفهم. وإنه يخاطبنا لأننا أحرار.

نعم.. هذا هو الدين. إننا أحرار ومخيرون.

أصوات

: (من الحشد) أستغفر الله العظيم.

- شيطان رجيم.

- نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
- التاذلي : ويلك يا ابن الشرائجي.. ضيَّعت نفسك.
- ابن النابلسي : تلك مقالته.. (يتاول كتباً من أحد المعتمين) وهذه هي ضلالات الشيطان التي يتداولها.
- التاذلي : (وهو يتاول الكتب) الرد على الجهمية والمجبرة. المغني في علوم التوحيد والعدل. فصل المقال. أعوذ بالله. أهذه هي التصانيف التي تنهل منها ضلالك؟ ألا تعرف أن هذه الكتب محظورة؟
- جمال الدين : لا يحظر هذه الكتب إلا الجهل والطغيان.
- التاذلي (يضر به) : وتتهم علماء الأمة بالجهل والطغيان أيها الفاسق؟
- ابن العز : أقيموا عليه حد الكافر.
- أصوات : أقيموا حد الكفر.
- استتيوه.
- لعلها جهالة.
- جمال الدين : من كفر مسلماً فقد كفر.
- ابن العز : أتعد أهل الاعتزال والفلسفة والبدع بين المسلمين؟
- جمال الدين : عالم يجتهد خير من عالم يحمل أسفاراً.
- ابن مفلح : هذه مكابرة الشيطان.
- ابن النابلسي : وكأنه يتباهى بالإلحاد.. أهلكك فضولك يا ابن الشرائجي.
- جمال الدين : والله لست مكابراً ولا مباهياً. ولكن الله وهبني عقلاً فلم أعطله.
- ابن مفلح : قَوْمُه بالمقارع والتجريس.
- جمال الدين : المقارع لا تقوِّم إلا العبيد يا ابن مفلح. أمّا الأحرار فإنهم أقوم من مقرعتك.
- ابن النابلسي : الشيطان يتكلَّم من فمه.
- ابن العز : أقيموا عليه حد الكافر.

- التاذلي** : خذوه واضربوه حتى تكسروا كبرياءه. ثم ارفعوه إلى سجن القلعة ريثما ننظر في أمره..
- جمال الدين** : (وهم يجزّونه) ما أتعس حالنا إذا كان علماء الأمة يستمون الاجتهاد والعلم كفرة!
- ابن العز** : (وهو يصكه) اخرس.. قصّر الله لسانك.
- ابن النابلسي** : والكتب! ألا نحرقها؟
- التاذلي** : نعم.. احرقوها هنا في صحن الجامع.
- (يوقدون ناراً في صحن الجامع، ويرمون الكتب فيها).
- التاذلي** : أيّها الناس. كيف نتقي غضب الله إذا رُقّ الإيمان، وتفتشت مقالات الملحدين؟! حين ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول، سلّط الله علينا الأعداء. فخرجت الروم إلى الشام والجزيرة مرّة بعد مرّة، وأخذوا الثغور الشاميّة شيئاً بعد شيء. وجاءنا المغول من الشرق، وكادت الأمة تندثر ويفشل ريحها. وحين أقام الناس ما أقاموه من الإسلام وقهر الملحدين والمبتدعين نصرهم الله على الكفار. تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصَرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- أيّها الناس.. ونحن اليوم أمام شدة.. وقد تنادينا نحن علماء الأمة، وأصدرنا فتوى بالجهاد لعدو الله تيمور اللعين.. أيّها الناس دعونا نمشي معاً في أسواق المدينة، ندعو المسلمين إلى تجارة تنجينا من عذاب أليم.. ليمش حاملو المباخر.. وأنتم أيّها العلماء.. افتحوا مصاحفكم، ولنمضِ على بركة الله.

(يتظم موكب مهيب. تتقدمه المباخر والعلماء ووراءهم
حشود الفقراء والقراء.. ويخلو صحن الجامع تدريجياً من
الناس..)

العلماء : (يرتلون ترتيلاً منغوماً) ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ
رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

شعبان : (صحن الجامع خال.. والنار موقدة لا تزال. يدخل شعبان).
: يمه.. يمه أريد برك يمه. جوعان يمه (يقترّب من النار. يتدفأ. ثم
يدور حولها) أين أنت يمه. حليب حليب يمه.
(فجأة يتوقف. يرفع أذيال قمبازه. ثم يول على النار).
(تلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : ودخل ربيع الثاني حاملاً الخير. فقد وقع مطر كثير جداً مع رعد وبرق، وجرت منه الميازيب. وقد وقع المطر بعد يومين من الحادثة التي جرت مع جمال الدين بن الشرائجي، إذ أحرق القضاة كتبه، ورفعوه إلى سجن القلعة. وقيل إنه يطن الإلحاد والزندقة. نسأل الله العفو.

وفي سادسه خرج السلطان وسائر الأمراء من القاهرة، ونزل بالريدانية. وتبعه الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة.

وفيه ضرب الجان طباحاً رافضياً بالخلاء حين بال قائماً. ولم ينطق بعدها إلى أن مات بعد أيام. نسأل الله الرحمة.

وفيه اتخذ التاجر دُلّامة سرّية، واختلف الناس هل هي جارية أم غلام. وهذه من النوادر.

وفيه بيع اللحم بسبعة ثم بسبعة ونصف وهذا شيء لم يُعهد. والناس في غاية الشدة، والسائلون يملؤون الطرقات والجوامع.

وفي ثاني عشرة جاء الخبر بأن السلطان خرج من الريدانية ومعه العساكر المصرية متوجّهاً إلى دمشق ففرح الناس بذلك.

وفيه ظلّ جريان الماء في بردى ضعيفاً. ولكن بعد المطر خفّت روائحه.

تفصيل (٥)

(في السوق - محل دلامة التاجر. دلامة وابن مفلح)

- ابن مفلح : سَجَل كَيْساً ثَانِياً مِنَ الْأَرْزِ، وَجَرَّةً مِنَ الدَّبَسِ.
 دلامة : هَذَا احْتِكَارٌ يَا شَيْخَ.
 ابن مفلح : الْوَقْتُ صَعْبٌ يَا دَلَامَةَ.
 دلامة : نَعَمْ.. الْوَقْتُ صَعْبٌ وَالتَّهَوُّرُ لَا يَسْهَلُ الْأَوْقَاتُ الصَّعْبَةُ..
 ابن مفلح : هَلْ أُسْرِفْتُ فِي الشِّرَاءِ؟
 دلامة : وَمَنْ يَتَحَدَّثُ عَنِ الشِّرَاءِ؟
 ابن مفلح : مَاذَا تَعْنِي إِذَنْ؟
 دلامة : بِصِرَاحَةٍ.. لَا يَطْرِبُنِي هَذَا النَفْخُ فِي مَزْمَارِ الْجِهَادِ. هَلْ تَنْظُنْ أَنَّ
 هِيَاجَ الْعَامَةِ وَسَيُوفَ الْأَحْدَاثِ يُمْكِنُ أَنْ يَوْقِفَا تَيْمُورَ؟
 ابن مفلح : حَاضِرْنَا الشَّيْخُ النَّاذِلِيُّ، وَلَمْ يَتْرِكْ لَنَا مَجَالاً لِلْإِعْتِرَاضِ.
 دلامة : هَذَا الشَّيْخُ أَصَابَتْهُ لَوْثَةٌ. تَهَيَّأْ لَهُ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
 زَارَهُ فِي الْمَنَامِ، فَتَحْتَبَّلَ عَقْلُهُ. كَانَ يَنْبَغِي أَلَّا تَسَايِرُوهُ. لَقَدْ
 عَجِبْتُ إِذْ رَأَيْتُكَ، وَأَنْتَ الْعَالَمُ الْمَتْرُوي.. تَسِيرُ فِي رِكَابِهِ،
 وَتَنْفَخُ فِي مَزْمَارِهِ.
 ابن مفلح : قُلْتُ أَسَايِرُهُ كَيْلَا تَفْسُدَ الْخَوَاطِرُ، وَيُرْمَى بَعْضُنَا الْبَعْضَ
 بِالْخُذْلَانِ.
 دلامة : وَلَكِنَّ الْعَوَامَ هَاجُوا، وَالْأَحْدَاثُ تَسْلُحُوا. قَدْ نَعَجَزَ عَنْ ضَبْطِ
 الْأُمُورِ حِينَ تَحِينُ سَاعَةُ الْقَرَارِ.

- ابن مفلح : دعنا نأمل الخير، ولا نستبق الحوادث.
دلامة : إذا لم يأت السلطان.. أو إذا.. إنك تفهم قصدي. إن ساعة القرار آتية. أنت تعرف لغة العجم، ولك من حسبك وعلمك حصانة. لن نجد من هو أليق منك للسفارة وإنقاذ المدينة.
- ابن مفلح : من أوحى لك بهذه الفكرة؟
دلامة : هي فكرتي.. وهي فكرتك أيضاً. ليس ابن مفلح من تدير رأسه المواكب وجعجعة العراضات.
- ابن مفلح : اكتم هذه الأفكار، ولا تطلع أحداً عليها.
دلامة : لن ندع التاذلي يجزنا إلى الخراب، ولن نكرّر غلطة حلب. هذه المحنة لا يمكن تجاوزها إلا بالتدبير والسياسة.
- ابن مفلح : اضبط لسانك، وكل شيء بأوانه.
دلامة : إذن نحن متفقان. كنت أعلم أنك الرجل الذي نحتاجه.
- ابن مفلح : اللهم قدرنا على مافيه الخير والصواب.
دلامة : آمين.. يا رب العالمين.
- ابن مفلح : غداً أرسل الخادم والذابة لحمل البضاعة.
دلامة : دعه يأت قبل الفجر. لا أريد أن تفترسنا العيون.
- ابن مفلح : هل صرت تبيع بالسر؟
دلامة : الوقت صعب يا شيخ.
- ابن مفلح : إن الله لا يحب المحتكرين.
دلامة : ولا النمامين.
- مفلح : غلبتني يا دلامة.
- (يخرج ابن مفلح ضاحكاً).
- دلامة : هذا عالمٌ راجح العقل. إذا ضاقت سيتولى الأمر. ويعقد لنا الصفقة. ما من عقدة لا تحلها صفقة. شيء من الكياسة والسياسة. هم يبيعون ونحن نشترى، ثم نبرم الاتفاق. هؤلاء الحمقى يملؤون البلد هرجاً ومرجاً، لأنهم لا يعرفون كيف

يعقدون صفقة. لن نتركهم يجرّوننا إلى الدمار. فالبلد لنا لا للحمقى والمخرفين. نحن نفهم الدنيا، ونعرف كيف تنشأ الوقائع والحوادث! هل جرّد ذلك التري الجلف سيفه، وركب جموعه إلا ليغنم عظمة. وهل يتردّد سلطاننا، ويتخاذل إلا لأنّه يخشى أن يخسر العظمة التي يعصّ عليها! وكلاهما يخفي خلف السيف والدرع تاجراً أخرق. الخصومات، والفتن والحروب كلّها ألوان من التجارة. لكنّها تجارة خرقاء، لا يعرف القائمون بها أصول التجارة، ولا يتحلّون بفضائل التجار. لديّ أفكار. نعم.. لديّ أفكار. (يدخل الابن بهاء متجهّم الأساير).

دلالة : (يباعد المشخّص بينه وبين الدّور) وأحسّ دلالة التاجر الذي عاش في السنة الثالثة من القرن التاسع الهجري، أنّه يخلّق، وأنّ الأفكار تنفجر في رأسه كالبروق. جاء ابنه، وأخبره أنّ مخازنهم المكنومة ضاقت بالبضائع التي أرادوا إخفاءها. وكان في وجهه تجهم وكدر. وبعد طول ترّدّد قال:

بهاء : إنّنا نستغلّ محنة الناس يا أبي.

(لم يفضّب دلالة، ولم ينهره كما تعود. بل قال له بحنان..)

دلالة : (يستعيد المشخّص دوره) اسمع يا بنيّ.. أنا تاجر، يعرف أصول التجارة، ويتحلّى بمزايا التجار. والتاجر هو الذي يتكيف مع الأوقات، ويغتنم المناسبات. إنّ الله سبحانه وتعالى حبّبنا بالربح وأغرانا به. تأمل هذه الدنيا، وقلّ لي ماذا تكون، إنّها دار تجارة، الإنسان فيها يبيع أعمالاً وعبادة وتقوى، والله ينقده ثواباً، ومقاماً في الجنّة. وبضاعة الإنسان رخيصة، لكنّ الله سبحانه وتعالى يغريه، ويضاعف له الربح أضعافاً لا يحدها عقل ولا قياس. التجارة محدودة، وربحها

محمود. ألم يشرف الله التجارة ويضرب بها الأمثال.. ألم يشبه حياة الإنسان وعمله بالصفقة؟ إن التاجر يهتدي برب العالمين، ويعمل على غراه. إنه يستخدم الميزان والسجل والحساب والربح والخسارة. التجارة هي صورة الدنيا، وهي أصل النشاط والاستقرار والعمران. آه.. يا بني، لو كان الملك للتجار لعلم الرخاء والأمان، وانتظم أمر البلاد انتظام أوقات الصلاة. وحتى لو قامت فتن أو حروب، فستكون فتنًا وحروباً مدروسة لا تؤدي إلى الخراب، بل إلى ازدهار الأعمال والمنافع. لدي أفكار. نعم.. لدي أفكار (يعود الشخص إلى أداء المباحة) وكان دلامة التاجر الذي عاش في السنة الثالثة من القرن التاسع الهجري، يحسن أنه يطفو فوق فيض دافق من الإلهام. وأنه أذكى من السلطان فرج بن برقوق، ومن العليج تيمور، وأن دمشق لن ينقذها إلا صفقة ذكية.

بهاء الدين	: أين نخبتى ما تبقى؟
دلالة	: هل صرفت الحمالين؟
بهاء	: لا.. إنهم ينتظرون.
دلالة	: إذن.. انقلوها إلى البيت ريشما نؤمن مخزناً جديداً.
	(فيما يخرج بهاء، يقترب الحلبي والغلام الذي يرافقه).
دلالة	: كيف وجدت الإقامة بيننا أيها الغريب؟
الحلبي	: ليتني قضيت مع أهلي وولدي، لاشك أن ذنوبي عظيمة.
	نجوت من هلاك تيمور لأذوق كل يوم ما هو أمر من الهلاك.
دلالة	: شدة وتزول أيها الغريب. أهذا الغلام ابنك؟
الحلبي	: هو.. نعم.. هذا ما تبقى من ولدي.
دلالة	: ما أجمل! يجب أن تعلق له حرزاً يحميه من العيون.
	(يتحسس وجه الولد، فيفزع، ويندس في حضن أبيه).

- الحلبي : قيل لي إنك عظيم الغنى.
 دلالة : لا غنى إلا الله سبحانه وتعالى. والتاس تحب المبالغات.
 الحلبي : لم أسأل أحداً عن أغنياء البلد إلا ذكر اسمك.
 دلالة : وفيهم يهتك هذا الأمر؟
 الحلبي : قد تكون ضالتي أيها الكريم. تعبت، ولم أعد أتحمل خوفي وجوعي.
 دلالة : إذا كنت تطلب.
 الحلبي : لا.. لا أطلب صدقة. لحقني من الخزي ما يكفي، أريد أن أعقد معك تجارة.
 دلالة : تجارة! هل تخفي ما يُباع ويشترى؟
 الحلبي : لم أنفذ من أهلي ورزقي إلا جارية، وهي أحب أولادي إلى قلبي.
 دلالة : وهذا الغلام؟
 الحلبي : استر علينا، سترك الله.. إنها الجارية. أخفيتها في ثياب غلام كي أحميها. ولكنني لم أعد أستطيع. أضنانا القلق والجوع.
 دلالة : إنها جارية.. ما أعجب هذه القصة!
 الحلبي : استر علينا سترك الله.
 دلالة : اطمئن.. اطمئن. هي جارية إذن! من حقك أن تخاف عليها.
 الحلبي : لا أنام إلا نوم المطلوبين. وأرتعش إذا حدقت فيها العيون. والتاس لا ترحم، ولا ترتاح إلا إذا نبشت ما بدا وما خفي.
 (يفص) وفوق هذا الجوع، والذل، أولاد الحرام.
 دلالة : أعانك الله. ولكن أين التجارة التي ذكرتها؟
 الحلبي : قلت في نفسي أيها الكريم.. لعل بك حاجة إليها.
 (تصوت البنت أصواتاً غريبة، وهي تختفي في حضان أبيها).
 الحلبي : منذ رأت ما حلّ بأمتها وأخوتها انعقد لسانها. اهدهني يا

- ابنتي.. هل تريدان أن تُبكي أباك؟
 : أوجعت قلبي أيها الغريب. قل لي بصراحة ماذا تطلب.
 : أن تشتريها، وتسترها.
 (يعلمو تصويت البنت، فيرت الأب على رأسها).
 : هل تعرض عليّ شرائها؟
 : نعم.. أعرض عليك أن تشتري بضعة منّي كي أطمئن. كي
 يخفّ حملي.. ويشبع كلانا.
 : إذن.. تعال معي إلى الداخل. هذه صفقة لا تعقد بخفة.
 ينبغي أن نزن ونقلب.
 (يختفي دلّامة داخل المحل، ويتبعه الحلبي الذي يجزّ ابنته
 جرّاً).
 : (من خارج المسرح، وبعد اختفاء الجميع، يتأهى صوته بعيداً).
 أين أنتِ يمه، جوعان يمه.
 (يتلاشى الصوت والضوء..)

دلّامة
الحلبي

دلّامة
الحلبي

دلّامة

شعبان

مؤرخ قديم : وفي شهر ربيع الثاني، في خامس عشره احتشد في الجامع الأموي خلق كثير من جماعات القراء والفقراء والبطالين. وكانوا يكبرون ويهتفون بالخروج لكبس الخمارات، وإحراق البيوت التي فيها بنات الخطأ. لكن القاضي محيي الدين بن العزّ ردّهم، ومنعهم من التشويش. وقد حصل كلام، ثم تفرّق الخلق ولم يحدث شيء. وفي عشرينه وصل السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى غزّة. وفيه حصل برد شديد وزمته للغاية. والماء يجري في بردى على زيادة.

تفصيل (٦)

ديوان في قلعة دمشق - نائب القلعة عز الدين آردار ومعاونه
شهاب الدين الزردكاش).

- شهاب الدين : أخبرت الكشافة أن تيمور وصل إلى بعلبك.
آردار : ننتظر خبراً من السلطان، فتأتينا أخبار من تيمور.
شهاب الدين : أيمن أن يتراجع السلطان بعد خروجه؟
آردار : لا أدري.. لا أدري شيئاً. هل حصنت السور عند الباب الصغير؟
شهاب الدين : رجال التاذلي يركبون المكاحل هذه الساعة. صارت المدينة حصينة كالقلعة.
آردار : إذن دعنا نتفقد الأسوار، ونرتب المقاتلين.
شهاب الدين : مازال ابن أبي الطيب يلح على لقاءك.
آردار : ولم هذه اللجاجة؟ هذا الرجل يحب اللعب بذيله. ولا يحمل لنا إلا العداوة.
شهاب الدين : لا ضير لو منحه الأمير برهة من وقته.
آردار : هل وعدته؟
شهاب الدين : لا.. ولكن أتمنى أن تسمع ما لديه.
آردار : طيب.. دعه يدخل.
(يدخل محمّد بن أبي الطيب).
محمد : السلام على الأمير.

- آزدار : قل ما لديك، وأوجز.
محمد : لا بأس أيها الأمير. سأقول ما لديّ، ولن أطيل. جئت أقدم لك الولاء، وألتمس منك السلاح.
- آزدار : أطلب السلاح لك؟
محمد : لي وللرجال من قرابتي.
آزدار : وهل يحقّ لمثلك أن يطلب السلاح؟
محمد : يوم سمعت مناديك..
آزدار : نعم.. نعم.. سلّحت الناس، وأسلّحهم. ولكن ذلك لا يشملك.
- محمد : أأست من البلد وناسها؟
آزدار : لايسلّح المرء أعداءه.
محمد : سامح الله الأمير. أتناوينا بالأعداء؟ في الملمات ينسى الأهل ما يفرّق بينهم ولا يبقى إلاّ حنين الدم للدم.
- آزدار : وأين كان حنين الدم للدم حين جاهرت بعداوتك للسلطان، وأيدت متأمرأ أشعل فتنة، وأراد أن يغتصب السلطة؟
محمد : هذا حقّ. كان لنا رأي، وكان لنا ولاء. ولكن تلك أيام سلفت.
- آزدار : بل كانت خيانة أفسدت القلوب، وهزّت السلطنة.
محمد : ربّما أخطانا في ولائنا، ولم نحسن تقدير المصلحة.
آزدار : مازلت تراوغ وتقول ربّما. لولا فضل السلطان لالتف حبل المشنقة على عنقك.
- محمد : ومن يجحد فضل السلطان؟ ومن يجهل أن عفوه هو الذي فكّ مشنقتي! ولكن أيها الأمير، لماذا نكبأ الجراح، وننبش أسباب الخلاف، والخطر يدهمنا جميعاً؟
- آزدار : لولا الشقاق والخلاف ما طمع فينا عدوّ.
محمد : وما أنا أرجو أن تطوي الماضي، وتصفو القلوب. إني أعلن

- ولائي، وأطلب شرف الدفاع عن بلدي.
 : وجوابي هو أن تلزم بيتك، وتترك هذا الأمر عنك. آزرار
 : ألزم بيتي! وكيف ألزم بيتي أيها الأمير؟ إنك تجردنا من محمد
 المروءة، وتحكم علينا بالغبية. كيف سيكون شعورنا حين
 يقاتل الرجال، ونحن قعود في بيوتنا مع النساء والأطفال؟
 كيف نتحمل الخزي والمرارة والغبية؟ لا.. هذه مهانة
 لانطاق.
 : إنك تحصد ما زرعت. آزرار
 : هذه مدينتنا. فيها قبور الأجداد، وفيها أهل والعمران، فمن محمد
 أجدر منا بالدفاع عنها؟
 : من يحرص على المدينة لا يورطها في الثورات والفتن. آزرار
 : ليت الأمير ينسى. محمد
 : الحيانة لأتسى. آزرار
 : هذه المحنة تقتضي أن نجتمع، لا أن نفرق. محمد
 : هذه المحنة تقتضي رجالاً موثوقين لا تشوب ولاءهم شائبة. آزرار
 : أعطيتك كلمتي أيها الأمير. محمد
 : لن أعرض ظهري لتقلبات الأهواء والأفئدة. آزرار
 : أهذا قرارك الأخير؟ محمد
 : نعم.. ولا فائدة من الجدل. آزرار
 : في الوقت الصعب.. وحين يعزّ الرجال، لاتنس أيها الأمير محمد
 أنك أبعدت رجالاً لاتنقصهم الحمية ولا الشجاعة.
 : لا أريد نجدة الخونة والمتأمرين. آزرار
 : والله إن رجالاً فيهم حمية ورأي خير لك من العبيد. محمد
 : لا تتجاوز حدك، واخرج قبل أن أغضب. آزرار
 : لا بأس أيها الأمير. محمد
 (يتراجع منسحباً).

- آزدار : الزموا بيوتكم واحذروا، فلن أكون رحيماً لو بدر منكم شغب.
- محمد : سمعاً وطاعة أيتها الأمير.
- (يخرج.. يمدو أزدار مهتاجاً. يلتفت إلى شهاب الدين).
- آزدار : وأنت ماذا تريد أن تقول؟
- شهاب الدين : لاشيء.
- آزدار : هل توقعت أن ألتقي طلبه؟
- شهاب الدين : لا أدري.. أماننا معركة صعبة.. ربما كان أفضل لو ألفنا قلوب الجميع وشجعنا مبادراتهم.
- آزدار : هؤلاء أفسدت قلوبهم الدسائس ولاخير فيهم.. لقد نشأت وتربيت على الولاء والواجب.. وخلال حياتي التي قاربت الآن على نهايتها، رأيت كثيراً، وتقلب الحظ بي مراراً. ومع هذا ظلت هاتان القيمتان كإيماني بديني لاتعدو عليهما قيمة أخرى. ما الذي وصل بنا إلى هنا.. إنه جشع الأمراء، وتقلب ولائهم. ولولا هذا الوضع لبادرنا تيمور قبل أن يعبر الفرات بدلاً من انتظاره كالتساء في قلاعنا ومدننا. لا يا شهاب الدين! القلوب الفاسدة إذا وجدت عند العدو مصلحة تحولت علينا، ولا أستطيع أن أخاطر بتسليحهم والاعتماد عليهم.
- (يدخل الشيخ التاذلي وهو يحمل صندوقاً معدنياً).
- التاذلي : أبشر أيها الأمير..
- آزدار : أهلاً بالشيخ.
- التاذلي : جاء بريدي يخبر أن السلطان وعساكره وصلوا غزّة.
- آزدار : إذن سيكونون بيننا خلال أيام. هل حُصّن السور قرب الباب الصغير؟
- التاذلي : إن رجالي يركبون المكاحل هذه الساعة.

- آزدار : سنقدم للسلطان مدينة كالحصن المنيع.
 التاذلي : تعبنا ولننا أيها الأمير.
 آزدار : لا فضل لمن يؤدي واجبه.
 التاذلي : ما أحلى تواضعك أيها الأمير! في هذا الزمن المشوش أداء
 الواجب مأثرة عظيمة. والآن لديّ هاجس شخصي أريدك
 أن تريحني منه. لا أحد يعلم كيف تدور الأحداث.. لديّ
 امرأة وابنة، وفي هذا الصندوق وفر عمري كلّهُ، سأودع
 الصندوق لديك، وإذا ما كتب الله لي الشهادة، فإني أرجو
 أن تصون امرأتي وابنتي كما تصون أهلك.
 آزدار : هذه بسيطة. ولكن هل نعرف من يسبق الآخر يا شيخ؟
 التاذلي : لم يتبدّ لي حبيب الله عبثاً. كان الضوء يومئٍ لي وهو
 يتناهى، وإذا قدر الله سأتبع الإيماء، وأعبر الضفّة، وألتقي
 سيّد الأنام.
 آزدار : خير يا شيخ.. إن شاء الله خير.. خذ الصندوق يا شهاب
 الدين.
 (يتلاشى الضوء).

تفصيل (٧)

(في بيت دلالة التاجر. الضوء الشاحب. دلالة يختم صلاته وينهض. في الغرفة منقل مليء بالجمر. حين ينهض دلالة، تراجع ابنة الحلبي على عجيزتها، وعلى وجهها علامات الخوف والاضطراب).

دلالة

: وهل ينفعك الزحف وهذا الصدّ؟ تعالي.. (تراجع الفتاة أكثر) إن الطقس بارد فاقتربي من النار.. تعالي يا ريحانة.. إنه ليس اسمك. ماذا أفعل؟ نسيت أن أسأله عن اسمك. شغلتنا المفايضة، فلم يخطر لي أن أسأل أباك عن اسمك. لكن ماذا يهم! سميتك ريحانة، وإنه اسم جميل يناسبك. اسم على مسمى.. (كلما اقترب منها تراجع وتزدادت تجمعا على نفسها) اسمعي يا ريحانة.. لقد صبرت عليك أياماً عدة. قولي.. ألم أصبر عليك؟ وأنت لي.. أنت ملكي. لقد دفعت ثماني ذهبيات رنانة. وضعتها الواحدة بعد الأخرى في يد أيك. لم أحظ عليك بالرخيص، وأبوك لم يفرط بك بالرخيص. كلانا عرف كيف يقدرك، وكلانا عرف كيف يسعرك. لا تستوحشي مني.. سأدلك، وسأرضيك (يحضنها، فتصدر أصواتا غريبة ومروعة. يفلتها بغضب) لا.. إنك تستغلين صبري ولطفي.. هل اشتريتك لكي أفرّج عليك، وأسمع صراخك الأبله؟! لا أريد أن أكون قاسياً يا

ريحانة. ولكن سايريني قليلاً.. في النهاية ما من بنت تبقى في بيت أبيها. إذا أبدت لطفاً فسأعوض عليك الحزن والغربة. (يتحسس فخذيها) أتعلمين حين ألمسك أشعر أن قواي تتجدد. أبرمت صفقة رابحة، ولن أدعك تفسدينها. إن الأرض باردة. تعالي معي إلى السرير (يحاول أن يحملها فتولول تلك الولولة الخرساء والخيفة) اخبرني.. يقشعر بدني من هذا العواء.. أنت أردت ذلك. لم ينفع الصبر، ولم تنفع الكلمة الحلوة، والذهب الذي دفعته لم يغل علي شيئاً حتى الآن. أجل.. أريد أرباحي.. وهذه الليلة بالذات (يتناول من درج في خزانة الحائط حبلاً ويأتي إليها. بعد تصوير ومقاومة شديدة يفلح في ربط يديها وتقييد ساقيها على قائمتي السرير. بعد أن ينجح في تقييدها، يفرك يديه وهو يلهث، تبدو الفتاة مغلوبة على أمرها، عيناها جاحظتان وفمها يتقلص بعنف وكأنها تريد أن تقهر بكلمتها وتكلم).

دلالة

: (تنفر الشهوة من عينيه، وهو يفرك يديه) الآن سأجني أرباحي، وأقطف ثمارك الشهية (يبدأ في تلمس جسدها بشبق) التفاح.. والرمان.. وحلاوة الشهد (ينبطح فوقها وما زالت تبذل جهداً خارقاً لكي تتكلم)

الفتاة

: ات.. ات... ات.. ات.. ار.. ار.. ات.. ات.. (وفي صيحة قوية) ترري.. ت.... ري (تتضح الحروف أكثر فأكثر، ثم تشكل هذه الكلمة التي ترددها بصوت أقوى فأقوى) ترري.. ترري.. ترري..

دلالة

: (غارقاً في شهوته) سبحان من أنطقك!

الفتاة

: ترري.. ترري..

(يتلاشى الضوء).

مؤرخ قديم : وفي عشرينه ربيع الثاني توجه الفقراء إلى زقاق الدباغة، وكبسوا مكاناً تُعمل فيه الخمور فأراقوها وأمسكوا من يعملها.

وفي خمس وعشرينه وصل أهل بعلبك والزبداني وأخبروا بوصول تيمور إلى بعلبك. وجاء نائب حمص هارباً إلى دمشق فجفل الناس وساء حالهم.

ودخل جمادى الأولى ودمشق مغطاة بالثلج. بدأ هطول الثلج بعد منتصف الليل بقليل واستمر حتى الضحى.

وفي الثاني منه وصلت طلائع جيش السلطان.

وفي السادس منه كان دخول السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى دمشق. وكان لدخوله يوم مهول من كثرة صراخ الناس وبكائهم والابتهاال إلى الله بنصرته. وكان دخول الجيش مهيباً لولا كثرة الوحول التي لطّخت الفرسان والمشاة.

وطلع السلطان إلى قلعة دمشق وأقام بها إلى يوم السبت ثامنه.

وبدأ يقوى جريان الماء في بردى.

تفصيل (٨)

(غرفة الضيوف في بيت الشيخ برهان الدين التاذلي. في
الغرفة ابن خلدون وتلميذه شرف الدين)

- ابن خلدون : ما حالك؟ هل تبكي؟
شرف الدين : أشعر أنني مبلبل الفؤاد. إنها المرة الأولى التي أرى فيها الثلج،
سبحان الله ما أعجب منظره! ثم دخول العسكر وحماسة
التأس، وكرم الشيخ التاذلي، كل ذلك يلبل فؤادي. لا تظن
أنني متعب بل إنني متلهف كي نبدأ العمل.
ابن خلدون : هذا البلبال طبيعي في ستك وحدائك. ولكن حين تريد أن
تسجل الوقائع ينبغي أن تسيطر على الانفعالات والعواطف،
أو أن تلغيها تماماً.
شرف الدين : وهل يستطيع المرء أن يفعل؟
ابن خلدون : ينبغي أن يستطيع، لكيلا يجرفه الهوى، ويؤرّ الوقائع.
والآن.. دعنا نعمل قليلاً.
(يهتئ شرف الدين القرطاس والدواة والريشة، ويترع على
الأرض أمام منضدة صغيرة، ويهتئ للكتابة).
ابن خلدون : (يلمي عليه) لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم.
شرف الدين : الأمير تمر يا سيدي؟
ابن خلدون : نعم الأمير تمر.
شرف الدين : إنك تجله يا سيدي. ألا تصفه بالكافر أو اللعين؟

- ابن خلدون : (بحدة) لا.. لن أصفه بالكافر أو اللعين. إننا لانكتب إنشاء وهجاء، بل نكتب تاريخاً يا شرف، وكتابة التاريخ كما قلت لك منذ لحظة لا تستقيم مع الأهواء والتحيزات. والتاريخ نفسه لا ييالي بالشتائم والمفردات الأخلاقية الشائعة.
- شرف الدين : عفوك يا سيدي.. هذا درس لن أنساه.
- ابن خلدون : لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم، وضرب سيواس ورجع إلى الشام، جمع السلطان فرج عساكره، وفتح ديوان العطاء، ونادى في الجند بالرحيل إلى الشام، وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة. (طرق على الباب. يهّب شرف الدين لكي يفتح الباب).
- شرف الدين : من؟
- سعاد : جئت كي أهئ لسيدي تغطية الماء الساخن.
- (يفتح شرف الدين الباب، فتدخل سعاد وهي ابنة التاذلي الوحيدة. ترافقها خادمة تحمل طشتاً وإبريقاً ومناشف).
- ابن خلدون : يا ابنتي لا أحتاج شيئاً.
- سعاد : لاشيء يداوي مشاق السفر، والبرد مثل تغطية الماء الساخن.
- ابن خلدون : غمرتمونا بفضل لا يوفى.
- سعاد : نزولك عندنا هو الشرف والفضل الذي لا يوفى. هلا خلعت نعليك يا سيدي؟
- ابن خلدون : إذا كان لابد.. دعي الطشت والماء، ونحن نتدبر الأمر.
- سعاد : أوصاني أبي أن أدلك قدميك بيدي. مثلك ياستيدي لا يخدمه الخدم، بل رب البيت.
- ابن خلدون : قدرني الله على مجازاة المعروف بمثله.
- سعاد : أرخ قدميك يا سيدي.
- (شرف الدين الذي يبدو مرتبكاً منذ دخول سعاد، يحاول أن يخرج من الغرفة).

- سعاد : لا تخرج أيها الشاب.
- ابن خلدون : إنه تلميذي ورفيقي شرف الدين.
- سعاد : لا تخرج يا شرف الدين. لقد ربّاني أبي، وأحسن تربيتي.
- الحشمة عندنا أصلب من أن يخذلها النظر أو الحديث.
- ابن خلدون : لله درك يا ابنتي! والله إنك لتليقين بأبيك.
- سعاد : صبي الماء يا طيرة. هل هو شديد السخونة؟
- ابن خلدون : لا.. إنه مناسب.
- سعاد : تمنى أمي يا سيدي لو تسعفها على أبي. إنه يكلف نفسه في هذه المحنة فوق ما يحتمل بدنه أو سته. ها أنت ترى.. لا يبيت ليلة قبل أن يطلع إلى الأسوار، ويتفقد المقاتلين، أما في النهار فأنا لانكاد نراه. إنه يجور على نفسه وكأنه شاب في العشرين.
- ابن خلدون : والله لاحظت أنه لا يترقق بنفسه.
- سعاد : منذ بدأ هذا الأمر وهو فاتر المزاج، لا يهنأ بطعام أو رقاد. إياك أن تظن أننا نريد أن نقعده عن الجهاد. لا.. الجهاد حق وواجب. ما نأمله هو أن تخفف من اندفاعه بما يحمي صحته.
- ابن خلدون : سأحاول بإذن الله.
- سعاد : ألن تكفينا العساكر السلطانية شر تيمور؟
- ابن خلدون : هذا ما نرجوه جميعاً.
- سعاد : كم كانت التأس في انتظار قدوم السلطان! الأخبار تضارب، والأراجيف تنتشر، والخلق في بلبلة عظيمة. لولا رجال مثل أبي ونائب القلعة، لخلت دمشق من أهلها.
- ابن خلدون : أخبرني أبوك طرفاً مما قاسته المدينة.
- سعاد : كاد اليأس أن يهلك الناس. ولهذا انفجرت المشاعر مجنونة يوم دخول السلطان. ألم يتردد طويلاً قبل أن يعزم على المجيء؟
- ابن خلدون : للسلطين ظروف ومواقيت هم أدري بها متاً.
- سعاد : نسأل الله أن يحمينا وأن يكشف عنا هذه الغمة. ما كان

- يليق أن نشغلك بهمومنا، ولكن أُمِّي قلقة.
- ابن خلدون : طمئنيها.. سأبذل معه غاية جهدي.
- سعاد : بارك الله فيك.. هل تحتاج شيئاً آخر يا سيدي؟
- ابن خلدون : قوّاك الله وعافاك يا ابنتي.
- (تخرج سعاد ومعها الخادمة)
- ابن خلدون : هذه الفتاة مكرمة لأبيها. لا يضاهي جميل قولها إلا رشاقة يديها. أراحتني هذه التغطيسة كأنها البلسم.
- شرف الدين : أدام الله عليك الراحة والعافية.
- ابن خلدون : هل أنت محموم؟
- شرف الدين : (مخرجاً من لمسات ابن خلدون) لا.. لا شيء.. ما سمعته عن حمية أبيها زاد هياجي. في مثل سنّه يتقلّد عدّة القتال، ويقف على الأسوار!
- ابن خلدون : والله إنه منغمس في أمر تيمور انغماس رجل فيه لوثة.
- شرف الدين : هل تلومه يا سيدي؟
- ابن خلدون : بل أشاطر أهله الإشفاق عليه. وأخشى أن أحداً لن يستطيع أن يثنيه عمّا يفعل.
- شرف الدين : وجود أمثاله يؤكّد الثقة بالنصر.
- ابن خلدون : النصر!
- شرف الدين : أتتنبأ لنا بالخسران يا سيدي؟
- ابن خلدون : لا أنبأ بشيء. ما جئنا لتتنبأ، بل لنعاين ونسجّل.. أين وصلنا؟
- شرف الدين : وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة.
- ابن خلدون : فاستدعاني الحاجب، وأرادني على السفر معه في ركاب السلطان، فتجافيت عن ذلك، ثم أظهر العزم عليّ بلين القول. وجزيل الإنعام، فأصغيت، وسافرت معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة ٨٠٣ هجرية.
- (يتلاشى الضوء).

تفصيل (٩)

(الوقت ليل.. في مكان ما على الأسوار.. أحمد ومروان)

أحمد : أين هم؟ لماذا يختبئون! إن دمي يغلي. عاهدت نفسي أن أذبح أول تترى ألتقيه، وأن أسلخ جلده كما تسلخ الدابة.. هل أنت بردان؟ لماذا لا تتكلم؟! من كان يصدق أنك ستقن استعمال الحربة بهذه السرعة. (يتناول من جيب داخلي زجاجة، ويتناول منها جرعة، ثم يمدها إلى مروان) طاوعني وخذ جرعة. إنها أفضل ما يداوي البرد.

مروان : لا أريد.. هذا حرام وطيش.

أحمد : ما أشد تزمّتك؟! كيف تعيش معك أختي؟! إن رخصة الجندي واسعة، وكل شيء مباح إلا الجبن والخيانة.. وأنا مقاتل. وسأصبح ذات يوم مقدّماً، أقود الكتائب من معركة إلى معركة ومن نصر إلى نصر. تخيل بهجة الفاتح حين يدخل مدينة مستسلمة وراكعة، ومصيرها تحدده كلمة واحدة منك. هذا السيف هو أنبل ما صنعه الإنسان. ومهنته هي أرفع المهن. حين تدور المعركة سيبرز معدني، وسأجعل نجمي يسطع. وأنت أيضاً يمكن أن يكون لك نصيب من المجد. لا أخفي عنك.. لقد أدهشتني. لم أتخيل أبداً، أن يد الحرير الرخوة والناعمة يمكن أن تطوّع الحربة بهذه البراعة! أنت أيضاً ستكون لك حصّة من المجد.

- مروان : خذ حصّتي، فأنا لا أبحث عن المجد. وأعتقد أنّي لن أبقى على الأسوار هذه الليلة.
- أحمد : هل تريد أن تهرب إلى بيتك؟! هل تترك الرجال لتختبئ في حضن زوجتك؟
- مروان : اسمع.. لا تجعلنا نتحامق. اليوم روعي ضيقة ولا أتحمل لسانك الفلتان، وتشدّك بالفارغ والمليان.
- أحمد : ماذا تقول!. أنّت تقول لي ذلك؟! لولا أنّك.. لجعلتك غربالاً (يحتسي جرعة من الزجاجاة) ماذا دهاك؟ لماذا اللفّ والدوران؟ قل إنّك بردان وخائف، وستدبر الأمر. أما أن تهينني..
- مروان : اخز الشيطان يا أحمد.. لم أقصد إهانتك، ولكن روعي ضيقة. لم أعد أعرف موقعي. لم أعد أعرف كيف تدور الأحوال، أو ماذا ينبغي أن أفعل!
- (يدخل الشيخ التاذلي ومعه مقاتل شاب).
- التاذلي : حيّا الله الشباب.
- أحمد : (باندفاع وارتباك) حيّاكم الله يا شيخي.
- التاذلي : كيف الحال عندكم؟ ألا يرهقكم البرد؟
- أحمد : من يبالي بالبرد؟! إنّنا على أتمّ حال يا شيخ، ولكن لماذا لا يظهرون؟ لماذا لا يخرجون من مخابثهم؟
- التاذلي : لاتكن عجولاً.. سيظهرون، وستكون لنا معهم مطاولة رهيبة.
- مروان : هناك شيء يثقل على صدري يا سيّدي.
- التاذلي : قل ما لديك.
- مروان : إني حائر يا سيّدي.. لقد بكينا فرحاً يوم وصلت العساكر السلطانية، وحسبنا أنّنا صرنا في أمان، ولكن رغم ترحينا وكرمنا.. أقسم لك يا سيّدي إن الجميع في السوق

يعاملونهم كالضيوف، ويراعونهم كما تُراعى العين الرمداء. إنَّ أحداً لا يريد أن يربح منهم، بل ولا ييخل عليهم بهدية. ولكنهم يتصرفون مع المدينة وكأنَّها مباحة لهم، يستطيعون أن يأخذوا، ويغتصبوا ما يشاؤون. إني حائك على قدِّ حالي، واليوم دخل عليّ ثلاثة عساكر، لو ترى كيف رَحبت بهم، وأردت أن أعانقهم، إنَّهم عساكرنا التي جاءت لتحمينا، فكيف لا أرحب بهم؟ سألوني عن أثواب الحرير وما لديّ، فأسرعت أفرش أمامهم شيئاً ممَّا لديّ، ويشهد الله أنّي لم أكن أنوي أن أضيف على سعر الكلفة أيّ ربح، فهل تدري ماذا فعلوا يا شيخ؟! حملوا القماش وهتوا بالخروج، سألتهم بكل لطف عن الثمن. فسَلّوا سيوفهم في وجهي، وخرجوا، وهم يتضاحكون. ومثل هذا تكرر مع سواي، وفي كل الأسواق. قل لي يا شيخ.. هل جاءوا ليحمونا أم لينهبونا!

: في كل عسكر يوجد بعض الأوباش. لاتدع خسارة صغيرة تضعف روحك. نحن أمام معركة مصيرية ولا وقت للحسابات الصغيرة.

التاذلي

: (يلكز مروان) ما نحن فيه أهمّ من قطعة قماش يا مروان. سأحتق إذا لم أتكلّم. رموا علينا ضريبة لطعامهم وعلف دوابهم، ولم تتذمّر. وسنسامح يا شيخ بالتجاوزات، وما يأخذونه عنوة. ولكن مقابل ذلك ألا ينبغي أن يعفونا من مشقّة القتال وحماية الأسوار!

أحمد

مروان

: (محتدّاً) أتريد أن يقاتلوا عتّا، ونحن جلوس في بيوتنا كالنساء؟! لا.. نحن أمام خطر جسيم، ولن نفلح إلا إذا قاتلنا جميعاً بقلب واحد، وسيف واحد. لا.. ليس هذا وقت الحزازات والحسابات الصغيرة، اليوم ينبغي أن نعلو على

التاذلي

- الصغائر، وأن نؤجج في قلوبنا العزم والجسارة.
- أحمد : لا يا سيدي.. لاتخش شيئاً. سنكون كما تشاء في العزم والجسارة. مروان لا يعني شيئاً.. كانت فشة خلق لا أكثر.
- التاذلي : هذا ما أتوقعه منكم. والليلة بالذات ينبغي أن تكونوا في غاية الحذر. يخامرني إحساس بأن تيمور قد يياغت الأسوار كي يربك عساكرنا، ويلتفّ عليها. كونوا يقظين هذه الليلة، ولا تنسوا أن الحبيب المصطفى يساهركم. ويخنو عليكم. قولوا.. من يستطيع أن يغمض عينيه والحبيب المصطفى يساهره؟
- أحمد : باطل يا سيدي. لن يرف لنا جفن، ولن تغمض لنا عين.
- التاذلي : بارك الله فيكم أيها الشباب.
- (يتركهم التاذلي ويمضي في جولته على الأسوار).
- مروان : أكان ضرورياً أن تضغنا في هذا الموقف؟! أقمت الدنيا وأقعدتها من أجل خرقه من القماش.
- أحمد : أتسميها خرقه؟! ولكن ماذا تعرف عن عملي؟ إنني أضع روجي في كل منديل، أو قطعة كمخة أنسجها. قل لي لماذا تعلمت ضرب الرمح على كره متي! أو لماذا أقف الآن على هذه الأسوار؟! ألم أفعل ذلك لحماية عملي ورزقي؟
- أحمد : (وهو يتناول جرعة من الزجاجاة) أهذا كل ما تفكر فيه، نسيجك ومالك. اللعنة على المال وعلى الرزق. إتنا هنا من أجل الكرامة، من أجل العزة. إتنا هنا يا مروان من أجل البطولة. آه.. حين يكون المرء بطلاً، يتهاوى أمامه الأعداء، وتساقط المدن (يتركه مروان ويمشي) أين تمضي؟ توقف.. جاوبني.. ماذا دهاك؟
- مروان : إنتي ذاهب إلى البيت.
- أحمد : إلى البيت؟! وبعد كل مقاله شيخنا التاذلي! إنك تجعل

- نفسك مضغة للأفواه.
- مروان : لا أبالي ولم أعد أتحمل.
- أحمد : جبان.
- مروان : قل ما تشاء.
- أحمد : إنك عار على العائلة. إنك عار علينا وعلى أختي.
- مروان : العائلة صغيرة ويكفيها مجد واحد.
- أحمد : إنك تقطع ما بيننا إذا ذهبت.
- مروان : قد تغير رأيك حين تصحو.
- أحمد : (شديد الغضب) أتحسني سكران؟!
- مروان : (وهو يغادر) لست أدري.
- أحمد : (وهو يكرع من الزجاجة كركات متلاحقة) جبان.. أحرق..
- حرمة.. نعم أنت كل هذا، وسيكون بيننا حساب.
- (تتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : وفي العاشر من جمادى الأولى، حصلت وقعة بين القوات السلطانية ومعها عرب بني الزاوي، وبين قوات تيمور لنك. واستطاعت العساكر السلطانية أن تهزم جند تيمور. وقد أسروا منهم ونهبوا، وهرب الأمراء حاملين جراحهم. وفي ثاني عشره، نودي بدمشق بأن من كان له على الأجناد والمستخبرين دين فلا يطالب به. وذهب للناس في ذلك مال كثير، ووقف حالهم زيادة على ما هم فيه. وفي خامس عشره، اشتدّ البرد والزمّة وهطل ثلج خفيف مع مطر، وهذه ثاني مرّة ثلج فيها خلال جمادى الأولى. والماء يعلو في بردى ويجري على قوّة.

تفصيل (١٠)

(بيت جمال الدين الشرائجي. ياسمين زوجة جمال الدين
وإبراهيم الملكاوي. الضوء شاحب)

- ياسمين : لا أصدق عيني. كيف تذكرتنا بعد هذا الغياب الطويل!
- إبراهيم : علمت أمراً يجب أن أخبرك به.
- ياسمين : إذن جئت رسولاً لا زائراً.
- إبراهيم : (متملصاً وخرجاً) علمت أن الشيخ جمال الدين أرسل من
سجنه تظلماً إلى السلطان، وأن العلماء أوغروا صدره، فرد
التظلم، وأمر بتشديد العقوبة.
- ياسمين : ولماذا تبدي كل هذا الحزن؟ أليس هذا ما أرادته لنفسه؟!
مأقساك يا إبراهيم الملكاوي!.. مرّ شهر وأنا أنتظر زيارة أو
حتى إشارة. ماذا حدث؟ ماسبب هذا الجفاء، ولماذا تريد
تعذيبي؟
- إبراهيم : بل أريد تعذيب نفسي لا تعذيبك يا أم واصل! يشق عليّ
الحديث في هذا الموضوع.
- ياسمين : هل كان الهوى لعباً.. وهل كان البوح والتودّد كذباً؟
- إبراهيم : لا.. لم أَلعب ولم أكذب. ولكنّي كرهت نفسي، ومازلت
أكرهها. أعمانني الهوى فجعلني أخون الصديق والمعلم
والعشرة.. أتعلمين.. أنا الذي وشى بالشيخ جمال الدين، وأنا
الذي حرّض ابن النابلسي عليه. حين رأيته ذلك الصباح في

صحن الجامع الأموي، رافع الرأس لا يتراجع، ولا يلين،
استصغرت شأني وكرهت نفسي، وفزرت أن أخفي وجهي
عن الناس.

ياسمين

: آنت من وشى به؟

إبراهيم

: نعم.. أنا الواشي الجبان. لقد فقدت احترامي لنفسي. وكنت
أعلم أنك لن تقبلي صغاري، ولن تستطيعي الامتناع عن
احتقاري حين تعلمين إلى أي درك هويت.

ياسمين

: أحقاً كان الهوى دافعك!.

إبراهيم

: نعم.. هوى جامح، أعمى بصيرتي وأضلّ روحي. كانت زلة
فاحشة. وددت لو أخرج قلبي من صدري وأذبحه. فزرت أن
أخنق هواي، وأدفنه. ولم أكن أجرو على الاقتراب منك،
كنت أخشى نفسي، وكنت أخشى احتقارك أيضاً.

ياسمين

: ولم الاحتقار؟! وكيف أستطيع أن أحتقر شريك في
الوشاية!

إبراهيم

: آنت أيضاً؟ لا.. لا تقولني إنك..

ياسمين

: لا.. لم أفعل شيئاً ولكن.. ألم يكن هواناً هو الذي فعل؟! ألم
أرغب أن يغيب، وأن نكون معاً بلا حواجز؟! إنني شريكك
يا إبراهيم، ولا أستطيع أن أحتقرك أبداً. من يحب لا يعرف
الاحتقار أبداً.

إبراهيم

: هذا كرم عظيم يا أم واصل، ولكن يبقى أمري مع نفسي.
وسيمرّ وقت طويل قبل أن أتطهر من خيانتني. الآن.. وأنا
أقف هنا في بيته أشعر بالخزي. أشعر أنه كبير، وأنني حشرة
صغيرة في طين الغدر والأهواء.

ياسمين

: ولمّ المداورة؟ لماذا لاتقول بصراحة، ما عدت أحيك؟

إبراهيم

: ليتني استطعت أن أدفن هذا الحب في صدري! وأقول لك..
إنني أتعذب أكثر مما تظنين. لن أسترده احترامي لنفسي إلا إذا

قهرت هذا الهوى، وغسلت تلك الدناءة. كم مرة فكرت أن
أثير فضيحة في الجامع، لكي يرسلوني إلى السجن مثله،
فأعترف له وأطلب غفرانه.

ياسمين

: إني لا أفهم.. كل هذه الوسوس من أجل زلة صغيرة
يرتكبها أي عاشق! إننا لم نرتكب جريمة. وكان العلماء
سيكشفون أمره عاجلاً أم آجلاً. أنت تعرف أنه لم يكن
متحفظاً أو حريصاً في أقواله وأفكاره. كان يبدو وكأنه يريد
المعركة ويستعجلها. إنك تؤذي نفسك بلا مبرر. ليتك
فكرت في أمري كما فكرت فيه! لم يخطر لك أن تسأل
عن حالي، وما يجري لي خلال هجرك وبعذك.

إبراهيم

: ألا تريد أن تفهميني! لقد تحطم شيء في داخلي. أشعر
أنني ملوث. أنني صغير. وأفضل ألف مرة أن يتحول حبي إلى
جرح متفتح في صدري، على أن أستمري ضعتي واحتقاري
لنفسي.

ياسمين

: إني بحاجة إليك.. خلال شهر وأنا أقلب المشاريع في رأسي.
تخيلت أنني أحصل على الطلاق، وتخيلت أنني أرف لك.
: أرجوك.. أرجوك..

إبراهيم

: ألم يكن هذا ما نحلم به؟! ألم يكن هذا ما يطوف في
خيالنا، ونحن نتبادل النظرات واللواعج والكلمات المخطوفة!
: رؤيته ذلك الصباح حطمت كياني. إني لا أستحق ما كان
له. إني لا أستطيع.

إبراهيم

: لم أكن أحبه، أبي أجبرني. وهو لم يكن يالي بي. أنت لا
تأخذ ما يملكه.

ياسمين

: مهما قلت فأنا لا أستطيع. إنه هنا.. إنه بيننا الآن، وسيظل
بيننا كلما نظرت إليك، كلما اقتربت منك، كلما لمستك..
سأجده كالشبح بيننا.

إبراهيم

- ياسمين : ولكن هل هو سحر؟ هل هو عفريت؟ إنَّكَ تتصرّف مثل طفل. إنَّي بحاجة إليك يا إبراهيم.
- إبراهيم : كل ما لديّ هو لك. سأكون خادماً لك في كل ما تطلبين. ولكن.. لن يكون شيء بيننا، قبل أن أتطهّر، وأستردّ احترامي لنفسي.
- ياسمين : أهذه خاتمة الحكاية؟
- إبراهيم : لو تعلمين كم أنزف!
- ياسمين : وأنا.. تظن أنني لا أنزف؟
- إبراهيم : أقول لك الحق، أقول لك كلمة من القلب قبل أن أنصرف.. لا يستحقّ رجل مثلي أن تنزفي عليه. نحن الآن في محنة، ولو احتجت أيّ شيء، فأياك أن تتردّدي في طلبي.
- ياسمين : وهل بقيت لي حاجة؟ أتستعجل الذهاب؟! اذهب إذن.. (يخرج إبراهيم مرتبكاً تداعى ياسمين على الأرض والدموع تتساقط من عينيها، تلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : وفي ثمانى عشرة من جمادى الأولى جاءت طلائع
تيمورلنك من تحت الثلج، وكانوا نحو ألف فارس فبرزت
إليهم طلائع العساكر السلطانية نحواً من مائة فارس، فأوقعوا
مع عسكر تيمورلنك واقعة قوية، فانكسرت طلائع تيمور
وولوا مدبرين.

وفي تاسع عشره، حصلت وقعة كبيرة بين العسكرين
واندحر عسكر السلطان حتى قبة يلبغا. لكن السلطان
ومماليكه ثبتوا، وكسروهم، وظلّوا يطاردونهم حتى حال الليل
بين المتقاتلين. وقُتِلَ في ذلك اليوم خلائق من العوام والفرسان
ما لا يعلم عددهم إلا الله.

وما زال البرد شديداً والأرض موحلة من الثلوج والأمطار.

تفصيل (١١)

(يتردد صوته في الظلمة عبر شوارع المدينة)

- شعبان : بردان يمه.. جوعان يمه.. هاتي حضنك.. هاتي برك.. يمه..
دقيني يمه.. اسقيني يمه.. بردان.. جوعان.. يمه..
(قاعة في القلعة، السلطان فرج بن برقوق، حاجب السلطان.
آزدار. الشيخ التاذلي. ابن خلدون)
- الحاجب : دعوناكم وأنتم صفوة الخاصة، كي نطلعكم على أمر خطير.
التاذلي : (بتهور) الله أكبر.. جاء نصر الله والفتح. (ينظر إليه الحاجب
بقسوة، فيطأطي التاذلي رأسه، ويحس بالخجل).
- الحاجب : ما سأقوله سرّ خطير. أطبقوا صدوركم عليه. ومن أذاعه فرّط
في حق سلطانه.
- آزدار : معاذ الله..
- التاذلي : كيف نفرّط بسرّ سلطاني!
- ابن خلدون : السرّ في بئر إن شاء الله.
- الحاجب : قرّرنا أن نرحل الليلة إلى مصر.
(يتبادل الجميع نظرات ذاهلة).
- آزدار : والحرب!
- التاذلي : يرحل السلطان.. كأنّي لم أفهم!
- الحاجب : جاءتنا أخبار مقلقة، تستدعي رحيلنا بلا إبطاء.
- التاذلي : وهل هناك خير أشدّ قلقاً من حربنا مع هذا الكافر؟

- الحاجب : نعم.. أن يغتصب العرش طامع.
- السلطان : (بلهجة صيانية) اذبحوا الجركسي. واحفظوا لي عرشي.
- الحاجب : في الجوف فتنة. تسحب أمراء تحت ستر الليل، وعادوا إلى مصر كي يولّوا لاشين الجركسي.
- التاذلي : ما أهمية هذه الفتنة الصغيرة أمام الطامة التي تهدد الأمة بأسرها؟ أترك الخطر الجسيم لتتدارك الخطر الهزيل؟
- السلطان : (يهز كنف التاذلي بغضب) أعتبر ضياع عرشي خطراً هزئلاً! (بلهجة مهدئة) إنما يقصد الشيخ أن خطر تيمور مؤكد، وهو آذدار
- الحاجب : وإن صحّ الخبر.. يتداعى البناء وراءنا ولا يبقى لنا شيء.
- التاذلي : (يعايد المشخص بينه وبين الدور) في تلك الليلة.. ليلة العشرين من جمادى الأولى، سنة ٨٠٣ هجرية، لم يستشر السلطان وحاجبه، حين قرّر الفرار، أحداً من الخاصة أو العامة. ولكن حين شاع الخبر، فار التاذلي غضباً، وتمتّى أن يواجه السلطان، وأن يقول رأيه. (يعود المشخص إلى دوره) يا مولاي.. في هذا الوقت الذي تخوض فيه معركة الأمة، لن يجد المتأمر مؤيداً أو نصيراً. حتى الحثالة من الرعاع ستمقت عمله، وتخيب سعيه.
- الحاجب : تعود الناس أن ينتصروا للغالب.
- التاذلي : اليوم يختلف الأمر.. ما يهمّ الناس جميعاً هو حرب التار، لا حرب العرش.
- الحاجب : لانقلل من خطر التار، لكن كيف نخوض الحرب إذا تداعى البناء وراءنا.
- التاذلي : يا مولاي.. البناء كلّ هنا. في هذه الرقعة التي تفصل بيننا وبين جمحافل العدو، سيتقرّر مصير العرش والسلطنة والأمة.
- الحاجب : إذا نجح الجركسي، فلن تكون الحرب هنا.. بل هناك في قلعة

القاهرة.

التاذلي : إذا واجهنا هذه المحنة، وكسفنا شمس هذا اللعين، فإن الأمة

بمصرها وشامها ستلعن المتآمرين، وترفع للسلطان العرش الذي يليق بالظافرين.. عرش مسبوك من الحب والولاء.

السلطان : لا أستطيع الجلوس على الحب والولاء. أريد عرشي.

الحاجب : ما فائدة أن ندحر تيمور إذا خسرنا الملك؟

التاذلي : وما فائدة أن تربح الملك إذا ضاعت المملكة!

الحاجب : المملكة يمكن أن تُسترد، أما الملك فبهيات أن يسترده من

يخسر.. وعلى كل، الوقت يستحثنا، ولم نجتمع بكم للجدل والمحاكمة.

التاذلي : مرّة، حاصر العدو أحد السلاطين في قلعته، فنصح قاضيه

بالفرار، فأجابه السلطان «ليس هذا برأي مصيب، أنجو أنا،

وأترك رعيتي ليوم عصيب!» ونحن... أتركنا يا مولاي أكلة

لتيمور! ما شرط السلطان إن لم يكن حماية العباد والبلاد!

الحاجب : (يبدأ يحدّث ويغضب) شرط السلطان هو أن يوطّد سلطانه.

علمه يا ابن خلدون لماذا يحارب السلاطين؟ ولماذا يسالمون؟

لماذا يقطعون ولماذا يصلون؟

ابن خلدون : فصاحة مولاي أبلغ من تعثر عبارتي.

التاذلي : (صائحاً) أتسمي الخذلان فصاحة يا ابن خلدون!.

ابن خلدون : السلطان أدرى ممّا بما هو واجب وصواب.

التاذلي : إنّ سلطاناً لا يحمي بلاده وعباده يفقد شرعيته.

الحاجب : أتخوض في شرعية السلطان؟! والله لو كان الوقت غير هذا

الوقت لوسطتك بسيقي. ومن أنت أيّها العجوز المخزّف حتى

تقرّر شرعية السلاطين؟

التاذلي : لو أن هذا السلطان يتمتّع بالشرعية لما أصابكم الهلع، لأنّ

طامعاً خسيساً تأمر عليه. لو أنّ هذا السلطان يتمتّع بالشرعية

لما ترك بلاده نهباً للعدوّ، وفّر في الليل شوقاً إلى قصره
وكرسيه. أما مَنْ أنا! فإني مجرّد واحدٍ من علماء هذه
الأمّة، نذرت نفسي للشهادة، ولا أبالي أن تأتيني الشهادة
على يد سلطانٍ جائر، خائر، أو على يد عدوّ غاصب، كافر.
إني مجرّد عالم، وإني أنخلعك أيّها السلطان.

الحاجب

: أيّها النائب.. خذه ووسّطه. هذه المماحكة ضيّعت لنا وقتاً
ثميناً. أفضينا لكم بما لدينا، فاحفظوا السرّ وتدبّروا الأمر
بعدنا. (يخرج السلطان والحاجب، يلحق بهما ابن خلدون
محاولاً الكلام مع الحاجب).

التاذلي

آزدار

التاذلي

آزدار

: (إلي آزدان) أتوسّطني أيّها الأمير، أم تترك التتار يفعلون؟
: والآن.. كيف نواجه هذه المحنة؟
: كما كنّا نفعل قبل مجيء السلطان، وإذا لم تشأ أن تنقذ
الأمر السلطاني، فسأذهب إلى موقعي على الأسوار.
: إذهب يا شيخ.. إذهب.
(تتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : فلما كانت آخر ليلة الجمعة، حادي عشرين جمادى الأولى، ركب الأمراء، وأخذوا السلطان الملك الناصر فرج في فرقة من الخيالة، وساروا به من على عقبة دمر يريدون الديار المصرية، وتركوا العساكر والرعية من المسلمين غنماً بلا راع. وأما بقية أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم، لما علموا بخروج السلطان من دمشق، خرجوا إثره في طوائف يريدون اللحاق بالسلطان، فأخذ غالبهم التار وسلبوه، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

وكان أهل دمشق في الليل والنهار ملازمين الإقامة على الأسوار. وفي تلك الليلة صعد الناس إلى مكان عالٍ، وإذا بأماكن مخيم السلطان قد خلت من النار، ولم يعرف أحد ما الخبر، وأصبحوا وقد خلت الديار، ولم يبق في قبة يلبغا نافخ نار، وقال الناس: السلطان هرب، فانقصم ظهر الناس وتفاقت الهموم، وتخبطت الأوامر والأمر.

تفصيل (١٢)

(على الأسوار.. حركة مضطربة، شباب يروحون ويجيئون، استعدادات قتالية. بعد قليل يظهر الشيخ التاذلي ويحتشد حوله جمع من الناس، نرى بينهم أحمد ومروان، يخطب التاذلي فيهم).

التاذلي

: أيها الناس.. أنتم اليوم بلا سلطان. هرب السلطان، وتركنا نواجه وحدنا هذا الكافر الجبار تيمور لنك، وأعرف أن مجيئه وفراره على هذا النحو قد بلبل الخواطر وفَتَّ عزائم الرجال. وأقول لكم الحق.. لو كنّا غير ما نحن عليه لكان لنا سلطان جدير بالسلطنة. سلطان يعرف كيف يقود الأمة في شدّتها، وكيف يصون أرضها وناسها، وليس الظرف مناسباً كي أستفيض في شرح الأسباب التي أدّت بنا إلى هذا المآل، ولكنني أريد أن أخلص ذمتي، وأن أعترف لكم بما اقترفته نفسي من الهوان، وماتحمّله من فساد الأحوال. في زمن ليس يبعد كان العلماء والفقهاء في مقدّمة أهل الحلّ والعقد، في كل ما يتوالى على الأمة من عوارض وأحداث. وكان القادة والأمراء يبالغون في إجلال القضاة والفقهاء، ويرون أنّ بهم عرفوا دين الإسلام، وفي بركتهم يعيشون، وحسبُ أعظمهم قدراً أن يقبّل يد الفقيه والقاضي. ولكن الدنيا زينة وفتنة. وقد أغرّتنا نحن العلماء زينة هذه الدنيا، فتهافتنا عليها، ورحنا نتوسّل الأسباب لكي نصل إلى المناصب. لم نتورّع عن الخطّة وهدر

الكرامة، ولم نترفع عن الرشوة وشراء العلامة، وأصبح يکید بعضنا إلى بعض. وكلّنا نضطرب في هذه الدّنيا وفنتها ناسین علمنا، وناسین الأمانة الموكولة إلینا. وبدلاً من أن نكون طلیعة الأّمة، وكلمة الحقّ التي تقوّم الأحوال، وتردع السلاطین، نزلنا من أهل الدولة منزلة سوء. وتكلّم فینا أقلّ المالیک شأنًا، وأرذل الباعة بكلّ قبیح، عقوبة من الله لنا، لامتهاننا العلم، وخضوعنا في طلب الدّنيا. وأنا نفسي أيّها التّاس، مرّ عليّ حين لم أرع فيه مقامي، ولم أحمل أمانتي. رشوت وترلّفت لكي أحصل على منصب قاضي القضاة، ولكي أتقرّب من أهل السلطان والخطوة. وأني أستغفر الله على ماتقدّم وما تأخّر من ذنب. ولعلّ الرّؤية التي زراني فيها النّبيّ صلاة الله عليه وسلامه هي بشارة وعلامة. بشارة على الغفران وعلامة على الواجب الذي يتعیّن عليّ أن أتّمّه. واجب الشهادة، والإسراع خفیفاً لملاقاة ربّي. أيّها التّاس.. قال لي الرسول الكريم «لن يكون الموت إلاّ كعبور جدول من الماء العذب». وهو وسط الخضرّة، وسط الضوء والخضرّة ينتظرنا على الضّفة الأخرى، لكي یسمح على جراحنا، ویبارك جهادنا. أيّها التّاس.. الآن وأنا أتأهب للشهادة، یمكنني أن أسترّد قدری، وأن أؤدي الأمانة الملقاة على كاهلي، وأعلن، أنا القاضي المالكي، عزل السلطان، وتلك الطغمة من الأمراء، الذين ینتهكون الحقوق، ویستلّطون على العباد. أيّها التّاس.. سأنوي الآن، وسأصلّي على نفسي صلاة الغائب. ومن شاء منكم فلیتبعني. وليس أماننا والله إلاّ المصابرة والقتال.

(ترتفع أصوات.. الله أكبر.. یبدأ التاذلي صلّاته وخلفه کلّ الناس إلاّ قلیلهم، وتلاشی الإضاءة).

مؤرخ قديم : ولما أصبح أهل دمشق وقد فقدوا السلطان والأمراء، غلّقوا أبواب دمشق، وركبوا أسوار البلد، ونادوا بالجهاد، وزحف عليهم تيمور بعساكره، فقاتله أهل دمشق من أعلى السور أشدّ قتال، وردّوهم عن السور والخنديق، وأسروا منهم جماعة، وأخذوا من خيولهم عدّة كبيرة، وقتلوا منهم نحو الألف.

وفي هذا اليوم، هبّت ريح باردة، تلزق على الوجه وتجعل الأنف كقطعة البلّور. وارتفعت المياه في بردى وصارت تجري على قوّة، وتجرف الأغصان والجذوع المتكسّرة.

تفصيل (١٣)

أصوات : (في البداية تنهأ بعيدة، ثم تتوضَّح أكثر، ثم تعلو وتتصاعد
من حناجر كثيرة) مات التاذلي.. مات التاذلي..
شعبان : (يختلط صوته الذي يزداد عمقاً وانجراحاً مع الأصوات التي
تنعى التاذلي) يمه.. هاتي برك يمه.. عطشان يمه.. أعطني
حليباً يمه.. هاتي برك يمه.

المنمنمة الثانية

ولي الدين عبد الرحمن ابن خلدون
أو مضنة العلم

تفصيل (١)

(بيت الشيخ التاذلي. شرف الدين، تلميذ ابن خلدون يجمع أمتهمما، لكي ينقلها من البيت. تأتي سعاد وخلفها طيرة)

شرف الدين : (مرتبكاً) لا أعرف كيف أجد الكلمات. إنني أشاطركم اللوعة مشاطرة الأهل.. ولا أدري هل ينبغي أن نبكيه أم نفرح له! لا تعرفين مقدار إعجابي به. وكم أثر بنا المثل الذي قدّمه!

سعاد : كان يسعى إلى هذا الختام، وناله، ولعلّ مقامه الآن خير من مقامه بينما. هل حضر سيّدي ابن خلدون الجنازة؟
شرف الدين : كان شديد التأثر والحزن، ولكن وعكة منعه من حضور الجنازة. يا الله! لم أرَ في حياتي جنازة احتشد فيها هذا الجمع من الناس. كان النعش كأنه يطير فوق الأكفّ. وكانت الجموع تتفجّر انفعالاً وحماسة، وكأنهم يقولون سنواصل دربك حتى نلحق بك، أو نزول هذه الغمّة.

سعاد : هل تركت سيّدك المتوّعك وسرت في الجنازة؟
شرف الدين : هو الذي شجّعني.. ماكنت أستطيع ألا أحضر الجنازة.
سعاد : كم كان أبي يُجِلّ سيّدك. لقد استبشر خيراً بمجيئه، واعتبره يداً وسنداً لنا في هذه المحنة. هل سمعت عن خطبته يا شرف الدين؟

شرف الدين : سمعت عنها! بل حفظتها وسجلتها. الناس جميعاً يتناقلونها،

ويحفظونها.

سعاد : يبدو أنه أسرف في القسوة على نفسه.
شرف الدين : أتسمين هذا السمو قسوة؟! نعم.. لقد سما على نفسه،
وتجاوز صفائر هذه الدنيا، وختم حياته ختاماً طاهراً مجيداً.
حقاً.. ما أسعد من يقتدى به، وينال حسن ختامه!

سعاد : لا أدري.. أعتقد أنه كان يرتب المجريات بدأب وعناد، كي
يفوز بهذا الختام. منذ تناهت أخبار تيمور، ومنذ رأى تلك
الرؤيا، بدا إنساناً آخر، إنساناً انكشفت أمامه طريق جديدة،
ولم يعد يستطيع التوقف حتى يصل إلى غايتها. كان يبدو
وكان نداءً عميقاً ومتسلطاً يناديه. منذ فترة وقبل أن تأتوا،
عرفت أنه يمضي كما لو كان مستيراً بقوة خارقة، لكي يلبي
النداء الذي يناديه.

شرف الدين : لن ينال تيمور بغيته إذا عرف أهل الشام كيف يقتدون به.

سعاد : هل تعتقد أنهم لن يسلموا المدينة؟

شرف الدين : (مستكراً) ستكون كارثة إذا سلموا المدينة.

سعاد : إني أعرف كيف يفكر علماء وأعيان المدينة. أعتقد أيها
المصري أن الكارثة قريبة، ولعلها تقع غداً أو بعد غد.. نحن
أيضاً جمعنا أمتعتنا، وحزمنا ما هو ضروري لنا.. اليوم سنترك
البيت، وننتقل إلى القلعة. تلك كانت وصية أبي لنا، وتلك
كانت وصيته لأمر القلعة. أين ستقيم مع سيدك؟

شرف الدين : في المدرسة العادلية.

سعاد : إنها مكان لائق.

شرف الدين : لن ينسينا أي مكان دفء وحفاوة هذا البيت.

سعاد : إنك طيب أيها الشاب. وددت، أنا وأمي، لو بادرنّا سيدك
بكلمة عزاء.. ولكن هذا حمق نساء. عالم كابن خلدون هو
دائماً معذور، ولا يجوز أن نبخس قدره بالملامة والعتاب.

- هل وضبت كل شيء، ألا تريد مساعدة؟
- شرف الدين : (مرتبكاً) لا.. لقد انتهيت. (مرتدداً) لا أعرف كيف تجري الأمور.. ولكن إذا اقتضت الظروف.. هل تعتقد أن الانضمام إلى القلعة ممكن؟
- سعاد : بماذا تفكر أيها الشاب؟
- شرف الدين : لا أدري.. هو خاطر جال في ذهني بعد حديثك عن العلماء والأعيان.. (مرتدداً) وربما بعدما علمت أنكم ستذهبون إلى القلعة.
- سعاد : عندما يحين الوقت سندبر الأمر. حيّ معلمك وبلغه سلامنا. أشكر تعاطفك يا شرف الدين، ولعلنا نلتقي في ظرف أفضل.
- شرف الدين : (مندفعاً) أرجو فعلاً.. حقاً.. أرجو أن نلتقي. (تمضي سعاد ومعها خادمتها، يقف شرف الدين ساهماً للحظات، ثم يصحو من شروده، ويبدأ برفع الأمتعة تأهباً للخروج، وتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : وفي ٢٢ جمادى الأولى وبينما أهل دمشق في أشد ما يكون من القتال والاجتهاد في تحصين بلدهم، قدم عليهم رجلان من أصحاب تيمور من تحت السور وصاحا بعد.. «الأمير يريد الصلح، فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدثه الأمير في ذلك».

ومازال البرد والزمنة على حالهما من الشدة.

تفصيل (٢)

(العلماء.. ابن مفلح، وابن النابلسي، وابن العزّ ومعهم التاجر دلامة).

- ابن مفلح : (متمسكاً) يا رب.. ولكن كيف يُعرَف الصواب؟!
ابن النابلسي : حقاً.. هذا هو السؤال. كيف يُمتَحَن الصواب؟!
ابن مفلح : طوال الليل وأنا أمخض هذا الأمر، وما حصلت على زبدة أو جواب. وخطر لي أن أخرج، وأقول للناس ليس لديّ إلا حيرتي، ولا أدري في هذا الظرف كيف يُعرَف الصواب!
دلامة : ليس الظرف مناسباً للمداورة ومداهنة العامة. كلّنا نعرف ما هو الصواب في حالتنا.
ابن العز : صحيح.. ينبغي أن نكون صلاباً في موقفنا، وقساءة مع الناس في حملهم على رأينا.
ابن مفلح : هل يعني ذلك أنكم متفقون على أن تسليم المدينة هو الصواب؟
دلامة : لا تتلاعب يا ابن مفلح.. أنت أكثرنا يقيناً بأن هذا هو الصواب. كم مرّة تحدّثنا في الأمر إذا لم نسلّم الآن المدينة بالأمان فكم نستطيع الصمود! نعم.. إن أسوارنا قوية، وبعض الناس ولاسيما أولئك الأحداث يدون اندفاعاً وحماسة للقتال. ولكن إذا استطاعت الأسوار أن تصمد أمام تيمور فترة من الزمن، كيف سيكون حالنا هنا في المدينة! ألن

تختلط الأمور، وتضيع المراتب، ويصبح الحال فوضى يهون أمامها الاحتلال... سيصير كل حامل سيف رأساً، وسيكون علينا أن نغذي الناس جميعاً من أرزاقنا وأموالنا.. وبعد أن تكون قد ضاعت الأموال والمقامات، يظل علينا أن نواجه غضب تيمور الذي لن يفلت منه حيّ أو جماد.

ابن العز : ولاتنس يا ابن مفلح أن أرزاقك كلّها خارج السور، وأنا إذا لم نسلم بالأمان، لن نستطيع حماية كل شيء من أرزاقك.
ابن مفلح : أعرف.. أعرف.. ولكني خائف من الناس.. الدماء فائرة والعقول تلبسها الأوهام بعد صمود يوم الجمعة ومقتل ذلك المخوف.

ابن النابلسي : حظي هذا المخوف بجنازة يحسده عليها السلاطين.
ابن العز : كان كثير الحركة، طلق اللسان، والناس تؤخذ بالأوهام وتنمق الكلام.. ولكن هذا لا يعني أن البلد خلت من العقلاء، وأن علينا أن نسلم مصيرنا وشرفنا لتهوّر بعض الأحداث. إذا رأينا أن التسليم هو الصواب وأعتقد أنه الصواب، فيجب أن نتخذ القرار. وأن نواجه الناس بحزم وإقناع.

ابن النابلسي : هل تعتقدون أن رأي ابن خلدون سيوافق رأينا؟
ابن العز : أعتقد أنه سيوافقنا الرأي. وعلى كل، بعد قليل سنعرف رأيه على اليقين.

دلالة : ما يهم الآن، هو أن نكون رأياً واحداً وألاً نبدي لجلجة أو تردداً. علينا أن نتخذ القرار، وأن نتعهد بالقسم على المضيّ به. وأبدأ بنفسي.. إني مع تسليم المدينة بالأمان، وأرشح ابن مفلح الذي يحسن الأعجمية، كي يقوم بالسفارة، ويتقدّم وفدنا إلى تيمور.

ابن العز : وهذا هو رأيي.. على أن نكون جميعاً في الوفد.

ابن النابلسي : وأن نقاسم هذا الأمر، خيره وشّره.

ابن مفلح : على بركة الله.

ابن العز : فلنقرأ الفاتحة.

ابن النابلسي : (ياعد الشخص بينه وبين الشخصية) يصف مؤرخ قديم، لعله الحافظ بن الحججي، شمس الدين النابلسي فيقول: ولم يكن بالمرضي في شهادته ولا قضائه، وباع كثيراً من الأوقاف بدمشق. قيل إنه ما أبيع في الإسلام من الأوقاف ما أبيع أيامه وقلما وقع منها شيء صحيح في الباطن. وفتح على الناس باباً لا ينسد أبداً. ولما جاء تيمور لنك، دخل معهم في أمور منكرة، ونُسبت إليه أشياء قبيحة من السعي في أذى الناس وأخذ أموالهم.

ابن العز : (ياعد الشخص بينه وبين الدور) أما ابن العز فيصفه مؤرخ قديم قائلاً: اشتغل بالقضاء فترة. ولما كانت فتنة تيمور، دخل معهم في المنكرات، وولي القضاء من قبلهم، ولقب قاضي المملكة، واستخلف بقية القضاة من تحت يده. وخطب بالجامع باسم تيمور ودخل في المظالم وبالف في ذلك، فكرهه الناس ومقتوه.

ابن مفلح : (ياعد الشخص بينه وبين دوره) وقال المؤرخ عن ابن مفلح: ألف عدة كتب، منها كتاب الملائكة وشرح المقنع ومختصر ابن الحاجب، وعديم غالبها في فتنة تيمور. انتهت إليه في آخر عمره مشيخة الحنابلة، ثم ولي القضاء مستقلاً في رجب سنة ٨٠١ هجرية. ولما جاء تيمور، خرج إليه ومعه جماعة وجري منه لأهل دمشق أمور، وتفاقم الأمر وحصل عليه تشويش من تيمور فعذب حتى أعطب.

دلامة : (ياعد الشخص بينه وبين الدور) أما دلامة التاجر فقد أخطأ المؤرخ حين أهمله، وجعل قدره، فلم يعرفه. (تتلاشى الإضاءة).

تفصيل (٣)

(قاعة في المدرسة العادية، ابن خلدون وشرف الدين يرتب القاعة، ويضع مقاعد بينما يدوّن ابن خلدون بعض الأفكار).

شرف الدين : صار المكان لائقاً لاستقبال العلماء والأعيان.
ابن خلدون : (يترتّب فترة قبل أن يرفع رأسه) العلماء والأعيان يقبلون عليّ لا على المكان.

شرف الدين : أعرف ذلك يا سيدي. من ييالي بالمكان حين يكون في حضرة الشهاب اللامع سيدي عبد الرحمن؟ لاشكّ أنّهم جاؤوا كي يضعوا الأمر بين يديك. وهل هناك رجل سواك يمكن أن توضع هذه الأمانة بين يديه؟

ابن خلدون : أية أمانة؟
شرف الدين : أن تهدئ روع الناس وتحملهم على الجهاد.
ابن خلدون : ألاّ تعلم يا شرف الدين أن صبغة الدين حالت، وأن عصبية العرب زالت، وأن الجهاد لم يعد ممكناً. لا.. لا يتحدث عن الجهاد هذه الأيام إلّا رجل يضرب في الوهم، أو يريد أن يلبّس على الناس.

شرف الدين : لا أتحدّث عن جهاد الصحابة والتابعين وأيام الفتوحات، وإنّما أعني مدافعة هذا الكافر تيمور، وأهل الشام يدون عزمًا على القتال، وهم لا يحتاجون إلّا عالماً مثلك يشدّ أزهرهم، ويضيء قلوبهم بأنوار تجاربه وحكمته.

ابن خلدون : ماذا تخزف يا شرف الدين؟ أتريدني أن أتحوّل إلى القتال! هل جئت إلى دمشق مقاتلاً أم عالماً؟ هل جئت كي أحمل السيف أم كي أسجّل الأحداث وأستصفي زبدتها وعبرتها؟ حذرتك مراراً أن الهوى والانفعال يفسدان البصيرة، ولكن يبدو أن هياج التأذلي وهلاكه غلباً لديك انفعالية الدهماء على حكمة العلماء.

شرف الدين : عفوك يا سيدي.. لا أنكر أنني مأخوذ قليلاً بما فعله التأذلي. آه لو سمعت ابنته.. كان يجلك إجلاله للأولياء، وكان يعتبر قدومك عوناً من السماء.

ابن خلدون : كان يريد أن يعلو تحت نجمي، وأن يستقوي بجاهي.
شرف الدين : أيمكن يا سيدي أن تزدريه رغم ما قدّمه من تفانٍ وكرم؟!
ابن خلدون : (باحقار) لم يكن التأذلي إلا موسوساً وأنا أنقر من الموسوسين.

شرف الدين : ماذا تعني يا سيدي بالموسوسين؟
ابن خلدون : هم هؤلاء الذي يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ومواجهة الغزاة ولا يعرفون ما يحتاجون إليه من العصبية، ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم. إنهم كالمجانين أو الملبّسين، يطلبون بمثل هذه الدعوة رئاسة امتلأت بها جوانحهم، وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية، فيحسبون أن هذه الدعوات يمكن أن لا تصل بهم إلا إلى الهلاك وسوء العاقبة. وما يحتاج إليه هؤلاء الموسوسون هو المداواة إن كانوا من أهل الجنون وإما التكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرجاً، وإما إذاعة السخرية منهم وعدّهم من جملة الكاذبين.

شرف الدين : آه يا سيدي.. أكاد لا أصدّق.. أيمكن أن تصف رجلاً مات وهو يقاتل العدوّ بالجنون أو الكاذب؟

ابن خلدون : أليس مجنوناً أو كاذباً هذا الذي يتصدّى لأمر ليس له،

ولا يملك أسباب القيام به!. من ندبه للقتال؟

شرف الدين : حميته وجه لأهله وبلده.
ابن خلدون : لا.. لم يكن حب الأهل والبلد إلا دافعاً ظاهرياً، وما كان يدفعه على الحقيقة، إنما هو الرغبة في التشوّف على التّاس ومباهاتهم.

شرف الدين : أيدفع حياته ثمناً للتشوّف والمباهاة؟
ابن خلدون : هؤلاء الموسوسون عميان البصيرة. وهم بالغفلة يرمون بأنفسهم إلى التهلكة. على أية عصبية كان يعتمد التاذلي فيما زعمه من القيام بالجهاد؟

شرف الدين : على عصبية أهل الشام وحماستهم للقتال. لقد تحدّث مع الكثيرين أثناء الجنازة ولمست بنفسي عزمهم على الصمود والمقاومة.

ابن خلدون : (متأففاً) هذه ليست عصبية يا شرف الدين. تشدّق الأحداث وهياج العامة والدهماء ليس من العصبية في شيء. والتّاس هنا أهل مدنية وحضارة، بلغ فيهم الترف غايته، وسقطت منهم العصبية بالجملة، يلبّسون على أنفسهم في الشارة والزّي وحمل السيف والرمح، يموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان في الحماية والمدافعة.

شرف الدين : هل أنهم يا سيّدي أنّك قزرت أن تشير عليهم بالاستسلام؟
ابن خلدون : (متضايقا) لم أقرر شيئاً بعد. عندما يأتون سنقلب الرأي، ونمغن النظر.

شرف الدين : أخشى يا سيّدي...
ابن خلدون : (مقاطعا) إذا لم تسيطر على فورة عواطفك فلن تحوز ملكة العالم وشروطه.

شرف الدين : إنّي أقدر نصيحتك يا سيّدي ولكن هناك ما يحيرني قليلاً..
لاشكّ أن من شروط العالم، أن يكون محايداً ودقيقاً حين

يسجل أحداث عصره ووقائعه ولكن.. لا أدري.. إني
أتساءل فقط يا سيدي.. هل يجوز أن يسلك العالم إزاء المحن
التي تصيب قومه وبلاده مسلك الحياد؟ وهل هذا من شروط
العلم ونزاهته؟

ابن خلدون : هذا سؤال يفصح عن نباهة. وما أحبه فيك هو نباهتك
وحياؤك، يبدو أنهم وصلوا. لن أنسى سؤالك، العشيّة سنبادر
للإجابة. اذهب الآن، ورحّب بالعلماء والأعيان.
(تتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : وفي ٢٢ من جمادى الأولى، اجتمع الأعيان والعلماء مع ابن خلدون في المدرسة العادلية، وقد وافق فكرهم فكره، واتفقوا على التسليم، وإرسال ابن مفلح إلى تيمور، ليتداول معه شرط الأمان، ولكن أمير القلعة أنكر عليهم هذا الاتفاق، وأغلظ لهم في القول فلم يعبره الأعيان، وقالوا له: أنت تحكم على قلعتك ونحن نحكم على مدينتنا. وكان الناس في غاية التشويش.

وفي الغداة، أرسلوا ابن مفلح ومعه شخصان من الأعيان. أرخواهم من أعلى السور بسرياق، وكانوا يرفعون المصاحف فتلقاهم رجال تيمور، ومضوا بهم إليه.

وفي هذا اليوم، سمعت أن أتاناً ولدت كراً صغيراً له رأس إنسان وليس له ذنب. وهذه من الغرائب والعلامات.

وانحبس المطر مع شدة الزمته. وبردى يجري بين السور وعسكر تيمور، والماء يغدق فيه غدقاً.

تفصيل (٤)

(الدويان في قلعة دمشق. آردار ونائبه شهاب الدين)

- شهاب الدين : والآن ما العمل أيها الأمير؟
آردار : مقرف! أعيان وعلماء ينوحون كالنساء! لاشك أنهم يبتوا الأمر منذ وقت طويل. لم يكن اجتماع كلمتهم ابن ساعته. لم تقلب أمراً ولا رأياً. كانوا متفقين على رأي واحد، وتركوا ابن خلدون يقدمه ويزينه. طراز من العلماء فاسد، جبان، متهالك!
- شهاب الدين : هذا كله نعرفه. والغضب لن يبدل قرارهم، وابن مفلح يتحرق للخروج إلى تيمور، فما العمل أيها الأمير؟
آردار : لا أدري.. سأحرق المدينة على علمائها وأعيانها وعامتها.
شهاب الدين : هدى غضبك أيها الأمير.. لن تحرق المدينة، ولن تطاوعك يدك على مسها بالأذى.
- آردار : أعرف.. أعرف.. ولكن الغضب يخفقني.
شهاب الدين : أيها الأمير.. هذا وقت التروي لا الغضب. حشرونا في مأزق، وعلينا أن نجد حلاً قبل فوات الأوان.
- آردار : هل لديك اقتراح معين؟
شهاب الدين : الواقع لا يوجد إلا سبيل واحد للخروج من المأزق الذي حشرونا فيه.
- آردار : وماذا ترى؟

شهاب الدين : أن نسيطر على المدينة؟! نوزّع رجالنا على النقاط الحساسة فوق الأسوار في المدينة، ونضمّ إلينا الشباب الذين يريدون المقاومة والقتال. أما العلماء والأعياء فنندفعهم إلى سجن القلعة، أو نجبرهم على ملازمة بيوتهم، والامتناع عن الاتصال بالتّاس. هذا هو التدبير الوحيد الذي يحفظ المدينة، ويمنع عزل القلعة والاستفراد بها.

آزدار : وهل تعتقد أن رجالنا يكفون لأداء هذه المهمة؟! إنّها خطة بارعة ولكن أخطارها هي الأخرى جسيمة.

شهاب الدين : أنا أعرف المدينة جيّداً، وأعرف أن معظم أهلها يريدون المقاومة لا الاستسلام.

آزدار : ومع هذا فإن الأهواء متضاربة والأفكار مشوشة، والمسئ بالعلماء والأعيان قد يشعل لنا فتنة تفرقنا جميعاً.

شهاب الدين : ربّما واجهنا حوادث متفرقة ولكن لن تنشّب فتنة.

آزدار : لن أفرّق رجالي الموثقين، وأبعثرهم في فوضى المدينة. إنّها مخاطرة جسيمة العواقب. افرض أن بعض الأحياء قاومت، أو أن الأعيان حرّضوا الأتباع، وجنّدوا الرّغار والسفهاء، ورجالنا عددهم قليل، والمدينة تتوزعهم وتفكّ اللحمة بينهم. لا.. هذه مخاطرة وخيمة.

شهاب الدين : ما نحن فيه يستحقّ المجازفة أيّها الأمير.

آزدار : لا يمكن أن أجازف بالقلعة، وهي حصننا، وهنا سنرفع شرفنا، ونؤدّي واجبنا. ثم مالنا ولهذه المدينة المتقلّبة؟ مدينة، أعيانها وعلمائوها خائرون، ويتسابقون كي يلحسوا مؤخرة العدو.

شهاب الدين : المدينة هي ظهرنا، وما فيها من السلاح والرجال سيضعاف صمودنا.

آزدار : وإن ضاع رجالنا ولم نكسب المدينة؟ لا.. لن أجازف بالقلعة.

شهاب الدين : أخشى أن نندم بعد فوات الأوان.

آزدار : رَّبِّمَا كَتَبَ عَلَيْنَا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْقَلْعَةُ هِيَ الْحَصْنُ الْآخِرُ الَّذِي
يَقَاوِمُ تَيْمُورَ وَيَقُولُ لَهُ لَا..

شهاب الدين : وَنَتْرِكُ الْمَدِينَةَ تَسْتَسْلِمُ، وَتَفْتَحُ أَبْوَابَهَا لِلتَّارِ؟!
آزدار : سَنَهْدَهُمْ وَنَمْنَعُهُمْ مِنْ فَتْحِ الْأَبْوَابِ، وَلَكِنْ مَوْقِعُنَا هُوَ هَذِهِ
الْقَلْعَةُ، هُنَا سَنَصْمُدُ، وَهُنَا سَنُقَاتِلُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ.

شهاب الدين : طَيِّبٌ. هَلْ نَضُمُّ إِلَى الْقَلْعَةِ الْمُتَطَوِّعِينَ مِنْ مُقَاتِلِي الْمَدِينَةِ؟
آزدار : لَا أَمَانَعُ.. وَلَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَحْسِبَ حِسَابَ الْمُؤُونَةِ. لَا أُرِيدُ أَنْ
يَفْتَقِدَ الرِّجَالُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ وَقْتُ الْحَصَارِ. تَنْتَظِرُنَا أَيَّامَ
مَشْهُودَةٍ يَا شَهَابُ الدِّينِ.

شهاب الدين : نَعَمْ... سَتَكُونُ أَيَّاماً مَشْهُودَةً.
(تَتَلَاشَى الْإِضَاءَةُ)

تفصيل (٥)

مؤرخ قديم : (مع كلام المؤرخ يظهر مشهد إيمائي، ويمكن استخدام خيال الظل أيضاً لعدد من الرجال في صحن الجامع الأموي، يتجادلون ويتصايحون، يعلو الهرج تدريجياً حتى يتحول شجاراً واشتباكات تتخللها الصيحات الغاضبة) وعاد ابن مفلح في نهاره هذا، منشراح الصدر والأسارير، وأخبر أن تيمور أكرم وفادته وتلطّف معه، وقال هذه بلدة الأنبياء والصحابة.

صوت أحمد : لانسلم.. وكلام هذا الأعرج الدجال كالضراط على البلاط.
مؤرخ قديم : وقد أعتقها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - صدقة عتي وعن أولادي.

صوت ابن النابلسي : عساكره تغطي الأرض فما حاجته للكذب أو الخداع؟
صوت مروان : كم أؤمن وكم خان!

مؤرخ قديم : ولم يبق لي الآن غرض إلاّ العود، ولكن لا بدّ من أخذ عادتي من الطقّرات. والطقّرات على عادة ملوك التار هي تسع من كل صنف من أصناف الهدايا، من المأكولات والمشروبات والدواب والملايس والتحف وسوى ذلك من الهدايا.

صوت ابن مفلح : ومن مثا يفضل الإمام ابن تيمية.. ألم يخرج ابن تيمية إلى سلطان المغول غازان ويستخلص منه الأمان لدمشق الشام؟!

مؤرخ قديم : وشرح ابن مفلح عن تيمور محاسن كثير، وجعل يخذل أهل الشام عن قتاله، ويرغبهم في طاعته.

صوت رجل : في المدينة ميرة تكفيها سنوات، وأسوارها حصينة، ويمكن أن تصمد هي الأخرى سنوات، فلم الاستسلام؟.

صوت ابن العز : هذا كلام جهال.

مؤرخ قديم : وصار أهل البلد فرقتين، فرقة ترى ما رآه ابن مفلح، وفرقة ترى محاربته، ولم تسمع قول ابن مفلح.

صوت أحمد : أنت مرة..

صوت (محمد بن أبي الطيّب): ألي تقول هذا يا بعة الجمل؟! (يتشابكان)

مؤرخ قديم : وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح، ولم يرجعوا عن قتال تيمور وهم الجم الغفير من أهل دمشق.

أصوات متداخلة : لا نسلم.

- بل نسلم.

- إذا ضاعت الشام. ضاعت كل البلاد. وغداً يكبس

القاهرة، ويتسلطن على عرش العاصمة.

- ستقاتل.

- الأمان يحمينا.

- لن نرمي سيوفنا.

صوت ابن مفلح : من استشار الجاهل ضلّ، ومن جهل موضع قدمه زلّ.

- لا نسلم.

- بل نسلم.

(يتشابك الناس في عراك، ترفع فيه السيوف).

صوت ابن مفلح : (جهورياً وأمرأ) نحن العلماء والأعيان قرّرنا التسليم بالأمان.

لا مقاومة ولاقتال، ومن خالف ذلك قُتل وهُدِر دمه.

صوت شعبان : يمه.. يمه.. هاتي برك يمه.. يمه.

(تتلاشى الإضاءة ببطء، فيما يستمر العراك)

تفصيل (٦)

(منزل ابن خلدون في المدرسة العادلية. السرج واهن الضوء، يحاول ابن خلدون إصلاحه فلا يفلح، يبدو متوترًا، يذرع المكان جيئة وذهابًا، يدخل شرف الدين).

- ابن خلدون : ما الخبر؟
 شرف الدين : الناس يتشاجرون في الجامع الأموي، والغالبية ليست مع التسليم.
 ابن خلدون : هذا خبر مقلق. أخشى أن يتوهم تيمور أن لي يدًا في هذا الانقسام. يجب أن نبادر إلى الخروج من المدينة مع السحر.
 انظر هذا السراج، ماذا دهاه!
 (يعالج شرف الدين السراج، ويصلحه).
 شرف الدين : ألن يخرج سيدي مع الوفد؟
 ابن خلدون : لا.. لا أريد أن أخرج مع الوفد. أريد أن أمثل بين يدي تيمور وحدي. لقد سألت ابن مفلح عني، وأخاف أن تساوره الظنون حولي، إن تفاقت الفتنة بين الناس.
 شرف الدين : لم يفت الأوان بعد يا سيدي.. نائب القلعة لن يسلم، ومعظم الناس يطلبون القتال.
 ابن خلدون : أين الهدايا التي حضّرتها!.. تعال نرتبها.
 (يحمل شرف الدين من زاوية الغرفة بعض الأشياء، ويتناولها ابن خلدون).

ابن خلدون : هذا هو المصحف.. (يضعه على رأسه) وهذه هي السجادة.. كانت لقبة ثمينة، ولم تدفع فيها غالباً. هل تظنّ أنّهم خدعونا بالسعر؟

شرف الدين : ألم ترّ شدة توقيره يا سيدي! لو قبلت لقدمها هدية لك.
ابن خلدون : نعم.. إنّ الناس هنا يعرفون مقامات الرجال أكثر من القاهرة. وهذه نسخة من قصيدة البردة في مدح النبيّ للبوصيري مع شرحي عليها، هدية العالم يجب أن تتمّ عن الذوق والكمياسة. ألا تتمّ هديتنا عن الذوق والكمياسة؟

شرف الدين : وهل يعرف الأجلاف الذوق والكمياسة؟
ابن خلدون : لا تنسَ أنه ملك عظيم وحوله بطانة وافرة من أهل الخبرة والذكاء. لن نضع علب الحلاوة مع المصحف والسجادة والقصيدة. هات كيسين من الحرير. في واحد علب الحلاوة، وفي الثاني المصحف والسجادة والقصيدة.

شرف الدين : ألا يمكن أن يغيّر سيدي رأيه؟
ابن خلدون : أغيّرت رأيي؟! بل أريد أن أفصّ جناح الليل كي يكرّ السحر في البزوغ. سألتني يا شرف الدين عن الحياض، وأقول لك إنّ ابن خلدون الإنسان ليس محايداً كما تظنّ، لكنه واقعي، ويعرف قوانين الأحداث ومجراها. جئت إلى الدّنيا في زمن الاضمحلال. وكلّما كبرت وأمّعت النظر، ما وجدت حولي إلا آثار الاضمحلال وعوارضه. انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدّلت بالجملة، ونزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف المائة الثامنة الطاعون الجارف الذي تحيّف الأمم، وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاسنها. جاء الطاعون للدّول على حين هرمها، فقلّص من ظلالها.. وأوهن من سلطانها، وانتفض عمران الأرض بانتفاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل

والمعالم، وضعفت الدول والقبائل. نعم.. كيفما تلتفت حولي، لم أكن أبجد إلا الاضمحلال.. وكأنا نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فيادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها. وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحوّل العالم بأسره، وكأنه خلق جديد وعالم محدث، فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها وهذا ما أخذت نفسي به، وما توقّرت على إنجازها. أما الغضب والتحرّس والمكابرة فقد تركتها للذاهلين والحمقى من غمار العاتّة.

شرف الدين : (ياعد بينه وبين دوره) لاشك أن تلميذ ابن خلدون، إذا وجد، كان يحاوره عن زمانه وزماننا أيضاً، ولهذا غضاضة إن ساعدناه على صياغة شكوكه، وبلورة أفكاره.

ابن خلدون : نعم.. أن أقفز أثر مؤرّخ كبير كالمسعودي لزمن الاضمحلال هذا.. تلك هي بغيتي، وذلك هو شاغلي.

شرف الدين : أليس من مهمّة العالم يا سيّدي أن ينير للناس ضوئاً، أو أن يهديهم إلى سبيل يخرج بهم من الانحطاط؟!

ابن خلدون : لا.. ليست تلك مهمّة العالم.

شرف الدين : ومهمّة العالم إذن؟

ابن خلدون : مهمّة العالم أن يحلّل الواقع كما هو، وأن يكشف كيفيات الأحداث وأسبابها العميقة.

شرف الدين : كان العلماء دائماً يحلمون، ويبحثون عن السبل التي يعالجون بها علل عصرهم، ويضعون للناس تصوّرات عن مجتمعات فاضلة تليق بالإنسان والمجتمع الإنساني. ألم يضع الفارابي كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة)؟ ألم يؤلّف المعلم أرسطو كتابين في الأخلاق والسياسة، وسواهم كثيرون؟

ابن خلدون : هؤلاء لم يعرفوا علم العمران. ولم ينكشف لهم ما يطراً عليه من العوارض الذاتية، والتغيرات الحتمية. هؤلاء لم يفهموا أن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بدّ له من طبيعة تخصّه في ذاته، وفيما يعرض له من أحواله. إنّ للعمران قوانين ثابتة ومطرودة كتلك التي تحكم الفصول في تعاقبها، والليل والنهار في اختلافهما. وهذا الجهل هو الذي جعلهم يتوهمون أن أحوال الدول يمكن تغييرها بالوعظ والإرشاد، أو يمكن إقامتها على التمتّي والأحلام. إن كتب الفارابي وأرسطو والماوردي وسواهم هي كتب في السياسة المدنية والسياسة المدنية هي في العلوم أقل شأنًا من علم العمران. هذا العلم يا شرف الدين مستنبط النشأة، ألهمني الله إليه إلهاماً، ولم يسبقني إليه أحد من الغابرين. ولو أضاء الله أنوار هذا العلم للفارابي وأرسطو وأفلاطون لأعرضوا عمّا كتبوه، أو بدّلوه بالكلية.

شرف الدين : أنا أعرف يا سيّدي أنك جئت بعلم لم يسبقك إليه أحد، ولكن سأصارعك القول.. كلّما قرأت فصلاً من فصول المقدّمة شعرت بالانقباض وأدركني اليأس. إذا كانت ظواهر العمران لاتحدث باختيار، وأتما بضرورة الوجود وترتيبه، فماذا يبقى للنّاس؟! لا يبقى لهم إلاّ الخمول والجريان مع هذه الدورة الجبّارة، التي تدور بهم من البزوغ إلى التلاشي والموت! ماذا يستطيعون أن يفعلوا حين تشرف دولتهم على الهرم؟ لاشيء.. لم ترك لهم إلاّ لبس الأكفان، والاستعداد للتفسّخ والانحلال.

ابن خلدون : ينتظرون ظهور المهدي، أو يرصدون نذر القيامة وميقاتها، حتى تفهرهم، وتسيطر عليهم عصبية جديدة أو غازية.

- شرف الدين : كما هو حالنا الآن مع تيمور!
- ابن خلدون : نعم.
- شرف الدين : هذا علم محبط يا سيدي.
- ابن خلدون : المعرفة على الحقيقة، لا تبالي بالإحباط. ومهما كان وقعها على النفس ثقیلاً، فإنها أفضل من الزيف والدجل.
- شرف الدين : وماذا يسعنا أن نفعل بهذه المعرفة؟
- ابن خلدون : يمكن أن نفهم لماذا تدعى أمر السلطان وأقل نجمه. ولماذا يعلو شأن تيمور ويتألق نجمه.
- شرف الدين : سيدي.. لماذا لا تقيم وزناً لجموع الناس، وما يمكن أن يفعلوه إذا تحدث بينهم فكرة ومصلحة، وانعقد لديهم عزم وإرادة؟
- ابن خلدون : في غياب العصبية والشوكة، لا تنفع الفكرة والمصلحة. والعزم الذي يدونه ليس إلا وهماً يخدعون أنفسهم به.
- شرف الدين : ألا يمكن أن تغني الفكرة والمصلحة عن العصبية؟!
- ابن خلدون : لا.. هذه كالدين تردف العصبية، لكنها لا تقوم مقامها، ولا تغني عنها. إن صلة الدم والنسب مع إرادة الاستيلاء والغلب، هي أصل الدول، ومحرك الجماعات والأمم.
- شرف الدين : بُعدنا عن البداوة.. ولعل من طبيعة الأحوال، أن نفتش عن عصبية جديدة. عصبية قوامها وحدة الأمة ومصلحة العباد ومدافعة الطامعين والغزاة.
- ابن خلدون : إن العصبية لا تصطنع، ولا تخلق، بل تصدر صدوراً طبيعياً. والعصبية في هذه البلاد وهنت ولم يبق لها شوكة.
- شرف الدين : لو أنّ سيدي يثق بالشعب، ويؤله ما أولى الملوك من النظر والاهتمام!
- ابن خلدون : في هذا الغروب الشامل قد تكون قبسة الضوء الوحيدة هي وصف هذا الغروب والشهادة عليه..
- شرف الدين : حين تلم بنا الخطوب، ويهدد وجود الأمة، من المحزن

- ألا يكون لدى العالم ما يفعله إلا وصف المحنة!
- ابن خلدون : حين تلم بنا الخطوب ويهدد الخطر وجود الأمة، من المحزن ألا يكون لدى الأمة من تستنجد به إلا علماء بلا قوة أو شوكة.
- شرف الدين : لماذا لم تسافر مع السلطان يا سيدي؟
- ابن خلدون : لا أريد أن أتورط في فتنة بين سلطان وأمرائه. (تغيب عيناه في تأمل شارد) وهناك سبب آخر.. طوال حياتي، وأنا أعاشر وأخدم أمراء وسلاطين ناقصين، لا تتوفر لهم من شروط الإمارة أو الملك إلا أقلها.. والآن، تتوافر الفرصة كي ألتقي الملك على الطبيعة، فهل أضيّعها؟! ولكن.. إذا ساورته الظنون والريب، فقد هلك.
- شرف الدين : هل أنت خائف يا سيدي؟
- ابن خلدون : هل أنا خائف؟! في زمن الغروب والهرج، حظ كبير أن ينجو المرء بنفسه وعلمه. (يتمطى) أرهقني هذا الجدل. لنستريح قليلاً، فأمامنا نهار حافل وعصيب.
- (تتلاشى الإضاءة ببطء فيما يرقد ابن خلدون في فراشه).

تفصيل (٧)

(في بيت مروان. يدخل مروان حاملاً على ظهره صرة كبيرة، تخف زوجته وتساعده على وضع الصرة على الأرض).

- مروان : هذا كل ما لدينا من الحرير. أين تقترحين أن نخبئه؟
 خديجة : استرح الآن قليلاً. ألا تريد أن تفطر؟
 مروان : لا شهية لدي.. في صدري ضيق وانحباس. منذ الفجر يتراءى لي غراب أسود يحوم فوق رأسي. لعلّي رأيته في المنام. لا أدري.. لكنه يتراءى لي، ويلازمني منذ الفجر.
 خديجة : استهد بالله يا مروان.
 مروان : لا إله إلا الله.. لا أخفي عليك. إني متطير، ولا أعتقد أننا سنعبر هذه المحنة.
 خديجة : لا يا مروان.. إنك تخيفني. لا يجوز أن تفقد الأمل. الله رحيم ولن يتخلّى عنا. هو الذي يكسر، وهو الذي يجبر أيضاً.. هل تذكرت حلاوة طرابلس؟
 مروان : نعم.. واشتريت لك أوقيتين منها.
 خديجة : (بفرح) ماذا تنتظر؟ بدأ لعابي يسيل.
 (يخرج من أحد جيوبه لفة الحلاوة، فتلقفها خديجة بلهفة، وتلتهم بهم غريب قطعاً منها).
 مروان : أتشتهين الحلاوة إلى هذا الحد؟
 خديجة : وما حيلتي يا ابن عمّي؟ لقد أخفيت عنك سرّاً صغيراً.

- مروان : أيّ سرّ؟
خديجة : إنّه الوحم. أتعرف ما هو الوحم؟
مروان : هل أنت حامل؟
خديجة : قل إن شاء الله.. ألا تأكل قطعة من الحلاوة؟
مروان : نعم سأكل. ألا نستحق البشارة! كم تأقت نفسي إلى هذه اللحظة. ولكن من يجرؤ على الفرح الآن؟!
خديجة : يجب أن نفرح. وسترى.. إن إيماني بالله كبير، ولن يمّتنا الأذى.
مروان : يا ربّ، وأنت القدير على كلّ شيء. نسألك اللطف والرحمة. (يقترّب منها ويتحمّس بطنها) إن مشاعر غريبة تفيض في صدري. أريد أن أصرخ. أن أخبر الناس.. لا.. لا.. لن نخبر أحداً. سيكون هذا سرّاً، والأمل الذي يقوّي عزيمتنا، لماذا لم تشعلي ناراً؟
خديجة : قلتُ أسسك يدي في إيقاد الخطب. أحشى أن ينفذ ما لدينا قبل أن تستطيع تدبير كيس آخر.
مروان : سندبّر. لا تخافي، صحتك الآن أهم شيء في الوجود، ولدنا وفر يكفيننا، في هذه الصرّة، قطع من الحرير ثمينة جداً. أتعلمين؟ لقد تأرت من ذلّ طفولتي. ينبغي أن تعرفي شيئاً عن هذا الذلّ، وضعني أبي حين كنت طفلاً عند عمّي كي يستعملني، ويعلمني الحياكة. كان يعزّيني، ويرفع رجلي إلى رأسي، كي يلفّ الخيوط على جسدي ويزردّها. كان قاسياً، لا يعبأ بي إن بردت أو تعبّت. وكنت دائماً أشعر بالذلّ من عربي والطريقة التي يستخدم بها جسدي الصغير. ومنذ تلك الأيام قررت أن أصبح معلّم الصنعة. شهد لي معلّم الحريرين بأنّي ماهر وقتان، وأن بعض القطع التي أحيكها، تحف رائعة. نعم.. صرت معلّماً، وتزوّجتك، وها

أنا أنتظر طفلي الأول. آه.. تبدّد ضيقي. أشعلي النار، وأنا سأفك الصرة، وأبحث لها عن مخبأ.

(يفك مروان الصرة، بينما تحمل خديجة قطع الحطب، وترتبها في الموقد. طرق على الباب، يدخل أحمد مهتاجاً).

أحمد : أكاد أجنّ.. يقيناً سأفقد عقلي.. خرج الكلاب يا مروان، خرجوا محمّلين بالهوان، وبكل ما يخطر على البال من الهدايا. لا.. لم يخرجوا، لم يسمح لهم أمير القلعة بالخروج من باب النصر، فتلّدوا كاللصوص من فوق السور.. أكاد أجنّ.

مروان : اهدأ يا أحمد.. كتنا نعرف أن القرار أئخذ، وأنهم سيخرجون.

أحمد : وسيدخل التار إلى دمشق.

مروان : ماذا نفعل؟ غلبنا الأعيان والعلماء.

أحمد : هؤلاء العكايرت. هؤلاء الخونة.. هؤلاء السفلة.

مروان : اهدأ يا أحمد. ولا تضيّع علينا فرحتنا الصغيرة.

أحمد : أتحدّث عن الفرح.. وهل هناك فرح؟!

مروان : إنّ خديجة حامل.. وسأصبح أباً.

أحمد : حقاً؟! هذا وقته. وماذا ستسمّي الولد؟ تيمور..

خديجة : لا يا أحمد..

مروان : ولماذا تريد دائماً مغاضبتي؟

أحمد : لأنك كالتساء العجائز، لا تفكر إلا في شؤونك الصغيرة.

حريك.. وبيتك وسلامتك.. والآن طفلك..

مروان : وبماذا تريدني أن أفكر؟ أهذا كلام يا خديجة؟

خديجة : فعلاً.. وعلام تلومه يا أحمد؟

أحمد : (وهو يخرج زجاجة من جيبه) ألا تدركان! إنّ التار

سيدخلون إلى دمشق. حين أتصوّر ذلك، أشعر بالجنون.

- مروان : اسمع يا أحمد.. لقد بذلنا جهدنا. ألم نبذل جهدنا؟ ولكنّا غُلبنا، وعلينا الآن أن نهْداً. أن نتوحى الحذر، ونتدرّب على الصبر وقوّة الاحتمال.
- أحمد : (وهو يكرع من الزجاجة) أي أن نتدرّب على الخنوع والذل.
- مروان : (صارماً) لا أريد أن تشرب هذا المنكر في بيتي.
- أحمد : ماذا تعني! هل تطردني؟
- مروان : إني خائف عليك.. ينبغي أن تهْداً، وهذا المنكر لن يساعدك على شيء.
- أحمد : لا يهدأ إلا عديم الإحساس. كيف أتحمّل ما يجري إذا لم أشرب!
- مروان : (محتداً) قلت لا أريد أن تشرب هذا المنكر في بيتي. إذا كنت غاضباً إلى هذا الحدّ، ولا تستطيع أن تتحمّل ما يجري، فاذهب إلى القلعة، وقاتل مع أهلها.
- أحمد : ألأنت أتُها الخرع من يطلب منّي القتال؟ تعال نذهب معاً إن كنت رجلاً.
- خديجة : لا.. زوّدتها يا أحمد. مروان يريد مصلحتك.
- مروان : اخزِ الشيطان.. عار علينا أن نتشاجر.
- أحمد : هل يروقني الشجار مع واحد مثلك؟ ولدت صغيراً وستبقى صغيراً.
- مروان : اخرج من بيتي.
- أحمد : وأنت يا خديجة ماذا تقولين؟
- خديجة : تجاوزت الحدّ يا أحمد.. أنا أيضاً، لا أريد أن يدخل هذا المنكر إلى بيتي.
- أحمد : ليكن.. سادعكما تتمرّغان في الدّلّ والبحث عن الأمان. التار يدخلون المدينة، وصهري العزيز يخفي الحرير، ويتدرّب على لحس الطيز.

(يخرج أحمد، بينما تبادل مروان وخديجة نظرات مشدوهة،

تقترب خديجة، وتمسح بحركة حنونة على شعره).

خديجة

: أرجوك لا ترعل.. إنه دائماً متهور، ودمه فائر.

مروان : لم أزعل.. ولكنتي خائف عليه. سيهلك نفسه إذا استمرّ على

هذا النحو. ساعديني. أين نخبئ الحرير؟

خديجة

: سنوزّعه في أكثر من مكان.

مروان : سيكون ذلك أفضل.

مروان

(طرق على الباب)

صوت امرأة : يا جارة.. ألدّيك حتّاء؟

خديجة : (من وراء الباب) نعم.. لديّ قليل منها. أتريدين؟

صوت المرأة : أأنت وحدك في البيت؟

خديجة : لا.. رجلي هنا.

صوت المرأة : طيّب.. المهمّ أن تخصّصي اليوم بالحتّاء.. لا تؤجّلي ذلك إلى

الغد. عندما يذهب رجلك، ساتي وأخبرك كل شيء.

خديجة

: ماذا يعني هذا!

مروان : وما المانع؟! نعم، تخصّصي. من أجل البشارة، يجب أن

تخصّصي، وهذه الليلة..

(يقترب منها، يضمّها، ثم يتهاوى ويضع وجهه على بطنها،

فيما تلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : وفي ٢٣ منه، خرج الوفد إلى تيمور، وكان بينهم ابن مفلح وابن النابلسي، وابن العز، ومحمد بن أبي الطيب، دلامة التاجر، وقد حملوا معهم القماش، والفرو، والشواء، والحلواء، وكل ما يهدى، من كل صنف تسعة على عادتهم. وقالوا إن التقدمة أعجبت تيمور، وإنه كتب أماناً لأهل دمشق جاء فيه، فليعلم الأشراف والمشايخ والتجار والعوام أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وحريتهم. واتفقوا أن يستخرجوا له من أهل دمشق ألف دينار، وأن يحملوا إليه كل ما تركه السلطان وعساكره من أموال، وممالك ودواب. وقد أكثر الوفد من الثناء على تيمور والكلام على محاسنه وفضائله.

وفيه أيضاً، أصاب نساء دمشق، من الخضاب بالحناء، فكل امرأة أو بنت أرادت أن تخضب. وفقدت الحناء من الأسواق، وجرت في بعض المحلات عراكات. وسألت عن السبب، فعلمت أن عاتكة الباعونية رأت في المنام، أنه جاءها ملك الجان. عمود من الدخان ظل يترجرج ويتلوى حتى جمد، فإذا هو جتي أطول من مئذنة الجامع، وقال لها: لا ترتعبي متي، بل ارتعبي إن لم تفعلي ما أمرك به. قولني لبنات ونساء الشام أن يخضبن بالحناء، وإلا جرى عليهن ما جرى على نساء حلب من جند تيمور، ثم لمس صدرها، وابتعد متلاشياً كأنه غيمة. وكان هذا هو سبب تراحم النسوان على الحناء. والله علام الغيوب.

وفيه، هطل مطر خفيف. وما زال بردى يجري على العادة.

(تلاشى الإضاءة)

تفصيل (٨)

(دار ابن خلدون في المدرسة العادلية، ابن خلدون يلي،
وشرف الدين يكتب بشيء من الضيق، كما أن على وجهه
أمارات امتعاض لا يحاول اخفاءها).

ابن خلدون : ومدّ يده إليّ فقَبَلْتُها، وأشار بالجلوس، فجلست حيث
انتهيت، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار، فأفَعَدَه
يترجم ما بيننا، ففأَتَحَتَه، وقلت أَيْدِكَ الله! لي اليوم ثلاثون أو
أربعون سنة، أَتَمْنَى لقاءك، فقال: وما سبب ذلك؟ فقلت:
أمران.. الأول أُنْتُكَ سلطان العالم، وملك الدنيا، وما أَعْتَقَدُ
أنّه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست
تَمَنِّي يقول في الأمور بالجُزَاف، فَإِنِّي من أهل العلم.

شرف الدين : (يضع الريشة باحتجاج) أَلَسْتُ يا سيّدي، من يقول: إن من
أسباب وقوع المؤرخين في الكذب، التقرّب لأصحاب التجلّة
والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر! أيُمكن أن
يقال عن جَزَار، وقاطع طريق، إنّه أعظم ملوك الدنيا منذ آدم؟
ابن خلدون : ماخطبك يا شرف الدين! إن لجأحك بدأ يضايقني فعلاً،
أُظَنُّ أني أغفل عن هذا النقص، وأنا الذي فندت أخطاء
المؤرخين وأكاذيبهم! هذه مسوّدَة، وهناك جملة ناقصة. أتريد
أن تعرف ما هي هذه الجملة؟

شرف الدين : وما هي هذه الجملة يا سيّدي؟

ابن خلدون : (بحدّة) هذه الجملة، وزوّرت في نفسي كلاماً أخاطبه فيه، وأنتلّط بتعظيم أحواله وملكه. ولكّني فضّلت أن أضمر العبارة لأنني لا آمن أن تقع هذه الأوراق في يد أحد من أمرائه أو رجاله. ومع هذا يجب ألاّ تنسى أن دول الشرق كلّها ركعت أمام سطوته وخضعت لسلطانها. لديّ عمل كثير، وأرغب ألاّ تقاطعني. أين وصلنا؟

شرف الدين : فإنني من أهل العلم..

ابن خلدون : وأما الأمر الثاني ممّا يحملني على تمني لقاءك، فهو ما كنت أسمعه من المنجمين، والأولياء بالمغرب عن ظهور نائر عظيم في الجانب الشمالي الشرقي يتغلّب على الممالك، ويقلب الدول، ويستولي على أكثر المعمور. وقد أكّد لي الخطيب أبو علي بن باديس، وكان ماهراً في هذا الفنّ، أن أخبار هذا النائر ستنتشر عام سبعمائة وأربعة وثمانين. وكتب لي بمثل ذلك الطبيب ابن زرزور اليهودي. أمّا شيخي، إمام المعقولات محمد بن الآبليّ، فكان يقول متى سألته عن ذلك: أمره قريب، ولا بدّ لك إن عشت، أن تراه. وقد سرّه كلامي، فتبسّط معي في الحديث، فقال لي: وأين مولدك؟ فقلت: بالمغرب الجوّاني. فقال لي: وما معنى الجواني في وصف المغرب؟ فقلت: الداخلي أي الأبعد، لأن المغرب كلّهُ على ساحل البحر الشامي من جنوبه، فالأقرب إلى هنا يدعى برقة وأفريقية، أما المغرب الأوسط فإنّه تلمسان، والأقصى هو فاس ومراكش وهو معنى الجواني. فقال: لا ينفعني هذا، وأحبّ أن تكتب لي بلاد المغرب كلّها، أقاليمها وأدانيتها، وجباله وأنهاره، وقراه وأمصاره، ومسالكه حتى كأتني أشاهده. فقلت: «يحصل ذلك بسعادتك».

- شرف الدين : (واجماً) أنتوي فعلاً أن تصف له المغرب ومسالكه؟
 ابن خلدون : نعم.. وسأبدأ العمل فوراً. هايت القرطاس وحضّر لي كتراساً.
 شرف الدين : ولكن هل تقدّر يا سيدي، خطورة عملك هذا!
 ابن خلدون : وما خطورته؟! إنّه عمل علمي، وإنني خير من يؤدّيه.
 شرف الدين : أتستخفّ بي يا سيدي؟! كيف يمكن أن تعدّه عملاً علمياً
 ولا شيء آخر!
 ابن خلدون : وماذا يكون إذن؟
 شرف الدين : أنا من سيسرّح لك ماذا يكون؟! أنا من يدلك على دلالاته ومغزاه؟!
 إنك تقدّم له يا سيدي، المخطّط الذي يحتاجه لغزو بلادك.
 ابن خلدون : إذا كان سيغزو المغرب، فإنه لن يعدم وسيلة، وحوله ما حوله
 من الخبراء والكشافة لمعرفة مسالك المغرب، وأمصاره.
 شرف الدين : ولكن هذا لا يبرّر أن تساعد في هذه المهمة. أن تتواطأ معه،
 وتقدّم له البلاد عارية، ومكشوفة، هذه يا سيدي، وكنت
 أتمنى أن يُقصّ لساني قبل أن ينطقها، إن هي إلا خيانة.
 ابن خلدون : أقصّر، وإلاّ جفوتك. تيمور نفسه يكلفني عملاً، فهل أستطيع
 أن أقول له لا! وهو في النهاية، عمل علمي، والكراسات
 التي سأعدها لاتملك جيوشاً ومدافع، ولا تستطيع أن تنظّم
 غزواً أو قتالاً.
 شرف الدين : هذه الكراسات العلمية ستكون الدليل الذي يقود العساكر،
 وينظّم غزوهم.
 ابن خلدون : إنك تخيّني يا شرف الدين. لن تغدو عالماً إذا ظلّت تكبّلك
 الترجسات والوساوس.
 شرف الدين : وهل يقتضي العلم أن أفقد احترامي لنفسي؟ وهل يقتضي العلم
 أن أتملّق وأخدم كل سلطان مهما انحطت خصاله؟! وهل
 يقتضي العلم أن أبيع أهلي وبلدي لقاء منصب أو وجاهة؟! في
 القاهرة لك وطن، وأهل وأصدقاء، وفي المغرب لك وطن،

وأهل، وأصدقاء، فهل يمكن أن تتنكر لهم جميعاً، وأن تقدّم للعدو المخطّط الذي يحتاجه، كي يخرب الأوطان، ويدمر الأمصار، ويهلك الأهل والأصدقاء؟! هل تتحمّل يا سيّدي أن تمشي في ركابه وهو يغزو القاهرة، وتونس، وتلسمان وفاس؟ أتريد منّي أن أذرف الدموع؟! ليس لديّ دموع. وهذه البلاد التي تنوح عليها مهترئ، ومغزوة بلا غزو. هل أتحمّل السير في ركاب تيمور؟ نعم.. ولمّ لا! أريد أن أعرف وأن أسجّل. أريد أن أستكمل خبرتي، وأن أزيد علمي إتقاناً واكتمالاً. لقد سرت في ركاب أمراء وسلاطين لا يستحقّون أن يكونوا جزمة لتيمور. ولو حصرت نفسي في الوسواس، وهذه الترهات العاطفية لما راكمت خبرة، ولما وضعت علماً لم يسبقني إليه إنسان في الخليقة.

شرف الدين : إنك تجعلني أخاف من العلم. هذا العلم البارد الذي يزرّ كل وسيلة، ويلتقط مقولاته من خراب أوطانه، ومذابح قومه وأهله، هذا العلم الذي لا يبال بالأنين، والذي يحتقر الدموع، ويتورّط بالخيانة دون وسواس. هذا العلم يا سيّدي، لا نحتاجه، ولا يلهمنا إلاّ الأسى والخوف.

ابن خلدون : متى تدرك أيها الشاب، أن العلم هو العلم، وأن النعوت وتخيّرات الأخلاق تفسد العلم، وتملؤه بالضلالات؟

شرف الدين : لا أريد علماً هو العلم إذا كان لا يشغله مصير وطني، وشعبي، ومستقبلي. أعتقد يا سيّدي أن علينا أن نفرق.. ما تعلّمته منك كثير، وإنني أعترف لك بالجميل، لكنّي أعتقد أنّ عليّ أن أسلك طريقاً أخرى في هذه الحياة.

ابن خلدون : ماذا تعني بالافتراق؟

شرف الدين : سأحمل أغراضني، وأغادرك يا سيّدي.

ابن خلدون : إلى أين؟ من يحميك في هذه المدينة؟ لا تكن غزواً يا شرف

- الدين. وهذا الجدال لم يضايقني، ويمكن أن ننساه.
- شرف الدين : (وهو يعدّ أمتعته) لا يا سيدي.. لن أستطيع أن أنساه، وعلى كل، كانت الفكرة تراودني وأنا أنتظر في معسكر تيمور. سأغادر المدينة، وأنضمّ إلى أهل القلعة.
- ابن خلدون : القلعة! هل أنت مجنون؟ حين كنت في حضرة تيمور استدعى المهندسين والقوّاد ووضعوا خطة لاحتحام القلعة وتدميرها.
- شرف الدين : ستمني غيباً أو أحق. أفضل أن أموت معهم على أن أبقى في المدينة.
- ابن خلدون : لا تكن متهوراً. مهما كان فأنا مسؤول عنك.
- شرف الدين : أعتقد أنّي بلغت سن الرشد يا سيدي. وذهايي لن يؤثر عليك. ستجد كثيرين يتمنّون خدمتك..
- ابن خلدون : أتحدّث من أجلك، ولا أفكر الآن بالخدمة.
- شرف الدين : سأتدبّر أمري (يباعد بينه وبين دوره) ماذا سيقول عنك التاريخ يا سيدي؟
- ابن خلدون : (مباعداً بينه وبين دوره) لن يذكر التاريخ إلّا العلم الذي أبدعته، والكتاب الذي وضعته. أما هذه الأحداث والمواقف العابرة، فلن يذكرها أو يهتمّ بها إلّا موسوس مثلك، ومثل كاتب هذه الرواية.
- شرف الدين : والآن وداعاً يا سيدي.
- (يخرج شرف الدين، يظّل ابن خلدون، واجماً وساهماً خلال لحظات قصيرة، ثم ينهض فجأة، ويأتي بالقرطاس، ويبدأ الكتابة).
- ابن خلدون : في وصف بلاد المغرب..
- (تتلاشى الإضاءة)

المنمنمة الثالثة

آزدار أمير القلعة أو المجزرة

تفصيل (١)

(في الجامع الأموي، أمراء تثار وعساكر يقصفون في الجامع، ومعهم بعض بنات الهوى. يقف ابن العز على منبر الخطابة يلقي خطبة الجمعة، أفراد قلائل من المصلين يدون في حالة ارتباك، يختلسون النظر إلى التار، ويلزون بعضهم على بعض، ثم ينسحب أفراد منهم خلسة من الجامع).

ابن العز : وأوصاكم الله بطاعته وطاعة رسوله، وطاعة أولي الأمر منكم. وطاعة أولى الأمر من الإيمان، فلا تجادلوه، ولا تخالفوهم، ولا تكونوا كالسفهاء والمستكبرين، فتحق عليكم اللعنة، ويحق عليكم غضب الله.

وبعد الطاعة أوصيكم بالوفاء. فإن المسلم إذا أبرم عقداً، يجب أن يحترمه. وإذا أعطى عهداً، يجب أن يلتزمه. ومن حقيقة الإيمان أن يكون الإنسان عند الكلمة التي أعطاها، والعهد الذي قطعه على نفسه، إن الإسلام يوصي باحترام العقود، ويأمر بإنفاذ الشروط التي تضمنتها. وفي الحديث «المسلمون عند شروطهم». وقد بين الله عز وجل أن الغدر ينزع الثقة، ويشير الفوضى ويمزق الأواصر فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَنْضُبَتْ غَزَلُهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ فعلينا الوفاء بالعهد الذي عاهدنا، وعلينا تنفيذ العقد الذي أبرمنا، لأن الوفاء

واجب، ولأنّ في الوفاء نجاتكم ونجاة أبنائكم وأحفادكم.
(يرتفع صخب الأمراء، ويكرعون الخمر بكثير من المجون
والفجور)

ابن العز : (يدو عليه الحرج فيسرع في إنهاء خطبته) اللهم أصلح لنا
ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دينانا التي فيها
معاشنا. اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك،
لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا همّاً إلا فرّجته، يا أرحم
الراحمين. اللهم وفق وبارك سلطاننا محمود قان.

أصوات : آمين.
ابن العز : اللهم وفق الأمير تيمور، وافتح له على العبادة، اللهم انصره
على أعدائه.

أصوات : آمين.
التار : (بأصوات ثلثة ومشوشة) آمين.. إيمين.. آمين.
ابن العز : اللهم اجعل التوفيق حليفه كيفما اتجه، وكيفما سارت خطاه.
اللهم وسّع ملكه، واجعل المشرق والمغرب بستانه. اللهم
أضعف أعداءه وبدّد عزيمته من يقاومه. اللهم ثبت أمر ولي
العهد محمد بن تيمور.

أصوات : آمين.
التار : (صياحات استحسان) آمين.. عظيم.. شيخ فهيم.
ابن العز : اللهم أكثر عليه الخير، واجعل السعد نجمة، واليمن طالعه.
اللهم وفقهم جميعاً إلى ما فيه خير العباد والبلاد.
(تمت آمين وصياحات استحسان. وفيما ينسل المصلّون خارج
المسجد، يأتي أحد الأمراء متطوّحاً ويده إبريق فضّي مليء
بالخمر، يمدّ يده إلى ابن العزّ ويجزّه عبر الجامع إلى مجلسه).
(تتلاشى الإضاءة).

تفصيل (٢)

(ريحانة قرب باب الدار، تحمل صرة مليئة بالطعام، وتلفت حذرة).

صوت شعبان : (يتأهى مقترباً) يمه.. يمه.. يمه.. جوعان.
(تفتح ريحانة الباب، وتومئ إليه. يقترب، ينظر إليها بدهشة، تمسكه بذراعه. وتجزّه إلى الداخل، ثم تغلق الباب).
ريحانة : (تكلم ببطء شديد وأحياناً تستغرق وقتاً في البحث عن الكلمة) هل أنت جوعان؟.. (شعبان يحملق فيها بلهفة وانفعال) خذ. حملت.. طعاماً كثيراً.. (تفتح الصرة وتبدأ بتقديم بعض الفطائر، يمسكها شعبان بحركة آلية، ويضعها في كيسه مواصلاً حملقته الملهوفة) كل.. كل.. هل.. تريد.. أن أطعمك.. يدي؟

شعبان : (بصوت مفجوع وخافت) يمه..
ريحانة : سأكون.. أمك.. هل.. هل.. تذكر.. السفرجلة.. كانت أطيب.. فاكهة.. ذقتها.. في.. حياتي.. (تأخذ شيئاً من الطعام، وتضعه في فمه، يأكل بصورة آلية، بينما تبدأ الدموع تساقط من عينيه) لماذا.. تبكي؟

شعبان : يمه.. يمه.. تتر..
ريحانة : كلهم.. تتر.. يا.. شعبان.. قومنا.. تتر.. والتار.. تتر.. كلهم تتر. ونحن.. أنا.. وأنت.. لن تفرق علينا.. ذبحونا..

ولن تفرّق.. علينا.. كلّهم.. كلّهم.. تار.. وأنا.. وأنت..
غريان...

شعبان

: (وهو يشهق بالبكاء) يمه. هاتي برك يمه.
: أنت.. فقدت أمك.. وأنا.. فقدت.. أب.. أب.. أبي..
باعني.. أب.. أبي واختفى.. لست.. زعلانة.. منه..
: (بحنان) يمه.

ريحانة

: (تمسك رأسه برفق وتسندته إلى صدرها) تعال.. ارضع..
كلّهم.. كلّهم تار.. وأنا.. وأنت.. غريان.

شعبان

ريحانة

(شعبان يمسّ رأسه في صدر ريحانة، ريحانة تمسح على شعره
بحنان فيما تتلاشى الإضاءة).

تفصيل (٣)

(ركن منزوٍ على أسوار القلعة. أمير القلعة آزدار ومعاونه شهاب الدين).

شهاب الدين : أرجوك أيها الأمير أن تتوخى الحذر. لا يجوز أن تظلّ في مقدمة الأسوار. البارحة لولا تروس الرجال، لغربلتك النبال.

آزدار : هل تريد أن أختبئ في الديوان؟! كيف أقود الرجال إن لم أتقدّمهم في أوقات الشدة والخطر؟

شهاب الدين : لا تحتاج جدارتك أو جسارتك لتأكيد، ولو أصابك مكروه، فستقسم ظهورنا جميعاً.

آزدار : دعنا من هذا.. نحن الآن جسد واحد، وكلّنا مقاتلون دون درجات أو مراتب. لماذا تظنّ أنّهم أوقفوا هجومهم!

شهاب الدين : لعلّها الخسائر الفادحة التي تكبدوها. ألم ترهم كيف تزايد سعارهم آخر النهار! كانوا يدوسون على قتلاهم ويندفعون تحت وابل النبال آملين أن يصلوا إلى حافة الخندق. أعتقد أنّهم يدرسون الآن خططاً بديلة.

آزدار : أدخلوا أعداداً كبيرة إلى المدينة، وأخشى أن يتحوّلوا إلى الهجوم علينا من الداخل، من منطقة الجامع وباب الجاية.

شهاب الدين : ذات يوم، اقترحت عليك أيها الأمير..

آزدار : (مقاطعاً) أعرف.. أعرف.. ولكنّي لم أجد الاقتراح عملياً. إنّ قوّاتنا لا تكاد تكفي للدفاع عن القلعة فما بالك بالمدينة؟

وعلى كل هذا أمر فات. كيف حال الجرحى؟

شهاب الدين : أكثرهم سيعود إلى الأسوار غداً أو بعد غد. إن ابنة التاذلي بحميتها وبراعتها تداوي الجروح، وتسكن الألم كأنها سحر، أو كأنها نعمة ربانية.

آزدار : رحم الله والدها. كنت أودّ لو تصون نفسها، وتلازم مساكن الحريم، ولكن دم التاذلي يسري في عروقها. رفضت الانزواء مع الحريم، وأصرّت على أن تشارك في هذا الأمر. هل راقبت المصري جيداً؟

شهاب الدين : نعم.. ولم أجد ما يشوبه. إنه لا يهدأ ولا يستقرّ، ينتقل بين الرجال خطيباً، ومحدثاً، يقوّي عزائمهم، ويؤجج غضبهم، وفي اللحظات الحرجة يشاركونهم القتال بما يستطيعون دون خوف أو حذر.

آزدار : خفت أن يكون مدسوساً. بدا لي غريباً أن يترك معلمه، وأن يأتي ليخبرنا ما يدبره تيمور، ويطلب الانضمام إلى مقاتلينا.

شهاب الدين : إنه يشعر إزاء معلمه بالخيبة والمرارة. حكى لي عن الدلّ الذي أحسّه حين كانت تنتظر معلمه في معسكر العدو. وكيف أدرك أن الحق لا يمكن أن يكون متعديداً. وأن عليه أن يختار مصيره بنفسه. لا.. إنه شاب عظيم الهمة والشهامة، وصارت له في قلوب الرجال مودة ومحبة. لا أدري.. لماذا يتردد الأمير في الإفراج عن جمال الدين بن الشرائجي - أنا متأكد أنه راغب في تعبئة الرجال، والمشاركة في القتال.

آزدار : لا أستطيع أن أفرج عن رجل اتهمه التاذلي وسائر العلماء بالكفر والزندقة.

شهاب الدين : في الظلام التي رفعها، لا شيء ينم عن الفكر. إنه ينذر دمه للجهاد ضد التار، فلماذا نحرمه الفرصة؟ بل سأقول أكثر من

ذلك.. لدينا في سجن القلعة ما يربو على الخمسين رجلاً فلماذا لا نختيرهم بين القتال والبقاء في السجن؟ أعتقد أن معظمهم سيختارون القتال وباندفاع، وسيحاولون أن يثبتوا أنهم جديرون بالحرية، وأنهم غيرون كالأخرين على كرامة الأمة.

آزدار

: نحن يا شهاب الدين رمز النظام، وقلعته الأخيرة. وإن ألغينا السجن، وتغاضينا عن العقوبات، إنما نهدم النظام، في جوهره ومن داخله، نحن الآن الدولة السلطانية. والدولة ينبغي أن تحافظ على أساسها ونظامها في أوقات الحرب. ما قيمة صمودنا إذا هدمنا الحدود، واعتمدنا على المعارضين والمجرمين؟ كيف يمكن أن أضع إلى جوار هؤلاء المقاتلين المقعّمين بالولاء والشجاعة، رجالاً ملوثين بالدسائس والأطماع. رجالاً متهمين في ولائهم وفي نواياهم؟ لا.. سيفقد قتالنا كل معنى إذا دمرنا نظامنا من أجل القتال. سيبقى السجن سجنًا، وسيبقى السجناء سجناء، ولن يحمي هذه القلعة إلا رجالها الأوفياء.

شهاب الدين : أحياناً لا أفهمك أيها الأمير، إنّي أتساءل ما الذي بقي من هذا النظام الذي تمتسك بحرفيته بعد ذهاب السلطان، وهروب العساكر السلطانية! هل يمكن أن يكون كلّ منا، يقاتل من أجل هدف مختلف؟..

آزدار

: ما الذي ترمي إليه؟

شهاب الدين : سأشرح لك كيف أرى الأمور. نعم.. إنّي معجب بك، وإنّي أشاطرك الرأي بأن القتال قدرنا المحتوم. ولكن يراودني الأمل بأننا نقاتل لكي نبكر نظاماً جديداً، لا لنحافظ على نظام نعرف جميعاً أنه يتداعى وانهار.

آزدار

: إننا النظام.. وإننا نقاتل لكي نبرهن أنّ النظام لم يتداع، وأنه

- قادر على الصمود والبقاء.
- شهاب الدين : أرجو أن يتسع صدر الأمير، وأن يقبل اختلافنا في هذه المسألة. طبعاً، كلانا يقاتل دفاعاً عن شرف هذه الأمة. ولكن يحق لي أن أحلم بأن نظاماً جديداً، سيولد من مخاض هذه المحنة.
- آزدار : لا يدري أيّ منا ما الذي سيولد من هذه المحنة. ولكن لا أتخيل أن يقاتل المرء من أجل دولة في الغيب. إنّي أقاتل من أجل الدولة التي أنتمي إليها. الدولة التي أعطتني مركزي، وحددت لي مسؤوليتي.
- شهاب الدين : ليكن.. لايهمّ اختلافنا. كم كان يودّ المرء لو أنّ هذه الدولة وهذا النظام، يستحقان قتلاً.
- آزدار : هذه شكوك خطيرة قد تؤدّي إلى التخاذل؟
- شهاب الدين : لا.. إنّ الأمة شيء وإنّ الدولة أو النظام شيء آخر. إنّي أستغلّ رحابة صدرك، وأصارك أنّها الأمير أنّي أقاتل من أجل الأمة لا من أجل دولتها أو نظامها.
- آزدار : أخشى يا شهاب الدّين أن يأتي وقت أتلفت فيه فلا أجذك إلى جواربي.
- شهاب الدين : معاذ الله أيّها الأمير. لن نفتقدي ما دمت حيّاً. والرجال لا يحتاجون إلى الأيمان لتوكيد عهودهم.
- آزدار : هذا أمني فيك، ولن يؤثّر علينا اختلاف في النظر أو الرأي. (يأتي شرف الدين راكضاً ولاهثاً).
- شرف الدين : سيّدي الأمير.. بدأ التار ينون برجاً مقابل الأسوار.
- آزدار : إذن هذه هي خطّتهم.
- شرف الدين : عباً الرجال المكاحل والنقاطات، ويريدون أن يرموا عليهم.
- آزدار : لا.. ليس الآن. هيا بنا يا شهاب الدّين.
- (يمضون جميعاً على عجل، وتتلأشى الإضاءة)

مؤرخ قديم : في أوائل جمادى الآخرة، صار عسكر تيمور يدخل إلى المدينة، ويخرج منها كما يشاء.

وفي ٦ منه، خطب القاضي محي الدين بن العز بالجامع الأموي، ودعا للسلطان محمود قان ثم للأمير تيمور ثم لولي العهد محمد سلطان. وقد أعطي ابن العز قضاء الحنفية، ونظر الأوقاف، وأخذ المعاليم، وزكاة الأيتام. (ياعد المشخص بينه وبين دور المؤرخ).

يدو أنه من العسير، أن نجعل مؤرخنا يخفف قليلاً من بروده وحياده، ولكن هل نستطيع نحن أن نكون باردین ومحايدين، ونحن نتهياً لمشاهد الرعب القادمة! لن نزيّف مقالة المؤرخ، لكن لانستطيع أن نسرّد الوقائع دون شيء من التعاطف وقليل من الحسّ الفاجع. (يعود إلى دوره).

وفيه، كُمل المال الذي فرضه تيمور، وهو ألف ألف دينار، فحملة ابن مفلح وأصحابه إلى تيمور، ووضعوه بين يديه، فلما عاينه، غضب غضباً شديداً ولم يرض به، وقال إن المبلغ الذي طلبه هو عشرة آلاف ألف دينار. ولم يجد ابن مفلح بداً من الالتزام به.

وعادوا إلى البلد، وفرضوه على الناس، فجبوا أجرة مساكن دمشق كلها عن ثلاثة أشهر، وألزموا كل إنسان، من ذكر وأنثى، وحرّ وعبد، وصغير وكبير بعشرة دراهم.

(مشاهد متلاحقة حول تحصيل المال وما كان يجري على الناس. يمكن أن يستخدم فيها التشخيص وخیال الظل أو أية وسيلة أخرى مناسبة).

تفصيل (٤)

(إبراهيم الملكاوي وياسمين)

- إبراهيم : (وهو يمدّ لها كيماً صغيراً) حملت لك بعض المال الذي
أدّخرته.
- ياسمين : لم يبقَ شيء. تصوّر.. ألزمني أن أدفع عن جمال الدين وهو
في سجنه. بعث مصاغي، وكلّ ما في يتي، وأنا وحيدة في
هذه المحنة.
- إبراهيم : لا.. لن تكوني وحيدة. وهذا المال سيساعدك على تجاوز
هذه المحنة.
- ياسمين : وأنت.. كيف ستدبر أمرك؟
- إبراهيم : لا عليك.. مازالت لديّ بقية.
- ياسمين : لا أريد أن تؤذي نفسك.
- إبراهيم : لا.. لاتقلقي عليّ. خذها فقط.
- ياسمين : (وهي تتاولها) أما زلت غاضباً وحزيناً؟
- إبراهيم : لندع ذلك الآن.
- ياسمين : أشعر بالوحدة. إنّي خائفة، ولا أعرف كيف أحفظ نفسي في
هذه الأيام المظلمة.
- إبراهيم : لا.. أريدك أن تكوني شجاعة.. وأريد أن تحافظي على
نفسك.
- ياسمين : ألا تبقى؟

إبراهيم : حافظي على نفسك (يخرج).
ياسمين : ذاك في السجن، وهذا يتركني، وأنا.. كيف أحافظ على نفسي.

مؤرخ قديم : وبدأ استخلاص الأموال والعقوبة. وعمّ العذاب جميع الناس، وكان ابن العزّ وابن مفلح قد جمعا حولهما أرزال الناس، كصدقة الجاني، وابن التكريتي، وتفرقوا حارات دمشق، وتباروا في الظلم والقسوة. وكانوا يأتون بالواحد، ويقولون.. عليك عشرة آلاف.

(ابن العز، ابن مفلح، حراس، ومشقة)

ابن العز : ستدفع يعني ستدفع.
الرجل : هل أقصّ من لحمي؟ أقسم إنني لا أملك شيئاً.
ابن العز : بع ما لديك.
الرجل : وهل بقي ما يُباع! لم يبق إلا البيت، ولا أستطيع أن أبيع.
ابن مفلح : لا تضيع وقتنا. كل هذا لا يفيد.
الرجل : لن أدفع.
ابن العز : اسنقوه.
(يندفع حارسان ويمسكان بالرجال، ثم يرفعانه إلى المشقة..
آنة، وخوار مفرع).

مؤرخ قديم : وبدا من الناس في حقّ بعضهم بعضاً، من المرافعات أنواع قبيحة.

وبدا وكأنّ الخير مات فيهم، وفاضت الشرور في نفوسهم، فجزّوا بالفساد بعضهم على بعض، وصار كل منهم يتقرّب من الذين يستخلصون الأموال بالنعمة على الآخرين. وكل واحد عنده ضغينة من قريب أو جار، أو استغلّ الوقت لكي

ينتقم منه، ويعرضه للعقوبة والبهدلة.

(مروان ودلامة)

مروان : أعرض عليك قطعاً من الحرير نسجتها بروحي. إنها قطع لن تجد لها مثيلاً في دمشق.

دلالة : يا مروان، يا حبيبي.. أنا لا أعرف أن الروح تنسج. هذه قطع من القماش، ولن أدفع فيها إلاّ السعر الذي تعلمه.

مروان : إنك تبخسني حقّي. إنك لاتدفع عشر ثمنها.

دلالة : وأنا لا أجبرك على البيع.

مروان : أنت تعرف حاجتي.

دلالة : كلّ التأس في هذه الأيام محتاجة.

مروان : طيب زدها قليلاً.

دلالة : لن أزيد درهماً واحداً.

مروان : يا الله.. ما الذي حدث لنا! ألم تبقى شفقة؟ ألم تبقى نخوة؟

إنك تنهيني يا دلالة..

دلالة : اسمع.. لست فاضياً لك.. انظر.. هناك كثيرون ينتظرون

للبيع والشراء. أنا لا أجبرك على شيء. تريد أن تبيع، أهلاً

وسهلاً. لا تريد أن تبيع، مع السلامة.

مروان : ماذا أفعل؟ إنني أبيع يا دلالة.. إنني أبيع..

مؤرخ قديم : وصارت العروض تباع بأبخس الأثمان، وفقد الناس القوت.

ومن يوم هروب السلطان، لم ير أحد خبزاً في فرن إلاّ إذا

كان بيتياً. ولا يوجد القمح والشعير إلاّ بندرة، فإنهم لما

تسلّموا البلد، ختموا على جميع المحاصيل التي بالمدينة

للغائبين والحاضرين. وكان القمح يباع كل كيل بـ «٣٦٠»

ثم وصل في مدّة يسيرة إلى «١٤٨٠» للكيل الواحد.

واستمرّ الأمر على ذلك، ولا يوجد ولا يجسر أحد على
الاعتراض لثلا يصيبه ما أصاب الشيخ إبراهيم الملكاوي.

(ابن العز، ابن مفلح، حرّاس، إبراهيم الملكاوي)

إبراهيم : لا يوجد شيء.
ابن العز : يوجد البيت وما فيه.
إبراهيم : لن أدع واحداً منكم ينجس بيتي.
ابن العز : أنحن أنجاس يا ابن الملكاوي؟!
إبراهيم : إنكم أنجس من النجاسة. يا للعار! أنتم العلماء الذين وضعوا
دمشق وأهلها أمانة في أعناقكم!.. بعم المدينة، وأجرتم
دينكم، ونفوسكم وهذه العمائم التي تعلق رؤوسكم للتار.
بأي وجه تلقون الناس وبأي وجه ستلقون ربكم!.

ابن العز : أتسبنا يا ابن العاهرة؟!
ابن مفلح : إنك تسعى إلى حتفك يا ابن الملكاوي.
إبراهيم : في بلد، أنتم رعاتها وأولياء الأمر فيها، الموت عبادة. هل
أسبكم حقاً! وهل يُسب رجال خلو من الذمة والنخوة
والدين؟! بعم أهلكم من أجل مكسب خسيس، وتبَارون
الآن لنيل حظوة عند عدوّنا.. والله لن تنالوا إلّا الازدراء
وسواد الوجه في الدنيا والآخرة.
(يدير ظهره لهم، ويدخل إلى البيت).

ابن العز : (غاضباً ومزبداً) احرقوه واحرقوا بيته.. تحرّكوا.. أوقدوا
التار.. أريد أن أراه وهو يشوى..
(يشعل الحرّاس التار في بيت إبراهيم الملكاوي).

أصوات : يا لطيف...

- بيت الملكاوي يحترق..

- أحرقوا بيت الملكاوي..

- يا ناس.. حريق في بيت الملكاوي..
- لا.. هذا لا يطاق..

صوت ياسمين: يا إبراهيم.. يا إبراهيم.. أعطاني كل شيء وقتر الموت. احترق
إبراهيم. مات إبراهيم.. لم يبق لي شيء...

مؤرخ قديم : واستمر الحال حتى كُمل المال. وهلك الفقراء، وعلت
الأغنياء. وبقي الإنسان لا يقدر يمشي من الموتى، ولا يدفن
أحد أحداً.

كل هذا وأمير القلعة ممتنع بها، وتيمور يحاصرها، وقد نصب
حولها مجانيق، وحدافات، ومدافع كثيرة ترمى عليها.
وفيه، هطلت أمطار غزيرة، وزاد الماء في بردى زيادة كبيرة.

تفصيل (٥)

(في القلعة، سعاد، وشرف الدين وهي تضمد له جرحاً أصابه
في ذراعه)

سعاد : أيؤملك...؟ (يهّم شرف الدين في الكلام، ثم يحمرّ ويسكت).
لماذا لا تجيب؟

شرف الدين : أخشى أن تزعلي لو أجبت.

سعاد : ولمّ الزعل؟!

شرف الدين : هذا شعوري.. يداك كالبلسم الشافي.

سعاد : هل تتودّد إليّ؟!

شرف الدين : هذا ما شعرت به فعلاً.. سكن الألم فجأة.

سعاد : ليس الجرح خطيراً على كل حال. اخترق السهم اللحم، ولم

يمس العظم. بعد يومين أو ثلاثة سيندمل الجرح. أتعلم..

فوجئت حين علمت أنك جئت إلى القلعة!

شرف الدين : كان القرار صعباً، ولكن حين اتّخذته، شعرت أنني نضجت،
وصرت رجلاً.

سعاد : هل شجّعك وجودي هنا على المجيء؟

شرف الدين : لأدري.. ربما.. نعم، كنت أفكر فيك. وكانت خييتي بابن

خلدون شديدة الوقع عليّ.

سعاد : أتعلم.. حمّلت مجيئك دلالة كبيرة. أيقنت أن التأذي لم

يتم مجاناً.

شرف الدين : ماذا تقولين! سيبقى ذكر التاذلي حياً في الأذهان أجيالاً بعد أجيال.

سعاد : كم نستطيع الصمود في رأيك؟

شرف الدين : أحرقنا الأبراج الثلاثة التي بنوها، بما احتشد فيها من العساكر، ولم يستطيعوا حتى الآن أن يلمسوا حافة الأسوار.

سعاد : وأبراجنا تهدم معظمها. والقذائق تنهمر علينا كالطرر الغاضب. رأيت البارحة مناماً غريباً.. كنت في مدينة ساحلية. لعلها طرابلس أو بيروت، والأرجح أنها بيروت. وكنا محاصرين كحالنا هنا، ولكن الوقت صيف، والشمس ساطعة وحارة. ورأيت طيوراً غريبة تحلق فوقنا، طيوراً لها هدير، كأنها من فضة أو حديد. وكانت ترمي فوقنا كتلاً نارية مرعبة، تدوي، وتدمر. ثم وجدت نفسي أصدع إلى سطح مرتفع، وتطلعت حولي، فإذا نحن محاطون بأحياء بنيت على هضاب. وكان الناس كلهم يحتشدون على الأسطحة، ويشيرون نحونا ساخرين وشامتين، وحضر أبي إلى جوارى، وقال لي كئيباً: «أتعرفين هذه الأحياء! فقلت له: لا. فأخذ يسمي الأحياء واحداً، واحداً «هذا عرب نعيم، وهذا عرب بني حارثة، وهذا عرب الشام، وهذا عرب مصر والقاهرة، وأولئك من عرب قحطان، وأولئك من عرب أفريقية». كانوا جميعاً يتفرجون ولا يبالون، وظللنا طائر كبير يهدر، وصرخت، ثم صحت مقهورة وحزينة. كان مناماً موحشاً ومخيفاً.

شرف الدين : سبحان الله.. كأن الحق كشف لك الواقع وأحواله! كثيراً ما أتساءل، أيمكن أن تنهوى الأمة إلى هذا الدرك من التبدل والخذلان؟ من العار أن تتحمل هذه القلعة الوحيدة كرامة أمة

ترامى على قارتين. إننا نفر قليل يحاول أن يصون شرف البلاد كلها. حين أنظر من الأسوار، وأفكر في كل هؤلاء العرب، أعجب كيف يستطيعون أن يأكلوا، ويناموا، ويتابعوا لهو الأيام، غير عابئين بما نكابد، ونقاسي! أیظنون أن حصارنا لن يطالهم؟! أم یظنون أننا كبش الغداء الذي سينقذهم! ستكون الكارثة كبيرة إن لم ينتبهوا من غفلتهم قبل فوات الأوان.

سعاد

: أحسب أنك أكثر يأساً وحزناً مني.

شرف الدين

: لا.. لست يائساً. قال ابن خلدون، ولعله محق، إننا نعيش زمن الاضمحلال. ولكن إذا لم يعمل المرء شيئاً في مثل هذا الزمن، ففي أي زمن سيعمل؟! سألتكم سنعصم! وأقول لك.. إننا سنعصم حتى يتغير شيء في هذه الأمة، لا بد أن يتغير شيء وإلا فقدنا حقنا في الوجود. لا أدري.. أشعر أن هذه القلعة التي بدأ يشح فيها الغذاء والماء، ستكون هي الصيحة التي توقظ الأمة من الغفلة.

سعاد

: هل تحبتي؟

شرف الدين

: يا الله!. كيف تستطيعين أن تسألني هذه الأسئلة؟

سعاد

: أتعني أنني بلا حياة؟!

شرف الدين

: لا.. لا.. ولكنك تفتحين خفايا نفسي بالسهولة التي تفتحين بها كتاباً.

سعاد

: لا تدع الماء يتسرب إلى الضماد. واعتني بنفسك.

شرف الدين

: هل تذهين!

سعاد

: سأمرّ غداً لأبدل الضماد.

(تتلاشى الإضاءة).

مؤرّخ قديم : وفيه، وقع مطر كثير جداً مع رعد وبرق، وسقط بَرَد بقدر البندق بكثرة زائدة، حتّى صارت الأرض بيضاء من كثرتة. كلّ ذلك في ساعة واحدة لم يعهد مثلها.

وصار تيمور لايهتمّ إلا بالقلعة وحصارها. وحين أعياه الأمر، طلب القضاة والأعيان، وقال لهم: «سمعت أنّ في المدينة طريقاً إلى القلعة تحت الأرض» فقالوا: «والله ما سمعنا بهذا ولا نعرفه» فقال: «تكذبون أنتم وأباؤكم وأجدادكم. عمركم في دمشق، وما تعرفون طريقاً إلى القلعة.. أنا ما أعرف. إلى ثلاثة أيام إن لم تبصروا طريقاً أعبر به إلى القلعة، أو ينزل نائيبها ويسلم، عبرت وحاصرت من الداخل. وما أقدر أن أرّد العسكر عما تفعل، وتخرّب البلد».

وعندما عادوا إلى المدينة، كانت وجوههم مسودة من الخوف والكمّد واجتمعوا، وضربوا الأخماس بالأسداس، ثم استقرّ الرأي على أن يرسلوا الشيخ شمس الدين بن النابلسي، ومحمد بن أبي الطيب إلى نائب القلعة. واتّجهوا جميعاً، ووقفوا تجاه الباب الذي من المدينة، وأخذوا بالصباح فدلّوا من القلعة سرياقاً مربوطاً بحبال، ورفعوا ابن النابلسي وابن أبي الطيب.

وبعد المطر والبرّد، فاض الماء في بردى، وغمر ما حوله على الضفتين.

تفصيل (٦)

(على أسوار القلعة. الأمير آردار ومعاونه شهاب الدين، وابن النابلسي ومحمد بن أبي الطيب. حراس).

آردار : ماذا تبغون؟
ابن النابلسي : (متذللًا ومتصاغراً) أيها الأمير.. جئنا باسم أهلك وأبناء بلدك، نرجوك أن تحقن دماءهم، وأن تسعفهم على زوال هذه الغمة.

آردار : ألم يحقن دماءكم الأمان الذي اشتريتموه من تيمور؟!
ابن النابلسي : تقلب علينا أيها الأمير. إنه غاضب جداً، وسيخرب البلد إن لم تشفق علينا.

آردار : ماذا تجدكم شفقتي؟
ابن النابلسي : أقصد.. لاشك أنك بلغت في البطولة ذروة لن يصلها أمير بعدك، وذكرك سيتغنى به الأحفاد وأحفاد الأحفاد. ولو طاوعتنا وسلّمت الآن، فستضيف إلى الشجاعة مآثرة المروءة.

آردار : هل جئت تطلب منّي الاستسلام؟
ابن النابلسي : لن يضير الاستسلام شهرتك، وستنقذ أهلك من القتل وبلدك من الخراب!

آردار : أتريدون أن أشاطركم الخزي الذي تمرّغون فيه؟ أهذا ما تطلبونه؟ طوال هذا الحصار لم تلتفتوا إلينا، ولم تقدّموا لنا أيّ عون أو تعاطف، ومع هذا تأتون بكلّ عين وقحة وتطلبون منا

أن نستسلم!

ابن النابلسي : أيها الأمير.. إننا نحمل إليك ضراعة أهلك ومدينتك. وإن قبلت، فستزَيْن شجاعتك بحلية إضافية هي الشهامة.

آزدار : ماذا حل بكم؟! هل فقدتم كل حياة؟! هل وضعتم جلود مؤخراتكم على وجهكم؟! كيف تطلبون مني أمراً شائناً كهذا!!

محمد : أيها الأمير.. إنك تتلاعب بمصير مدينة.

آزدار : أنا أتلاعب بمصير المدينة أم أولئك الذين تراموا على حذاء العدو، يلحقونه، ويسلمون له أرواحهم وأموالهم؟!

محمد : ربما لن يعجبك كلامي. لكن ألم يخطر لك أيها الأمير أن تتساءل عمن رمانا تحت قدمي العدو؟ تقول إننا بلا حياة، ولكن من الذي قتل حياتنا وبدد عزمنا؟! أليس هو السلطان الذي تحمل رايته؟! أليس هو ذلك الغلام المشغول بذكره وخمره؟! والذي فرَّ بعساكره دون أن يقول لنا كلمة، أو يترك لنا تدبيراً أو خطة؟! وأنت.. أنت أيها الأمير ألم تقتل حياتنا، وتبدد عزمنا قبل مجيء السلطان وهروبه الشائن؟! ألم تحرمننا السلاح حين طلبناه؟! ألم تجعلنا أغراباً في مدينتنا لأننا نخالفك الرأي، ولأننا لم نكن نوالي هذا السلطان الغلام، وما آلت إليه الدولة السلطانية؟! تقول إننا فقدنا الحياء، ودفعنا من ظهورنا للركوع أمام العدو. حتى هذه اللحظة لي في سجنك أصحاب وأقارب، وكل ما اقترفوه هو أنهم يخالفونك الرأي، ويرون أن الدولة السلطانية يشلها الفساد والظلم. ورغم كل شيء جئتك قبل المحنة متطوعاً، وتوسلت أن تتجاوز الخلافات، وأن نكون قبضة واحدة في الملقات. فماذا كان جوابك؟! سخرت مني، ورميتني كما

تُرمى النواة. لم يكن يهتّمك إلا رضى سلطانك وطغمة
الأمراء حوله.

ابن النابلسي : اقصر يا ابن أبي الطيب. جئنا نتوسّل، لانجادل.
آزدار : لا.. دعه يكشف خباثت نفسه.

محمد : أيّها الأمير.. ما أردت الإساءة، ولكنك ظلمتنا من قبل،
وتظلمنا الآن. رميتنا بقلة الحياء، ولكن هل كانت لدينا
الفرصة كي نصون حياءنا!.

آزدار : هذه النفوس التي تربّت على الدسائس ما كانت لتتفعني في
شيء. ورجل مثلك يمكن أن يبيعنا للشيطان إذا وجد عند
الشيطان منفعة. رجل مثلك لا يستطيع أن يحيا إلا في الغدر
والخيانة والتآمر. جئتم تطلبون منّي أن أسلم، لأنّ موقف
الشرف يفقأ عيونكم الكسيرة، ولأنّ موقف الشجاعة يقض
مضاجعكم الذليلة. إن أمركم لا يعنيني، ولن تمسحوا مؤخره
تيمور بقلعتي، كما مسحتموها بالمدينة.

ابن النابلسي : والله لست بارأ بأهلك ومدينتك.
محمد : وما أهميّة هذا الشرف الذي تغذّيه من لحم قومك؟ وما قيمة
شجاعة ثمنها شعب ومدينة؟.. لا.. هذه ليست شجاعة،
إنّها مباهاة عقيمة. كل ما تبحث عنه أيّها الأمير، هو شيء
من التميّز حتى ولو كان على حساب جبل من الضحايا. لم
تفكر يوماً بنا، ولم يشغلك أمرنا. إنك رجل وحيد استغرقك
البحث عن شيء من الصيت، ورضى ذلك السلطان الرقيق.

آزدار : أيّها الحراس..
محمد : نعم.. يجب أن تنادي الحراس، فأنا أعزّيك. إني أراك عارياً
أيّها الأمير، وإني لا أجد في عريك إلا الأنانية والوحدة
وجفاف الروح.

آزدار : بل أنا الذي سأعزّيك فعلاً. ولن يجد الناس تحت ثيابكم إلاّ

الذلّ والهوان. أيتها الحراس.. جرّدوهما من ملابسهما..

(يبدأ الحراس تجريدتهما من ملابسهما).

ابن النابلسي : (وهو يقاوم الحراس) كن حصيماً أيّها الأمير، هذا لا يفعله إلا المجان.

آزدار : ما العمل؟! علّمتمونا المجنون على كبر يا ابن النابلسي.

محمد : عزّيتنا من ملابسنا، أما نحن فقد عزّينا فيك المظاهر والأكاذيب.

آزدار : الآن.. وأنتم عاريان، الآن.. وبعد أن أخرجت يا ابن أبي

الطيب الفحيح الذي تخبّته في صدرك، سأقول لكما كلمات أريد أن تبلغوها أهل الشام. إنّي أتخصّن في هذه القلعة، وأكابد هذا الحصار لا لكى أرضي سلطاناً، أو لكى أحمي إمارة. إنّي هنا لكى لا يموت الشرف في هذه الأمة. إنّي هنا، لكى لا يقال في قادم الأيام، اجتاحت تيمور هذه البلاد ولم يُوجد من يقاوم، أو يقول لا. إنّي هنا لكى أبقى شيئاً من الكرامة لأطفالكم وأحفادكم، حين يأتي الوقت كي يرفعوا الأنقاض، ويفكّروا بالمستقبل. إنّي هنا كي أمنع تيمور من بدء المذبحة التي يحضّرها لكم. والله ما إن تسقط هذه القلعة، حتى تعمل السيوف في أعناقكم. أنا الذي أضحي بالمدينة يا ابن الطيب بحثاً عن صيت أو إمارة.. لماذا تظنّ أن تيمور لم يقتحم المدينة بعد؟

قل لأهل الشام إن صمود القلعة هو الذي يؤمن لهم هذا السلام المؤقت. وقل لأهل الشام إنّ الذين يضحون بالمدينة هم هؤلاء الذين تحوّلوا جلاوزة عند تيمور. هؤلاء الذين كانوا في النهب وجمع المال أقسى من التار. هؤلاء الذين باعوا المدينة من أجل بعض المغنم الهزيلة. قل لأهل الشام إن

كنت تجرؤ، إن الذي ضحى بالمدينة، وذبح أهلها هم علماء
وأعيان يبحثون عن المناصب والوجاهة والغنيمة. ابن العز
صار قاضي القضاة، وابن مفلح وزير المال، وابن أبي الطيب
كاتب السر، وابن النابلسي يلملم مكاسب الأوقاف وأموال
البرطيل والشفاعة، وكلهم يتسابقون في خدمة تيمور غير
عابئين بما يحلّ بكم من ويل وشقاء.

قل لأهل الشام إن كنت تجرؤ، ماجئت إليّ لكي تنقذ الشام،
بل لكي تنال حظوة عند تيمور. قل لأهل الشام سلام عليكم
أيها الناس. إن الأمير يشفق عليكم من سادتكم.. وإن الأمير
سيفعل ما يستطيع كي يؤجل موتكم. أيها الحراس.. ردّوهما
إلى المدينة.

(يضع الحراس ابن النابلسي وابن أبي الطيب في سرياق،
ويدلوهما على جدار القلعة).

ابن النابلسي : هاتوا لنا ملابس وأغطية.
محمد : أيها الناس.. انقبوا القلعة.. هاتوا المعاول والفؤوس وانقبوا
القلعة.

شهاب الدين : (من فوق السور) والله إنكم تنقبون قبوركم.
محمد : (وقد حطّ السرياق على الأرض) انقبوا القلعة..
شهاب الدين : والله ستنبون قبوركم لو فعلتم..
(تتلاشى الإضاءة، ويرتفع بعيداً كالصدى صوت شعبان).
شعبان : يمه.. يمه.. تتر.. يمه عطشان.. يمه هاتي برك يمه...

تفصيل (٧)

(بيت مروان وخديجة، إنهما يتاولان العشاء، ضوء السراج لا يندد العمة وإنما يملأ المكان ظلالاً).

- مروان : (يغرف لقمة من صحن الدبس) هذه اللقمة لك..
 خديجة : لا.. أنا اكتفيت، وأنت لاتكاد تأكل شيئاً.
 مروان : أنت من يحتاج إلى الغذاء، لا أنا (يمد اللقمة إلى فمها) افتحي فمك.
 خديجة : والله اكتفيت. كُل أنت، والدبس يدق في هذا البرد.
 مروان : للدفع.. هناك ما هو أفضل من الدبس.
 خديجة : (ضاحكة) إحذر.. لوئت خذي وذقني.
 مروان : انتظري.. سأنظف كل شيء. (يقرب منها ويلحس قطرات الدبس حول شفتيها. يتضحكان، ويتدافعان).
 خديجة : كفى...
 مروان : مازالت هناك قطرة.
 (طرق على الباب.. يجفان)
 مروان : من يأتينا في هذه الساعة!
 خديجة : لا أدري..
 (ترفع الطعام فيما يذهب مروان إلى الباب).
 مروان : من؟
 أحمد : (من الخارج، وصوته مخمور) أنا.. أحمد.. اشتقت لك يا

- رجل، وأريد أن أسدي لك خدمة.
- مروان : (متردداً) أهنأك شيء ضروري؟! :
أحمد : (من الخارج) نعم ضروري جداً.
- (يلتفت مروان نحو خديجة كأنه يستشيرها. تهزّ خديجة كفيها وكأنها تقول لا أدري. بعد تردد قصير، يفتح مروان الباب، يندفع أحمد متطوِّحاً إلى الداخل وإثره يدخل تريان، يبدو مروان مبغوتاً وكذلك خديجة).
- أحمد : جئت أفكّ عسرك المالي، وأضمن لك الأمان.. ماذا تظن؟! أنت دائماً في البال يا مروان، والدم لا يصير ماء. هذان الأميران يريدان حريراً فاخراً. وأنا قلت لهما، هناك رجل واحد لديه ما تريدان من الحرير الفاخر، وهما مستعدان للدفع. انظر.. كلّ منهما لديه كيس ملآن. (يحاول أحمد أن يعرض الكيس على مروان، فيدفعه التري ويرميه أرضاً).
- أحمد : يا رجل.. نحن شربنا سوية. والذين يشربون سوية، يت.. يتآخون.
- تري (١) : (وهو يلكرز رفيقه فيما عيناه تلتهمان خديجة) إن زوجك جميل أيتها الشامي.
- مروان : (مرتبكاً) هل تريدان حريراً بالفعل؟ :
تري (٢) : (وهو يتقدّم نحو خديجة) بعدين.. بعدين.. :
مروان : (يريد أن يعترض طريقه) انهض يا أحمد.. ماذا فعلت بنا! خذهما واخرج.
- أحمد : (وهو يكرع من الزجاجة، وتزداد تعتمة صوته) لا تخف.. لا تخف.. هما يحبّان المرح والمزاح.
- (التري ينحي مروان، ويتقدّم حتى يصل إلى خديجة، يمسكها يديها ويحملق فيها، تتغيّر ملامح خديجة تحت وطأة الرعب، وينحبس صوتها. إنها تصدر ما يشبه الفحيح).

مروان : (وهو يهجم عليه) اتركها.. اخرجوا جميعاً.. أيتها السافل،
خذ صحبتك وارجل.

(يحمل التري خديجة غير عابئ بشيء، ثم يضعها على
الفرش. يغدو مروان كالجنون، يسحب من جيب سترته
سكيناً ويقفز على التري، إلا أن التري الثاني الذي يراقب
كل شيء بعين فاحصة، يمتشق سيفه، ويعاجله بضربة تمزق
عنقه. تطلق خديجة صرختها المحبوسة، صرختها مفعمة
بالرعب والغضب، تتلاحق الصرخات، والتري يطبق عليها،
ويشل حركتها لا مبالياً بشيء).

مروان : (وهو يتمرغ على الأرض ويشخر مذبحاً) أخوك.. لعنة الله..
الجنين.. أمي.. خديجة.. انتهت الحرب.. انتهت الحرب..
: مروان!

خديجة

(يضع التري يده على فمها).
: (ينهض وهو يتلفت بذعر) يا رب.. ماذا فعلت!. يا رب..
ماذا فعلت!..

أحمد

(ينسل ويختفي في العتمة. يغلق التري الآخر الباب وراءه
فيما تلاشى الإضاءة ببطء شديد).

مؤرخ قديم : وفيه، جمادى الآخرة، درّب تيمور عساكره نحو باب الجايية، وحاصر القلعة من داخل المدينة.

ولمّا بدأوا ينقّبون الأسوار، أبدى أهل الشام همّة عالية في مساعدة التّار على نقبها. وكان ابن أبي الطيب يقودهم، وينادي فيهم «الهمّة يا رجال، اقترب الخلاص». وكان تيمور قد نصب مناجيق وحدافات، ومدافع كثيرة، ترمي على القلعة. وكانوا يرمون بالنشاب إلى الأسوار بحيث منعوا أحداً من الوقوف عليها.

وتهدّمت أبراج القلعة كلّها، والنقب من داخل المدينة شغل. وفيه، أوحلت الأرض من الأمطار والبرّد.

ومازال الماء في بردى يفيض على الضفتين.

تفصيل (٨)

(في القلعة، شرف الدين وسعاد)

- سعاد : انتهى كل شيء..
 شرف الدين : (دامع العينين) غلبنا الأهل والعدو والزمان.
 سعاد : أين الله يا شرف الدين؟!
 شرف الدين : لا أدري..
 سعاد : هل تساورك الشكوك مثلي؟
 شرف الدين : لا أدري..
 سعاد : ألا يرانا! كيف تخلّى عنا، نحن الذين ندافع عن الحق؟ كيف تركنا وحدنا دون نجدة أو رحمة؟ ألم يعد أمثالنا بالنصر! ألم يعدنا أنه قريب منا إذا نادينا وتضرعنا! أيجوز أن يمكن لتيemor في الأرض، وأن يهزم فتنه التي تقاتل بالعدل، وتدافع عن الحق!..
 شرف الدين : لا أدري.. لا أدري..
 سعاد : نعم.. لاندري.. وربما لن ندري أبداً. قل لي.. هل بحر النيل جميل؟
 شرف الدين : آه.. كم وددت أن نراه معاً! لا.. لم يعد هناك مكان جميل، ولم يعد هناك جمال..
 سعاد : وأنا؟
 شرف الدين : لا تجعلني قلبي يتفطر.

- سعاد : هل تتزوّجني؟
 شرف الدين : يا ربّ.. كيف أفهم أسئلتك؟!
 سعاد : افهمها كما هي. إنّي جادة.. هل تتزوّجني؟
 شرف الدين : كيف أستطيع أن أمّتي نفسي؟!
 سعاد : دعك من الذهول. وأجبنني.
 شرف الدين : يا ربّ.. وهل هذا ممكن! طبعاً أتزوّجك.
 سعاد : إذن.. هات يدك (تمسك يده اليمنى وتضع منديلاً على اليدين) أنا سعاد بنت المرحوم برهان الدين التاذلي أزوّجك نفسي على سنّة الله ورسوله.
 شرف الدين : وأنا شرف الدين بن محمود الدسوقي أتزوّجك على سنّة الله ورسوله. فلنقرأ الفاتحة.
 (يقرآن الفاتحة بصوت خافت).
 سعاد : هكذا.. صرت زوجتك. إنّنا الآن متزوّجان.
 شرف الدين : (مذهولاً) هل نخبر أمّك وأمير القلعة؟
 سعاد : لا.. لن نخبر أحداً. سيكون زواجنا حليماً، أو أقصر من الحلم. غداً حين نسلم القلعة، لا يدري أيّ منا ماذا ينتظره.
 شرف الدين : غداً، سنخرج من القلعة زوجين.
 سعاد : ومن يدري. قد يتزوّج أحدهنا قبل أن يأتي الغد.
 شرف الدين : (خائفاً) ماذا تعنين؟ أعطونا أماناً، ولن يحدث شيء حتى الغد.
 سعاد : وما قيمة هذا الأمان! هل تقبل يا شرف الدين أن تمتد يد تترية إلى جسد امرأتك؟
 شرف الدين : ماذا تخفين يا سعاد؟
 سعاد : لا أخفي شيئاً.. وهذا الجدل لا يليق بعريسين. ألا تريد أن تكون لنا دخلة؟
 شرف الدين : إنّي قلق وخائف.

سعاد : مع القلق والخوف لن تعرف كيف تقطفتني، وسنفوت عرسنا.. اهدأ الآن، ودعنا نتأرجح على هذا الحلم العجيب.
تعال..

شرف الدين : لو يطمئن قلبي؟!
سعاد : ومن يبحث عن الاطمئنان في مثل هذا الوقت؟ إننا نحلم..
دعنا نحلم.. دعنا نحلق فوق الأنقاض والعذاب.. دعنا نبدع نصراً صغيراً يخصنا نحن الاثنين. سنعلو على تيمور والتار، سنعلو على المرارة والهزيمة، سنحلق في سماء صيفية زرقاء. أغمض عينيك، وانزلق إلى الحلم. إننا نظير. هل تحسن أننا نظير؟!
شرف الدين : حقاً.. إننا نظير.

(يتعانقان، يتماوجان، يتداخل جسدهما تداخلاً إيقاعياً وفاتناً.
وببطء شديد تلاشي الإضاءة فوقهما).

تفصيل (٩)

(أمير القلعة آزدار في أبهى حلله، يبدو كأنه خرج لتوه من بين يدي المزين، يقف منتصب القامة، ويبدو واضحاً أنه يذل جهداً كي يحافظ على انتصاب قامته. يدخل شهاب الدين وهو الآخر تزين وأصلح هندامه وانتصب قامته).

شهاب الدين : حان الوقت أيها الأمير.
آزدار : لولا الأطفال والنساء، ويأس الرجال، لوددت أن أدفن في هذه القلعة.

شهاب الدين : ليت الموت أكرمني، وجتّبي هذه اللحظة.
آزدار : هل تفحصت كل شيء؟
شهاب الدين : تفحصت قيافة الرجال واحداً واحداً، وزوّدتهم بكل أوامرك. لا تقلق.. سيكون موكبنا مهيباً، وجديراً بمأثرتك.
آزدار : المأثرة لكم قبل أن تكون لي.

شهاب الدين : لولاك..
آزدار : (مقاطعاً) ماذا فعلت بابتة التاذلي؟
شهاب الدين : عُسِلت وكُفّنت وصُلّي عليها شيخ القلعة. هي الآن في النعش، وسيحمل نعشها ستة من الرجال.

آزدار : حقاً.. كانت ابنة أبيها. وسنصرّ على دفنها إلى جواره. لعلها فاقتنا حكمة. عجلت موتها كي تتقي العار، وتحمي شرفها من دنس التار. هل نخرج؟

شهاب الدين : (مغالباً الدمع في عينيه) بعد أن نخرج، لن يعرف أيّ منا مصيره.. وربما لن نلتقي بعد الآن، ولا يتاح لنا أن نتبادل الكلام، أحب أن تعرف أيّها الأمير، آتي فخور لأنّي كنت إلى جانبك طوال هذه الحرب. ولا أخفي عنك.. أحياناً كنت لا أفهم مواقفك. وأحياناً، كانت تساورني الشكوك. ولكن حين كنت تردّ على ابن أبي الطيب، بددت كثيراً من الشكوك وسوء الفهم. أعرف الآن أن صمودنا لم يكن من أجل أهداف صغيرة، كالسلطان والإمارة، وأن مفهومك عن الولاء والواجب يتسع ليشمل الأمة وكيانها. ومع هذا بقيت في نفسي غمّة. لو أننا حلمنا وجازفنا، تماماً كما يفعل الشعراء أحياناً، أما كان يمكن أن يتغيّر مجرى الأحداث! وأن تكون هذه المأثرة بداية تحوّل وانبعاث.

آزدار : إنّي أفهمك يا شهاب الدين.. كانت قدرتك على الحلم ورغبتك في المجازفة تثيران إعجابي وحتيّي. وأعترف أنّي تردّدت، وخفت أن أجاريك في الحلم والمجازفة. في أوقات الضعف والانحلال، الأحلام باهظة التكاليف. وكنت أخشى دائماً أن نتوه في الحلم، ونضيع الممكن. لا أعلم.. ربما كنت مخطئاً، أو تنقصني اندفاعة الشباب. ولكن منذ بداية هذه المحنة وأنا أتأمل ما حولي، فلا أحد إلّا واقعاً / موحلاً، وزمناً سقيماً. وفي الواقع الموحل والزمن السقيم، قد يكون إنجاز الممكن هو الحلم، وهو المجازفة. نعم.. أحببت قدرتك على الحلم، ورغبتك في المجازفة، وأرجو ألا تنسب تردّدي وأخطائي إلى الضعف، أو إلى الحسابات الصغيرة.

شهاب الدين : هل تسمح لي أن أعانقك أيّها الأمير؟

(يعانقان عناقاً طويلاً، والدموع تنسكب من عيني شهاب الدين).

: (بعيداً كالصدى) يمه.. ماتت.. القلعة يمه.. جوعان.. يمه.. يمه..

(تتلاشى الإضاءة).

شعبان

مؤرخ قديم : وبعد أربعين يوماً من الحصار، وبعد أن نفذت الذخيرة والمؤونة، واستحالت المقاومة، سلم الأمير قلعته. وكان موكبُه حين خرج من القلعة أمراً عجيباً. كان يتقدم رجاله، وكلهم لاشَّتْ أيديهم، في أحسن هيئة، يشمخون برؤوسهم عالياً، ويتقدمون بكل كبرياء وثبات. وكان في الموكب نعش ابنه التاذلي التي قتلت نفسها كي لاتقع في أسر التار. وحين وقف أمير القلعة بين يدي تيمور، قابله بالسخط والغضب، وقال له: «أفنت صاغيتي، وقضيت على حاشيتي، فإن قتلك مرة واحدة لا يشفي غليلي، ولكن أعذبك على كبر سنك، وأزيدك كسراً على كسرك» فقيده بقيد زنته سبعة أرطال ونصف، ولم يُعرف له خبر. وبعد أن تمّ لتيمور أخذ القلعة، طلب ابن مفلح وأصحابه، ولما وضعوا أمامه المال الذي فرضه، عبس في وجوههم، وقال:

«هذا لا يساوي في حسابنا إلا ثلث المبالغ، وظهر لي أنك عجزتم» ثم قبض على ابن مفلح، وبعد أن ألزمه بكتابة جميع خطط دمشق، وحواراتها وسككها، أمر بضربه حدّ التلف.

تفصيل (١٠)

في بيت ابن مفلح. ابن مفلح راقد على فراش الموت وعنده دلالة).

- ابن مفلح : هل جئت تودّعني؟!
دلالة : أطل الله عمرك. هي وعكة وتمرّ.
ابن مفلح : إنّي أميّر الموت، وأحسّ ديبه في جسدي.
دلالة : دعنا من الموت يا شيخ، وأجبنني.. ماذا جرى، وأين أخطأنا؟
ابن مفلح : إنّي أحاول أن أرّب جواب هذا السؤال لأنّي سأحتاجه حين أقف بين يدي الخالق.
دلالة : وماذا وجدت؟
ابن مفلح : أين أخطأنا يا دلالة؟! منذ البداية أخطأنا. حين نزعنا من الناس سلاحها أخطأنا. حين جرّدنا أسوارنا من دفاعاتها، أخطأنا. حين صدّقنا وعود العدو، أخطأنا. بين الأعزل الخائر، وبين العدو المدجج بالسلاح، لا يكون اتفاق، ولا سلام بل إذعان واستسلام. إنّ أعترف أمام الله أنّي أخطأت. ونفسي الأثمارة بالسوء والتاجر دلالة، وابن خلدون، وعلماء السوء زينو لنا الخطأ. لو قاتلنا، لما خسرنا ما خسرناه، ولما أصاب المدينة كلّ هذا الدمار. انظر.. لم تُدمّر بيوت الناس وأرزاقها فقط، بل دُمّرت نفوسهم، وفسدت قلوبهم. ظهرت الحباث، والأحقاد، والأنانيات، وصارت المدينة وكأنّها غابة

خلت من الدين والقيم والأخلاق. نعم.. منذ البداية أخطأنا،
وكان الخطأ جسيماً.

: ولم أخطأنا؟! عقدنا معهم تجارة. ونقّذنا ما علينا. ألم يكن

دلامة

العقد واضحاً؟ ألم يعطونا كلمة وميثاقاً؟! فأين الخلل؟

: إنك دعيت معرفة يا دلامة. تحسب أن التجارة تستوعب المحنة

ابن مفلح

وتحتوي العدوان. ولكن فاتك أن التجارة والعدوان توأمان.

إن التجارة بين الأقوياء والضعفاء ليست يعباً وشراءً. بل هي

حرب وعدوان. أخطأنا يا دلامة، وها نحن نخسر كل

شيء. اذهب ودبر أمرك. قسّم تيمور أحياء المدينة على

أمرائه، ولن يبقى في مخابلك ما يرنّ.

: ماذا تقول؟! أخبرني ما تعرفه. يجب أن أعرف..

دلامة

: اغرب عني، ودعني أمت بسلام.

ابن مفلح

: يجب أن أعرف.

دلامة

: (بغمض عينيه واهناً) اغرب عني يا دلامة.

ابن مفلح

(يتردّد دلامة فترة يدو زائف العينين ثم يخرج على عجل)

(تلاشي الإضاءة)

مؤرخ قديم : وفزق تيمور المدينة على أمرائه، فساروا إليها بمعاييكهم وحواشيهم، ونزل كل أمير في قسمه، وطالب سكانه بالأموال.

حينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء مالا يوصف، وجرت عليهم من العذاب ألوان رهيبة كالضرب والعصر والإحراق بالتار والتعليق منكوساً، وغمر الأنف بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفّس، دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق. وكان الرجل إذا أشرف على الهلاك، يُخلّى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً. ومع هذا تؤخذ نساؤه وأولاده الذكور، فيتقاسمهم الأمير وأصحابه.

وكان الرجل المعذب يرى امرأته أو ابنته وهي توطأ، وولده وهو يلاط به، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللوأط، وكل هذا من غير تستر في النهار وبحضرة الملاء من الناس.

تفصيل (١١)

(في دار دلامة. أمير وعساكر من التار. يدو دلامة معلقاً من
رجليه ومنكوساً، وتحت رأسه كانون يوقد فيه الحطب، وقربه
يقف ابنه مذعوراً ودامع العينين).

- الأمير : أين المال؟
دلامة : (محشرجاً) أعطيت كلّ ما لديّ؟
الأمير : شرموط.. كذاب..
دلامة : أقسم..
الأمير : شرموط.. أنت واحد لا يعرف الربّ. (للعساكر) انفخوا
التار.
(يؤجج العساكر النار تحت رأسه، فينطلق دلامة بالصراخ
والعويل).
الأمير : أين المال؟
دلامة : (محشرجاً) ألم تفتشوا البيت كلّهُ؟! لا مال.. لا مال..
الأمير : كذاب ابن كذاب.. خذوا ابنه، وافعلوا به.
الابن : (مرعوباً) أيّ..
(يجرّ عسكريان الابن، ويمضيان به إلى مكان جانبيّ).
الابن : (صارخاً، متوجّعاً من مكانه) أيّ.. أنجّدي يا أيّ.. أيّ..
دلامة : أنقّذي يا أيّ.
دلامة : اصبر يا بنيّ، وتجلّد.

- الابن : (صارخاً كالجرّيح) لا أستطيع.. قل لهم يا أبي.. أخبرهم إذا كنت تخفي شيئاً.
(يتحوّل صوت الابن إلى خوار وحشرجة).
الأمير : أين المال؟
دلّامة : لا مال..
الأمير : شرموط. سأرتي بك أهل الشام (إلى العساكر) غمّوه، وهاتوا حريمه.
(يندفع عساكر إلى داخل البيت، بينما يملأ أحدهم خرقة برماد ناعم ثم يجمع أطرافهما، ويضعها على أنف دلّامة المنكوس. ينفذ رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ويزرق وجهه، ويتصاعد من فمه لهاث مختق، يخرج عسكريان من البيت هما يجترّان ريحانة وخلفها نساء).
ريحانة : الكل... تثار.. الكل.. تثار.
الأمير : جرّدوها من ثيابها.
ريحانة : (وهي تتخط بين أيديهم) لا.. لا.. الكل.. تثار..
(يمسكها الأمير من يدها بعد أن تصبح شبه عارية، ويدوّرهما حول رأس دلّامة).
الأمير : انظر.. هذه محبوبتك. هل تريد أن نفعل بها؟!
دلّامة : (كالمحتضر) افعلوا ما تشاؤون.. لا مال..
ريحانة : (تبرق عيناها.. تتكلّم كالطفلة) ماذا.. تريدون.. أيّها التار؟
الأمير : نريد المال.. أين يخبئ هذا الشرموط المال والذهب؟
ريحانة : الذهب في الخراء.
دلّامة : (يشهق وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة) احرص يا ابنة القحبة.
الأمير : (يصفع ريحانة) هل تسخرين مني!..
ريحانة : إني.. لا.. أسخر.. والكل.. تثار.. هو.. لا.. يعرف.. أني..
أعرف.. الذهب.. في.. الخراء.
الأمير : فسّري ماذا تعنين..

ريحانة : اكسروا أرض.. الكنيف.. وانزلوا.. في الخراء.. تجدوا..
صناديق المال.. والذهب.
دلامة : (لا فظاً أنفاسه) قتلتني.. أيتها.. الـ..
الأمير : (يفتل معصم ريحانه، فتشفي متأوّهة لتصبح في حضنه) سنرى
إن كنت صادقة (إلى العساكر) اكسروا أرض الكنيف،
وانزلوا إلى الخراء.
(تضحك ريحانة ضحكات قصيرة متلاحقة، وكأنّ أحداً
يدغدغها، ثم يتعالى ضحكها تدرجياً، ويختلط بالبكاء فيما
تتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوماً.
آخرها يوم الثلاثاء، الثامن والعشرون من شهر رجب،
فهلك في هذه المدة بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم
إلا الله.

تفصيل (١٢)

(ابن خلدون وشرف الدين على أهبة الرحيل والعودة إلى مصر)

- ابن خلدون : الحمد لله على الخلاص من ورطات الدنيا.
 شرف الدين : وأين الخلاص؟!
 ابن خلدون : ها نحن نعود بلا غرم كما جئنا. كلّمت تيمور مرتين حتى رضي أن يفكّ أسرك.
 شرف الدين : (بامتعاض) شكراً يا سيدي.
 ابن خلدون : ما الذي لا يرضيك؟!
 شرف الدين : كيف تستطيع التحدّث عن الخلاص من ورطات الدنيا، والتّار تلتهم المدينة، والطرق تسدّها الجثث والأعضاء المتوردة.. وامرأتني اختارت الموت، والأهل تفرّقوا بين السبي والقتل!
 ابن خلدون : زوجتك؟!
 شرف الدين : لن تفهم شيئاً يا سيدي.
 ابن خلدون : لا تفقد حيائك وأدبك. تغيّرت كثيراً خلال هذه الرحلة. مافات فات، ولنحمد الله على سلامتنا.
 شرف الدين : (مباعداً بينه وبين دوره) لم يفهم ابن خلدون شيئاً، كان مشغولاً بنفسه وطموحه، فلم تمثّه معاناة التّاس. لم يسمع بكاءنا، ولم يفهم أحوالنا. كانت هذه المحنة بالنسبة له،

ورطة عابرة سليم منا، وتجاوزها. أما شرف الدين فكيف
يحبس دموعه.. وكيف يعتبر البقاء على قيد الحياة خلاصاً
وسلاماً؟
(تتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : ولما قضى الأمراء الوطر من المدينة، أباحها تيمور للعساكر، فدخلوا كأمواج البحر. سيوفهم مسلولة، وهم مشاة. فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها، وسبوا النساء والأولاد والرجال، وساقوهم في حبال، ثم طرحوا التار في المنازل والدور والمساجد.

وكان اليوم عاصف الريح، فعَمَّ الحريق جميع البلد حتى صار اللهب يكاد أن يصل إلى السحب، وعملت النار في البلد ثلاثة أيام بلياليها آخرها يوم الجمعة. احترق الجامع الأموي والأسواق والقياسر والحمامات والبيوت.

وصارت دمشق، بعد البهجة والوفرة، أطلالاً بالية ورسوماً خالية، لا تُرى بها دابة تدب، ولا حيوان يهب، سوى جثث احترقت، وصور في التراب تعفرت. فإننا لله وإنا إليه راجعون لعظم هذه المصائب، وشناعة هذه النوائب.

تفصيل أخير

(الشيخ جمال الدين بن الشرائجي مرفوعاً على الصليب)

جمال الدين : أنا الشيخ جمال الدين بن الشرائجي. آمنت أن العقل خير من النقل، وأنَّ الله عادل لا يقدّر على عباده الفقر أو الذلّ. فأذاع أحدهم أمري، فاستدعاني قضاة دمشق الأربعة. وبعد السبّ والضرب، وإحراق كتبي، رموني في سجن القلعة. وحين حلّ تيمور في ظاهر المدينة وجاء سلطان مصر والشام لمدافعته، أبكاني القهر، وعزّ عليّ ألاّ أكون مع الأمة في مواجهة هذه المحنة. فالتمست من السلطان النظر في أمري. فلما سأل وعرف مقالتي، غضب وأمر أن يضيق عليّ في سجنني. ثم رحل السلطان فجأة، وترك دمشق أكلة لتيمور. فقرّر القضاة والأعيان أن يسلموا المدينة للعدوّ إلّا قلعتها، فقد أبى الأمير آردار إلّا أن يقاوم ويقاوت، فاتصلت بالأمير ورجوته أن يطلق سراحي، ويضنّني إلى مقاتليه، فخشي أن يلومه الناس، أو أن يؤخذ بذنبي، وطلب منّي مترقفاً أن أتجمل بالصبر، وأن أستعين بالله على بلائي. ثم انهزم صاحب القلعة، واستبيحت دمشق. وذات يوم قادني عساكر إلى حضرة تيمور. وكان يجلس عند قدميه نفر من علماء المسلمين عرفت منهم الشيخ محي الدين بن العز، والشيخ عبد الرحمن بن خلدون. فاستفسر عن خبري وفحوى

خطابي فلما أخبروه بلسانه الأعجمي، علا وجهه الغضب،
وأمر أن أجلد وأصلب حتى ينفذ في قضاء الله. فعجبت من
اتفاقهم في أمري على ماينهم من الحرب وسفك الدماء.
(يدخل شعبان متجرجراً وفرعاً، يحملق في المصلوب ثم يفرّ
صارخاً).

شعبان : (وهو يركض بين الأنقاض) يمه.. فزعان.. الموت يمه.. كله
ميت.. يمه فزعان.. يمه الموت.. يمه فزعان.. برك يمه.. برك
يمه.. عطشان يمه.. فزعان يمه..

مؤرخ قديم : وكان الماء يتدفق في بردى بزيادة وشدة لم تعهدهما دمشق
منذ سنوات طوال.
(تتلاشى الإضاءة).

ستار.

١٩٩٣

طقوس الإشارات والتحويلات

✓

ملاحظة

في الجزء الأول من مذكراته^(٥)، أورد المجاهد فخري البارودي حكاية صغيرة، روى فيها كيف استعزّ الخلاف بين مفتي الشام ونقيب الأشراف فيها أيام الوالي راشد ناشد باشا. وكيف تجاوز المفتي الخلاف الشخصي، ومدّ يد العون للنقيب حين أوقع به قائد الدرك آنذاك، وقبض عليه وهو يقصف مع خلية له.

هذه الحكاية هي النواة التي بنيت عليها هذه المسرحية، واستقيت منها معظم شخصياتها، وإن اختلفت عن البارودي في التأويل والمغزى.

* ولعل من الضروري أن أشير إلى أن المكان، وهو في دمشق، والزمان، وهو النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ليس إلا مكاناً وزماناً اصطلاحيين في هذه المسرحية. فلم يكن همي أن أقدم عملاً عن البيئة أو أن أقارب الحقائق الاجتماعية والتاريخية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

* ويقال نفس الشيء عن مناصب الشخصيات. فهي ليست مقصودة بذاتها، وإنما باعتبارها مكونات ثقافية ونفسية للشخصيات.

إن أبطال هذا العمل هم ذوات فردية تعصف بها الأهواء والنوازع، وترهقها الخيارات. وسيكون سوء فهم كبير إذا لم تُقرأ هذه الشخصيات من خلال تفرداها وكثافة عواملها الداخلية، وليس كرموز تبسيطية لمؤسسات تمثلها. إن أبطال هذه المسرحية ليسوا رموزاً ولا يمثلون مؤسسات وظيفية، بل هم أفراد لهم ذواتهم ومعاناتهم المتفردة والشخصية.

* ومن نافل القول التنويه بأن ما أتوخاه من هذا العمل، سواء نجحت أم أخفقت، هو إثارة أسئلة ومشكلات أعتقد أنها راهنة، ومتجددة أيضاً.

(٥) مذكرات البارودي، فخري البارودي، بيروت ١٩٥١.

الجزء الأول

المكائد

المشهد الأول

(بستان في غوطة دمشق. شجرة مشمش مثقلة بالأزهار البيضاء. بسط مفروشة على الأرض، وفرش وثيرة ووسائد صغيرة ملونة. عبد الله حمزة نقيب الأشراف والغانية وردة، وهي خلية عبد الله. مجلس لهو ومجون. بينهما طبق كبير عليه أصناف من المازة والمشروبات. وبعيداً عنهما قليلاً ينهمك الخادم حارم، والخادمة بسمة في الشواء، وتحضير الطعام. وردة تمسك عوداً وتلاعب أوتاره).

وردة

: (تغني بصوت ناعم يوشيه المجون).

وإن كان قصدك بالفرّة أنا مالي رايحة برة
لنيمك على السرّة وعلمك شغل الهوى
يا نور العين..

وإن كان قصدك بنهودي قم هات الدربة والعودي
لنيمك على زنودي وعلمك شغل الهوى
يا عين.. يا عين..

وإن كان قصدك بجسمي قم هات لي بدلة على كسمي
لنيمك على جسمي وعلمك لعب الهوى
يا نور العين..

عبد الله

: يا محمد.. مدد، مدد.

: (تجيه متصنعة الدلال، وتواصل النقر على العود). روح يا

وردة

- مسكين.. خدودي تفاح الشام.
- عبد الله : مدد، مدد.
- وردة : روح يامسكين.. صدري عاج ورماني.
- عبد الله : أحيي الظمآن، واعطني بوسة. (يعد لها كأس العرق) خذوها، واسقنيها من فمك.
- وردة : ارفع هذا الحاجز أولاً.
- عبد الله : أي حاجز يا حبة القلب!
- وردة : حاجز الهيبة والوجاهة. (وتغني بمجون) صدرية عبد يا عبد.
- عبد الله : تريدن أن أخلع الصدرية! حاضر.
- (يخلع صدريته)
- وردة : ومتيان عبد يا عبد.
- عبد الله : وهذا المتيان.
- وردة : ومحزم عبد يا عبد.
- عبد الله : ونفك المحزم، لاحزمنا الله بغم أو هم.
- وردة : قمباز عبد يا عبد.
- عبد الله : وهذا هو القمباز. (يرفع القمباز بحركة مخمورة، فيعلق في رأسه، يصرخ) خلصيني من هذا الملعون..
- وردة : الوجاهة خانقة يا عبودتي.. (تضحك واردة، ويتضحك الخادمان خفية) والله إنه ألبتي وهو مقلوب. (تقترب منه، وتدغدغه في خاصرته، فينط في مجلسه، وهو يضحك ضحكاً هستيرياً) ما هذا الخصر الوافر! (وتدغدغه) ما هذا الإبط العاطر!..
- عبد الله : (كاغتنوق وسط الضحك والشي) لا.. لا.. تقتليني.. سأموت.. أرجوك، لا أحتمل الدغدغة.. يكفي.. يكفي.
- (تساعده في خلع الرداء، وتسحبه من رأسه، فيتنفس بارتياح وعيناه تدمعان من الضحك).

- عبد الله : يخرب شيطانك.. كدت أموت.. لا أحتمل الدغدغة..
والآن هاتي حقي.
(يضعها في حضنه، وينغمر في عناقها).
- وردة : (وهي تنفلت منه بدلال) أخذت حقك وزيادة.
- عبد الله : لا تبخلي على الظمان.
- وردة : لكل شيء أوان.
- عبد الله : طيب.. جاء دوري. (يصفق متمائلاً ويغني) وسروال ورد يا ورد.
- وردة : لا يطلع القمر في النهار.
- عبد الله : (وهو يجرع كأسه) اليوم ستطلع النجوم والقمر في عزّ النهار.
- وردة : اسقني إذن. (يملاً قدحها بالعرق ويرأشه بالماء، ثم يرفعه إلى شفيتها، فترشف منه رشفة نهمة) أين الدريكة؟
- عبد الله : (صائحاً للخادم) سخّن الدريكة، وهاتها.
- (وردة، تتاول محزم عبد الله من الثياب المبعثرة).
- عبد الله : انتظري.. سأعقده لك بنفسي. (ينهض مترنحاً، ويحاول أن يربط المحزم. يطبطب على كفله) يا نمارق الجنة.. ما عاش من لم يتوسد مثلها.
- وردة : أين العمامة الخضراء؟
- عبد الله : إنها علامتي يا وردة..
- وردة : سأضع علامتك على رأسي، وأزّين بها رقصي.
- عبد الله : ضعها آتني شئت. سأقول لك أمراً جاداً يا وردة. عبد الله لا يقبل أن يشاطره أحد الماء الذي يحويه. لو علمت أن رجلاً آخر يمسّ هذه الكنوز..
- وردة : وماذا يفعل رجلي الغيور إذا مسّ رجل آخر هذه الكنوز؟
- عبد الله : ماذا أفعل! ستبرق الدنيا، وترعد. أجل.. ضعها حلقاً في أذنك. ستبرق الدنيا، وترعد.

- وردة** : ما أَلَدَّكَ! أتمنى أن أراك تبرق، وترعد. يا حبيبي الغشيم، المرأة التي تعرف عبد الله، لا يبقى لها غرض بالرجال.
- عبد الله** : الله أكبر.. تعالي.. (ينحني، ويستند يديه على الأرض، يقف على أربعة) تعالي.. اركبي فوق ظهري.. افعلي بي ما تشائين. (تركب وردة على ظهره وهي تضحك) يا الله.. ما أخفك. حرير دافئ يسترخي على ظهري. إلكريني كي أشعر أنك جسد لا غيمة.
- (يأتي الخادم حاملاً الدربةكة، وهو يجهد في إخفاء ضحكه).
- الخادم** : الدربةكة جاهزة يا سيدي.
- عبد الله** : هل سَخَّنتها جيداً؟
- الخادم** : نعم..
- عبد الله** : أسرع بالشواء.
- (يجلس عبد الله، يحتسي كأسه بجرعة واحدة، يضع الدربةكة في حضنه، يجزئها بنقرات خفيفة، ثم يضبط الإيقاع حتى يغدو راقصاً. تبدأ وردة بالرقص، وبين الحين والحين تقترب منه وتحنى رأسها إلى الخلف باتجاهه، وكلما سقطت العمامة، أعادها إلى رأسها. ثم يستخفه الطرب، فينهض وهو مستمر بالنقر على الدربةكة، ويتلوى أمامها. تطوق إلبته بمنديلها، وتبدأ بتوجيه حركاته في جو مفعم بالضحك والنشوة والسكر. فجأة يقتحم المكان عزت بيك، قائد الدرك ومعه عدد من رجال الدرك. يصاب عبد الله ووردة بالذهول، يجمدان، وتدور عيونهما).
- عزت** : يا سلام.. يا سلام. أنس وطرب وغرام.
- عبد الله** : ما هذا! إني في بستانني. كيف تدخلون دون إذن أو دستور!
- عزت** : الحكومة لا تحتاج إلى إذن أو دستور.
- عبد الله** : وأنا.. ألا تعرف من أنا..!

- (تحاول وردة أن تلملم نفسها، فترفع العمامة عن رأسها).
- عزت : لا يا خاتم.. دعيها على رأسك. يبدو أن السيد عبد الله أهداك نقابة الأشراف، وعليك أن تقبلي الهدية.
- عبد الله : ماذا حدث! هل تغير الوالي! هل تغير السلطان!
- عزت : ورأس أمي لم يتغير السلطان الأعظم، ولم يتغير الوالي.
- عبد الله : إذن.. كيف تجرؤ! ألا تعرف من أنا! إني نقيب الأشراف.
- عزت : لا أرى أمامي إلا نقيب الكيف والزني. (للدرك) انظروا.. أتعرفون على نقيب الأشراف في هذه القيافة! تعالي يا خاتم.. ستتابع نزوات السيد عبد الله ومجونه. ارتدي الثياب، وأكملني هيثك.
- وردة : (محرجة) يا بيك.. استر، سترك الله.
- عبد الله : إنك تتجاوز كل الحدود يا عزت بيك.
- عزت : وأنت.. ألم تتجاوز الحدود! تعالي، ونفذي الأمر.
- وردة : أرجوك..
- عزت : قلت تعالي.. وما همك أنت! ستفرج عليك الشام، وأنت تبخترين بشباب النقيب.
- (يجبرها، ويجبرها على ارتداء ملابس النقيب).
- عبد الله : هل جننت! هل تعرف عاقبة ما تفعل! إنك تهين كل الأشراف. إنك تشعل فتنة في المدينة.
- عزت : ماذا تملك! هل تهدد الحكومة! سنرى إن كان الأشراف يحامون السكر والفسق والفجور. يا خاتم.. أنت جميلة بهذا الزي. إنه يليق بك أكثر منه.
- عبد الله : أعرف أن هذا تدبير المفتي. إنك تورط نفسك يا عزت بيك في أمر لا يعينك. هذه غلطة فاحشة، ستدفع ثمنها غالياً، أنت وذلك الثعبان الأرقط.
- عزت : عندما يتبخّر العرق من رأسك، ستعرف من الذي ارتكب

- الفواحش والأخطاء. (إلى الدركي) ضع القيد في يده.
عبد الله : أتقيدني أيضاً؟
- عزت : وستدخل دمشق في عراضة مهيبة. (للدركي) هاتوا بغلة السيد.
- عبد الله : (ينهار) لا.. أرجوك يا عزت ييك. لا يمكن أن تفعل ذلك بي. (بصوت هامس) اسمع.. سلفني هذا المعروف، ولن أبخل عليك.
- عزت : منذ قليل كنت تهددني، والآن ترشوني!
- وردة : (تنحي على الأرض) أبوس رجلك، استرنا.
- عبد الله : أرجوك.. جئنا هذه الفضيحة. وأنا أصدقك النصيحة.. لاتضع يدك بيد ذلك الثعبان، ولا تأمن له. سيلدغك في أول فرصة. وإن زين لك التدخل في عداوتنا بالمال، فإن الجميع يعرفون أن يدي مبسوفة، وأني سأعطيك أضعافاً.
- عزت : لا أعرف عما تتكلم! ولا تهمني عداوتك مع المفتي في شيء. واجبي أن ألاحق ما يخالف الشرع والقانون، وأنا الآن أقوم بواجبي لا أكثر.
- وردة : (وهي تنهه بالبكاء) عبد الله له مركز ومقام. خذوني، واتركوه. أنا بنت الخطأ، فخذوني ومالكم عليه شيء.
- عزت : الخاتم عاشقة. إنك محظوظ مع الغواني يا عبد الله. (يحضر الخادم البغلة) يا الله.. أركبوه، وأردفوا خليلته وراءه.
- عبد الله : أتأخذني بهذه الثياب!
- عزت : آخذك كما وجدتك.
- عبد الله : (متوسلاً) أعطيك ماتشاء، وأشفق علينا.
- عزت : يا الله.. فليتحرك الموكب.
- عبد الله : (يغضب ويزيد فيما يتحرك الموكب) سترى.. إنك تضع يدك في نار ستحرقك.. هذا الخطأ سيدمر أكثر مني.. سترى

كيف تواجه غضب الأشراف وأعواني.. إنك تشعل حريقاً..
إنك تشعل ثورة..

(يبتعد الموكب. قائد الدرك ورجاله يركبون خيولاً، ووسطهم
عبد الله على ظهر البغلة مقيداً، ووراءه وردة بثياب نقيب
الأشراف).

: (دامع العينين) يا حيف.. دالت دولة النقيب.

الخادم

: هل تعني أننا لن نتزوج!

الخادمة

: اتركي تصارييف الأيام، تقرر أمرنا.

الخادم

: يعني أنك تتراجع!

الخادمة

: لا أترجع، ولكن بعدما جرى..

الخادم

: وما همتنا بما جرى!

الخادمة

: حقاً.. وما همتنا. على الأقل، سنأكل اليوم حتى التخمّة،

الخادم

ثم.. انظري.. مازال الفراش ممدوداً (يحضنها، ويختلس
قبلة).

: (تنفلت راكضة) لا.. ابعد عني.

الخادمة

: (يجري وراءها، وهو يدندن).

الخادم

إن كان قصدك بنهودي قم هات الدربةكة والعودي

(تتلاشى الإضاءة)

المشهد الثاني

(إيوان الضيوف في بيت المفتي محمد قاسم المرادي. المفتي محمد قاسم المرادي ولديه ضيفان من الأعيان حميد العجلوني وإبراهيم دقاق الدودة).

إبراهيم حميد : هذه العداوة بينك وبين النقيب قسمت البلد، وأتعبت الناس. والله يا شيخ.. أثرت على تجارتنا، ومصالحنا. فالذين يقفون مع النقيب، لا يشترون إبرة من التجار المحسوبين عليك. والحمد لله، مؤيدوك هم الأكثر ولكن الحزازات بلغت حد الضغائن.

المفتي : وهل يسعدني هذا الوضع! ما تحدثان عنه يسبب لي الكمد والحسرة. كنا دائماً كالأسرة الواحدة، متحابين، متضامنين، لا يدخل بيننا غريب. حتى اختاروا هذا النقيب، الذي لا يملك من المؤهلات إلا أدناها. لم نقل شيئاً. اختاروه نقيباً، ليكون قلنا خير وبركة. ولكن هو الذي بادر بالعداوة، وتناول على مقامي.

إبراهيم : إنما نتحدث إليك، لأنك الماعون الكبير. والماعون الكبير يجب أن يسع الصغير.

المفتي : بذلت جهدي، وما أزال. تغاضيت عن الكثير من مضايقاته. وسكت عن خفته، وتجاوزاته. لم يدع سبيلاً للوفاق إلا وسده. ولو شئت أن أتحدث عما بذلت من جهد، لما كفاني

النهار بطوله. ومع هذا قولاً لي، ماذا أفعل؟ إن كان لدى أي واحد من الأشراف والأعيان حلٌّ لهذا الخلاف، فإني سأتعاون، وأستجيب.

حميد : بارك الله فيك يا شيخ. هذا ظننا فيك، ومثلك لا يخيّب الظن.

المفتي : أستغفر الله.. إن مصلحة البلد أعلى علي من نفسي.
(يدخل زلة المفتي. عدو الدكّاك ووراءه يتدافع رجلان من العامة، هما العفصة وعباس السروجي. يحاول عدو الكلام لكنهما يسبقانه).

العفصة : البشارة لك يا مفتينا، والحلاوة لنا.

عباس : رأيت دمشق اليوم ما لا يخطر على البال ولو في الخيال.

العفصة : رأينا عدوك مقيداً وعارياً إلا من الملابس التحتية. وقبحته تضع على رأسها عمامة النقيب، وترتدي ثيابه.

المفتي : ماذا تخزفان؟

العفصة : نقول لك ما رأينا. أركبهما عزت ييك على بغلة، وساقهما في الحواري والأزقة، والناس تتفرج.

عباس : عجبت الناس وحوقلت، وانهال على عدوك الصغير والبصاق واللعنات.

العفصة : وهما الآن في السجن يتابعان الوصال، والذي منه..

المفتي : (غاضباً) اخرس.. قطع الله لسانك ولسانه.

العفصة : أهذه بشارتنا! ألا يسعدك أن يقع عدوك هذه الوقعة! قامت دمشق، ولم تقعد. وما سمعته منا سيخبرك به الكثيرون.

ولكننا أسرعنا كي نفرح قلبك، ونحصل على الحلاوة.

المفتي : (ينظر إلى عدو بغضب) كيف سمحت لهما؟ كيف دخلا؟

عدو : جاءا راكضين، وقالاً إنهما يحملان لك خبراً عاجلاً وساراً.

المفتي : أهذا خبر سار! أيسرّكم أن تهين مرتزقة الدرك أشرافكم! أن

يُمَرِّغُ الأسياد والأكابر في الوحل! وكيف يتجرأ الواحد منكم على تناول نقيب الأشراف بهذه اللغة البذيئة، والخالية من كل توقير!

: يا سيدي.. هذا ما رأيناه.

: وكنا نظن أنك ستفرح حين تعرف الوكسة التي حُلَّت بعدوك.

: ليس نقيب الأشراف بالعدو. ربما كانت هناك خلافات في الاجتهاد والرأي، ولكن هذه الخلافات ليست عداوة. إن عدونا الآن، عدوي وعدو الأشراف وعدوكم أيضاً، هم هؤلاء الذين يحاولون الخط من كباركم، وإهانة أشرافكم. إنهم يريدون أن ينكسوا رؤوسنا جميعاً، وأن يجعلوا الصغار يتناولون على الكبار، والأوغاد على الأشراف. فهل يرضيكم ذلك؟

: ما ذنبنا إذا كان النقيب هو الذي أرخص نفسه! : اخرس.. ولا أريد أن يلغو أحد بهذه القصة. اذهب، وأخبرنا عن لساني. لا أريد لغطاً في المدينة. وكل من يلغو بسيرة النقيب، سيكون حسابه معي.

: إذن، لاحلاوة يا شيخنا!

: (إلى عبده) أخرجهما فوراً. والويل لمن يخوض في هذه القصة.

(يدفع عبده الرجلين بفضاظة، ويخرجان).

: (متدفعاً) دعني أتبرك فيك. (يتناول يده، ويقبلها).

: أستغفر الله.. أستغفر الله.

: في مثل هذه المواقف، تعرف معادن الرجال. ما بدر منك أمامنا، زادك علواً وسمواً.

: كل امرئ يعمل بأصله، ولا أدري الآن، بعدما سمعنا ما

عباس

العفصة

المفتي

العفصة

المفتي

العفصة

المفتي

حميد

المفتي

حميد

المفتي

حدث، إن كنتما تجدان في جفائي للنقيب تجنياً أو تنافساً.
هل يحقُّ لنقيب الأشراف أن يتصرف بمقامه ومنصبه بمثل
هذا الطيش الأرعن!

: لا والله.. إذا صَحَّ ما سمعناه، فإن هذا السلوك يشين الرِّعْزَ،
والعوام من الناس.

إبراهيم

: وما يفعله واحد في مقامه، لا يسيء إلى نفسه فقط، بل
يسيء إلى المقام ذاته وإلى كل المقامات. إنه يسيء إلينا
جميعاً. ولا أعرف كيف يمكن أن يوقر الناس بعد اليوم نقابة
الأشراف، أو سواها من المناصب. إنه يضيّع هيبتنا، ويجعلنا
مضغة في أفواه الرعاع والسوقة.

المفتي

: وماذا تقترح يا مفتينا؟

حميد

: وماذا أقترح..! هو يخرأ، وعلينا نحن أن نمنح خراءه.
لا ينبغي أن تفروح هذه الرائحة بين العامة في المدينة. اذهب
الآن، واطلبا من الأشراف أن يوافوني في بيتي هذا المساء.
عليهم أن يوتحدوا كلمتهم معي، وأن يساعدوني كي نجد
تديراً، ينقذ شرفهم، بل وشرفنا جميعاً.

المفتي

: بارك الله فيك يا شيخ.. سنتقضى الأمر، ونذهب إليهم
حالاً.

حميد

: لن ينسوا لك هذه البادرة أبداً.

إبراهيم

: المهم أن تصفو القلوب، وأن يهدينا الله إلى تدير مفيد.

المفتي

(يحيي حميد وإبراهيم الشيخ، ويخرجان).

: هذا فصل الختام يا عبد الله. وأعدك أن يكون فصلاً داوياً
ومثيراً.

المفتي

(يدخل عبدو).

: لقد قسوت على عباس والعفصة يا سيدي.

عبدو

: ماذا كان بوسعي أن أفعل! أن أفسو عليهما خير من أن يقال،

المفتي

- أبدى المفتي ارتياحاً وشماتة.
- عبدہ : على كل، حاولت أن أطيب خاطرهما.
- المفتي : حسناً فعلت. ولكن نبّه عليهما وعلى جميع الرجال من أنصارنا ألا يتجاوزوا الحدود، وألا ينسوا أن للمراكز حرمتها. إياهم أن يظنوا أن الفرصة سانحة، كي يتخطوا المراتب، ويلطخوا بيضاءاتهم الأشراف والأكابر.
- عبدو : والله.. هذا ما قلته لعباس والعفصة، وبعدهما جاء كثيرون، يريدون أن يزقوا لك البشري، فنهرتهم، ولم أسمح لهم بالدخول.
- (يسمع طرق على الباب).
- المفتي : انظر من في الباب.
- (يخرج عبدو مسرعاً، ثم يعود وهو يرحب بعزت ييك).
- عزت : السلام عليكم يا شيخ.
- المفتي : أهلاً وسهلاً. شرفت يا عزت ييك.
- عزت : أخيراً.. أوقعته لك كالطريدة المبعوثة.
- المفتي : هل أوقعته لي يا عزت ييك!
- عزت : لي ولك إذا شئت.
- المفتي : لا.. لا تدرجني في هذه القصة. وصيدك اليوم سيثير من المتاعب أكثر مما يحل.
- عزت : ماذا!.. هل تنفض يدك!..!
- المفتي : وما دخل يدي، حتى أنفضها!
- عزت : من أبلغنا عن السيران إذن!.
- المفتي : وما أدراني!
- عزت : إنه واحد من رجالك.
- المفتي : من رجالي!.. أعتقد أنك مخطئ يا عزت ييك.
- عزت : ومن يكون العفصة إذن!..!

- المفتي : العفصة. ! إنك تظلم رجالي إن اعتبرته واحداً منهم. منذ قليل، جاء ييثرني بفضيحة النقيب، فطرده من بيتي. إن العفصة ضيع مقابر يعتاش من الوشايات والفتن والنماث، ولا يمكن أن أضم واحداً مثله إلى رجالي وأعواني.
- عزت : دعني أفهم يا مفتينا. هل تريد أن تنتصل من الأمر! هل انتهت العداوة بينك وبين النقيب!
- المفتي : كنت أحسبك أكثر حصافة يا عزت بك. أتعرف ماذا فعلت...! لقد رميت الطفل مع ماء الغسيل.
- عزت : ورأس أمي.. لا أعرف ماذا تعني!
- المفتي : أعني أنك غالبيت، وتجاوزت في الصيد حدود المعقول. كان يكفي أن يشعر بالخزي أمامك. أما أن تخزيه أمام عامة الناس، وتحرق نقابة الأشراف، فهذا غلوٌ واستهتار.
- عزت : يا للعجب!. بدلاً من الشكر، أراك تنقلب علي. ما الذي تغير حتى تدافع عنه!
- المفتي : لم أنقلب عليك، ولانظن أنني أدافع عنه. المسألة هي أن النظام في هذه المدينة يرتكز على مراتب وتوازنات. وما يضبط كل شيء هو عدد من المناصب التي ينبغي أن تحفظ حرمتها، وتُصان هيبتها. كما أن هيئة الدولة واحدة ومتضافرة، فكذلك الحال في مدينة الشام. اسمع.. لو أهان أحد منصب الوالي، ألا تصيب الإهانة الصدر الأعظم والباب العالي وكل الدولة!
- عزت : لا أفهم شيئاً مما تقول، ولا أعرف كيف يمكن أن تصيبك إهانة، لحقت بعدوك اللدود.
- المفتي : نعم.. إن الرجل عدوي، ولكن نقابة الأشراف مرتبة تسند مرتبتي، وهيبتها تعزز هييتي. حين وضعت العمامة الخضراء على رأس قحبة، أهنت الأشراف، وأهنت عمامتي أيضاً.

- ومن يعامل نقيب الأشراف بهذا الاستخفاف، قد يعامل المفتي لدى أول خلاف بالاستخفاف ذاته.
- عزت : ألقمني أورادك بالملقعة يا حضرة المفتي. ماذا تريد أن تقول؟
- المفتي : أردت أن أشرح لك أن الموقف معقد. سامحك الله.. لو شاورتني في الأمر!
- عزت : ظننت أنك تعلم، وأن الأمر لا يحتاج إلى تشاور. ما الذي لا يعجبك؟
- المفتي : إن إفراطك في الإهانة نغص علينا الفرحه. ماذا نفعل إذا غضب الأشراف، وأثاروا هياج العامة.
- عزت : ولماذا يغضب الأشراف! هل رميته بتهمة باطله! ألم أقبض عليه متلبساً بالفسق والسكر والعريضة!
- المفتي : الفسق والسكر والعريضة، وأنت سيد العارفين، ليست أموراً نادرة في مدينتنا. والسلطات تعودت أن تغض الطرف، إلا في حالات الأذى العام، أو حين يكون في رأسها موال.
- عزت : وضّح لي، وأفدني. هل نحن حليفان أم لا؟
- المفتي : نحن حليفان.. بالتأكيد نحن حليفان.
- عزت : علام إذن هذا اللوم، والتقريع! كنت أتوقع أن تحتفي بي، وأن نحتفل معاً.
- المفتي : تعبري عن الحفاوة سيسبقك إلى البيت. والاحتفال سيكون له وقته، ولكن أرجو أن تفهمني.. إذا تعقد الموقف، قد أجبر على التظاهر والمسايرة.
- عزت : أتقف معهم ضدي!
- المفتي : وهل يعقل أن أقف ضدك! لا.. لن ينالك مني إلا كل خير. وإذا اضطررت لاتخاذ بعض الخطوات، فلا تقلق. أنا أدري بأهل الشام منك، فدعني أصرف الأمور إذا تعقدت.
- عزت : أنا الحكومة يا حضرة المفتي، والقرار في النهاية لي.

- المفتي : أعرف.. أعرف.. ولكن هل تحتاج الحكومة الآن إلى شغب،
ووجع رأس؟ قلت لك، اطمئن.. ودعني أصرف الأمور.
- عزت : ليكن.. ولكن أرجو أن تراعي ما بيننا. ولا أعتقد أنه سيكون
مفيداً، أن يدبّ بيننا الخلاف.
- المفتي : معاذ الله أن يكون بيننا خلاف.
- المفتي : هذا أمني.. سأعود الآن إلى المخفر، وأتابع ما يجري.
- المفتي : الهدية تسبقك إلى البيت، والاحتفال سيأتي وقته.
- عزت : وقرّ على نفسك يا شيخ. ما جئت كي أتقاضى الثمن.
- المفتي : يا عيب الشوم.. بين الأصدقاء لا يحكى عن الثمن.
- عزت : (وهو يخرج) سنرى..
- المفتي : لم أبدد شكوكه، ولكن ماذا أفعل..! يا عبدو.. يا عبدو..
(يدخل عبدو مهرولاً).
- عبدو : حاضر.
- المفتي : اسمع يا عبدو.. سأكلفك بمهمة دقيقة. هل استرضيت
العفصة وعباس كما يجب؟
- عبدو : نعم.. حاولت وسعي.
- المفتي : طيب.. تذهب الآن إلى مدير السجن، وتقول له، حين يهبط
الليل، وتعتّم العين، سنبدّل المرأة المسجونة مع نقيب الأشراف.
وقل له، إذا عارض أو تردد، اعتبر نفسك بين الأموات.
- عبدو : لن يجرؤ على الإعتراض.
- المفتي : لو مانع، سيهدر دمه، ويضيع. وأوصيك بالكتمان. يجب أن
يظل السر مصوناً بيننا.
- عبدو : لا توص حريصاً.
- المفتي : اذهب إذن، وعد سريعاً بالجواب.
- عبدو : (يخرج عبدو، وتلاشى الإضاءة).

المشهد الثالث

(في مرجة منزوية على ضفة بردى. مفرش على العشب.
العفصة وعباس يشربان، وبينهما بعض الأطعمة).

العفصة

: هذا المفتي غميق.. يا لطيف.. إنه غميق جداً.
(يتناول عباس كأسه، ويحتسي جرعة كبيرة مشيحاً بوجهه،
يبدو عليه الحزد والانزعاج).

العفصة

: أي أخي أبا الفهد.. لاتكن غضوباً.
: إني غاضب. لا أستطيع أن أنسى الطاسة الباردة التي سكبها
على رأسي.

العفصة

: سكب علينا ماءً بارداً من جهة، وغمز عبدو من جهة ثانية.
لولا أن المفتي أمره، لما تجرأ عبدو على ملاطفتنا، وتطيب
خواترنا. كم توسل إلينا، كي نزرعها بذقنه! وكم أكد لنا،
أن المفتي محكوم بظرفه! كانت محضورة يا أبا الفهد، وكان
مجبوراً على التظاهر بالغضب. إن مفتينا غميق جداً.
ومظهره لا يكشف مخبره. إن الخبير ما قاله عبدو، لا ما قاله
المفتي.

عباس

: اسمع.. سئمت هذه السيرة. أنا رجل صريح، ولا أعرف
التعامل مع الخبير والمظهر.

العفصة

: وما العمل! نحن رجاله، وعلينا أن نسلّم أمورنا له.

عباس

: أنا.. لا أسلّم أمري إلا لهذا الدبوس، وهذا الخنجر.

- العفصة** : ما لنا يا أبا الفهد.. بدأنا نغلط. أنت الوحيد الذي يحمل دبوساً وخنجرأ؟
- عباس** : لم أقل ذلك.
- العفصة** : الرجال، لا يغيّرون ولاءهم كل يوم. ونحن، شئنا أم أئينا، محسوبون على المفتي.
- عباس** : إن الإهانة تقف في زوري.
- العفصة** : طيب.. كاسك. (يرفع كأسه، ويدقها بكأس عباس) سأقول لك مثل عبدو؛ لَقها وازرعها بذقني.
- عباس** : لا أدري.. أحياناً أتساءل، ما لنا وهذا كله!
- العفصة** : إنك صافٍ يا أبا الفهد، وبسيط أيضاً. أليس عيشنا من هذا كله! إن القبضاي مثلنا، يلزم أن يكون له مع الشجاعة ظهر ووجاهة. والذي يوفّر الظهر والوجاهة، هو رجل كبير مثل المفتي، تنصره وتقضي حاجاته، فيقاسمك شيئاً من نفوذه وماله. (يرفع كأسه) اشرب أخي أبا الفهد.. اشرب.
- عباس** : (وهو يرفع كأسه) أخي.. هذا طبعي. أحب أن يكون كل شيء مستقيماً. إن نفسي تعاف اللف والدوران، أو التلبسة.
- العفصة** : لاتؤاخذهني يا أبا الفهد. أنت أكبر مني، ولكن يبدو أن الحياة عركتني أكثر منك. شغل الكبار، كله لفّ ودوران. والمفتي يقتل البلد على أصابعه، بالسياسة والتلبسة. وهذا فن، مثل فن الكراكوزاتي، لا يحسنه إلا أهل الكار، والأبرع هو الذي يكسب. كيف سقط النقيب هذه السقطة! لم يسقط إلا بالتدبير، والتلبسة.
- عباس** : فضّ هذه السيرة، ودعنا نشرب. أريد أن أعبئ مخي.
- العفصة** : (وهو يصبّ في الكأسين) هذا هو الكلام.
- عباس** : (وهو يرفع كأسه) نخب الطرخون!
- العفصة** : (ضاحكاً) ولماذا الطرخون!

- عباس : خائن يا طرخون. ترزعه في مكان، وينبت في مكان آخر.
قلت نخب الطرخون، وستشرب نخب الطرخون.
- العفصة : (يرفع كأسه) نخب الطرخون يا أبا الفهد.
عباس : نخب الطرخون.
(يكرعان كأسيهما).
- العفصة : يخاطر بيالي أن اليوم مناسب، كي نذلّ أبا رياح.
عباس : هل تريد أن تذله؟
- العفصة : نعم.. واليوم، ستكون شوكته مكسورة، بعد تجريس النقيب
وسجنه.
- عباس : منازل الجريح خطيرة.
العفصة : ونحن لها.
- (يظهر سمس وهو يجتاز البستان وراءهم. وسمسم شاب
مختث، يمشي مشية خليعة).
- عباس : انظر من يأتي.
العفصة : (يراه، فتغير ملامحه بحدة) لا تدعه يقترب من مجلسنا.
- عباس : دعنا نتسلّى قليلاً. ما وراك يا سوس؟ هل ضيّعت الحبيب!
سمسم : (ملفتاً، بعد تردد قصير) كيف أضيّع الحبيب، وهو يكلمني.
- عباس : ومن الحبيب! تعال.. اقرب.
- العفصة : لا.. لا يصح. هذا نجاسة. إنك تدنّس مجلسنا يا أبا الفهد.
عباس : ما بالك! من يسمعك يظن أن مجلسنا في صحن الكعبة.
أحب أن أناغشه قليلاً.
- سمسم : (متردداً) هل دعوتني فعلاً!
عباس : تعال.. هل أنت خائف!
- سمسم : (وهو يقترب) خائف..! فرطت أحشائي من الفرح.
(يتخذ العفصة هيئة حردة، ويميل في جلسته عنهما).
- عباس : خذ.. اشرب حليب السباع.
سمسم : أنا قتيل هذه الشوارب. بغيتي حلييك دون كل السباع.

- عباس : يبدو أنها هائجة عليك.
- سمسم : أخ يا أبا الفهد.. ولا يشفيها إلا ضربة من خنجرِكَ. أتذكر تلك المرة اليتيمة! والله.. كأنك سللت روحي من بدني.
- عباس : لا يا سوس.. الأصول، أن تراعي الحاضرين، وتوزع المحبة عليهم بالعدل.
- سمسم : اتركها مستورة يا أبا الفهد.
- العفصة : (غاضباً) امش من هنا. لا أريدك في حضرتي.
- سمسم : أنا في حماك يا أبا الفهد.
- العفصة : (يسحب خنجره) قلت امش وإلا جعلت جسمك غربالاً.
- سمسم : (يتراجع خلف أبي الفهد مدعوراً) ولماذا تتبّلاني! هل تكلمت أو كشفت سرّاً!
- العفصة : (وهو يهب متفضّلاً) إي.. سأكشف أمعاءك، يا قحبة المقابر.
- عباس : (ينهض بدوره ملوّحاً بالدبوس) ما القصة! ماذا أصابك يا عفصة!
- العفصة : سأبعج بطنه.
- عباس : (محتداً) لن تبعج شيئاً. هو في حمايتي. العمى.. طيّرت الكأسين من رأسي. ما الحكاية؟
- العفصة : لا أطيع وجوده.
- سمسم : (يكيد نسائي) هو لا يطيق وجودي، لأنني أعرف بعض الأشياء..
- عباس : وأنت يا ابن اللوطية.. ما معنى هذا الغمز واللمز!
- سمسم : هل تحميني؟
- (يقفز العفصة، ويحاول أن يطعنه، فيتصدى له عباس، ويلوي ذراعه).
- العفصة : لا يا أبا الفهد.. أتبيعنني من أجل هذا العلق!
- عباس : إي.. زدتها.. اهدأ، واجلس. وأنت أيها العرصة.. ماذا تريد

- أن تقول؟
- سمسم : أنا دخيل شهامتك.
- عباس : تكلم.
- سمسم : خيرناه، فلم نجد لديه إلا مثل الرز، أو فتلة القماش. وعرفنا أن ما فينا فيه، وما يحكنا يحكه.
- عباس : (وهو يكتم الضحك) الآن.. امش، ولا تلتفت ورائك. وإن كررت ما قلت، هلكت.
- سمسم : (محاولاً أن يختلس قبلة من أبي الفهد) دعني أتزود بقبلة من حبيبي.
- عباس : (وهو يدفعه بصرامة) امش.
- (يخرج سمسم، يجلس عباس، العفصة يطأطي رأسه، وينظر في الأرض، يرين صمت ثقيل).
- عباس : (وهو يحتسي كأسه بهدوء) اشرب يا عفصة.. اشرب.
- العفصة : (بلهجة ذليلة وعاتبة) لو تركتني أسفح دمه!
- عباس : وما الفائدة! تلوث يدك، ولا تغتير من الأمر شيئاً.
- العفصة : (منكسراً) هل سقطت من عينك؟.
- عباس : وحياة الفهد وأبيه كانت لدي ظنون. لا.. أنت الآن حبوتي، وسأضعك في عيني. اشرب..
- العفصة : (يحتسي جرعة وافرة) هذه الملائظ تجرحني..
- عباس : انكشفت علي مثل حلالتي. ولا داعي للتظاهر بالحياء.
- العفصة : (وهو يمسك يد عباس، ويقبلها) أبوس يدك.. استر.
- عباس : (وهو يضع يده على رقبته) باطل.. وهل يفضح المرء حلاله!
- العفصة : (وهو يمرغ وجهه بيد عباس) هل تعدني أن يظل كل شيء، كما هو في الظاهر؟
- عباس : (وهو يداعبه) إذن سيكون لنا، مخبر ومظهر!
- العفصة : ككل الناس يا عباس.. ككل الناس.

- عباس : إذا كنت طيعاً ومرضياً، فسأكون خيمة تغطيك، وتحميك.
 العفصة : سأكون كما تشاء. آخ.. كم تعذبت وشقيت، كي أخفي
 هذا الأمر! كان كالدمل يسممني في داخلي.
 عباس : الآن.. انفقاً الدمل.. ويمكنك أن تستريح.
 العفصة : نعم.. سأستريح. (يدفن رأسه في حضن عباس) انصب
 خيمتك فوقى.. وسأستريح.
 عباس : (وهو ينحني عليه) ها هي خيمتي! ستكون كما أنت.. ولن
 تشقى بعد اليوم.
 (تتلاشى الإضاءة).

المشهد الرابع

(إيوان الاستقبال في بيت نقيب الأشراف. يجلس المفتي وحيداً في الإيوان، ويتشاغل بفحص المكان. بعد قليل، تدخل مؤمنة، زوجة نقيب الأشراف. امرأة، فارعة القوام، تلتمع في وجهها عينان وهاجتان. ثيابها محتشمة).

- مؤمنة : أهلاً وسهلاً يا شيخ.
- المفتي : (وهو يغرس في وجهها) كانت الحشمة تقتضي أن أرسل الحريم، ولكن المسألة حساسة، ولا أستطيع أن أعهد بها إلى خفة الحريم.
- مؤمنة : كثر الله خيرك. هل جئت كي تصفني بالخفة!
- المفتي : (مرتباكاً) لا.. عنيت حريمي.
- مؤمنة : ألا يسموننا جميعاً، الحريم! ولكن لا يهم. لم تشرفنا بالزيارة، كي نتبادل الحديث عن الحريم.
- المفتي : هذا حق. أنت تعلمين..
- مؤمنة : نعم أعلم.. ولا ألومك، ولو شعرت بالشماتة.
- المفتي : لم أتحامل على نفسي، وأطلب هذه الزيارة كي أتشفى أو أشمت.
- مؤمنة : هذا كرم منك. هل يحق لي أن أسألك عن غرض الزيارة إذن؟
- المفتي : جئت كي أنقذ رجلك من ورطته.

- مؤمنة : أنت...! تنقذه...!
- المفتي : نعم.. أنا.
- مؤمنة : وماذا يدفعك؟ ألم تكن تمنى دائماً إزاحته، والتخلص منه؟
- المفتي : واليوم.. أريد أن أنقذه. سَمَّها ما تشائين. إن مروءتي تملي علي أن أمدُّ له يدي. هل ماتت النخوة! أينبغي أن نرمي كل بادرة طيبة بالظنون والريب! جئت ماداً يدي، فلا تجحدني.
- مؤمنة : لا أريد أن أجحدك يا شيخ. ويجب ألا تستغرب إذا فاجأتني غيرتك، وساروتني بعض الشكوك. فنحن نعرف ما جرى، وما يجري بينك وبين نقيب الأشراف.
- المفتي : دعينا ننسى ما جرى. ولنتعاون على حل هذه الورطة.
- مؤمنة : ماذا تقترح؟
- المفتي : هل أخبروك القصة، وتفاصيلها؟
- مؤمنة : أخبروني كل شيء.
- المفتي : إذن.. اصغي إلي.. عليك أن تتروّقي قليلاً، وأن تنهيأي للخروج عندما يهبط الليل.
- مؤمنة : وإلى أين تريدني أن أخرج!
- المفتي : (متلفتاً حوله) أمتأكدة أن أحداً لا يسمعنا؟
- مؤمنة : لا.. كن مطمئناً.
- المفتي : لقد دبّرت السجان، وكل شيء جاهز. حين يهبط الليل، سنأخذك إلى السجن، ونستبدلك بالغانية التي أمسكوها معه.
- مؤمنة : والله إنه تدبير لطيف يا مفتينا. هذه فكرة لاتخطر إلا للدهاة من الرجال.
- المفتي : ونجاحها مؤكد. ستتقلب الورطة على قائد الدرك، حين يعلم الوالي والناس، أنه قبض على النقيب وزوجته.
- مؤمنة : وهل الفرق بين الزوجة والغانية طفيف إلى هذا الحد!

- المفتي : المهم أن يُشكل عليهم الأمر، وأن نباغتهم بوجودك في السجن.
- مؤمنة : وسأكون أنا التي جرّسوها، ووضعوا على رأسها عمامة النقيب!
- المفتي : وحينئذ، سيلعنون أنفسهم، وتقلب عليهم الورطة.
- مؤمنة : (عيناها شاردتان) وسأكون تلك التي قبضوا عليها، وهي شبه عارية.. تلك التي كانت تتأود على الإيقاع الذي يضبطه نقيب الأشراف!
- المفتي : سيهمل الناس هذا كله، حين يعلمون أن التي فعلت، هي الزوجة.
- مؤمنة : والزوجة كانت سجينة البيت، تقرأ حكاية من ألف ليلة وليلة، وتسرح مع غمام الريح. هل قرأت ألف ليلة وليلة يا شيخ؟
- المفتي : ما هذه بالكتب التي يحتاجها الرجل العالم.
- مؤمنة : سنُطْرِي قراءتها علمك الجاف.
- المفتي : أترين أن علم الدين جاف يا مؤمنة..!
- مؤمنة : لا أدري.. أحياناً أظن أنه جاف. ألا تظن أنه جاف؟
- المفتي : وما أدراك بعلم الدين، حتى تتحدثني عن جفافه!
- مؤمنة : هل أدهشك إذا علمت أنني قرأت مكتبة أبي، ومكتبة نقيب الأشراف أيضاً؟
- المفتي : (مأخوذاً) أعترف أنك تدهشينني.
- مؤمنة : ومع الأيام، سأدهشك أكثر. ولكن لنعد إلى الموضوع. تريدني إذن أن ألعب في هذه القصة دور الغانية!
- المفتي : حاشاك.. سنطرد الغانية كي تغدو الرقعة مع الزوجة.
- مؤمنة : الزوجة - الغانية، والغانية - الزوجة. هذا تلاعب لطيف.. وخطير أيضاً. لا يا شيخ.. إنك تدفعني في طريق وعر، لا

المفتي

أدري أين يقضي بي.
: (متحيراً) وما الوعر في الأمر! ستحلين مع زوجك بعض الوقت. وحين يتأكدون من هويتك، تخرجان، وينتهي المأزق.

مؤمنة

: ينتهي مأزق النقيب، ويبدأ مأزقي أنا.

المفتي

: إني لا أفهم.. ألا تريدان أن تخلصي زوجك من ورطته!

مؤمنة

: ولماذا ينبغي أن أخلصه! لكي أصونه للغواني! وهذا أمر، في الحقيقة، لا يشغلني، بل ويمكن أن أتغاضى عنه. هناك ما هو

أخطر. ما تطلبه مني، هو مقامرة مخيفة. هو سير على حافة

الهاوية، والغواية. ماذا تشعر حين تقف على حافة هاوية؟

المفتي

: أحاول أن أكون حذراً.

مؤمنة

: هذا جواب الرجل المتزن والمستقر. أما بالنسبة لي، فإن الهاوية

تهزني من جذوري. يرعيني السقوط، ويغويني في الوقت

نفسه. وبين الرغبة والرعب، أهتز اهتزاز الشجر في اليوم

العاصف. هل تصدق!! معظم أحلامي، هي هذا المزيج من

الرعب واللذة. ولكن لماذا أحكي لك هذا كله! أعتقد أنني لا

أستطيع أن أساعد زوجي أو أساعدك يا شيخ.

المفتي

: أملك غريب يا مؤمنة..! لم أتخيل أنني سأتوسل إليك، كي

تقدمي خدمة زهيدة، تنقذ زوجك من ورطة كبيرة.

مؤمنة

: أفهم عجبك يا شيخ، فأنت لم يخطر ببالك، أنني حية، وأن

لي أهواء وأفكاراً. كان يشغلك النقيب، والأثر الطيب الذي

ستخلّفه بادرته. لا أعتقد أنك فكرت بي إلا كأداة طيعة،

أو شيء من أشياء النقيب.

المفتي

: يجب أن تكوني طيعة، وأنت في النهاية، ملك النقيب.

مؤمنة

: رأيت! هذا ما تفكر فيه. ما أنا إلا أمة، أو ملك من أملاك

الرجل الذي تعاديه. وأنت لديك خطة، وتريد أن تظهر

مروءتك، وتجد سيدي. فكيف لا أفرح، وكيف لا أطيعك
في كل ما تدبره!

: نعم. إن رفضك يثير عجبني وحيرتي يا مؤمنة.
: إني أرفض، لأنني أقاوم الدخول في فتنة الغواية. لو قبلت،
فسأنزلق إلى موقع الهشاشة. هشاشتي وهشاشة أوضاعنا.
سأكون على طرف الهاوية. وأخشى هذه المرة، أن يجذبني
نداء الهاوية بلا مقاومة.

: أعترف لك، أنني لا أفهم مخاوفك، ولا أرى في ذهابك إلى
السجن، ساعة من الزمان، كل هذه الأخطار المهولة التي
تحدثين عنها.

: هل اتفق لك، أن تنظر في دخيلتك يا شيخ؟
: الحمد لله.. ليس في دخيلة نفسي ما أخشاه، أو ما أخجل
من إعلانه على الملأ. الحمد لله الذي جعل التقوى باطني
وظاهري، وروّض لي النفس الأمانة بالسوء على الطاعة
والرضى.

: سعيد أنت يا شيخ. ومن يترأى له، أنه يعرف نفسه لا بد أن
يكون سعيداً. إني أغبطك على ثقتك وبقينك.

: إن اليقين ضروري لمثلي. ولا أعتقد أن الوقت مناسب
للحديث عن النفس وأهوائها. علينا أمر، ينبغي أن ننجزه. أنا
أفهم انزعاجك. ومن الطبيعي أن تشعرني بالمهانة، وأن تحاولي
التعبير عن استيائك. ولكن هذا شأن بينك وبين ابن عمك،
يمكن أن تواجهيه فيما بعد.

: أهذا ما فهمته من كلامي..!

: وماذا تريد أن أفهم! إن المسألة أكبر من غيرتك،
وتوجساتك. وذهابك إلى السجن، أمر تقرّر ولا يمكن أن
تجادلي فيه.

المفتي
مؤمنة

المفتي

مؤمنة
المفتي

مؤمنة

المفتي

مؤمنة
المفتي

- مؤمنة : ومن قرره؟
المفتي : نحن قررناه. أنا وأشراف المدينة. وإن سمعنا جميعاً مرهونة الآن، بنجاح هذه الخطوة. إنك امرأة متكلمة، وشخصيتك تشير التقدير. ولكننا في موقف حرج، لايسمح بألعاب الدلال، وتوهمات الخطر.
- مؤمنة : أنا أتدلل! إنك لاتفهم شيئاً يا شيخ. وأقول لك للمرة الأخيرة. أنت تدفعني إلى منزلق خطير.
- المفتي : لا يوجد هذا المنزلق الخطير إلا في أوهامك.
مؤمنة : أهذا رأيك يا شيخ..! ليكن.. إذن، أنت والأشراف قررتم أن أتزوّق مثل غانية، وأن أحلّ في السجن، غانية بدلاً عن الغانية. طبعاً.. أنا أعرف مغزى مروءتك، وغاية الإحسان الذي تسخو به. ما تريده، ليس إنقاذ النقيب، وإنما إذلاله بالجميل، وتطويق عنقه بمئة لا يستطيع الفكك منها. إنك تريد أن تتحكم به، وتطرّحه تحت رحمتك.
- المفتي : هل عدنا إلى سوء الظن..!
مؤمنة : دعني أتمّ كلامي. ليس قصدي التعريض، ولا أبالي كيف تصير العلاقة بينكما. أنا موقنة الآن أنك فزت، وأن تدبيرك إذا نجح سيجعل رسن النقيب يبدك. ولكن من الواضح لي ولك، أن التدبير لا ينجح إلا إذا وافقت.. ومادامت حياتكم كلها مبنية على المساومات، فإني سأساوم بدوري قبل أن أوافق.
- المفتي : وعلام تساومين! إنك تنسين دائماً أنني أنقذ زوجك، وأنقذك أيضاً.
- مؤمنة : هذا ما أريد أن أساوم عليه. سأتزوّق، وأذهب إلى السجن إذا ضمنت لي الطلاق بعد أن تختم هذه الحدوتة على هواك.
- المفتي : (مبغوتاً، وعيناه تبرقان) أتريدين الطلاق..!؟

- مؤمنة : نعم. ولن أذهب إلى السجن إلا إذا ضمنته لي.
- المفتي : وكيف أضمنه..! هذا أمر لا يتعلق بي. وربما يفوق طاقتي.
- مؤمنة : حين يخرج، سيكون أطوع لك من بنائك. لن يستطيع أن يرد لك طلباً. وعلى كل، هذه هي رغبتني.
- المفتي : لماذا لا تؤجلين الموضوع؟ هذه ساعة غضب. ولا تحمد القرارات في ساعة الغضب.
- مؤمنة : لا.. لست غاضبة. وهذا شرطي النهائي، إذا أردت موافقتي.
- المفتي : إنك عجيبة يا امرأة.. حقاً إنك عجيبة!
- مؤمنة : هل قبلت؟
- المفتي : سأفعل ما أستطيع.
- مؤمنة : لا.. قل لي سأم، وسأنقذ.
- المفتي : هذا غريب.. تزوّقي، وحين تظلم الدنيا سيأتي رجل كي يرافقك.
- مؤمنة : والغاية.. ستكون جاهزة.
- المفتي : (وهو يخرج) ما أعجب هذه المرأة! حقاً، ما أعجبها!
- مؤمنة : والآن يا مؤمنة.. هل نلبي نداء الهاوية، ونبدّل كل شيء؟ في ظهري قشعريرة باردة. هل أجلس أمام المرأة، وأبدأ الزواق..؟
- مؤمنة : في ظهري قشعريرة باردة. هل أرمي اسمي، وأكسر أول قيد كبتني منذ مولدي..؟ في ظهري قشعريرة باردة..
- (تلاشى الإضاءة).

المشهد الخامس

(ززانة في السجن. يجلس عبد الله مُربد الوجه، ومتجمعاً على نفسه. تبدو وردة ضجرة ونافدة الصبر. هبط الليل، والقنديل العتيق المتسخ لا يكاد يزيح الظلمة. في أرضية الغرفة طبق عليه بعض الأطعمة).

وردة

: هل يمكن أن نقضي الليل هنا! لم يأت أحد. هل تخلى الجميع عنك! وانظر ماذا رموا لنا.. أهذا طعام يُقدم لنقيب الأشراف! أرجو أن تكلمني.. لا أستطيع أن أتحمل الصمت في هذا المكان. ماذا أصابك؟! لم تنظر إلي ولو مرة واحدة. تلففت على نفسك، وانعقد لسانك. أتعدّني مذبنة! وما ذنبي! ألم أطلب إليهم أن يعاقبوني بدلاً منك! لو طاوعتني، لما نجحت هذه المكيدة. كم مرة توصلت إليك أن تسجلني على ذمتك! ووعدت ثم ماطلت على عادة الرجال. لو كنت على ذمتك، لما جرؤ أحد على الاقتراب منا. واليوم، شاع أمرنا. (تقترب منه) عبودتي.. حبيبي..

عبد الله

وردة

: (يلفت غاضباً) لا تلفظيها مرة أخرى.
: كنت تحب أن أناغيك، وأن أدلك. لا يلائمك العبوس يا عبد الله. إنك تفقد جمالك وسحرك. أرجوك كلمني.. قل أي شيء. ليس عدلاً أن تتنكر لي. تقاسمنا الحلو وها نحن نتقاسم المر. فكر فيّ قليلاً. إني وحيدة. غداً يأتي أتباعك،

ويخلصونك. ولكن ماذا عني! هل تتركني لشماتة الناس وأذاهم..! وماذا أفعل إذا أهدر المفتي دمي! لاملجأ لي سواك. جعلتني أنذر نفسي لك.. ولم يبق لي سواك. أرجوك أن تسترني، وتحميني. ستكون شهامة، تكسف وجوه أعدائك. ستكون الرجل الذي يستحق أن تنذر المرأة نفسها له. ألم تقل لي إنك لم تعرف لذة المرأة إلا بعد أن عاشرتني! ألم تكن أوقاتنا فوارة بالحب والنشوة! (تلف كفه، وتداعب وجهه، فيبعدها عنه بحركة فظة) أتبعدني الآن..! لا يحق لك أن تعاملني، وكأني نجاسة. إنني أحاول أن أمسح عنك الحزن. (تمسح على شعره).

عبد الله
وردة

: (يزيح يدها بحركة عنيفة) أوقفني هذا الطنبور، ولا تلمسيني.
: الآن تقول لا تلمسيني! كم جريت، وبذلت كي تنال لمسة مني. الآن لا تلمسيني.. وهذا الصباح، كنت ترقص على أربعة تحت عجيزتي! يا خسة الرجال. (تضرب وجهها بكفها) ولكن لماذا لا تتعلمين أيتها المعتوهة، أنك شرموطة بنت شرموطة. كم مرة اتفقنا ألا نثق بالرجال..! كم مرة توأصينا ألا نصدق وعودهم وأكاذيبهم الدنيئة! منذ ساعات، كان يذوب وَجْدًا، ويرعد غيرة، ويطلب أن أرصد جسدي وحياتي لنزواته وشهواته. منذ ساعات، كانت مؤخرتي تمارق الجنة بالنسبة له. والآن، يتقزز من لمساتي، وكلامي، ووجودي معه. ولماذا أنا هنا يا وردة! أليس بسبب السيد النقيب! والسيد النقيب يعاملني، وكأني العار الذي لحقه. إنك خسيس يا عبد الله.. أقول لك في وجهك، إنك خسيس.

(ينهض عبد الله غاضباً، يرفع يده ليصفعها، ثم يتوقف فجأة، تنكسر نظراته، ثم يتقهقر ويتداعى على الدكة التي يجلس

(عليها).

وردة

: (بدهشة وحزن) لماذا لم تصفني؟ قل شيئاً. اشتمني..
اضربني.. يارب. ماذا جرى لك! لماذا تبدو منكسراً إلى هذا
الحد! إنني معك. وما قلته لا أعنيه. (تبدأ بالبكاء) إنني وحيدة،
وصمتك يضاعف وحدتي. هل أذنبت في شيء؟ ألم يكن
السيران فكرتك! ووجودنا هنا، حادثة عابرة، وغدا تمر.
لا يجوز أن تنكسر عينك من أجل حادثة عابرة. غداً يأتي
أهلك وأصحابك، فيطوون الحادثة، ويعاقبون المكيدة.
وأنا أرهقني الصمت والخوف. تخيلت أن لي خطوة لديك،
وأن هذه التجربة ستوحد مصيرنا. في البداية، فتنتني أن
نسجن معاً، ولم أتصور أن تنحول، وتنقلب علي. قل لي..
ألم تحبني ولو قليلاً؟

عبد الله

وردة

: (هادئاً) إنني أنساك.. إنني أنسى ما سلف من الأيام.
لا يا عبد الله.. لا تستطيع أن تنساني الآن. ماذا أفعل! إنني
خائفة. وحتى لو نجوت. ليس سهلاً أن أستأنف حياتي التي
تركت. وأنت.. أنت بالذات من أجبرني على تركها.

عبد الله

: مضت تلك الحياة التي كنت أعرفك فيها. مضت تلك الحياة
التي كنت أعيشها. وغدي ظلام، لا أرى فيه منفذاً أو
وميضاً.

وردة

: أعرف الرجال يا عبد الله. وأعرف أنهم حين يقررون الهرب،
يستخدمون مجملًا مبهمًا، وألفاظاً ملتوية. كنت أظنك
مختلفاً، ولكنكم لا تختلفون. تعودت أن أتعاش مع الخسة،
والكذب والخفايا المنتنة. لن أنكسر مثلك. وإذا قررت أن
تقطع، وتهرب، فسأجد القوة كي أتجاوز خوفني، وأواصل
عملي. لست أول خيبة، ولن تكون الأخيرة. يا رب.. ما

أبشع هذا الصمت.. ألا تريد أن تعرف كيف بدأت هذا الطريق؟ نعم.. هي حكاية تروى. وماذا علينا! كلانا قال ما لديه. اسمع يا عبودتي.. يا من نسيت كيف كنت تمرغ هيتك وشاراتك وكيانك بين هذين الفخذين. يا من كنت تشهق على سرتي، وتنتف لحيثك من فرط اللذة. اسمع هذه الحكاية.. كان يا ما كان.. كان هناك بنت صغيرة. أحلى من البدر في ليل التمام. وكان أهلها يحتاجون الأكل، لا النظر إلى الجمال. فباعوها إلى أسرة ميسورة. وكان رب هذه الأسرة شيخاً جليلاً، له وزنه عند العامة والخاصة. وسيأتي يوم نكشف اسمه، ونعيّن صفته. كان الشيخ الجليل يلحظني بعنايته. وقبل أن أحيض، كان قد كشف لي الطريق، وسار معي فيه، كان يفسق بي، وهو يعلمني طبقات الفسق ومراتبه. وحين جاءني الحيض..

(صليل معدني مباغت. يُفتح الباب. يدخل عبود ومعه مؤمنة التي اختفت في عباءة سوداء، وتقبّت بحجاب أسود).

: (هامساً) لا تقل شيئاً يا سيد الأشراف. ولا تحدث أي ضجة. (إلى وردة) هيا أيتها المرأة، وتعالى معي.

: من أنت؟ ولماذا أجيء معك؟

: ابلي لسانك، وتعالى معي.

: ولماذا أبلغ لساني؟ أمسكوني مع النقيب، ولا أريد أن أخرج إلا معه.

: امشي معي، وإلا حطمت وجهك.

: على مهلك.. على مهلك.. كسرت يدي. أريد أن أمشي

على ضوء. ومن المحروسة بسلامتها؟

: (وهو يجرها بقسوة) لست فاضياً لطق الحنك.

: انتظر.. انتظر..

عبود

وردة

عبدة

وردة

عبود

وردة

عبود

مؤمنة

- (تخلع مؤمنة ملايتها ونقابها).
- وردة : أيهون عليك يا عبد الله ما يفعله بي!
- مؤمنة : تعالي أيتها المرأة!
- وردة : اسمي وردة يا من تسرقين مطرحي.
- مؤمنة : (برقة) عاش اسمك يا وردة. خذي.. إلبسي الملاية، وضعي النقاب.
- وردة : لا ياست.. أنا أحب السفور.
- مؤمنة : اسمعي يا وردة.. أنا زوجته. وجئت كي أنقذك، وأنقذه.
- وردة : (مبغوثة) زوجته..!
- عبدو : افعلي ما تقوله لك.
- وردة : (مرتبكة) كيف آخذ ملايتك ونقابك. أنا تعودت على السفور، أما أنت..
- مؤمنة : إن الموقف يقتضي أن أكون سافرة. ولعلي سأعود على السفور بعد هذه الليلة. يا الله.. الوقت ضيق. إلبسيها.
- عبدو : إلبسيها، وخلصينا.
- وردة : (وهي ترتدي الملاية، وتتقّب) وكيف أردّها لك؟
- مؤمنة : لاتشغلي بالك. ربما زرتك قريباً.
- وردة : وتزوريني..!
- عبدو : (وهو يجر وردة) يا الله.. امشي.
- (يخرجان بخطى متعجلة وخفية، ثم ينطبق وراءهما الباب، ويرتفع الصليل المعدني).
- مؤمنة : ألا تسأل لماذا جئت!
- عبد الله : أخجل أن أسأل.
- مؤمنة : لا تصرف كطفل كبير. لماذا تُنكس عينيك، وتتحاشى النظر إليّ؟
- عبد الله : هذا اليوم، كسر عيني، وكسر روحي أيضاً. أود لو أغيب،

- فلا أرى أحداً، ولا يراني أحد.
- مؤمنة : هَوْن عليك. ما هي إلا فضيحة صغيرة، ومجيثي سيمحوها من خواطر الناس. غداً، سيكون بوسعك أن تعود عبد الله الذي يختال بين أعوانه وغانياته.
- عبد الله : يحق لك أن تغضي، وأن تلومي.
- مؤمنة : لست هنا كي أغضب أو ألوم.. ولكنك لاتسألني لماذا جئت!
- عبد الله : لماذا جئت؟
- مؤمنة : لأن الوالي قد يبعث رسولاً، كي يتأكد أن الغانية التي أوقفوك بسببها، ورموك في السجن معها هي زوجتك. انظر إلي.. ألا ترى كيف تزوقت، وماذا أرتدي؟ ينبغي أن أكون الغانية. ألا أشبه الغانية؟
- عبد الله : ومن حبك هذه القصة؟
- مؤمنة : وهل يستطيع أن يحبك هذه القصص إلا المفتي.
- عبد الله : (ذاهلاً) المفتي..!
- مؤمنة : نعم المفتي.. ولعله الآن ومعه الأشراف عند الوالي.
- عبد الله : المفتي ومعه الأشراف..! هذا هو التلف الذي أخبرني أبي عنه.. من الصعب أن أشرح لك.. كم تقلب حالي منذ دخلت هذه الزنانة..! أشعر أنني في مخاض صعب.
- مؤمنة : كلنا الآن في هذا المخاض.
- عبد الله : حين جلست في عتمة هذا المكان، وكانت لاتزال آثار السكر تغشى عقلي وبصري، تراءى لي والدي. لم يكن غاضباً، بل كان حزيناً. بصوته العميق والرخيم، سألني.. ماذا فعلت بميراثي يا عبد الله! وتمنيت لو تبلعني الأرض إلى قعرها. غضضت بصري، واحتواني العار كأنه جلدي. حقاً.. ماذا فعلت بميراثه! وقال لي، وكأنه يواسيني.. أتلقت

ظاهرك، فتدارك باطنك، وأنقذه من التلف. ولا تنس يا عبد الله أنني عشت سبعين سنة. ووالله لو وضعوا هذه السنين السبعين على طبق وعرضوها أمام الخالق، لما خجلت من شيء فيها مهما صغر شأنه. نعم.. خلال ساعات قليلة يخيّل إلي أنني ألقيت حجاباً على مافات، وأني أتحسس في القمة باباً إلى ما تبقى من فضلة العمر. لا أدري.. ولكن حياتي ستتغير أو تغيرت فعلاً. وأرجوك أن تسامحني. أعلم أنني آذيتك، وأعدك أنني سأكفر عن كل أذى ألحقته بك.

مؤمنة : سيظل أبوك يلاحقك إلى مماتك يا عبد الله. وعلام أسامحك! لم تؤذني في شيء. تذكر.. هل عاتبتك من قبل! هل سألتك يوماً، أين كنت، وماذا فعلت! هل استنكرت تلك الروائح التي كنت تحملها بلا حرج إلى فراشنا!

عبد الله : أعترف أنك امرأة من معدن نادر، وأنت بالتسامح والكياسة والكرم علوت علي كثيراً.

مؤمنة : لم يكن همي أن أعلو عليك. كنا منفصلين منذ ليلة زفافنا، وكان كل واحد يدور في حلقة نفسه. كنت مشغولاً عني، وكنت مشغولة عنك. ولم يكن هناك أي دافع جدي للغيرة أو النكد. ما كان بيننا إلا العقد، والسكن، وتلك العناقات المنخوقة تحت ثقل الحياء والهيبة والطهارة. لا.. لم يكن تسامحي كرمًا، بل كان نوعاً من اللامبالاة. ولو حاولت أن أفكر في زواجنا، لما تذكرت إلا الصمت وبعض المظاهر، ولزوجة تلك العناقات. نعم.. إن أحداث هذا اليوم، ودخولنا هذه الزنانة سيعجلان بالمخاض الذي ينتظره كل منا.

عبد الله : هل كان زواجنا سيئاً إلى هذا الحد!

مؤمنة : كان زواجنا، زواجاً لا أكثر.

عبد الله : سأكفر عن كل لحظة فاتت.

مؤمنة : قلت لك.. ليس هناك ما تكفر عنه. لا أحمل لك أي ضغينة أولوم، ولم أشعر يوماً بالغيرة. أو إذا شئت الحق، كنت أغبط تلك الغانيات، ولكن ليس لأنك كنت معهن، بل لأنهن غانيات. يوم زفانا أجلسوني على الأسكي، وأوصوني أن أغض طرفي، وأن أتجهم، وأن أخجل. ظهرت راقصة في الجوق الذي كان يحيي حفلة الزفاف. كان جسدها حرا. يكاد يضيق به فناء داركم الواسعة. كان جسدها يتدفق، يتماوج، يمتد، يضحك، ويشهق. كانت حرة كالهواء، وثوبها البراق يود لو يتساقط، ويتركها تجمع وتضيء الليل. كم تمنيت أن أنهض عن الأسكي. أن أمزق الثوب الذي يحزميني، ويصيني كالقالب. وددت أن أقفز، أن ألتقط الإيقاع، وأنضم إلى الرقص. يومها أحسست أنني قادرة على الرقص حتى الصباح. وكنت متيقنة أنني لن أمس الأرض إلا مساً عابراً. سأظل في الجو، في الهواء، في هذا الفضاء الليلي المنعش. وسأكون حرة، حرة مثلها، حرة إلى الأبد. ويومها قلت في نفسي.. لعلي أفعل ذلك حين يخلو بي. الغرفة ضيقة، ولكني سأجعل الجدران تنزاح، وسأترك جسدي يتدفق، ويتضاعف (باشمتران).. وأنت تعرف الباقي. على كل، لم أغامر بالهجيء إلى السجن كي نتحدث عن زواجنا، ونذاكر أيامنا. قل لي.. ماذا كنتما تفعلان عندما باغتكما الدرك؟

عبد الله : يا رب.. إنك مجروحة، وجرحك عميق. لاشك أن جرحك هو الذي يتحدث من فمك. وأنا لا أعرف إن كنت أتحمل مزيداً من الخجل فوق خجلي.

- مؤمنة : لست مجروحة، ولا تلم نفسك. أجبني.. ماذا كنتم تفعلان؟
- عبد الله : يا رب.. وفري عليّ هذا الهوان. ولماذا تريدان أن تعرفي! مؤمنة : لكي تكون الأفعال والأقوال متطابقة. هل كانت ترقص؟ (يومئ برأسه خجلاً) علام كانت ترقص؟
- عبد الله : (مخفياً وجهه بيديه) لا أذكر.. مؤمنة : ينبغي أن تتذكر. انظر.. (تبدأ بالتلوي استعداداً للرقص) نعم.. أنا أرقص أيضاً. ينقصني شيء من المرونة والخفة. لكنني قريباً سأتجاوز هذا العيب. يا الله.. أعرف أنك تضبط الإيقاع جيداً. لانتحاج إلى الطبله. يمكن أن تصفق، وتوقع لي اللحن.
- عبد الله : يا رب.. ماذا تفعلين! أنت مؤمنة! أنت زوجتي! مؤمنة : أنا الآن غانية، قبضوا عليك معها. ساعدني وإلا فسد التدبير كله. هل كنت تضبط الإيقاع بالطبله أم بالزهر؟
- عبد الله : (ذليلاً) بالطبله. مؤمنة : طيب.. عندما تتذكر اللحن، اتبعني.
- عبد الله : (تبدأ مؤمنة بالرقص. في البداية تكون حركاتها مرتبكة وخشنة ثم ترق وتزداد إيقاعية وجمالاً).
- عبد الله : (يتابعها مبهوراً) يا رب! يا رب! يا رب! (تتلاشى الإضاءة).

المشهد السادس

(في دار الوالي. الوالي، ويدون ناعساً ومنزعجاً. المفتي وحميد العجلوني وإبراهيم دقاق الدودة وصفوت العابدي وهو مندوب الأشراف في المدينة).

الوالي : يا محمد.. هذه قصة لا تدخل إلى العقل. أفكر.. وأفكر.. وأجدها لا تدخل إلى عقلي. بانتظار عودة الكشافة، يجب أن نستدعي قائد الدرك لكي يوضح لنا غرضه، وسبب هذا الفعل.

المفتي : لا يا حضرة الوالي.. لانقبل أن يضمنا معه مجلس. هذا خصمنا والمفتري علينا. ونحن كما قلت ضاق بنا العيش، ولم يعد يأمن المرء على الاختلاء بأهله وحلاله. كيف يمكن أن نقعد في مجلسه بعد هذه الإهانة؟

صفوت : والله.. هذا رأينا جميعاً. بعد هذا التعدي على الحرمات! صار العيش في مدينتنا ذلاً وكرهاً.

المفتي : لم نعرف كيف نهدي الأشراف، ورجال الحارات. إنهم كالبارود الذي ينتظر شرارة. أعطوني مفاتيح دورهم، وسندات أملاكهم وقالوا لنا، أعطوها للوالي إذا كان يقبل لنا هذا العار، فما عادت الديار ديارنا، وماعادت المدينة أرض سكن لنا. وكما ترى.. المفاتيح والسندات بين يديك يا حضرة الوالي.

- الوالي : أنتم تعرفون أنني لا أحب المشاكل. وهذا الحديث عن البارود لا يعجبني.
- صفوت : كيف لا يغضبون وهم يرون أن رجال الأمن لا يوقرون لهم كبيراً! يقتحمون خلوة نقيب الأشراف مع حريمه دون حياء، ويجرونهما وسط البهدة إلى السجن.
- المفتي : نحن نعرف حرصك على الهدوء واستقرار البلد. وإنما لم نقصّر في تهدة الأحوال وضبط الاستقرار، ولكن ما حدث اليوم لا يمكن السكوت عليه. وما جئنا إلا لكي نصفنا، وتعيد لنا حرمتنا. أما المفتري، فترك أمره لعدلك وتقديرك.
- حميد : الحقيقة أن شخصاً متهوراً مثل عزت بيك لا يصلح أن يكون قائد الدرك.
- صفوت : والعدل أن يرمى في السجن بدلاً من النقيب الذي افترى عليه.
- الوالي : لا تملوا عليّ ما ينبغي عمله مع موظفي ولايتي.
- المفتي : لا أحد يملّي عليك شيئاً يا حضرة الوالي. إنها أفكار نداولها. هل يمكن لرجل حصيف ونزيه كوالينا أدامه الله، أن يترك هذه الحماقة الشنيعة بلا عقاب!
- صفوت : ونقول لك بصراحة إن الخواطر لن تهدأ ما لم يعاقب المفتري علينا.
- الوالي : طيب.. دعونا ننتظر ما يأتي به الكشفة أولاً يا محمد.. هذه قصة لا تدخل إلى العقل.
- (يدخل خصي الحرم).
- سيدى : الخصي
- الوالي : ماذا! هل تقصيتم الأمر جيداً؟
- الخصي : نعم. والمرأة المسجونة مع النقيب هي زوجته.
- الوالي : أهذا أكيد؟

- الخصي : لا مجال للشك يا سيدي.
 الوالي : طيب.. انصرف.
 المفتي : بان الحق وزهق الباطل يا حضرة الوالي.
 الوالي : نعم.. نعم. والله، قصة تحيّر العقل.
 صفوت : بعد هذا.. أتلومنا إن غضبنا!
 إبراهيم : الإهانة لحقت بالمدينة كلها.
 الوالي : طيب.. طيب.. سنصلح الخطأ فوراً. سنفرج عنه، وسنعتذر له أيضاً. وأنتم.. لاتؤاخذوني. هذه القصة لم تدخل عقلي في البداية، لأنني كنت أعتقد أن قائد الدرك رجل عاقل ويعتمد عليه.
 صفوت : من حقنا أن نطلب عقابه.
 الوالي : سأرى.. سأرى. ولكن سأعتمد عليكم في تهدئة الناس، ومنع أي شغب، تعرفون حبي للاستقرار، ولا أريد أن تلتحق ولايتي الاضطرابات والمشاغبات.
 المفتي : ما دمنا نتعاون، وحبل الود بيننا ممدود، فإني أعدك أن تظل الشام كالبركة الساكنة، لايعكر الموج سطحها.
 الوالي : مشكور يا مفتينا. وإن شاء الله لاينقطع حبل الود ما دمت والياً على الشام. وأنا الآن مبسوط جداً، لأنه لم يعد هناك خلاف بينك وبين نقيب الأشراف.
 المفتي : إهانة الغريب توحد الأهل، وتمحو الخلافات العابرة.
 الوالي : هل تريد أن تذكرني بغربتي!
 المفتي : أستغفر الله.. أنت رأسنا، وأصبحت من عظام رقبتنا. والآن نستأذن في الانصراف. وسامحنا لأننا أيقظناك من جوف الليل، وأتعبناك في السهر معنا.
 الوالي : لا.. لا.. كان ضرورياً أن تأتوا، وأن أعلم ما يجري. إذهبوا، وهدئوا الرجال. وأرجو أن تصحو المدينة غداً بلا عكر. قبل

أن تصلوا بيوتكم، سيكون النقيب قد أفرج عنه، وسنحاول
أن نرد الاعتبار لكل الأشراف ووجهاء البلد. انتظروا..
لعلكم نسيتم المفاتيح والسندات.

: ستركها أمانة حتى تقتصّ لنا من الذي أهاننا.

: لا.. لا. خذوها.

: سنأخذها، وتأكدوا أن عدل حضرة الوالي لن يخذلنا.

(يحيون، ويخرجون).

: ثعابين.. والله.. كلكم ثعابين. وهذا الخرا عزت. ماذا يريد!

هل يحاول أن يشعل الفتنة في ولايتي! أريد أن يززع

مركزي! هل يجري الماء تحتي وأنا لا أدري! إف.. إني

نعسان، والصباح رباح.

(تتلاشى الإضاءة).

صفوت

الوالي

المفتي

الوالي

المشهد السابع

(في السجن. عزت ودركيان يمسكان بذراعيه. السجنان.
عزت شديد الغضب مكفهز الوجه وعلى زاويتي فمه زبد
دبق. إنهم جميعاً أمام الزنزانة).

- عزت : جنون.. ورأس أمي، هذا جنون. ألم تكونا معي! (فجأة
بلهجة أمرة) اتركا ذراعي، وقداً سلاماً تعظيماً.
- دركي (١) : لا تصعب مهمتنا يا عزت ييك.
- عزت : أنا قائدكم، وأنا الذي أعطيتكم الأوامر.
- دركي (١) : لعلك كنت.
- دركي (٢) : الوالي فوق القائد. والوالي أمر أن توضع في السجن، ونحن
لا نستطيع أن نخالف أمر الوالي.
- عزت : هذا الوالي رمة يتلاعب بها الواشون والخصيان.
- دركي (٢) : (لزميله) تظاهر بأنك لم تسمع ما قال.
- دركي (١) : وماذا قال! لا.. لم أسمع ما قال.
- عزت : أنتشاطران يا أولاد الزواني! (بلهجة أمرة، والدركيان
يستجبان بحركة لاشعورية ثم يتراجعان) أنت وهو.. أجيابا..
البارحة، حين كبسنا نقيب العرصات. من وجدنا معه؟
- دركي (١) : وجدنا معه امرأة.
- عزت : أعرف أنها امرأة. ولكن من كانت تلك المرأة؟
- دركي (١) : تبين أنها زوجته.

- عزت : كيف تبين! ألم تكن تلك الغانية التي اسمها وردة!
 دركي (٢) : نحن لا نعرف. قلت لنا إنها غانية، وصدّقنا. أمرتنا أن نقبض
 عليهما، ونقدّنا. ونحن ما أدرانا.. المرأة تشبه المرأة. واليوم
 علمنا أن المرأة التي قبضنا عليها كانت زوجته.
- عزت : لم تكن زوجته.
 دركي (١) : الوالي والناس جميعاً يؤكدون أنها زوجته.
 دركي (٢) : وهذا يعني بالدليل واليقين أنها زوجته.
 عزت : حلّ عن سماي، أنت وواليك. البارحة تفرجت عليهما الشام
 كلها، ولم يذكر أحد أنها زوجته. فماذا حدث اليوم! اسمع
 أيها السجناء.. أنت رأيتها. قل لي.. هل كانت زوجته!
 السجناء : لم أنظر إليها. ولكن حين أرسل الوالي، أطل الله عمره، وفداً
 من حريمه وخصيائه، تبين أنها زوجته.
 عزت : ألم يأت أحد إلى السجن قبل الحريم!
 السجناء : لم يأت أحد.
 عزت : لعلك غفلت، أو ذهبت لأمر.
 السجناء : لا أغفل، ولا أغادر السجن.
 عزت : أتقسم؟
 السجناء : أقسم برأس أمك. ليس لك علي يمين. لو تبصرت، وتحققت،
 لتجنبت هذه البهدة.
- عزت : جنون.. ورأس أمي هذا جنون. يريدون أن أفقد عقلي.
 وكأنني لا أعرف البلد وما فيها. وكأنني لا أعرف وردة، ولا
 أمير وجهها. أيها الدركي.. اذهب، واحضر البنت وردة.
 ابحث عنها في بيتها، في أوكار المدينة وحواريها، وأحضرها
 إليّ حالاً. هيا تحرك..
- دركي (١) : (لزميله) ماذا قال؟
 دركي (٢) : هل قال شيئاً؟

- دركي (١) : يا الله يا أبا إبراهيم.. لماذا لاتفتح الزنزانة وتخلصنا!
عزت : ألم تعد لي طاعة أيها الجربوعان! انتظرا.. سأحل هذا اللغز،
وسأعود إليكم. ماذا حدث! كيف تخفي الحقيقة في ليلة
واحدة! كيف تنقلب الحقيقة خديعة، والخديعة حقيقة! هل
جئنا الوالي..! هل جن الناس! هل جنت المدينة..!
- دركي (١) : الكل مجانين، وأنت العاقل الوحيد.
عزت : (صارخاً) لم تكن زوجته، وكلكم تعلمون.
دركي (٢) : بل كانت زوجته.
- دركي (١) : الوالي يؤكد، ونحن نؤكد، والناس كلهم يؤكدون.
دركي (٢) : لن نقضي النهار في الأخذ والعطاء. ماذا تنتظر يا أبا إبراهيم!
السجان : يجب أن نغيّر زيه قبل أن نضعه في السجن. القانون يمنع
سجن الرتبة، والزي الحكومي.
- دركي (١) : صحيح.. ألم يقل الوالي انزعوا رتبته، وارموه في السجن!
السجان : معلوم.. الزي والرتبة لهما حرمة.
دركي (٢) : وماذا يلبس؟
السجان : جلباب المساجين.
- عزت : ولماذا لا يكون قميص المجانين!
- دركي (١) : إذا واصلت العناد والهلوسة، سيأتي دوره. هيا ساعدنا.
واخلع هذه الملابس.
- عزت : لاشك أن العالم اختل، والحقيقة ضاعت. كيف تضيع
حقيقة بهذا الوضوح!
- (ينزع الدركي الأول رتبته، يناولها للسجان فيما يفك الدركي
الثاني أزرار سترته).
- عزت : لم يخبرني مخبر، بل رأيت ورأوا معي. إنهم يعرفون الحقيقة
ويخفونها. إنهم يكذبون. (يسحب الدركي السترة من
ذراعيه، ويقي بقميصه الداخلي) إنكم تكذبون. أخفيتم

الحقيقة كي تناولوا مني. كي أبدو مختلاً (بعد فك الحزام والأزرار، يسقط البنطلون إلى قدميه، يلاحظ جسده شبه العاري، يستيثط غضباً) ماذا فعلتم يا أولاد القحبة! (يصفعه الدركي الثاني صفعة مدوية، فينظر إليه عزت ببلالة، وهو يضع يده على خده) أتصفعني!.. كيف تجرؤ!..

دركي (٢) : ومن أنت حتى تشتم الدرك!

عزت : أنا عزت ييك.

دركي (٢) : طز.. ما أنت الآن إلا سجين مخبول. (يحاول عزت أن يضربه، فيمسك الدركي يده) اهدأ.. وإلا عفتك برجلي.

هات الجلباب يا أبا إبراهيم.

عزت : (وهم يلبسونه جلباب السجن) جنون.. ورأس أمي هذا

جنون.. اختلت الموازين، وعميت العيون، ودفنت الحقيقة بمؤامرة وتدمير. لم تكن زوجته، ولو أجمعت السماوات والأرض على ذلك.

(بعد ارتداء الجلباب، يفتح السجنان الزنزانة، ويدفع الدركيان عزت إليها ثم يغلق السجنان الباب).

عزت : (من وراء القضبان) لم تكن زوجته. سأكشف هذا اللغز، وأعود إليكم يا أولاد الزواني.

دركي (١) : الآن.. بقر كما تشاء.

دركي (٢) : هيا بنا..

عزت : (صارخاً) انتظرا.. بحق العشرة.. هل أطلب منكما خدمة صغيرة؟

دركي (١) : ماذا تريد؟

عزت : ابحثا عن وردة، وقولا لها أن توافيني إلى السجن.

دركي (١) : أتحسبنا مجانين!

دركي (٢) : دع عنك هذا الهبل. ولا تزد غضب الوالي غضباً.

- (يخرج الدركيان).
- عزت : أقسم. إنها لم تكن زوجته. يريدون أن أجن.
- السجان : اسمع.. لست فاضياً لك. ما أعرفه هو أن المرأة التي خرجت من السجن كانت زوجته.
- (يدخل عبدو).
- عزت : (يصيح فرحاً) ها أنت يا عبدو.. أين المفتي؟ انظر ماذا فعلوا بي.
- عبدو : (للسجان) هل تأذن لي بالكلام معه؟
- السجان : تفضل.. تفضل.. يا عبدو.
- عبدو : (وهو يواجه عزت من وراء القضبان) جئت أحمل لك يا عزت ييك أسف سيدي وملامته.
- عزت : ملامة.. وعلام يلومني!
- عبدو : زدته حرجاً على حرج. كيف يجوز أن تقبض على النقيب وهو في خلوة مع حريمه!
- عزت : لم تكن حريمه. قل للمفتي، وأكد له أنها لم تكن زوجته. صدقتي في الجو ما يريب.
- عبدو : اسمع يا عزت ييك. تحققنا، وتأكدنا أنها زوجته. والناس كلهم مقتنعون أنك قبضت عليه وهو في خلوة مع زوجته.
- عزت : كانت وردة يا عبدو. أنت تعرف وردة، والعفصة يعرفها أيضاً. أرجوك.. قل للمفتي أن يطلبها، ويسألها.
- عبدو : قلت لك.. تحققنا، وتأكدنا. كان النقيب مع زوجته. وهذه القضية انتهت. جئتك لأسألك إن كنت تحتاج شيئاً، وكيف يستطيع المفتي أن يساعدك.
- عزت : لا أحتاج إلا إلى الحقيقة. وأطلب من المفتي أن يساعدني على كشفها.
- عبدو : الجميع تقصّوا الحقيقة. الوالي والمفتي والأشراف. والجميع تأكدوا أن المرأة التي اختلى بها النقيب كانت زوجته.

- عزت : (غاضباً) ورأس أمي.. ليست تلك هي الحقيقة.
- عبدو : أيمكن أن يخطئ الجميع، وأن تكون وحدك على صواب!
- لاشك أن الغضب والتهور غشياً بصرك يا عزت بيك. ألا تريد شيئاً آخر؟
- عزت : لا.. لا أريد. وأخشى الآن أن يكون السم الذي يسري في جسدي وعقلي هو من بعض لدغات المفتي. جنون.. ورأس أمي هذا جنون. تريدون أن افقد عقلي، ولاشك أنني سأفقده.
- قل للمفتي أن يفتينا في هذه القضية. أيكفي أن يجمع الناس على أمر كي يغدو حقاً وصواباً! ألا يمكن أن ينخدع الناس! أليس هؤلاء الذين يصدقون اليوم أنها زوجته هم الذين كانوا البارحة يصفرون ويستذكرون! أيجوز أن تخفى الحقيقة، وتُبدى حسب ما يشاء الهوى أو حسب ما تشاء المصلحة! هذه مسائل.. فهل يفتينا بها؟! أقول لك.. الحقيقة تظل هي الحقيقة. والمرأة التي قبضت عليها لم تكن زوجته.
- عبدة : سيصلك الطعام كل يوم.
- عزت : وفروا الطعام. لا أريد.. لا أريد شيئاً إلا الحقيقة. لم تخدعني عيناى، وما رأيته كان واضحاً.
- عبدو : سأمر عليك بين وقت وآخر.
- عزت : والمفتي.. ألن يمر علي؟
- عبدو : سيبت له ما يكفي من الإحراج. ولولا الودّ ما أرسلني.
- (يخرج عبدو).
- عزت : جنون ورأس أمي هذا جنون. ماذا أفعل! كيف اتفق أن أحداً لم يقف معي! كيف اتفق أنني الوحيد الذي رأى! أحقاً رأيت! جنون.. ورأس أمي هذا جنون.
- (تتلاشى الإضاءة)

المشهد الثامن

(في بيت عبد الله. عبد الله حافي القدمين، يدخل غرفة الضيوف متراجعاً بظهره وهو يرحب بضيفه. يدخل المفتي لا مبالياً بترحيب عبد الله، أو رد التحية له).

- عبد الله : لو علمت أنك ستشرفني، لاستقبلتك حافياً من أول الحارة.
المفتي : حين زرتني، أغلقت بابي دونك كيلا تظن أن عداوتنا زالت.
وجئت إليك الآن، والعداوة هي هي. ولكن بعد تلك الفعلة الشنيعة، هناك حساب ينبغي أن يُصَفَّى.
- عبد الله : صدّقني.. مازلت أغسل قلبي حتى خلا من كل عداوة.
المفتي : ما جئت مصالحاً يا عبد الله.
- عبد الله : لك صدر الدار، وصدر صاحبها ولو جئت تطلب خرابها.
المفتي : ألا تشعر بالحياء..؟
- عبد الله : ألا أشعر بالحياء!. كلما فتر شعوري بالحياء، لطمت وجهي، وأنعشت ذاكرتي حتى يأخذني الصغار، ويصبغني الاحمرار. وحيائي بين يديك هين لو قيس بحيائي من خالقي.
- المفتي : لا تتلاعب بالندم والزلفى إلى الخالق. خير لك الآن أن تستر طابقتك، وتدفع ضريبة طيشك واستهتارك.
- عبد الله : ماعاد لي مطمع في عرض من أعراض هذه الدنيا يا شيخ قاسم. وما تراه ضريبة مناسبة، سأدفعه في الحال.
- المفتي : لطّخت نقابة الأشراف، ومرّغتها بأفواه العامة والقيّل والقال.

- ومثلك لا يليق لهذا المنصب، ولا يؤتمن على هيئته وشرفه.
عبد الله : قلت لك.. تركت التعلق بزينتها وبرقعها. وإني الآن أتخلى أمامك عن منصب النقيب. وأترك لك وللأشرف اختيار نقيب يحل مكاني.
- المفتي : هذا قرار لاتراجع عنه يا عبد الله.
عبد الله : أعطيتك كلمتي يا شيخ، وإن أردت شهوداً أحضرنا الشهود.
المفتي : الآن تتصرف بحصافة، وتقطع بعضاً من أسباب العداوة.
عبد الله : لن تبقى عداوة بإذن الله. صفا قلبي، وأرجو أن يصفو قلبك.
المفتي : لدي مرشح للنقابة، وأريد أن تدعمه.
عبد الله : إن تسامحت.. أود أن أظل بعيداً عن هذا الأمر. وإن أمرت.. فسأؤتيك شيئاً من معروفك، وأدعم مرشحك.
- المفتي : أريد مرشحي نقيباً.
عبد الله : إذاً.. سأدعمه بما أستطيع.
المفتي : بقيت واحدة.
عبد الله : نعم.. بقيت دناءة تؤرقني، وتثقل على ضميري. أفكر بالذهاب إلى الوالي، والبوح بالحقيقة كي أنقذ ذلك الرجل المغدور.
- المفتي : من تقصد؟
عبد الله : قائد الدرك.
المفتي : لا.. دعه في السجن كي يترتب خلفه، ويتعلم توقير الأكابر، وعدم الاستخفاف بهم. ولو أعلنت الحقيقة للوالي، فستضعنا جميعاً في موقع الكذب والخرج. لا.. دعك من قائد الدرك، فقد تجاوز حدّه ويستحق ما أصابه. ما عينته هو أمر آخر يحرمني الحديث فيه. ولكنني قطعت على نفسي عهداً، ولا بد من وفاء العهد.
- عبد الله : لاتتحرر يا شيخ، واطلب ما بدا لك.

- المفتي : عليك يا عبد الله أن تطلق زوجك.
عبد الله : أطلق زوجتي..؟! ولماذا؟!
- المفتي : كان ذلك شرطها للذهاب إلى السجن.
عبد الله : أعرف أنها كانت مجروحة وغاضبة. ولكن أريد أن أصلح حياتي، وأن أعوضها عن الجرح وحماقات الأيام الفائتة.
- المفتي : أعتقد أن المسألة أصعب من ذلك. لم تكن لومة، ولم تكن غاضبة. طبعاً أنت أدرى بحريك مني. إلا أنني لم أستطع إقناعها، إلا بعد أن انتزعت هذا الوعد مني.
- عبد الله : ووعدها!
المفتي : تلك إرادتها، ولم يكن أمامي سبيل آخر. لولا أن الظروف تحكمت، ما سمحت لنفسي أن أتدخل في شؤونك العائلية.
- عبد الله : يا رب.. تلك إشارة أخرى تأتي. أهذا هو الطلاق الأصغر الذي تبلونني به، كي أقوى على الطلاق الأكبر!
- المفتي : كنت مضطراً يا عبد الله، والوعد هو الوعد.
عبد الله : هل أفهم أنك تأمر بالطلاق؟
- المفتي : الأمر ليس أمري. هي التي اشترطت، وهي التي رفضت الحديث عن إصلاح ذات البين. كان موقفها حاسماً، وقولها عجيباً، وأنت أعلم بأهلك مني. إذا شئت أن تجرب، يمكن أن أمهلك وقتاً.
- عبد الله : معك حق. لاحظت أنها تغيرت. طلبت عفوها، فلم تبال. وحاولت الحديث عن أيماننا المقبلة، فنفرت ولم تصغ إلي. منذ تلك الليلة، وكلانا يهيم في دنيا من الصمت والوحشة.
- يا رب.. ساعدني.. أهي إشارة كي أليها!
- (ينحط على كرسي، ويفرق وجهه في غياب قلق).
: (يمهله فترة، وهو ينظر إليه شامئاً ومتعجباً) ما جوابك؟
عبد الله : (يتمتم، وما زال غائباً) هي إشارة.. لاشك أنها إشارة.

- المفتي : ماذا أَلَمْ بك! هل تنتظر وحيًا من السماء! هذا جزء من الفاتورة يا عبد الله.
- عبد الله : (مجفلاً) نعم.. هي إشارة. إنها طالق منذ الساعة يا شيخ.
- المفتي : بارك الله فيك. لقد صفيت الحساب كله. الآن، يمكن أن نقلب العداوة صلحاً وصداقة.
- عبد الله : (يقترّب المفتي من عبد الله، ويفتح له ذراعيه. لكن عبد الله يتجاهله، وينهض، فيتمشى في الغرفة كالمأخوذ).
- عبد الله : يا رب.. ترأف بضعفي، وهشاشة حالي. يا رب.. علّمني كيف أمير بين إشارتك وتخبّلات عقلي. يا رب.. قوّني على تحمل حالي، ومجاهدة حالي، وقهر حالي.
- عبد الله : (يركع على الأرض، ويفتح يديه بحركة تضرع، ويرفع رأسه ناظراً إلى الأعلى). يتأمله المفتي لحظات ثم يهز رأسه كالشفق، ويخرج. يظل عبد الله وقتاً طويلاً، وهو ساكن في وضعيته يهيمهم ضراعات لانسمعها. يدخل الخادم.. ينظر إليه ببلاهة، ثم يقف منتظراً).
- الخادم : (يبدأ هامساً) سيدي.. سيدي.. سيدي.. (يقترّب الخادم منه بخطى متردة، ويرفع صوته) سيدي..
- عبد الله : (كمن يصحو بغتة) آه.. ماذا..؟ أجفّلتني يا حارم.
- الخادم : سيدي.. خشيت أن تنسى.. الليلة عرسى. أَلَمْ أشرح لك! وعدت تلك الملعونة أن أعزّس عليها يوم عودتك إلى البيت بسلامة. وبالزور صيّرتها هذا الأسبوع. ستفضحني إن أجّلت، أو تهرّبت.
- عبد الله : أتزوج الليلة يا حارم؟
- الخادم : هل حدث شيء يا سيدي! لم أحدّد الموعد إلا برضاك، وموافقتك.
- عبد الله : نعم.. نعم.. أذكر. اذهب، تزوج.

- الخادم : ألن يبارك سيدنا العرس!
عبد الله : لا.. إني طَلَقْتُهَا ثلاثاً.. ثلاثاً.. بتاتاً. صارت الدنيا، وأعراسها حراماً.. حراماً. دعني في خلوتي.
- الخادم : ألن أبقى في الخدمة يا سيدي!
عبد الله : ماعدت أحتاج خدماً يا حارم.
- الخادم : هل يعني أنك تطردني يا سيدي!
عبد الله : وهل يستطيع المطرود أن يطرد!
الخادم : إني لا أفهم..
- عبد الله : ومن الذي يفهم! إذهب إلى الدنيا التي تناديك، وعرس.
الخادم : سيدي.. (يشير له عبد الله بالخروج، يتراجع الخادم حائراً) لا أستطيع التأجيل. ستفتك بي لو أجلت. كنت أحلم أن يزين حضورك عرسي. (هامساً) وسيدتها وردة ستكرم علينا وترقص في عرسنا. إني مبيل الخاطر، ولا أستطيع التأجيل. (ينتظر عند الباب، وحين يراه مستغرقاً في مهمته، يخرج. بعد قليل، يظهر شبح ولي يأتزر بثوب أبيض يشبه الكفن، ويخفي وجهه. حركاته بطيئة، وصوته رخيم. يسطع، وكأنما يحف به ضوء لانعرف مصدره).
- الولي : الطريق طويل، والزاد قليل.
عبد الله : أهو أبي الذي يتكلم!
الولي : أبوك من أرشدك. أمرت أن أصطفيك مريداً، وسأكون لك مرشداً.
- عبد الله : طَلَقْتُ امرأتي، وتشوشت أحوالي.
الولي : طَلَقْتُهما وشهوة. وأحسن الصوفية المجردون، فدع الزواج لغيرك.
- عبد الله : حين أفكر في دناءة حالي، وسوء أفعالي، وقبح خصالي، تنحصر نفسي وأقنط من رحمة ربي.

- الولي : لاتكن عجولاً، وتذكر أن لكل أمر بدءاً.
عبد الله : تلك هي المشكلة. من أين أبدأ؟ وكيف؟
الولي : تبدأ بيدن عار، وبطن جائع. خرق ثيابك، واستر بدنك بمرقعة.
(ينهض عبد الله، يتناول من درج رقعة صوفية زرية ومرقعة. يهم بتمزيق ثيابه الفاخرة، ثم يلوح عليه التردد).
الولي : انزع الشك والتردد من قلبك. ولاتنس أن أباك أنقى رحم أمك قبل أن تلدك حين تزوجها، وزفها. لم يياشرها، أو يلامسها أربعين ليلة حتى علم أن لم يبق في جوفها أثر مما أكلته من قبل، وتناولته فيما عبر من الأيام التي كانت في بيت والدها خشية أن يكون دخل جوفها طعام أو شراب منه الحرام. اخرق ثيابك، فما هي إلا قشرة ترميها.
(يبدأ عبد الله بخرق ملابسه، وارتداء المرقعة. فيما يدور الولي حول نفسه، وهو يردد الله..)
عبد الله : (وقد تسربل بالرقعة) ثم ماذا أفعل!
الولي : الآن تبدأ المشاق والأهوال. عليك أن تنسلخ من نفسك كما تنسلخ الحية من جلدها.
عبد الله : كيف؟
الولي : أرشدتك إلى البداية، فابدأ.
(يخفي الولي. يترى عبد الله قليلاً ثم يبدأ بالدوران حول نفسه وهو يردد.. الله.. تكون الحركة بطيئة، ثم تسارع تدريجياً، فيما تتلاشى الإضاءة).

الجزء الثاني

المصائر

المشهد الأول

(في بيت المفتي. المفتي وعبدو).

- عبدو : إنه لا يأكل طعامنا. فهل نواصل حمل الطعام إليه؟
 المفتي : كيف وجدته؟
 عبدو : أعتقد أنه تخيل. ليس لديه إلا هذه العبارات.. ورأس أمي
 هذا جنون.. لم تكن زوجته.. أحقاً لم تكن زوجته! وهو
 ما يزال ينتظر فتاويك على المسائل التي طرحها.
 المفتي : ألم تقل له إن الحقيقة في الإجماع!
 عبدو : وهل يعني ما يقال له!
 المفتي : إذن دعه يتخبط في خياله، ولا تحمل له الطعام بعد اليوم.
 عبدو : نعم.. فليطو سيدي تلك الصفحة وغبارها. يحق لك أن تهناً
 بعد أن راقى لك المدينة، وصار الأكابر يمشون بين يديك
 طالبين رضاك.
 المفتي : نعم.. كانت الخلافات تكبل يدي، وتضغط على مركزي،
 سنجلو الآن ما لحق بالمنصب من أوشاب، وسيعرف الناس
 أن سعادتهم في الطاعة، وأن للمفتي جلالاً وسطوة.
 عبدو : ألن تصدر الفتوى التي كنت تنوي إصدارها، والتي يتمناها
 كل أوادم الشام؟
 المفتي : أية فتوى؟
 عبدو : أن تحرم البغاء، وتبيح دم الغواني والعاهرات.

- المفتي** : آه.. هذه الفتوى! أعتقد أن علينا أن نترث قليلاً، وأن نترج في الشدة. هناك أمر أريد أن تتولاه شخصياً.
- عبدو** : ليس على الشيخ إلا أن يأمر.
- المفتي** : أريد أن تنسقط لي أخبار وحركات زوجة النقيب بعد طلاقها. ولا ينبغي أن تثير الانتباه، أو يلحظ أحد غرضك.
- عبدو** : لا تشغل بالك. سأعرف لك ماذا تأكل، ومتى تنام.
- المفتي** : (يعلو أذان الغروب).
- عبدو** : الله أكبر..
- المفتي** : لا إله إلا الله.. أتريد شيئاً آخر يا سيدي؟ هل أساعدك في الموضوع؟
- المفتي** : بارك الله فيك.. لا أريد شيئاً.
- المفتي** : (يخرج عبدو).
- المفتي** : أستغفر الله العظيم.. يا رب.. إنني أحس في نفسي فتوراً عن الصلاة، ولا أدري لماذا. يا رب.. لا تستكثر نعمتك علي، ولا تجمعني من الجاحدين. يالهامك دبرت، وبفضلك نلت ما كنت أصبو إليه. أزررتني حتى ترقيت في المراتب، وحصرت قلوب أعدائي، وحسادي، فانزاحوا عن دربي. يا رب وأنت الوهاب الكريم، غمرتني بالنعم، وبوأنتي المجد الذي تشوقت له نفسي. ولم يبق أمامي إلا خطوات يسيرة، وأصير مفتي السلطنة في مركزها وعاصمتها. يا رب نولتني هذا كله، فلم تحرمني الرضا؟ هل أضلني إبليس..؟ أحس فراغاً في سريري، كدراً في قلبي. أكانت تلك المرأة أحبولة إبليس، وأداته؟ لماذا لا يغمرني الرضا، ويفيض في جوانحي العرفان! إنني فاتر الروح والجسد. لا أحس للنصر بهجة، ولا للمجد مذاقاً. هل تخلصت من أعدائي، كي يأتيني عدو من نفسي! علقت صورتها في خيالي، وعلق كلامها في ذاكرتي. يا لها

من امرأة بين النساء.. يارب.. قوني على الصلاة، وانزع هذا
الكدر من قلبي، وطهر روحي من حيل إبليس والأعْيِه. يا
رب.. نويت الوضوء، ونويت الصلاة (يعلو صوته أمراً) هاتوا
الطشت والإبريق. يا رب.. إني ألوذ بك من فتوري.
(تلاشى الإضاءة).

المشهد الثاني

(في بيت وردة. وردة ومؤمنة).

- وردة : (محرجة وقلقة) نورت البيت، أي والله.. أضاء البيت نور.
غسلت الملاية، وبخرتها بالمسك. لو أرسلت الخادمة.. هذا
شرف لا أستحقه.. أن تأتي بمقامك، وشرفك إلى بيتي.
(تتاول وردة الملاية المطوية والملفوفة بعناية، وتقدمها لمؤمنة).
- مؤمنة : لم أزرك كي أسترده الملاية.
وردة : (يزداد حرجها) طيب.. تفضلي. (تحاول مؤمنة أن تجلس على
إحدى الطائفس المصفوفة في المكان، فتأخذ وردة بيدها) لا..
لا.. الجلسة هنا أكثر راحة. (تجلسان، تعتمد وردة الجلوس
في مكان أوطأ، بينما تنفوس مؤمنة في المكان بعينين لاهيتين)
هل أنت مرتاحة؟
- مؤمنة : لا تشغلي بالك.. فأنا مرتاحة. إن بيتك لطيف.
وردة : هو على قدّ الحال. ربّته، وزيّنته بمقدار ما أستطيع.
مؤمنة : إنه كالعش.. ملوّن ودافئ.
- وردة : هذا من ذوقك. (تصفق يديها عدة مرات. تظهر الخادمة
بسمه) أين الضيافة يا بسمه؟ هاتي ما يليق.. ولا تسوّدي
وجهي أمام ست الأشراف.
- مؤمنة : لا أريد شيئاً.
- وردة : هل تكسرين خاطري؟ يا الله يا بسمه.. (تخرج بسمه. يرين

- صمت، ووردة تحاشي أن تلتقي عيناها بعيني مؤمنة) إذا أردت أن تسألني.. لا أدري.. إني مرتبكة. أتريد أن تسألني.. عني وعن.. السيد النقيب؟
- مؤمنة : لن أسألك عن علاقتك بالسيد النقيب.
- وردة : على كل.. لقد انتهت. كانت شيئاً عابراً مما يفعله كل الرجال. وأنا واثقة أن منزلتك في نفسه لم تتزحزح، ولو مقدار شعرة.
- مؤمنة : هذا لا يعني. أنا الآن طالق، وما يني وبين عبد الله انتهى إلى الأبد.
- وردة : طالق!! وهل كان ذلك بسببي! أمانتي الله، وشواني بناره إن كنت السبب.
- مؤمنة : لا.. لم تكوني السبب. لقد تهيأت الفرصة لكي يحدث ما ينبغي أن يحدث. ليس لدي مألومك عليه، بل وأشعر بالامتنان لك.
- وردة : ولم الامتنان!
- مؤمنة : ربما لأنك هيأت الفرصة لكي يحدث ما حدث.
- وردة : أكنت تكرهينه؟
- مؤمنة : لا.. لا أكرهه.
- وردة : إن عبد الله رجل يُفتقد.
- مؤمنة : هل تفتقدينه؟
- وردة : وما الفائدة؟ تعلمت ألا أتحسّر. حين تنتهي الحكاية أدير ظهري، وأتابع طريقي. مالنا.. لا مؤاخذه، حتى الآن لم أعرف سبب تشريفك لي.
- مؤمنة : جئت أرجو أن تأخذي بيدي. أريد أن أنضم إليك، وأن أغدو واحدة من غواني هذا البلد.
- (تهب وردة واقفة، وكأنما لسعها عقرب، تحمق بمؤمنة مبهوطة)

وغاضبة. تبادلها مؤمنة نظرتها دون أن تنكسر عيناها).

وردة

: ماذا قلت؟

مؤمنة

: أريد أن أصير غانية مثلك.

وردة

: (تفجّر) أجنّت تنفّسين علي! أجنّت كي تزدبرني، وتحطي

من شأني! هل كُتب علي أن يلاحقني يتكم بالإهانة طوال عمري! من دَبرني، وأسلكني هذا الدرب! أتذكرين.. لا.. لا تذكرين، أو لعلك لا تريد أن تذكرني. ألم أكن خادمة لديكم! ألم يكن الشيخ الجليل.. أبوك هو الذي علّمني طبقات الفسق ومراتبه قبل أن أحيض، ثم تناوب علي الابن مع الأب، ثم ألقوا بي في الشارع لأن العرق دساس، ولأن حركاتي تنم عن فسق مبكر! طويت صدري على سري. ذقت المرارة والإهانة والشقاء ولم أجرو على البرح بسري. وها أنت بعد هذه السنوات، تأتين بجلالك لكي تنكأي الجرح القديم، وتبصقي عليّ في يتي.

مؤمنة

: (تهض بدورها مذهولة، وكأنها تحدّث نفسها) وإذن.. أنت واحدة منهن. من ذلك السرب الطويل الذي تعاقب على حضن الوالد. والشيخ الجليل لا تشبع طبيعته، ولا تستكين. (تدخل بسمه حاملة صينية كبيرة عليها قهوة ومكسرات وفواكه مجففة).

بسمه

: أين أضع الصينية يا معلمتي؟

وردة

: ضعها أنى شئت.

(تلاحظ بسمه الجو المتوتر، تضع الصينية، وتقف منتظرة).

وردة

: (بغضب) ماذا تنتظرين؟ اخرجي..

(تخرج بسمه، تتحاشى المراتان تبادل النظرات ويرين على

الجو قوتر مقل بالغضب والدهشة).

مؤمنة

: وخزنتي الصدفة. ولكن لا شيء يحكى عن ذلك البيت

- المكلس بالشهوات والرياء، يمكن أن يدهشني.
 : إذن، أنت تعرفين قصتي!
 : لم أسمع عنك بالذات. ولكن أعرف قصصاً كثيرة مما
 كان يدور في ظلمات ذلك البيت. صدقيني.. لم يخطر
 ببالى أن أهينك، أو أن أمسّ مواجعك.
 : لا تحاولي أن تمكري بي. وقولي على بساط أحمدى ماذا
 تخفين وراء زيارتك؟
 : قلت لك على بساط أحمدى.. أريد أن تساعدني كي أصير
 غانية.
 : أتحاولين مكايده عبد الله..؟! أعوذ بالله من كيد الكبار.
 : ينبغي أن تصدقيني.. أنا لا أعرف اللف والدوران، ولم أعود
 على تدبير المكائد. إني أعني ما أقول، وليس هناك ما يدفعني
 إلا رغبتى وهواي.
 : حلفتك بالله.. هل أنت جادة!
 : كل الجد يا وردة.
 : (ترفع عقيرتها، وتصفق يديها) الله.. الله.. تعالوا، واسمعوا.
 ست الأشراف تريد أن تصير غانية. إنها تحسدنا على هئائنا،
 وتريد أن تنازعنا فيه. وهل تظنين بسلامتك أن الكاريت
 داشر، ومفتوح لكل من لها فرج ونهدان!
 : لهذا طلبت مساعدتك.
 : ولماذا أساعدك؟
 : لأنني أتوسم فيك السماحة. ولأنني لن أضيع لك تعباً. أعدك
 يا وردة أن أكون رفيقة لاتجحد المعروف.
 : اسمعي يا بنت الحلال.. هذا الكاريت لا تدخله الواحدة منا، إلا
 بالاضطرار والمطاحنة والبهدة. أما أن تأتي امرأة تملك كل
 شيء، وليس لديها أي دافع إلا المزاج والشهوة، فإنها تهيننا

جميعاً، وتغبن العذابات التي تحملناها. كان يمكن أن أخرج من الباب، وأصبح في كل الطرقات.. ست الأشراف تطلب الدخول في سلك الشرايط. وكان يمكن أن أثار بالشماتة والفضيحة لحياتي كلها. تصوري.. هل خطر بيالي أن الفرصة ستأتي، وسأرى بعيني ابنة ذلك الرجل الذي رمانني إلى هذا الكار، تتوسل إلي كي تدخل فيه! حقاً.. إن الدنيا لا تخلو من العدل. لا يا بنت الحلال.. رغم كل شيء، لا يطاوعني قلبي على الانتقام. خذي ملايتك، وانزعي وسوسة الشيطان من قلبك.

مؤمنة : يمكنك أن تشمتي، أو تتأري، وهذا أقل من حقك. ولكن لارجوع عن القرار. توسمت فيك وداً خفياً، فلا تخيبي رجائي. إذا لم تقبلي مساعدتي، فسألجأ إلى معلمة أخرى.
وردة : ما أعجبك يا امرأة.. من أين يأتيك هذا التصميم كله!
مؤمنة : هذا أمر يصعب تفسيره، ويطول الخوض فيه. يكفي أن تعلمي أنني شديدة التصميم، وأني سأنفذ ما صممت عليه.
وردة : يا بنت الحلال.. ما حدث بينك وبين عبد الله يمكن إصلاحه.

مؤمنة : أنا طلقت عبد الله، ولا شأن له بهذا الأمر.
وردة : تمهلي بعض الوقت.. ومع الوقت قد تستردن بصيرتك. إنك لاتعلمين في أي موحلة ترمين نفسك. أنظنين أن حياة الغواني رغد ونعيم! إنها حياة مغمّسة بالقهر والعفن والخوف. نخاف من يحمينا، ونخاف من يشتهينا، ونخاف غدنا. ما الذي تظنين أنك فاعلة! وأنت ما أنت.. لك من جمالك ومركزك حصانة، وألف من يتمنى قربك. إذا لم يكن ما تطلبينه نزوة عابرة، فإنه جنون ما بعده جنون.
مؤمنة : ما أريده ليس نزوة. أرجوك أن توفرني نصائحك، لأنني

عجمتها، وعجمت ما هو أكثر منها قبل أن أعزم على المجيء إليك.

وردة

: لا مجال لإقناعك!

مؤمنة

: لا.. لا مجال. تدبرت الأمر، وقررت.

وردة

: وتريدين أن أكون المرشدة والمعلمة!

مؤمنة

: إذا رغبت.

وردة

: ستكونين بنتي، وحقى عليك الخضوع والطاعة والولاء. يا

الله! ولكن من يصدق.. أن يأتي يوم، وأصبح سيدة لست

الأشراف! وأن تصير ابنة ذلك الشيخ الجليل بنتي في الكار!

هل أنا أحلم..؟

مؤمنة

: لا.. إنك لا تحلمين يا معلمتي.

وردة

: (وهي تصفق يديها) طيب.. دعينا نبدأ.

مؤمنة

: فلنبدأ بالاسم يا معلمتي.

وردة

: نعم.. سنختار لك اسماً يرق كالمصباح (تدخل بسمه) نادي

البنات يا بسمه، وهاتي الشربات.

مؤمنة

: هل تسميني نجمة؟

وردة

: هو اسم جميل. دعيني أفكر.. إنني أبحث عن اسم يرق في

حروفه ولفظه. يا قوته.. لا.. اللفظ كامد. ألماسة.. نعم، هذا

يشع. ما رأيك؟ هل أعجبك؟

مؤمنة

: نعم.. إنه يشع. ولم لا؟ صار اسمي ألماسة.

(تدخل بسمه، ووراءها ثلاث من بنات الهوى يتدافعن).

وردة

: يا بنات.. لدينا تليسة. هذه الفتاة اسمها ألماسة. تريد أن

تدخل الكار، وأن تتعلم فنونه. لن نسأل عن حكايتها، ولا

يهمنا أن نبش في ماضيها. إنها ألماسة، وأعتقد أنها ستكون

بناتاً طيبة وبارعة. سنشرب شرباتها، ونحتفل بتليستها. هاتي

ثوب الفتنة يا بسمه.

(بسمة تبدو غائبة في ذهولها ودهشتها).

وردة

: مالِك! هل أصابك الصمم!

بسمة

: (وكأنها تصحو من كابوس) نعم.. نعم..

وردة

: هاتي ثوب الفتنة.

(تحيط البنات بألماسة، ويدأن بنزع ثيابها على إيقاع غنائهن).

البنات

: (يغنين ووردة تقود الغناء وحركاتهن)

اسم الله.. اسم الله يا زينة يا وردة جوة الجنينة

زهر القرنفل يا عروسة والورد خيم علينا

قومي العبي بحبل اللولو وافردى شعرك على طولو

خليهن يحكو ويقولو آه يا حلاوة يا عسلية.

قومي العبي بعرق الألماس واللولو حارس هالبزاز

الله يجيرك من كلام الناس آه يا حلاوة يا عسلية

(تدخل بسمة حاملة ثوب الفتنة وهو ثوب يميز وردة، وترتديه

للإغراء. تغدو ألامسة شبه عارية. لم يبق عليها إلا بعض

الملابس الداخلية. أفرد البنات شعرها، ومشطنه، فيما

انهمكت وردة بتزييقها. حين تصبح جاهزة، يلبسها مع

الغناء والرقص ثوب الفتنة).

البنات:

عالدلالي.. عالدلالي هالنقلة نقلة غزالي

لبست شلحة وشلحت شلحة وتحت الشلحة شي ضوالي.

عالدلالي.. عالدلالي هالنقلة نقلة غزالي

لبست بدلة وشلحت بدلة تحت البدلة شي ضوالي.

(تتم التليسة)

وردة

: دعيني أرى.. تفتلي قليلاً.. الله.. خزيت العين. بدر

واكمل. انظري إلى نفسك بالمرأة يا ألامسة.

(تنظر ألامسة إلى نفسها بالمرأة نظرة غريبة ومسحورة. تقترب

منها وردة).

وردة

: هل ألمح ندماً في عينيك يا ألامسة!

ألامسة

: لا.. لآندم. هذا كالسحر. إني مبهورة.

وردة

: هاتي كؤوساً وشراباً حقيقياً يا بسمه. بالخر سنساعددها على

تخطي العتبه. وبالخر سنبارك الاسم والصحة. وبالخر

سنسقي البهجة والموجة. يا الله يا بنات..

يا قضاة مغبرة ويا قضاة ناعمة شوف عيني شوف

(تبدأ بالرقص، والبنات يرافقنها بالغناء والتصفيق. بعد عدة

دورات تسحب ألامسة إلى الرقص لتحل محلها. بعد تردد

قليل، تبدأ ألامسة بالرقص بينما يشتد التصفيق. ترافقها وردة

وكانها تعلمها كيف تجعل أداؤها أفضل).

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الثالث

(عباس. يدخل العفصة حليق الشوارب، ناعم الوجه، يعتمد التخنت بحركاته وكلامه).

عباس : (يرمقه باستغراب ونفور) قاتلك الله.. ماذا فعلت بنفسك؟
 العفصة : فكرت أن أقدم لك هدية يا نور عيني.
 عباس : أي عفريت ركبك!
 العفصة : لم يركبني إلا هواك.
 عباس : وهل قلبت سحتك من أجل هواي؟
 العفصة : لا تجعلني أبكي.. أردت أن أحلو في عينيك. لاحظت أن
 ولعلك يخف، وأنتك تبتعد عني، فأصابني فزع رهيب.
 وفكرت.. كيف أرضي حبيبي.. كيف أرضيه..؟ وخطر لي
 أن اقدم لك أئمن ما لديّ وآخر ما يميّزني في عيون الناس.
 (يخرج من جيبه منديلاً حريراً معقوداً بأناقة، ويقدمه لعباس).
 تفضل يا أبا الفهد.. إنها هديتي لك.

عباس : ما هذا؟
 العفصة : افتحها، وسترى ما فيها.
 عباس : (يفك ربطة المنديل، فيظهر ما فيها) أهى شواربك!
 العفصة : نعم.. هي شواربي، أحبها لك. ويمكنك أن تعلن في طول
 المدينة وعرضها أن شوارب العفصة ملكي، وأن العفصة كله
 ملكي.

- عباس : أعوذ بالله.. ما الذي دهاك يا بني آدم!
- العفصة : أخاف أن تهجرني. بعد أن كشفت روحي، وأذقتني مسرة كنت أبحث عنها طوال عمري، لا أتحمل أن تبعد عني. إنك لاتعلم ماذا فعلت بي! لقد غيرتني، وقلبتني من أصلي.
- عباس : ألم تكن تريد السترة، وتخاف البهدة!
- العفصة : لم أكن أعرف سطوة الحب وجنونه. السترة! وهل يستطيع العاشق أن يستتر! لم أعد أبالي بشيء. إن جفوة منك أشد علي من ضياع اسمي وكرامتي ومكاني بين الناس. لايهمني أحد.. لايهمني إلا أنت. وأريد أن ترغبني، وأن تجدني حلوا وطرياً بين يديك. انظر.. تنفت شعري كله. ساقاي ويدي وكل شيء. ولو شئت أن تقطع لحمي، فإني مباح لك.
- عباس : أعوذ بالله.. وهل تعتقد أنك ترضيني إذا تخشت!
- العفصة : وما الذي يرضيك؟ ألا تفضلني ناعماً وطرياً؟
- عباس : إنك تثير نفوري. ما أنت الآن إلا علق يتدرب على المجون.
- العفصة : إني علق لك. وأردت أن تعرف أنني تحوّلت، وأن لدي الشجاعة كي أعلن تحوّلي، وأواجه الناس به. قل لي كيف تريدني؟
- عباس : أردت أن تظل رجلاً إلى جانبي وبين يدي.
- العفصة : لايهمني ما أكون. ولكني لك وبين يديك.
- عباس : مع هذا التخنث السافر، أخجل أن تكون إلى جانبي. وأخجل أن يعرف الناس أن لي صلة بك. بهذه الهيئة، ما أنت إلا سمس آخر.
- العفصة : لا تقتلني يا أبا الفهد. ما فعلت هذا إلا من أجلك. وأنت تعرف أن ما فعلته باهظ التكاليف علي. إنه في بلدنا كالموت أو أسوأ من الموت. ولكنك تتظاهر بالغضب والنفور، لأنك تبحث عن حجة كي تقطع ما بيننا (يفص وينخرط في

البكاء) إني لا أتحمل هجرانك.. إني لا أتحمل أن ترميني بعد أن غيرت تكويني. غدوت كالماء في صفائه ووضوحه. كيفما نظرت إلي، ستجدني واحداً. هيئتي هي سريرتي، وسريرتي هي هيئتي. ألم تقل إنك تنفر من له مظهر ومخير! وما فعلته هو أنني أظهرت مخبري، ولم يبق لدي ما أكتمه أو أخفيه. أردت أن أقوي أسباب الود بيني وبينك، وأن أعترف دون مداورة أو تستر أنني أعشقتك. هذا العشق هو الذي جرأني على نفسي وعلى الناس، وهو الذي يمدني بالشجاعة والحياة.

عباس : ما هذا الهبل الذي تسكبه في أذني؟ إنك تتكلم مثل قحبة قرحها الغرام والحرمان.

العفصة : أتكلم كما يتكلم العاشق.
عباس : وتحدث عن العشق وأكل الهوى..! لا يكون بين الرجال عشق وغرام.

العفصة : ماذا كان بيننا إذن!
عباس : أتريد الصراحة؟

العفصة : نعم.. حان وقت الصراحة ولو كان فيها مقتلي.
عباس : ما كان بيننا هو شهوة تزول مع قضاء الوطر. وكان يلذ لي أن أعلو رجلاً محسوباً على الزكزية، وأن أرى قامته تتكسر وتتصاغر بين فخذي. أما الآن، فأني لذة ساجنيها من اعتلاء مخنث رقيق!

العفصة : أعلم يا أبا الفهد.. إن مواجهة زكزية البلد مجتمعين لا يحتاج إلى الشجاعة التي احتجتها كي أفعل بنفسني ما فعلت.

عباس : دعنا من المنفخة.. أهني شجاعة أن تمسخ نفسك، وتصبح عزة لمن يعاشرك أو يقترب منك؟

العفصة : تخلّيت عن كل ما يخصني، لكي أخصك وحدك، ولكي يعرف الجميع أنني منذور لك. فهل يكون هذا التفاني عزة تخجل منها، وتتحاشاها! لو كنت تبادلني العشق، لقدّرت ما فعلت من أجلك.

عباس : كلما تحدثت عن العشق، سقطت من عيني أكثر.
العفصة : سقطت من عينك لأنك تريد أن تقطع ما بيننا. لا تظن أنني لأعرف ما يجري. منذ أن طلبت منك قعبة الحسب والنسب ألماسة أن تكون حاميتها، بدأت تبعد عني وتظهر الفتور لي. لا يزعجني أن تكون حاميتها. وسأعمل بين يديك خادماً وسنداً، ولكن لا تقطع ما بيننا. لا أعرف ماذا أفعل بحياتي إن تقطع ما بيننا.

عباس : أشعر بالفور، ولم يعد يلائم سمعتي أن تكون بيننا صلة.
العفصة : أرجوك تمهل..

عباس : هذا قراري، ولا تذل نفسك أكثر.
العفصة : أكنْتُ مخدوعاً يا عباس! ألم يكن لديك إلا هذا المظهر الذي تثبّت به، وكأنه وجودك وعلامتك! لن أذل نفسي أكثر. ولكن لدي رغبة صغيرة أود أن تلبّيها قبل أن نفترق.

عباس : وما رغبتك؟

العفصة : أن تنازلني في ليّ الذراع.

عباس : أتريد أن تمتحن قوة ذراعي!

العفصة : أعرف قوة ذراعك، ولكن لم أعد أعرف هل بقيت في ذراعي قوة.

عباس : وقرّ على نفسك هذه المهانة.

العفصة : هذه المهانة هي رغبتني الأخيرة، فلا تخذلني.

عباس : سأسحقك.

العفصة : سحقته ما هو أهم من ذراعي، ولن يزيدني ألماً أن تسحق

ذراعي. تعال..

(يجلسان حول طاولة. تماسك قبضتهما، ويدأ كل منهما في السد كي يلوي ذراع الآخر. يستمران فترة طويلة ولا يفلح عباس في لئ ذراع العفصة. تحمر أوداجه، ويدو الغضب على وجهه).

العفصة

: هل نواصل؟

عباس

: (محتقناً) لا.. هذا يكفي.

العفصة

: (قبل أن يرخي قبضة عباس، ينحني بلطف، ويقتلها) الآن.. وداعاً يا عباس.

عباس

: (وهو يتناول المنديل الذي يحتوي على شوارب العفصة) خذ هديتك قبل أن تخرج.

العفصة

: هي لك ولا يهمني ما تفعله بها.

(يخرج العفصة).

عباس

: ماذا دهاني؟ من أين جاءته هذه القوة؟ كاد هذا الخنث أن يلوي ساعدي. لعنة الله عليه. لقد أفسد مزاجي.

(يرمي الشوارب على الأرض، ثم يدوسها بغضب. وكما لو كان الغضب يتصاعد في صدره، فإن قدمه تدوس الشوارب بحركة متصاعدة العنف).

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الرابع

(في بيت عبد الله. حلقة ذكر في أوج احتدامها. وعبد الله في وسط الحلقة يدور ويترنح وهو يردد.. الله.. الله.. عينا زائفان، وملامحه تتم عن الغياب. وبعد قليل يسقط على الأرض، ويبدأ جسده اختلاجات لا إرادية ومتلاحقة. حين يهدأ جسده ينسحب الحضور انسحاباً خفياً. يظل عبد الله وحيداً، راقداً على الأرض. يدخل الولي).

الولي : أين بلغت؟
عبد الله : (يرفع رأسه ويتلجلج صوته) لاشيء.. وهن في الجسد، وغبش في العين.
الولي : إنك تبدأ الطريق. والطريق طويلة.
عبد الله : (يعتدل في جلسته) أشواق محرقة، والوجد يملأ جوانحي. أحياناً، أحس أنني أقرب.. أن بارقة ستسطع، وأن النور سيغشائي. ثم يفرق كل شيء في الظلام، وأعود إلى فقري.
الولي : لا نصل إلى النور إلا بالسوانح النورية.
عبد الله : وكيف السبيل إلى نيل هذه السوانح!
الولي : البعض ينفق السنوات الطوال، ويظل لا يرح مكانه.
عبد الله : لاتضعف همتي. تحوّل وجدي إلى حصر يغمّ صدري. لا آكل إلا بُلعة من الطعام. ولي في كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة.

- الولي : أتمنّى الحق يا عبد الله؟
عبد الله : معاذ الله يا سيدي.. ولكن أشعر أن بيني وبينه حجاباً سميكاً، لا يكاد يرق. حجاباً يوجع قلبي، ويملأني بأساً من نفسي.
- الولي : نفسك هي حجابك، والنفس هي أصعب ما يعالجه المريد.
عبد الله : دعوته دعاء من لا يرجو سواه. وناديته بالاستغاثة، فلم يلتفت إلى صدق دعائي ويأسي من نفسي.
- الولي : دعاء السجين في نفسه لا يخلو من الأناية والشوائب.
عبد الله : أما من رسالة أو كتاب؟
الولي : لا خير في الكتب. من جاع جوع القوم وسهر سهرهم، رأى ما رأوه.
- عبد الله : أما من نصيحة؟
الولي : أهمل بدنك حتى يتراكم عليه الوسخ، وعفر وجهك ومرقعتك حتى يزدريك من يراك. لا تقصّ ظفراً ولا شعراً، واترك القمل، يتناثر على وجهك وثيابك. ثم ادخل إلى حيّك الذي تُعظّم فيه حتى ينظر إليك أصحابك، ويسقط باللوم جاهك، ويلاحقك الصبية بالتقريع والسخرية.
- عبد الله : ألا يوجد سبيل آخر؟
الولي : ابتدئ بهذا قبل كل شيء حتى تُسقط جاهك، وتُذل نفسك، ثم عد إلى معتزلك خفيفاً، لاتملك شيئاً ولا يملكك شيء. وكرّر النداء..
- عبد الله : وهل يغنيني لو فعلت؟
الولي : حين تترك نفسك وراءك، تجده أمامك وبين عينيك. فهل تفعل؟
- عبد الله : نعم.. سأفعل. لأن الوجد يهلكني.
الولي : إن تعظيم الناس يصرف عنه يا عبد الله.. وإن الدنيا لقمة

مسمومة. ومن يحب لا يزعه لوم اللائمين. ولا تنس أن
هناك عشاقاً سبقوك، كانوا يولون الدم إذا ذكر الله عز
وجل. وسعيد من يرقى المقامات، ويصل إليه، فيفنى في
غبطته.

(يختفي الولي).

عبد الله : ما أعظم أشواقى. اسقوني يا ثقاتي. قَطُّروه واسقوني.
أسكرونى حتى أفقد بصر عيني، وأبصر بعيني ذاتي. الله.. الله..
الله.. الله.. الله...
(تلاشى الإضاءة).

المشهد الخامس

(في بيت المفتي. الشيخ محمد رسمي الخزار وهو والد مؤمنة التي صارت ألامسة. المفتي. ألامسة).

المفتي : زيارتك مشرفة وكريمة يا شيخ محمد. وإن كنا نودّ لو أن دواعيها مختلفة. هذه هي ابتك.. أرجو الله أن تهديها إلى الصواب، وأن تسترجعها للعيش في بيتها وفي كنف أهلها.

الشيخ محمد : مشكور سعيك وترحيبك يا شيخ قاسم.

ألامسة : ألا تتعب من المكر والترتيب يا مفتينا!

المفتي : لا يلام فاعل الخير يا مؤمنة.

ألامسة : اسمي ألامسة. وأمرك مع الخير يحترني مكره والتواؤه.

الشيخ محمد : حقاً.. لقد تجاوزت في النشوز كل حد. ليس لك كلام وأنا موجود في الحضرة. هل تتكرم يا شيخ قاسم، وتركنا برهة على انفراد!

المفتي : طبعاً.. طبعاً.. البيت لك. وأوصيك يا ابنتي أن توقّي أباك حقه من الطاعة والتوقير.

(ينسحب المفتي، ويترك الشيخ محمد مع ابنته).

ألامسة : هل وسّطت المفتي كي تلتقي بي!

الشيخ محمد : لم يكن هناك سبيل آخر.

ألامسة : لماذا لم تطلب مني أن أوافيك في البيت!

الشيخ محمد : أنت تأتيين إلى البيت! ألا تدركين أنك صرت عاراً يلطخ

البيت وأهله! إنني أشعر بالامتنان لأن المفتي رضي أن تدخلني بيته. ما الذي حل بك! كيف سيطر عليك إبليس، وساقك كالعمياء إلى الرذيلة والفاحشة؟ أين أوارى وجهي، وكيف نواجه الناس! إن فاحشتك لا يكاد يصدقها الخيال. غدونا سيرة المدينة ومضغة في أفواه الرعاع.

ألماسة : ما أفعله لا يخص أحداً سواي.

الشيخ محمد : وترفعين عينيك في وجهي! من أين تعلمت هذا الاستهتار! في بلدنا سمعة الحرمة تخص أهلها قبل أن تخصها. إنها بلاء على الأب والأخ والزوج والقريب. أهذه هي التربة التي أنشأتك عليها؟ أهذا هو التعليم الذي ميّرتك به عن بنات الآخرين؟ ماذا أصابك؟ لا يمكن أن تفعلني هذا الأمر الفظيع إلا إذا كنت مسكونة أو مجنونة!

ألماسة : نعم أيها الرجل التقي.. إنني مسكونة. مسكونة بالأشباح التي كانت تختفي في القمة. مسكونة برائحة الشهوة التي كانت تملأ أعطاف البيت. كنت أميز الروائح التي تعرفتها طفلة، والتي أدمتها بالغه. نعم.. مسكونة بالهمس المكتوم والفضائح المخنوقة. أتحدثني أيها الرجل التقي عن التربية! هل تعرف ما هي النار التي وشتت جسدي، وأنضجته قبل أوانه! إنها نار شهوتك التي لا تفر، ومعها شهوة برك الذي تفاخر به. إنها نار الحرقه في دموع أُمي، وصمتها الموجوع. إنها نار عينيك اللتين كانتا تلحقان بي في الدار وبيت الحلاء ومحل النوم والخلوة.

الشيخ محمد : اخرسي.. قطع الله لسانك. ما أنت ابنتي التي أعرفها. إن إبليس هو الذي يسكنك، ويتكلم من فمك.

ألماسة : وهل كان إبليس هو الذي يعلم الخادومات طبقات ومراتب

الفجور، ويفضّهن قبل البلوغ، ثم يلقي العباء على الأم التي تذوي كي تكتم الفضيحة، وتغطيها! أتعلم أن الغاية التي شغلت الشام، وسبب لبّ نقيب الأشراف كانت خادمة في بيتنا، وكنت معلمها الأول في فنون اللذة والفجور!

الشيخ محمد : (يصفعها بعنف وهو يرتعش انفعالاً وغضباً) اخبرني.. لعنة الله

عليك. هل فقدت كل أدب؟ هل فقدت كل حياة؟

الماسة : لا تلم إلا نفسك يا أبي. أنت من مرّق حياتي، وأنت من

زرع الغواية في نفسي. نعم لقّنتني كلمات، لكن ما قيمة الكلمات وأنا أبصر كيف تمارسها، وكيف تختلس النشوة من أضدادها؟ حقّظتني القرآن، وعلمتني في الوقت نفسه كيف يكون ترتيل القرآن ستاراً للتهتك والفسوق. إني ابتكت وأهوائي ثمرتك، وما أفعله الآن تخمّر، ونضج بتلك الرائحة الحريفة التي كانت تنبعث من ظلمات البيت، وتنتشر في أرجائه.

الشيخ محمد : ملعونة أنت حتى يوم الدين. أتساوين نفسك بالرجال..؟ لولا

حرمة المرحومة لقلت إنك لست من لحمي ودمي.

الماسة : إني من لحمك ودمك يا أبي. ولم أذكر ما ذكرت كي

ألومك أو أدينك. أردت أن تكون مواجھتنا في الضوء، وأن يكون حوارنا صريحاً لا يموّهُه نفاق أو رياء. علمتني كيف أتلمس جسدي وكيف أكتشف ينايعة. ورغم أنك تستنكر ذلك، فإني أعتبر ما تعلمته فضلاً كبيراً وكثراً ثميناً.

الشيخ محمد : كأنك تتباهين بالنشوز والدّعارة! اسمعي.. إما أن تتوبي

وتنجني شيبتي هذا العار، وإما أن تهلكي.

الماسة : لا تهددني يا أبي.

الشيخ : إني أخيرك، ولولا رقة الشيخوخة لما أمهلتك حتى الآن.

الماسة : لا تنس يا أبي أن الفضائح ملفوفة بأغشية رقيقة. وإن أصابني

مكروه، فإن وردة ستمزق الأغشية، وستعلن الفضيحة في كل المدينة، سيكون عليك أيها الرجل التقى أن تواجه بدلا من البلاء بلاءات كثيرة.

الشيخ محمد : أهذا هو جوابك لأبيك؟

ألماسة : تهديك هو الذي أملى جوابي. أبي.. عشت هذا العمر الطويل مستورا. وكنت بارعا في تغطية أفعالك، ومحو الشبهات حولك. وأعتقد أنك تستطيع رتق نشوزي، والحفاظ على سمعتك العاطرة بعيداً عني. وفي النهاية، ألا نعرف أن أحداً لا يحمل وزر الآخر، وأن لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت؟

الشيخ محمد : لاشك أن أمك تكن في قبرها.

ألماسة : لا تذكر أبي. من جعلها تكن طوال حياتها، لايحق له الآن أن يتباكى عليها.

الشيخ محمد : متى ريت في صدرك هذا الحقد وهذا الجحود؟ أتريدن عقابي! أتريدن عقابنا جميعاً، لأن زوجك غرته الجهالة، وأخطأ في حقك!

ألماسة : لا أحاول الانتقام يا أبي. وزوجي لم يخطئ في حقي.

الشيخ محمد : إذن أنت ضحية عمل أو رصد. هناك من أعمى بصيرتك. عودي إلى رشدك يا ابنتي، واستري شية أبيك. سنقول إن مسأأصابك. ومع الأدعية والنذور، سنشفيك من هذا المس، ونطوي القصة في ذاكرة الناس.

ألماسة : هذا مصيري يا أبي، وسيصيني المس لو تنكرت لمصري.

الشيخ محمد : أعوذ بالله.. هذه مكابرة إبليس.

ألماسة : ألم يكن إبليس ي ساكننا! ألم يرافقنا في الطفولة والصبا!

الشيخ محمد : لا أعرف فيك على ابنتي. إنك بنت زنى. لعنة الله عليك.. واني أترأ منك أمام الله. لا ابنة لي ولم يعد لك أب.

- وسنرى إلى أي منقلب تنقلبين.
- (يصق عليها، ويخرج).
- المأسة : (وهي تمسح وجهها) أيها الشيخ المسكين. هي بذرتك التي أينعت، وبرزت للنور. فعلام الغضب!
- (يدخل المفتي منفلاً).
- المفتي : هل أغضبت أباك؟
- المأسة : لم نستطع تحاشي الغضب. لماذا دبّرت هذا اللقاء؟
- المفتي : لأن أباك أراده، ولأننا جميعاً نحس بالصدمة والهول. كيف يمكن أن تنزلقني إلى هذا الحضيض! إنك تذهلينني.
- المأسة : ولم الدهول! ألم تكن تعرف!
- المفتي : أتريدن أن تحمّليني جريرة هذا العمل الفظيع؟
- المأسة : لا أريد أن أحملك شيئاً. ولكن أعتقد أنني شرحت لك الكثير عن غواية الهاوية.
- المفتي : قلت كلاماً لم أفهمه جيداً. وأنا لا أفهمك الآن. إنني لا أفهمك أيتها المرأة، ولا أعرف كيف تفكرين، وكيف تسلكين!
- المأسة : ليس ضرورياً أن تتعب نفسك في فهمي.
- المفتي : بل أحتاج إلى فهمك. إنك..
- المأسة : (بعد أن استدرك نفسه وتوقف) إنني؟
- المفتي : (مخرجاً) لا أدري.. إذا كان تديري هو الذي رماك إلى هذا المصير، فإنني مستعد لإصلاحه. لا أريد أن ينوء ضميري تحت وزر ثقيل.
- المأسة : وكيف ترى السبيل إلى إصلاح ما حدث!
- المفتي : إنني أعرض عليك الزواج.
- المأسة : أتزوج عاهرة يا شيخ قاسم!
- المفتي : لاتسيئي إلى نفسك.. إن معدنك أصيل. وما حدث هفوة

- يمكن أن نتغاضى عنها.
 : إنه عرض كريم، ولكن لا أعتقد أنني أستحقه.
 : إنك أفضل من يستحقه. سأنسى كل شيء، سأجعلك المدللة
 بين نسائي.
- ألماسة : وهل تفعل هذا كله كي تريح ضميرك!
 المفتي : بل.. ولم لا.. أريد أن يكون ضميري مستريحاً.
 ألماسة : لا تحمل ضميرك أي وزر. كنت أنتظر أي صدفة كي أتبع
 غوايتي. وما أفعله هو خياره وحدي.
- المفتي : ومع هذا.. ما زلت أعرض عليك الزواج.
 ألماسة : لم أطلق زوجي كي أتزوج قرينه.
 المفتي : أترفضين عرضي!
 ألماسة : مقامي لا يتيح لي أن أستحقه أو أقبله.
 المفتي : ما أنت أيتها المرأة! ماذا تريدين، وعمّ تبحثين؟
 ألماسة : إنني أبحث عن شيء لا يمكن أن يفهمه رجل مطمئن النفس
 مثلك.
- المفتي : ومن قال إنني مطمئن النفس؟
 ألماسة : ألم تقل لي إن دخيلتك صافية، وليس فيها ما تخفيه، أو ما
 تخجل منه!
 المفتي : ربما قلت. لا.. لم أعد مطمئن النفس. أخبريني ماذا تريدين،
 وعمّ تبحثين؟
- ألماسة : سيدو ذلك غامضاً، ويصعب شرحه. حيث أتأرجح على
 الحافة، وتناديني الهاوية، يخيل إلي أنه، وفي لحظة سقوطي،
 سينبت من مسامي ريش ملون. من جذور نفسي سيطلع
 الريش مزدهراً ومكتملاً، وسأخلق في الفضاء كالطيور
 والنسائم وأشعة الشمس. أريد أن أقطع الأمراس الليفية
 الحشنة التي تحفر لحمي، وتقمع جسدي. أمراس مجدولة من

الرعب والحشمة والعفة ومشاعر الدنس والقذارة.. من
المواعظ والآيات والتحذيرات والأمثال ووصايا الأسلاف.
صفائح فوقها صفائح، يذبل الجسد داخلها ويضمّر. أريد يا
شيخ قاسم أن أعتق جسدي، وأفك عنه هذه الجبال التي
تمتص دمه، وتقمعه. أن يغدو حراً، وأن يستقر في مداره
الذي خلق له، كالورد وأوراق الشجر، كالقمر وأعشاب
الأرض، كالغزلان ونباتات السفوح، كالنور وكل ما هو حي
في هذا الكون. أحلم أن أصل إلى نفسي، وأن أكون شفاقة
كالزجاج. ما تراه العين مني هو سريري، وسريري هي ما
تراه العين مني. إن في قلبي مواجد محرقة، وأشواقا كاوية،
من العسير أن أشرحها، أو أجد تعبيراً يلائمها.

: عجيب أمرك يا مؤمنة!

المفتي

: قلت لك.. اسمي ألماسة، وأنا حريصة على حماية اسمي.

ألماسة

: عجيب أمرك يا امرأة! تقولين مالا يدركه العاقل. ماذا

المفتي

تقصدين؟ هل تزينين الانحلال؟ هل تعتقدين أنك ستجدين
ما تفتشين عنه في الدعارة؟ هذا غريب.. هذا شاذ وغريب..
قولي لي إن هذا كله ليس إلا نزوة.

: نزوة..! لا يقلب المرء مصيره من أجل نزوة. وفي معاييرك

ألماسة

ينبغي أن يبدو الأمر شاذاً وغريباً.

: لا معايير فقط بل معايير الناس طراً.

المفتي

: نعم.. وأول المقامات في رحلتي هو أن أرمي وراء ظهري

ألماسة

معاييركم. ينبغي أن أتخلل من أحكامكم، ونعوتكم،
ووصاياكم كي أصل إلى نفسي. ينبغي أن أتجاوز خطر
الانتهاك كي ألتقي جسدي، وأتعرّف عليه. صنعت مني
عورة هشة يمكن أن تنتهكها الكلمة والنظرة واللفتة. وجعلتم

دأبكم انتهاك هذه العورة، فصرنا جميعاً زواحف تتناهش في مستنقع من الأكاذيب والمظاهر والقيود. وأنا يا شيخ قاسم قررت أن أخرج من المستنقع النتن، وأصير بحراً لا ينتن. في الدعارة سأخلع عني صفة العورة وشرطها، وسأغدو خارج حدود الخوف والانتهاك. لا أعتقد أنك ستفهمني. وعلى كل لم يعد مهماً بالنسبة لي أن يفهمني أحد.

: دوختني يا ألماسة. في نبرتك وتصميمك ما يرعش بدن السامع. تمذّين يدك إلى المعاصي بهتور لم تسبقك إليه امرأة في هذه المدينة. أعرف أن في صدرك أهواءً عنيفة، ولكن هل أستطيع أن أتركك تمضين في هذا الدرب؟ إن امرأة لها عزمك وقدرتك على الكلام، يمكن أن تفسد سلطنة من النساء. إنك تقلبين مألوف حياتنا، ونظامنا، ومستقبلنا. لا.. لا أستطيع أن أسمح لك.

المفتي

: وماذا تريد أن تفعل؟
: إن سلاح الفتوى يستطيع أن يفعل الكثير.
: هل أفهم أنك تعلن الحرب؟
: هذه حرب لا أريدها، ولا أتمناها. اصغي إلي.. من منا لاتراوده في خلوته أهواء وأشواق! من منا لاتوسوس له الشياطين في لحظة الغفلة!

ألماسة

المفتي

ألماسة

المفتي

: أتعترف أن لديك أهواءً وسواساً!
: (محققاً) نعم.. إن لدي أهوائي وسواسي. ولكنني أضبطها، وأكبت جموحها. إن أملك يهمني، ورغم كل هذه الاعترافات ما زلت راغباً بك.

ألماسة

المفتي

: ستجعلني أظن أنني بعض وسواسك.
: لا أدري إن كان وسواساً، أو حمقاً، أو جنوناً. منذ التقيتك وصورتك تلاحقني. إنك قلق في الفؤاد، واضطراب في

ألماسة

المفتي

الروح. لا أدري ماذا أقول.. ولكن أرجو أن تعقلي، وأن تقبلي عرضي.

ألماسة

: أهو الحب يا مفتينا..!

: لا أدري ما هو، ولا تسأليني شيئاً. هل تقبلين الزواج أم لا..؟

المفتي

: إن طريقتنا مختلفتان. وأشواقى لا يمكن أن يليها الزواج.

ألماسة

: أتوصل إليك.. لا تسرعي في الجواب. تمهلي، وفكري..

المفتي

إني.. إني أريدك.

: هذا الاعتراف يمكن أن يشعر أي امرأة بالزهو، ولكن ما

ألماسة

العمل.. قلت لأني إن مصيري تقرر. ولا أستطيع أن أهرب

منه، أو أتنكر له.

: في هذه الحالة، أنت من يعلن الحرب.

المفتي

: لو نشبت الحرب، فستكون هي الأخرى جزءاً من مصيري.

ألماسة

حين يترك المرء الحافة ويعوم في الفضاء، يستحيل عليه

الرجوع إلى الورا. والآن وداعاً يا مفتينا.

: ليس بعد الحافة إلا القاع.

المفتي

: (وهي تخرج) هذا احتمال لم يغب عن البال.

ألماسة

: يا رب.. ما هذه المرأة! أين أنزلق، وكيف أهدئ هذا الخفقان

المفتي

في روحي! يا رب.. إني مأخوذ، وإني عاشق. لم تبقَ في

هذا القلب أي مسرة.. لا شيء إلا الوسوسة والكدر.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد السادس

(في السوق. إبراهيم دقاق الدودة وحميد العجلوني أمام محلاتهما وثمة مارة في الطريق).

- حميد : (يصرخ من باب المحل) يا ولد.. أسرع بالشاي.
الولد : (من الداخل) سأحضره حالاً.
إبراهيم : هل تسجل الوقائع المذهلة التي تجري حولنا؟
حميد : والله هذه غرائب تسلب الرشد، ما عرفناها على عهد آبائنا وأجدادنا. تقول حسدنا أنفسنا على الحياة الرائقة التي تميّز هذه المدينة.
إبراهيم : أتصدق.. صار النوم يجافيني. كلما فكرت أن مؤمنة بنت الخزار فتحت بيتاً وتسمّت ألامسة، أشعر بالحصر وبأن حياتنا مقبلة على القوضى والجنون.
حميد : يا سيدي.. بدأ الجنون فعلاً. لا حديث على لسان أحد إلا ألامسة. بدأ العطارون يستّمون أفخر عطورهم ألامسة. وبائعو الذهب لا يصنعون حلياً إلا كالتّي تتزين بها ألامسة. وقيل لي.. سينزل إلى السوق حرير اسمه ألامسة. لقد جن الناس، وسيطر عليهم ما يشبه السحر الأسود.
إبراهيم : والمفتي..! أليس الواجب أن يتحرك، ويتصدى لهذا الجنون!
حميد : علينا أن نزوره، ونتداول الأمر معه. لاشك أن انزواءه يخفي سرّاً. (هامساً) يا سيدي.. يبدو أن سحر ألامسة لطش عقل

- الوالي نفسه.
 (يدخل الولد حاملاً صينية وطفلية صغيرة. يركزها أمامهما،
 ويصب الشاي لهما).
 الولد : شاي ألماسة يا سيدي..
 حميد : تأدب يا ولد.. ما هذا الكلام!
 الولد : كل شيء فاخر اليوم يسمونه ألماسة يا سيدي. انظر.. شاي
 أكرك عجمي أصلي.
 حميد : (وهو يصفعه) انقلع من وجهي.. (يغيب الولد في المحل، وهو
 يضحك) تفضل يا سيدي.. حتى الأولاد صاروا يلهجون
 بذكرها، ويتلمظون باسمها. إنها جائحة من الجنون.
 إبراهيم : أعتقد أن هذا بعض تأثير الأجانب. إننا ندخل في فوضى لا
 أحد يعرف ماذا يكون ختامها.
 حميد : معك حق. هذه الجائحة تفوح منها رائحة غريبة.
 (يظهر سمس في الشارع، وهو يتقصع في مشيته).
 أحد المارة : كيف الشغل يا سمس؟
 سمس : حنّ طيزك. من كثرة المحلات سكرنا المحل. (يتوقف قرب
 حميد وإبراهيم) يا أهل الإسلام.. هل يجوز ما يحدث!
 كانت لي تجارة صغيرة على قدّ (ويضرب بيده على مؤخرته)
 هذه الراجحة. فضاقت عيون الجميع منها. الزكزية فتحو من
 الوراء، والأكابر فتحوا من قدام. قولوا أيها الأودام.. ألا تبور
 التجارة إذا كثرت البضاعة!
 إبراهيم : هل اشتدت المنافسة في سوق البغاء إلى هذا الحد؟
 سمس : إنها كالحمى. وإذا لم يسعفني رجل فاضل مثلك وأجره عند
 الله محفوظ، فإن العنكبوت سيعشش في دكانتي ومهجتي.
 حميد : اذهب قاتلك الله.
 سمس : يا حميد أفندي.. أنت لا خير فيك. لولا الجزر لكان حالك

- صعباً مع أهلك.
- حميد : (يهب غاضباً) تفو عليك وعلى مراك.. امش من هنا.
- سمسم : لا عليك يا حميد أفندي. ألا تحتمل مزحة صغيرة! إنكم لانتأجرون، ولا تواسون. ألا أقص عليكما خبر العفصة!
- حميد : اذهب يا سمسم. لا نريد أن نسمع شيئاً.
- سمسم : يا هو.. يا ناس.. لم يتركوا لمعلم الصنعة رزقاً. العفصة وست الأشراف ألماسة والذين يستعدون للتزول إلى السوق عشرات بل مئات. صارت ضيقة، ضيق الله عليهم.
- (يواصل سيره).
- حميد : كيف سكنتنا على مثله! أما كانوا يهدرون دم أمثاله!
- إبراهيم : كان ذلك قبل أن يملأ أمثاله قصور السلاطين، وأولياء الأمر.
- حميد : ينبغي أن نزور المفتي هذه الليلة.
- إبراهيم : كما تشاء.
- (ترتفع جلبة صبيان لا تلبث أن تتضح تدريجياً. ونرى عبد الله وقد علق كيساً في رقبته وملأه جوزاً، والأولاد يتدافعون وراءه).
- الأولاد : (يغنون ويصفقون) يا عبد الله.. يا مجنون، ضروب الكف وخود الجوز.
- عبد الله : (يقربون تدريجياً في السوق، والناس تفرج عليهم، وتحول).
- عبد الله : (إلى أحد الأولاد) جاء دورك. (يتردد الولد) تعال.. هذه هي الجوزة. نعم.. نعم على الخد. لاتخف، وقوها. (يصفعه الولد على خده) وهذه هي الجوزة. انظر إذا كانت فارغة، سأبدلها لك.
- الأولاد : يا عبد الله.. يا مجنون. ضروب الكف وخود الجوز.
- عبد الله : (يندفع حميد وإبراهيم، ينهران الأطفال، ويحاولان تفريقهم).
- عبد الله : دعوهم.. فإنهم يفكون أغلال، وينقذونني منها.
- حميد : ثم ينقذونك أيها السيد، وماذا تفعل بنفسك؟

- عبد الله : ناديته بالاستغاثة.. إلهي! أدعوك دعاءً لم يبق له غيرك! فلما عرف صدق الدعاء من قلبي والإيأس من نفسي، كان أول ما أورد علي من إجابة هذا الدعاء أن قال.. اترك نفسك وتعال. وحين تركت نفسي، نظرت إلى الخلق، فرأيتهم موتى، فكبرت عليهم أربع تكبيرات.
- حميد : لايجوز يا سيد عبد الله.. إنك تحط من مركز ومقامك.
- عبد الله : وددت أن الله تعالى جعل الدنيا بزيتها ومراكزها لقمة واحدة، فأعطانيها حتى أنبذها بين يدي كلب، فلا يغتر بها الخلق.
- إبراهيم : طيب.. تعال. لندخل إلى المحل، ونتكلم.
- عبد الله : إليكم عني. من عرف الله، بُهت ولم يتفرغ إلى الكلام.
- حميد : يا سيد عبد الله..
- عبد الله : إليكم عني. (إلى الأولاد) تعالوا يا أحبائي.. فأنتم رحمتي. تعالوا، وحرروني من اللؤمة، والأثمارة والسجانة.
- (يتابع طريقه ملوحاً للأولاد بكيس الجوز. بعد تردد قصير يتبعه الأولاد، وهم يغنون ويصفقون).
- الأولاد : يا عبد الله.. يا مجنون. ضروب الكف، وخود الجوز.
- إبراهيم : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ما الذي بدّل أحوالنا على هذا النحو!
- حميد : لاشك أن عيناً أصابتنا.
- إبراهيم : كأن زلزالاً ضرب هذه المدينة المطمئنة، فخرّبها، وأخرج خبائث بطنها. بدأت أتطير فعلاً مما تخبئه الأيام.
- حميد : هذه الليلة، يجب أن نطلب من المفتي أن يتدخل قبل أن يجرفنا الخراب.
- إبراهيم : نعم.. حان وقت المفتي.
- (تلاشى الإضاءة).

المشهد السابع

(في بيت العفصة يجلس العفصة حزناً ومسحوقاً، وبين يديه جبل عقدت في طرفه أنشودة. بحركات شاردة يحف الجبل بقطعة صابون كي يلين، ويصبح زلقاً).

العفصة

: لم يعد هناك أمل أو رجاء. آه لو أحسن الكلام.. ولكن ما جدوى الكلام إذا لم يكن هناك من يصغي!.. فقدت مكاني في عيون الناس، والذي كشفت سري من أجله، رمانى وسناني عزة. فماذا بقي أمامي!.. هي خطوة محتومة، وعلي أن أخطوها. ما أغرب هذه الدنيا!.. إن كمت وأخفيت، عشت وتكرمت. وإن صدقت وكشفت، نبذوك وأخرجوك منهم. لم أعرف كيف أعبر له.. إني أشجع منه. أجبني حين كنت كذباً وهيئة، ثم ازدراني ورماني حين جئته صافياً كالبلور بلا كذب أو هيئة. هو الكذب، وهو الجبن. لم يفهم الشجاعة التي تحليت بها، والعذابات التي كابدتها كي أتصالح مع نفسي، وأغدو شفافاً. لا أستطيع أن أندم.. لا أستطيع أن أراجع، ولا أستطيع أن أتقدم. أغلقت الأبواب، وهذه الدنيا ظالمة لا يعيش فيها إلا المزور أو الكاذب.

(ويذهب إلى زاوية جانبية، يربط الجبل في عضاضة السقف، وتبدل الأنشودة.. يضع طاولة تحتها ويقف عليها. يضع الأنشودة في رقته).

العفصة

: يا الله.. إني أخجل من مناداتك، ولا أعرف كيف سألقاك.

يا رب وأنت العادل الرحيم.. تثبت قلبي، وصبر أُمي، واغفر

لي.

(يدفع الطاولة من تحت قدميه، فتزرد الأنشودة على رقبته.

حشرجات مخنوقة، ثم يعم صمت ثقيل، وتلاشى الإضاءة).

مكتبي سود الأريكة
www.books4all.net

المشهد الثامن

(بيت السيد محمد الخزار. الشيخ محمد ومعه ولداه. البكر عبد الرحمن والأصغر صفوان).

صفوان : (منفعلاً) لماذا نتحاشى الحديث في الموضوع! ومتى يقول الأب كلمته! فاحت رائحتنا، وزفرت هذه القحبة اسمنا وعائلتنا.

الشيخ محمد : اسكت، ولا تتكلم بلا إجازة.
صفوان : إننا لاتفعل شيئاً إلا التصقن. ألا ترى يا أبي أننا سجناء، وأنا لانستطيع مواجهة الناس ما دامت حية!

الشيخ محمد : لا أحب اللغو يا صفوان. هل صالحت زوجتك يا عبد الرحمن؟

عبد الرحمن : فعلت ما أمرتني به يا أبي.
الشيخ محمد : أي.. الله يرضى عليك يا ابني. أنا اخترتها لك، وأنا كفلت عند أهلها حسن المعاملة. فأرجو أن تحفظ عهدي، وأن تظل على وفاق معها.

عبد الرحمن : كان خلافاً عابراً، وأعدك ألا يتكرر يا أبي.
الشيخ محمد : أريد أن أظل سيد بيتي حتى يحين لقائي مع ربي.
عبد الرحمن : إنك السيد يا أبي.

صفوان : أتريد أن تكون سيد الغرف والحجارة، أم سيد أهل الدار!
الشيخ محمد : لا ترهقني أيها الغلام. رأيت فيما يرى النائم يا عبد الرحمن

أن السماء تمطر حين أقبض، وأن يداً نورانية تقشع الغيم عن وجه السماء حين أحمل، وأن شحروراً لطيفاً يكبر حين أضجع في القبر. كأني الآن أراه، وهو يحوم مسبحاً ومكبراً. أفليست تلك إشارة..!

عبد الرحمن : نعم يا أبي.. إنها إشارة وبشارة بعد عمر طويل إن شاء الله. الشيخ محمد : إيه.. كانت حياتي مكابدة قاسية ومرهقة. خلقني الله وخلق معي، في ذاتي عدوي. وأمضيت رداً من عمري، أعاند قضائي، وأتخطب في حربي مع نفسي. حرب رهيبة، يتواصل فيها الكر والفر. حين يغلبني، أخضع له وأشاطره عبثه. وحين أغلبه، يخضع لي ويشاركني صلواتي وخشوعي. كانت الحياة امتحاناً عسيراً، وعذاباً مقيماً. ثم ألهمني الله.. أنني وعدوي من خلقه وقضائه. وأن عليّ أن أبدل الحرب مساكنة وصحبة. فقررت نفسي، وعرفت الرضا والسكينة. ومازال الواحد يليي نداء الآخر طوعاً وحباً.. لقد جرت الامتحان، وأشعر أنني خفيف أمام ربي. والآن.. وأنا أتهياً لملاقاته، لا أريد أن أثقل خفتي بالدم.. فما قولك يا عبد الرحمن..؟

صفوان : وأنا..! لماذا لاتعترني، ولا توجه الكلام لي!

الشيخ محمد : اسكت أنت.

صفوان : لماذا أسكت!

الشيخ محمد : لأنك ترغي كثيراً، وتدبر قليلاً. أفسدتك أملك بالدلال.

صفوان : لماذا لا تجربني! كلفني أن أدبر أمراً.

الشيخ محمد : لن أكلفك، ولن تفعل شيئاً. ماذا قلت يا عبد الرحمن..؟

عبد الرحمن : القول لك يا أبي.

الشيخ محمد : هل تريد أن تلتطخ يدك بدمها؟

عبد الرحمن : سأفعل إذا أمرتني.

- صفوان : وأنا جاهز.
- الشيخ محمد : أخشى أن تفضحننا بالموت أكثر مما فضحتنا بالحياة. إنني على حافة قبري، ولا أريد أن احمل معي في الكفن وزراً ودماً. يكفي أن نتبرأ منها، ونتركها في ضلالها.
- صفوان : والناس.. بأي وجه سنلقى الناس! عافت نفسي هذا السجن. هي تسرح على كيفها، وأنا أنزوي خجلاً في هذا البيت.
- الشيخ محمد : هل توافقني الرأي يا عبد الرحمن؟
- عبد الرحمن : هذا هو الرأي الصائب. لماذا نضاعف الفضيحة دون فائدة. وأما الناس فسيعرفون أننا تبرأنا منها، وأنها لم نشأ أن نلوث أيدينا بدمها.
- الشيخ محمد : كان المنام إشارة. يريدني أن ألقاه خفيفاً.
- صفوان : هذا الرأي سيجعلنا شبة على الألسنة حتى أحفاد الأحفاد. لا.. لا بد من سفك دمها.
- الشيخ محمد : أنا أعرفك يا صفوان. كنت دائماً عرق ضراط، فلا تبجح أمامي.
- صفوان : وأنا أعرف أنك تكرهني، لأن أمي ميّرتني، وأحببتي.
- الشيخ محمد : لا أكرهك يا بني. لكن لا أحب أن تتشدد في حضرتي، ولا أقبل أن تخالف أمري..
- صفوان : إنك تقرر لنا العار، وتأمرنا بقبوله.
- الشيخ محمد : تأدب يا ولد.. حين يتكلم الكبار ليس عليك إلا أن تصغي.
- عبد الرحمن : عيب يا صفوان.. أتخالف رأي أهلك!
- الشيخ محمد : ومن الذي يخالفني! أنسيت يا ولد كيف يغمي عليك حين ترى دجاجة تذبح، أو دماً يقطر من جرح! دلتك أملك، ولم تعلمك الأدب. قم.. لا أريدك في حضرتي.
- صفوان : (وهو يخرج) سترى يا أي.. وسيأتيك خبري.
- عبد الرحمن : أخشى أن يتهور.

الشيخ محمد : لا تشغل بالك. هو يرغي، ويتشدد لا أكثر. أفسدته أملك
رحمها الله. وما أخشاه هو ألا يبلغ مبلغ الرجال أبداً.
عبد الرحمن : مازال صغيراً، وستنضجه الأيام. على كل اسمح لي أن
أهدئه، وأن أحتاط عليه قليلاً.
الشيخ محمد : لا بأس. ولكن علمه أن يتأدب في حضرتي. هيا بنا.. حان
وقت الصلاة.
عبد الرحمن : (وهو يساعد أباه على النهوض) يا الله..
(تلاشى الإضاءة).

المشهد التاسع

(في بيت المفتي. المفتي وحميد العجلوني وإبراهيم دقاق الدودة).

- حميد : فسد البلد، وتغيرت أحواله يا شيخ.
- إبراهيم : لم يعد المرء يتعرف على الشام التي ألفناها. شام المحبة والغيرة. أَلَّت بنا جائحة بدّلت العفة فجوراً، والأمن قلقاً وجنوناً. أَلَم تَصْلُك أخبار ألماسة، وما فعلته بالرجال! لا أدري من أين تهب علينا هذه الفوضى! منذ حكاية النقيب تزلزلت المدينة، وانقلب عاليها سافلها.
- حميد : وامتد البغاء إلى الرجال. تراهم يتبخثرون في السوق على عيون الناس، وليس من يستنكر. لقد أصابتنا عين أو عُمل بنا شر.
- المفتي : أعتقد أن لدي صورة وافية عما يجري.
- إبراهيم : لن ينقذ المدينة إلا موقف حازم كمثلك المواقف التي عوّدتنا عليها.
- حميد : هل تترث عن قصد!
- المفتي : نعم.. لماذا أترث..! لعلني أنتظر أن يسفر الشر عن وجوهه كافة.
- حميد : ونحن نقول.. أسفر الشر عن وجوهه، وبالغ في السفور.
- إبراهيم : هذا وأوانك، ولن يوقف تدهور الأحوال سواك.

المفتي : حقاً.. ربما أظف الوقت كي نجمع هذا الفساد. تلك المرأة سَممت حياتنا، وأزقت نومنا، مَسَّت عقولنا. تلك المرأة جسد يسكنه إبليس. ولن تعود المدينة إلى رواقها إلا إذا هتكنا إبليس، وطهرنا البلد منه. أيها الناس.. اطرّدوا إبليس، لاحقّوه، ارجمّوه. أعوذ بالله.. وأستغفر الله.. (ينهار على مقعده).

إبراهيم : هذا هو المفتي الذي نعرف. هذا هو الرجل الذي سيجابه الفوضى.

حميد : ما حالك يا شيخ! هل تشكو مرضاً؟
المفتي : ذكر الشيطان أنهكني. إني مرهق، أشعر انحلالاً في جسدي.

إبراهيم : عافاك الله.. هذا تعب الانفعال والغيرة. كيف كان يمكن أن تجري أمورنا، ولو لم يكرّمنا الله برجل مثلك؟
المفتي : (متعباً) هل تطلبان مني أن أفتي؟
إبراهيم : أنت أدرى منا. ولكن أعتقد أن هذه البلبلة لا تصلحها إلا فتوى حازمة.

المفتي : إذن.. ستكون فتوى رهيبة. فتوى تهدر الدم. وأي دم! (يتنفض، ويتكلم بشروء) سنغوص في الدم.. إن المعركة مع الشيطان مهولة، لأن للشيطان حيله والأعباء. في كل واحد بعض منه. وكل واحد سيقا تل نفسه، ويدبح نفسه، ويسفك دم نفسه. إني محموم.. وهذه الحمى لاتفارقني نهاري أو ليلي.

حميد : شفاك الله.. أتريد أن نعود في وقت آخر؟
المفتي : لا.. هذه الليلة يجب أن يحسم المفتي أمره. أأست ملجأكم..! أأست مفتيكم..! يجدر بي أن أألمم شتاتي، وأن أقهر ضعفي، وأن أعلن حربي. نعم.. حرب ستطهرنا، وتعيد

ما تخلخل من أوضاعنا إلى مقامه ومكانه. (بلهجة إعلانية)
 إن مفتي الديار الشامية (يتوقف) كم أحتاج إلى الصلاة...!
 : (يخالس حميداً نظرات متحيرة) هل فاتت شيخنا صلاة
 العشاء!

إبراهيم

: أتحدث عن النوافل. أريد أن أنعمر في الصلاة، كما ينعمر
 المرء في بحر دافئ. وحين أتأكد من نقاء نفسي.. لا.. لن
 يتردد المفتي، ولن يؤجل عمل الليلة إلى الغد.. اكتب عني..
 : (يفتش في جيبه، ويخرج دفترًا صغيراً) هذا دفتر حسابات،
 ولا يليق أن أكتب عليه.

المفتي

حميد

(يتاول المفتي ورقاً، ويعطيه لحميد).

: خذ، واكتب.. إن مفتي الديار الشامية يهدر دم البغايا نساءً
 كانوا أم رجالاً. ويخصّ بالذكر تلك البغي التي تدعى ألاماسة
 لأنها تجاوزت كل حد، وأشاعت جواً من الرذيلة أفسد
 قلوب الرجال، وحاد بهم عن الفضيلة إلى حمأة الفجور
 والمعصية. إن مفتي الديار الشامية يحرم أن تتزين امرأة بزِيها،
 أو تتجمل على غرارها. إن مفتي الديار الشامية يحرم أن
 تسمى أي بضاعة باسمها، وما وُجد منها يتلف.

المفتي

حميد

: يا شيخ..

: (يشير إليه بالسكوت) إن مفتي الديار الشامية يحرم قراءة
 الكتب غير الدينية، ومن وجدت لديه مثل هذه الكتب
 فليحرقها، أو فليسلمها للمفتي. وقد تبين لنا أن من أسباب
 الانحراف والفساد قراءة هذه الكتب الشيطانية. إن مفتي
 الديار الشامية يحرم الغناء والرقص، وكل ما ينتسب إلى
 الخلاعة، أو يؤدي إليها. إن مفتي الديار الشامية يأمر المسلمين
 بمهاجمة الأماكن التي تصنع فيها الخمر، ويحلّ لهم
 إحراقها، وإهراق خمرها. كما يأمر بالقبض على من يشرب

المفتي

الخمر، وجّره إلى المحكمة الشرعية لإقامة الحد عليه. أعتقد أن هذا يكفي الآن.

حميد : (مربكاً) بل أخشى أنك تزيدت يا شيخ. للتجار مصالح، والناس لا تستغني عن الغناء واللهو البريء. ثم إن مسألة الخمر ليست ملحة الآن.

المفتي : هل تريد أن نواجه بعض الشر أم كله!

إبراهيم : هذا حق.. ينبغي أن نواجه الشر بكل مظاهره وتجلياته.

حميد : أقصد.. لو تدرجنا في الأمر.

المفتي : فات أوان التدرج، وفات أوان التراجع. هذه هي الفتاوى.

وتستطيعان أن تنشرها على الناس منذ الليلة.

حميد : ألن يصدّق عليها الوالي!

المفتي : وما علاقة الوالي! الفتوى مسؤوليتي، ولن يراجع مؤمن كلامي.

إبراهيم : ومن يجرؤ على مخالفة أوامر يصدرها.. مفتي الديار الشامية؟

حميد : هل نمضي؟

المفتي : لحظة.. أعطني الورقة (يمدّها له حميد) لا.. لا أريدها. تلك هي الفتاوى، واعذراني فأنا متعب.

حميد : (ناهضاً) قوّاك الله يا شيخ.. ومثّلك بالعافية.

إبراهيم : وحياتك يا شيخ.. أزحت عن صدري غمامة ثقيلة. حين جئت، كنت متطيراً من الغد، وما يحمله. أما الآن.. فقد

اطمأن بالي، وانقشعت الغمامة عن صدري. غداً تتوقف

الفوضى بإذن الله، وتعود المدينة كما ألفناها. بارك الله فيك.

(يقبلان يد الشيخ، ويخرجان).

المفتي : (وحيداً) وأخيراً.. تخطيت الوسواس، واستعدت زمام أمري.

وغداً ترج المدينة لذكري وهييتي. وعدتها بالحرب، وها هي

الحرب تنشب. كيف قبلت هذا الخور والضعف! أنا الذي
برعت في مقاومة أعدائي، والمكر بحسادي.. أترك وهماً من
العشق بمكر بي، ويضيعني! وما شأنك أيها الرجل بالهوى
وجنونه. للهوى صبية وحمقى.. أما أنت.. فهل يحق لك أن
تلبس على نفسك وهماً وهياماً..! آه.. إني أستيقظ من
غفلتي وفنوري. ولكن في قلبي وخزة، وفي حشاشتي أنيناً.
لن أصغي إلى الأنين، ولن أبالي بوخزات القلب وهذه
السالفة طويناها. الليلة، طويتها. نعم.. إني أطويها.
(يتناول سجادة الصلاة، يفرشها على الأرض، يتوقف حائراً،
يدو عليه الحصر، يتهاوى على كرسيه، ويجلس مبجلقاً في
الفضاء بعينين فاترتين وخاويتين).
(تلاشى الإضاءة).

المشهد العاشر

(في قصر الوالي. الوالي وخصي الحريم. يبدو الوالي في حالة هياج وانزعاج).

الوالي : واقعه سوداء هذا المفتي. هل تخجل!.. كيف يصدر هذه الفتاوى! أريد ولايتي مقبرة ومأتما! ما الذي لم يحرمه..!
الخصي : حرّم حتى الكأس التي ترؤق مساءك، وتضاعف مسراتك.
الوالي : لن يحرمني شيئاً. حفر حفرة يده، وسأطمره بها. ماذا يريد..؟ وكيف يتجاوزني بهذه الصلافة..?
الخصي : لاشك أن لديه خططاً. وربما كانت لديه اتصالات سرية بالباب العالي. هذا الرجل ماكر جداً. قبل أن يأتي عبد الله، ويكشف لنا ملعوب السجن مبرئاً ذمته أمام الله، اكتشفت ليلتها أن الأمر مريب، وأن المفتي ذاته هو الذي دبر هذا الأمر.

الوالي : ولماذا لم تتكلم يومها!
الخصي : وجدتك ميالاً للتخلص من قائد الدرك.
الوالي : والآن.. بعد ما فعلناه به لا يمكن أن نطمئن له.
الخصي : انظر كيف يلقينا في دوامات مكره، ويورطنا في تنفيذ مآربه. أعتقد أنه لم يصدر فتاويه إلا بعد أن عرف أنك مولع بالماسية.
الوالي : حقاً.. كدت أنسى. كيف تعيش الماسية الآن!.. ينبغي أن نتخذ الإجراءات التي تضمن حمايتها. يجب أن تذهب

- إليها، وتطمئننها. وسأرسل الدرك كي يحموا بيتها.
- : لا.. لاتقع في الفخ الذي نصبه لك. **الخصي**
- : ماذا تريد..! لن أترك الرعاع يفتكون بها. **الوالي**
- : لا بد أن الناس تعيش اليوم حالة من الهياج والحمى. وإذا **الخصي**
- قاومت واحدة من الفتاوى دون سواها، بدوت متحيزاً، ولايدفعك إلى المقاومة إلا غرض شخصي. وهذا قد يزيد هياج الناس، ويحقق للمفتي بغيته.
- : ولم هذه المواربات، ووجع الرأس! سأصدر فرماناً، يعطل **الوالي**
- الفتاوى كلها دفعة واحدة.
- : وستبدو أمام الناس، وكأنك تدافع عن الفسوق والمعاصي، **الخصي**
- وتعارض إقامة حدود الدين.
- : (غاضباً) أعترف أنني لا أتمتع ببرودك وصفاء بالك. إنك **الوالي**
- تجعلني أغبطك على فقدان خصيتيك. أنت الوحيد المطمئن وسط هذه البلبله، لايقلقك هوى، ولا تعمي بصيرتك امرأة. قل لي.. كيف ندبر الأمر! وكيف نحمي ألماسة؟
- : أرى يا باشا أن تؤيد الفتاوى، وتثني عليها. **الخصي**
- : أتريد أن أرضخ لهذا الوغد! وإذا أيدت الفتاوى، فإن هياج **الوالي**
- الناس سيزيد، وستنفجر أحداث لانعرف كيف نسيطر عليها.
- : لم تدعني أتم فكرتي. تؤيد الفتاوى ثم تعلن أن تطبيقها **الخصي**
- لايجوز أن يتم قبل أن تصدق عليها مراجع الإفتاء في عاصمة الدولة العلية.
- : سنعطيه مكسباً، ونرفعه مرتبة. **الوالي**
- : ليرتفع، وليكسب الآن. المهم من يكسب أخيراً. ستأخذ **الخصي**
- مهلة تحاول أثناءها أن تقلب عليه الخواطر لدى الباب العالي، وربما هنا في الشام أيضاً.

- الوالي : هذه طريقها طويل، والإلغاء أسهل وأضمن. لأنني أخشى في الانتظار أن يحدث هرج وشغب.
- الخصي : الإلغاء يعني المواجهة. والمواجهة الآن مع هيجان الناس قد يؤدي إلى شغب أكبر.
- الوالي : إن الخطر يهدد ألاماسة.
- الخصي : إذا أبدت التأيد واقترحت التريث، فسيكون بوسعك أن تستخدم الدرك دون أن تستفز الناس، أو تعطيهـم سبباً للشغب.
- الوالي : أعتقد أن هذا هو الصواب!
- الخصي : نعم.. وفي هذه الحالة يمكنك أن تحمي بيت ألاماسة دون أن تثير شبهة أو لغطاً.
- الوالي : أتعلم.. إن تهور وجسارة عزت كان يمكن أن يفيدانا جداً في هذا الوضع.
- الخصي : المسكين.. لم يعد فيه أي خير. لطش الملعوب عقله.
- الوالي : وعلى كل.. لا أستريح إليه. اذهب إلى ألاماسة، وهدئ روعها. ولاتنس أن تحمل الهدية معك.
- الخصي : وأنت يا باشا.. أصدر أوامرك للدرك كي ينتشروا في المدينة، ثم استدع الأعيان إلى السرايا. اشكر المفتي، واستكثر له البركات، وامتدح الفتاوى، واطلب منهم التريث والتأجيل.
- الوالي : ليكن.
- (تتلاشى الإضاءة).

المشهد الحادي عشر

(في السجن. يُدخل السجن عبد الله إلى الزنزانة التي يوجد فيها قائد الدرك عزت).

عزت : ما هذا..! من أنت..! إني أنتظر المفتي، ولا أريد أحداً سواه.
عبد الله : غفرانك يا عزت ييك. دعني أقبل يديك. دعني أقبل رجلك.

عزت : ما هذا يا رجل! ومن أنت..!
عبد الله : أنا.. عبد الله.

عزت : ومن عبد الله! وماذا تريد!
عبد الله : لا أعرف عبد الله أكثر مما تعرفه أنت. ولكن جئت كي أزيح عن عاتقي وزراً ثقيلاً. جاءني هاتف في الليل، وأيقظني.
عزت : هاتف ما هاتف! ماذا تعلق يا رجل!

عبد الله : إي والله يا عزت ييك.. هاتف رهيب أيقظني من نومي، وقال لي.. كيف تستطيع النوم، وإنسان مظلوم، يتعذب في السجن بسببك! ومع بزوغ الشمس، ذهبت إلى الوالي، وكشفت له براءتك، واستحلفت أن يعفو عنك، وأن يضعني في السجن بدلاً منك. ولكن الوالي لم يعبر كلامي، وعزاه إلى الخبل.

عزت : نعم.. ورأس أُمي إنك مخبول يا رجل. نعم.. لا.. كانت زوجته. نعم.. لا.. لم تكن زوجته. هي، هي، هي ليست

- هي..
عبد الله : سأكشف لك الحقيقة.
- عزت : (متغضاً ومتراجعاً كأنه لُسم) الحقيقة..! لا.. لا تقل الحقيقة.
- عبد الله : أين الحقيقة! ما هي الحقيقة!
- عبد الله : قبضت على نقيب الأشراف وهو يتبدّل مع غانية مأجورة لا مع زوجته.
- عزت : وما فائدة هذا الكلام! ورأس أُمي لن يصدقك أحد، حتى لو كنت النقيب نفسه.
- عبد الله : ألم أكن النقيب نفسه، ثم أنقذني الله من وهدتي، وأضاء قلبي بطرف من نوره.
- عزت : يا رجل.. من أدخلك علي! هل تسايرني كي تهديني! وما قيمة هذه الحقيقة التي تقترب مني بها! إذا أعلن الناس جميعاً أنها كانت امرأته، فماذا يصير ما تتشدد به الآن! إنه افتراء وضلال. أو هو الجنون.. نعم.. هل أنت مجنون؟ اذهب يا رجل، ودعني بحالي. انتظر.. تعال.. ألدبك مطرح للسر..؟
- عبد الله : من عرف سره، استقل كل الأسرار.
- عزت : ألا تريد أن تعرف السر؟
- عبد الله : البوح مودة، فتكلم.
- عزت : الحقيقة.. هي ما وافق أهواء السادة، وما انتقادت إليه العامة انقياد الأعمى. وعدا ذلك لا توجد إلا الافتراءات والظنون.
- عبد الله : إنك تتحدث عن تلبيسات الدنيا، ولغوها. هل خفّ مقدار الحقيقة حتى تحملها الألفاظ! لو تمثلت الحقيقة رجلاً، لهلك كل من نظر إليها لفرط جمالها وحسنها ولطفها. ولبدا كل نور ظلاماً أما بهائها.
- عزت : وما هي هذه الحقيقة يا رجل؟
- عبد الله : معرفة وجهه، والفناء في حبه.

- عزت** : ماذا تخرف يا رجل..! لماذا جئت! هل أرسلك المفتي كي تهديني إلى صراط إبليس!
- عبد الله** : لا.. لا.. ما أرسلني إلا هاتف أيقظني في باطن الليل، وأمرني أن أسعى في فك ظلامتك. ومع طلوع الشمس، سعى الفقير إلى الوالي، وبذل غاية الجهد في كشف ما لحق بك من ظلم، ولكن الوالي لم يبال، فسعيت إليك كي أطلب عفوك، وأبرئ ذمتي مما أصابك.
- عزت** : والله عال.. تضعونني في السجن، ثم تستغفرون مني. إني سجين.. ألا ترى يا رجل! أنا الذي كان يرتجف السجن حين يسمع خطواتي، غدوت سجيناً يهزأ منه السجان والدرك والمساجين! كيف كان هذا الكيد! وكيف وقعت كالذبابة في الشرك! هي زوجته.. وهي ليست زوجته.. وأنا أتعفن في هذا المكان ويتسرب عقلي قطرة قطرة.
- عبد الله** : لا تبشس يا صاحبي.. ما السجن إلا كسواه من الأمكنة. وهنا في هذا السجن، عرفت الإشراق وجاءتني الإشارة. إن السجن الفعلي، هو سجن النفس. ومن أدرك ظلامه وحصره، يعرف أن هذه السجون هي كالرياض وكالقفور.
- عزت** : وَلَئِنْ.. ألا يكفيني ما بي! هل جئت تزئني لي بلائي!
- عبد الله** : كان وليي ومعلمي، حين لا يلحق به بلاء أو يصيبه عناء. ينادي ربه فيقول.. إلهي.. بعث إلي خيزي. وما بعث إلي بلائي، آكله معه. وكان يقول.. البلاء للأولياء كاللهب للذهب. وهو غذاء الرجال من مرتادي الوصال، ومريدي الاتصال.

- عزت** : أنت مجذوب يا رجل؟
- عبد الله** : ليتني أبلغ هذه المرتبة.
- عزت** : أفني غيتي.. صار المجذوب رتبة!

عبد الله : إن العبد إذا تخلّق، ثم تحقّق، ثم مجذب، اضمحلت ذاته، وزهبت صفاته، وتخلص من السوى. عند ذلك.. تلوح له بروق الحق بالحق، فيطلع على كل شيء، ويرى عند الله كل شيء، فيغيب بالله عن كل شيء، ولا شيء سواه.. وهذا أول المقامات.

عزت : ما هذا..! أجنّت تزيدني خبالاً! من يحتاج إلى أورادك وتخاريفك! واحد يفسق مع عاهرة، والمفتي يدّل بالعاهرة زوجة، وأنا أضيع لحيّتي بين الاثنين! والله سأربي بك هؤلاء السفلة. خذ جوابي.. (يبدأ بضربه، ورفسه، وعبد الله لا يرم حراكاً) هذه للمفتي.. وهذه للنقيب.. وهذه لزوجته النقيب.. وهذه للوالي.. سأسحقكم جميعاً. (يزداد انفعال عزت كلما أمعن في الضرب، وعبد الله مستسلم بما يشبه اللذة).

عبد الله : (متعماً) حسبي الرب من المربوين. حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي السائر من المستورين. حسبي القاهر من المقهورين. حسبي الذي هو حسبي. حسبي من لم يزل حسبي.

عزت : (يصل ذروة الغضب، ويتحول صوته كالخوار العمى.. أليس فيك عرق رجولة! أنت حجر، أم شجر، أم رمة!

عبد الله : من توكّل، كان كالميت في يدي الغاسل، يقلبه كيفما شاء. يا رب.. وعزتك وجلالك.. لو قطعنتي إرباً إرباً، وصبيت علي العذاب صباً، ما ازددت لك إلا حباً.

عزت : (وهو ينطّ من الغيظ، ويرفس عبد الله رفسة تقلبه، وترميه نحو الباب) يا ناس.. يا هو.. من هذا المخبول الذي أدخلتموه علي..!

(يصل السجان مهرولاً).

- السجان : ما هذه الضجة! خزاك الله.. ماذا فعلت بالشريف عبد الله!
وأنت يا سيد عبد الله.. كيف تخاطر، وتدخل على مجنون!
- عزت : ومن هذا...؟
- السجان : لاريب أنك أجّرت فوقاني. هذا السيد عبد الله نقيب الأشراف.
- عبد الله : (ينهض مذهولاً ومأخوذاً) لقد بلّغت. إن ضوءك يهرني. إني أسيل كشمة نحيلة، وأتلاشى فيك. أسبل علي ستور أنوارك، وغطني عما سواك. بعد الوصال، ماعاد للعاشق بغية إلا الفناء. إني أفنى، إني أفنى.
- عزت : (يخرج من السجن فيما يراقبه الآخرون مبهوتين). كلهم عرصات.. كلهم أوعاذ. رموني بهذه البلية، واختفوا.. وهذا جُنْ.. يا فرحي.. يا فرحي.. جنون.. كله جنون.. ورأس أمي سيعمّ الجنون.
- السجان : (وهو يفلق الباب) إي خراس.. آنت من يحكي عن الجنون! اشتغل بنفسك، وفتش عن عقلك.
- عزت : هي ليست هي. وأنا العاقل بينكم.
- السجان : (يوجه له السجان حركة بذئنة، ويتركه). لا حول ولا قوة إلا بالله. ماذا غيّر حال السيد النقيب! وأين اختفي!
- عبد الله : (يتأهى صوته مبتعداً) هذا السجن مبارك. فيه جائتني الإشارة. وفيه أضاءتني الرؤية. بعد الوصال ما عاد للعاشق بغية إلا الفناء. ما أحلى الفناء فيك.. ما أحلى.. (يتلاشى الصوت والضوء).

المشهد الثاني عشر

(في السوق. حميد العجلوني وإبراهيم دقاق الدودة. يحمل حميد كراسه، يلوح بها لإبراهيم).

إبراهيم
حميد

: ماذا دَوَّنت عن أحوالنا؟

: سأقرأ لك ما دَوَّنت. (يفتح كراسه) وفي هذه الأيام توالى على الشام هزّات، ما تعودنا عليها، ولانعلم لها مثيلاً في سالف الزمان.

قبل أيام شنت العفصة نفسه في داره بعد أن كشف الله سرّه، وتبيّن أنه علق، يُلاط به، وليس لديه من الرجولة إلا صورتها. ومن غرائب الأمور أن المذكور كان يُحسب على الزكّرية، ويُعدّ رجلاً بين الرجال. وقد كانت جنازته جرسه لم يحدث مثلها من قبل. اجتمع الأراذل والسفهاء، وراحوا يهزجون وراء الميت أهازيج سفيهة وبذيئة، ولم يقدّروا للموت حرمة. والفقير يقول.. إن حرمة الموت ضرورية، حتى ولو كان الميت لا يستحق الرحمة. وبعد نهاية الجرسه، ألقوه في حفرة دون أن يصلي عليه أحد. ولم يذرف أحد دمه إلا أمه العجوز التي ظلت في البيت تنوح.

وفي هذه الأيام أصابت السيد عبد الله الذي كان نقيب الأشراف جذبة قوية، وتسربل بمرقعة زرية، وصار يطوف في الشوارع طالباً اللوم والزراية به. وقيل إنه سلك درب الصوفية

على غير طريقة تُعرف أو شيخ يرشده. وفاتحه إخوته في أرزاقه، فقال لهم: أتريدون أن تتقاسموا هماً ومربضاً في النار؟ خذوا ما شئتم واخرجوا عني. من عرفه لا يشغله عني شيء.

وفي هذه الأيام أيضاً فشا الفسوق، وما عاد الناس يستخفون. وخاصة بعدما كان من السيدة الشريفة زوجة النقيب التي لحقت بنات الخطأ، وصار لها لمعان وصيت. وما كنا نعرف مآل هذه الأحوال لولا أن المفتي، أعزّه الله، تداركنا بفتاواه. وقد أحدثت هذه الفتاوى التي تقطع دابر الفجور، وتستأصل الشر من الجذور رجّة عظيمة بين أهل الشام، فغالى البعض في الحماسة، وغالى البعض في الإنكار. وكادت تحدث فتنة لولا أن الوالي اجتمع بالأعيان، واستمهل تنفيذ الفتاوى رغم موافقته عليها. وما أثار دهشة الحضور، هو تخلف المفتي عن هذا الاجتماع، ولم نعرف السبب إلا أن يكون ما لاح عليه من أعراض السقم يوم زرناه، عافاه الله وشفاه.

ويقول الفقير.. إن هذه الفتاوى على ضرورتها تجاوزت قليلاً حدود الاعتدال.

: وإبراهيم عليك أن تضيف.. وما زلنا على الحال نترقب ما تأتي به الأيام.

: حميد أتعلم.. كنت أتوقع البارحة مقتلها.

: إبراهيم أتظن أن مقتلها سهل إلى هذا الحد! صار وراءها وال وحزب من الرجال.

: حميد يدي على رأسك يا إبراهيم. ألا يغريك أحياناً أن تزورها؟

: إبراهيم (متفضلاً) فضّ هذه السيرة يا حميد.

- حميد : حلفتك، فأجيني.
 إبراهيم : أف.. ماذا أقول لك! والله هي التي تؤرق ليالي، وغوايتها هي التي تملأ صدري توجساً وقلقاً. إني خائف من نفسي.
 حميد : الحال من بعضه يا إبراهيم. تحكى عنها أفانين عجيبة.
 إبراهيم : أتخاف نفسك أيضاً!
 حميد : إني مبلل بالغواية. وحين أتخيلها، يتسارع دمي وتلاحق أنفاسي.
 إبراهيم : ما أغرب هذه الدنيا.. وكم هو هش مصير الإنسان فيها! أين الشاي؟
 حميد : (صائحاً إلى الداخل) أين الشاي يا مقصوف الرقبة؟ (يظهر الولد حاملاً الشاي).
 الولد : ها هو الشاي يا معلمي. شاي ألامسة مخمّر، ومعطّر.
 حميد : اخرس يا ولد.
 الولد : حاضر.. يا عيني على.. يا عيني على الشاي.
 (تتلاشى الإضاءة).

المشهد الثالث عشر

(في بيت ألامسة. غرفة مفروشة بطريقة تتم عن الذوق. سجاد وفرش وثيرة ومساند ومخدات أنيقة بالإضافة إلى أريكين من الخشب المصّدف ومنضدة واطئة من الخشب نفسه. ألامسة وتبدو مزدهرة الوجه والجسد، لطيفة الزينة، ترتدي ثوباً بديع الطراز، يدي تفاصيل جسدها دون ابتذال. وردة التي تظهر في هيئة شعناء وعدوانية. عباس يحتجز وردة، ويحاول تهدئتها).

عباس	: ليس الوقت مناسباً يا وردة.
وردة	: وهل بقيت أوقاتاً مناسبة يا كتّاس الأدبار!
عباس	: الزمي حذك، وإلا رُميتم خارج الدار.
وردة	: أتتقوى علي!.. مرّت على هذا البطن شوارب أغلظ من شواربك. وما شأنك أنت! لن أخرج قبل أن أصفى حسابي معك يا ألامسة.
ألامسة	: اهدأ يا أبا الفهد. ماذا تريدان أن تصفّي يا وردة؟
وردة	: ألا تعرفين!.. هل تلاحقونني كاللعنة حتى الممات! ماذا فعلت لكم، وم تنتقمون؟ لم أكّد أخلص من أهلك حتى برزت لي كضربة الغفلة، وأنا البلهاء.. وقعت في فخك. هل تذكرين أنني معلمتك، وأن لي عليك حق الطاعة!
ألامسة	: لا أنكر هذا الفضل، ولا أعرف ما الذي يغضبك الآن؟
وردة	: اسمعوا يا ناس.. ولا تعرف ما الذي يغضبني! سرقت عزّي،

وأطفأت ضوئي، وها أنت تسبين بهدر دمي. ومع هذا
تصنعين براءة يوسف، وتسألين لماذا أنا غاضبة!

ألماسة

: وما حيلتي! أليست السكين فوق عنقي أيضاً!
: أنت البلاء كله. أكسدت سوقنا، وهيجت الدنيا علينا، وأبحت
دمننا. لعن الله الساعة التي عرفتك بها. من كان يصدق أن
تلك المرأة اللطيفة التي جاءتني متوسلة، تختزن في جسدها
فنون ومجون ألف من العاهرات! أتذكرين.. لم أكد أبدأ في
تدريتك حتى تلالأت الأضواء فوقك، وخفت أنوارى..

وردة

: قلبي إن الحسد ينهشك.

عباس

: نعم إن الحسد ينهشني. أينغي أن يظلوا أكابر حتى في
البغاء! أصابت الست الشريفة نزوة، فخطر لها أن تنافسنا في
الكار. ودخول مثلها لا يتم بالمران والشقاء، وإما بعراضة تهز
المدينة وتسلب عقول الناس. لقد أفسدت حياتنا، ودمرت
الهناء المنغصة التي كنا نحيا فيها. ماذا أفعل الآن! أين
أذهب، وكيف أنجو! قلبي يا ست الأشراف.. أشيري
علينا.. ماذا نفعل؟

وردة

: إننا ننتظر ضيوفاً يا وردة.

عباس

: دع القوادة الآن.. أعرف أن زبائنكم كثر، ولكن حياتنا أهم
من متعة زبونك.

وردة

: اسمعي يا وردة.. لن يفيدنا اللوم أو الغضب. السكين فوق
عنقي وعنقك، ولا حيلة لي فيما حدث. فماذا تريد أن
أفعل!

ألماسة

: بلا لف أو دوران. أريد أن تفرقنا برائحة طيبة. أغلقي هذا
البيت، وعودي إلى أهلك، أو زوجك لا أدري.. ولكن دعينا
بحالنا. إذا خرجت من الكار، ستهدأ الزوبعة وسيزول عنا
الخطر.

وردة

- عباس : هل أكنسها؟
 وردة : اذهب، واكنس دبر أمك.
 عباس : تأدي يا امرأة، وإلا عجتك.
 ألاماسة : توقفاً..
 وردة : هل تذكرين! وعدت أن تحفظي حرمة معلمتك، وأن تطيعها.
 ألاماسة : إني أحفظ حرمتك يا وردة، ولم يخطر لي أبداً أن أنافسك أو أسبب لك أذىً. وتذكرين أنني أردت أن تظلي معي.
 وردة : وماذا تفعل النواصة مع المصباح! حتى خادمتي بهرها الضوء، ولحقت بك. لا.. فضلت الابتعاد كيلا ينطفئ ذكري نهائياً.
 ألاماسة : فماذا ذنبي إذن!
 وردة : أثرت هيجاناً لا يحتمله هذا الكار، ولا تحتمله هذه المدينة. ولذا أطلب منك ومعني كل البنات أن تخرجي منا.
 ألاماسة : إنك تطلبين المستحيل. لا أستطيع أن أراجع.
 وردة : أتمرضين كل البنات للذبح من أجل نزوتك!
 ألاماسة : إني أعرض نفسي. والمطلوب هو رأسي قبل رؤوسكن.
 وردة : لولاك لما صدرت الفتوى، فاخرجي منا كي تهدأ الضجة وتندبر أمورنا.
 ألاماسة : لا سبيل إلى الخروج. وتحدثت الفتوى بيننا، وجمعتنا في مصير واحد. وأن نتضامن الآن خير لنا من أن نتنافر، وتنهش كل منا الأخرى.
 وردة : لانريدك بيننا. إنك بلية.. إنك الموت. لانريد أن نموت من أجل لهوك ونزواتك. إذا لم تخرجي، سنكون حلفاً عليك.
 عباس : أجئت تهديدين يا بنت الأفاعي!
 وردة : نعم إني أهدد، ولن نترك دماءنا تهدر كرمي لعينها.
 ألاماسة : تكثر التهديدات حولنا يا أبا الفهد.

- (تدخل الخادمة مسرعة)
- الخادمة : سيدتي.. وصل المفتي.
- وردة : (بأندهاش ورعب) المفتي..!
- ألماسة : دعيه يتفضل. دعي الحق والغضب يا وردة، وغداً سنواصل الحديث.
- عباس : ألا أبقى؟ أخشى..
- ألماسة : لا.. لا أريد أن يبقى أحد هنا. سأستقبل المفتي وحدي.
- (عباس يدفع وردة أمامه فيما تتلكأ ذاهلة. يدخل المفتي. وجهه شاحب، وهيمته توحى بالمرض. تسرع وردة، وتلقف يده، وتقبلها).
- وردة : أنا في عرضك يا شيخ. إني أتوب. أريد أن أتوب. أقسم بالله إني أتوب.
- ألماسة : اذهبي الآن يا وردة.
- عباس : (وهو يجرها، ويخرج بها من الغرفة) يا الله..
- ألماسة : شرفت، ونورت يا شيخ.
- المفتي : أهدرت دمك يا ألماسة.
- ألماسة : وهل جئت تنفذ فتواك بيديك!
- المفتي : أنفذ فتواي..! هيهات.. اكتشفت أنني أهدر دم نفسي حين تجرأ لساني، وأهدر دمك.
- ألماسة : أتريد أن تخفف عني!
- المفتي : إني أتكلم من القلب. لم يعد بوسعي أن أخفي النار التي تتوقد في صدري. هذا شيء لم أعرفه من قبل. إنه مرض لا يشبه ما يعتري الأبدان من الأمراض. وأنا لا أعرف كيف أقوله.. لا أعرف كيف أعبر عنه.
- ألماسة : هذا غريب. تفتي بقتلي، ثم تداعبني بالحديث عن المرض والنار التي تتوقد في الصدر. ماذا تريد، وعم تبحث؟

- المفتي : ترفقي بي يا ألماسة، فأنا سقيم إلى حد التلف. أنت أشد محنة واجهتها في حياتي. بل أنت المحنة ولن تكون بعدك محنة إلا الموت، لا أعلم كيف مكرت بي الأقدار، وأين كانت تختبئ هذه اللواعج واليران! منذ التقينا وأنا أحاول الفرار. ولكن هل يفز المرء من خفقات قلبه ورعشات روحه. ضوى جسدي، وأسقمني صراعي مع نفسي. أعترف لك أنني لم أصدر الفتوى، إلا لكي أقهر هذه النفس، وأستعيد إرادتي المهدودة. لم أعرف من قبل جيشان الهوى، وصبوات الشباب. لم أجرب الحب، وما حسبت أنني سأجربه.
- ألماسة : في عمرك هذا.. ولم تعرف الحب!
- المفتي : كنت أظن أن الحب فساد ابتكره الحجان والبطالون.
- ألماسة : ولم تراودك أشواق؟! :
- المفتي : أمضيت عمري في ترتيب سيرتي ونفوذتي، وكانت تلك هي أشواقِي التي تغذي عزيمتي.
- ألماسة : والآن.. ألا تعتقد أن ما تشعر به ليس إلا فضولاً وتخيلاً!
- المفتي : ليته كان تخيلاً.. إني مريض يذوي وجداً وشوقاً. تداعى العقل والعزم، ولم يبق إلا هذا الهوى الذي يحرقني، ويذهلني عن نفسي. لا أعرف لغة العشق، ولم أتدرب عليها. إني أحبك يا ألماسة. إني أسيرك ولك أن تفعلي بي ما تشائين.
- ألماسة : والفتوى!
- المفتي : سألغيها. سأللم ما بقي من عزمي، وأعلن فتوى أخيرة تبطل كل الفتاوى.
- ألماسة : أتملك الشجاعة على مواجهة الناس، وإبطال الفتوى!
- المفتي : بعد أن تجرأت على نفسي لم يعد هناك ما يخيفني أو يحبط جرأتي. حين غلبني الوجد وقررت المجيء إليك، أحرقت سفني ورائتي. إن في الآن قوة العاشقين واليائسين معاً.

ألماسة : ها نحن نلتقي في الهاوية ووراءها. (تُضجع الشيخ على الفرش البسطة، وترتب له المساند والوسائد) استرح يا شيخ، واهداً. لقد اجتزت مفازة وعرة، وأنجزت رحلة عسيرة. كيف نفذت إليك الغواية! وكيف تبدلت الطمأنينة، قلقاً ووحشة!

المفتي : ومن يدري كيف تخادعنا الأقدار، أو كيف نخادع أنفسنا..! ما كنت أظنه طمأنينة لم يكن إلا حجاباً يستر الأهواء المقموعة، والأشواق المحبوسة. كان الوجد يتخمر، ويفور في الدنان المسدودة. حتى لاح ضوءك، فإتراح الحجاب وتدفق الهوى والشوق والوجد كنهر عظيم أفلت بعد انحباس. وحالي يا ألماسة هي حال رجل ضعيف، ينجرف ويتلاطم في عباب هذا النهر العظيم.

ألماسة : من كان يظن أن خروجاً على المألوف يمكن أن يخلق كل هذه الفوضى! ماذا تأمل أن أجيبك يا قاسم؟

المفتي : هل يستفتي السيد خادمه! إني أطمع بالكثير، ولكنني أقنع بما تسخو به نفسك. يكفيني قرب أو التفات أو ظل. وأعتقد أن هذا العطش الذي يحرق جوفي لن يُروى أبد الدهر.

ألماسة : أتقبل بعطائي ولو كان زهيداً!

المفتي : إني في يدك وليس لي خيار.

ألماسة : مازلتُ في التجربة يا قاسم. لا أريد أن أتخاذل أو أنكص.

أعرف أنني خاسرة، وأن هذه الصبوة مستحيلة في بلد كل الناس فيها عبيد ومساجين. ولكن ما زلت أرغب أن أكون بحراً لا بركة أسنة. لا أريد أن يملكني أحد، وليتني لا أملك أحداً. الكل يريد أن يضع ختمه علي، وأنا أريد أن أظل طليقة بلا أختام. لم أجن إلا تفاهات مباذل. نعم.. إني خاسرة، ولعلي لم أعرف كيف أمير أشواقي. ولكن لن

أتراجع، وسأظل أطارد هذا الحلم.. الحلم بأن أكون بحراً لا يحتجز، ولا يفسد ماؤه.

: ما أشد نأيك، وكلما ازددت نأياً، ازددت هياماً. ليس حباً هذا الذي يطلب أجراً. ستكون اللفتة فيضاً، والبسمة سخاء، وهذا القرب عطاء لا بغية لي وراءه. عذّيني بين المنذورين لك، وقلّبي ما تبقى من عمري على هواك. ألا يتحمل البحر غريقاً يخبط في مائه وموجه!

: نعم.. ولن يدعك البحر تغرق قبل أن تذوق مباهجه، وربما حنانه. ودّع المواعيد الآن، وانزع هذه الأثقال عنك، ألا تريد أن تخف وتطفو..!

: ماذا أنزع!

: هذه العمامة، وهذه الجبة. (يتردد المفتي، فتساعده ألاماسة في خلع ثيابه) نعم.. اخلعها. انظر إلى جسدك. إنه كاللحد الذي يدفن وهج الحياة، وفورة الرغبة. ارفع الصفائح، وانبش هذا القبر. سنحتفل الليلة، وسنبعث الحياة من اللحد. (تصفق بيديها، فتدخل الخادمة) هاتي لوازم الفرح.

: حاضر يا سيدتي.

: الليلة سأرقص لك. سأدع جسدي يتفتح، ويتدفق. سأريك كيف يطير الجسد. كيف يتسع، ويفيض فيغدو بحراً.

: إن أعضائي تذوب، وتسيل. إن قلبي يكاد يفلت من صدري. هذا هو الفناء. إنني أفنى فيك، وإنني أولد جديداً في فنائي.

(تدخل عوادة تحمل عوداً، وتأخذ مكانها ثم تبدأ دوزنة العود. تلحقها الخادمة بصينية عليها شراب وطعام. تدريجياً تنتظم ضربات العود في نغمات إيقاعية. تنهض ألاماسة، وتنهياً للرقص بينما تتلاشى الإضاءة).

المفتي

ألاماسة

المفتي

ألاماسة

الخادمة

ألاماسة

المفتي

المشهد الرابع عشر

(الخادم والخادمة في غرفة متواضعة. يجلس الخادم على فراش ممدود على الأرض. بينما تشغل الخادمة في تحضير مجمرة بخور).

- الخادمة : أبطل المفتي فتواه، ووفى بوعده.
- الخادم : المعتر.. وهل بقيت له كلمة حتى يفتي أو ييطل!
- الخادمة : لو رأيته.. كان كالميت بين يديها. ضائع اللب، مسلوب العزيمة. كنت أسمع أن الحب قتال. ولكن لم أصدق حتى رأيت المفتي، وعانيت أحواله.
- الخادم : مهما أوغل المفتي في العشق، فإنه لن يصل إلى مرتبة سيدنا عبد الله. أحياناً أخشى أن يفارق الحياة من كثرة التوسل والبكاء.
- الخادمة : ولكن عشق السيد عبد الله فيه هوسة.
- الخادم : لعلها هوسة الأولياء. إنه مذهول بربه. يناديه كما ينادي معشوقاً، جماله يعمي الأبصار. إذا أحس إغراضاً، قتلته الوحشة وفاضت دموعه. وإذا لمس قبولاً، هزه الطرب وفاض بالنور وجهه. وفي الخالين هو ذاهل عن الدنيا وما فيها.
- الخادمة : هذا حال المفتي أيضاً. إنه يحب ألامسة حب العابدين. ناجاها كما يناجي الإنسان ربه، وقال لها كلاماً يفتت الصخر الجلمود. لماذا لاتقول لي كلاماً حلواً عن الحب!
- الخادم : (وهو يضربها على عجزتها) نحن نعيش الحب، فما حاجتنا إلى الكلام! ولكن لم تقولي لي.. لماذا تبخرين الغرفة!
- الخادمة : مرّت علينا بَصّارة. قالت إن المدينة مسكونة، وأن هذه

- الأحداث الغريبة هي من فعال أشرار الجن. وقالت إن دماً سراق، وأن الهواء الأصفر سيأتي قبل أن يجف الدم.
- الخادم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم.
- الخادمة : نصحت المرأة أن نبخر البيوت كل ليلة.
- الخادم : (وهو ينهض) أستغفر الله العظيم.. هيا نبخره معاً.
- الخادم : (يسيران في أرجاء الغرفة، وهما يخزان الزوايا والأثاث).
- الخادم : كنت أعرف تعويذة.. نعم.. نعم.. بسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أيها الجن.. إن كنتم من المسلمين الصالحين، فالبيت لكم. وإن كنتم من الكافرين، أخزاكم الرحمن وأبعدكم.
- الخادمة : قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق.
- الخادم : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق. بخريني.. بخريني. (تدور بالمبخرة حوله) والآن.. هاتي كي أبخرك. (يدور بالمبخرة حولها ثم يرفع ذيل فستانها، ويقرب المبخرة من فخذيها) دعي البخور يتغلغل في جسدك كله.
- الخادمة : يكفي.. دوختني الرائحة.
- الخادم : وأنا دوختني المشاهد المبخرة.
- الخادم : (يضع المبخرة جانباً، ويسقطان على الفراش).
- الخادم : أتريدين حديث الحب؟
- الخادمة : وهل تحسنه؟
- الخادم : اسمعي إذن. إن لحمي يحب لحمك، ودمي يحب دمك، وأنت نصفني وأنا نصفك، وليس لدي مزيد.
- الخادمة : لا أطلب أكثر. أنا نصفك وأنت نصفني.
- الخادم : أليس هذا هو الحب؟
- الخادمة : هذا هو.. ما دام يكفيننا ويسعدنا.
- (تتلاشى الإضاءة).

المشهد الخامس عشر

(في زاوية السوق. عبdo وعباس).

- عبdo : ألا تشعر بالخزي يا أبا الفهد!
- عباس : ولم الخزي..! لا أسمح لك..
- عبdo : لم أقصد إهانتك. ولكن هل يليق بك يا سيد الرجال، هذا العمل الذي تقوم به!
- عباس : وماله هذا العمل! الأفضل أن تنشغل بسيدك. ألم تعرف أن المفتي نفسه جاء، وزحف تحت كندرتها.
- عبdo : لاتحدثني عن المفتي. إن ذكره يثير غضبي وتقززي. لا.. لم يعد المفتي شيئاً بالنسبة لي.
- عباس : هل استغنى عن خدماتك!
- عبdo : هو يستغني عن خدماتي..! أنا الذي تركته، ولم أعد أطيع رؤيته بعد تلك المسخرة.
- عباس : ماذا تريد إذن!
- عبdo : اصغ إلي يا عباس.. إن أكابر البلد فسدت أحوالهم، وانحطت مقاماتهم. وهم لم يكونوا أكابر إلا على أكتافنا. قبضاتنا، وأذرعنا القوية هي التي كانت تسند المقامات، وتوفر الطاعة. نحن الأزلام، وأصحاب الخيزرانات الأعمدة التي يقوم عليها البناء. والآن.. انظر.. بعد أن تفسخ الأكارير وفاحت روائحهم، لن يحفظ النظام ويحمي القيم سوانا.

- عباس : لاتؤاخذني.. هذا كلام غريب، ولا أعرف إلام ترمي!
- عبدو : ما أرمي إليه واضح. إذا لم نوقف تدهور الأحوال، فإن البلد ستنزلق إلى الإنحلال والفوضى. لن يُحترم مقام، ولن تُقدَّر الرجولة. وسينهار البناء علينا جميعاً.
- عباس : إنك تخوض في أمور خطيرة.
- عبدو : إني أخوض في أمور خطيرة، لأن الوضع خطير يا أبا الفهد.
- عباس : وماذا تقترح!
- عبدو : أن نشكل أخوة من الرجال، كي نحفظ الأمن والنظام، ونطبق الفتاوى التي أصدرها المفتي قبل سقوطه، وانحطاط أمره.
- عباس : والأكابر!
- عبدو : سنكشف سترهم، ونجعلهم واجهات بلا حول وبلا طول. إننا الرجال يا أبا الفهد.. والبلد يحتاج الآن إلى رجولة الرجال. ينبغي أن نوقف الفساد، وأن نعيد للنظام هيئته. وأنا واثق أن الوالي لن يمانع، وأن الدولة العلية ذاتها قد تبارك بمبادرتنا.
- عباس : هل فاتحت آخرين بالأمر!
- عبدو : تعرف أنني أحبك. وأتمنى أن نقود معاً هذه المبادرة.
- عباس : إنك تأخذني على غرة. هذا عرض يحتاج إلى تفكير. ولاتنس أنني عاهدت أئمة على الإخلاص، ولا أريد أن يصيبها أذى.
- عبدو : دعنا من التفاصيل. إننا نفرق في الميوعة يا أبا الفهد. وعلينا نحن أن نعيد للرجولة حقها وكلمتها.
- عباس : سأفكر في الأمر.
- عبدو : فكر في الأمر، لاتخذلني. لن يحفظ القيم، ويحمي النظام سوانا.

- عباس : لعلنا نلتقي قريباً.
عبدو : هل أوصيك بالكتمان؟
عباس : أتريد إهانتني!
عبدو : معاذ الله.. اعتبرها زلة لسان.
عباس : لا عليك..
عبدو : هل نلتقي غداً؟
عباس : لا أدري.. دعني على راحتني. سأجذك حين أقرر.
عبدو : لا تقلبها كثيراً. وتذكر أنني أنتظر.
(يفترقان. وتلاشى الإضاءة).

المشهد السادس عشر

(في بيت ألامسة. تجلس ألامسة ساهمة ومعها الخادمة).

- الخادمة : ألم يتأخر أبو الفهد!
- ألامسة : وماذا يهم..
- الخادمة : حين يغيب أبو الفهد عن البيت، تركبني الهواجس وأشعر بالخوف.
- ألامسة : أتخافين علي..!
- الخادمة : جعلني الله فداك.. لا أدري.. إني أتوجس حين يغيب عن البيت.
- ألامسة : دعينا من التوجس والخوف، وحدثيني عنك.
- الخادمة : وماذا أحدثك يا سيدتي!
- ألامسة : هل أنت سعيدة مع زوجك؟
- الخادمة : إني أحجل يا سيدتي أن أقول.. إن قلبي لا يحتمل مزيداً من السعادة. طبعاً لولا نعمتك علي..
- ألامسة : (مقاطعة) أتحيينه..؟
- الخادمة : وهو يحبني. لا يعرف كيف يزئ الكلام. ولكن حين يقولي لي.. أنت نصفي وأنا نصفك، أشعر أن الدنيا لاتسعني وأني أريد أن أظل في حضنه إلى الأبد.
- ألامسة : إني أغبطك.
- الخادمة : سيدتي تغبطني..!

(يقتحم صفوان الباب بعنف، ويدخل).

- ألماسة : من..!
- صفوان : ألا تريدن رؤيتي يا أخت!
- ألماسة : صفوان..؟!
- صفوان : نعم.. أخوك وابن أمك صفوان.
- الخادمة : سيدتي.. هل أبحث عن أبي الفهد؟
- ألماسة : لا.. دعيني مع أخي.
- الخادمة : سأبقى إلى جانبك.
- ألماسة : لا.. لا.. اتركينا. (تخرج الخادمة) نعم يا صفوان.. أية لفطة كريمة جاءت بك!
- صفوان : جاءت بي الحمية يا أخت.
- ألماسة : هل أوفدك الوالد؟
- صفوان : لا.. لا يعتقد الوالد أنني جدير بهذه الوفاة. جاء بي الغضب، وثقل العار يا ألماسة.
- (يمتشق من جيهه خنجراً، ويرفعه في الهواء).
- ألماسة : أتريد أن تقتلني يا صفوان!
- صفوان : هذا العار لا يظهره إلا الدم.
- ألماسة : أعرفك رقيقاً، تنفر من الدم.
- صفوان : وستعرفيني الآن رجلاً يسفك الدم.
- ألماسة : أود لو تجنب نفسك هذا العناء يا صفوان. لن تستطيع قتلي.
- صفوان : (هائجاً) إنك تتحدثين كأبي. شحذت عزيمتي دهرًا، وراقبت هذا البيت أياماً. وسترين الآن أنني أستطيع.
- ألماسة : ليس هذا ما أعنيه.
- صفوان : وماذا تعنين إذن..؟
- ألماسة : أنا يا صفوان حكاية، والحكاية لا تقتل. أنا وسواس وشوق وغواية، والخناجر لا تستطيع أن تقتل الوسواس والشوق

- والغواية.
- صفوان : (يقرب منها، فلا تتراجع. يتردد لحظات) لا.. لا تجر جر
عزيمتك في الكلام. أغمد خنجرك. خذي يا أخت.
- ألماسة : (وهي تداعى) آه يا أخي.. لم تفعل شيئاً. إن حكايتي
ستزدهر الآن كبساتين الغوطة بعد شتاء ماطر. إن ألماسة تكبر
وتنتشر. إنها تنتشر مع الخواطر والوساوس والحكايات.
حكايات. حكا..
- صفوان : (يصحو من بهوته) قتلتها.. بخنجري هذا قتلتها.. إني
رجل.. إني رجل.. انظر يا أبي.. إني الرجل بينكم.. إني
الرجل بينكم.
- الخادمة : (يخرج من البيت مبهوراً. وهو يكرر العبارة. تدخل الخادمة،
وحين ترى ألماسة تطلق صيحة رعب).
: (مولولة بلوعة) قتلوا ألماسة. قتلوا الألماسة.
(تتلاشى الإضاءة).

المشهد السابع عشر

(في السوق. حميد وإبراهيم).

- حميد : وهاجت المدينة حين شاع فيها النبأ. وخيم على الناس تطير ووجوم. أما المفتي الذي أعفى، واستعفى من منصبه، فقد شق ثيابه، وأطلق صيحة مروعة، ثم لزم بيته، وأقسم ألا يذوق طعاماً أو شرباً حتى يأخذ الله أمانته. وانفرط عقد الأمان، وماعاد أحد يعرف ما يخبئ لنا الزمان. أتبكي يا إبراهيم!!
- إبراهيم : إني أبكي، ولا أدري لماذا!
حميد : على كل، انتهت السالفة.
إبراهيم : أو لعلها بدأت.
- (يدخل عبد الله عابراً السوق).
- عبد الله : أنا هو.. وهو أنا. غطاني بنوره، فحجب عني الخلائق كلها. ثم سألتني: ماذا تريد؟ قلت: أريد أن لا أريد. قال: قد أعطيتك. أنا هو.. وهو أنا. سبحاني.. سبحاني.. ما أعظم شأنني! الله.. الله.. الله..
- (يختفي وهو يردد كلمة.. الله.. وتلاشى الإضاءة ببطء).

ستار.

ملحمة السراب

الفصل الأول

عودة عبود الغاوي الثالثة من المهجر^(٥)

(٥) إن عناوين الفصول هي جزء من نسيج العمل، ولذا فإني أقترح إبرازها في العرض، سواء عبر أداء الممثل، أو عبر لافتة مكتوبة تقدّم الفصل، أو تكون جزءاً من ديكور مشاهدته المتوالية.

فاتحة

(ضوء باهر البياض، يمتصّ حدود الموجودات وظلالها. كما يحوّل الوجوه إلى بقع، تتماوج بين السواد والبريق. من الصعب تمييز الملامح، وكذلك تفاصيل المكان. ولعل الشيء الوحيد الذي يستوقف الانتباه، هو مزهرية سوداء فيها وردة ضخمة صفراء اللون. ولكن الذبول يجعل الصفرة تنحلّ إلى ألوان بنّية، تندرج حتى الاهتراء. تتساقط أوراق الزهرة بإيقاع غريب، وصوت يشبه رنين جرس زجاجي صغير. عبود الغاوي، والخادم).

الخادم	: بدأ الركود يقرض أموالنا، مثل فئران جائعة، لم أعد أجد تسليّة لا في المكتب ولا في البورصة.
عبود	: إني عليل.. أشعر أنني شخت فجأة.
الخادم	: متى داهمك هذا الشعور؟
عبود	: لا أعرف بالضبط. منذ فترة، وأنا أحسّ أن قواي تتسرّب من جسدي. في مفاصلي وهن وضعف.
الخادم	: هذه مغتبة الإسراف. لم يكن الإنسان، في أيّ عصر من العصور، سفيهاً في تبديد قواه، كما هو اليوم في هذه المنطقة من العالم.
عبود	: لم أطلب تفسيراً أو موعظة..
الخادم	: ماذا تطلب إذن؟

- عبود : إن بيننا اتفاقاً وميثاقاً. أليس بيننا اتفاق وميثاق؟
- الخادم : وهل قصّرت يوماً في تنفيذ التزاماتي؟
- عبود : ماذا تنتظر إذن! ألا ينصّ الميثاق على أن تجدد قواي، كلّما وهنت أو خارت!
- الخادم : ومتى مانعت؟
- عبود : لماذا لا تبدأ إذن؟ افتح صندوقك، وأخرج ما لديك من خلاصات السحرة، والأدوية المركّزة.
- الخادم : لا تكن عجولاً. في هذا المناخ الراكد، والموبوء، لن تفيد الأدوية المقوّة، ولن نستطيع إجراء العمليّة اللازمة.
- عبود : أتحاول التملّص؟
- الخادم : (بحدة) ماذا دهاك؟ هل فقدت ثقتك بي؟ إن عروقت المتأكّلة تحتاج إلى دماء فتية طازجة، لا يمكن أن نجدها هنا.
- عبود : وماذا تقترح؟
- الخادم : أن نسافر إلى دولة من دول الأرياف.
- عبود : أتريد أن نسافر إلى بلدي؟
- الخادم : لا.. أفضل أن نسافر إلى بلد آخر.
- عبود : ولماذا تفضّل بلداً آخر؟
- الخادم : وهل تشعر بالحنين!
- عبود : لست عاطفياً إلى هذا الحدّ. ولكن أعتقد أن في البلد تسهيلات يصعب أن نجدها في بلد لا نعرفه.
- الخادم : لكن صريحين.. حالتك تقتضي عمليّة شاقّة، لا يستطيع أن يُجرّيها إلا طبّ لا يعرف الرحمة، ولا يخاف الشفقة.
- عبود : وما الذي تخشاه؟
- الخادم : لا أدري.. يغدو المرء هشاً مع الناس الذين يعرفهم. أخشى أن تضعف، أو تشفق.
- عبود : كأنك تجهلني! ألا تعرف ماذا يوجد مكان القلب في

- صدري!
- الخادم : هو إجراء احتياطي لا أكثر.
- عبود : (وهو يدق على صدره) هنا.. يوجد صخر لا قلب. لا تحتاج إلي احتياطات. ولن نسافر إلا إلى البلد الذي نعرفه.
- الخادم : كلما عاشرتكم، ازددت تعلقاً بكم. أتعرف ما الذي جعلني ألبّي نداءك في تلك الليلة الثلجية؟
- عبود : لم تخبرني قبل الآن.
- الخادم : (يقرب من المزهرة. يهزّها، فتساقط عدّة أوراق، ويتماوج رنين زجاجي غريب)، في تلك الليلة الجليدية، بدت لي قاسياً كالماش. صلباً كالقولاذ. لم يكن في رأسك أوهام، ولم يكن في قلبك شفقة أو حنان. كنت تنادي.. وكنت تشع. ولم يكن بوسعي أن أتجاهل هذا النداء المشع. لاسيما وأني كنت أجتاز وقتاً من الضجر والخمول.
- عبود : أنت! تضجر، ويصيبك الخمول؟! :
- الخادم : نعم.. إني أضجر، وأقرف أيضاً! خدمت سيّدين متوالين، كان كل منهما بلصة حقيقة بالنسبة لي. الأوّل صاحب مصنع، وكانت الصناعة معجزة العصر. والثاني رجل أعمال مفلس، تعاقد معي على القتل مقابل إنقاذه. وحين انتعشت أعماله، وكثرت أمواله، غرق في الندم، وطاردته الوسواس حتى نقض الميثاق، وراح يجوب العالم بحثاً عن الغفران. أمّا الأوّل.. أف دعنا منه. باختصار.. كان وقتي معهما أغبر، وكان بين الخير والشرّ تداخل وميوعة، أثارا قرفي ونفوري. كنت مثل حسناء.. كلما ازدهر جمالها، تدنّى مستوى الرجال الذين تغويهم وتعاشرهم. من فاوست.. ذلك العالم الجريء، الذي يريد كلية المعرفة وكلية المتعة معاً، إلى رجل أعمال أخرج تركبه الوسواس، ويسوح في الدنيا بحثاً عن

الغفران.

عبود : هل يعني هذا أنك مرتاح معي؟
 الخادم : حين لفحني وهج عينيك، والصلابة التي جرحت بها يدك،
 كي تمهر الميثاق بالدم، شعرت أنني أجوهر. ما كنت تحب
 دخان المصانع، أو الانغماس المباشر في التجارة. كنت تتوق
 إلى المطلق. إلى ثراء نقي، يتراكم كالبلورات مختزلاً المصانع
 والأراضي والممتلكات.

عبود : لا داعي للإفاسة.. إن ضعفي يحثني على السفر، فدعنا نبدأ
 الترتيبات فوراً.

الخادم : كم أحب هذه اللهجة التي تحسم وتقرّر!
 عبود : أشبعني غزلاً، ما أحججه هو أن تبدّل هذا الوهن قوّة.
 فاتبعني.. كي نضع خطة وترتيبات السفر.

الخادم : إنني أتبعك...
 (يخفيان. وفي الضوء المشع تساقط ورقات من الزهرة
 الذابلة، مخلفة رنيناً متلاحقاً. تختفي الإضاءة.. ويتواصل
 الرنين فترة).

مشهد ١

(امرتأن في أحد زوارب القرية. مريم الملقبة بالزرقاء^(١)،
وفاطمة الموعي)

فاطمة : هل علمت يا خالة؟

الزرقاء : القرية كلها علمت.

فاطمة : رفضت أخته أن تحدّد موعد وصوله. قالت وكأنّها تمخّط الكلام.. قريباً سيكون بيننا.

الزرقاء : هذه الفاجرة.. تدلّت ساقاها في القبر، ومازالت تعمل قوادة لأخيها.

فاطمة : ألا تبصرين يا خالة من اختارت هذه المزة.. أو البيت الذي تحوم حوله؟

الزرقاء : منذ زمن بعيد فقدت قدرتي على الإبصار يا ابنتي..

فاطمة : كانت أُمّي تروي عنك حكايات عجيبة. قالت لي.. كنت تخبرين عمّا سيأتي، وكأنّك تربّنه أمامك.

الزرقاء : نعم. كان ذلك يحدث أحياناً، ثم ضعفت هذه القدرة، واختفت نهائياً، بعد أن أنجبت ولدي الثاني مروان. بعد ولادته أحسست أن غشاوة لفتّ بصيرتي، وألقت عليها حجاباً. كان آخر ما أبصرت هو داء الهواء الأصفر. أبصرته

• لأنها تبصر بعيداً في الزمن، وتنتبأ، لقبت بالزرقاء تشبيهاً لها بزرقاء اليمامة، التي ضرب المثل بها في حدة البصر، وصدق الخبر.

- فاطمة : قبل شهرين من حلوله، وأبصرت أنه سيزهق أرواحاً كثيرة.
الحيزيون شباكها؟
- الزرقاء : لا.. لا أستطيع.
- فاطمة : أما أنا فلديّ شكوك، يحدثني قلبي أنها وضعت عينها على رباب بنة ياسين.
- الزرقاء : رباب.. ابنة ياسين! لا.. هذا حرام.
- فاطمة : وهل يهتمها الحرام؟ منذ فترة، كانت تجر جر قدميها متوكئة على عصاها. وحين مرّت رباب، وقفت وتفرست فيها بنظرة كالحورز. وقانا الله من تلك العينين. كيف أصف لك! بنظرة ثاقبة جئت البنية وعزتها، فوخزني قلبي، وأحسست أنها سترمي الشبكة هذه المرة على رباب..
- الزرقاء : هذه امرأة لا تخاف الله. جئت على صبيتين، كل واحدة كالفلّة، وها هي تريد أن تجني على أجمل وألطف بنات الضيعة. أيمكن أن يوافق أهلها؟
- فاطمة : ومن رفض قبلهم؟ هل رفض بيت الطاهر حين قطف زهية! أو هل رفض بيت المرشد حين طلب كريمة! لا.. إن للعال قوة لا يستطيع أحد أن يقاومها.
- الزرقاء : يلعن أبو المصاري. هل تعمي الناس؟ ألا يرون كيف يتزوج عتود الغاوي! يتسلّى مع الواحدة بضعة أشهر، ثم يعيدها إلى أهلها مطلقة وبائرة.
- فاطمة : معك حق.. صارت الحكاية مكشوفة ومفضوحة، لكن يبدو فعلاً أن بريق المال يعمي الأبصار. ولا تنسي أنه ليس بالرجل الهين. إنه خبير وماكر. قالت لي زهية.. إنها عرفت حقاً كيف تكون الحياة في الجتّة. بعد أن يغدق على الأهل، ويملاً عيونهم، يغدق على البنت، ويحملها إلى أجواء غريبة تسحر

العقول، وتبلبل الكيان. لا.. خذوها مني، إذا طلبها،
سُجّاب، وسيقطف هذه المرة الصبيّة الطفلة رباب.

: والله لو كان في رجالنا نخوة، لمنعوه الدخول إلى هذه
الضيعة.

الزرقاء

: إذا لم يمنعوه، يمكنهم على الأقل، أن يرفضوا تقديم بناتهم له.
ولكن يبدو يا خالة أن المال قتل نفوس الرجال.

فاطمة

: يسلم فمك.. تلك هي الحقيقة، هل تذهبي إلى الدكان؟
: نعم..

الزرقاء

فاطمة

: إذن سأرافقك.

الزرقاء

(تخرجان.. وتلاشى الإضاءة)

مشهد ٢

(بيت ياسين، الشاعر والمغني.. غرفة مبنية من الحجر الخفان، وأرضها من الإسمنت يبدو أنها بُنيت بصورة مرتجلة، إلى جوار البيت الريفى المبنى من حجر الدفش والطين، يجلس ياسين على كرسي واطئ من القش، وفي حضنه ربابة يعزف عليها. زوجته فضة، وهي امرأة في أوائل الأربعينات يتصف وجهها بالملاحة والجادية، وقامتها رشيقة مع امتلاء لطيف. تجلس على الأرض منهمكة في حفر الكوسا والباذنجان. وابتها رباب وهي صبية جميلة لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، تمشط شعرها، وتتهيا للخروج).

: (بعد فترة من المشهد، وبعد أن يتميز اللحن الذي يعزفه ياسين) اترك هذه البطيخة من يدك. بدأ رأسي يؤلني. في الليل والنهار.. ألا تشبع؟

فضة

: إن عزف أبي جميل.

رباب

: وماذا جاءنا من عزف أبيك إلا العيب والتعير.

فضة

: العيب على من يعمل العيب يا فضة.

ياسين

: (كالملدوغة) ماذا تعني؟

فضة

: لا أعني شيئاً. إن قوالاً كانت تطرب له قرى هذه الديرة،

ياسين

وتأتيه دعوات، لو لبأها لما نام ليلة في بيته، لا يمكن أن يعاب أو يوصف بالتعير!

- فَصَّة : لا.. لايجوز أن نتحدّث عن التعتير، ألا ترون العز الذي نحن فيه! لَفْها يا ياسين، ولا تدعني أرمي هذه الحصوة من فمي.
- ياسين : لا تتحرّجي، وارميها.
- فَصَّة : ماذا أقول.. لم تحمل مسؤولية، ولم تحسن في حياتك إلا كرع العرق والتهريج للناس.
- ياسين : (منتفضاً) أنا شاعر لا مهرّج. إني أرنجل المواويل والقصائد كما يتدفّق الماء من نبع الصخرة. يا ضيعة هذا العمر! شُخْتُ ولم تعرفي أبداً قيمتي ومقداري. لكن أولادي سيفهمون ذات يوم، وسيقدّرون. ألا تقدّرين يا رباب؟
- رباب : (وهي تقبل جبينه) نعم يا أي، إني أحبّ مواويلك، وأحبّ عزفك. ولكن أتمنّى ألا يحدث بينك وبين أُمي زعل.
- فَصَّة : ولمّ الزعل! هو كلام جرّنا بعضه إلى بعض.
- ياسين : أين تذهبين؟
- رباب : سأزور ابنة خالي. أريد أن أستعير كتاباً أقرأه. (وهي تخرج) أتريدين شيئاً من بيت خالي؟
- فَصَّة : سلّمي على خالك والجميع. (تخرج رباب من البيت) لم يكن قصدي يا ياسين أن ألومك. كل ما أردته، هو أن تزيع الربابة، لأن هناك موضوعاً مهمّاً أحبّ أن أفاتحك به.
- ياسين : وما هو هذا الموضوع المهم؟
- فَصَّة : يا سيدي، القصة وما فيها أن زنّوب الغاوي صار لها شهر أو أكثر، وهي تتحرّش بي، وتحاصرني بالتلميحات.
- ياسين : وماذا تريد هذه الشمطاء؟
- فَصَّة : لا.. لا تسبّها. المرأة قلبها علينا، وتريد أن يكون الخطّ هذه المرأة من نصيبنا.
- ياسين : أيّ حظ! وأيّ نصيب! عمّ تتكلمين؟
- فَصَّة : ألم ترّ الموكب الذي دخل به عبّود الغاوي إلى القرية؟ ثلاث

سيارات عجيبة بطولها، وبريقها، ونعومة هديرها. في الأولى يترتّع الخادم الأحدث، الذي صحبه في كل زيارته، وفي الثانية كان يجلس الغاوي كأنه أمير أو ملك. وفي الثالثة تتكدّس الأمتعة والحقائب. ألم ترّ كيف أذهل الموكب عقول الناس، وخطف أبصارهم؟

ياسين : الرجل مقتدر ولديه أموال لا تأكلها النيران. إيه.. زمن لثيم لا يُغدق خيره إلا على اللثام.

فضّة (برقة) انقضى العمر يا ياسين، ونحن نشتم الزمن! ها هو الحظّ يطرق بابنا. وإذا عرفنا كيف نسايره، فسيكون لنا نصيب من زماننا.

ياسين : دعيني من هذه الألغاز، وأفصحني عمّا لديك.
فضّة : قالت لي زتوب.. هذه المرّة لن أزوّج أخي وضوء عيني إلّا ابتكم رباب.

ياسين : ماذا تقولين؟ هل جنتت؟
فضّة : اهدأ.. اهدأ، النعمة تأتي حتى باب البيت، فلا تكثّر في وجهها.

ياسين : آية نعمة هذه! رجل بلغ السّتين، وابنتنا في الثامنة عشرة من عمرها! ثم ألا يتعلّم الناس من زيجاته السابقة! لا.. ينبغي أن يكون المرء مجنوناً كي يوافق على أمر كهذا.

فضّة : مع مركزه وغناه، الكبر لا يعيبه، وأعتقد أنه سيطمرها بالمال والدلال كي يقيها راضية. انظر إليّ يا ياسين.. نحن لانبيع البنت، بل نزوّجها. وفي هذه الأيام الصعبة، سيكون حظاً كبيراً أن تتزوّج غنيّاً ينالنا جميعاً شيء من خيره وماله.

ياسين : نعم.. المال. هذا ما يقلب رأسك، ويسلب الرشد منك.
فضّة : ولمّ لا؟ ما الذي تستطيع أن تفعله بلا مال؟! ألا نحتاج إلى المال كي يصلح هذا البيت للسكن! ألا نحتاج إلى المال كي

نرتّب مستقبل ولدينا! أنت لا تفكر بهذا كلّه. تتلاعب برباتك، وترك عبء البيت والأسرة على ظهري.

: (بهذوء محقن) نعم.. إننا فقراء، ونحتاج إلى مال كثير، كي نصلح حالنا، ونؤمن أولادنا. ولكن لن أكون نخاساً، ولن أبيع ابنتي كي أحصل على هذا المال.

ياسين

: ماشاء الله! اسمع.. قلت في نفسي، عيب يا امرأة، مهما كان، هو الرجل، وينبغي أن يشارك في الأمر. أما أن تتخذ حضرتك قرارات، وتقول.. أسمع ولا أسمع، فهذه ثخينة يا سيد الربابة.

فضّة

: اليوم.. نعم اليوم بالذات.. سيقول ياسين المّوال الذي أخفاه في صدره تعقفاً وكرماً. سيغنّي، وهو يشهق بدموعه، عن عفاف الزوجة التي لطّخت البراري بالفسق والخيانة. لا.. إني أعفّ من أن أجرد حسابك يا فضّة. من أجل الأولاد قبلت الهوان. ومن أجل الأولاد أقول لك الآن.. اقلّي على هذه السيرة، وإلا مَسَحْتُ بك الأرض.

ياسين

: ما هذه اللهجة؟ أتهدّدي؟ أنسيت أن لديّ أنا أيضاً مّوالي، وأنّي إذا غيّته لن يبقى لك قعود في هذه القرية؟ أنسيت ليلتنا الأولى، حين مزّقت العروس بكارتها بهذا الإبهام، وسهّلت عليك دخولها؟ حاولت العروس ليلتها أن تجبّك الإذلال، وأن تجعلك تستوي رجلاً بين الرجال. لا.. خير لك أن تطوي على مالدك، وأن تنسى المّوال الذي تهدّدي به.

فضّة

: اكشفي كل ستر، وقولي ما تشائين، لا أخشاك.. لا أخشى بذاءتك، ولا أخشى سفاهتك، لكن أقسم لك، ولست بالذي يقسم جزافاً، سأرتكب جريمة، لو مضيت في هذا

ياسين

- المشروع.
- فَصَّة : أتخيفني، وماذا ستفعل؟
- ياسين : هذه مسألة لاتقبل العبث، وقد يسيل دم يا فَصَّة.
- فَصَّة : أأنت تهتدّد بالدم؟!
- ياسين : وسترين منّي وجهاً لا تعرفينه أبداً.
- فَصَّة : لا أهابك، وافعل ما بدا لك. إني موافقة، وسأزوّج ابنتي لمن يسعدها.
- (ينتفض ياسين ناهضاً بغضب وملوّحاً بربابته، تنهض فَصَّة متوتبة ويدها قوارة الكوسا، يتواجهان).
- ياسين : لن يكون هذا الزواج إلا على جئة واحد متاً.
- فَصَّة : ربما سأ.. (طرقات متلاحقة عليّ الباب.. يدوان ذاهلين ثم يتباعدان، وكأنهما يخفيان شيئاً معيماً. بعد فترة تردّد يتّجه ياسين ويفتح الباب، فيجد أديب الناطور، وهو شاب كثير الحركة والحياة).
- أديب : عافاك الله يا عمّ ياسين.
- ياسين : أهلاً وسهلاً يا بنيّ.
- أديب : أوأدم الضيعة مجتمعون عند محمّد القاسم، ويريدون أن تكون معهم.
- ياسين : أيطلبون حضوري؟
- أديب : نعم.
- ياسين : وهل تعرف سبب الاجتماع؟
- أديب : تعال معي، وستعرف السبب في حينه.
- (بينما يرتدي ياسين حذاءه، تنقل فَصَّة، التي تبدو كذئبة هائجة، بصرها بين الرجلين.. وتلاشى الإضاءة).

مشهد ٣

(الإيوان في بيت محمّد القاسم، وهو أحد وجهاء الضيعة.
يوجد في الإيوان الشيخ عباس الملاّ، وهو شيخ القرية، وسالم
العبد وهو المختار، وعبد الرحمن الدرويش وهو أيضاً من
وجهاء القرية، وبسام الراضي معلم المدرسة يصبّ الشاي
ويقدم الضيافة ولد اسمهم حمدان).

الشيخ عباس : أخشى أن نخالف الشرع.

المختار : وفيّم نخالف الشرع يا شيخ؟

الشيخ عباس : لا أدري.. وجدته دائماً حريصاً على الأصول. رجل يريد
الزواج على سنّة الله ورسوله، ويطلب رضى الأهل قبل
رضى البنت، ويدفع ما اتّفق عليه في العقد، بل ويزيد. أي
أنه يراعي شرع الله في كل ما يفعله.

بسام : نعم يا شيخ.. مادامت جيوبه متخمة بالمال، فلماذا لا يراعي
هذه الشكليات؟! كلنا نعرف أن المسألة في جوهرها، ليست
أن يتزوّج، ويكمل نصف دينه، بل أن يشتري البنت كي
يستمتع بها خلال زيارته، ثم يرميها لمصيرها.

الشيخ عباس : ربما، إلا أنه يفعل ذلك كلّ في حدود الشرع.

محمّد : ما تقوله يا شيخ سليم. وهو فعلاً يتصرّف في حدود الشرع،
وإن كنت أعتقد أن الشرع في جوهره لا يقرّ أن يستغل المرء
غناه، وأن يتزوّج على نيّة فاسدة.

- الشيخ عباس : وما أدرانا بالنوايا يا سيد محمد؟
 محمد : ما فعله بالفتاتين اللتين طلقهما. إنه يتزوج، وفي نيته أن يتخلص من المرأة بعد أن يقضي الوطر منها.
 (يدخل ياسين وأديب).
 ياسين : السلام عليكم.
 أصوات : وعليكم السلام.. أهلاً وسهلاً.. تفضل خذ مكانك.
 (يجلس ياسين وأديب، ويسرع حمدان فيقدم لهما الشاي).
 المختار : اجتمعنا يا ياسين، وكان للسيد محمد القاسم فضل البادرة، لكي نجد تديراً مع هذا البلاء، الذي يحل علينا كل بضع سنوات.
 أديب : يا عم ياسين.. إنه يعني عبود الغاوي، الذي تعود أن نهى له كلما زارنا عذراء لم يمسهما جن ولا إنس.
 بسم : ويقال إن أخته زئوب وضعت عينها على ابتك المحروسة رباب. فما قولك؟
 ياسين : اسمعوني أيها الأوامد.. سأقول لكم جواباً قاطعاً، ولكم أن تنقلوه عن لساني. لن يكون في عروقي دم، ولن تكون في نخوة أو ذمة إن تم هذا الأمر. أفضل أن أذبحها على أن أدفعها إلى زواج لا يفضل البيع شيئاً.
 بسم : حيّاك الله يا عمي ياسين!
 محمد : هذا ما كنت أنوي قوله يا شيخ. إذا وقف كل الآباء موقف ياسين، فإننا نستطيع أن نحمي بناتنا دون مخالفة الشرع.
 الشيخ عباس : في هذه الحالة، ما تقوله سليم. لا يصح الزواج دون موافقة ولي الأمر.
 محمد : إذن لنعقد بين الرجال ميثاقاً. ولكن جواب الجميع ما قاله ياسين.
 الشيخ عباس : هذا أمر جائز على ألا تغلب الناس عليه.

- بشام : لا تخف يا شيخ.. سيتم كل شيء بالإقناع.
- محمد : أراك قليل الكلام يا عبد الرحمن! هل أنت معنا في الرأي أم لا؟
- عبد الرحمن : إني معكم. وأرجو أن يتم كل شيء باللطف ودون مشاكل.
- محمد : اطمئن يا عبد الرحمن، لن تكون هناك مشاكل.
- أديب : والآن..
- (يُسمع هدير محرك سيارة، يتوقف بعد فترة وجيزة، ينتصب على باب الإيوان «خَلْف الدوري» وهو رجل ذو بنية قوية، ويعمل مرافقاً لعبود الغاوي كلما زار القرية).
- خلف : الأمير عبود الغاوي يستأذن. (يلوح بيده، وكأنه يرمي الكلمات) سيشرّفكم بالزيارة، فأوسعوا له المكان.. (يدير رأسه إلى الوراء) تفضل يا سيدي وأميري.
- (يصاب الجميع بالبهوت، وبحركات آلية، ينهضون واقفين. يدخل عبود الغاوي، وهو بسيط في مظهره ولباسه. وحركاته رغم أناقتها عفوية ولطيفة. مازال الرجال مبهوتين).
- عبود : السلام عليكم يا أوادم.
- (يجيئون بغمغمات حائرة، فيما يتقدّم عبود ببساطة، ويصافح الجميع واحداً بعد الآخر).
- عبود : تفضّلوا.. تفضّلوا.. أعذروني إن جئت دون خبر مسبق.
- قلت في نفسي أنت لست غريباً يا عبود، إنك ابن الضيعة وأهل الضيعة يزور بعضهم بعضاً دون تكليف أو مواعيد، فهل أنا مخطئ؟
- الشيخ عباس : (بحماسة واضحة) معاذ الله.
- محمد : (بفتور) الدار دارك، فتفضّل.
- (يهمّ بالجلوس على طرف فيندفع إليه الشيخ).
- الشيخ عباس : (وهو يرفعه) لا والله.. لن تجلس إلا في مكاني.

- عبود** : أستغفر الله يا شيخ! ليس بين الأهل تكليف أو مقامات.
يَتَجَهَّ المختار ومحمد القاسم نحو عبود).
- المختار** : طيب.. خذ مكاني.
محمد : لن يأخذ مكان أحد. (يرفعه ويجزّه بحذّة) تفضّل واجلس هنا. (يجلس عبود متصدراً المكان) والآن تفضّلوا جميعاً، واجلسوا (متوجّهاً إلى عبود) أعتقد أنك تفضّل القهوة.
- عبود** : ولم! إني أحبّ الشاي مثلكم.
محمد : تعال يا حمدان.. بدّل الكاسات، وخمرّ لنا إبريقاً جديداً من الشاي.
- عبود** : أوّد أن أمتحن ذاكرتي، لا أريد أن تساعدوني. (ينظر نحو محمد القاسم) طبعاً لا يمكن أن أجهل السيد محمد القاسم. حين كنت صغيراً لم يكن يحبّ اللعب معي، وكان يرشّني دائماً بالحجارة، مرّة شجّ رأسي، وسال الدم على خدي، ألا تذكر تلك الحادثة؟
- محمد** : تلك أيام بعيدة.. ولا تنسى أننا شخنا، وشاخت معنا الذاكرة.
- عبود** : فيك الخير والبركة يا رجل.. لاريب أنك نسيت الحادثة، لأنها لا تعني لك شيئاً. أما أنا فأذكرها كأنها جرت البارحة. يومها جئت إليّ، ومسحت الدم عن وجهي، ثم أعطيتني ربع رغيف من الخبز الأبيض، الذي قمره التّور. لا أعتقد أنني ذقت في حياتي شيئاً أطيب. من ذلك الخبز.. أيامها لم نكن نعرف إلا خبز الشعير، نأكله ونغصّ به.
- الشيخ عباس** : والله.. مرّت على الناس في هذه الضيعة أيام صعبة.
عبود : ومع هذا يا شيخ، لا أذكرها إلا بالخير. طبعاً لن أخطئ في التعرّف على الشيخ عباس، وهو عالم الدين وحاميّه كما تعلمون.

- أديب : هنا يا شيخ، فالمدائح تنسكب عليك كالطر المردار.
- الشيخ عباس : السيد عبود كله لطف وذوق.
- عبود : (ناظراً إلى عبد الرحمن الدرويش) وهذا الأخ الكريم، فعلى الشبه أقول، إنه من بيت الدرويش. أهو عزت؟
- المختار : لا.. إنه عبد الرحمن. أما عزت فقد أعطاك عمره. مات بالسكتة وهو صغير.
- عبود : لا حول ولا قوة إلا بالله.. إن شاء الله تكون آخر المصائب.
- عبد الرحمن : مشكور يا أخي.
- عبود : (مشيراً إلى أديب) أنت صغير يا بني، ولا عتب إن لم أتعرف عليك.
- الشيخ عباس : هذا أديب ابن موسى الناطور، إن كنت تذكره.
- عبود : إيه.. ومن لا يذكر موسى الناطور وسوالفه التي لانتتهي.
- الشيخ عباس : هذا الشاب ابنه، وهو موظف في الدولة، وله كلمة عند المسؤولين.
- عبود : أحب الشباب الطموحين والفعالين، وفي الأيام المقبلة سنعرف كيف نتعاون.
- أديب : وفي أي مجال يمكن أن نتعاون؟
- عبود : لا تستعجل.. لا تستعجل. (مشيراً إلى بشام الراضي) وهذا الشاب الهادي لم أعرفه أيضاً.
- المختار : إنه بشام الراضي معلم المدرسة في القرية.
- (يأتي حمدان حاملاً إبريق الشاي والكاسات، ويبدأ بتقديم الشاي).
- عبود : لا تعرفون كم أنا سعيد بوجودي في هذه الحضرة. نخبة الضيعة، ورفاق الصبا، وهذا الشباب، أما الأخ سالم، فلم أتعرف عليه إلا بصعوبة، لأنه، خزيت العين، يزداد شباباً سنة بعد سنة.

الشيخ عباس : والله كلامك صحيح. لم أرَ أحداً لاءمته المختره مثل أخينا سالم.

أديب : وفي المختره منافع كثيرة.
المختار : الفعل لكم والصيت لنا، أكلتم كل المنافع، ولم تتركوا لنا إلا الفضلة.

محمد : الفضلة للفضيل يا مختار.
المختار : هذا هو العزاء الذي بقي لنا.
عبود : أعلم يا مختار أنني مازلت أذكر أباك. كان رحمه الله رجلاً

مهيباً وعظيماً، وكنا نجفل ونلتصق بالجدران، حين نصادفه في الطريق. ظلّ أبي، حتى مماته، يدعو له بالخير، ويروي لنا كيف شجّعه على السفر، بعد أن خطف الموت أمي، وبلغت بنا الفاقة حدّاً لا يطاق. وبالفعل باع أبي أرضه، وزوّج أختي على مهر، ثم حملني مع أخي الصغير وسافر. في بداية غربتنا عرفنا ألواناً من الشقاء، يحتاج وضيها إلى ساعات وساعات. في تلك الفترة فقدنا أخي الصغير، وكان أبي رغم تجلّده، لا يكاد يجفّ الدمع في عينيه. يغتني مواويل الغربة ويكي. نعم كان يرتجل المواويل مثلك يا ياسين.

الشيخ عباس : هل عرفت ياسين أيضاً؟
عبود : ومن لا يعرف الشاعر ياسين، أو يسمع به على الأقل!
ياسين : (متأثراً) هذا لطف منك.
عبود : فعلاً كنت أتمنى لو حفظت. يا ياسين تلك المواويل الجريحة،

التي كان يغتنيها أبي في الغربة. وحتى حين ابتسم له الحظ، وانفتحت أمامه أبواب الرزق، لم يخف إحساسه بالغربة. وكانت دموعه تسيل كلما عنت على باله الضيعة. وأنا لا أسرد لكم هذا كله إلا لكي أخبركم عن وصيته، وآخر ما نطق به لسانه. أمسك يدي، وهو على فراش الموت، وقال

بصوت متلجلج واه.. أوصيك ألا تنسى البلد وأهلها..
واعلم أن لهم نصيباً مما أغدق الله علينا. تلك كانت وصيته
التي صارت همي، والعبء الذي أحمله على ظهري. أنا
أعرف أن في الضيقة من يتهمني بالسفاهة والتقصير، وهناك
من يظن أن كل ما يشغل بالي هو المتعة والنكاح. ولكن هل
يعلم هؤلاء، أنني لم أعد مرة إلى البلاد، إلا لكي أقيم مشاريع
تساعدها على التقدم والازدهار. وأني في كل مرة كنت
أصطدم بالقوانين، ويحيطني الانغلاق الذي تعيش في ظله
البلاد. كنت أشعر بالخيبة، ولا أجد ما أفعله إلا تجديد
جذوري في الضيقة عبر مصاهرة إحدى العائلات، وتوزيع
شيء من المال على المحتاجين من أهلها وأقربائها.

: الآن تغيرت الأحوال، وعهد الانغلاق انطوى منذ سنوات.
: نعم.. اليوم تغيرت الأحوال. هناك انفتاح حقيقي، وحماية
لرسميل، وتسهيلات للاستثمار.. وهذا هو المناخ المثالي،
كي أنفذ الوصية، وأقيم المشروع الذي أحلم به. المشروع
الذي أتخيله ينعكس على الجميع ثراءً وازدهاراً. هنا، في
هذه القرية الجبلية، المحاطة بالمواقع الأثرية، والطبيعة الخلابة،
سنبنى أهم مجمع سياحي عرفته البلاد. خلال إقامتي في
العاصمة، فاتحت المسؤولين بالفكرة فحتموا لها كثيراً،
واتفقنا على معظم الأمور التنفيذية.

: (بحماسة ساذجة) هل تعني أنك لم تأت من أجل الزواج؟
: ومن يهتم بالزواج؟ ألم يخبركم أحد أن العلاقات بين الرجال
والنساء في الغرب ميسورة وطبيعية، وأن النساء هناك
جميلات، وخبيرات بكل فنون الحب واللذة! لا.. ما جئت
كي نفتح سيرة الماضي. مسحت الإهانات، وكلام السوء

أديب

عبود

ياسين

عبود

الذي كان يستقبلني ويودّعني، وجئت بسريرة صافية، كي
نبنّي المستقبل ونحوّل هذه المنطقة إلى جنةٍ عامرةٍ بالخير.

الشيخ عباس : بارك الله فيك.

ياسين : كلام يسرّ القلب.

عبد الرحمن : هذا ما تحتاجه الضيعة، مشروع يشغل الناس ويحتسّن
أحوالها.

الشيخ عباس : أترون! كدنا نظلمه، وهو الذي جاء كي يصدق خيره على
الجميع.

المختار : ما يعرضه السيّد عبود، سيبدّل الحياة في هذا البلد بالكلية.

عبود : نعم.. هذا ما أطمح إليه. أريد أن يكون النفع عاماً، وأن

تعرف هذه القرية بعد طول الحرمان والشقاء، حياة هنيئة
ومنقمة.

الشيخ عباس : اللهم وفقه، وأعطه على قدر نواياه.

محمد : لا أعرف ماذا سيكون هذا المشروع؟.. وكيف سيبدّل الفقر

نعمةً ورخاءاً. ولكن ألا يحتاج الأمر إلى تحضيرات؟ هل

حدّدت موقع المشروع، وخطة العمل، ووقت المباشرة؟

عبود : هذه الأسئلة وجيهة، وهي تدخلنا فوراً إلى الجدّ. أصغوا إليّ

جيداً.. لقد أعدت مكاتبي في المهجر، كل الدراسات

والتصميمات اللازمة للمشروع. وفي العاصمة حصلت على

مباركة المسؤولين، وموافقتهم على مختلف الإجراءات

التفيذية. إنني جاهز للبدء منذ الغد. ولكن المسألة تتوقّف

الآن عليكم، فأنا بحاجة إلى الأراضى. وأصارحكم أن

المشروع الذي أحمل تصميماته، يحتاج إلى مساحة واسعة.

ولاشك أن المنطقة الغربية هي أفضل المواقع بالنسبة لي. أنا

أعرف مدى تعلّقكم بالأرض، ولكن في أيامنا هذه، أصبح

هذا التعلّق فكراً عتيقاً، يقيد صاحبه، ويعرقل التقدّم في بلده.

وعلى كلّ، راعيت هذا الجانب العاطفي، حين حدّدت المبالغ التي سأدفعها ثمناً لهذه الأراضي. سألت واستفسرت عن السعر المتداول، وفهمت أن أفضل الأراضي لايساوي الدونم فيها أكثر من خمسين ألف ليرة. يا أهل قريتي، ويا أهلي.. هذا المشروع هو في النهاية لكم، ولذا قرّرت أن يصيبكم خيريه منذ اللحظة الأولى. سأدفع في الدونم ستّة أضعاف سعره. بلّغوا أهل القرية، بأنني سأشتري دونم الأرض بثلاثمائة ألف ليرة.

(تبدو على وجوه الجميع حالة انفعالية مقرونة بالدهشة).

: (مذهولاً) ثلاثمائة ألف ليرة!

المختار

: (حالماً) ثلاثمائة ألف!

الشيخ عباس

: نعم.. ثلاثمائة ألف. وأرجو ألا تطيلوا التردّد، لأنّ للوقت

عبود

ثمنه بالنسبة لرجال الأعمال. (ينهض) أسعدني كثيراً أن ألتقي بكم بعد سنوات الغياب الطويلة، وأتمنّى أن نعمل معاً، كي نحقق لهذه القرية الطمأنينة والرفاهية.

(ينهض الجميع مع عبود، فيودّعهم ويخرج).

: ثلاثمائة ألف!

الشيخ عباس

: هذا مبلغ يقبر الفقر.

ياسين

: لست مرتاحاً.

بسام

: فعلاً.. إن هذا لا يدعو للارتياح.

محمّد

: لا تبالوا.. غداً سأحمل لكم الخبر اليقين.

أديب

(يخرجون واحداً إثر الآخر، وعلى وجوههم حيرة وبهوت..

تلاشى الإضاءة).

مشهد ٤

(غرفة زهية المُرْتَبَة بمبالغة وإسراف. في الغرفة زهية وكريمة،
زوجتا عبود الغاوي السابقتان).

: هل رأيت الموكب الذي دخل به إلى القرية!

: لم أستطع مغادرة البيت. شعرت أنني مريضة.

: أكان ذلك بسببه؟

: (بعنف) نعم بسببه، كان قلبي يدق بعنف، وساقاي ترتعشان،
كلما تخيلت أنني سأراه.

: إننا لا نتحدث كثيراً. أخبريني ماذا تحسّين؟

: ولماذا لا تخبريني أنت؟.

: هذا يعني أنك لا تثقين بي. ربّما لانتلقي كثيراً، لكنك لا

تفارقين خيالي. أشعر أننا أختان توأمان، وأن النصيب ربطنا

بمصير واحد. أتريدين أن تعرفي ماذا أشعر؟ حين لمحت في

السيّارة، تمثّيت أن أركض نحوه، وأن أناديه.. خذني معك.

من الصعب أن أشرح لك كيف تتناوب عليّ المشاعر. أحياناً

أحسّ أنني أريد أن أركع عند قدميه، وأن أغمرهما بالقبلات

والبسمات. أن أعتبر له عن امتناني لأن ما عشته، وما ذقته

خلال زواجنا يساوي عمراً من حياة الناس العادية.. ومرات

أشعر أن ما يوجد في إهابه هو شيطان لا إنسان، فأشتمته،

واللعن جحوده.

كريمة

زهية

كريمة

زهية

كريمة

زهية

كريمة

- زهية : أما أنا فقد أفعمت روحي تلك الجنة التي أدخلني إليها. لا.. لا أستطيع أن أغضب منه. لا أستطيع أن أكرهه أو ألومه. وحتى لو علمت أنه الشيطان فسأترك الله، أستغفر الله العظيم، وأعبد الشيطان.
- كريمة : ماذا فعل بنا هذا العتود الغاوي! لو أمر خادمه العجيب أن يقتلنا يسر، لكان أسدى لنا معروفاً. أما الآن فإن حياتنا كالأنقاض، لا نعرف كيف نللمها أو نعيشها. الغاوي هجرنا. ونحن لم يعد يملأ عيوننا رجل آخر، أو حياة كذلك التي تعيشها نساء الضيعة.
- زهية : حقاً.. كأن متاً أصابنا، أو وشماً دبغ أرواحنا.
- كريمة : فماذا نفعل إذا؟
- زهية : وماذا نستطيع أن نفعل؟
- كريمة : ليردنا. ليضمتنا إلى خدمه. ليدخلنا في تجارته ومشاريعه.
- أعلمين من يستطيع مساعدتنا؟
- زهية : أهنك حقاً من يستطيع مساعدتنا؟!
- كريمة : نعم.. إنه ذلك الخادم العجيب.
- زهية : وهل يجروء على الالتقاء بنا، دون إذن سيده؟
- كريمة : دعينا نحاول..
- (فجأة يظهر الخادم الأحذب، ويتقدّم بحركات احتفالية).
- الخادم : هل دعني السيدتان؟
- زهية : (مشدوهة) أنت!
- كريمة : لاشك أنك الشيطان!.
- الخادم : أهذه شتيمة أم أمنية! لانجيبى.. أعرف أنها أمنية. وعلى كل، القلوب عند بعضها. كانت السيدتان تتحدثان عني، وكنت أنا الخادم الذي برّح به الشوق أبحث عن السيدتين.
- كريمة : (بسخرية) وها نحن نلتقي، هل تحمل لنا رسالة أو خبراً، أم

- جئت تسخر منّا؟
 الخادم : لا أدري ماذا تحتاج العروستان! هل تتأخر النفقة؟ أم أن المبلغ ضاق عن الحاجة؟
- زهية : لا.. لا ينقصنا المال، بل صاحب المال. نحتاج قربه، والعيش في كنفه.
- كرمية : قيل إنه يرتدي مسوح العفة، وإنه لن يتزوج في زيارته هذه.
 الخادم : سمعت قولاً صحيحاً. هذه الألعاب الصغيرة ما عادت تثيرنا، في رأسه مشروع كبير، سيغير الحياة من أصلها.
- كرمية : هو دائماً لديه مشاريع.. وهو دائماً حين يسأم، يعرف كيف يدير ظهره، أما نحن فنظل على السرير وسط ملابسنا المبعثرة، لا نعرف كيف ننهض، ولا نعرف كيف نبقي. لا نطبق العودة إلى حياتنا السالفة، وليس حولنا أية إمكانية لتكرار تلك الساعات التي عرفناها، وذقناها.
- زهية : ونحن لا نريد رجال الضيعة، وهم يتحاشوننا، كأننا غولتان، أو مصابتان بالجذام.
- الخادم : لا.. إنكما تجعلان الدموع تطفر من عيني، أنتما أجمل عروسين خدمتهما. لا أتحمل أن تقاسيا هذا الجحود. لا أدري.. أرجو ألاّ تسيئا فهمي.. لديّ حلّ، وإذا قبلتما فستجدان حياة النعيم التي تليق بكما.
- زهية : وما هو هذا الحلّ؟
 كرمية : أسرع. ماذا تقترح؟
 الخادم : لا أدري.. أخشى أن تزعلا.
 كرمية : قلّ وخلصنا.
- الخادم : أقترح أن تسلّما نفسيكما لي.. سأكون معلّماً، وستكونان أنجب تلميذتين عرفتهما.
- كرمية : أنت معلّم! وماذا ستعلّمان؟

الخادم : لا يغرنكما شكلي، ولا تستهينا بي، إنني أعرف أسرار الشهوة والغواية منذ آدم وحتى يومنا هذا. لديّ فنون إذا تعلّمتها المرأة صارت قدراً لا يقاوم، ومملكة يترامى الرجال كالمسوسين تحت قدميها. سأجعل كلاً منكما فتنة يدوخ ويفرق فيها أشدّ الرجال زهداً وإرادة.

كريمة : هل نستعيد عبّود؟
الخادم : في البداية ستمعملان داخل المملكة التي ينيها عبّود. وستكونان أفضل مافي تجارته وأعماله.

زهية : إذن سنعود إلى جنّته.
الخادم : إذا كنت تسمّين قربه جنّة، فإني أعدك أن تعودني إليها.. ولكن ما أعرضه عليكما واسع الأفاق، ويمكن أن ينيي مملكة غنية ومستقلة بذاتها.

زهية : ومع هذا.. أريد أن نظلّ في حمى عبّود.
الخادم : لانتخافي.. سنظلّ في حماه وهو في حمانا. سنظلّ معاً حتى تنقضي الأوطار والأجال.

كريمة : دعنا من مجونك! ألدّيك حقّاً هذه الخبرة التي تدّعيها؟
الخادم : بعد الموافقة، ستكشفان خبراتي ومعارفي.

زهية : وافقنا. ألا توافقين يا كريمة؟

كريمة : ليكن.. سأجرّته.
الخادم : إذن.. لم يبقَ إلا أن نختم الاتفاق.

(يمسك رأس كريمة بين كفيه، ثم يطبع قبلة على شفّتها. ينتقل بعدئذ نحو زهية ويقتلها على فمها، ثم ينسل ويخفي فجأة. كل واحدة تضع يدها على فمها، وفي عينيها نظرة ذاهلة).

كريمة : كأنه وضع جمرة على شفّتي!

زهية : فعلاً، كأنها جمرة!

كريمة : ما أشد غرابته! كنت دائماً أحنّ.. لا.. لأدري.. لكنّه
رجل يفي بوعوده.
زهية : (وهي تحضن كريمة) آه.. أشعر أن البهجة تملأ صدري.
(تتلاشى الإضاءة)

مكتبة سحر الأريكة
www.books4all.net

الفصل الثاني

بيع الأراضي بشير في القرية هيجانات وصدامات...
وقابيل يقتل أخاه هابيل

مشهد ١

- (دكان يوسف العلوني، يوسف وزوجته فاطمة الموعي)
- فاطمة : في حياتي لم أرَ الضيعة مهتاجة إلى هذا الحد. تقول إن موجة عاصفة ضربتها، وزلزلت كيانها.
- يوسف : عرف ابن الغاوي كيف يهزُّ دواخل النَّاس، ويوقظ شياطينهم.
- فاطمة : هذا الصباح، حين ذهبت إلى منهل الماء، شعرت أنَّ الضيعة تغيّرت، وأنَّ النَّاسَ غرباء. تصوّر.. كلَّ الذين التقيتهم كانوا زائغي العيون، شاردي الوجوه، يتحرّكون وكأنَّهم يسرون في نومهم. حتّى النِّساء وجدتهن متعبات وصامتات. تملأ الواحدة جرّتها، وتمضي مسرعة إلى بيتها.
- يوسف : ماذا تتوقّعين؟! باغت النَّاس، وأشعل بينهم فتنة، لا يعرفون كيف يواجهونها. تصوّري.. فجأة حضر، وسكب على رؤوسهم ثروات، لا يتصوّرونها حتّى في الأحلام. لقد أذهلتهم المفاجأة. وهم يخافون أن يمدّوا أيديهم إلى الثروة، ويخافون أيضاً أن يرفضوها.
- فاطمة : ألا ترى أنَّ ما يحدث لا يشتر بالخير!
- يوسف : ومن يعرف الآن، إن كان ما يحدث خيراً أم شراً. حتماً ستغيّر أحوال النَّاس في هذه الضيعة، وقد تكثر الفلوس في أيديهم. وإذا كثرت الفلوس، ازداد الميل إلى التسوّق

والشراء، وانتعشت التجارة والأعمال. أتعلمين.. لو كان لدينا رأس مال، لو سعت تجارتني منذ الغد. ولكن ما العمل! ليس لدينا إلا هذه البضاعة والسّمة الطيّبة.

فاطمة

: هذا يكفي ويزيد. إنني أحمد الله، وأبوس اليد وجهاً وقفا.

يوسف

: طبعاً.. الحمد لله كلّ دقيقة وكلّ ساعة. (يقترّب منها

ويداعب وجهها) ألا يكفي أنّ الله وهبني هذا الكثر، وأعطانا

كفايتنا من الحبّ وأسباب الرزق؟

(يحاول أن يحضنها ويقبلها)

فاطمة

: (تملّص منه بخجل) استح يا يوسف.. هل نسيت أنّنا في

الدكان!

يوسف

: (وهو يلاحقها بنوع من المداعبة العابثة) أريد أن ييصر العالم

كلّه حبيّ لك.

(يدخل خلف الدورى).

خلف

: معك حقّ.. والله لو كنت محلّك، لأسمعت باطن الأرض

والسماوات السبع أنّي أحبّها. كنت أفضل حظّاً منّي يا

يوسف العلوني. أو أنّي بليد. نعم.. كنتُ بليداً. أحببتها منذ

كانت مثل فرخ اليمام، وخلال تلك السنوات العديدة،

كنت أكتوي بحبّي، ولا أدري كيف أعلنه، أو أبوح به.

وبقيت كالحمار أتردد، وأنتظر، حتّى خطفتها منّي يا يوسف.

لو خطفت الثور من عيني، أو نزحت الدم من فؤادي، لكان

ذلك أهون عليّ. كنت أفضل حظّاً منّي، ومازال الحظّ

الطيّب يختارك ويؤاتيك.

يوسف

: (دون غضب) ألن تعب من حكاية هذه السالفة؟

خلف

: ستظلّ هذه اللوعة تكويني حتّى مماتي.

فاطمة

: هذا الحديث عن حبّك يسيء إليّ، ويفضحني يا خلف.

خلف

: أنا أفضحك، أو أسيء إليك؟! ما عشت إن غلّقت بك حبة غبار

من طرفي. أنا لا أحبّ الثروة، ولكن حين تطفح اللوعة في صدري.. حين أراكما.. وحين وجدتكما.. وأنتما.. وأنتما.. لم أتمالك نفسي، ووجدتني أبوح بما يعتل في صدري.

يوسف

: طيب، ونحن.. ونحن.. ماذا تريد أن نخدمك؟
: قلت لك.. الحظّ يحالفك، وما جئت لأشتري، بل لأقدم لك.

خلف

: وماذا ستقدم لي؟

يوسف

: اسمع يا يوسف! درس معلّمي أحوال الضيعة، وما ستحتاجه حين تمتلئ جيوب الناس. فوجد أنّ ما ينقصها هو محلّ تجاريّ ضخم، تتوفّر فيه كلّ أنواع البضائع، التي سيحتاجها الناس في الفترة المقبلة. محلّ ضخم يوجد فيه كلّ ما يخطر على البال من غذاء ولباس وآلات، يسمّونه في البلاد الأجنبية، سوپر ماركت. في البداية فكر أن ينشئ هذا المحلّ، ويجعله جزءاً من مشروعه. ولكن يا الله... ما أشدّ خوفه من قطع الأرزاق! عرّف أنّ قيام محلّ تجاريّ ضخم سيقتضي على دكانك، ويصيبك بالإفلاس، فقرّر أن يعرض عليك الشراكة، وتوسيع التجارة.

خلف

: عبّود الغاوي يريد شراكتي؟!

يوسف

: سنعتبر هذا الدكان بداية صغيرة لها حسابها، وسيمدّك بالمال اللازم لتوسيع البناء والتجارة معاً. وبهذا الشكل يلبي حاجة الضيعة دون أن يضّر أحداً فما قولك؟ هل يحالف الحظّ ابن امرأة كما يحالفك؟

خلف

: (مشدوهاً) ما قلتي! وهل أعرف ما قلتي! فاطمة! من كان يصغي إليّ حين تحدثت عن توسيع التجارة؟ الله.. أم الشيطان!

يوسف

: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! هذا علمه في الغيب يا

فاطمة

- يوسف.
- خلف : لا.. لن تتردد أمام عرض، لا تحصل عليه إلا إذا استجابت لك ليلة القدر.
- يوسف : ألم أقل لك يا فاطمة.. إن ابن الغاوي عرف كيف يهز دواخل الناس، ويوقظ شياطينهم. أحسن الفتنة، وأحسن المال يتساقط علينا كالطر الدافئ. ماذا تقولين؟ وما رأيك؟
- فاطمة : لا أدري، أنت أدري بأمر تجارتك.
- خلف : عجيب.. وأنا الذي كنت أتوقع أنك سترغد، وتطير من الفرح!
- يوسف : طبعاً.. في داخلي صوت يزغد، وفي داخلي اهتزاز وشراة تصيح. طبعاً.. لا أستطيع أن أقول لا. وأنا جاهز للشراكة وتوسيع التجارة.
- خلف : هذا هو القرار الحكيم. لو عاندت حظك لتخلى عنك. سأخبرك متى تأتي لتوقيع الاتفاق، وإجراء الترتيبات. ولا تنسى يا يوسف العلوني أنك أحسن حظاً متي.
- (يفادر الدكان.. بعد أن يختفي، تتقدم فاطمة إلى الباب وتغلقه، تستدير وتقترب من زوجها وفي عينيها نظرة متوجسة وخائفة).
- فاطمة : احضني!
- يوسف : (وهو يحضنها) هذه مكافأة تضاعف ربح اليوم.
- فاطمة : ضمني بقوة، ولا تحدث عن الربح.
- يوسف : ماذا هناك؟
- فاطمة : لاشيء.. أشعر بانقباض وخوف.
- يوسف : ما أشد حساسيتك!
- فاطمة : ضمني ولا تتكلم.
- (تلاشي الإضاءة).

مشهد ٢

(في البرية، كرم تين، تينة متأججة الخضرة، وترخي غصونها حتى تمس الأرض، ولذا لا يميز المرء الجالس تحتها إلا بصعوبة. فضة تقطف ثمار التين، وتضعها في سلة تحملها. بين الحين والآخر تلتفت حولها. يأتي عبد الرحمن الدرويش بخطوات قلقة متلفتاً هو الآخر ذات اليمين وذات الشمال).

فضة : هل رآك أحد؟

عبد الرحمن : لا أظنّ.

فضة : إذن أسرع، وأختبئ تحت التينة العبيّة.

(يمضي عبد الرحمن نحو التينة، التي ترخي غصونها حتى تلامس التراب. تستمرّ فضة في قطاف التين وهي تتطلع قلقة حولها. عندما تطمئن أنه لا يوجد أحد في الجوار، تسرع وتنضم إلى عبد الرحمن).

عبد الرحمن : لماذا جلست بعيداً عني؟

فضة : لعن الله هذا العمر. تعبت من الخوف. تعبت من اللّهفة.

تعبت من الانتظار. تعبت من الكذب. تعبت من الفقر.

تعبت من كلّ شيء.

عبد الرحمن : (يقرب منها، ويضمّ بذراعه اليمنى كفيها) ماذا هناك؟ هذه

المرارة توجعني، هل تقصدين لومي؟

فضة : لا أعرف من ألوم! أنت، أم أنا، أم هذه الدنيا، أم نحن

جميعاً! سنوات من الهوى المجنون... ومع هذا لا نلتقي إلا
خلسة، ولا نذوق إلا متعة ينقصها الخوف. لم يبق حجر ولا
صخرة، ولا شجرة عتيّة، ولا خرابة، إلا وشهدت عُرينا،
وتركت وسخها وعلامتها على جسدنا.

عبد الرحمن : (وهو يلحس أذنها مداعباً) ألا تدرين يا روجي، أن هذا
الخوف المرتعش، هو الذي يؤجج الحب في قلوبنا، ويضاعف
اللذة في جسدنا!

فضة : ولكنّي تعبت.. أنت لاتعرف كم أشتهي الاسترخاء بعد
المعاشرة! هكذا.. أن أسترخي على سرير واسع، وأنت إلى
جواني، وأن نغفو لحظات، وأن نشعر أن العالم بعيد، كأنه
رحل ونسينا.

عبد الرحمن : يا الله.. ما أجمل ما تقولين! أحسن هيجاناً لذيداً يسري في
جسدي.

فضة : نعم.. نبدأ بالهياج، ثم نفعلها ونحن نلتفت خوفاً. ثم نسوي
ملابسنا، ونمضي. أنت إلى الراحة والعزّ، وأنا أعود إلى
الشقاء والفقر.

عبد الرحمن : هذه الماراة التي تتحدثين بها، تضغط على عنقي يا فضة،
قولني ماذا هناك؟

فضة : لاشيء.. ياسين يعرف عتاً أكثر ممّا توقّعت. وابن الغاوي لم
يأت هذه المزة كي يتزوج، وأنا تعبت من الحب فوق الحجارة،
والتراب، قل لي.. ماذا تنوي أن تفعل بالفلوس التي ستقبضها؟
عبد الرحمن : أية فلوس؟

فضة : فلوس الأراضي التي ستبيعها؟

عبد الرحمن : وما أدراك أنني سأبيع؟ لم أقرّر بعد.

فضة : ولماذا لم تقرّر؟ هذه فرصة لن تتكرّر. نعم ستبيع.. وسيكون معك
مال كثير. أجل.. مال كثير. هل تحبّي فعلاً يا عبد الرحمن؟

عبد الرحمن : إنّي لا أعرف كيف أجمّع ما تقولين! تريدن أن أبيع! ليكن..
سأبيع.

فضّة : (تقاطعه بلهفة) أتفعل ذلك من أجلي؟

عبد الرحمن : كنت ميّالاً للبيع. وجاء كلامك الآن، فحسم ترددي.

فضّة : نعم.. ستييع، وستملأ جيوبك أكداً من المال.

عبد الرحمن : لا أفهم إلحاحك على المال. ماذا تخفين؟

فضّة : طبعاً.. لن تفهم إلحاحي على المال. عشت دائماً ميسور

الحال. أمّا أنا فقد عشت حياتي كلّها في العوز والحرمان.

كنت دائماً أحتاج إلى المال، وأحلم به.

عبد الرحمن : حاولت ألا أقصر، هل قصّرت؟

فضّة : لا.. أنقذتني مرّات من الجوع والبهدة، ولكن مالك لم يكن

وفيراً.

عبد الرحمن : لاشكّ أنّي قصّرت، كان ينبغي أن أعرف متى تحتاجين، وأن

أسعفك وقت حاجتك.

فضّة : (وهي تعانقه) لاعليك.. ليس هناك ما تلوم نفسك عليه. قل

لي.. هل ترغب بي حقّاً؟

عبد الرحمن : لا أرغب بشيء في الدّنيا أكثر منك.

فضّة : (وهي تندسّ فيه) إذن.. دعنا نساfer.

عبد الرحمن : نساfer! إلى أين؟

فضّة : إلى أيّ مكان بعيد، إلى مدينة بعيدة، لا يعرفنا فيها أحد.. أنا

وأنت ومعنا مال كثير. ستشتري لي ثياباً جميلة، وعطوراً

فاخرة. سنأكل في مطعم وسننام في فندق. فراش واسع

ونظيف. نتلاعب عليه، ونتبغدد طوال اللّيل، نخيل،

سنقضّي اللّيل معاً، وسأنام على زندك، وتنام على زندي.

عبد الرحمن : (وهو يغفل يده تحت ثيابها) آه.. هذا جميل.. هذا جميل

جداً.

- فضة : (هامسة) سنكون جميلين، وسنمحو العمر الشقي من ذاكرتنا، هل وافقت؟
- عبد الرحمن : (وهو يلهث) سأشتري لك ثياباً جميلة، وعطوراً فاخرة، وسأحملك بسيارة جديدة إلى مدينة بعيدة.
- فضة : سأطلب الطلاق من ياسين.
- عبد الرحمن : أطلبه.. أطلبه.
- فضة : وأنت.. ماذا ستفعل؟
- عبد الرحمن : إنني أحلم.. هذا حلم جميل.. جميل.
- فضة : (فجأة تنهض غاضبة) دعني.. إنك تتكلم كالمسطور. أنتظرن آني أحلم! لا إنني جادة. هل تسمعين؟ أنا جادة وأعني ما قلت.
- عبد الرحمن : يا الله!.. اهدئي قليلاً.
- فضة : لن أهدأ.. أعطيتك أجمل سنوات عمري. كنت تفعل بي ما تشاء، وحين تشاء. أجمل سنوات عمري، وأنا أصلي في محرابك. لم يخطر ببالك مرة أن تعطيني شيئاً، أن تمنحني أملاً، أن تتخيل لنا مستقبلاً. تعبت من الغمز واللّمز، تعبت من الاستلقاء على الحجارة والشوك. ولا يمكن أن نواصل على هذا النحو. لا يا عبد الرحمن، إنني جادة، سأنتظرك يوم تقبض ثمن أراضيك، فإذا عزم، تعال وسأكون جاهزة. وإذا لم تعزم، فلن يكون بيننا لقاء بعد اليوم.
- (تتركه وتمضي)
- عبد الرحمن : يا الله! انتظري قليلاً.. يجب أن نتكلم.
- فضة : (وهي تتبعد) تكلمت أكثر مما يجب، وليس لدي ما أضيفه.
- عبد الرحمن : (وحيداً) يا الله.. لم أعرف كيف أجمع كلامها، وأفهم مغزاه. لاشك أنها جادة.. يقيناً أنها جادة.
- (تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٣

(بيت ياسين. ياسين وابنته رباب)	
: (يعزف ويدندن)	ياسين
يا أسمر السمر.. آه..	
: (تردد وكأنها تشجعه) آه..	رباب
: يا أسمر السمر ياما عيروني فيك.	ياسين
: فيك..	رباب
: وكل ما عيروني فيك زدت رغبة فيك.	ياسين
: فيك..	رباب
: إنت الورد بالسحر وأنا التدى بسقيك.	ياسين
: بسقيك..	رباب
: إنت الثريا وأنا الميزان برعى فيك.	ياسين
: (تصفق) طيب الله هذا الصوت.	رباب
: ما أحلى وجودك قربي! لولاك لما استطعت البقاء يوماً واحداً في هذا البيت.	ياسين
: وولداك!	رباب
: إني أحبهما، ويتقطع قلبي حين أتخيل أنهما يكدحان في المدينة، كي يؤمنا مصاريف الدراسة والحياة. ولكن أشعر أن أحداً في هذا البيت، لا يفهمني، أو يتعاطف معي سواك..	ياسين
: لا يا أبي.. الجميع يحبونك، ويحفظون لك حقك من	رباب

الاحترام.

ياسين : أعرف كم تتمنّين إصلاح الأمور، وأن تسود المحبة هذا البيت. لكن ماذا أقول لك! هناك فساد قديم لا يمكن إصلاحه يا رباب.

رباب : أهى علاقتك بأمي؟

ياسين : دعيك من هذا. هناك أمور لاتقال. ولا تظنّي أنّي لا أدرك جانبي من المسؤولية، وأدرك أيضاً أنّ لهم الحقّ في لومي. ماذا أفعل! لم يورثني أبي إلاّ كرم التين المليء بالصخور، ولم يعلمني إلاّ ارتجال المواويل والغناء على الزبابة. في الأيّام الخوالي كانت العائلات تتخاطفني، وكانت القرى تتسابق لدعوتي، وبلغ صيتي قرى نائية لاتخطر على البال، في تلك الأيّام كانت الفلوس تجري في يدي، وكنت أنفق على البيت دون حساب. عمري ما احترمت الفلوس، وما تعلّمت كيف أختبئ قرشي الأبيض ليومي الأسود. ثمّ بدأ الزمن يغدر بالشاعر، ويأتي محمّلاً بهذه الآلات العجيبة. جاء الراديو ثمّ آلات التسجيل، ثمّ التلفزيون.. ويوماً بعد يوم كان يتوارى ذكر الشاعر، وينساه الناس. قلّت الدعوات، ثمّ ندرت، ثمّ لم يعد الشاعر يسافر إلاّ لأنه يحبّ السفر، ويغذّي أشعاره بالترحال. نعم.. عندما كبرتم، وازدادت حاجاتكم تضاءل عطاء الأكارم، وشخّ المال في يدي.

رباب : (عيناها دامتان) لاتلم نفسك يا أبي.

ياسين : هل تبكين يا رباب؟ كلّ ما عانيت لا يساوي دمة واحدة من عينيك. ولدتي خير مفرح لم أقله لك بعد.. بدأ الحظّ ينقلب، ويفتح أمامي الأبواب. هذا سرّ بيننا. إنّ عبود الغاوي مسحور بمواويلي وغنائي. ألم تلاحظي! حين يسهر في

القرية، لا يستطيع أن يستغني عن وجودي. بل وطلب منّي أن أجهّز نفسي، كي أذهب معه إلى العاصمة. يريد أن يسجّل كلّ مواويلي على أشرطة وأسطوانات. قال لي إنّ الجالية في المهجر متعطّشة لهذا اللون من الفنّ الشعبي، وأنهم سيتخاطفون الأشرطة والأسطوانات، وسيكون لي دخل وفير ومستمرّ.

رباب

: هل أنت مطمئنّ يا أبي؟

ياسين

: في البداية، لم أكن أطيع ذكره. وحين فاتحتني أمك، طار الصّواب من رأسي.. أنت تعرفين ما جرى بعد ذلك.. والاعتراف بالحقّ يا ابنتي فضيلة. تبين أنّ الرّجل حريص على أهل قريته، وأنّه ما جاء إلّا لكي يساعدكم، ويوفّر لهم البحبوحة والازدهار. خذي حالتي مثلاً.. كان يمكن أن أموت، وأن يموت معي كلّ ما جاءت به قريحتي. لكنّ الرّجل بدا مرهفاً وكرماً. قدّر فنيّ، وأخذ بيدي. أنا لم أطلب شيئاً.. بل هو الذي اقترح أن يسجّل مواويلي كي يحفظ ذكرى، ويساعدني على رزقي. لا.. إنّ الرّجل شهم، وإنّي مطمئنّ إلى شهامته.

رباب

: هناك من يتوجّس من مجيئه، والمشروع الذي ينييه. وفي الضيعة تدور أقاويل وتخمينات كثيرة.

ياسين

: هذا مايرع به أهل ضيعتنا.. النمائث والقيّل والقال. بعض التّاس لا يرحمون، ولا يتركون رحمة الله تصيهم. اطمئني يا ابنتي، من كثرة ماصاحبت وعاشرت، صار أبوك يعرف كيف يزن الرّجال، ويميّز سجاياهم. (يضع الرّياضة في كيس مخمليّ ويتأهّب للخروج). سأذهب الآن. (يتوقّف ويلتفت) أين أمك؟

- رباب : ذهبت كي تقطف كرم التين.
- ياسين : (وهو يخرج) قلبي لها إني سهران عند الغاوي.
- (يخرج)
- رباب : إذا لم يكن ابن الغاوي جاذاً، فستقضي الحية عليه. يا رب..
- لا تخبّ مسعاه، ولا تحبط أمله. (يتغير وجهها) وماذا لو كان مايفعله ابن الغاوي خطّة لاصطيادي! أيمن أن تمرّ على أبي هذه الألاعيب! أف.. منذ جاء لم نعد نعرف الهدوء والسكينة.
- (يدخل بسلام الراضي، فيرى رباب تخفي وجهها يديها).
- بسلام : رأيت أباك يخرج، فانتهرت الفرصة.
- رباب : ستأتي أمي عمّا قليل.
- بسلام : أتطلبين أن أخرج؟
- رباب : لا.. لم أعن ذلك.. تفضّل واجلس.
- بسلام : جئت لأقول لك.. سأفتح أهلك بالموضوع غداً أو بعد غد.
- رباب : أفضل أن تؤجل ذلك..
- بسلام : أخبرت أبي، وسيأتي معي، فلماذا التأجيل؟
- رباب : لا أدري.. لست مستعدّة الآن.
- بسلام : وماذا يمنعك؟ منذ فترة كنت راضية، أو هذا ما بدا لي.
- رباب : أجل.. أحببت كلامك عن المساواة بين الرجل والمرأة. والعمل المشترك ضدّ الأفكار البالية، والتقاليد المتخلفة. أعجبني تقشّفك وحديثك عن عشّ زوجي مفروش بالبسط اليدويّة والطرايح، وموقدة الحطب، ولكن.. لا أدري.. بعد فترة، اكتشفت أنّ هذا وحده لا يكفي.
- بسلام : ولماذا لا يكفي! قلبي بصراحة، أتحبّيني أم لا؟
- رباب : آه.. الحب! مازلت صغيرة يا بسلام، ومشاعري تموج متغيرة كتقلّبات الريح. إنّ لديّ أحلاماً كثيرة، وأحياناً أحسّ أنّ

- الدنيا أضيق من أن تتسع لطموحي وإمكانياتي.
- بسام : هذه بداية الداء. البريق يجذب، والثروة تغوي. ولعلك تنتظرين زيارة ابن الغاوي وأخته.
- رباب : أهذا رأيك في؟
- بسام : آسف. أردد الشائعات، لأن ما تقولينه يبدو كالمرأوخة أو الهروب.
- رباب : (بعنف) لست الفتاة التي تقبل أن تباع، وليس هناك ما أهرب منه، ما قلته لك هو الصدق. أحس أن مشاعري تموج، وتتغير، وأحلامي الغامضة والمثقلة بالوعود، ليس للزواج مكان فيها.
- بسام : (بلهجة واخزة) وبماذا تحلم الآنسة يا رباب؟
- رباب : (تغمض عينيها، وفي لهجتها شيطنة) آه.. مثلاً أحلم أن أسافر وأبي. لا نحمل شيئاً إلا ربابته وأغانيه. نتوه في الدروب متنقلين من بلد إلى بلد، وأينما حللنا ننشر حولنا فرحاً وموالاً.. آه.. من الصعب أن تفهم ما أحلم به. (تستصت بانتباه) أعتقد أن أمي جاءت. أرجوك أن تخرج ولا تخرجني معها.
- بسام : سأخرج.. ولكن أرجوك أن تفكري جيداً، ولا تدعي النزوات تضيع فرصة عمرنا.
- رباب : (وهي تدفعه) طيب سأفكر.. أعدك أن أفكر.
- (يخرج.. وتلاشي الإضاءة).

مشهد ٤

(مصطبة أمام بيت المختار يغطيها حصر من القش، وبضعة مساند، المختار، ضرغام، أبو راغب).

ضرغام

: ما النصيحة يا مختار؟

: (حادّ الصّوت) كم مرّة يجب أن أقول، وأعيد، هذا موضوع أتمنى أن يقدره كل واحد بنفسه، أو مع قرابته.

المختار

: وزنتها كثيراً ولم أصل إلى قرار. هذا الرّجل قلب حياتنا عاليها سافلها. أحسّ بالاختناق إن وافقت، وأحسّ بالاختناق إن رفضت.

ضرغام

: والله هذه حالنا جميعاً. وفوق ذلك يأتيك إلحاح الولد. فجأة تدبر المصاري رأسه، فيبدو كالسكران، يريد أن يني، وأن يتزوّج، وأن يعرف الدّنيا ولذّتها.

أبو راغب

: ولك يا عمّي، الولد، والمرأة والبنّت.. ولك أنا نفسي. ألا يحقّ لنا أن نرتاح من ثقل الديون، وأن نعرف بحبوة العيش، ولو فترة قصيرة من العمر؟

ضرغام

: وهناك من يقول.. من باع أرضه هان عليه عرضه. وتعال دبرها، ماعاد المرء يعرف من يسمع، ومن يطيع.

أبو راغب

: يا جماعة الخير.. المسألة لا تحتاج إلى هذه الحيرة كلّها. إذا كان المرء محتاجاً، ولا يحلّ ضائقته إلّا بمبلغ كبير، فعليه ألاّ يتردّد. والحقيقة أنّ الرّجل يفكّ مبالغ تفوق الأرض قيمة،

المختار

- ولا تترك في النفس باباً للندم.
- ضرغام : ما تفضّل به يا مختار على الرأس والعين.. حين أتصوّر أنّي بلا أرض أشعر «حاشا الحضرة» كأنّني أمشي بين الناس بلا لباس، أو أنّني تركت الضيعة، وصرت غريباً لا مقام لي إلاّ مع وحوش البريّة.
- أبو راغب : حلفتك بالله يا مختار.. هل ستبيع جزءاً من أراضيك أم لا؟.
- المختار : (متضايقاً) ما كان يجب أن تحلفني. قلت وأعدت.. لا أريد أن أوثر على أحد في قراره.
- ضرغام : أنت مختارنا وتعرف الأمور خيراً ممّا.
- (ينضم الشيخ عباس إليهم ويتبادلون التحيّة).
- المختار : شرفت يا شيخ، تفضّل.
- الشيخ عباس : لا.. لدينا شغل. جئت كي أصطحبك معي في مشوار ضروريّ.
- ضرغام : من حقّنا على المختار، أن يرشدنا إلى الصّواب قبل أن يمضي.
- الشيخ عباس : وما هي المسألة؟.
- أبو راغب : سألتناه إن كان سيبيع جزءاً من أراضيه!
- الشيخ عباس : وأنا أقول لكم المختار سيبيع.
- المختار : لا يا شيخ.. في هذا الموضوع، دع كلّ واحد يُخرج مواله من رأسه.
- الشيخ عباس : لن نخفي عنهم شيئاً، والنصيحة واجبة. المختار سيبيع، وأنا سأبيع، ومجنون من لا يبيع.
- ضرغام : الأرض غالية يا شيخ.
- الشيخ عباس : وابن الغاوي يبدّل ترابكم تبراً.. أي ذهباً. الأرض غالية، لكنّها ليست أغلى من الثروات التي يبادلكم بها.
- أبو راغب : أما كان أجدادنا يقولون من باع أرضه هان عليه عرضه؟
- الشيخ عباس : إذا دخلتم في الأمثال والسّوالف ضعتم. ولو عُرضت على

أجدادنا هذه الأسعار المجزية، لما ورثتم أرضاً ولا أمثالاً.

اهتدوا بالله، وبيعوا الفقر والتّعتير. يا الله يا مختار..

المختار : (وهو ينهض) أنا لم أقل شيئاً.

الشيخ عباس : ضعوها في رقبتني، ووزرّها عليّ.

ضرغام : اللّهم اهْدِنَا إِلَى مَا فِيهِ الْخَيْر.

أبو راغب : آمين..

(يخرج الجميع.. وتلاشى الأضواء).

مكتبة سحر الألفية
www.books4all.net

مشهد ٥

- (بيت محمّد القاسم، أديب الناطور، سميرة بنت محمّد القاسم)
- أديب : (وهو يمدّ يده إلى صدرها) أنيّ الينبوع، وقلبي يتفحّم ويسود من العطش.
- سميرة : (مبتعدة خافتة الصّوت) احذرا! سيخرج أبي بين لحظة وأخرى.
- أديب : ماعدت أخشاه. هذا وقتنا، والريح تؤاتينا.
- سميرة : وما الذي تغيّر؟
- أديب : إنّ كلّ شيء تغيّر يا قمري. لن يبقّى مجال في هذه الضيعة إلّا وسيناله التغيّر، من البيوت الطينيّة إلى الطعام واللبّاس حتّى العادات. تخيّلني! أنا ابن الناطور.. قد تجري الفلوس في يدي كالماء.. وخلال أيام قليلة، سترى هذا الجسد الشّهيّ أحدث الملابس المستوردة من عواصم التقدّم والمدنيّة. حمالات من الحرير تدغدغ هاتين اليمامتين، وألبسة شقّافة تزيد البشرة فتنة، والتفاصيل روعة. أعاهدك ألا ترتدي هذه الثياب فتاة قلبك، وستكون تلك هديّتي الأولى لعينيك.
- سميرة : إنّ كلامك يقتل الرأس.. ما أبرعك في تصوير كلّ شيء!
- أديب : سميرتي، وقمري.. إنّ حبّي ليس كلاماً، ولا براعةً في التصوير. إنه هنا.. حيّ وملموس. إنه يتوجّع ويحلم، إنه

- عصارتني، وزبدتي، والدم الذي يجري في عروقي.
 سميرة : يا الله.. إنك تجعلني أشعر.. لسانك يدوخي كالخمر.
 أديب : وأنا.. أنظّيتني أني لا أدوخ حين أراك، وحين ألمح أنك تبادلين
 حبي قبولاً ورضى؟
 سميرة : (بكابة) ومافائدة قبولي؟ لن يوافق أبي مهما فعلت.
 أديب : دعي أباك علي.
 محمّد : (يأتي صوته من الداخل) مع من تتكلمين يا سميرة؟
 سميرة : (مرتبكة) هذا أديب الناطور يسأل عنك يا أبي.
 (يتغامزان.. ثم تسرع سميرة في الخروج، بعد قليل يدخل
 محمّد القاسم).
 أديب : السلام عليك يا عم.
 محمّد : وعليك السلام. لماذا لا تجلس؟ تفضّل.
 (يجلس محمّد القاسم، ثم يجلس بعده أديب).
 محمّد : ماذا جئت تحمل لنا؟
 أديب : سألت يا عم واستفسرت.
 محمّد : وماذا وجدت؟
 أديب : كلّ ماقاله صحيح. وهناك مسؤول كبير يرعى المشروع،
 ويقدم له كلّ الدّعم الذي يحتاجه. إنهم يعتبرون أنّ السّياحة
 هي الصناعة التي تلائم بلادنا وإمكانياتنا. لأنّ كلّ ما تحتاجه
 السّياحة هو التّاريخ والطبيعة الجميلة. ونحن نملك كنوزاً من
 آثار الحضارات وبقاياها، وملك أيضاً تنوعاً مدهشاً في المواقع
 والطبيعة. وجدتهم يا عم متحمسين. وهم يعتقدون أنّ هذا
 المشروع سيكون جزءاً من ملحمة التّقدّم التي تعيشها بلادنا
 بعد أن اختارت سياسة الانفتاح.
 محمّد : وما هي زبدة الكلام؟
 أديب : زبدة الكلام ما قلته لك.

- محمد** : ألم يذكروا شيئاً عن أهالي الضيعة؟ ماذا يتوقعون منا، وهل هناك إجراءات يمكن أن يتخذوها؟
- أديب** : الحقيقة لم يذكروا شيئاً يخصّ الأهالي.. ولكن أستطيع أن أخبّر من الحماسة التي تحدّثوا بها عن المشروع، أن أيّ عرقلة ستضايقهم جداً.
- محمد** : وما هي الأمور التي تعرقل المشروع في رأيك؟
- أديب** : المقاطعة.. أو تخريض الناس.. أو الاحتجاج.. الحقيقة لست أدري.. لم يذكروا شيئاً عن الناس.. وكل ما استطعت أن أعرفه، هو أنّ حماسهم كبيرة للمشروع.
- محمد** : هل ستييعون أرضكم؟
- أديب** : أنت تعرف عناد أبي، ولكنّي أعند منه. غرّبت به وشرّقت، قرّبت له وأبعدت، حتّى لان، واقتنع.
- محمد** : وممّ ستعيشون إن بعتم أرضكم؟
- أديب** : هناك فوائد الأموال.. وهناك عملٌ ينتظرني في المشروع.
- (يدخل الشيخ عباس والمختار، ينهض محمد القاسم وأديب. يتبادلون التحيات ثمّ يجلسون).
- الشيخ عباس** : (إلى أديب) كيفما تحرّك المرء يتعثّر بك.
- أديب** : لأنني لا أستطيع أن أستغني عن بركاتك أبداً.
- الشيخ عباس** : إذن.. خذ البركة، وافرقنا برائحة طيبة.
- أديب** : أتطردني يا شيخ، ومن بيت عمّي محمد القاسم، أتوافقه يا عمّ؟
- الشيخ عباس** : دعك من الهزل، هناك أمور خاصّة سنتداول فيها.
- أديب** : طيب.. طيب (وهو يخرج) أتمنى لكم مداولة بناءة.. وإياك يا شيخ والسياسة.
- الشيخ عباس** : أف.. ما أطول لسانه!
- (يدخل حمدان حاملاً صينية عليها إبريق شاي وكؤوس زجاجية مذهّبة الحوافي.. يقدّم الشاي للجميع).

- المختار : ولكنه ولد نبيه، ويعرف كيف يقنص زمانه.
- الشيخ عباس : لم نأت كيف نتحدث عن ابن الناطور. أما زلت تتردد يا محمد؟
- محمد : ينبغي أن أستشير ابني الذي يدرس في الجامعة.
- الشيخ عباس : وهل تعتقد أنه سيرفض؟ انظر.. ألا ترى كيف يتوافد كل الذين يعملون، أو يدرسون في العاصمة، وبقية المدن؟
- المختار : يا لطيف.. منذ شاع خبر المشروع وسعر الأراضي، توافدوا كالزنابير الحامية، وكل واحد يسأل عنا حصته.
- محمد : لا تنس يا مختار أننا عائلة تعودت أن تزيد أراضيها، لا أن تفرط بها.
- الشيخ عباس : كلنا نعلم أنك لن تبيع أرضك عن حاجة، ولكن إذا كان الله قد رزقك وأغناك، فإنه لا يجوز أن تتخذ هذا الغنى سبباً، كي تعرقل مشروعاً ستصيب فوائده الناس كافة.
- محمد : ما هذا المشروع الذي يمكن أن يعرقله رجل واحد، لا يريد أن يبيع أرضه؟
- الشيخ عباس : أنت تعرف يا ابن القاسم أن أرضك بمساحتها وحسن موقعها، ليست كالأراضي الأخرى، أتريد الصراحة؟ أشعر أنك لا ترفض حرصاً على الأرض، وأنت أغناك الله، كثير الأراضي والأملاك، بل لأن في القلب شوائب لم يحلها الزمن، ولم يحلها ما أبداه من غيرة نحو قرية وأهله.
- محمد : ولماذا تظن أن في قلبي شوائب وضغائن؟
- الشيخ عباس : أعرف سماحتك، وأعرف حبك للخير. ولولا أن الصغينة عميقة في صدرك، لما ارتضيت لنفسك أن تعرقل مشروعاً فيه خير للجميع. صدقني.. ولو أراد ابن الغاوي، لما احتاج إلى استعطاف أحد. ولو شاء، لنال ما أراد بثمن هزيل، وجهد قليل. أخبره يا مختار ماذا عرضوا عليه في العاصمة!.
- المختار : علمت أنهم عرضوا عليه أن تستملك الدولة الأراضي التي

يحتاجها مشروعه، وبالسعر الذي تحدده. لكنّه رفض وقال: «هذه بلدي، وسكانها أهلي، وأنا ما جئت كي أنهب أرزاقهم، بل كي أغدق عليهم بما رزقنا الله».

الشيخ عباس : هذا الرجل نادر المروعة، وهو يوفّي صلة القرى بقلب صافٍ وسخاءٍ وافٍ. كان يستطيع أن يحوز أراضي بالقروش، لكنّه أبى وأصرّ على شرائها بالرضا، وبأسعار تشفي الفقير من فقره، وتضاعف غنى الغنيّ. فهل يجوز يا ابن القاسم بعد هذا كلّه، أن تعرقل مشروعه؟

المختار : وأعتقد أنّ المسؤولين حريصون على رضاه، وهم مستعدّون لإزالة كلّ عقبة تعترض مشروعه.

محمد : (بصوت حادّ ومقهور) سأبيع.. سأبيع. ولا تزيدا كلاماً عنه.

الشيخ عباس : وفقك الله.. إنك تتخذ قراراً حكيماً، فعلاً تغضب؟
محمد : هذا الأسلوب في الترغيب والترهيب، وتلك التهديدات المبطّنة.. كفى يا شيخ.. بعنا واشترت ابن الغاوي، ولولا الحياء لجعلته ولياً من أولياء الله.

الشيخ عباس : لا تغلط يا ابن القاسم، ولا تقابل مسعاي بالجحود. إنّ الحرص على سمعتك أثقل في ميزاني، من الرّغبة في خدمة الآخر، وأنت تعلم كم هي قديمة وراسخة منزلة عائلتك عندي، ومن ليس له قديم ليس له جديد. لكنّي خشيت أن يؤذيك عنادك، وأن يتغامز الناس ويقولوا.. هذا من عرقل المشروع، وحرمتنا خير.. وبالمقابل، يقضي الحقّ أن أعترف أنّ الرجل لم يظهر مايشينه حتّى الآن.. وهو يحمل لك وداً واحتراماً، ويتعشّم أن تتعاونوا في محاربة مظاهر التآخر، وبناء ما يحقّق التمدّن والتقدّم، البارحة مثلاً سألني باستنكار.. لماذا لا يوجد في القرية جامع؟

المختار : وسألني أيضاً.. لماذا لا يوجد مستوصف؟!

الشيخ عباس : وهو يرى أنّ خلوّ الضيعة من الجامع، يعادل الكفر أو الفضيحة. وتمتّى أن تتعاوننا معاً لبناء هذا الجامع. وأمام الحاضرين تعهّد أن يدفع كلّ نفقات البناء.

محمد : (وهو يتميّز غيظاً) وأنا.. ماذا ينبغي أن أدفع؟

الشيخ عباس : لاشيء.. إحدى أراضيكم المهملة في القرية.

محمد : وغدا أرضٌ للمستوصف.. وبعده أرضٌ للمدرسة، قولوا..

أتريدون تجريدي ممّا أملك؟

الشيخ عباس : لا يا ابن القاسم.. اكنتم هذه الأقوال. لا أريد أن يذاع أنّك

عركلت بناء الجامع، واستكثرت على الله قطعة أرض صغيرة.

والله لو كان أبوك حيّاً لقدّم الأرض، وفوقها ما تيسر من

المال.

محمد : أتريد أن أتبرّع بأرض لبناء الجامع يا شيخ؟

الشيخ عباس : الحسنة والذكر الطيّب كلاهما لك يا ابن القاسم.

محمد : طيّب.. لكم ما تريدون، أخبر عبتود الغاوي أنّ الأرض

جاهزة.

الشيخ عباس : بارك الله فيك.. بارك الله أهلك.. بارك الله رزقك.. وتذكّر

أنّ الخير عند الله كحبة قمح أنبتت سبع سنابل، في كلّ

سنبلة مئة حبة. (ينهض ومعه المختار) حقّاً.. هذا بيت مبارك،

لا يخرج المرء منه وفي نفسه حاجة. (وهما يخرجان) بارك

الله فيك، وكثّر من أمثالك.

محمد : (يمسح وجهه بكفيه.. بعد قليل) لا إله إلاّ الله وأستغفر الله

العظيم. يا رب اغفر لي جهالتي وضيق صدري. الأرض هبة

أقدّمها بنية صافية ونفسي قانتة، ولكّني متطيّر وخائف ممّا

يجري، احمنا من الأشرار واغفر لنا الغضب والجهالة.

(يفتح كفيه ويبدأ بقراءة الفاتحة.. فيما تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٦

(ركن نصف معتم تراقص فيه ألسنة من ظلال داكثة الزرقة،
يدو عبود الغاوي وخادمه الأحدب مثل شبحين. وثمة تغير
طارئ وغريب قد أَلَمَ بهما، ولاسيما الخادم).

: حين سمعتك تتحدّث مع الشيخ عباس، تذكّرت تلك الليلة
الثلجية، التي كنت تسهر فيها على جنمان أخيك.

الخادم

: ومن أعماق روحي كنت أناديك.

عبود

: لبيت النداء. وعقدنا ميثاقاً مهوراً بالدم. أليس بيننا ميثاق؟

الخادم

: نعم.. بيننا ميثاق، لم أشعر يوماً بالخوف أو التدم على توقيعه.

عبود

: وهذا ما يجعلني أتفانى في خدمتك. وفرت لك ما تحتاجه
من الثراء والقوة.

الخادم

: وبالمقابل أهديتك روحي اللطيفة.

عبود

: هدية ثمينة أخشى أن تنزلق من بين يدي في لحظة غفلة.

الخادم

: دع التلميح، وأفصح. ما الذي يضايقك؟

عبود

: لا أعلم أنّ خطتنا تتضمّن بناء الجوامع.

الخادم

: آ.. الجامع! معك حقّ. هذا إلهام جاءني هنا. ولكن ليس
هناك ما تخشاه.

عبود

: هل تسخر مني؟ تريد أن تبني جامعاً، وتقول لي ليس هناك
ما تخشاه!

الخادم

: أنظنّ أنّه سيكون مكاناً للتقوى، ومعاكسة مشاريعنا!

عبود

- الخادم : وماذا يكون إذا؟
عبود : هذا السؤال لا يليق بخبرتك ونباهتك. ألا تلاحظ ما يحدث حولنا؟ لن يدخل الجامع إلا رجال يتغنون الدنيا لا الآخرة. نقواهم رياء، وصلاتهم زلفى. رجال أفسدت إيمانهم الأطماع والشهوات، ولا يذكرون الله إلا لمنفعة من ثروة أو سلطة.. وبعد بضع سنوات أو أقل، سيكون هذا الجامع حاضنة تفرّخ القتل والتعصّب والظلام. نعم.. في هذا الجامع سيكون للشيطان نصيب أوفى من نصيب الله.
- الخادم : أكنت تدرك هذه الحقائق كلها، حين اقترحت بناء الجامع؟
عبود : وكنت أدرك أيضاً أنّ اقتراحي سيضاعف مصداقينا، وأنّ بناءه سيوفّر لنا موقعاً مهماً لإدارة العمال وضمان نجاحها.
- الخادم : لست نادماً لأنّي اصطفتك، ولبيّت نداءك. قل لي.. هل تشعر أنّك تتحقّن؟
عبود : لا أدري بعد.. على كلّ، إنّي أتسلى. هذه أوّل مرّة أخالط فيها الناس، وأبادلها الأحاديث والنظرات.
- الخادم : يسعدني أنّك تتسلى. ولكن مخالطة الناس لاتخلو من الخطر.
- عبود : وما هو هذا الخطر؟
الخادم : أن تنزلق تحت وطأة النظرات والأحاديث إلى التعاطف.
- عبود : لا تخف، ما يجذبني، ويسليني هو الطرافة لا أكثر.
- الخادم : إذن. تسلّ.. كما تشاء، وأعدك أن تكون التسلية الكبرى من إعدادي وتحضيرى. (يخرج مرأة يمسخها، ويهزّها بطريقة معينة، حتّى تصفو، وتتجلّى فيها صورة رباب). تأمل هذا الوجه، الذي يتفجّر سحراً وجمالاً.
- عبود : (تبرق عيناه) حقاً! إنها آية ساحرة.
- الخادم : هل أعجبتك؟

- عبود : (وهو يجاهد كي يتزعم عينيه من المرأة) لا.. لم نأت كي
نبحث عن اللذات، بل كي نتجدد.
الخادم : ليكن.. حين تجدد دماغك، ستكون تسليتي في انتظارك.
عبود : بدد هذه الظلال. وأخرجني إلى الضوء.
(تراقص الظلال والأضواء الشاحبة ثم تنطفئ الإضاءة).

مشهد ٧

(بيت ريفي، أمين التبان وأخوه مروان التبان، ومعهما أمتهما العجوز مريم الزرقاء).

مروان : أحسَّ أنك لاتصغي إليَّ!
أمين : يا حبيبي.. يا مروان إنِّي أصغي إليك. أبعدنا المرأة والولد كيلا يقاطعنا أحد.

مروان : لماذا لا تقولين شيئاً يا أمي؟
الزرقاء : أفضل أن أسمع.

مروان : أنتم أهلي، ولا يجوز أن أخفي عنكم أنني في ضيق. إنِّي بحاجة ماسة إلى مبلغ أرثب أموري به.

أمين : إذا أنت شكوت، لا يبقى لمثلي ما يقوله. موظف كبير ويقبض في الشهر المبلغ المرقوم، ومع هذا يأتي بعد طول غياب ليخبرنا أنه في ضيق، وأنَّ حاجته إلى المال ماسة. أكنت تعلمين يا أماه أنَّ أخي يعيش في فاقة، وأنَّ حاجته إلى المال ماسة؟

مروان : أتخسب أنني أبالغ! فعلاً أنا موظف ولديّ معاش، ولكن هل تعلم يا أخي.. ماذا تعني الحياة في العاصمة؟ هل تعلم الشقاء الذي ينبغي أن تتحمّله كي تحصل على بيت، ثم كي تفرش البيت، ثم كي تكون لك حياة تتلاءم مع مركزك ووظيفتك. لديّ راتب.. نعم يا أخي، لديّ راتب.. ولكي لديّ أيضاً

التزامات ثقيلة، لا يغطي الراتب إلا جزءاً يسيراً منها، أتعرف حجم القروض والديون التي ينوء تحتها ظهر أخيك؟ صدقني لولا إلحاح الحاجة لما خطر هذا الموضوع في ذهني. وحتى لو لم يكن المرء محتاجاً، فإنَّ الشعر الذي يدفعه ابن الغاوي، يعدُّ فرصة ذهبية لا يفوتها إلاَّ المجنون.

أمين : أسمع يا أمي! أخي المتعلّم يقول.. سنكون مجانيين إذا لم نبع أرضنا.

مروان : أتختلّ المبلغ الذي سنحصل عليه؟ سيكون بوسع كلّ منا أن يسوّي وضعه، وأن يبدأ مع الحياة بداية جديدة.

أمين : أنت يا أخي عندك وظيفة وبيت في المدينة، وأخمن أنَّ الضيعة التي ولدت وترثت فيها، لم تعد تعني لك شيئاً. أما أنا فهنا مكاني، والأرض هي عملي الذي أفيت عمري فيه. أتصوّر كيف تكون حياة مزارع لم تعد لديه أرض؟ ماذا سأفعل، وكيف نعيش؟

مروان : في أيامنا هذه، لم تبق للأرض قيمة إلاَّ في الأشعار والأغاني. قل لي ماذا تدرّ هذه الأرض، التي تكدح وتشقى فيها طوال السنة. إنَّ بسطة صغيرة على رصيف شارع، يمكن أن تدرّ أضعاف ما يكسبه المزارع من محصوله. لقد تغيّرت الدنيا يا أمين، وبالمال الذي ستحصل عليه، يمكن أن تهتئ مشروعاً ربحه أكبر وتعبه أقلّ.

أمين : سأقدّم لك يا أخي نصيحة لوجه الله. إياك أن تزدري الأرض أمام فلاّح أعطاها أفضل قواه، وأعطته أفضل خيراتها. هذه الأرض التي لا تعني بالنسبة لك إلاَّ مبلغاً من المال، هي بالنسبة لي رفيقة وعشيرة ورزق وحياة تتواصل في الأبناء بعد الممات. ولا تنس يا أخي المتعلّم أنَّ هذه الأرض هي التي

ربّتك، وأنفقت عليك حتّى تعلّمت، وتوظّفت، وأدرت
ظهرك لنا.

مروان : أنا لا أنكر الفضل.. فضلك وفضل هذه الأرض التي أثّرت
أن تتفرّغ لزراعتها.

أمين : أثّرت! ولماذا أثّرت أن تكون الزّراعة نصيبى؟ ألا تذكر أنّه
كان ينبغي أن يضخّي واحد متّا كي يتعلّم الآخر؟

الزّرقاء : (وكأنّها تحدّث نفسها) بعد وفاة أبيهما، جاء أمين وقال لي:
«أخي مروان صغير، وتبدو عليه علائم الذّكاء والتّجاجة. لهذا
قرّرت أن أحلّ محلّ أبي في زراعة الأرض، وأن نوَقّر لأخي
كلّ ما يحتاجه، كي يتعلّم، وينال أعلى الشّهادات». قلت
له: «وأنت يا أمين». فأجاب: «سأترك المدرسة، وحين ينهي
أخي تعليمه، سيعوّضنا جميعاً عن الحرمان وشقاء السّنين».
وكنّا نعصّ على الأرض بأسناننا، وكنّا نقسو عليها، ونجبرها
أن تعطي أفضل غلاتها، وكنّا لا نستقي من الموسم إلّا ما
يسدّ الرّمق، وكان مروان يأخذ، ويمتينا بالوعود.

أمين : وفي الصّيف كان يأتي كالذّيك المنفوش، ينام حتّى الضحى،
ويعضي الوقت في اللّهُو والعبث مع البنات من جيراننا
وأقربائنا. وفي ذلك الصّيف.. (يقصّ بالكاء).

الزّرقاء : نعم.. وفي ذلك الصّيف أفسد إحدى قرياته، ثمّ سافر
لامبالياً، ودون أن يخبر أحداً. جاءتني البنت، وخبأت سرّها
عندي. سافر أمين إلى المدينة، وسأله أن يصونها ويتزوّجها،
فرفض وقال: «هذه ليست من مقامه» وعاد أمين غاضباً
وخائباً، وقال لي: «عبثاً شقينا، غربة وجحود». وتحملّ أمين
غلطة أخيه، وتزوّج البنت التي أفسدها مروان.

أمين : هي قريتي، سترتها وسترتي. أمّا أخي فأنهى تعليمه، وحصل

على وظيفة معتبرة، وتزوج فتاة لم نرها، وكافأنا على سنين الشقاء بالتسيان والجفاء.

الزرقاء

: لم يذكر أمه بمندبل، ولم يذكر أخاه بستره أو قميص.
: هل تدرّبتما طويلاً على هذه المحاكمة؟ اسمع يا أمين.. لم
أتحمل مشقة السفر، وأجّيء إلى هذه الخرابة، كي نبش
الماضي، ونجرد الحسابات.

مروان

: نحن لا نستطيع أن نترك الماضي، لأننا ما زلنا نعيش فيه،
وما زالت توجعنا جروحه وآثاره.

أمين

: (بعنف) هذا الماضي نسيته. ولي حقّ ما جئت إلّا كي
أحصّله.

مروان

: وما هو هذا الحقّ؟

أمين

: إنه ييّ. أم تريد أن تنكر؟ اسمع يا أخي، مازلت أودّ أن يتم
كلّ شيء بالرضا. أنت تعلم أنّ لي نصف الأرض. وإذا
طاوعتني وبعنا معاً، فسنوفّر على أنفسنا متاعب القسمة
والدوران في المكاتب العقارية.

مروان

: سأقولها لك صراحة، وأتمنّى أن تفهمها بالرضا.. هذه الأرض
لن تباع إلّا على جثتي.

أمين

: طيّب أنت حرّ، ويمكنك أن ترفض بيع حصّتك، أمّا حصّتي.
فلا شأن لك بها، ويمكنك أن أبيعها كما يحلو لي.

مروان

: لن تبّيع شيئاً.

أمين

: أتذكر أنّ لي نصف الأرض؟

مروان

: قبل أن تذكر مالك. حاول أن تتذكّر ما عليك. منذ عشرين

أمين

سنة، وأنا أعمل كأجير، وأعطيك معظم ما تغله الأرض.

دون أن أسأل عن حصّتك أو حصّتي. والآن بعد أن قطفت

ثمرة كدّي وشقائي، تأتي لتطالب بحصّتك من الأرض. ألا

يحقّ لنا بعد أن توظّفت، وصارت لك مكانة ورواتب، أن

نستغلّ هذه الأرض كي نأكل حتّى نشبع، ونوقّي ما بقي من ديون، كنت أدورها خلال سنوات تعليمك! لم تكن الأخ الذي عقدت عليه الآمال، ولكن لا أحمل لك، في قلبي أي ضغينة. الأرض لن تباع ما دمت حيّاً. والأسر لنا جميعاً أن نعود من حيث جئت.

مروان

: ما هذا.. أتجرّدني من حصّتي؟!

أمين

: عندما نستردّ بعضاً من ديوننا، أو حين تأمر أمنا بالقسمة، يمكن أن تأتي وتأخذ حصّتك.

مروان

: تدخلي يا أمي، وحلي هذا الخلاف، قبل أن يكبر ويتعقّد.

الزرقاء

: ويلاه.. إني أبصر أكثر ممّا أسمع!.

مروان

: ما هذا.. أطلب حصّتي فتولولين في وجهي! أنا مصمّم على البيع.

اليوم سأتفق مع الرّجل، وغداً سأطلب من محام أن يقوم بإجراءات القسمة. أين السّند؟ أما زلت تخبئينه في الصّندوق. (ويّتجه نحو الصّندوق، فيمسكه أمين).

أمين

: (بحزم) لا يوجد سند، ولن يكون هناك بيع.

مروان

: هذه سرقة. إنك تسرقني. لسمع الناس كلّهم، إنّ أخي الكبير يسرقني.

أمين

: (يصفعه فاقداً أعصابه) وتحدّث عن السرقة.. أيّها التّذلّ..

أيّها الدّودة الحقيرة (وهو يهزه بعنف) كالعلقة مصصت

دماءنا وعرقنا، ورقاد ليالينا، ثم تأتي، وتّتهمنا بالسرقة؟

مروان

: آنت تمدّ يدك عليّ، وتجروّ على ضربي! أنت الجلف..

البلبد.. الذي للمم فضلاتي. أمّاه.. هاتي السّند قبل أن تكبر

يني وينه.

أمين

: (وهو يدور في البيت كالجنون) أهذا جزء العمر الذي ضيّعته

من أجلك؟! أمّي هل تسمعين.. أهذا هو جزائي إذن..

(يتناول من الزاوية عصا غليظة) لا.. ينبغي أن تكبر.

- الزرقاء : ويلاه.. إنّي أبصر أكثر ممّا أسمع.
 مروان : (يخرج مسدساً من حزامه) إياك أن تقترب.. وأنت.. انهضي
 وهاتي السند..
 أمين : أتحمّل مسدساً؟ وهل تظنّ أنّ هذه اللعبة ستجعل منك
 رجلاً؟! خذ إذا..
 (يهجم أمين رافعاً العصا على مروان، يتراجع مروان برعب،
 ثمّ تدوي طلقات متلاحقة، ويخترّ أمين على الأرض مضرجاً
 بدمه).
 مروان : (مذعوراً) قتله.. لم أكن أنوي.. استفزّني.. ألم يستفزّني؟
 (يغدو صوته كالخوار) قتله.. قتلت أخي.. أمي لم أكن
 أنوي.. (يقرب منها، ويميل عليها كي يحضنها، فتدفعه
 بطرف عصاها) أمي.. صدقيني.
 الزرقاء : ويلاه.. عدت أبصر. إنّي أبصر.
 مروان : (وهو يدور زائغ العينين) جنون.. لم أكن أنوي.. جنون..
 يجب أن أمضي.. إلى أين.. لا يهم.. يجب أن أمضي..
 (يخرج من البيت)
 الزرقاء : ويلاه.. إنّي أبصر.. ويلاه.. ممّا أبصر..
 (تنهض بهدوء وترتمي على ابنها القليل تصوّت وتبدأ بالتواح..
 ويبطء شديد تلاشي الإضاءة).

الفصل الثالث

القرية هشة.. وعاصفة «الجليد»
متوحشة. تحولات.. وتحولات..

مشهد ١

(في هذا الجزء تتوالى المشاهد السريعة. ومن المهم أن يتكوّن انطباع بأن الزمن يتدافع كالبروق الوامضة، وأن الأمكنة هلام رخو يتأرجح بين التشكل والزوال. وعلى أرض المسرح تتبعر نفايات حديثة «أكياس نايلون، علب صفيح، علب كرتونية.. إلخ» وتزداد مع تقدّم المشاهد. الأشخاص يتحركون بسرعة، وكان أمراً عاجلاً يحثّ خطاهم. حتى الأداء ينبغي أن يبدو أحياناً وكأن به نوعاً من اللهاث. المختار أمام بيته الحجري).

: (يصبّ كأساً من الشاي، يضع ملعقة سكر ويحركها) بعد مقتل أمين التبان، والجنّازة المهيبة التي هيأناها له، خيم على القرية ذهول ورهبة. في تلك الأيام.. يا الله.. كم تبدو تلك الأيام بعيدة! وكم يبدو الزمن سريعاً لا يكاد المرء يدركه! في تلك الأيام.. سامحني يا رب إن أضلّني الهوى. أعترف أن حزني شابه عِزْق من الراحة، وقدّرت أن المشروع سيتوقّف، وأنا سنخرج من الدهول إلى ألفة أيماننا القديمة. ولكن ما كدنا نفرغ من السبوع حتى انتفضت القرية، كأنها تنهض من رقادٍ سقيم، ثم انهمكت في التبدّل والتحوّل. أحياناً أدوخ حين أتأمل، كيف تغيّر كل شيء في هذه الومضة القصيرة من الزمن. ما يحدث لم نعرفه من قبل، ولا يشرحه ما نعرف من سواف الأجداد وحكمتهم! فجأة أقيم في القرية

المختار

مخزّن فيه من متاع الدنيا وبضاعتها ما يسلب الرشد ويوقظ في النفس من الجوع والعطش ما لا يمكن إشباعه.. ومن كان يتردد في بيع أرضه أصبح يتوسّط كي يشتروها منه، وأمام أعيننا المدوّرة بالدهشة، نهض المجمع السياحيّ وكأنه معجزة. قال البعض إن الله سخّر له الجنّ، كي يبني هذا المجمع في مثل هذه المدة القليلة، وقال البعض الآخر إن الورشات والأجهزة الحديثة، التي استخدمت في البناء هي التي حقّقت المعجزة. الناس ترقّب الافتتاح، والزمن يمرّ كالومض ورجل مثلي..

(يدخل أديب بخطى دينامية. يرتدي ثياباً قماشية الموضة، ويده حمالة مفاتيح ثمينة).

: أما زلت تدهش مما يجري! حلّفتك بالله ماذا كنت تقول؟ أديب
: كنت أقول، يا عين عمك، ورجل مثلي.. لا يفارقه الإحساس المختار
بأنه يقف على حجر مقلقل.

: لا يا مختار. لا أعتب على العجائز والجهلة إذا توجّسوا من التقدم. أديب
أما أنت فإن توجّسك يحيرني فعلاً.

: هل أنت متأكد يا أديب أننا نتقدّم؟ المختار
: وهل يحتاج هذا السؤال إلى جواب؟ إن التغير الذي طرأ أديب
على حياتنا واضح كالشمس. منذ سنة أو أقلّ كانت الضيعة

خاملة، فقيرة، كانت تتكرّر أيامها البليدة، وتحبط حماسة شبابها الطموحة، أما اليوم فقد غدت هذه القرية ذاتها كخليّة النخل، تعمّرها الحيويّة، والرغبة في التطوّر. انظر إلى الناس.. صاروا أجمل. صاروا يأكلون ويشبعون. صاروا نشيطين، وفي عيونهم يتوقّد الأمل والطموح.

: أما أنا فأحسّ أن الناس أصابها دوار، وأنها تجري متحيّرة المختار
وذاهلة في درب مجهول، لا تعرف إلى أيّ مطاف سينتهي

- بها.
- أديب : ماتقوله لا يخلو من دقة ملاحظة، جاءنا التغير مبالغاً وسريعاً. ومن الطبيعي أن يحتاج الناس إلى وقت حتى يألفوه، ويتأقلموا مع الجديد الذي يحمله. نعم سيوجد من يحار، أو يشك، ولكن عاجلاً أو آجلاً سيتأكد الجميع أن الدرب الذي سلكناه أخيراً، هو درب التقدم والإزدهار.
- المختار : أرجو أن يكون ما تقوله صحيحاً. وعلى كل، أنت ابن هذا التحول الذي يحدث، ومن الطبيعي أن تتحسس له.
- أديب : لا أتحسس لنفسي فقط، بل أتحسس للضيعة وأهلها أيضاً. قل لي يا مختار على ما تعرف من أليك وجدك، هل توفرت لهذه الضيعة على مدّ تاريخها فرص للثراء، كما تتوفر هذه الأيام؟
- المختار : (كأنه يداعبه) لاسيما إذا كان شاطراً مثلك، يلقفها وهي مشتعلة.
- أديب : ولم لا يا مختار! ألا تحتاج الثروة دائماً إلى الشطارة، واقتناص الفرصة!
- المختار : لا تظنّ أنني ألومك، إن نجاحك يسعدني.. وأدعو الله أن يزيدك مالا ونجاحاً. جرّنا الحديث، وأنسانا واجب الضيافة. (يصب له كأساً من الشاي) تفضّل.
- أديب : شكراً يا مختار. في الواقع جئت أطلب معروفاً، وأرجو ألا تردّني خائباً.
- المختار : إذا كان بمقدوري، فأنا جاهز.
- أديب : عزمت أن أطلب يد سميرة ابنة محمّد القاسم هذه الليلة، وأتمنّى أن ترافقني وتسعفني بكلمة لديه. لا سيما وأن أي لن يكون معنا.
- المختار : ألن يرافقك أبوك؟

- أديب : إنه يتهيب زيارتهم، ويرى أن نسبنا لا يسمح بالتطلع إلى مصاهرته.
- المختار : لا ألوم أباك. إن محمد القاسم معتد بنسبه، وعنيد.
- أديب : أرجوك لا تخذلني، حين رفض أبي، لم يخطر لي أب سواك.
- (يدخل بسم لاهثاً وممتقع الوجه)
- بسم : إلحق يا مختار!
- المختار : ماذا هناك؟
- بسم : إن ضرغام أقفل الباب عليه وعلى امرأته. ولا نعرف ماذا يمكن أن يفعل بها.
- المختار : وماذا سيفعل بها؟ أفهمني ماذا يجري؟!!
- بسم : منذ الصباح وهما يتشاقمان، ويتعاركان من أجل شراء غسالة. هي تطلب حقها من ثمن الأرض، وتريد شراء غسالة، وهو يشتمها ويرفض. وفي النهاية جن جنونه، فأقفل الباب عليهما، ولا نعرف ماذا يمكن أن يحدث. هناك من رآه يحمل سكيناً قبل أن يقفل الباب.
- المختار : وهذه قصة أخرى. لعن الله الغسالات، ومن أدخلها إلى هذه الضيعة. هيا بنا..
- أديب : سنذهب بالسيارة، تعالاً معي.
- بسم : (بازدراء) دعنا من السيارة.. المشي أسرع.
- (يخرجون.. وتلاشى الإضاءة..)

مشهد ٢

- (خلف جدار من بيت يُهدم. فضة وعبد الرحمن).
- فضة : (وهي تبعده بأطراف أصابعها) هل اشتقت إليّ؟
- عبد الرحمن : لن أستحي يا فضة. أعترف لك إن هجرك ذبحني. لم أكن أتصوّر أنك متغلّغة في كياني إلى هذا الحد. أحياناً أشعر أن جسدي كلّهُ أفواهٌ تناديك. أحتاج كالمدمن الخمر أن أذوقك، أن أشمّك، أن ألمسك، أن.. (ويعانقها).
- فضة : (وهي تدفّعه وتصلّص منه) ومع هذا وجدت أن السفر في حالتنا حماقة كبيرة!
- عبد الرحمن : معك حق.. كنت مرتبكاً، ولم أعرف كيف أشرح لك الصعوبات. يومها لم أكن أقصد رفض الفكرة تماماً، بل حاولت أن أشرح..
- فضة : أرجوك لا أحتاج تلك الشروح. إنني أفهمك، وليس في نيتي أن أفتح باباً للجدل والعتاب.
- عبد الرحمن : لو فهمتِ موقفِي فعلاً، لما قرّرت هجري.
- فضة : لم أقرّر هجرك، لأنك رفضت السفر. كنت أعرف أن السفر حلمٌ يتجاوز طاقتك وخيالك.. وربما يتجاوز طاقتي أنا أيضاً.
- عبد الرحمن : إذن.. لماذا قرّرت هجري؟
- فضة : لأنه ليس لديك ما يكفي حاجتي.. لا.. إذا أردت الإنصاف، ينبغي أن أقول ما يكفي شراحتي..

عبد الرحمن : إني لا أفهم.. هل كانت علاقتنا سيئة؟! أما كنت ترتوين؟
 فضة : (بحدّة) لعلّي لم أقصد هذا الجانب... بل أقصد هذا الجانب
 وجوانب أخرى كثيرة. ذلك اليوم حين أصابني الجنون تحت
 التينة. وطلبت منك أن نسافر. كان عمري كلّ يتجمع
 أمامي. السنوات كثيرة والمحضلة هزيلة. صرّة صغيرة ليس
 فيها إلا أشياء قليلة. كان اليأس يخنقني. كنت قويّة، كنت
 جميلة. كنت أستحقّ حياة أخرى.. لا أدري كيف أشرح
 لك.. حين ناديتني أول مرّة، كنت كالرجاء بالنسبة لي.
 حلمت كثيراً، وخاطرت بكل شيء، كي أتبع نداءك ونداء
 أحلامي، لكن.. يوماً بعد يوم شهراً بعد شهر، كنت أحسّ
 بغموض أنّ مالدريك لا يكفي أحلامي.

عبد الرحمن : (غاضباً) أتحاولين إهانتني؟
 فضة : لا.. لم أقصد إهانتك. ما أردت أن أشرحه لك، هو يؤسي
 الداخلي. حين تأملت موكب عبود الغاوي، وهو يدخل
 القرية. حين خطف بصري بريق السيارات وعظمتها، شعرت
 انقباضاً في معدتي. اكتشفت في داخلي بئراً لا قرار لها،
 تفور فيها الرغبات والأطماع والأمانى. أتعلم؟ حين دخلت
 إلى المخزن الجديد، وأذهلني تنوّع البضائع ووفرتها أصابتنى
 برداء وحتمى. لازمت الفراش أياماً وكنت أهذي. قيل لي
 إني تحدّثت عن العالم الواسع، الذي يأتي إلينا، وعن الأشياء
 الجميلة التي تعبث بنا، وعن البقرة التي رأيته تغرق في الطين
 حين كنت صغيرة. أتفهمني قليلاً يا عبد الرحمن؟ في
 داخلي بئر من الحرمان.

عبد الرحمن : لاشكّ أنك قاسيت كثيراً في حياتك، ولكن يمكنك أن
 تعتمد عليّ. اسمعي.. سأشتري سيارة، وسيكون لديك

- كل ماتحتاجين إليه.
- فضة** : إنك لاتفهمني يا عبد الرحمن. ليس لديك مايكفي حاجتي،
أتعلم لماذا؟ لأنني أريد كل شيء، السيارات والملابس
والأجهزة والبريق والصور الملونة والجمال والفتنة واللذة.
(تنخرط في البكاء) كل شيء.. كل شيء..
- عبد الرحمن** : ومن يستطيع أن يحصل على كل شيء!
- فضة** : نعم.. أعرف.. ليس هناك أمل.
- عبد الرحمن** : سأقدم لك ما أستطيعه، وسنعرف لذات لم نجربها من قبل.
- فضة** : من يعرف أبعاد شراسته، لا يبقى لديه إلا أن يغذي مرارته،
ويتعايش مع يأسه.
- عبد الرحمن** : إني أحبك وأشتهيك يا فضة.
- فضة** : أما أنا فلا أستطيع بعد اليوم، أن أحب، أو أشتهي إلا رجلاً
لديه ما يملأ هذه البئر المحفورة في أعماقي.
- عبد الرحمن** : لم أكن أعرف أنك شرهة إلى هذا الحد!
- فضة** : وأنا أيضاً.. لم أكن أعرف.. كان يجب أن يأتي إلينا العالم
البعيد، وفتنة عبود الغاوي، كي أكتشف أبعاد شراستي.
- عبد الرحمن** : (يُخرج علبة أنيقة من جيبه) حملتُ لك هدية صغيرة، وإذا
غيرت رأيك..
- فضة** : لن أغير رأيي.. وزوجتك أحق بالهدية مني.
- عبد الرحمن** : اشتريت زجاجة العطر علي اسمك.
- فضة** : إذن.. باسمي واسمك عطر بها زوجتك.
- عبد الرحمن** : كم تغيرت يا فضة!؟
- فضة** : وما الذي لم يتغير، منذ هبت هذه العاصفة علينا؟ سأتركك
الآن.
- (تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٣

(قسم الملابس في المخزن الجديد، المخزن حديث جداً، وأنيق
بديكوراته وترتيب البضائع فيه. يبدو التباين شديد الوضوح
بين المخزن وبين القرية رغم التجديدات التي تطرأ عليه. فالمخزن
يكاد يكون بحد ذاته فرجة تستقطب الكثيرين للوقوف أمام
واجهاته، والحملقة بمعروضاته. يوسف العلوني وفاطمة. يتتحي
بها ركناً بعيداً عن بعض الزبائن المبعثرين في المحل. هناك طاولة
تعرض عليها الثياب، وغرف خلفية للقياس. موسيقا ناعمة
وخافتة).

- يوسف : أشتهي أن أراك تبسمين!
فاطمة : أبتم حين يوجد ما يدعو للابتسام.
يوسف : رأيت الشاب علاء السمان يخرج غاضباً، وهو يكرّز على
أسنانه.
فاطمة : ليغضب، وليأخذه عزرائيل.
يوسف : كم مرة ينبغي أن أكرّر هذا الدرس! إن عملنا يا فاطمة
يحتاج إلى لطف ومسايرة.
فاطمة : إنني أحاول يا يوسف، ولكن لا أتملّ قلة الأدب، أنت
نفسك.. هل تقبل أن يتجاوز الزبون حدود الأدب مع
امراتك؟
يوسف : بالكياسة والمرونة، يمكن أن يتجاوز المرء قلة الأدب.

- فاطمة** : آية كياسة وآية مرونة! أصبحت أتخبر معك يا يوسف. أعترف ماذا فعل ابن السمان؟
- يوسف** : وماذا فعل؟؟
- فاطمة** : لاشيء.. أستحي أن أقول. كان السيد علاء يجرب بنطالاً. يدور أمام المرأة، ويجرجر في الكلام.. كم تساوي القبله من هاتين الشفتين، وكم تساوي اللمسة من هذين النهدين.. ثم مدّ يده، قل لي هل كان ينبغي أن أبتسم له؟
- يوسف** : أعترف أن هناك زبائن يتجاوزون حدودهم، ويتصفون بالوقاحة. وفي عملنا ينبغي أن يتعلم المرء كيف يكون واسع الصدر، لين العريكة. لاشك أن هذا الزبون تجاوز تحده، ولكن بشكل عام نادراً ما أراك تبسمين. وجهك فتان إذا انفرجت أساريره. وأنا أعلم أن لديك من الفطنة، وسعة الحيلة ما يجعلك تواجهين أصعب المواقف دون خشونة. (هامساً) إن الله فتح لنا منجماً من الذهب يا فاطمة. ولا يستحقّ نعمة الله من لا يعرف كيف يقدرها، ويحافظ عليها.
- فاطمة** : إنك محقّ.. نعم إنه منجم من الذهب.. ولكن يخطر لي أحياناً أننا لم نعد سعداء كما كنّا أيام الدكان القديم.
- يوسف** : السعادة! انتظري قليلاً، وسترين ألواناً من السعادة لاتخطر على بال. إني أرى الأيام الضاحكة تقبل علينا، وتغمرنا بالفرح والنشوة.
- (ضوضاء تقترب من المخزن، بعد لحظات تظهر زهية وكرمية ومعهما الخادم، ووراءهم حشد من الفضولين، معظمهم من الشباب. وخلال المشهد، سيزداد الحشد وينضمّ إليه رجال موثقون مثل محمد القاسم والشيخ عباس وسواهم)
- الخادم** : (صائحاً) أرونا ماذا يستورد لنا عبود الغاوي! هو معلّمي

(يخفض صوته) ولكنه أحياناً يحب التشدق والمبالغة. أين بضاعة باريس وروما؟ أخرجوا مايليق بأجمل قامتين في هذه البلاد.

زهية : (هامسة) إنك تخجلنا.
الخادم : ولم الخجل! ليتني أجد الفصاحة المناسبة، كي أصف الألق الذي ينبعث منكما، أو السحر الذي يحفّ بكما. هذا الجمال يحتاج إلى أزياء تبرزه، وتجعل الأعمى يكتشف وهو في ظلمته تكويناته البديعة. هاتوا مالديكم من الأزياء، لأن هاتين السيدتين ستشعشان ليلة الافتتاح كالأقمار أو الشموس اللطيفة.

يوسف : (وهو ينحني ويتصاغر أمام الخادم) حتى الآن لم أعرف ماذا أعرض عليكم؟!

الخادم : وهذا يعني أنك بليد، لا تعرف أصول مهنتك. (يلتفت نحو فاطمة) والسيدة.. ألا تريد السيدة أن تساعدنا قليلاً؟!

فاطمة : (تراجع فرعة) لا تقرب مني. (مشيرة إلى زوجها) توجه إليه. إنه أدري بالأزياء مني. (تراجع بخطى بطيئة).

الخادم : لا تخافي.. لا تخافي. أنت أيضاً جميلة.. وحرام أن تدفني هذا الوجه الصبوح بالخوف، ووصايا الرجال الخائفين والمتناقضين.

(تختفي فاطمة)

يوسف : لافائدة.. لن تتعلم أصول هذه المهنة أبداً. خذلتني أكثر مما أفادتني.

زهية : هل أرادت أن تظهر عفتها؟!

الخادم : (هامساً) من يريد العفة، لا يدخل شريكاً مع عبود الغاوي.

كريمة : أو لعلها أرادت أن تعبر عن تقززها متاً.

الخادم : سيكون سقيم الروح والجسد من يتقزز من سيدتين، كل

منهما تفتن قلوب أشدّ الرجال زهداً وتقوى. وأنت ماذا تفعل؟ نحن ننتظر.. وأنت تتوآب حولنا متحيراً. هاتِ ما عندك.

يوسف : حاضر، هل أبدأ بمجموعة باريس؟
الخادم : ليكن، إن الباريسيين يقدّرون الجمال، ولديهم جموح في الخيال.

(يبدأ يوسف بإخراج أزياء نسائية مختلفة).
الخادم : اسمع.. لاشك أنك جاهل. والأزياء التي تحملها لا تعرف مزاياها، ولا لمحة الجمال فيها. دع عنك. سأتولى الأمر بنفسي، ولكن أخرج لي من الأدراج الثياب الداخلية. وضعها على المنصّة مع الفساتين.

(يوسف يفتح الأدراج، ويتاوله تشكيلات من الملابس الداخلية، والخادم يرتّب الملابس، ويحاول أن يوائمها مع بعضها بعض).

كريمة : أترين إلى الحشد الذي تجتمع على الباب وراء الواجهة؟
زهية : ألم يجعل منا فرجة الضيعة!
كريمة : انظري من جاء. الشّيخ عبّاس بذاته. إنك تجذّبينه كحدوة المغناطيس.

زهية : أود أن أراه يربط وسطه بعمامته. ما رأيك؟
كريمة : سيكون أماننا كثير من المرح، لكن ماذا يحضّر لنا هذا الشقيّ؟

زهية : عرض أزياء.
كريمة : أو تظنّين! وأهلنا!

زهية : وهل بقيت بيننا وبين أهلنا علاقة؟
الخادم : والآن.. هل الجميلتان جاهزتان (يتاول كلاّ منهما طبقاً من الثياب التي تكشف أكثر ممّا تخفي). هذا لزهية، وهذا

لكريمة.

كريمة

: لو أنها ثياب داخلية، لكانت أكثر حشمة.

الخادم

: وهل تبالي الموضة بالحشمة؟. سنجرّبهما، ونشّتي، بهما ونراهما وجهاً وقفا. نريد أن نرتدي لباساً جامحاً. أريد أن تمتصّ الجميلتان كلّ أضواء الافتتاح، وأن يجري الحاضرون وراءهما كالضارعين في مواكب القدّيسين. (يصفق بيديه فيما تعلقو الموسيقى التي تصاحب عروض الأزياء) هيا.. دعانا نبدأ.

(تدخل زهية وكريمة إلى غرفة تجريب الملابس، ثم تخرجان بعد قليل بالثوبين الجريئين. تمشيان بخطوات إيقاعية جيئة وذهاباً).

كريمة

: (هامسة) انظري.. انظري.. رفع عمامته، ومسح عرقه مرّتين حتى الآن.

زهية

: ومحمد القاسم، متى جاء؟. انظري كيف يتناول على رؤوس أصابعه، ويحاول التحقّي وراء الشيخ.

كريمة

: (ينفثل محمد القاسم، وينسحب حين يلاحظ أنهما رأتاه) لن يفيدك التناقل، ولا الابتعاد يا ابن القاسم.

(تعودان إلى غرفة التبدّل، بعد قليل تخرجان بفستانيه سهرة).

الخادم

: ليس باهراً.. ليس باهراً. سنجرّب كل ما يوجد، نريد ملابس تصرخ، تجمع، تجرح. نريد أيّها السيّد أن نتلأأ.

يوسف

: أأخذكم بعيني، سأحضر كلّ ما لديّ.

الخادم

: أجل.. أحضر كل ما لديك. جرّبا هذين الردائين.

(منذ الآن.. يتخذ تجريب الملابس شكل عرض أزياء فعلي).

أصوات من الحشد: يا بخت من قطف وذاق.

- أف.. جاء الحرّ قبل أوّانه.

- أين كنا وأين كانت. لا أصدق عيني.. أهذه كريمة، أم تلك زهية.. لا لم أرهما من قبل.
- يا حسرتي راحت علي.. تصوّروا ومع هذا يتفاصحون علينا، ويقولون كلّه بيض مقشّر.
- آه والله صحيح، ما الذي يجمع بين هذا البيض وتلك البيضة التي تركتها في البيت؟
- انظر! إن الحلمتين تثقبان القماش.
- الحلمتان فقط! إن الجسد كلّه كاد يمزّق القماش وينفجر.
- هل نشف ريقك مثلي؟
- نشف ريقني ودمي.
- يا الله! كدت ألمسها.
- هذه فتنة تغوي القديسين والأنبياء معهم.
- لم أعد أحتمل. إن بدني كلّه يتوتّر ويشهق.
- سبحان من كوّر ونحت وأبدع.
- (تتداخل الأصوات ويبدو أن التوتر يزداد) لا تدفعني.
- تقدّم خطوة أو خطوتين.
- عيب يا جماعة.
- العيب على من أيقظ الفتنة.
- ساخت رجلاي.
- : هذا هو.. ما ترتديانه الآن هو الجامح الذي نفّث عنه.
- (هامساً) ارتفعت حرارة الرجال، وازداد توترهم. تمسّكا بي جيّداً، أيّها السيّد سجّل ما أخذناه على عُبود الغاوي.
- (يخرج من جيبه علبة يفتحها، فينبعث منها دخان أحمر.. يخفي ومعه الفتاتان. يبدأ الحشد زحفه داخل المحل).
- : اقرب.
- امسكها ولا تخف.

الخدام

أصوات

- إن يدي لا تحيط برمان صدرها.

(يزداد تدافع الناس. خوار، صياح، إنهم يقبلون الملابس، ويحضنون الطاولات. وبعضهم يحتضن يوسف العلوني ذاته معتقدين جميعاً أنهم يحتضنون المرأتين).

يوسف : ياناس.. يا هو.. ماذا جرى لكم! أنا يوسف. عيب يا أحمد.. دع صدري.. يا فاطمة.. أنجديني يا فاطمة، هاتي سطلاً من الماء وتعالِي.

أصوات : (شاب يقبل رجل الطاولة) ما أنعم هذه الساق!
- (شاب آخر يمس رأسه في ذيل الفستان) يا الله.. ما أنعم فخذِيها!

(تأتي فاطمة ومعها سطل ماء).

يوسف : رشي الماء عليهم.. أيقظيهم..
(ترش فاطمة الماء عليهم، ينتفضون، يتطلعون حولهم بنظرات فرجة. تتحول شيئاً فشيئاً إلى خجل وخزي).

فاطمة : العمى.. ألن يبقى عاقل في هذه الضيعة. ماذا أصابكم؟ هل جنتم؟

أصوات : (خافطة مثقلة بالخنجل) أين المرأتان؟
- ألم تكن هناك امرأتان؟

- ماذا فعلنا؟

يوسف : الأفضل ألا تعرفوا ماذا فعلتم!

- لعب الشيطان بنا.

- فعلاً.. لعب الشيطان بنا.

فاطمة : إذا كنتم رجالاً، لاتدعوه يلعب بكم مرة أخرى.
(يبدأون بالانسحاب مثقلين بالتعب والخنجل.. وتتلاشى الإضاءة).

مشهد ٤

- (بيت محمد القاسم.. محمد القاسم، المختار، أديب الناطور،
يدخل حمدان حاملاً صينية الشاي ويصب الشاي في الكؤوس).
: المختار هذا التمدّن جعلنا مسخرة. ما حدث في الحزن فضيحة معيبة.
محمد : التمدّن له أهله يا مختار.
المختار : ويحتاج إلى تدريب وتدرّج.
أديب : ما زلنا في البداية، ومن الطبيعي أن تحدث مشكلات
ومفارقات. لولا المختار لكان ضرغام قتل زوجته.
المختار : ولا أدري كيف أنقذناها! امرأة غشيمة وعنيدة. بقيت تصرّ
على الغشّالة، حتى وهو يضع السكين على عنقها.
محمد : وهل أقنعتها بالتخلّي عن الغشّالة؟
المختار : لا توجد قوّة في الدنيا يمكن أن تقنعها بالتخلّي عن الغشّالة.
وليس أمام ضرغام إلا أن يقتلها، أو يرضخ لها، ويلبّي طلبها.
محمد : وأنت يا مختار ألم تشتري غشّالة؟
المختار : نعم يا سيّدي.. اشتريت.
محمد : عال.. هذا يجعل أم أحمد تتفرّغ لك.
المختار : نحن أكلتنا الأيام، وماعاد لنا غرض، سواء كانت فاضية أم
مشغولة. الوقت الآن للشباب، وهذا أوانهم كي يفرحوا، وينوا
أعشاشهم. واليوم جئناك يا ابن القاسم طالبين، فلا تردّنا خائبين.
محمد : خيراً إن شاء الله.

- المختار** : لاشيء إلا الخير ياذنه تعالى.. هذا الشاب كلّفني أن أنوب عن أبيه، وأن أطلب ابنتك المحروسة له.
- محمّد** : ماذا قلت؟!
- أديب** : وأنا يا عم مستعدّ لكل ما تطلب من مهر ومسكن وأثاث.
- المختار** : وكلّنا نعرف.. أديب شابّ ذكيّ وطموح، بنى نفسه وثروته في زمن قصير، حتى غدا بين الشباب رمزاً للنجاح.
- محمّد** : لا يهمني ماذا بنى، وماذا جمع. ألا تدرك يا مختار من نحن ومن هم!
- المختار** : كرم أصلك، وشرف عائلتك، لا يُعلّى عليهما يا سيد محمّد، ولكن كما ترى الزمن يتغيّر، والرجل يقاس بعمله وكسبه.. وأنا أعتقد أن نجاح أديب ومستقبله يعوّضان عن فقر عائلته، وتواضع نسبه.
- أديب** : ولا تنسَ يا عم، أننا جميعاً عند الله، أبناء تسعة.
- محمّد** : أتريد أن تعلّمنا.. نعم كل الناس أبناء تسعة. ولكن هذا لا يضع الأمراء والرعاع في مقام واحد. وأنت يا مختار، ما كان الأمل فيك أن تسانده في وقاحته وتجاوز حدّه.
- المختار** : (يتغضض أديب ويحاول أن يتكلّم، فيشير إليه المختار بالسكوت).
- المختار** : لو لم أكن متأكداً أنه مقتدر، وأنه سيوفّر لابنتك حياة منعمة، لا تختلف عن حياتها في بيتك، لما رافقته، وساندته في مسعاه.
- محمّد** : لو صار ماله يكال بالقططار، لما نسي الناس أن جدّه كان راعياً لماشيتنا، وأن أباه اشتغل ناطوراً لمزارعنا.
- المختار** : وهذا ما يجعلني أقدره، وأعجب به. ولّد في عائلة معدومة، ومع هذا استطاع بذكائه وحده أن يكون موظّفاً في الدولة، وأن يبنّي ثروته في فترة قصيرة.
- محمّد** : فلقتني بالحديث عن هذه الثروة. اشتغل خادماً وسمساراً عند ابن الغاوي، وجمع قرشين. فهل يكفي هذا، كي يُعدّ بين

- الأغنياء والوجهاء؟! : أديب
- تركنا الواجهة لك يا عمّ، ولكن ما تعرفه عني يحتاج إلى :
تصحيح. ما كنت ولن أكون في يوم من الأيام خادماً عند
ابن الغاوي أو سواه. إني أدير أعمالاً في مشروعات عبود
الغاوي، مستفيداً من خبرتي وعلاقاتي الرسمية.. وعمّاً قريب
سأستقل وأدير أعمالاً لحسابي.
- لا يهمني ما كنت، أو ما ستكون.. كل ما لديّ هو عبارة : محمد
قاطعة وصريحة.. ليس لك عندنا نصيب.
- تمهل يا ابن القاسم، ولا تسرع بالجواب. المختار
- ولم التمهّل! ينبغي أن تدور الأرض، أو تتوقّف الشمس في : محمد
سمتها، قبل أن يوافق ابن القاسم علي مصاهرة ابن الناطور.
- (ينفجر مقهقهاً) أتعلم يا عم.. إن الأرض تدور فعلاً، وإن : أديب
الشمس ساكنة في سمتها.
- أتهزأ بي في بيتي؟ : محمد
- معاذ الله.. (ينهض) هيا يا مختار.. وأنت يا عم.. أعتقد أنك : أديب
ستندم على رفضك.
- ماذا تعني! هل تهدّديني؟ : محمد
- ومن أنا حتى أهدّد السيّد محمد القاسم! لكن أعتقد أنك : أديب
ضيّعت على ابتك فرصة ستندم عليها.
- (محقق الوجه) تيسر يا ولدي.. تيسر فأنا لا أحتمل التبيّح : محمد
والواقحة.
- (وهو يتخى كي يتقدّمه المختار) هيا يا مختار فالبيت يطردنا. : أديب
- أنت تعرف يا مختار قدرك عندي.. وأرجو ألا يكون ما : محمد
حدث سبباً للجفاء بيننا.
- (متمتماً وهو يخرج) إن شاء الله لا يكون... المختار
- (تلاشي الإضاءة..)

مشهد ٥

(على سطح بيت ياسين، فضة، رباب، إنهما يتابعان افتتاح
المجمع السياحي من على سطح البيت).

أمي.. أمي.. انظري.. هذا رتل جديد من السيارات! إنها رباب
سيارات فاخرة جداً. لا شك أنها تحمل وزراء ومسؤولين
كباراً. أتخزين كم سيارة جاءت حتى الآن!

فضة : في البداية حاولت أن أعدها وصلت حتى ٦٧ ، ثم تهمت
وتوقفت.

رباب : لاحظي كيف يدور الحراس، ويفتحون الأبواب الخلفية. لا
أستطيع أن أميز وجوههم. واحد فقط يرتدي ثياباً عسكرية،
والباقي كلهم يرتدون ثياباً مدنية، ومعهم.. أترين الشعاع
الذي انبعث من صدر السيدة.. إن الأضواء تنعكس على
الحلي التي تثقل صدورهنّ وسواعدهن. وماذا يلبسن، لاشك
أنها ثياب غالية جداً.

فضة : نعم يا ابنتي.. هناك من يلبس ويتنعم وتساقط عليه الفلوس،
كأنها المطر، وهناك من يتفرّج على هؤلاء ويتحسّر.

رباب : أتشعرين بالحسرة يا أمي؟

فضة : ماذا أقول يا ابنتي.. أفنيت عمري في التحسّر ولكن ذات
يوم.. (توقّف).

رباب : ذات يوم.. لماذا لا تتابعين!؟

- فَصَّة : مألنا وهذا والحديث الآن.. دعينا نتفرّج. هذه السيارة التي وصلت، أليست واحدة من سيارات الغاوي؟
- رباب : نعم.. أظن نعم.. واحدة من سياراته. هل ترين من ينزل منها؟
- فَصَّة : ماشاء الله الخادم الأحذب يفتح الباب، والسيدتان زهيّة وكريمة تترجلان من السيارة!
- رباب : يبدو أنه سيعيدهما إلى ذمته!
- فَصَّة : لا تصدّقي هذا الكلام.. أخته قالت لي.. أخي لا ينظر إلى الوراء. وإذا رمى شيئاً لا يلتقطه أبداً.
- رباب : منذ فترة وخادمه يلازمهما، وها هو يدعوهما إلى حفل الافتتاح، الذي لن يحضره أحد من الضيعة سوى أبي.
- فَصَّة : لعلّه سيعطيها عملاً في المشروع. أما أن يردهما إلى عصمته فهذا مستحيل.
- رباب : ترى.. ماذا يحسّ أبي الآن وحوله أهمّ رجالات البلد؟
- فَصَّة : نعم.. لاشكّ أنه الآن يسبح في السماء. وأنا حتى الآن لا أعرف ما الذي ألفّ وجمع بين الرجلين؟!
- رباب : أنت تعلمين رقة أبي وضعفه أمام الذين يقدرّون قوّته. والرجل أطراه كثيراً، ووعده أن يسجل أغانيه على أشرطة.
- فَصَّة : وما أدراني.. هناك ما هو غريب. كان أبوك لا يطيق سيرته، ثم أصبح لا يطيق مفارقتها. (بانخطاف مفاجئ) يا الله..!
- رباب : أترين! غدا البناء كأنه سفينة من الضوء تسبح في عتمة الليل. (تتفجر في الجوّ أسهم نارية)
- فَصَّة : (خائفة) ما هذا؟!
- رباب : (ضاحكة وهي ترتّب على كفف أمها) لا تخافي، لا تخافي. هذه أسهم نارية.
- أصوات : (تتاهى من أسطحة متعدّدة) سبحان الذي جعل الليل نهاراً!

- هذه ليلة الغاوي، وعرسه الأكبر.
 - انظر.. إنها حزمة جديدة.
 - هناك نجوم تتساقط.. إنها تتحول إلى خيمة.. إنها تغدو مظلة.. يا سبحان الله! يا سبحان الله. ابن آدم جبار.. لم يصعب عليه شيء إلا صنع الأرواح.
 - هذه فرجة لا يراها المرء إلا في العواصم!
 - أترين يا فضّة ألوانها، والأشكال التي تتخذها بعد أن تنفجر؟

فضّة

: شيء عجيب!

- هذه المرّة جاءنا ابن الغاوي بأعاجيب كثيرة.

فضّة

: وكلها أعاجيب تخطف الأبصار والعقول.

(تطلق من المكبرات موسيقا إيقاعية وصاخبة).

رباب

: بدأ الافتتاح العظيم. آه.. ما أجمل ذلك! السيارات وأناقة

المدعوين وسفينة الضوء والموسيقى.. ما أجمل هذا العالم!

فضّة

: (وهي تفضّ بالبكاء) نعم يا ابنتي.. ما أجمل هذا العالم!

(تنفجر في بكاء حارق تقطعه الشهقات)

رباب

: (وهي تحضن أمها) أمي.. لماذا تبكين؟

فضّة

: إنه انفعال عابر وسيمرّ.

: ماذا تخفين يا أمي؟ منذ قليل كنت تتابعين الأسهم النارية

رباب

بعجب وسرور؟!

: (تطوّق ابتها بدورها) لا تشغلي بالك. تذكّرت أخويك،

فضّة

والبكاء يفرّج عني.

: أخواي بخير.. وبكاؤك له سبب آخر.

رباب

: لاشيء.. لاشيء يا رباب. فجأة داهمتني رغبة في البكاء

فضّة

وبكيت.

(توقّف الموسيقى. وبعد صمت قصير تنهّي من المكبرات

نغمات تجريبية على الربابة، وحين يستقيم اللحن يتأهى
صوت ياسين يشوبه في البداية ارتعاش، ثم يجرد الصوت بعد
قليل قوياً ومتماسكاً).

رباب : (تقفز وتصيح) هذا أي.. هذا أي..

فضة : (وهي تمسح دموعها) نعم إنه أبوك.

ياسين : (يتموج الصوت عبر المكبرات) هالبلد نافح بالذكا ترابها

والكرم فيها نبوع وسواقي

ولضيوفها مفتحة بوابها

وبكل بيت ضيوف بتلاقي

بوجه زوارها تزهو عشابها

والجوز يوشوش الدراقي

رباب : (تصفق حار). (وهي تصفق) أسمعين التصفيق! آه لو كنت

معه الآن..

فضة : (وهي تنهض) ومن يقبل أن تكوني معه؟!

رباب : إني أتمنى فقط.. هل تنزلين إلى البيت؟

فضة : نعم.. أشعر بالنعاس.. إبقى أنتِ إذا شئت.

رباب : يا الله! كم تبدو مقهورة!

(صوت الربابة يصاحبه صوت أورغ خافت).

ياسين : قومي نخلي عمرنا غنائي بنات

بكرا وطار العمر كلها عنعنات

(يعلو صوت الأورغ تدريجياً وكأنه يشاغب على صوت

الربابة).

رغيف خبز ومجوز وشقفة حصير

وطاقة قمر ييكوخ شي راعي فقير

(يخفي صوت الأورغ آثات الربابة بصورة متعمدة)

وشفتي عَ شفتك هيدي الحياة

ولزّتا

(تنضم إلى الأورغ بقية آلات الأوركسترا الهجينة، وتتفجر
موسيقى مزعجة من تلك التي تصاحب عادة الأغاني الشائعة
التي تنطوي على إيقاعات راقصة).

رباب

: ماذا يحدث؟ لماذا قاطعوه! لم أميّر البيت الأخير إلا بصعوبة.
يا رب.. أتضرّع إليك أن تكذب خواطري، وأن تجبّه
الإهانة.
(ترفع وجهها ويديها نحو السماء.. وتتلاشى الإضاءة).

مكتبة سحر الألفية
www.books4all.net

مشهد ٦

- (مصطبة أمام بيت أمين التبان. على حصيرة ممدودة تجلس مريم الزرقاء مستعدة إلى الحائط وإلى جوارها بسلام الراضي).
- الزرقاء : أنت ابن حلال يا بسلام، حتى الأقارب لم يقفوا معنا في هذه المصيبة كما وقفت معنا.
- بسلام : ولو يا خالتي.. الناس لبعضها، ونحن أهل.
- الزرقاء : لكن القلوب فسدت، وانعدم التأزر بين الناس.
- صوت امرأة : (من داخل البيت) أمي..
- الزرقاء : (وهي تهض، وتدخل البيت) ماذا هناك؟ لماذا لا تأتين؟!
- صوت امرأة : إني أرضع الصغير.
- (بعد قليل تخرج وهي تحمل يد صنية الشاي، وباليد الأخرى تجر ولدا في السادسة من عمره. تضع الشاي على الحصير وتلتفت إلى الصغير).
- الزرقاء : (للولد) اسمع.. أنت الآن رجل البيت. ومن العار أن يكي الرجل، أو يعذب أمه. منذ الصباح وأنت تنغر.. ماذا تريد؟
- الولد : أريد أن أشتري كولا.
- الزرقاء : وما هذا الزفت؟!
- الولد : كل الأولاد يشربونه ويحبّونه.
- الزرقاء : (تتاوّل ورقة مالية من عبّها وتعطيها للصغير) خذ.. لن أحرملك من تذوّقها. اشتر واحدة، وعد إلى البيت فوراً

(يخرج الولد راكضاً ومسروراً) هل تعرف هذه المشروبات يا
بسام؟

بسام : أعرفها يا خالة، ولكن لا أتعاطاها. كل هذه المأكولات
والمشروبات التي يتهافت عليها الناس مملوءة بالسموم والمواد
الضارة. أحياناً لا أكاد أستوعب التغيرات التي توالى على
حياتنا في السنوات الأخيرة. ألن تقولي لي يا خالة ماذا
أبصرت؟

الزرقاء : آه يا ولدي.. ليتني فقدت بصري قبل أن أبصر. أبصرت ابني
يقتل ابني، وأنا مشلولة، لا أستطيع أن أتدخل أو أتحرك..
وأبصرت.. هل تريد حقاً أن تعرف ماذا أبصرت؟

بسام : نعم يا خالتي.. أريد أن أعرف، لأن قلبي مليء بالتوجسات.
الزرقاء : يا ولدي.. ستزيدك المعرفة توجساً، وستضاعف عذابك
كلما اكتشفت أنك أضعف من أن تغيّر مسار الأشياء.

بسام : ومع هذا أريد أن أعرف.

الزرقاء : المعرفة.. المعرفة.. أحياناً تكون الفطنة أن يتجنب المرء المعرفة
(تبدو عيناها نفاذتين وغائبتين، كأنها انفصلت عما حولها،
وغاصت في أفق بعيد) أشعر رعدة في ظهري، كأنها بداية
برداء تعقبها الحمى. ليتني لا أعرف ولا أرى. لا أدري متى
تمّ ذلك، ولكن أعلم أن قرينه الشيطان، وأن بينهما اتفاقاً
وميثاقاً. أنظر وأنظر.. تتعدّد أمامي الرؤى، وتتداخل الأشكال
والهياث، ولا أستطيع أن أبصر القرين بوضوح، لكنني أبصر
حركاته، والمخ شيئاً من خططه وآثاره. ستخيّم على القرية
غواية لا تقاوم. أبصر الناس وكأنهم سُكّارى، فقدوا البصائر
والضمائر. مقاماتٌ تنهار، وأعراضٌ تباع. (تغمض عينيها)
آه.. أبصر ما هو أرهب! أرى أشجاراً تخلع خضرتها،
تتفحّم. أرى ثعباناً يتقيأ فرائناً. أرى مطراً من الأشياء الملوّنة

والنفائات. والناس مسعورة، تتناهب الأشياء والنفائات.
تلتهم الأشياء والنفائات، تصير أشياء ونفائات. آه.. ما أبصره
يجعل أسناني تصطلك.

بشام : هدئي من روعك يا خالة!
الزرقاء : ليتني لا أبصر. ليتني كنت قطرة ماء تحملها الأنهار إلى
أعماق البحار، فأستقر هناك بعيداً عن عذابات الناس
وعماها.

بشام : أ تكون أيامنا المقبلة مظلمة إلى هذا الحد؟
الزرقاء : وربما فاتتني علامات لم أبصرها.
بشام : أعيتني هذه الرؤى وملأت قلبي غماً.
الزرقاء : أما حذرتك؟

بشام : ولماذا تعتقدين أننا لا نستطيع تغيير مسار الأشياء؟
الزرقاء : لأنني عانيت ذلك. سأخبرك أمراً لا يعرفه أحد حين أبصرت
ابني يقتل ابني، ولم أستطع أن أتدخل أو أتحرّك (تزداد
رعشتها، وتعجز عن السيطرة على أسنانها تصطلك) عن إذنك
لحظة..

(تدخل إلى البيت تغيب فترة قصيرة، ثم تخرج وهي تلف
جذعها ببطانية عتيقة).

بشام : أعذريني.. لم أكن أعلم أن الإبصار يرهقك إلى هذا الحد.
الزرقاء : تلك نقمة ليتني لم أستعدها. (لحظة) إيه.. على أيامنا كانت
الحياة أسهل. صحيح أننا كنا نشقى في الأرض على مدار
الفصول الأربعة، كي نؤمن لقمة العيش، ونرتي أطفالنا.
ولكن كانت الهموم بسيطة، والحاجات قليلة. ورغم الفقر
والعيب كنا نشعر بالاطمئنان، والأيام تجري يسير وأمان.

بشام : لا يا خالة.. لن أترحم على تلك الأيام. كان الفقر كافراً.
ذات شتاء، وكنت صغيراً، لم نذق خلال شهرين متوالين

- سوى الأعشاب المطبوخة بقليل من الزيت.
- الزرقاء : وأنا لن أهلل لهذه الأيام، التي يقتل فيها الأخ أخاه.
- بسام : معك حق.. لا هذه تستحق التهليل، ولا تلك تستدعي الترحم. ولو توقّر لنا الوعي والإرادة، لوجدنا الطريق الصحيح، الذي يخلصنا من الفقر، ويوفّر لنا التقدّم والكرامة.
- الزرقاء : وهل يوجد طريق كهذا؟
- بسام : كيف أشرح لك يا خالة؟ من المؤكد أنه موجود، وأنه ممكن أيضاً.
- الزرقاء : لا شك أنك تفهم أكثر مني. ولكن ما نحن فيه يجعلني أحنّ إلى الأيام القديمة.
- بسام : أما أنا فلا أستطيع أن أحنّ إليها، ولا أستطيع أن ألوّمك أيضاً.
- الزرقاء : أخبريني.. أما زلت مصتمة على بيع الأرض؟
- الزرقاء : تلك أفحش سخرية تتعرض لها الزرقاء. قُتل ابن وشجنّ الابن الآخر كي لا تباع الأرض.. وها هي تجد نفسها مضطرة لبيع الأرض، كي تربّي عائلة القتل، وتفكّ ضائقة السجين.
- الولد (يدخل الولد وهو يحمل علبة من الصفيح فيها مياه غازية).
- الزرقاء : جدّتي.. جدّتي.. إنها طيبة جداً.
- الزرقاء : أهّي أطيب من الشاي يا ولد؟
- الولد : لا أريد الشاي بعد اليوم.
- الزرقاء : أين الباقي؟
- الولد : لم يعطني شيئاً.
- الزرقاء : لاشكّ أنهم سرقوه.
- بسام : (وهو ينهض) لا.. هذا هو سعرها.
- الزرقاء : إنه فاحش.
- بسام : (وهو يخرج) هذه أسعار الشيطان يا خالة.

- الزرقاء : فعلاً.. هذا شراب الشيطان، وهذه أسعاره.. مع السلامة.
- الولد : هل تذوقين بلعة صغيرة؟
- الزرقاء : هات، ولا تقل لأحد. (يتاولها العلبة، ترفعها إلى فمها. تتردد لحظة ثم تعيدها له) خذ لا أريد.
- الولد : (وهو يدخل إلى البيت) كما تشائين. سأعطي بلعة لأمي.
- (تبقى الزرقاء وحيدة.. تسرح بصرها بعيداً.. ثم تتلاشى الإضاءة ببطء..)

مشهد ٧

(منبر الجامع الذي يُدشن بعد اكتمال بنائه. الشيخ عباس يقف على المنبر خطيباً، وفي الصفوف الأولى نلاحظ عبود الغاوي ومحمد القاسم والمختار ووجهاء الضيعة).

الشيخ عباس : الحمد لله الذي لاتفرغ خزائن رحمته، ولا تجف ينابيع فضله، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، أندى الناس كفاً، وأوسعهم برأ. أما بعد.. فإن الإسلام دين يقوم على العطاء والإنفاق، ويضيق على الشخ والإمساك. ولذلك حُبب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية، وأكفهم ندية. ونحن اليوم نجتمع للصلاة في مسجد، ماكان ليبنى ويزخرف على هذا النحو البديع، لولا سخاء رجلين من أبناء هذه القرية. كلاهما غيور على دينه، كريم على أهله، كفه مبسوطة للخير والعطاء. والرجلان هما عبود الغاوي الذي قدّم المال بلا حساب لعمارة المسجد وزخرفته. والثاني محمد القاسم الذي وهب الأرض لبناء الجامع ومراقفه. وإنا ندعو الله أن يبارك هذين الرجلين، وأن يزيدهما مالاً ورزقاً. أيها الأخوة.. أنتم تعرفون أن الله أكرمنا بعودة ابنا عبود الغاوي، الذي بذل خمول هذه الضيعة نشاطاً وحيوية، وأوجد مشاريع عادت على الناس بنفع عميق. وفي المستقبل سيتضاعف النفع بإذن الله، ويزيد. ونحن نعلم أن أموالاً

كثيرة تجري اليوم في أيدي الناس، هذا أمر ينبغي ألا نخجل منه، أو نخفيه، لأن الإسلام جعل الغنى نعمة يمتنّ الله بها، ويطلب بشكرها. ويجعل الفقر مصيبة يستعاذ بالله منها. ولهذا لا جناح علينا إن استكثرنا مالنا وزدناه. ولقد سمعت من ينصح الناس ويحضّهم على حفظ أموالهم بالبنوك، ولكن فات هؤلاء الناصحين أن الفوائد التي تعطىها البنوك هي نوع من الربا الذي حرّمه الإسلام، ونهى عنه. قال تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وهذا يعني أن من يضع ماله في هذه البنوك الربوية، يخالف الدين ويقترف ما حرّمه الله. ولهذا أوجد المحسن الشهم عبود الغاوي حلاً يتفق مع الدين الحنيف، ويسمح لكم بمضاعفة المال والتنعم بالأرباح. إنه يقترح أن تضعوا أموالكم لديه كي يشغلها لكم في التجارة الحلال. وفي نهاية كل شهر يوزّع عليكم ما تدرّه التجارة من أرباح مع بقاء رأس المال محفوظاً بالتمام. وإذا كان ابننا عبود الغاوي، ورغم مشاغله الكثيرة، يتحمّل من أجلكم هذا العبء، فلأنه هذه المرة قد جاء كي يصل الرّحم، ويغدق على القرية خيراً ويسراً.

اللهم وفق ابن الغاوي كما يريد توفيقنا، وضاعف أمواله كما يريد أن يضاعف مالنا. اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحةً لنا من كل شر.. آمين.. (وتتلاشى الإضاءة).

الفصل الرابع

مألا عين رأّت.. ولا أذن سمعت

مشهد ١

- (بيت المختار، المختار، أديب)
- أديب : (يخرج من جيبه مغلفاً محشواً بالأوراق النقدية، ويقدمه للمختار) تفضل يا مختار.
- المختار : (وهو يتاول المغلف) ما هذا؟ (يفتح المغلف وينظر إلى الأوراق النقدية) لمن هذا المال؟
- أديب : لك.. إنه تعويض رمزي كان يتمنى عبود الغاوي لولا مشاغله الكثيرة، أن يأتي ويقدمه بنفسه.
- المختار : (حائراً) ولم التعويض! إنني لا أفهم شيئاً.
- أديب : علم الغاوي أنك شجعت الناس على إيداع أموالهم لديه، فأحب أن يكافئ ثقتك وجهدك.
- المختار : أي جهد! دائماً يأتي الناس ويسألونني رأيي فيما يعرض لهم من شؤون. ربما لأنني المختار، أو لأنني كبير في السن. إنني أقدم لهم رأيي ونصيحتي لا أكثر.
- أديب : في هذا الزمن، زمن عبود الغاوي، الرأي والنصيحة لهما ثمن كأني عمل آخر، بل وأعلى من أي عمل آخر. أتعلم.. إنه يدفع لي ثمن كل اقتراح أقدمه له، إذا وجد في الاقتراح فائدة لمشاريعه؟
- المختار : كل ما قدمته هو شيء من الكلام. والناس منذ أجداد أجدادنا يتبادلون النصيح والرأي بلا مقابل.

- أديب : أما اليوم، فقد صار للنصيحة والرأي مقابل. تصوّر أنّي قدّمت لك نصيحة جعلتك تكسب مائة ألف ليرة، أفلا يقضي العدل أن يكون لي نصيب من هذا الربح؟
- المختار : تعوّدنا أن نشكر، وأن نقدّم حلاوة.
- أديب : طيب.. على جاري عاداتكم، اعتبر هذا المبلغ حلاوة، ولا تنس يا مختار أنّ الحلاوة في هذا الزمن الجديد غدت ثمناً وحقاً.
- المختار : (متردداً) يعني.. هل تقترح عليّ أن أقبله؟
- أديب : هو حقك فلماذا لاتقبله؟
- المختار : وإذا علم الناس؟
- أديب : وماذا يهمّ.. يجب أن يدرك الجميع أنّ الموازين تغيّرت، وأنّ الزمن الذي دخلناه، يعتبر الأفكار والنصائح والاقتراحات سلعاً تباع وتشتري، ولها أسعار. خذ مثلاً.. البارحة اقترحت عليه أن ينشئ فرقة للرقص الشعبي، قد تكون فرجة طريفة بالنسبة للأجانب. فتحمّس كثيراً وقال لي: «هذا اقتراح يستحقّ مكافأة مجزية. دع الوسواس وضعها في جيبك».
- (يضع المختار المغلف في جيبه).
- أصوات : (تتأهى من الخارج.. أصوات أولاد يردّدون كلمات دعاية تلفزيونية)
- «ولك مرتي.. مرتي عم تسأل جارتها عن شيء.. عن شيء ينظف جلياتها ولك عن شيء.. عن شيء يطرّي الأيدين ويلمّع صحنونها وكاساتها..».
- المختار : تفضّل يا سيدي.. ماعاد في أفواه الصغار والكبار إلّا أغاني الدعايات.

- أديب المختار** : نعم.. والتاس تشتري أجهزة وبضائع لم تكن تحلم بها.
: لا ريب أنَّ هناك أجهزة فيها منفعة وراحة. ولكن لست متأكداً أنها ضرورية. إذا كان أهل البيت لن يغسلوا، ولن يفرموا البصل، ولن يقطعوا الخضار، فماذا سيفعلون؟
- أديب المختار** : سيراتحون أخيراً، ويعرفون طعم الرفاهية.
: ومن أين تأتي بالمال؟ الآن بعنا أراضيها فماذا نبيع في المرة القادمة؟ وكثرة البضائع تولد الحاجة لدى الإنسان، حتى ولو لم يكن محتاجاً. ولذا ترى الجميع يدورون ويدورون، يشترون ولا يكتفون. عيونهم فارغة، وعقولهم مبلبلة. لا أدري.. أنا أتكلّم على قدّ فهمي، وأخشى ألا نعرف راحة البال بعد اليوم.
- أديب المختار** : لا تتعجل الحكم يا مختار. كم مرّة تحاورنا حول ما يجري!
نعم إنّ وفرة البضائع ستخلق لدى التّاس حاجات جديدة. ولكن ستخلق لديهم أيضاً الدّافع للعمل، والكسب، حتى يلتبوا هذه الحاجات.
- أديب المختار** : وأين سيعملون؟
: ستوجد فرص عمل كثيرة. المجمع وحده يحتاج إلى عدد كبيرة من الشباب والبنات. وكلّما ازدهرت الأحوال، زادت فرص العمل، إنّ حركة السوق وقوانينه هي التي تصنع التّقدّم. وعبود الغاوي مصرّ على أن يجعل البلد واحداً من أحدث الأسواق في العالم. لو ترى المجمع وما فيه! (يضرّ يده على جبينه) ماذا دهاني! سيأتيني الخرف مبكراً..
- يتشرّف السيّد عبود الغاوي بدعوة وجهاء الضيعة، مختارها والشيخ عبّاس وعبد الرحمن الدّرويش وحبيينا وعمّنا محمّد القاسم لقضاء سهرة في المجمع. وبالنسبة كيف صارت علاقتك بعنّا محمّد القاسم؟

- المختار : اعتذر عن خشونته، وتصافينا. وأنت؟ ألم تنزع الفتاة من فكرك؟
- أديب : أنزعها! عاهدت نفسي يا مختار ألا أفكّ عزوبيتي إلا معها وعلى زندها.
- المختار : ماذا تأمل بعد ذلك الرفض وتلك الإهانة؟
- أديب : سأخبرك حين تنضج الحكاية.
- المختار : إياك أن تتهوّر!
- أديب : لاتخف عليّ.. أرجو فقط أن تبلغ عمّي محمّد القاسم دعوة السيّد عبود الغاوي.
- المختار : أخشى أن يرفض الدّعوة.
- أديب : من هذه التّاحية.. اطمئنّ، سيكون أسرع منكم في تليبيتها.
- المختار : لماذا تبدو واثقاً إلى هذا الحدّ؟
- أديب : لأنني أعرف أشياء صغيرة.
- المختار : ماذا تعرف؟
- أديب : (وهو ينهض) كل شيء في أوانه يا مختار.
- أصوات : (تأتي من الخارج. الأولاد يردّدون كلمات الدعاية التلفزيونية، فيما يخرج أديب)
- «ولا تحطّي إيدك ع خدّك
أوريس غسيلك يبيّض
صح.. صح
عيون التّاس.. عيون التّاس
بس تتطلّع ع غسيلك بسرعة
صح.. صح..»
- المختار : هذا الشّاب، في إهابه جنّي أو شيطان، وأحيان أشعر أنّ الضيعة كلّها مسكونة بالجنّ والعفاريت. يا ربّ.. تلطّف بنا،

ولا تجعلنا كذلك القرية التي أمرت متريها أن يفسدوا فيها،
حتى حقَّت عليها اللّعة.
(يخرج المغلف من جيبه، ويدأ بعد النقود.. تتلاشى
الإضاءة).

مشهد ٢

(أمام مكتب عبود الغاوي في المجمع. يجلس ياسين على الأرض مستنداً إلى الحائط، وكأنه ينتظر فرصة كي يلتقي بالغاوي. عيناه حمراوان، وهيته توحى بالتداعي).

: (يدندن بصوت خافت)

ياسين

أعمى وتاه بهالدني، مالو رفيق وتوّه معو قلبي
فلتت عصاتو العمتدلو غ الطريق ودّعفر بدربو
(يمطّ الكلام قليلاً بسبب السكر) آه.. تعثّرت ووقعت. لا..
مستحيل.. أنا ربّ القوافي.. أنا الذهب العتيق. هل يعقل
أن يخطف الضوء عني صبيّة مخنثون، يغنون كأنهم
يموؤون أو يشخرون؟ أهذا شعرا! أهذا قصيد! وكيف
يطرب الناس له! إيه.. دعك من المكابرة يا ياسين. دارت
الأيام.. دارت.. دارت.. حشرتك في طيّة من طياتها..
ورمتك خلفها. كان يريد أن يسجل أشرطة، وأن يحقق لي
شهرة وثروة، ولكن ها هو يتحاشاني، ويتعمّد ألا يراني
حين أصادفه. ما الذي جرى! لعن الله ليلة الافتتاح.. في
تلك الليلة حدث شيء غريب لم يفّسه أحد. (يخرج من
جيبه الدّاخلي زجاجة عرق ويكرع منها جرعات.. يأتي
الخادم). أنت.. يا الله، ما أشدّ حاجتي إليك. (يحاول أن
ينهض لملاقاة الخادم، إلا أن ساقه تخذلانه فيتزحلق، ويستقرّ

- جالساً على الأرض).
- الخادم : لماذا تحتاجني؟ أنت تعرف أنّ ديونك بالآلاف، ولا أدري كيف ستسدّها!
- ياسين : أعرف أنّي مديون. وأنّي اقترضت على الوعود التي متّاني بها السيّد عبّود الغاوي. ولكن ليس هذا هو الموضوع.
- الخادم : ما الموضوع إذاً؟
- ياسين : قل لي ماذا حدث ليلة الافتتاح؟
- الخادم : أحقّاً تريد أن تعرف؟
- ياسين : نعم.. أريد أن أعرف. قل الحقيقة حتّى ولو كانت ذابحة.
- الخادم : في ليلة الافتتاح يا ياسين، ضحك المدعوون حين غيّت، وتبادلوا تعليقات ساخرة.
- ياسين : (مبهوتاً) ضحكوا.. ولماذا ضحكوا؟
- الخادم : لأنك بدوت، وكأنك تأتي من ماضٍ بعيد.. من زمن نسوه، ولا يريدون أن يتذكّروه.
- ياسين : هل تغيّر الزمن إلى هذا الحدّ! لم تمض سنوات.. هي سنوات فقط.
- الخادم : السّنوات زمن طويل في عصر الأقمار الصنّاعيّة. ولّى زمنك يا ياسين.
- ياسين : (تفرط من عينيه دموع) ما أفزع قسوتك! تفرّز الخنجر في قلبي، وكأنك تزفّ لي بشرى.
- الخادم : ألم تطلب الحقيقة حتّى ولو كانت ذابحة؟!
- ياسين : (يضرب على رأسه) أكان يكذب عليّ؟ أنا متأكّد أنّه لم يكن يكذب. اسمع.. إنّ السيّد عبّود الغاوي أحبّ غنائي، ووعدني أن يسجّله على أشرطة يسوّقها في المهجر وهنا.
- الخادم : سأقول لك شيئاً عن سيّدي، لا يعرفه أحد سواي.. هو لا

يفهم شيئاً في الغناء، ولكن تصيبه بين فترة وأخرى نوبات
من الحنين، تدفعه إلى محبة كل ما يرتبط بالماضي، ولا سيما
أيام طفولته.

: أتعني أنه لا يوجد أمل؟

ياسين

: أنت في ورطة يا ياسين.

الخادم

: وأيّ ورطة! أتدرك.. (ينجح في النهوض. يحاول أن يمسك

ياسين

الخادم من ذراعه، فينفض الخادم ذراعه، ويتعد خطوة أو

خطوتين) إذا تخلّيتم عني فإن ورطتي مهلكة. لا أقصد

الديون فقط، وهي وحدها تقصم الظهر. ولكن ما هو أفدح

منها أن تنهار تلك الأحلام، التي غدّيتها طوال هذه الفترة.

أنجذني.. دائماً كنت أحس أنك ابن حلال.. اقترح عليّ

شيئاً.. سأغدو مسخرة أهلي وقريتي.. سأموت ذليلاً

ومقهوراً.. بالله عليك لا تتخلّ عني.

: (يتبدّى التفور على سحنته) إياك أن تخلفني مرة أخرى.

الخادم

: لا أقصد أن ألزملك. إني أتوسّل إليك، وأرجوك.

ياسين

: طيّب.. طيّب.. إياك أن تعيدها.

الخادم

: لن أعيدها.. أتوسّل إليك أن تجد لي مخرجاً.

ياسين

: لو كنت مكانك (يتوقّف ويتظاهر بأنه سيمضي) ولكن ما

الخادم

دخلني أنا..؟

: (يمسكه كالغريق) لا.. ستقول لي. لو كنت مكاني ماذا

ياسين

تفعل؟

: إنك تنتظر من عبود الغاوي الثروة والشهرة، ولكن هل خطر

الخادم

لك في يوم من الأيام، أن تقدّم شيئاً لعبود الغاوي؟

: وهل ينقص عبود الغاوي شيء! وأنا.. هل أملك شيئاً إلا

ياسين

حنجرتي وأشعاري؟

: أعطني أذنك يا ياسين.. وما سأقوله لك سرّ لن يعرفه سوانا.

الخادم

أحوال سيدي هذه الأيام لا تعجبني. كنت أتوقع أن يطفح سعادة وبشراً، ولكن توقعاتي خابت. منذ فترة لا أراه إلا وظل من الكآبة يغطي وجهه، ونادراً ما أسمعه يضحك! إنه حزين وينقصه شيء ما.

ياسين

: هل تعرف ماذا ينقصه؟

الخادم

: لم أفتح سيدي بالموضوع، وأعرف أنه سيغضب لو سألته، إلا أنني أخمن تماماً ما الذي ينقصه. إنه يشعر بالوحدة، ولعله يفكر بأن الوقت قد حان كي يهدأ ويستقر. ما ينقصه عذراء يسكن إليها، ويستقر معها.

ياسين

: إذا كانت تلك هي المشكلة، فهناك ألف من تتمناه.

الخادم

: وهل أجهل ذلك! اسمع يا ياسين.. أتريد فعلاً أن تخرج من ورطتك؟

ياسين

: نعم أريد أن أخرج من ورطتي..

الخادم

: إذن.. تذكر أنك تملك أكثر من حنجرتك وقوافيك. في بيتك لؤلؤة لا يليق بها إلا سيدي. وسيضحك لك الحظ، إن أعجبت سيدي، وقرر أن يسكن إليها، ويستقر معها.

ياسين

: أتريدني أن أعرض ابنتي الغالية عليه؟

الخادم

: ذلك هو مخرجك الوحيد، وتلك هي أيضاً فرصتك اليتيمة للشهرة والثروة.

ياسين

: (وكأنه يكي) إنها صغيرة.. إنها طفلة.

الخادم

: وسيدي رغم عُمره، تتدفق في عروقه حيوية و طاقة يحسد عليها الشباب.

ياسين

: ربما.. ربما.. لا أشك في ذلك. ولكن.. (يتزحلق على طول الجدار ويجلس على الأرض) ألا يوجد حل آخر؟

الخادم

: كنت أتوقع أن تشكرني يا ياسين، لا أن تساوم. انس ما دار بيننا، واعتبر أنني لم أعرض عليك شيئاً. (يتركه ويمضي).

- ياسين : (متوسلاً ويحاول اللّحاق به زحفاً على الأرض) أرجوك..
انتظر..
الخدام : (وهو يتعد) عندما تصل إلى قرار، تعال واسأل عني.
(ياسين مبطوح على الأرض. يتناول جرعة كبيرة من الكحول..
تلاشى الإضاءة).

مشهد ٣

(أرض فضاء فيها مصاطب حجرية، بين المجمع والقرية. المختار، ومحمد القاسم، وعبد الرحمن الدرويش، والشيخ عباس، بعد سهرتهم في المجمع. إنهم سكارى بدرجات متفاوتة.. كلماتهم وحركاتهم مشحونة بالتوتر والانفعال والهياج).

- المختار : بريق.. بريق يغشى الأبصار.
عبد الرحمن : نعم.. كل شيء براق.. كل شيء يخطف الأبصار.
المختار : أضواء تتلألأ، كأنها شمس تتفجر.
عبد الرحمن : وأضواء لطيفة، كأنها أقمار ساهية.
الشيخ عباس : وأضواء خافتة وحنون، تتساقط من عيون خفية، أو من مناخل عسلية. لا أعرف كيف أصف.. لا نعرف كلمات تناسب ما رأيناه.
المختار : كيف نصف السحر والفتنة والرخاء. كان المقعد رخيئاً، والنسمة التي تتماوج رخيئة، والنغمة التي تنفذ إلى القلب رخيئة.. ورثي هذا شيء لم أذقه في حياتي.
عبد الرحمن : كيفما تحركنا، أو نظرنا، ثمة ما يدهش ويخلب الألباب.
المختار : إنه حلم..
الشيخ عباس : خلال خمسين سنة من الأحلام، لم أرَ حائطاً يتحرك عليه أجساد سبكان الخالق. سبكانه حين أبدع، وحين كَوّن.
محمد : وتلك النافورة العجيبة. رأيتم كيف يتشكل ماؤها جسداً حياً

يتراقص، يميل، يغنج، وينثني!
 عبد الرحمن : رأينا ما لاعين رأيت، وسمعنا ما لا أذن سمعت!
 الشيخ عباس : إي والله.. ما لاعين رأيت، وما لا أذن سمعت!
 المختار : (حالمًا وشاردًا) ما لاعين رأيت، وما لا أذن سمعت!
 الشيخ عباس : لو أقام المرء فيه دهرًا لما شبع، ولما قال اكتفيت.. لاسيما إذا
 مستته مع فتنة المكان فتنة الحب.

عبد الرحمن : نعم هذا ما كنت أبحث عنه. ثمة عطر. ثمة نداء يترجرج
 عبر النغم والضوء وفورة الألوان. هناك ما يخفق حولك.
 هناك مايخفق فيك. إنه الحب.. يملأ الفضاء يرتدي العطور
 والأنغام. يتسرب عبر المرايا والنوافير. في ذلك المكان
 يستحيل أن ينجو المرء من الحب وأشواقه.

محمد : كشفت دائي، ولمست مواضع وجعي يا عبد الرحمن.
 الشيخ عباس : ودائي! لاتنس دوائي، أقصد دائي.. ماذا شربنا؟!
 المختار : شرابٌ حلو وسلس، يدغدغ الحلق، وينشر دفقاً ودواراً
 ناعمين.. ناعمين.

محمد : لا تذكروا النعومة والبضاضة أمام العاشقين.
 الشيخ عباس : كل كلمة أسمعها.. كل صورة أتذكرها.. تقوّر جرحي،
 وتوجعني.

محمد : وأنا! هل نسيت أنني مثلك مجروح ونازف.
 المختار : يبدو أن الشيخ عباس ومحمد القاسم يخفيان أسراراً دامية.
 عبد الرحمن : إنه الحب يا مختار.. الحب الموجه الجميل، الذي يسخر من
 كلّ الاعتبارات..

محمد : زادك الله فصاحة يا عبد الرحمن. حقاً هو الحب، الذي
 يسخر من كلّ الاعتبارات.. يا أودم، ويا أفاضل الرجال..
 أنا محمد القاسم، بقدري ومقامي وسني، تأكدت الليلة أنني
 أحب، وأنّ حياتي عدم إن لم أحصل على تلك التي أحب.

الشيخ عباس : انتظر يا ابن القاسم، ولا تفرغ جعبتك كلها. الصباح رباح.. وهناك من أبدى استعداداه لحل مشكلتي ومشكلتك.

محمد : من هو؟

الشيخ عباس : دع هذه السيرة الآن.. ودعنا نتحدث عن المكان. (يتجشأ)
ماذا أكلنا؟ من يعرف ماذا أكلنا؟

المختار : هل أكفر لو قلت إنه بعض طعام الجنة؟

الشيخ عباس : لن تكفر حتى لو قلت.. إن المكان كله، هو موضع من مواضع الجنة.

عبد الرحمن : يا جماعة.. أعتقد أنّ اللياقة تقتضي أن نزور غداً عبود الغاوي، وأن نشكره على دعوته.

الشيخ عباس : وربما يجب أن نشكر أيضاً خادمه، وأديب التاطور، اللذين لم يذخرا جهداً من أجل إكرامنا والترحيب بنا.

المختار : وهذا واجب على كل حال. هل لاحظتم الخطوة التي يتمتع بها ابن التاطور في المجتمع. والله كلما مرّت الأيام ازداد إعجاباً بهذا الشاب.

محمد : ماذا تعني يا مختار؟

المختار : لا أعني إلا ما قلته..

محمد : لا أعتقد أنك تدقّ على وتر خفي لا أجهله.

المختار : وما هو هذا الوتر؟

محمد : كأنك تريد أن تقول، ما كان يجب أن أرفضه حين طلب مصاهرتي.

الشيخ عباس : وهل طلب مصاهرتك، ورفضت؟

محمد : وهل كنت تريدني ألا أرفض؟

الشيخ عباس : نعم كنت أريد ألا ترفض.. إن كلّ شيء بيده. الآن دارت لي.. قال لي لن تنالوا حتى أنال.

محمد : أنتظر فعلاً أنه قادر؟

- الشيخ عباس : نعم إنه قادر.. وفي الواقع هو الذي يدير المكان وما فيه.
 محمد : وأنت يا مختار.. أعتقد فعلاً أنه يجب ألا أرده خائباً؟
 (هدير سيارة يقترب من المكان)
- المختار : سأكون صريحاً حتى ولو حدث بيننا زعل. أعتقد أن أديب
 الناطور شاب كفاء لابنتك، ويليق زواجاً بها.
- محمد : طيب.. أين يمكن أن نجد أديب الناطور الآن؟
 المختار : لاشك أنه في المجمع.. وعلى كل ليس هناك ما هو
 مستعجل.
- (يتوقف هدير السيارة، وبعد قليل يظهر أديب الناطور مقرباً
 منهم).
- محمد : لا.. الليلة.. أريد أن أراه الليلة..
 أديب : أما زال الأعمام هنا! أرجو ألا يكون هناك سوء. هل أصاب
 أحدكم مكروه؟
- المختار : لا.. لاشيء.. أردنا بعد هذه السهرة العجيبة، أن نتسامر،
 ونشتم الهواء.
- محمد : فعلاً.. أذكر الديب وحضر القضيبي! تعال يا أديب..
 واجهني..
- أديب : (يتقدم منه ويواجهه بثبات) ها أنذا أمامك يا عم.
- محمد : أما زلت تريد ابنتي زوجة لك؟
 أديب : وسأظل أريدها حتى الممات.
- محمد : إذن ضع يدك في يدي. (يضع كل منهما يده في يد الآخر)
 أتحمل يا مختار منديلاً؟
- عبد الرحمن : (يخرج منديلاً من جيبه، يفتحه ويضعه فوق يديهما) هو ذا
 المنديل..
- محمد : تعال يا شيخ! دعنا نقرأ الفاتحة. وسيكون المختار وعبد
 الرحمن هما الشاهدان. انتظر يا شيخ، قل لي يا أديب، هل

- كثّا نشازاً في المكان، أو هل بدّونا مضحكين؟
أديب : معاذ الله يا عمّ.. وعندما يتكرّر تردّدكم على المكان، ستألفون كلّ شيء، وتحسّون أنّكم تسبحون في مائكم.
- عبد الرحمن : وتلك الطاولة المرقّمة والملوّنة، والتي تنتهي بتجويف مليء بالحفر، تدور فيه طابة صغيرة..
- أديب : لاشكّ أنّك تتحدّث عن لعبة الروليت.
- عبد الرحمن : كان حولها حشد من الناس.
- أديب : إنها لعبة محبوبة جدّاً.
- عبد الرحمن : أحقّاً يمكن أن يجني منها المرء أرباحاً؟ ألا يوجد في اللعبة غشّ؟
- أديب : اللعبة لا غشّ فيها. وإذا حالفك الحظّ يمكن أن تجني أرباحاً طائلة.
- محمّد : أهذا أو ان الأسئلة يا شيخ عبّاس.. دعنا نقرأ الفاتحة ونخلص. (وهم يقرأون الفاتحة.. تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٤

(في بيت ياسين. يبدو ياسين مرهقاً وزائغ العينين. تجلس فضة بهدوء في ركن مفروش ومخصص لها. لقد تحجبت.. وهي ترتدي الآن ثياباً بيضاً لا يظهر منها إلا الوجه واليدان. يبدو على وجهها الذي شحب لونه نوع من البلادة والرضا الحزين. رباب التي ازداد شبابها تفتّحاً وجمالها تألقاً، تقضم أظافرها كطفلة مرتبكة وحائرة).

فضة : ليتك يا رباب تكفين عن قضم أظافرك. هذه عادة سيئة يا ابنتي، ويقال إنها تسبب فقر الدم.

رباب : (تجفل من شرودها، وتضع يديها خلف ظهرها) حاضر يا أمي.

ياسين : (متحاشياً أن تلتقي عيناه بعيني ابنته) إني أنتظر جوابك يا رباب.

رباب : (بصوت منكسر) لا أعرف ماذا أجيب يا أمي.. علمي أنك رفضت من قبل، حتى مجرّد طرح الفكرة.

ياسين : وكان ذلك حمقاً مني. لم أكن أعرفه إلا من القيل والقال، ونائم الناس. أمّا الآن بعد أن عاشته هذه المدة كلها، فإنني واثق أنني لا أرميك إلى الجھول، بل أرّتب لك مستقبلاً، يرفل بكل ما يتمناه الإنسان. المال والدلال والرفاهية.

رباب : هل وعده يا أمي؟

- ياسين : (مرتبكاً) وهل يمكن أن أعِدهُ، قبل أن أعرف رأيك؟
- رياب : ألن تشعر بالضيق لو رفضت؟
- ياسين : طبعاً لا أتمنى أن ترفضني مافيه مصلحتك، وأملك تشايطرني الرأي. لماذا لاتقولين شيئاً يا فضّة؟! أما كنت تجدين هذا الزواج نعمة لا تردّ؟
- فضة : تلك أيام مضت..
- ياسين : ما الذي مضى؟ ماعدنا نفهمك يا فضّة. ما الذي حدث؟ أنسيت اليوم البعيد حين فاتحتني بالأمر، ألم تكوني متلهفة وراضية؟
- فضة : تلك الأيام.. ليتك لاتذكّرني بها. آه حين كنت أرغب وأرغب.. حين كانت الرغبات عناقيد من الأفاعي تتدلّى في داخلي، وتصبّ سُمّها في شراييني.. حين كان هذا البدن يعجّ بالرغبات والشّهوات وفحيح الأفاعي. آه.. تلك الأيام، حين كنت أشعر دائماً أنّي لا أحصل إلا على الفتات، حين كنت أحسّ أنّ جوعي لا يشبعه كلّ ما في العالم من طعام، وأنّ عربي لا يستره كلّ ما في العالم من ثياب. آه.. تلك الأيام حين كنت أحسّ بالاختناق، ولا أجد راحة إلا في البكاء. كنت أبكي قهراً، وكنت أبكي غضباً.. ويوم كان افتتاح ذلك المكان أيقنت أنّي سأموت. كنت أختنق وأبكي.. كنت أحشرج.. وفجأة.. لا أدري كيف أصف ذلك. مسّني روخٌ عذب وهادئ، فاتّسع صدري، وسرّت فيه برودة روح النعناع. هكذا.. فجأة أدركت أنّ العناية الإلهية رقت لحالي، وومضت في داخلي. شعرت أنّي أغتسل، وأتخلّص بنعومة ووداعة، من الشّهوات والرغبات والأفاعي.. ومنذ تلك اللّحظة التي عرفت فيها الطمأنينة ونعمة الرضا، ماعدت أريد أن أتذكّر تلك الأيام التي مضت.

ياسين : إِنِّي أَغْبِطُكَ مِنْ أَجْلِ طِمَأْنِينَتِكَ، وَأَغْبِطُكَ لِأَنَّ الْعِنَايَةَ
الإِلَهِيَّةَ وَمَضَتْ فِي دَاخِلِكَ. وَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا كَمَا
مَنْ عَلَيْكَ. وَلَكِنْ هَذَا كُلُّهُ، لَا يَمْنَعُ أَنْ تَبْدِيَ رَأْيَا فِي
مُسْتَقْبَلِ ابْتِنَا. أَلَا تَوَافِقِينَ مَعِيَ أَنَّ الْعَرَضَ الَّذِي حَمَلْتَهُ لَهَا
جَدِيرٌ بِأَنْ يَسْعِدَهَا؟

(يَتَاهِي مِنْ بَعِيدٍ صَوْتُ يَرْفَعُ الْأَذَانَ، وَفِي رَكَاكَةِ وَنَشَازٍ..)
فضة : (وَهِيَ تَنْهَضُ) وَمَنْ يَدْرِي أَيْنَ تَوْجَدُ سَعَادَةُ الْإِنْسَانِ؟ عَلَيْكَ
أَنْتَ وَرَبَّابٌ أَنْ تَقْرُرَا هَذَا الْأَمْرَ. أَمَّا أَنَا فَقَدْ حَانَ وَقْتُ
وَضُوءِي وَصَلَاتِي.

رباب : أَذْكَرُ جَيِّدًا لَيْلَةَ الْإِفْتِتَاحِ، وَكَيْفَ غَادَرْتُ السَّطْحَ، وَهِيَ تَعْتَرِّ
بِدُمُوعِهَا. أَلَمْ يَكُنْ اعْتِرَافُهَا مُؤَثِّرًا؟ تِلْكَ الْمَقَاسَاةُ الرَّهِيْبَةُ..
وَكَيفَ جَاءَهَا الْفَرَجُ وَشَفَتَهَا الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ.

ياسين : كَانَتْ أَتَمُّكَ دَائِمًا مَطْطَرَفَةً فِي تَقَلُّبَاتِهَا. وَمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ لَيْسَ
حَلًّا، بَلْ تَعْبِيرٌ عَنِ الْيَأْسِ لَا أَكْثَرَ. إِنَّ مَنْ يَشْعُرُ أَنَّ الْعِنَايَةَ
الإِلَهِيَّةَ غَسَلَتْ قَلْبَهُ بِالْهَدَايَةِ وَالرِّضَا، يَنْبَغِي أَنْ يَزْدَادَ غَيْرِيَّةً،
وَأَنْ يَضَاعِفَ حُبَّهُ وَرِعَايَتَهُ لِلَّذِينَ حَوْلَهُ. أَمَّا هِيَ فَقَدْ غَدَتْ
أَنَانِيَّةً، لَا تَشْغُلُهَا إِلَّا مَظَاهِرُ تَحَوُّلِهَا. لَقَدْ ابْتَعَدَتْ عَنَّا، وَلَمْ تَعُدْ
تَهْمُهَا مَشَاكِلُنَا وَمَعَانَاتُنَا. انْظُرِي.. هَلْ خَطَرَ لَهَا أَنْ تَسْأَلَنِي
عَمَّا أَقَاسِيهِ؟ هِيَ وَجَدَتْ حَلًّا، وَاسْتَرَاحَتْ فَأَدَارَتْ ظَهْرَهَا لَنَا
جَمِيعًا. أَمَّا أَنَا فَيَنْبَغِي أَنْ أَتَحَمَّلَ مَعَانَاتِي وَحِيدًا.. أَنْ أَلْعُقَ
جَرَحِي بِلِسَانِي دُونَ أَنْ أُنْتَظَرَ يَدًا تَسْعِفُنِي. إِنِّي وَحِيدٌ يَا
ابْتِنِي. كُنْتُ دَائِمًا وَحِيدًا. لَمْ يَخْطُرْ لَهَا مَرَّةً، لَا قَبْلَ الْهَدَايَةِ
وَلَا بَعْدَهَا، أَنْ تَسْأَلَنِي عَمَّا أَعَانِيهِ، أَوْ تَسَاعِدَنِي عَلَى تَضْمِيدِ
جَرَحِي.

رباب : أَتَبْكِي يَا أُمِّي؟ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرَكَ تَبْكِي.. قُلْ لِي مَاذَا

- يوجعك؟ أنت لا تعرف كم يسرني أن أشاطرك الوجع، بل وأن أتحمله عنك إن استطعت. إني معك يا أبي.. وسأفعل كل شيء من أجل راحتك؟
- ياسين : (يزداد بكاءه) هذا الكلام يزيد وجعي. لا أريد أن تكوني طيبة إلى هذا الحد.
- رباب : أأكون للبنت مئة إذا ساعدت أباه؟ دعك مني، وقل لي.. أنت في مأزق؟ أألس في مأزق؟
- ياسين : (يمسح دموعه ويتمخط) لا أدري كيف أسلس لك الأمور.
- رباب : دعك من تسلس الأمور يا أبي، وقل لي أأنت في مأزق أم لا؟
- ياسين : (تعود فتسيل دموعه) ولكنك أصغر من أن تتحمل كل هذه الحيات.
- رباب : (وهي تمسح دموعه بحنان) لا تشغل بالك.. إني أصلب مما تظن. إذن أنت في مأزق...
- ياسين : لقد مدوا لي، وكتبوني بالديون. ولكن صدقيني، إن الديون لا تقلقني، حتى ولو رموني بقيّة عمري في السجن. مازالت لدي أحلام يا رباب. تعهدوا أن ينقذوا كل وعودهم السابقة. سيكون لي اسم وذكر. لن يضيع عملي، ويطويه النسيان.
- رباب : هل أفهم أن موافقتي ستسفي وجعك، وتحل كل المشاكل التي تعاني منها؟
- ياسين : وما يُعرض عليك يا ابنتي، لا يمكن أن تستخفّ به فتاة عاقلة.
- رباب : لو أن الأمر يتعلق بي.. نعم يا أبي.. معك حق.. هذا عرض لا يمكن أن تستخفّ به فتاة عاقلة.
- ياسين : أليس جميلاً أن يعيش المرء في بحبوحة، وأن ينال كل ما ترغبه نفسه؟

- رباب : أتعلم ما الذي كنت أرغب فيه، أكثر من أي شيء في هذه الدنيا؟
- ياسين : ما هو؟! رباب : أحياناً كنت أحلم أننا نرحل معاً، أنا وأنت فقط. ننتقل من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة.. لا نحمل على أكتافنا إلا ربابتك، وأخف المتاع. لا هموم.. ولا منغصات.. نلهو ونضحك كطفلين سعيدين.. أنت تغني، وأنا أعنتي بك، وأحفظ أغانيك.. نأكل حين يتوفر طعام. وننام حين يتوفر مكان. ونأخذ دون حياء ما يعطونه من هبات. قبل أن يأتي عبود الغاوي إلينا.. في تلك الأيام البعيدة، كانت الحياة سهلة، وكانت الأحلام بسيطة وممكنة. الآن.. تعقد كل شيء، وعلينا أن نتكيف مع التعقيد. إنني أقبل عرض عبود الغاوي، وسأكون زوجة له.
- ياسين : أين كنت تخبئين هذا كله.. يا ابنتي؟ لو علمت.. رباب : (مقاطعة) لا تقل شيئاً يا أبي.. اذهب وأخبره أنني قبلت.
- ياسين : آه.. يا رباب.. ضمّدت جرحاً، وشققت في روعي جروحاً لا تضمّد.
- رباب : إذا واصلنا النواح، فلن أتزوج يا أبي.
- ياسين : وأتقّة أنك توافقين؟ رباب : نعم.. إنني أوافق.. ولاتلم نفسك كثيراً.. فأنا أيضاً خدّرتني الرغبات الكثيرة ليلة الافتتاح.
- ياسين : أتحاولين التخفيف عني؟! رباب : لاتعبني يا أبي.. إنني لا أفهمك.. أتريدني أن أرفض؟! ياسين : لا.. يا ابنتي.. ولكن.. رباب : يا الله.. اغسل وجهك، واذهب إليه. أريد أن يصل جوابي اليوم لا الغد.

ياسين

: (وهو ينهض) نعم سأفعل.
(يخرج. تحلق رباب في الفراغ. تغرورق عيناها بالدموع..
وتتلاشى الإضاءة...)

مشهد ٥

(في المخزن، يوسف العلوني وزوجته فاطمة وخلف
الدوري)

يوسف : أراك مبكراً أكثر من العادة.. ماذا تحتاجون اليوم؟
خلف : اليوم لانحتاج تمويناً.. بل نحتاج فتاً.. كيف تجددين هذا
الجواب يا فاطمة!

(يتملاًها) آه.. كم كنت حماراً.

يوسف : دعنا من الرغي، ولا تحدّثني بالألغاز، ماذا تحتاجون اليوم؟
خلف : أتظنّتي أمزح؟ ما نريده اليوم هو الفنّ.
يوسف : أي فنّ؟

خلف : ها.. ها.. أتذكرين يا فاطمة آخر مسرح عرفته هذه الضّيعه؟
كان ذلك يوم أصرّ ابن البدوي، أن يقيم عرسه حسب
العادات القديمة في تلك اللّيلة.. أوقدنا النّار في الميدان،
وعلى دقّات الطّبل والمزمار انعقدت حلقة الدّبكة. تصوّري..
أذكر هذا وكأنّه حدث البارحة. كنت مهرة لم يكد ينها
صدرها..

يوسف : (مقاطعاً) ماهذا! قلت لك دعنا من الرغي، وادخل في
المفيد.

خلف : بالله عليك يا فاطمة.. هل يستحي كلامي وتلك الذكريات
رغياً إلّا عديم الإحساس؟ طبعاً أنت لا تذكر شيئاً عن تلك

الليلة، لأنك كنت مشغولاً بالبيع وعدّ المصاري. أما فاطمة فكانت تقود الرقص كأنها خيال، ووجهها يقرمه لفتح النار، وجسدها يشق كالعجين مع إيقاع الطبل والمزمار.

فاطمة

خلف

: وما مناسبة هذه الذكريات التي تنبشها يا خلف؟
: ها.. ها.. هذا سؤال مفيد. إن سيدي يعتقد أنه كان لدينا فنون جميلة لا يجوز أن تندثر، أو يلفها النسيان. وهو يقول إن السائح لا يأتي إلى بلادنا، لكي يرى ما سئم منه في بلاده. إنه يأتي لكي يرى مناظر جديدة، ويعرف متاعاً غريبة، ويتذوق فنوناً جديدة. ولهذا قرر أن تكون في المجتمع فرقة صغيرة للرقص الشعبي، تميز بالأناقة والبراعة والجمال، وحين طلب مني أن أختار له صبيّة تتقن الرقص، وتحسن التدريب، كي يسند لها مهمة تشكيل الفرقة وتدريبها، تذكرت تلك الليلة، ولاح لي جسدك العجيني على ضوء النار. فقلت له: لا يوجد سواها يا سيدي. سألني من؟ فأجبت: فاطمة زوجة شريكنا يوسف العلوني.

يوسف

خلف

فاطمة

: أقلت له شريكنا؟
: لا تخف.. لا تخف.. أعني شريكه، ما رأيك يا فاطمة؟
: ومن داس على ذنبك، وطلب منك أن تقترحني؟ أتراني فاضية للرقص؟

خلف

: سامحك الله.. أردت أن تميزي، وأن تباهي كلّ الصبايا. وفوق هذا سيكون لك راتب يسيل له اللعاب.

فاطمة

: فقد جسمي ليونته، ونسيت الرقص. أمّا الراتب فإنّي أستغني عنه.

خلف

: السباحة والرقص شيان لا ينساها المرء. وجسدك الذي تفتح وأزهر، مازال ليّناً كالخيزران.. إن سيدي متحمّس جداً لهذه الفرقة، وهو يتعشّم أن تساعد في تكوينها. أخشى أن

- يزعل، إذا قابلتِ حماسته وعشمه بالرفض.
- يوسف : نحن لم نرفض بعد، ولكن أعطنا مهلة كي نفكر، ونتشاور في الأمر.
- خلف : لديكما اليوم بطوله كي تتشاورا. وغداً أرجو أن تكون فاطمة جاهزة، لأن سيدي يعلق أهمية كبيرة على تكوين هذه الفرقة.
- (يخرج خلف. فترة صمت بين الزوجين).
- يوسف : ما رأيك؟
- فاطمة : ما رأيك أنت؟
- يوسف : أنا مثلك لا أشعر بالارتياح.
- فاطمة : إذن لا يحتاج الأمر إلى أخذ وعطاء.. غداً نبّله برفضنا وننتهي.
- يوسف : نعم.. ولكن أخشى.. المسألة ليست بهذه السهولة.. لانعرف ماذا أخبره خلف عنك، وربما أخذ الرفض على محمل الإهانة.
- فاطمة : هل أنت تلفّ وتدور.
- يوسف : بصراحة.. لا أريد أن يزعل عبود الغاوي، ولا أن يشعر بالإهانة من طرفنا.
- فاطمة : والحلّ.. هو أن أقبل العرض.
- يوسف : قلتُ لك.. لا أشعر بالارتياح، ولكن أعتقد أننا لا نستطيع أن نرفض.
- فاطمة : وكيف يمكن أن ترفض رغبة يديها وليّ النعمة؟
- يوسف : لا أفهم سبب نفورك الدائم! نعم.. إنه وليّ نعمتنا. أتعرفين كم بلغت ثروتنا بعد شراكتنا معه؟
- فاطمة : لا أعرف كم بلغت ثروتك من العمل أجيراً في مخازن عبود الغاوي.

- يوسف : (غاضباً) أجبر! هل تتعمدين إهانتني! إنني شريك وليّ الربيع.
فاطمة : ليكن.. أنت شريك. ولكن مقابل هذه الثروة، ألم تلاحظ أننا خسرنا السعادة والهناء؟
- يوسف : ما كنت لنخسر شيئاً، لولا أنكِ امرأة صعبة ونكدة.
فاطمة : أتصفني أنا بالصعوبة والنكد؟ أما كنت تتباهى دائماً بأنّ لديك امرأة عذبة ورضيّة؟
- يوسف : لو تعلمين كم تغيّرت!
فاطمة : وأنت ألم تغيّرت؟! ما رأيك لو قلتُ لك إنّ فرقة الرقص ليست إلا حجة واهية، كي يستدرج عبود الغاوي صبايا الضيعة إلى المجتمع، ويدخلهنّ في عمله.
- يوسف : وتفترضين افتراضات لاتنزل من مسرّب أو غربال.
فاطمة : وإذا صحّت افتراضاتي، هل ترفض وتقول لا؟
- يوسف : يا فاطمة.. هذا الرجل كانت يده بيضاء علينا.. ومهما شكرناه، فلن نوقّيه فضله. إنني لا أعرف سبب نفورك منه. إذا تناسينا افتراضاتك الغريبة، فإنّ ما عرضه الرجل لائق، ولايمسك في شيء.
- فاطمة : إذن تريد أن أقبل.
يوسف : نعم.. يجب أن تقبلي، وليس من المصلحة أن يزعل متاً أو يجافينا.
- فاطمة : طلقني يا يوسف.
(تركه وتمضي)
- يوسف : انتظري.. أين تمضين؟
فاطمة : سأخذ بعض حاجياتي، وأذهب إلى بيت أهلي.
- يوسف : (محاولاً اللحاق بها) تمهّلي، يجب أن نتابع الحديث.
فاطمة : (دون أن تلتفت) منذ زمن بعيد، لم يعد بيننا ما يقال.
(تبتعد مخفية، فيما يقف يوسف بليداً وحائراً).

يوسف : (متمتماً) ما الذي غيرها! أيمكن أن يوجد إنسان لا يحب المال، ولا يسعده الغنى! أيمكن أن يوجد إنسان يدلل الفقر، ويلبظ التّعة! هذا حمقٌ وجنون. نعم.. هي حمقاء ومجنونة.
(تتلاشى الإضاءة).

الفصل الخامس

الزرقاء تبصر، وتروي مقاطع من ملحمة السراب..
نقاشات.. ونهايات..

مشهد ١

(جناح كريمة وزهية في المجمع. كريمة وزهية في أخف الملابس وأكثرها إثارة. الخادم وقد خفت حديثه، وبدا أكثر شباباً. محمد القاسم والشيخ عباس يغوصان في أريكة مريحة، ويبدو عليهما الانبهار والارتباك.

في بداية المشهد يتحرك الشيخ عباس في جلسته، فيختل توازن محمد القاسم الهش، ويميل إليه.. تنبعث أصوات محرجة من جلد الأريكة في احتكاكه المرن مع فخذي الرجلين، يتمايلان لحظات، فيما يزداد تعبير الحرج على وجهيهما حتى يجدا وضعا مستقرا، فيلبدا فيه).

محمد : (هامساً) في طيظك دود! اسكن ولا تتحرك.
الشيخ عباس : (هامساً هو الآخر) غصباً غني.. غصباً غني.. ألا ترى كم هي لينة؟

الخادم : لماذا لاتسترخيان؟ إن الفن الذي نمارسه في المجمع هو فن الاسترخاء. هنا ينبغي أن ننسى قيود العالم الخارجي واعتبارات. ينبغي أن ننسى العيون ونظراتها، المعايير وأحكامها. وأهم من ذلك أن نخلع المراتب، والأسماء، وأشجار العائلات.. وما لأدري من السلاسل والتصنيفات. ولهذا جعلنا في مدخل الجناح حتماً واسعاً، يدخله المرء، كي يغسل كل أدران الخارج، ويزيل قيوده وعلاماته. وحين

يدبّ خدرٌ لذيد في جسده النظيف، وتسترخي أعصابه
وروحه، يدخل الجناح جاهزاً، كي يذوق مباحج وقتٍ لا
تقبسه الساعات، ولا يدخل في دورة الليالي والنهارات.. يا
كريمة.. ألا يوجد غناء؟ ألا يوجد نغم؟

كريمة : ماذا دهاك؟ ألاحظ أنك غدوت خفيف العقل واللسان. ما
الذي تشرحه لزوراننا؟ ومتى كنا نكشف أسرار بيتنا أمام زائر
لا نعلم ماذا يريد؟

الخادم : لن أكابر.. لومك محقّ.. كنت أحاول مساعدتهما على
الكلام. ولكن يبدو أنني أسرفت في اللثّ والعجن.

محمّد : (ناهضاً ومتجهاً نحوه) لا، لا تقل ذلك.. ليتني أملك مقدرتك
على الكلام. لديّ ما يتجمّع هنا (مشيراً إلى يسار صدره)..
نعم.. يتجمّع.. ويلتف، والمصيبة أنني لا أعرف كيف أخرجه
أو أقوله.

الخادم : اهدأ.. اهدأ..
كريمة : ماذا تحمل في صدرك يا ابن القاسم؟ وما الذي جئت تنشده
لدينا؟

محمّد : أرجوك لا تخطئي في فهمي.. ماجئت بنية تشوبها ريبة.
جئت بقصد شريف، وغاية المنى أن ينال قصدي رضاك.

الخادم : الرجل صريح، والقصد واضح.
كريمة : وما أدراني أنها ليست نزوة أو شهوة؟ قل أي شيء.. أريد أن
أسمعك تعبر عما تشعر به. وأن تصف لي هذا الشيء الذي
يكبر في صدرك.

محمّد : (متجهاً إلى الخادم) أنجذني يا ساحر اللسان...
كريمة : أريد ما ينطق به لسانك أنت..

الشيخ عباس : (يحاول أن ينهض، لكنه لا يستطيع لأنه غائص جداً في
الكنبة. يتمايل ثم يميل على جنبه في وضع مضحك) قولوا

- لي.. أنتظرني امتحان مشابه؟! : زهية
 بل سيكون امتحانك أشدّ، لأن لديك السنة لا تعدّ.
 الشيخ عباس : سامحك الله.. تعالي وأنجدني.
 (تذهب زهية إلى حيث يجلس الشيخ عباس، وتشاطره
 الكبة. يميل أحدهما على الآخر، ويتصاحبان).
 كريمة : قلبتم كل شيء إلى تهريج. مازلت أنتظر يا ابن القاسم.
 محمّد : ماذا أقول؟ أستمعين دويّ الطبل؟
 كريمة : أي طبل؟ لا.. لا أسمع شيئاً.
 محمّد : ماذا أفعل. أحياناً أشعر.. بل لماذا أحياناً.. الآن أشعر أن دقات
 قلبي تشبه دويّ الطبول.. وأن الدويّ يصمّ آذان الذين
 يوجدون قربي.
 كريمة : أهذا كل ما لديك؟ دويّ طبول يصمّ الآذان.
 محمّد : وما ذنبي.. إذا كنت لا أحسن الكلام. سأقول لك كيف بدأ
 هذا الأمر. فجأة، وكمن يصحو من رقاد، وجدْتُ وجهك
 أمامي. أينما تطلعت وكيفما اتجهت ثمة هذا الوجه الذي
 يشعّ سحراً وفتنة. في السماء، في الشجر، في الظل، في
 الشمس، في الغيم، في الزرع، في كل مكان، ثمة هذا
 الوهج من السحر والفتنة. ولم تفلح مقاومتي، ولم أعد أجد
 الراحة أو السكينة. فتكّ سحر كبي، وجزّني كالمذبوح أقفو
 أثرك، وأعدو ورائك.
 الخادم : كلامٌ جميل، وتعبير يحزن ويفعم، لأنه يخلو حتى من احتمال
 الكذب والتدليس.
 الشيخ عباس : عوّضت عن التأثّة يا ابن القاسم، ولم تترك لغيرك ما يقوله.
 كريمة : مسّني كلامك، وحرك في داخلي وترّاً كنت أحسبه غافياً أو
 مقطوعاً. أشعر ضعفاً في ساقتي (تمسك يده) تعال نجلس..
 (يجلسان) والآن.. ماذا تريد مني؟

- محَمَّد : أريد أن أطلب يدك.
 الخادم : أجنثت تطلب فقط؟
 محَمَّد : ماذا تعني؟
 الخادم : في مثل حالتك ينبغي أن تلّوح بالعطاء قبل أن تطلب.
 محَمَّد : هل أعتبره وكيلك؟
 كريمة : إنه وكيلنا معاً.
 محَمَّد : ألسْتُ من مقام السيد عبود الغاوي حتى يرسل لنا خادمه!
 كريمة : لاتخطئ فهم الأمور يا حبيبي. ابتعد عبود كي يجنّبنا،
 ويجنّب نفسه الحرج.
 محَمَّد : هل قلت يا حبيبي!
 كريمة : أتريد أن أعيدها؟
 الخادم : لم تجبني على ملاحظتي.
 محَمَّد : إن كنت تقصد الحديث عن المهر وما شابه، فإن كل ما لديّ
 تحت تصرفها.
 الخادم : هذه مجاملة لا عطاء.
 محَمَّد : لا.. إني أعنيها. وأقول بملء فمي.. إني أقدم لها كل ما
 أملك.
 كريمة : (وهي تلاعب محَمَّد القاسم) هذا هو الرجل الذي يملأ قلب
 المرأة، وعينها، وحضنها.
 الخادم : وأنت يا شيخ عباس ما عدنا نسمع لك صوتاً أو نفساً؟
 الشيخ عباس : لا تخف.. إني حيّ.. وإني في مكاني..
 زهية : حان دورك كي تعبّر عن مشاعرك.
 الشيخ عباس : ماذا أعتبر؟ أذكّرني ذلك اليوم في المخزن، حين جلّلتني العرق،
 وتبلّل شاش عمامتي؟ كان ذلك غريباً. كان كالرؤيا. المكان
 غريباً. كان كالرؤيا. المكان غريب، والزمان عجيب، وأنا
 كالماخوذ أكتشف بهاءك، وكأني أراك لأوّل مرّة في حياتي.

إنها ساعة غريبة تغير كل شيء بعدها. كنت أعلم أن التعلق بهذا البهاء ذنب ومعصية. وكنت كلما ازددت علماً، ازددت تعلقاً. وفَلَّتْ أمري من يدي، وعرفت أن هذا الحب قَدَرٌ لا يرُدُّه دعاء أو صلاة.

الخدام : أبدعت يا شيخ. هذا الحب لا تبتكره، وتودعه في القلب إلا يد شيطانٍ بارع، شيطانٍ متفرِّغ للعشق وفنونه.
الشيخ عباس : إني أحب من وهبني هذا الحب، حتى ولو كان الشيطان نفسه..

زهية : أتعلم أن كلامك أثار نملاً في ظهري، وأرعشني. أتريدني كما أراد ابن القاسم كريمة، وعلى شرطه؟

الشيخ عباس : نعم.. وهذا يعفينا من التكرار.

الخدام : أعطني كل ما لديك يا شيخ عباس؟

الشيخ عباس : وفوق ما لدي هذه العمامة.

الخدام : لا.. لانستطيع أن نستغني عن بركات عمامتك، وفوائدها العظيمة، فنبسها على رأسك، وحافظ عليها حتى هنا. سنحتاج إليها بعد قليل، كي نبرم الموائيق. ستعقد نكاحك على زهية، ونكاح محمد القاسم على كريمة، وسأكون الشاهد.

الشيخ عباس : ينقصنا شاهد ثانٍ.

الخدام : لاتخف.. إن عبد الرحمن الدرويش لا يكاد يرح طاوله الروليت، ويمكن أن نحضره خلال دقائق. لكن قبل أن نبدأ الاجراءات، أريد أن أقول لكما بضع كلمات. منذ اليوم ستبدأان حياة جديدة، حياة فيها من المباهج واللذات ما لا يستطيع أي منكما أن يتخيله. لكن اللذة لا يتمها في هذه الدنيا، ويغذيها إلا وفرة المال. وأنا حين اقتضيت أن يسلم كل واحد ما يملكه لقرينته، وأن يعطيها العصمة وحرية

التصرف بالمال، فما ذلك إلا لأنني درّيت هاتين الساحرتين على السبل التي تضاعف المال، وتزيد الثراء ثراءً. ستخذان من أموالكما منطلقاً ورأسماً، ومن وجهة الاسم والمقام حماية وغطاء، ووسط آهات اللذة، وفورانها في العروق، ستبنون المشاريع التي تربو بها الأموال، ويتعزز من خلالها النفوذ والوجاهة والمقام.. وأوّل مشروع أقترح أن تبدأوا به، هو شراء المخزن الكبير، وتوسيع قاعاته وطبقاته. وفيما بعد ستجدون المشاريع تقترح نفسها عليكم دون حيرة أو عناء. أنتم منذ اليوم حزبي، وسأرعاكم رعايتي لسيدي.. والآن.. يمكنكم أن تذوقوا المتع الباكورية، ريثما أخلع عبد الرحمن الدرويش من مكانه حول طاولة الروليت.

(يخرج الخادم. تخفت الإضاءة ويتغير لونها. تسيل موسيقى فيها إيقاعية مثيرة. ترقص كريمة، ثم يتبعها الشيخ، ثم يتعانق الزوجان ويحتل كل منهما ركناً. تتلاشى الإضاءة ببطء).

مشهد ٢

(المصطبة الكائنة في دار الزرقاء. فاطمة الموعى والزرقاء وبسام
الراضي يجلسون على الحصيرة المفروشة. وهم يتناولون
الشاي بصمت وشرود. تعوم في الجو موسيقى أغاني شعبية
موزعة توزيعاً جديداً يفسد صفاء إيقاعاتها، وجملها الموسيقية
المألوفة).

بسام : زرت كل الناس الذين أعتقد أنهم يقدرون رأيي، ورجوتهم
ناصحاً ألا يرسلوا بناتهم إلى فرقة الدبكة وشبهاتها. تصوّري
يا خالة.. لم يقبل نصيحتي إلا رجل أو اثنان. أما الآخرون
فقد كانوا يتهرّبون من النظر في عيني، ثم يتمتمون.. أعطينا
كلمة، والرجل عند كلمته. ماذا حدث! أيمكن أن تعمى
بصائر الناس إلى هذا الحد!

فاطمة : جمعت الفرقة كل صبايا الضيعة. لم يقاوم الفكرة إلا أبو
راغب وبيت الضرغام.

الزرقاء : (وهي تضع ذراعها على كتف فاطمة وتشدها إليها) هذه
الحرّة قالت لا.. ولم تبالٍ بالعواقب. حياكِ الله يا ابنتي.

فاطمة : لم أفعل إلا ما وجدته صواباً.

بسام : وبدلاً من أن يقدّر الناس هذا الموقف، ويقتدوا به، واجهوه
بالاستخفاف، وحاولوا الخطّ من شأن فاطمة وقرارها.

فاطمة : (ضاحكة) نعم.. واحدة تقول إنني موضة قديمة، وأخرى تقول

إني عاشقة، وأبحث عن سبب للطلاق، وثالث يسخر قائلاً:
«.. الله يطعم الحلاوة لمن ليس له أضراس».. وأشياء أخرى كثيرة.

الزرقاء : هذه الصغائر لا تستحقّ إلاّ الضحك. لن يضيع موقفك الشجاع يا ابنتي، وسيأتي وقت يتذكره الناس، ولو بعد فوات الأوان.

بسام : (غاضباً) أما الآن.. فعلينا أن نعترف بالعجز، وبأننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً في مواجهة هذا التدهور الذي يجرفنا.

الزرقاء : (ببطء وشرود) كان عندي ولدان، أحدهما قال: لا.. فقتل، والثاني قال: نعم.. فانتهى إلى السجن والضيق. إن الشيطان مقيم في هذا البلد. أكاد أراه أو أشمّ رائحته.

فاطمة : وأنا أيضاً يساورني هذا الإحساس يا خالة.
بسام : أعود إلى الشيطان وخرافاته؟ إني أقدر بصيرتك يا خالة، وكذلك أقدر معاناتك. لكن الشيطان لا يؤثر إلا على نفوس تهتأت للإصغاء إليه وطاعته، أو إذا شئت.. نعم هناك شيطان. إنه هذا النظام التابع والخادم للسادة الأجانب، الذي امتصّ ماء الحياة من شعبه، ونهب خيراته، وحوّل البلاد ملهى للأجانب والأثرياء، وسوقاً للتبديد والاستهلاك.

فاطمة : يوم الافتتاح حضرت الدولة كلها تقريباً.

الزرقاء : إن ألعايب الشيطان معقدة، ولا أستغرب أن تكون إحدى

ألعايبه سلسلة طويلة مترابطة الحلقات، تبدأ من مكان بعيد وتنتهي بنا. ولكن إذا كانت الدولة، وهي إحدى صنائع الشيطان، هي التي تفعل بنا ذلك، فهل تستطيع أن تقاومها؟

بسام : لاتسدّيها في وجوهنا يا خالة.. أيعقل أن يساق شعب إلى الذبح، فلا يقاوم. بل يمضي باسماً وكأنه ذاهب إلى حفلة زفاف؟ أيعقل أن نغدو سيرة هزيلة وباهتة. سيرة شعب يمضي

فاطمة : مع كل ريح لأنه نسي الرفض، ولم يعد يعرف إلا الموافقة!
وهل يعلم يا بسم أنه يساق إلى الذبح؟ أنت لم تر ما عايته،
وعجبت له أثناء وجودي في المخزن. لن أنسى ما حييت
عيون الناس، وهي تجول بين المعروضات. عيون تبرق،
وتتراقص، وتكاد تنط من محاجرها. إن الدهشة والإغراء
والوعد هي القوة التي تخدّرهم، وتسوقهم في الاتجاه الذي
تريده.

الزرقاء : أينبغي أن أسرد حكايتي مرّة أخرى.. كان لي ولدان..
بسم : (مقاطعاً) والمغزى يا خالة!
الزرقاء : اهدأ.. ولا تهوّر. العاصفة عاتية وستأخذ حذّها.
بسم : أنستسلم ولا نفعل شيئاً؟
الزرقاء : الطريق الذي حدثني عنه مرّة، ليس الآن وقته.. ذات يوم
سيلمس الناس أنّ ما تدافعوا نحوه، لم يكن إلا الموت
والخراب. وعندئذ سيحتاجون من يزودهم بالمعرفة، ويدلّهم
على مخرج.

فاطمة : أتريد أن أصبّ لك شاياً؟
بسم : (شارداً) لا أدري.. عفواً.. عفواً (يمدّ لها الكأس فارغة) إذا
أمرت. هل أبصرت شيئاً جديداً يا خالة؟
الزرقاء : لا.. لم أبصر إلا ما أخبرتك عنه، وأدعو الله ألا أبصر شيئاً
بعد.

(يدخل أديب الناطور).
أديب : (وهو يقترب منهم) أنهيت لك المعاملة يا خالة، فحضّري
البشارة. أعانك الله على هذا الـ مروان. أزهرق روحي قبل أن
يعطيني التفويض. طلب أولاً أن أكتب له تعهداً بأن حصّته
من المال محفوظة، وبعد أن كتبت له التعهد ووّدعته، ناداني
وطلب أن يشهد توقيع مدير السجن ومعاونه. الخلاصة..

أتينا بهما، ووثقنا على التعهد كما يشتهي. المهمّ المعاملة الآن جاهزة، فإن شئت أن تقبضي الفلوس أحضرها لك غداً، وإن شئت أن توظفيها لدى السيد عبود الغاوي، حملت لك إيصالاً، ودفعة أولى من الأرباح.

الزرقاء

: عافاك الله.. تفضّل واجلس.. صبي له الشاي يا ابنتي.

أديب

: لا تعبي نفسك يا فاطمة. شايك مشروب يا خالة، ولكن

ماذا قلت؟

الزرقاء

: أفضل أن تحضر لي المال.

أديب

: من عينيّ يا خالة. غداً يكون المبلغ بين يديك. أما زال

الأستاذ ناقماً على التقدّم الذي تشهده البلد!

بسام

: أتسمي ما يشهده البلد تقدماً؟!

أديب

: وماذا يكون التقدّم إذن! خلال برهة وجيزة من الزمن تغيّر

البلد، وازدهر من كل النواحي.. العمرانية والمعيشية والمالية.

بسام

: أهو تقدّم وازدهار، أن نبيع أراضينا التي كانت تطعمنا، كي

نشترى بشئها طعاماً مستورداً، وأجهزة تخطف العقل

والطاقة! أهو تقدّم أن يتحوّل الفلاحون إليّ خدام وماسحي

أحذية! أهو تقدّم أن تنهار القيم، وتتفكك الروابط بين

الناس، ونغدو جميعاً سلعاً في هذه السوق المتوحشة! أهذا

هو التقدّم والازدهار يا أديب؟!

أديب

: فصاحتك لاتعكس إلا عقلية محافظة، تتوجّس من الجديد،

وتخاف من المغامرة. هناك عاقل يذرف الدموع على

محصول متقلّب من الكوسا والبندورة، حين يكون البديل

مشروعاً يوفر فرص العمل، وينشط دورة المال والثروة! لقد

جرّبتنا الانغلاق، ولم ينلنا منه إلا الفقر والحاجة، وحين قرّرت

السلطة، بحكمتها ويّعد نظرها، سياسة الانفتاح، كانت تحيي

البلد، وتوفّر الشروط الضرورية لتحديث الاقتصاد، وعصرنة

المجتمع، انظر.. في برهة من الزمن، بدأت تتكوّن الثروات،
وطالت النعمة من لم يكن يحلم بها.

: من يسمعك يظن أن أغلبية الناس غدت في الثراء واحدة.
كل الذين أثروا، هم بضعة أشخاص من السماسرة
والانتهازيين.

بسام

: ولم لا تقول من الأذكياء والناجحين؟ إن الفرص متاحة أمام
الجميع، وتلك أهم مميزات هذه المرحلة. حتى أنت.. سأحمل
إليك الفرصة رغم نعمتك، وتذكرك الدائم. إنني بحاجة إلى
رجل أمين يضبط حساباتي، وإذا قبلت سيتوفر لك عمل
إضافي يدرّ عليك أضعاف راتبك الهزيل.

أديب

: أتريد أن أعمل عندك؟
: ولم لا! إنني أقدم لك الفرصة، كي تتذوق الحياة الرغيدة،
التي تزديها جهلاً وحسداً.

بسام

أديب

: هذه فرصة أم رشوة؟
: ولماذا أحتاج لرشوتك؟ إنك تبالغ في تقدير أهميتك يا بسام.
نحن نعرف كل ما تقوله، وما تفعله، وإذا كانوا يتسامحون
معك حتى الآن، فلأنهم مازالوا يحترمون علمك، ويأملون
أن تثوب إلى رشدك.

بسام

أديب

: ها نحن ننتقل من الترغيب إلى التهيب.
: لاستخفّ بما أقوله يا بسام. هذه التغيرات التي لاتعجبك،
هي خيار نهائي. وكبار المسؤولين يستون ما يحدث ملحمة
التقدم. ويبدون تصميماً حازماً على بتر من يحاول عرقلة
هذه الملحمة. وأنا لم أعرض عليك تلك الوظيفة خوفاً منك،
بل لأنني أريد منفعتك، وأتمنى ألا تهدر مواهبك في النعمة
والحسد.

بسام

أديب

: أشكر غيرتك، وأعتذر عن قبول عرضك.

بسام

أديب : (وهو ينهض) ليكن.. إن رؤية الأذكىاء، وهم يرفسون النعمة،
تملأ الصدر أسفاً وغماً. وحولك يا خالة اثنان من هؤلاء
الأذكىاء، وإن واحدتهما يليق بالآخر.
الزرقاء : أرجوك يا أديب.. لا أقبل أن تطيل لسانك في بيتي.
أديب : لا عليك يا خالة.. فأنا منصرف.

(يخرج أديب)

بسام : هذا التشدق يستفز الحجر. إنهم يتلاعبون بالمفاهيم على
هواهم. يسمون المصيبة نعمة، والانحطاط تقدماً وازدهاراً.
فاطمة : وهم ينوون أن يتروا من يخالفهم.
الزرقاء : ولكن في كلام أديب فلتة لسان، هزتني كأنها إلهام رباني
مباغت. لقد ربط بينكما، وعرف أن كلاً منكما يليق
بالآخر، فماذا تقولان؟

بسام : قبل فلتة اللسان، وهذا الإلهام يتراقص في القلب أملاً وأمنية.
أسألها يا خالة.. هل تبادلني الأمل والأمنية؟

الزرقاء : هل أسألك يا فاطمة؟
فاطمة : لو لم يكن ما تريه خيراً لنا، لما جاءك الإلهام.
الزرقاء : لا يكفي الاعتماد على رأيي وإلهامي. أتميلين إليه؟ أبادلينه
الأمنية والأمل؟

فاطمة : إنني أخجل يا خالة.
الزرقاء : فهمت.. فهمت. وأدعو الله أن تكون ساعة خير. ليحافظ

كل منكما على نفسه وعلى الآخر. إن الزمن صعب، ولكن
معاً ستكونان أقوى على اجتياز الأيام الصعبة، وتحمل الأذى،
لاتتهورا، ولاتستسلما، ولا تهملتا حصتكما من النشوة
والسعادة. هذا مالدي، وزواجكما لحظة فرح لم أكن
أتوقعها.

بسام : كيف أشكرك يا خالة؟

(تطوّق الزرقاء بذراعيها بساماً وفاطمة. تضمّهما إلى صدرها.
يغدو الجميع كتلة من الانفعالات وجيشان العاطفة، تتساقط
دموع من عيني الزرقاء).

فاطمة	: أتبكين يا خالة!
الزرقاء	: لانبالي.. إني أبكي من الفرح.
	(تتلاشى الإضاءة)

مشهد ٣

(كرم التين. ياسين يتخبط متعثراً بخطاه وهو يمشي في الكرم.
وفي يده زجاجة خمر كبيرة. يتجه نحو التينة الوارفة الغصون
التي تشبه الخيمة الخضراء).

: (يدندن)

ياسين

حكينا غَ الوفا وكنا غَينا القلوب المخلصة زايد غَينا
وياما يا ما غَشَّتْنا عَينينا تفرجينا بحر يطلع سراب
(يسقط تحت التينة الوارفة الغصون، ثم يحاول بإعياء
الاعتدال في جلسته، اللهجة ممطوطة. وأحياناً غير مفهومة، إن
السكر يتعمه).

: بعث اللحم والدم بالورق.. بعث لحمك ودمك.. بعث الرقة
والطهارة.. بعث أجمل وألطف ما لديك.. بعث ابتك..
بعث نفسك.. بعث ربابتك.. أخذوا كل شيء وأعطوني
رزماً من الورق.. (يبدأ بإخراج الرزم المالية من جيوبه) هذه
رزمة لشلالات الليل على رأسها. وهذه رزمة للتقاطيع
البديعة. هذه رزمة للصبا والشباب. هذه رزمة للجمال..
هذه رزمة لفورة الحياة.. هذه رزمة لـ.. خزاك الله يا ياسين..
(يتصاعد غضبه، يخرج ما تبقى من الرزم، ويومئها بحركات
غاضبة. يتناول جرعات كبيرة ومتلاحقة من زجاجة الخمر) وما
فائدة الغناء بعد أن خسرت نفسك وروحك.. لن يخرج من

ياسين

حنجرتك بعد اليوم إلا النحيب والعيول.. (يودّد دون غناء).
أعمى وتاه بهالدني، مالو رفيق وتوّه معو قلبو^(٥)
فلتت عصاتو العمتدلوغ الطريق ودّ عفر بدربو
يا ناس.. يا هو.. ياسين باع ابنته ولم ينسكب العرق من
جبينه.. ضيّع أحلى ما عنده.. ولم يبق له إلا أن يبكي على
حاله.. (بحركات هادئة وطقسية يتناول جرعة من الخمر،
يتحنح ثم يغني بصوت محشج أو مذبوح).
شارد بعتم الليل مكسور الجناح يشهق من جروحو
بتلسع ضلوعو كرايج الريح بتبكي معو روحو
تعبان، تاكي العنق، هدتو السنين وعصّت ع إيامو
يتعت حلمو بسوق الدالين بنته اللي من دمو
هادا المغني اللي جرح ضلوع الغياب وهيّج ضلوعو
رمي على الأرض.. أنا الشاعر.. (جرعات متلاحقة وعصية
من الخمر) شاعر باع الإلهام.. باع اللحم والدم.. باع لحمه
ودمه.. من أجل (يتفض، ينهض، ويدوس بحركات غاضبة
ولها إيقاعية الرقص، رزم الأوراق النقدية) من أجل هذه.. من
أجل أوراق الحيسة.. من أجل أوراق المعصية.. من أجل أوراق
الوهم.. من أجل العريض الزائل والمظهر الكاذب.. من أجل
ضياع النفس وغربة الروح.. من أجل السراب.. السراب..
(يعلو الزيد فمه، يصفر وجهه، وتغمر جبهته حبات من العرق
البارد. تتلاحق أنفاسه. يتمدد على الأرض بهدوء، يضع يده
اليمنى على صدره متوجعاً، يتحوّل لهائه إلى مايشبه
الحشرجة.. وتتلأشى الإضاءة).

(٥) استمرت هذه الأبيات مع بعض التصرف من الشاعر ميشيل طراد

مشهد ٤

(مكتب عبود الغاوي في المجمع. المكتب عصري جداً. ومجهز
بشاشات تلفزيونية تكشف كل ما يدور في المجمع. نلاحظ في
المكتب مزهريه سوداء وفيها وردة صفراء نضرة الأوراق
واللون. عبود الغاوي والخادم).

- الخادم : هل ثَقَبَتِ اللؤلؤة؟
عبود : لن أفعل قبل أن أبُذِّدَ نفرتها، وأهدئ جموحها.
الخادم : لماذا لاتدعني أساعدك؟
عبود : لا.. لا أريد أيَّ عون. أعتقد أن هذه الفتاة هي قطا في
الأخير، وسأجني الثمرة بنفسِي، وبما أملك من الصبر
والتمهّل.
الخادم : لم يبقَ متسع للتمهّل والصبر، إن الوقت يحثُّنا.
عبود : منذ أسبوع وأنت تستعجلني. قل لي.. لماذا يحثُّنا الوقت؟
الخادم : لأننا أنهينا مهمتنا، وتجددنا.
عبود : تجدّدنا؟
الخادم : منذ فترة وأحوالك لاتعجبني.. أراك تشرّد كثيراً، وأحياناً
تنسى. ألا تذكر أنك كنت تحسّ ديب الضعف في
مفاصلك، وأنت طلبت مني، أن أجدّد حيويّتك وقواك؟ ألم
تلاحظ أنك استعدت بعضاً من شبابك، وأن الدم ينبض حثّاً
وقويّاً في عروقك! حتى أنا لم أحرم نفسي من بعض

- التجمل.
- عبود : هل تتخيل ما سيكلفه هذا التجدد، الذي ترزقه لي، من خراب وضحايا.
- الخادم : ومتى كنتا نهتم بمسح الخراب، وإحصاء الضحايا!
- عبود : أما كان يمكن أن تتجدد إلا على أنقاض هذه البلاد البائسة والتعيسة؟
- الخادم : لا أعرف سبيلاً يجدد القوة بعد ضعف، دون أن يخلف وراءه خراباً وضحايا. أو لكي أكون دقيقاً.. هناك سبيل واحد.
- عبود : (بلهفة) ما هو؟
- الخادم : وزع أموالك، واذهب للعمل في مصنع أو في حقل. إن الجهد والعرق سيقويان عضلاتك، ويعيدان إلى وجهك الصحة والنضارة.
- عبود : هل بعثك روحي وعقدت معك ميثاقاً لأعود عاملاً أو فلاحاً. لماذا لا تحاول فهمي؟
- الخادم : إن الود الذي أبداه هؤلاء الناس لي والآمال التي علّقوها عليّ، كلّ هذا يجعلني أشعر بما يشبه الغصة.
- عبود : ألا تذكر حين كنت تدقّ على صدرك، وتقول لي.. هنا يوجد صخر لا قلب!
- عبود : (شارداً) بعض الآهات.. بعض النظرات.. تجعل حتى الصخر يلين. وفي النهاية لاتنس أنهم أهلي وقومي.
- الخادم : ما الذي جعلك تتذكر الآن أنهم أهلك وقومك! أما حذّرتك من الانزلاق إلى التعاطف! إن مالك هو وطنك، وإن الأعمال هي أهلك. ولا مجال في عالمنا الرجائحي لحققان القلب، وتهذج العواطف. اسمع.. كنت تحسّ الضعف، وطلبت أن تتجدد. وكان يمكن أن أكتفي بإحضار برشامة

مقوية مما يتوقّر في صيدلية السحر والتعاويذ. ولكن التفاني دفعني إلى تلبية رغبتك الخفية في ابتكار علاج يضمن لك تجدد الحيوية والقوة، مادام في الأجل بقيّة، هل تدرك الآن ضخامة المهمة التي ألزمت نفسي بها.. لامجال للتأوّب والتراخي.. وحين أقول إن الوقت يحثّنا، فهذا يعني أن علينا أن نكون غداً في الطائرة التي تعبر بنا المحيطات.

: غداً!

عبود

: نعم.. غداً. وكل شيء جاهز. بيع المجمع للمسؤول الكبير، ووزعت الأراضي مقاسم لبناء فيلات وشاليهات للاستجمام، وحوّلت الأموال إلى الخارج، ولم يبقَ إلا أن نودّع شركاءنا، ونصعد الطائرة.

الخادم

: هل فعلت هذا كلّه دون علمي؟ قل لي.. من يخدم الآخر؟ أنا أم أنت؟

عبود

: كلانا يخدم الآخر. لكن المشكلة هي أنك تتأخّر أحياناً في التقاط أفكارك الشخصية. وبالمناسبة هل تنوي أن تغيّر العادة التي درجنا عليها، وأن تصطحب الفتاة معك؟

الخادم

: نعم.. سأصطحبها معي. ولكن.. اصغ إليّ. لا أرى أن بقاءنا هنا، ولو لفترة، يتعارض مع المهمة التي ألزمت نفسك بها. إن أرباحنا الآن ضخمة، وستزداد كثيراً مع ازدهار العمل، وليس هناك ما يضطرنا لابتلاع أموال الناس.

عبود

: ماذا دهاك يا سيدي! هل تقلّص طموحك إلى إدارة ملهى صغير، وفي بلد صغير؟ أنسيت من نحن! أنسيت أننا أرصدة وأسهم وودائع وحركة سوق! طبعاً.. كان نافعاً لدمك ودمي الملايين التي كسبناها في هذه الزيارة، ولكن هل جئنا إلى هنا من أجل هذا الربح العابر! طبعاً لا.. لقد جئنا كي نجد

الخادم

علاجاً للتجدّد.. ونضمن تدفق الدماء من هذه البقاع الفتية،
إلى عروقنا التي استهلكها الإسراف والشيخوخة. طبعاً. لم
نيسر الفرصة لثراء عدد من الأعوان إلا لكي نزيّن صورة
السوق، ونضمن نزوح الأموال والفوائد إلينا، ولم نبتلع أموال
الناس لحاجة، بل لكي نروّضهم على الخضوع لجيروت
السوق وتقلّباته.. أف.. من السخف والتفاهة أن أشرح هذه
البدايات.. وأمامك أنت بالذات.

: إنك تجعلني أشعر بالاكتئاب والقرف.

عبود
الخادم

: لا أدري كيف أفسر موقفك! أهو تلاعب، أم نوبة ضعف
عابرة! من أين تعتقد أنني استقيت تركيب العلاج الذي
حدّثك عنه؟ لقد استقيته منك، من الأفكار التي كانت
تتوالد في رأسك. لعلّي كنت أسرع منك في القراءة. لكنّها
كانت تتوالد في رأسك كالإلهامات وأتلقاها أنا بدوري
كإحياءات باهرة.

: أنا مكشوف إلى هذا الحدّ؟

عبود
الخادم

: أنت تعلم يا سيّدي أنّ أيّاً منا لا يستطيع أن يخادع الآخر.
وحين شكوت لي إحساسك بالضعف ورغبتك في التجدّد،
كنت تتخيل ولو على نحو غامض هذا العلاج الذي جرّبناه
هنا، وكنت تصفّي حسابات الطفولة، وتنتقم من الحجر
الذي رماك به محمد القاسم. وأنت تعرف ما آل إليه.
وكنت ترى عذراء بارعة الجمال، ستقول عنها ككل مرة
هذا قطا في الأخير..

: ملعون أنت. أحسّ أنك تتغلغل في تلافيف دماغي.

عبود
الخادم

: إنني أمارس مواهبي وقدراتي.

: وماذا فعلت كيلا ينهار البناء بعد رحيلنا؟

عبود
الخادم

: نعم.. هذه هي اللهجة التي أحبّ رنينها. لاتخف صار لنا

حزبٌ سيتفاني في الحفاظ على عملنا وضخّ الدم إلى عروقنا.
ولاني أُنبتُ أن يسطع نجم أديب الناطور سطوعاً قد يتجاوز
هذه البلاد. أما المرأتان فقد تكشف لديهما مواهب لم تكن
تخطر على بال.

عبود : إذن لن تتوقّف العجلة بعد سفرنا.
الخادم : دارت العجلة، ولن تتوقّف بعد اليوم، والآن أخبرني ما سبب

كأبتك، ونوبة الضعف التي ألمت بك؟
عبود : (نافذ الصبر) أوه.. لاشيء. الحنين والشفقة، ورؤية عيون
الناس النديّة بالودّ واللهفة، وجمال الفتاة، وحزن الأب، و...

في النهاية أنا إنسان، ولدني لحظات ضعف ومشاعر.
الخادم : لانتسّ أنك تنازلت لي عن الإنسان فيك. ولاني أتوجّس كثيراً
من الخيانة.

عبود : لست مَن يخونون، أو ينسون. وهذه الماحكة أرهقتني. هل
رتّبت شؤون أختي وحمايتها؟

الخادم : لأحتاج إلى توصية.

عبود : وتغطية سفرنا دون أن يعرف أحد في القرية؟
الخادم : كل شيء مرتّب، فلا تشغل بالك.

عبود : إذن إذهب وهتئ موكب السفر.

الخادم : حاضر.. (يشير إلى إحدى شاشات التلفزيون، وهو يخرج)

انظر إلى ابن الدرويش، لقد خسر ما فوقه وما تحته في
الروليت.

عبود : وهل زوّدنا المكان بالروليت إلا من أجل هذا؟

(يخرج الخادم مشرحاً. يتابع عبود بنظرات شاردة ما تبثّه
الشاشات.. ثم تلاشى الإضاءة ببطء).

خاتمة

(في أحد دروب القرية، والليل ما يزال في أوله.
تبدو الزرقاء في حالة غرية من الانخفاف والذهول. تسير
حاسرة الرأس، متعثرة الخطوات، ويوشح قسما وجهها
تعبير حاد من الخوف والفكك. يتبعها شخص أو شخصان،
ثم يزداد العدد حتى يتحول إلى حشد صغير).

: (وهي تجر ساقها) هذا المساء راودتني الرؤيا. وينبغي أن
أخبركم ماذا أبصر. لا يجوز أن أكنمه. لا.. لا يحق لي أن
أكنم عنكم ما أراه. اللهم صلّ على النبي.. أبصر عاصفة
رهية تتقدّم. والناس طفل وحيد في العراء. ليس هناك من
يحييه وليس هناك ملاذ يلجأ إليه. والعاصفة الرهية ترمجر
وتتقدّم.

الزرقاء

(يتكوّن حولها حشد من الرجال، تميز بينهم ضرغام وخلف
الدوري ويوسف العلوني وآخرون).

: ماذا تخبر الزرقاء؟

يوسف

: إنها تتوّعدنا بالأهوال.

ضرغام

: احذروا.. ما أخبرت الزرقاء عن شيء إلا وقع.

رجل عجوز

: اللهم صلّ على النبي.. إني أبصر، وليت النور ينطفئ في

الزرقاء

عيني، ولا أبصر ما أبصر. سافر عبود الغاوي، ومعه قرينه
الشيطاني، وأحلى صباياكم.

- خلف : هذه شائعة مغرضة..
- رجل عجوز : دعنا نعرف ماذا تبصر.
- الزرقاء : (تكرّر جعلها بصوت عميق، ورقابة طقسية) اللهم صلّ على النبي.. سافر عبّود الغاوي ومعه قرينه الشيطانيّ وأحلى صباياكم. باع كل شيء من المخزن إلى المجمّع.
- يوسف : (يمسك كفها بيد قاسية، ويهزّها) ماذا تقولين أيتها البومة.
- خلف : أنتهمين عبّود الغاوي بالسرقة! والله لئن تماديت، لأهتكن هذه الشيبة!
- الزرقاء : (لامبالية.. تابع بالنبرة الطقسية نفسها) اللهم صلّ على النبي.. سافر عبّود الغاوي، ومعه قرينه الشيطانيّ، وأحلى صباياكم. باع كل شيء من المخزن إلى المجمّع، وسافر.. نهب الأراضي والأموال، وسافر.
- أصوات : أتبشّرنا بخراب بيوتنا؟
- هذا اختلاق وكذب.. إنها تخزف.
- إذا صخّ مآقالته ضعنا.
- إنها تلقي علينا فالأ سيئاً.
- الزرقاء : (بإصرار ولا مبالاة) اللهم صلّ على النبي. نهب الأراضي والأموال، وسافر. أبصر دهشة وذهولاً. أبصر ناساً يتراكضون..
- أصوات : لاتتابعي.
- من طلب منك أن تتنبأي؟
- إنها ترمي علينا تعويذة الخراب.
- (ترتفع حدّة الغضب. يحاصر الرجال الزرقاء. ينشب خلف يده في عنقها. يبدأ الرجال بضربها. تسقط على الأرض، فيتكوّمون فوقها).
- أصوات : (مختلطة.. غاضبة.. متقطّعة)

- تريد خراب بيوتنا.
 - الشيطان يتكلم من فمها.
 - توقفوا! والله عيب أن تمدوا أيديكم عليها.
 (يأتي بسم وفاطمة راكضين. يبدأ بسم فوراً بمعاركة الناس
 وإبعادهم عنها).

بسم : ابتعدوا عنها.
 فاطمة : ألم تبق في النفوس نخوة!
 بسم : العمى.. وحوش البرية أشد رافة منكم!
 فاطمة : يا عيب الشوم.. تتمرجلون على عجوز!
 بسم : اذهبي يا فاطمة ونادي المختار.
 خلف : ومن ييالي بالمختار?
 رجل عجوز : عيب.. والله عيب أن تُضرب الزرقاء.
 صوت : تتبأت بالخراب، ورمت علينا فألاً سيئاً.
 الزرقاء : (بصوت متحشرج) أبصر أناساً يتراكضون وسط سحابة من
 الصياح والعويل.
 صوت : (يتاهى من بعيد قوياً وفاجعاً) يا ناس.. يا هو.. علمت أن
 الغاوي هرب بأرزاقنا وأموالنا..
 (يتجمد الرجال، وكأن صعقة أخذتهم. بعد فترة..)

أصوات

: (متجلجلة وخائفة)

- أخشى أن أصدق ماسمعت

- صَحَّ ما تتبأت به.

- لا دخان بلا نار.

- ولكن ماذا ننتظر؟ هيا بنا.

- هيا..

: صدقوني.. ما هي إلا شائعات مغرضة.

: حل عتاً يا كلب الغاوي!

خلف

صوت

(يتخلص الرجال من جمودهم، ويتراكمون باتجاه الصوت).
: أتصفني بالكلب؟ أين تمضي؟ انتظر..

خلف

(يجري وراء الرجل الذي شتمه. يتماسك معه، لكنهما لا يتوقفان. يخرج الجميع، وهم يجزّون وراءهم زوينة من الضوضاء والصياح.

الزرقاء ممدّدة على الأرض، والدماء تنزف من أنفها وفمها. تنحني فاطمة بلهفة، ترفع جذعها، وتوسدها حضنها. تخرج منديلاً وتمسح الدم عن وجهها).

: وحوش.. وحوش كاسرة!

فاطمة

: (واهنة الصوت) بل هم يائسون يا ابنتي.

الزرقاء

: ينبغي أن نقلها إلى البيت، وأن نحضر لها طبيباً.

بسام

: لا.. لم يبق متسع من الوقت. اترك البيت والطبيب، وأصغيا إليّ.

الزرقاء

: لا.. لا يمكن أن نترك هنا. إنك تحتاجين إلى طبيب.

بسام

: لم يعد الطبيب مجدياً. لاتقاطعاني. اسمع، وأخبراً أن الزرقاء

الزرقاء

قالت.. أبصر الناس يتذابحون، والدم يشخب، ويسيل في الطرقات. كلهم يتلاومون ويتذابحون. لا يميّزون قرابة أو

جيرة، ولا يعرفون كيف يحدّدون المخطئ من المصيب.

والقتلى متناثرون كالحشرات في كل مكان. (فرة) اللهم

صلّ على النبي.. أبصر عبد الرحمن الدرويش كالشبح

المهزول، يطلق النار على رأسه، ويسقط على الرض جثة.

(تأتي من بعيد ضجة شجارات عنيفة وأصوات غاضبة. وشيئاً

فشيئاً يمتدّ الشجار إلى أماكن متعدّدة من القرية. كما نسمع

بين حين وآخر رشقات من الرصاص، وصرخات دامية يطلقها

المصابون).

: اللهم صلّ على النبي.. أبصر الحكومة توقف القتال، ولفّ

الزرقاء

الضيعة غطاء من الرعب والخيـب. قُتل من قتل. سُجن من سجن. وهاجر من هاجر. ويلاه.. سيأتي دورك يا بـتـام. في الليل يداهمونك، وإلى سجن بعيد ينقلونك. (فترة) أبصر المجتمع يتلأل بالأضواء. أبصر غرباء يديرونه. ومازالت الأشياء والنفايات تتساقط كالأمطار. والثعبان ييصق فتراناً تملأ الحقول المتروكة. والبيوت المهجورة. (فترة) أبصر نفرأ من أهلنا، ترك الشيطان على وجوههم ختمه وعلامته. وهم يزدهرون ويزدهرون، ومع الغرباء يتحالفون ويعلون. وأما أهلي، والناس الآخرون في قريتي، فإنهم يشقون ويكدحون. أبصرهم يدورون مع أمانهم. أبصرهم يجرون وراء أحلامهم.. وأبصرهم لا يجدون إلا السراب. لاشيء إلا السراب. سراب براق وملون وقاتل.. آخ.. إن قبضة رهيبة تسحق صدري.

(تضع يدها على صدرها. إنها تتنفس بصعوبة. يمزّ رجل يركض بأقصى سرعته، ثم يختفي).

الزرقاء : (غدا صوتها محشرجاً وعجولاً) وأخبراً أن الزرقاء قالت.. لو أنكم لم تستعجلوا موتها، لكان ممكناً أن تبصر في البعيد شمساً تشرق بعد انقشاع هذا الليل الطويل.. الطويل.. أخبرا..

(تغمض الزرقاء عينيها، وبعد شهقة قصيرة تنقطع أنفاسها. ينحني بـتـام وفاطمة فوقها).

بـتـام وفاطمة : (معاً) خالتي.. خالتي..

(يتبادلان النظرات، وينخرطان في البكاء).

فاطمة : رحلت الزرقاء.

بـتـام : قتلوها، كما كانت الأقوام المتوحشة تقتل أنبياءها.

فاطمة : نعم.. قتلوها.

(يتعانق بسلام وفاطمة عند رأس الزرقاء، وهما يجهشان بالبكاء).

من طرف الدرب يظهر رجلان، أحدهما يشهر سكيناً، والآخر يرفع دبوساً. صاحب السكين يتراجع بخطى حذرة، وصاحب الدبوس يتقدم نحوه باحتراس. يشتبكان لحظة، ويقفح كل منهما بتوجيه ضربة لآخر ثم يخرجان، والمطاردة مستمرة بينهما).

: يبدو أن أمامنا ليلاً طويلاً يا فاطمة.

: نعم إنه ليل طويل.

(ما يزالان يتعانقان، وعلى نشيجهما يختفي النظر ببطء شديد).

بسلام
فاطمة

لستار.

المحتويات

رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة	٥
الاغتصاب	٦١
الاغتصاب / ملحق وثائقي	١٦٩
يومٌ من زماننا	١٩١
أحلام شقية	٢٥١
منمنمات تاريخية	٣١٧
طقوس الإشارات والتحويلات	٤٦٧
ملحمة السراب	٥٩٩
المحتويات	٧٥١

عبد الله ونوس

تنهض رؤية سعد الله ونوس، في مسرحه، على قراءة المجتمع العربي في بُناه العميقة وفي سيرورته وصيرورته. انها قراءة أفقية وعمودية، تتلاقى فيها أبعاد الزمن - ماضياً وحاضراً ومستقبلاً - وهي، تبعاً لذلك، قراءة تتجاوز النقد الى نوع من الإحاطة تتضمن نوعاً من إعادة التكوين - لا في ما يتعلق بالمجتمع وحده، بل في ما يتصل أيضاً بالفرد ووعيه.

وهو، في هذا كله، كمثك المبدعين الكبار، يقارب الحياة والأشياء بطريقة جديدة، وجمالية جديدة. وهو، كمثلهم أيضاً، يفتح في نتاجه فضاءً آخر لكتابة تاريخ آخر.

أدونيس

في تلك البيروت، هذه البيروت، قال لنا سعد الله ونوس، انه مزق الخريطة. لا، قال يجب تمزيق الخريطة. لا، قال ان الخريطة ممزقة ويجب لصقها. لا، قال انه الدم. لا، قال ان الملك هو الملك، وبصق على الناتج والصولجان. لا، قال انه «الاعتصاب». قال انها الحرية، قال، وما يزال يقول. وأمسى، في يوم المسرح العالمي، وقف هذا الفلاح لابساً درع الموت ليدعونا الى الحياة. في هذه البيروت، تلك البيروت، في هذه المدن، تلك المدن، رأيت فلاحاً عربياً يحمل قلماً ويحرث الأوراق البيضاء. ورأيت قمحاً وزيتوناً وغنماً. رأيت الكلمات مدورة كالخيز، خضراء كالزيت، مسكرة كالعنب. أمسى، أي غداً، رأيت الكلمات تصير «ملحمة السراب»، لا لأن الكلمات سراب، بل لأنها علامات تكشف السراب، وتدعونا الى رحلة الحياة، بحثاً عن قطرة ماء في هذه الصحراء العربية، المليئة «بمنمنمات» الخيانة. أمسى، أي غداً، كتب هذا الفلاح، ولم يتوقف. كأن شيئاً في داخله، شيئاً ليس هو، شيئاً يخرج من أعماق جهلها، شيئاً اسمه الحب أو الحياة أو حب الحياة، ينبت كشجرة تظل الآمه، وتفرش فوق روحه وسادة القلق، وتدعوه الى قول كل شيء.

الياس خوري